أسلوب السخرية في القرآن الكريم

دكتور عبد الحليم حفني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٨

تقديم

من مجاوزة الحقيقة فيما أعتقد ان يظن باحث فى القرآن الكريم أو فى موضوع مستمد من القرآن أنه قد استنفد ما فيه ، أو استقصى مايوحى به أو يشير اليه، فقد صدق الله تبارك وتعالى حيث يقول « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » وصدق رسوله الكريم حيث يقول عن القرآن « لا يخلق على الرد » ولذلك كان القرآن ولا يزال قريبا دائما من نفوس المسلمين وحياتهم ، وهم دائما على اختلاف عصورهم وأجيالهم ومظاهر حياتهم يشعرون بأنه قريب من نفوسهم ، ومن مقتضيات حياتهم ، وان شيئا من اختلاف العصور أو محدثات الحياة لم يوجد فجوة بينهم وبين القرآن ، وفى هذا المعنى يمتاز القرآن الكريم عن أى كتاب عرفه الناس ، فلاشك أنه لا يوجد كتاب ظل هذه العصور الطويلة التى عاشها القرآن بجوانبه الارشادية والأدبية والتنظيمية يساير نفوس الناس ومقتضيات حياتهم ، بل يشعر المؤمنين والمنصفين دائما أن قلوب الناس وعقولهم ومشاكلهم فى حاجة اليه ، لاشك أنه لا يوجد كتاب بهذه الصفة غير القرآن الكريم ، وحينئذ نجد ان هذا الكتاب الكريم يكاد ينطق بأنه كلام الله ، وليس من كلام البشر ، والا لكان كغيره من الكلام يتأثر باختلاف العصور واطوارها ، واختلاف العقول فى نظرتها اليه ، وفى هذا المعنى نفسه يكمن سبب من أهم أسباب اعجاز القرآن وأبرزها ، ومن هذه الزاوية نفسها يخطىء من يظن أنه ببحثه فى القرآن أو فى موضوع مقتطف منه قد استنفد دلالاته واشاراته ، فمن العجيب ان القرآن نفسه ثابت الكيان ، وثابت فى مسايرته لظروف الناس وأطوار الحياة ، ولكن البحوث حوله ، أعنى البحوث عنه أو عن موضوعات تتصل به غير ثابتة ، بل بعضها مجانب للصواب ، وبعضها الآخر قاصر عن مسايرة الظروف والأطوار ، ومن أمثلة ذلك البحوث التى دونها الباحثون حول اعجاز القرآن ، فاننا نجد الباحثين أنفسهم يعللون دافعهم الى البحث بأنهم وجدوا الباحثين السابقين فى اعجاز القرآن قد أخطأوا أو قصروا عن بلوغ الهدف .

ومما يلفت النظر فى هذا المقام ان البحوث حول القرآن الكريم قد تبدو فى ظاهر الامر غير قليلة ، ولكننا حين نلقى عليها نظرة ولو مستقصية نجد انهـا من القلة بحيث لا تناسب عظمة القرآن ، ولا تعدد جوانبه ، ولا كثرة اشاراته ودلالاته ، فان أغلب ما كتب عن القرآن ينحصر فى نوعين دعت اليهما ضرورة ملحة ، أحدهما التفسير الذى دعا اليه ضعف اللسان العربى بين العــرب ، وانبساط الاسلام فى أراض وشعوب غير عربية ، مما يدعو الى شرح الفـــاظ القرآن ، وبيان شيء من مرامى هذه الألفاظ ، والآخر بحوث حول اعجاز القرآن ، دعا اليها تحدى القرآن نفسه ان يأتى أحد بمثل شيء منه ، ثم وجود أعداء للقرآن يكابرون فى الاقتناع بهذا التحدى ، مستغلين ضعف سيطرة الايمان على كثير من النفوس ، وضعف الذوق العربى من حيث اللغة ، وذلك يجعل لمكابرتهم هذه آذانا صاغية ، ونفوسا مهيأة ، فوجد العلماء أنفسهم مضطرين الى الدفاع عن تحدى القرآن ببيان ما يتاح لهم فهمه وتذوقه من وجوه اعجاز القرآن ، أما فيما عدا هاتين الناحيتين فلاشك ان البحوث حول القرآن قليلة قلة واضحة ، وقاصرة قصورا أوضح ، فان فى القرآن كل ما تحتاج اليه حياة الناس فضلا عما تحتاجه قلوبهم وأرواحهم ، وفيه كل ما يصلح به اجتماع البشر وسياستهم واقتصادهم ، وما فى القرآن من هذه الجوانب ليس مجرد اشارات أو تلميحات ، وانما هو أسس متكاملة منظمة ، لا تحتاج الا الى حسن الفهم ، وحسن التفصيل ، وحسن التطبيق ، فلاشك ان علماء المسلمين وباحثيهم قد قصروا فى افراغ شيء من جهودهم لبيان هذه الجوانب فى كتابهم الكريم ، وقد كان من نتيجة هذا التقصير ان ظل غير المسلمين لا يرون فى القرآن — على أحسن فروضهم — الا مجرد كتاب روحى يتعبد به المسلمون ، بل ان كثيرا من المسلمين أنفسهم ممن لم تتح لهم ثقافة دينية عميقة لا ينظرون الى القرآن غير هذه النظرة ، وأولئك وهؤلاء لا يعلمون ان القرآن لم ينزل ليكون مجرد طقوس دينية ، و مجرد طريق روحى يسلك نهجه المؤمنون به ، وانما نزل ليكون دستورا كاملا للحياة الكاملة بكل جوانبها الروحيـــة والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية ، وهذه حقيقة لا ينبغى ان ينازع فيها منصف ، لا لمجرد أنها حقيقة ، ولكن لأنها تجربة عملية طبقت لا فى سنوات معدودة ، ولا فى عصر واحد ، فخلقت من الأمة التى طبقتها أمة لا يلتوى اى تاريخ فى الحكم بأنها بلغت أسمى ما ينتظره الناس من تدين روحى ، وأسمى ما ينتظرونه من خلق فردى واجتماعى ، وأسمى ما ينتظرونه من مجد سياسى وعسكرى ، ولم يكن لهذه الأمة التى بلغت ما بلغته من دستور غير القرآن ، وسنة الرسول الكريم على انها بيان وتفصيل للقرآن · ولكن الصلة بين هذه الأمة والقرآن كانت نزعة الايمان الذى يجعلها تحسن الفهم عن القرآن وعن السنة الموضحة له ، وكان هذا الفهم المباشر يغنيها عن بحث الباحثين فى القرآن ، لأنها تفهم عنه ما يفهمه الباحثون · أما حيث ضعفت نزعة الايمان ، وضعف بالتالى الفهم المباشر عن القرآن فحينئذ يبرز واجب علماء الاسلام وباحثيه فى ان يملأوا هذه الفجوة التى باعدت بين الناس والفهم المباشر عن القرآن ببحوثهم عن هذه الجوانب الكثيرة

من القرآن الكريم حتى يظل الناس مؤمنين بحاجة نفوسهم وحياتهم الى القرآن ، وأن الله سبحانه لم يفرط حقا فى كتابه الكريم من شىء يحتاج اليه عباده فى دينهم أو دنياهم .

ولن يحاول الدفاع عن علماء الاسلام وباحثيه أن يلتمس عذرا حقيقيا ، وهو صعوبة الكتابة عن القرآن على نفس المؤمنين به ، لا لذات الكتابة ، بل لتهيبه وخشية الخطأ فى فهمه ، أو فى التعبير عنه . ولست أشك فى أن هذا من أهم الأسباب التى تصرف كثيرا من القادرين على البحث عن الاتجاه ببحوثهم نحو القرآن ، ايثارا للسلامة من الله ومن الناس ، فان شعور المؤمن بالتهيب من الكتابة عن القرآن شعور لا يقدره الا من يتعرض لهذه المقاولة ، لأن خوف الخطأ فى أى موضوع غير القرآن قد يكون أمره سهلا حتى ولو كان الموضوع متصلا بالدين ، فمن رحابة الاسلام وحفزه الى التفكير والبحث أن وضع رسوله الكريم هذا الشعار الذى يحمى الباحثين فى تقريره صلى الله عليه وسلم أن المجتهد اذا أصاب فله أجران ، واذا أخطأ فله أجر واحد ، ولكن هذه الرحابة التى يشعر بها الباحث فى تفاصيل الدين وجزئياته ، لا يشعر بها حينما يتعرض لقاعدة الاسلام وأساسه وهو القرآن الكريم ، وقد يكون من الخير للاسلام ، بل قد يكون من حماية الله لكتابه الكريم وتعهده بحفظه أن يصرف عنه بعض الباحثين الذين قد تثير بحوثهم حول القرآن ضبابا يمكن أن يؤثر فى وضوح رؤية الناس للقرآن على حقيقته الناصعة الشفافة ، ولكن مما لاشك فيه أن فى المسلمين من العلماء والباحثين من يفهمون عن القرآن أكثر مما يدركه سائر الناس ممن لم يتح لهم من العلم والثقافة الدينية أو حسن الفهم ما أتيح لهؤلاء العلماء ، وهؤلاء هم المطالبون بأن يبرزوا للناس ما علموه وما فهموه ، والا يكتموا ما أنعم الله به عليهم من علم وفهم ، حتى يملأوا هذه الفجوة التى باعدت بين القرآن وحياة الناس ، وحتى يعلم الناس أن القرآن نهاية المطاف لكل من يبحث عن خير الدنيا وخير الآخرة .

وقد كان موضوع هذا البحث ، وهو أسلوب السخرية فى القرآن جانبا من الجوانب الواضحة فى القرآن الكريم ، ومع ذلك فلا أعلم أن أحدا من الباحثين قد تناوله قط ، حتى ولو فى مقالة ، واذا كانت الكتابة عن القرآن عامة من الصعوبة بما أشرت اليه ، فان الكتابة عن جانب منه لم تطرقه البحوث أشد صعوبة وأعمق تهيبا ، فان الشأن فى البحوث العلمية أن يبنى بعضها على بعض ، ويستفيد بعضها من بعض ، أما البحث الذى لا يجد صاحبه أساسا يبنى عليه ، ولا أفكارا تتصل ببحثه يستفيد بها ، فمن الواضح أنه يعانى مشقة يحدد ثقلها مدى أهمية البحث . ومما يزيد فى ثقل هذه المشقة أن تضاف اليها مشقة نفسية تنبع من الشعور بأن الموضوع متصل بقاعدة الاسلام . كتاب الله .

ولا أظن أنه من سخف القول أو لغو الحديث أن أشير الى بعض الظروف الخاصة التى صاحبت كتابة هذا البحث ، فقد يكون لهذه الظروف أثر فى البحث

نفسه وفي الحكم عليه ، فمن هذه الظروف انني وان كنت قد أعددت له ما يحتاج اليه ، الا أنني كتبته مغتربا عن الوطن في ظروف لا يتهيأ فيها كل ما ينبغي ان يتهيأ للباحث ، ومن هذه الظروف مشيئة الله ان يصاحب كتابة هذا البحث ظرف من الظروف التي تنشأ في حياة بعض النــــاس فتثقل على نفوسهم ، وتلح على قلوبهم الحاحا عنيفا ، وما كنت أقطع في الكتابة شوطا حتى أحسست اشتداد وطأة هذا الظرف العنيف ، وحينئذ رأيت فيما يرى النائم بعض العلماء الصالحين كأنهم يعينونني في البحث ، ومعهم من يفسر بأنه من الملائكة وقد كان أشــدهم عونا لي ، وعندئذ أحسست احساسا واضحا بالعون ، وبأن ثقل الظروف اخذ ينجاب عني بصورة تكاد تكون مفاجئة ، ولست أسوق هذا الحديث لمجرد بيان ما صاحب البحث من مشقات ، فالشأن في البحوث العلمية ان تقوم على الجهــــد والمشقة ، وانما عنيت الاشارة الى ظروف قد تكون جزءا ولو غير كبير من البحث نفسه .

وأما عن موضوع البحث فيمكن اجمال دوافعه واتجاهاته في نقاط :

النقطة الأولى عن الدافع الى موضوع البحث ، وقد كان أساسه شعوري بأن القرآن الكريم يجب ان توجه ليه جهود ممن تتيح لهم ثقافتهم ان يحسنوا فهمه ، وأن يحسنوا الحديث عنه ، ثم آثرت الحديث عن هذا الجانب من القرآن لأكثر من سبب ، منها أن هذا الجانب مع وضوحه في القرآن لم يطرقه فيما أعلم باحث قط كما أشرت ، ومثل هذه الموضوعات التي لم تطرق ، أو لم توضـــح معالمها جهود الطارقين أرى دائما انها أجدر بأن تفرغ فيها جهود الباحثين مهما اقتضت من جهد ، وانني لأرى مما يشبه العبث أن يستنزف الباحث جهده في موضوع هو في غنى عن الجهد ، اما لأن جهودا أخرى قد استوعبته أو كادت ، واما لأنه لا يرجى من الموضوع جديد يستحق هذا الجهد ، ومنها أن المســـلمين وخاصة في هذه الآونة في أشد الحاجة الى ايقاظ كل ذرة في كيانهم لينظروا الى الأخطار المحيطة بهم من كل صوب ، والى الأعداء المتربصين بهم في كل حدب ، ومثل هذا الموضوع من شأنه – بحكم طبيعة السخرية والدافع اليها – ان يكون منظارا يرى المسلمون من خلاله أعداءهم وكثيرا من أساليب عداوتهم ، فان السخرية بطبيعتها أسلوب عدائي ، وحين يستعملها القرآن فمن الواضح انه يستعملها ضد أعدائه ، وحين يمد المسلمون أبصارهم وراء سخرية القرآن في اتجاهها الى هدفها ، هنالك يبصرون أعداءهم في وضوح ، ويبصرون أيضا كثيرا مما يدبره لهم هؤلاء الأعداء ، مما تناولته سخرية القرآن ، ووجهت سهامها نحــــوه .

والثانية عن اتجاهات الموضوع ، وتشمل بصفة عامة ثلاث نواح ، أولاها حديث عن طبيعة السخرية من حيث الأغراض التي تحققها أو تستخدم فيها وذلك حديث الفصل الأول من البحث ، والثانية حديث عن دواعي سخرية القرآن ، من

حيث الأسباب والملابسات التي تجعل المسلمين يشعرون بقيمة سخرية القرآن ، وما تحققه لهم ولدينهم من ذود وحماية وتحصين ، ثم تقويم السخرية من حيث النظرة اليها لا على أنها مجرد تقريع أو تهكم متناثر أو متفرق فى القرآن الكريم ، وانما على أنها خطة منظمة هادفة ، يمكن أن نسميها بلغة العصر سلاحا من أسلحة الحرب النفسية ، ويتعرض لهذا الحديث الفصلان الثانى والثالث ، والناحية الثالثة عن طابع سخرية القرآن ، وما تتميز به بحيث يكون غالبا عليها ، ويشمل هذا الحديث الفصل الرابع عن طابع سخرية القرآن ، ويرتبط به الفصل التالى له عن سخرية القرآن والبيئة ، وانما لم يندرج فيه ، لأن ملامح البيئة وان كانت واضحة فى سخرية القرآن ، الا أنها ليست طابعا ملازما لها ·

والنقطة الثالثة عن أهداف سخرية القرآن ، من حيث النواحى التى سخر منها القرآن ، أو الأعداء الذين صب سخريته عليهم ، ولم يكن حديثى فى هذه النقطة استقصاء لكل ما استهدفته سخرية القرآن ، وانما عرض لأبرز هــــذه الأهداف ، وأغلبها أيضا ، وأغلب النواحى التى استهدفتها سخرية القرآن نواح اجتماعية ، تتمثل فى الفصل السادس عن السخرية الاجتماعية ، أما الأعــداء الذين استهدفتهم سخرية القرآن فأبرزهم قادة الكفر واليهود والمنافقون والمشركون وقد خصصت لكل منهم فصلا محددا أبحت لنفسى فيه التوسع قليلا ، موضحا فى هذا التوسع صلة كل نوع من هؤلاء الأعداء بالاسلام ، ومدى خطره عـــلى الاسلام بوصفه دينا ، وعلى المسلمين باعتبارهم أمة ممثلة لهذا الدين وذائدة عنه ، وقد اضطرتنى الى هذا التوسع ضرورة التمهيد لسخرية القرآن ، حتى تتبين مدى استحقاق الأعداء لها من ناحية ، ومدى اصابتها الهدف من ناحيـــة أخـــرى ·

والنقطة الرابعة تتمثل فى ملاحظات يشعر بها الباحث فى سخرية القرآن ، وأولها أن السخرية مهما يكن طابعها أو أسلوبها فهى من حيث الهدف نوع من الهجاء أو نوع مماثل للهجاء ، وحيث كان الهجاء سلاحا مهما يتراشق به المسلمون وأعداؤهم ، وحيث كان هو والسخرية من واد واحد لزم أن نلقى نظرة مقارنة بين الهجاء وسخرية القرآن ، مع التمهيد لها ببيان أهمية الهجاء حتى تتبين من خلال ذلك قيمة السخرية وأهمية الدور الذى تؤديه ، وقد تمثل هذا الحديث فى الفصل الحادى عشر عن السخرية والهجاء ، ومن هذه الملاحظات النهج الشعبى الذى يبدو فى كثير من مواضع سخرية القرآن ، وقد كان حديثه فى فصل خاص أيضا يلى الفصل السابق ، ومن الملاحظات أيضا أن سخرية القرآن حينما تتجه الى عدو فانها تراعى طبيعة ذاته ، ونوع نفسيته ، وحينئذ تكون أدق فى اصابة الهدف ، حيث تحدد نقطة الضعف التى تسهل منها اصابة العدو ، وأهم من ذلك أن يشعر العدو أن هذه السخرية صادرة من عليم بطبعه ودخيلة نفسه ، مما يجعل للسخرية حينئذ وقعا بليغا ، وحيث كان هذا الحديث غير مقصود لذاته ، وانما لبيان أنه من الملامح الواضحة فى سخرية القرآن ، لذلك لم يكن فى حاجة الى بسطه

او تفصيل ، حيث ان مثله يصلح أن يكون بحثا مستقلا ، وقد كان حديثه في فصل خاص أيضا هو سخرية القرآن والتحليل النفسي ، واخيرا فان مما يأخذ انتباه الباحث في سخرية القرآن هذا الاشعاع القوى الذى تفيض به الألفاظ ، حتى ان اللفظ الواحد يكاد السياق أحيانا يجعله معنى مستقلا ، وصورة وافية ، وقد كان هذا الحديث ختام البحث .

وأما بالنسبة للآيات التى استشهدت بها فتنبغى الاشارة فيما يتعلق بها الى ناحيتين ، احداهما أن هذه الآيات لا تعنى أنها كل ما فى القرآن الكريم من مواضع السخريه ، فليس الاستقصاء هدفا للبحث ، وانما هدفه بيان سخرية القرآن على ضوء النقاط الآنفة الذكر وما ارتبط بها من ملاحظات ، والأخرى من حيث الكيف ، أعنى أن أقول ان السخرية مهما تكن واضحة فهى ليست شيئا ماديا أو محسوسا يمكن لكل انسان أن يدركه وأن يحدد مقداره وحجمه ، بل ادراك السخرية والاحساس بها أمر عقلى نفسى بحيث يتفاوت الناس فيه بمقدار تفاوتهم فى قواهم العقلية ، وفى أمزجتهم وتكوينهم الوجدانى ، فقد يحس شخص فى كلام ما بفكاهة أو سخرية لا يحس بها شخص آخر ، وقد يكون احساس شخص فى كلام ما بدرجة من السخرية تختلف عن الدرجة التى يحس بها شخص آخر ، وعلماء النفس لا يختلفون فى ان الاحساس بالفكاهة عامة — ومنها السخرية — يخضع لدرجة الذكاء ، كما سيأتى فى حديث الفصل الاول ، فكلما قوى الذكاء قوى الاحساس بالفكاهة ، والعكس بالعكس ، ويلاحظ علماء النفس أيضا ان الحس الفكاهى علامة من علامات النضج فى الشخصية ، ومعنى ذلك ان درجته تابعة لدرجة النضج فى الشخصية أيضا ، وحينئذ نجد التفاوت فى الاحساس بالسخرية ، وتذوقها كبيرا ، حيث كان التفاوت بين الناس فى الذكاء ونضج الشخصية كبيرا ، على أنه من المعروف أن الشعوب من حيث هى تتفاوت فى الحس الفكاهى وفى المقدرة الفكاهية ، ومن ذلك الشهرة التاريخية للشعب المصرى بقوة الحس الفكاهى ، والتعبير عما يعانيه بالفكاهة والسخرية ، ونتيجة لذلك فليس بالغريب ألا يحس شخص بالسخرية فى بعض ما استشهدت به من آيات السخرية وليس غريبا أيضا أن يحس شخص بالسخرية فى هذه الآيات أو فى آيات أخرى أقوى مما أحسست به ، ولكون السخرية أمرا غير مادى ولا محسوس ، ولوجود هذا التفاوت فى الاحساس بها ، لم أعمد الى التركيز على توضيح ماتتضمنه الآيات من سخرية ، فان التوضيح غير مجد اذا كان القارىء فاقدا للاحساس بالسخرية ، وهو غير مجد أيضا اذا كان القارىء يحمل هذا الاحساس ، حيث يكون التوضيح حينئذ من باب تحصيل الحاصل كما يقولون ، ولذلك تركت هذا الجانب لحس القارىء وتذوقه ، ولم أعمد الى التوضيح الا فيما يتضمن اشارات تحتاج الى دقة وقوة ملاحظة .

ومن الحق أن أقول ان كثيرا من فصول البحث يصلح ان يكون بحوثا مستقلة

قد تكون أوفى من حديثها فى البحث ، ولكن تقييدها بزاوية معينة هى زاوية ارتباطها بالسخرية لا يتيح للباحث البسطة أكثر مما يتيحه هذا النطاق ·

وأعود الى القول بأن فى القرآن الكريم كثيرا من الجوانب التى تحتاج فى ابرازها الى جهود العلماء والباحثين ، ومع أن هذا واجب لذاته على العلماء والباحثين أن يؤدوه للناس ، فان مما يزيد فى قوة هذا الواجب ، وفى الحاجة اليه أن حياة المسلمين اليوم ، وصراعهم الحيوى مع أعداء الاسلام فى أمس الحاجة الى أن توجه الأبصار والقلوب والجهود الى كتاب الله الذى كان ولا يزال وسيظل قلب الاسلام بوصفه دينا ، وقلب المسلمين بوصفهم أمة ، ويرحم الله العقاد حيث يقـــول فى ملاحظاته التاريخية ان القرآن كان له الفضل فى جمع نفوس العرب والمسلمين حوله ، وفى حمايتهم من الذوبان فى الأمم الغازية والمستعمرة ·

وفى ختام الحديث لا أملك أن أقول عن هذا البحث انه واف أو مجرد عن الخطأ ، وانما أرجو ذلك رجاء أعتقد أنه رجاء غير بعيد ، وفى كل حال أسأل الله جل علمه الرضا والتوفيق ·

ربيع الثانى ١٣٨٩

يونيه ١٩٦٩

د · عبد الحليم حفنى

السخرية

« سخر الله منهم ولهم عذاب اليم » (١)

١ – القرآن والسخرية :

قبل أن نتحدث عن السخرية ذاتها يلزم أن نتحدث قليلا عن وضع القرآن الكريم بالنسبة اليها ، لا من حيث احتواؤه عليها فذلك أمر مفروغ منه ، ولكن من حيث ان السخرية بالمعنى المفهوم لها قد ينظر اليها بعض من ضاقت آفاق تفكيرهم من المؤمنين بالقرآن ، على أنها قد لا تتفق مع اجلالهم للقرآن من حيث انه كلام الله . فقد لا يسيغ بعض هؤلاء نسبة السخرية بمعناها المفهوم الى الله سبحانه ، ولكنهم يغفلون عن أن القرآن مع أنه كلام الله ، ومع أنه مهما تعددت أهدافه واعتباراته ، الا انه مما لاشك فيه ان من بين هذه الاعتبارات أنه يعتبر « الناطق بلسان المسلمين » والممثل لحالهم بالنسبة الى أعدائهم ، واذ كان المسلمون وأعداء الاسلام حزبين متنافرين متخاصمين أبدا ، فان القرآن هو الممثل لحزب المسلمين ، والناطق بلسانهم ، والمدافع عنهم ، والمهاجم لأعدائهم ، ومن البديهي ان القرآن لا ينطق بلسان المسلمين ولا يدافع عنهم باعتبارهم أشخاصا أو جماعة، وانما بوصفهم ممثلين للعقيدة الاسلامية ، ومن هذه الزاوية فليس هناك اختلاف أو تباعد بين عداء القرآن وعداء المسلمين لأعداء العقيدة الاسلامية ، لأن القرآن لا يعتبر ممثلا للمسلمين الا فيما يتعلق بالاسلام بوصفه عقيدة وشريعة .

ولكن النقطة التي تعنى هذا الموضوع هي أن التعبير عن بعض الصـــور الساخرة التي ساقها القرآن الكريم مما سيأتي خلال البحث ، قد يتردد البعض في تصور نسبته الى الله سبحانه ، وهنا نقول ان القرآن بصفته ناطقا بلسان المسلمين يجعل هذه الصورة كأنها صادرة من المسلمين أو ممثلة لموقفهم ، ويركز القرآن على هذا المعنى أحيانا لأن في هذا التركيز هدفا مقصودا ، وهو أن القرآن في كل اتجاهاته يحشد كل أسلحته وطاقاته ليعزز مركز المسلمين ويدفعهم الى

(١) ٧٩ سورة التوبة .

النصر ، وفي الوقت نفسه يحطم مركز أعداء الاسلام ويدفع بهم الى الهزيمة او الشعور بها أو توقعها ·

والمسلمون قد لاقوا في سبيل تمسكهم بالاسلام وحمايتهم له ودفاعهم عنه ضروبا من المشقة والعناء ، وضروبا من الاضطهاد والايذاء ، وضروبا من كل انواع البلاء ، وكل ذلك ثقيل الوطأة عنيف الاحتمال ، خاصة وان الذين يدافعون عن عقيدة ، من شأنهم ألا يهدفوا الى مغنم أو كسب شخصي ، وانما يدافعون ويضحون لمجرد العقيدة والايمان بها واذا كان المغنم الشخصي حافزا للاحتمال والتضحية في سبيل الوصول اليه ، فان الدفاع والتضحية من أجل العقيدة لمجرد الايمان بها في حاجة الى حوافز معنوية وروحية ، ومن هنا يأتي دور القرآن الكريم في تدعيم مركز المسلمين في خصومتهم وحربهم لأعداء الاسلام ، وليس من شك في أن القرآن كان اقوى سلاح معنوي اعتصم به المسلمون الأولون فحقق لهم ما يشبه المعجزات أو المتناقضات ، فجعلهم يشعرون كأنهم كثرة دافقة وهم قلة قليلة ، وقوة غالبة وهم الضعفاء والمستضعفون ، وأصحاب النعمة المحسودة وهم الهزالى المحرومون ، بل ظل القرآن في تاريخ الاسلام كله حتى اليوم ، اقوى سلاح اعتصم به المسلمون فجمعهم حول راية واحدة ، وحمى أمتهم من الذوبان في الامم الطاغية والمستعمرة (١) · والقرآن نفسه يكرر كثيرا أن من أبرز اهدافه أن يحشد كل الأسلحة المعنوية للمسلمين ليقوى من عزمهم في صراعهم الرهيب مع الأعداء ، وليحطم كل الأسلحة التي يصوبها أعداء الاسلام نحو المسلمين ، كقوله تعالى « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا » (٢) فالقرآن يهدف الى شفاء نفوس المؤمنين لا من حيث العقيدة لأنهم مؤمنون ، وانما من نواح أخرى منها ما الحقه بها ايذاء الأعداء لهم وتحاملهم عليهم وكذلك يقرر القرآن هذا المعنى بالنسبة للنبي وللمؤمنين معا حيث يقول « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (٣) وفيما يتعلق بموضوعنا ، فان أعداء الاسلام قد اتخذوا من السخرية سلاحا نفسيا رهيبا يريدون أن يحطموا به عزم المسلمين ، ويزعزعوا به من ثقتهم في أنفسهم وكيانهم وعقيدتهم ، ولكن القرآن يتصدى لهم بسخرية أبلغ وقعا ، وأشد تحطيما ، وأنفذ سهما ، كما يقول القرآن في قصة سخرية بعض المنافقين من صدقتي عبد الرحمن بن عوف وأبي عقيل الأنصاري « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » (٤) ·

---

(١) انظر الاسلام في القرن العشرين عباس العقاد ·

(٢) ٨٢ سورة الاسراء ·

(٣) ١٢٠ سورة هود ·

(٤) ٧٩ سورة التوبة انظر تفسير الكشاف للزمخشري في هذه الآية ·

فالقرآن حينما ينزل الى مستوى البشر ليمثلهم وينطق بلسانهم مع احتفاظه بالروح الالهية يكون كأنه أسلوب البشر ، وكأن أسلحته أسلحة البشر ، فلو قد اراد الله ان يكون هو الخصم للكافرين لما كان سبحانه في حاجة الى من يناصره او ينوب عنه ، ولما كان بالمؤمنين حاجة الى الجهد والعناء ، ولا الى الحـــروب والتضحيات ، ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون الايمان به امتحـــانا يجتازه المؤمنون ليمتاز الخبيث من الطيب ، والقوى من الضعيف ، ولتستبين درجة كل مؤمن وموضعه من الايمان ، كما يقول سبحانه « ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » (١) ، واذن فحينما يسخر القرآن من أعدائه ، فليس من اللازم أن تكون السخرية ممثلة لذات الله سبحانه ضد أعدائه ، بل قد نراها تنزل الى مستوى البشر لتمثلهم وتنطق بلسانهم وتحمل طبيعتهم وغرائزهم ، على انه ليس هناك ما يمنع من نسبة السخرية الى الله سبحانه ، يقول الزمخشري « فان قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لانه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب .. فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت معناه انزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزئ غرضه .. طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به » (٢) .

٣ ـ ما السخرية ؟

السخرية في مدلولها العرفي واضحة محددة لا تلتبس بمعنى آخر ، ويدور في فلكها ، بل يؤدي معناها عدة الفاظ أبرزها التهكم والاستهزاء ، ولاشك أن السخرية أسلوب وسلاح عدائي ، مهما كانت دوافعها ، ومهما كان مقامها ، ومهما صغرت درجتها في العداء أو كبرت ، ويتميز عن غيره من أساليب العداء بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها .

وحين نذهب الى حديث الباحثين عن السخرية في تحليلها وطبيعتها نجد أن علماء النفس لم يفردوها بحديث خاص ، وانما يبحثونها كجزء من ظاهرة عامة في الطبيعة البشرية . فيقولون مثلا « الابتسام والضحك والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا ان هي الا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة ، وكلها انما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة ، التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس ، فتلتمس في اللهو ترويحا عن نفسها ، وتبحث في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها ، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذي كثيرا ما يثقل كاهلها » (٣) وبناء على هذا يجملون هذه الأنواع وما يشابهها ويجعلونها ظاهرة واحدة ، ويجعلون الضحك عنوانا لها ، لأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع ، وهو جزء أساسي من هدف كل هذه الأنواع ، وقد استثارت هذه الظاهرة اهتمام الفلاسفة

(١) ٤ سورة محمد .

(٢) الكشاف للزمخشري ١/٦١ ، الآية ١٤ البقرة .

(٣) ٨ سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم .

والباحثين ، فعنوا ببحثها ودراستها منذ أفلاطون وأرسطو حتى الباحثين المعاصرين (١) وبعض الباحثين لا يخفى أنها ظاهرة معقدة من حيث تحليل طبيعتها ، ولكنهم مع ذلك وبملاحظة الظاهرة في صورها المختلفة ، ودراسة دوافعها واهدافها في مجالات وحالات متعددة ، يصلون الى نتائج ذات قيمة ، من الناحية النفسية والناحية الاجتماعية .

فهم مثلا يرون أن الضحك ـ الذى جعلوه عنوانا للظاهرة من حيث هى ـ ناشىء فى الأصل عن الشعور بالانتصار فى معركة جسمية بدائية (٢) ، فهذا البعض من علماء النفس يرى ان الضحك نشأ عن معنى وأصل بدائى ، ولكن يحصر هذا الأصل فى الشعور بالانتصار ، فالبدائى كان يضحك عندما يشعر أنه انتصر فى معركة جسمية ، وكان علماء النفس أو البعض منهم يرى ان الضحك صار بعد ذلك تقليدا ، وهذا البعض يصر على أن مبعثه الأساسى هو الشعور بالانتصار ، كما يقول مارسل بانيول « ان الضحك نشيد انتصار لأنه تعبير عن استعلاء وقتى يكتشفه فى نفسه على حين فجاة ذلك الشخص الضاحك حينما يتحقق من تفوقه على الشخص الذى يسخر منه » (٣) ويدعم هذا الفريق رأيه فى ان هذه الظاهرة فى جملتها ومنها السخرية كما سبق انما تعبر عن الشعور بالانتصار فى أى صورة من صور الانتصار ، كالشعور بالتفوق على الغير فى مجال ما ، أو التعالى عن الغير كما يقول توماس هوبز « الأصل فى الضحك هو شعورنا بالتفوق أو الاستعلاء أو الامتياز » (٤) وقد تابع هذه النظرية كثير من الباحثين مثل ديكارت واسبينوزا وبودلير واستندال وبين وجروس ومارسل بانيول وغيرهم (٥) ، وحتى حينما يقسم علماء النفس هذه الظاهرة الى أكثر من نوع ، فان المعنى السابق وهو الشعور بالانتصار أو التفوق يلابس كل نوع عندهم ، فنراهم يقولون « الضحك نوعان ، ايجابى وهو الضحى المنعش ينبعث عن شعور المرء بتفوقه على خصمه .. وسلبى وهو ضحك حزين متجهم ، وهو المتولد عن الشعور بنقص الآخر أو ضعفه أو ضعته . أعنى أنه ضحك الاحتقار والازدراء (٦) فالنوع الأول عندهم صريح فى أن مصدره الشعور بالانتصار المباشر ، وكذلك النوع الثانى يتضمن هذا المعنى أيضا ، لأن الشعور بنقص الآخرين أو ضعفهم أو ضعتهم يتضمن احساس التفوق والتعالى عند من يشعر نحو الآخرين هذا الشعور ، وواضح ان المعنى الثانى مقصود به السخرية ، لأن « ضحك الاحتقار والازدراء » هو معنى السخرية .

---

(١) انظر المرجع السابق ٨ .
(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ١٣٣ .
(٣) المصدر السابق ١٣٣ .
(٤) المصدر السابق ١٢٢ .
(٥) المصدر السابق ١٢٢ .
(٦) المصدر السابق ١٢٣ .

وكذلك يعمل الباحثون الذين يقسمون هذه الظاهرة باعتبار مصدرها الانفعالي ، فيرون ان نوع الفكاهة يخضع لنوع الانفعال الذي أثارها ، ومن ذلك ان « انفعال الغضب يولد الفكاهات العدوانية والسخرية » (١) فالسخرية اذن نابعة من انفعال عدواني بين خصمين ولكن الخصم الأقوى والأقدر منهما هو الذي يستطيع أن يسخر من الآخر ، وهذا أيضا تأييد لأن الضحك ــ عنوان السخرية ــ مظهر من مظاهر الانتصار والتفوق ·

وبودلير يؤيد هذه النظرية في مقارنة بين الانسان وغيره من أنواع الحيوان ، فيرى ان الانسان انما اختص بالضحك لأنه متعال متكبر ، وان الحيوانات الأخرى لم تحتج الى هذه الظاهرة لأنها لا يراودها الغرور والتكبر فيقول « لو زال البشر ما بقى موضع للكوميديا ، لأن الحيوانات لا تعتقد في نفسها انها أرقى من الجمادات ·· الانسان يضحك لأنه مغرور متكبر يظن أنه سيد الخليقة » (٢) ·

فالسخرية اذن أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة ، ولكن هذا الأسلوب لا يتاح نفسيا ولا واقعيا الا لمن كان بيده زمام الموقف والذي يشعر بأنه القوي القادر على الانتصار ·

ويضيف بعض علماء النفس الى هذا التحليل نواحي أخرى يرونها ملابسة للفكاهة ، منها أن الفكاهة الساخرة من شأنها ان تتجه دائما الى العموم ، فتعني مثلا بنقد مثالب في المجتمع ، أو نقائص تشيع شيوعا ملموسا ، بخلاف الروايات الجادة الحزينة (المأساة) فمن شأنها أن تتجه الى النواحي الفردية ، فتعالج أمورا خاصة فردية ، أما الروايات الساخرة ، فحتى ان تمثلت في فرد أو بدا في ظاهرها انها تعالج أمرا شخصيا فانما القصد الحقيقي بها جعل هذا الفرد أو الأمر الشخصي نموذجا لظاهرة عامة أو نواح شائعة في المجتمع كما يقرر ذلك برجسون في بحوثه (٣) ويضيف الى نظريته هذه ان من سمات الفكاهة الساخرة (الملهاة) انها تخاطب العقل لا العاطفة بخلاف التصوير الجاد الحزين (الدراما) فانه يخاطب العاطفة ، لأن الملهاة لو خاطبت العاطفة لما كان هناك مجال للضحك من مضمونها (٤) ·

على ان بعض علماء النفس يضيفون الى ما سبق سمة من سمات هذه الظاهرة ، وهي ارتباطها الوثيق بالذكاء ، فيقولون ان هذا الارتباط واضح بين الحس الفكاهي والذكاء ، فكلما ارتفعت نسبة الذكاء كان المجال أرحب لوجود « الحس الفكاهي » ، وعلى العكس يكون الحس الفكاهي ضعيفا أو فاترا كلما انخفضت نسبة الذكاء (٥) بمعنى ان الاحساس بالفكاهة يدور مع الذكاء قوة وضعفا ·

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٢٢٢ ·

(٢) المصدر السابق ٢١٨ ·

(٣) أنظر المصدر السابق ١٩٦ ·

(٤) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ١٩٥ ·

(٥) أنظر المصدر السابق ٢٠٧ ، ٢٠٨ ·

ويضيفون ايضا معنى آخر ذا أهمية ، وهو ان الفكاهة والضحك الناتج عنها من الوسائل المهمة فى التجاوب الاجتماعي بين الأفراد ، بمعنى ان روح الفكاهة من شأنها أن تجتذب النفوس وتقارب بين العواطف فيقولون « ولو اننا أنعمنا النظر في الدلالة الاجتماعية للضحك لوجدنا ان من شأن الضحك باعتباره تعبيرا عن الانفعال أن يجتذب الينا انتباه أشباهنا من الناس ، وأن ينتزع لنا منهم الاستجابة الصحيحة الملائمة » (١) فالسخرية مثلا باعتبارها نوعا من الفكاهة من شأنها أن تجتذب انتباه الآخرين وتعاطفهم ، وهي بالطبع لا تجتذب تعاطف من وقعت عليه السخرية ، وانما تجتذب الذين يشاركون الساخر فى شعوره وموقفه نحو من وقعت عليه السخرية ، لانها تهيىء لشركاء الساخر سلاحا يهمهم جميعا أن يوجهوه نحو الطرف الآخر ، ويزيدون هذا المعنى توضيحا بقولهم « ان الضحك يقوم بوظيفة المصحح الاجتماعي ، لأنه يعمل على صيانة الاستقرار الفكرى والاتحاد العاطفى فى المجتمع الواحد ضد شتى عوامل التنافر أو المفارقة او الابتداع أو الاغراب ، فالضحك عندهم لا يؤدى وظيفة الجزاء الاجتماعي فحسب ، وانما هو يعمل أيضا على تقوية الروح الجماعية والتعاطف الجمعى بين أفراد الجماعة الواحدة » (٢) .

٣ ـ مصادر السخرية :

واعنى بها الأمور التى من شأنها أن تثير الساخر الى السخرية وتصلح ان تكون اسبابا للسخرية ، وابرز ما يقرره علماء النفس من هذه المصادر أو الأسباب محاولة تخفيف الآلام ، فهم يرون ان الدافع الأساسى للفكاهة بصفة عامة انما هو محاولة تخفيف الألم الذى يتعرض له الناس فى حياتهم المليئة بالآلام ، من باب التعويض النفسي أو نشدان الشيء المفقود ، كما يقول نيتشة « انني لأعرف تماما لماذا كان الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يضحك ، فانه لما كان الانسان هو أعمق الموجودات ألما فقد كان لابد له أن يخترع الضحك ، واذن فان أكثر الحيوانات تعاسة وشقاء هو بطبيعة الحال أكثرها بشاشة وانشراحا » (٣) . وكذلك يقرر بيرون هذا المعنى فيقول « ما ضحكت لمشهد بشرى زائل الا وكان ضحكى بديلا أستعين به على اجتناب البكاء » (٤) ويلح علماء النفس على تأكيد هذا المعنى فيقولون عن أنواع الفكاهة ومن بينها السخرية « ان هى الا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة ، وكلها انما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة التى سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس فتلتمس فى اللهو ترويحا عن نفسها وتبحث فى الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب

---

(١) المصدر السابق ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ٧٢ .

(٣) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٨ .

(٤) المصدر السابق ٨ ، ٩ .

(٥) المصدر السابق ٩ .

من الواقع الذى كثيرا ما يثقل كاهلها » (٥) • ويدعم علماء النفس والفلاسفة هذه النظرة الى مصدر الفكاهة فيقولون ايضا « ولو أنعمنا النظر فى الموقف الفكاهى بصفة عامة لتبين لنا بوضوح ان الوظيفة الأولى التى يقوم بها انما هى تخفيف أعباء الواقع عن كواهلنا وتخليصنا الى حين من تبعات الحيــــاة اليومية الجدية ، وهذا فولتير الفيلسوف الفرنسى الساخر يقول لو لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس أنفسهم ، فويل للفلاسفة الذين لا يبسطون بالضحك تجاعيدهم لأن العبوس فى نظرى داء عضال » (١) • وكان فولتير يقول « ان السماء قد أرادت أن تعوضنا عن بعض ما ابتلينا به من محن فى هذه الحياة فمنحتنا الأمل والنوم » ولكن (كانت) يعلق على ذلك بقوله « ما كان أحرى فولتير بان يضيف اليهما الضحك » (٢) ، ويؤيد هذه النظرة كثير من الباحثين مثل ستانلى هول والن ولالو، وهكذا مكدوجال يقول « ان الشيء المضحك ليس بالموضوع السار ، وانما هو موضوع لو لم تستجب له بالضحك لسبب لنا الألم والضيق » (٣) •

ومن الأسباب البارزة التى توصل الباحثون الى انها دوافع أساسية للفكاهة وخاصة السخرية ، النقد والاصلاح الاجتماعى ، فهم يلاحظون ان هذا النوع من الفكاهة من أنجع الوسائل فى جوانب اجتماعية عديدة ، منها ان السخرية أقوى سلاح اجتماعى تحافظ به الجماعة على كيانها ومقوماتها المختلفة ، وذلك حين تسلط الجماعة سلاح السخرية على الخارجين على هذا الكيان أو هذه المقومات المختلفة سواء كانت دينية أو ثقافية أو وراثية فنراهم يقولون « والواقع ان الضحك هو السيف المصلت الذى تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية وآدابها العامة ، وكل من تحدثه نفسه بالخروج على قوانين الجمــــاعة وأساليب سلوكها فانه لابد من أن يستهدف لسخريتها اللاذعة وضــــحكها الموجع » (٤) •

ويلاحظ الباحثون ان للسخرية أثرا فعالا فى المحافظة على كيان الجماعة ، وفى محافظة كل جماعة على مقوماتها ومعاييرها بهذا السلاح القوى الجذاب معا ، وهو السخرية ، وذلك من ناحيتين احداهما المعنى السابق وهو أن السخرية توحد صف الجماعة الواحدة وتجعلها فى موقف مشترك ازاء العدو المشترك ، الذى توجه نحوه السخرية ، والأخرى مقاومة الأفراد الذين يحاولون الخروج على قيم الجماعة نفسها ومقوماتها ، فكل جماعة تشعر أن بعض أفرادها يحاولون الخروج على مقوماتها تتخذ من السخرية سلاحا ماضيا فى محاولة رد هؤلاء الأفراد الى منهاجها وطريقها المرسوم ، وبذلك تؤدى السخرية الغرضين معا داخل الجماعة وخارجها كما يقرر علماء النفس والاجتماع « وليس أدل على كون الضحك أداة اصطنعها المجتمع لتاديب أفراده من أن الجماعة واقفة بالمرصاد لكل من يستهين

(١) المصدر السابق ١٠٦ •
(٢) المصدر السابق •
(٣) سيكولوجية الفكاهة الضحك دكتور زكريا ابراهيم ١١٤ •
(٤) المصدر السابق ٦٨ •

بتقاليدها أو يستخف بمعاييرها فهي ما تكاد تلمح سلوكه الغريب حتى تصب على رأسه النكات صبا ‥ ويمكننا أن نقول انه حينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات — باعتبارها جماعات مغايرة لها — فانها تحافظ بهذه السخرية على صميم كيانها الاجتماعي » (١) ، ويؤكد الباحثون هذا المعنى من حيث ان سلاح السخرية من أهم روابط التجمع البشري وتوثيق عراه بين أفراد الجماعة الواحدة ، باعتبار انه يرد الشاردين عن حظيرة الجماعة اليها ، بمعنى انه حتى اذا لم يكن للجماعة قانون أو سلطة تنفيذية تحمي مقوماتها ومعاييرها ، فان في سخرية الجماعة من الشخص الذي يخرج على هذه المقومات ما هو أقوى سلطانا في نفس هذا الخارج من سلطان القانون وسلطته التنفيذية ، ويكفي في قوة سلاح السخرية أن يشعر الخارجين على مقومات الجماعة بنبذهم وعزلتهم النفسية والاجتماعية عن الجماعة ، يقول علماء الاجتماع « لما كانت الكوميديا البشرية انما تعبر عن انعدام تكيف الفرد مع الجماعة فان السخرية التي تلقى بها ضحايا انعدام التكيف أو سوء التوافق انما هي في صميمها ذات دلالة اجتماعية ‥ وليس الضحك سوى المظهر الذي تعبر به عن حكمنا على ذلك الفرد بالجمود والآلية وفقدان الروح الجماعية » (٢) .

ومن النواحي الاجتماعية الهامة التي يتوطها العلماء بالسخرية النقد والاصلاح الاجتماعي ، فهم يلاحظون ان استغلال السخرية في تحقير نوع من العادات أو السلوك من أقوى الأسلحة في زلزلة كيانها واثارة النفور منها ، فان المعروف لدى علماء الاجتماع ان للعادات والتقاليد سلطانا لا يطاوله سلطان آخر ، حتى القانون والسلطة التنفيذية تعتبر العادات أقوى منهما (٣) ويضربون لذلك مثلا عادة الثأر ، فان الشخص فيها يخرج على القانون متحديا ما يفرضه من عقاب في سبيل ارضاء هذه العادة ، فمع سلطان العادات والتقاليد وتحديهما لكل سلطة وقوة الا أن علماء الاجتماع يلاحظون ان سلاح السخرية كثيرا ما ينجح في التغلب عليهما ومحاربتهما ، وبذلك يرون ان السخرية من وسائل (التغيير الاجتماعي) فيقولون « الضحك قد يقوم بوظيفة النقد والاصلاح بالنسبة الى الجماعة ذاتها لأنه بسخريته من العادات البالية والتقاليد العتيقة انما يعمل على خلق جو جديد في صميم الجماعة ومن هنا فان للضحك وظيفة اجتماعية نافعة ‥ هو وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من (التغير الاجتماعي) » (٤) ، ويؤكد الباحثون دور السخرية في هذه الناحية الهامة من نواحي الاصلاح الاجتماعي ، فهم يرون ان كل مظاهر السخرية مهما يكن من براءتها وجنوحها الى اللهو والمرح فلاشك انها تخفي وراءها هدفا معينا مقصودا ، فيقولون « مهما كان من أهمية عنصر

---

(١) المصدر السابق ٦٩ .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٧١ .

(٣) انظر نفسية المجتمع موريس جينز برج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) سيكولوجية الفكاهة والضحك ٦٩ .

اللهو أو التسلية البريئة فى الفكاهة فانه لابد من أن يكون ثمة غرض أو ميل يكمن وراء ذلك المظهر البرىء » (١) ويبين شكسبير هذا الغرض أو الميل فى خلال حديثه عن أسلوب الدعابة والنكتة، فيبين ان هذا الهدف هو النقد الاجتماعى فيقول « الايجاز هو روح الدعابة او النكتة ‥ الايجاز البليغ الذى يخفى وراءه نقدا لاذعا » (٢) ، ويوضح العلماء دور السخرية فى الناحية الخلقية الاجتماعية أعنى فى مقدرة السخرية على تقويم الخلق الاجتماعى ومعالجة اعوجاجه ، فيرون أن فى اتجاه السخرية دائما الى الأسلوب الهجومى على النواحى المرذولة اعلاء لشأن نقائض هـــذه الرذائل ودعوة الى اعتناق الفضائل المناقضـــة لها فى الوقت الذى تهاجم فيه هذه الرذائل ، ومن أمثلة ذلك تصوير شخصيات هزلية كالبخيل أو المتكبر أو المنافق ، فان الصورة الهزلية وان كانت قد تقمصت فى ظاهرها شخصية معينة ، الا أن هذه الشخصية لذاتها غير مستهدفة ، وانما الهدف المعنى نفسه ، فحين تسخر صورة هزلية من منافق ممثـــلة شخصيته ، فان الشخصية ليست الهدف ، وانما الهدف النعى على النفاق نفسه باعتباره سلوكا بارزا فى مجتمع ما ، وبالتالى فان التصوير الهزلى للنفاق يتضمن الدعـــوة الى الاستقامة وشرف الصراحة والوضوح ، فيقولون عن أثر السخرية فى المجال الخلقى « اما من الناحية الأخلاقية الصرفة ‥ الكوميديا تمتدح المثل الأعـــلى وتعلى من شأنه حين تسخر من نقيضه وتتهكم على المنحرفين عنه ، فالكوميديا تعاقب الأخلاق السيئة بأن تسخر منها ، ومن هنـــا فان المسرح الهزلى كثيرا ما يتناول بسخريته (المغرور) أو (البخيل) أو (المتوحد) أو (المترفع عن الناس) أو (المتعجرف) أو (الدعى) (٣) ، وحتى فى سياق حديثهم عن الطبيعة الفنية لهذا النوع من الفكاهة نجدهم يقولون « الكوميديا ليس تصويرا للقيم العليا والمثل الأخلاقية ، وانما هو تصوير لمثالب الناس وعيوبهم ونقائصهم ومظاهر ضعفهم فى اطار فنى ينطوى على انسجام معكوس » (٤) ، وهذا المعنى يراه الباحثون شبه اجماع بين علماء النفس والاجتمـــاع ، وقد أثار اهتمامهم به بما لمسوه خلال بحوثهم وملاحظاتهم من صلابة العادات والتقاليد امام أى قانون أو سلطان الا سلطانا واحدا هو سلاح السخرية ، حيث لاحظوا أنه أقوى أسلحة التغيير الاجتماعى ، وأمضى الوسائل فى زعزعة بعض التقاليد والعادات غـير المرغوب فيها ، وقد لاحظوا ان سلاح السخرية يمكن أن يستغل حتى فى التفاصيل من كل ما يحيط بالأفراد من ظروف ، ومن ذلك قولهم « وصفوة القول ان معظم الباحثين مجمعون على القول بأنه وان كان الضحك ظاهرة فسيولوجية ‥ الا أنه فى الوقت نفسه وثيق الصلة بكل ما يحيط بالأفراد من ظروف اجتماعية ، ‥

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك ١٦٧ ٠

(٢) المصدر السابق ١٥٤ ٠

(٣) المصدر السابق ١٩٠ ، ١٩١ ٠

(٤) المصدر السابق ١٨٢ ، ١٨٣ ٠

وهو نفسه قد يكون بمثابة أداة تعيننا على تحقيق ذلك التغير الاجتماعي » (١) وتكرار الباحثين ان السخرية (الكوميديا) لا تتجه الى تصوير المثل العليا لا معنى له ، لأن السخرية بطبيعتها أسلوب عدائي ، فليس من المعقـــول أن تتجه الى الفضائل ، لأنها تكون حينئذ حربا على الفضائل ، وانما المعقـــول أن تتجه الى المثالب والرذائل لتكون حربا عليها .

وهناك ميدان آخر يلاحظ الباحثون أن للسخرية أثرا بارزا فيه ، هـو ميدان الحروب ، سواء أكانت حروبا نفسية أم عسكرية ، ومن الطبيعي أن تكون السخرية من أقوى الأسلحة في الميدانين ، لأن الحرب ســـواء أكانت نفسية أم عسكرية ، أهم ما تعتمد عليه قوة الروح المعنوية والثقة بالنفس وايمان المحارب بنفسه وبموقفه ، وهنا تبرز خطورة السخرية ، فانه لا شيء يزعزع الثقة بالنفس ويضعف الروح المعنوية كما تفعل السخرية ، لانها تشكك من تصب عليه بأي درجة من درجات التشكيك ولو تشكيكا خفيا في نفسه وفي موقفه ، وعلى أدنى تقدير تحمله على أن يفكر ويقدر ويراجع موقفه الذي كان موضـــــع سخرية الآخرين ، حتى يتأكد من سلامة موقفه وخطأ هذه السخرية ، ومجرد التفكير والمراجعة مهما يكن فهو نوع من الوهن في موقف من وجهت اليه الســــخرية ، وزعزعة ولو ضعيفة في معنوياته وثقته في نفسه وموقفه ، ولكن السخرية عادة لا يكون أثرها من الضعف بهذا المقدار ، وانما تهز كيان من وجهت اليه هزا عنيفا ، وتزلزل ثقته زلزلة شديدة ، ويتحدث الباحثون عن اثبات العلاقة بين السخرية والحروب وعن أثر السخرية حينئذ فيقولون « وقد اهتم بعض الباحثين بدراسة العلاقة بين الحرب والفكاهة ، فاظهرنا قوم منهم على أن الفكاهة نفسها مظهر من مظاهر العدوان ، وقالوا انها تمد أهلها باحدى الوسائل الفنية البارعة في محاربة العدو » (٢) .

وخطورة السخرية بالنسبة للحرب النفسية أو العسكرية ، انها تؤدي دورين هامين لصالح الساخر ، أحدهما تقوية الروح المعنوية في صف الساخرين ، من حيث ان السخرية او الفكاهة عامة تنبع من الشعور بالتفوق والانتصــــار كما أسلفنا وتعيد الثقة الى النفس كما سيأتي ، والآخر هو ان السخرية تضعف الروح المعنوية في الذين توجه اليهم كما قلنا آنفا ، ولذلك يلاحظ مارســـل بانيول ان المسرح الهزلي يلقى كثيرا من النجاح ابان الحرب على وجه الخصوص (٣) وخطورة أثر السخرية ابان الحرب يحذر الباحثون من سوء استخدامها ، بالتحذير من التمادي في السخرية من العدو وتهوين شأنه حتى لا تسري روح الاستهتار والاستهانة في صفوف الساخرين ، يشير الباحثون الى هذا التحذير في صورة تقريرهم له كملاحظة واقعية فيقولون « الملاحظ ان هذه الفكاهات ابان الحرب

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) المصدر السابق ٨٢ .
(٣) انظر سيكولوجية الفكاهة والضحك ١٨٩ .

قلما تميل الى تصوير العدو بصورة الخصم الضعيف الذى لا حول له ولا طول خشية أن تسرى بين الأفراد روح الاستهتار فتضعف المقاومة » (١) ، ولذلك أيضا يقولون مشيرين الى الدورين السابقين للسخرية « حينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات ــ باعتبارها جماعة مغايرة لها ــ فانها تحافظ بهــذه السخرية نفسها على صميم كيانها الاجتماعى » (٢) ٠

وهناك جانب آخر يتعلق بالمعنى السابق يركز عليه الباحثون ، وهو أن السخرية من شأنها أن تعيد الثقة الى النفس ، وتقوى الروح المعنوية لدى الساخر وحزبه . وذلك أن السخرية من الآخرين بحكم أنها تعمد دائما الى قوة التصوير فى ابراز نقائص المتهكم به وعيوبه ، وتجسيم هذه العيوب تجسيما واضــــحا أو مبالغا فيه ، تجعل الساخر ومن يشاركونه موقفه يشعرون بأنهم أرفع من المتهكم بهم ، وتجعل حتى ضعاف الشخصيات وذوى العيوب يحسون بأن هناك من هو أقل منهم شأنا وأشد مهانة ، وانهم مهما يصغر شأنهم فهم خير من بعض الناس ، وهذا من شأنه أن يعيد الى هذه النفوس بعض الثقة والحيوية ، ويرتفع بها أى درجة من درجات القوة المعنوية ، ومن هذه الزاوية يعتبر علماء النفس السخرية ــ أعنى مشاهدة السخرية ــ علاجا لبعض الأمراض النفسية ، وتنشيطا للمرهقين ومحطمى الأعصاب ، فيقولون « الملهاة تختلف عن المأساة اختلافا جوهريا من حيث انها تؤدى فى حياتنا النفسية دورا صحيا لا نجد له نظيرا فى كل ما تقوم به المأساة من أدوار مختلفة فى صميم حياتنا » ويقولون « المسرح الهزلى يجدد نشاطنا ويقوى روحنا المعنوية ويعيد الينا ثقتنا بأنفسنا لأنه يعرض على أنظارنا شخصيات ضعيفة أو منحرفة أو ناقصة تجعلنا نتصور فى كل لحظة أننا أسمى من غيرنا بكثير ٠٠ واذا نجح الكاتب الروائى فى أن يجعل هذا الشعور ينفذ الى قلب متفرج متعب من جراء عمله اليومى المضنى ، قلق بسبب ســوء حالته المادية ، محطم الأعصاب لفرط ما يحمل من هموم عائلية ، فانه يكون قد أدى له خدمة نفسية ، قد لا يدانيها أى علاج نفسى ، وقد لا نكون مبالغين اذا قلنا ان المسرح الهزلى يقوم بدور الدواء الناجع فى حياة بعض المرضى كالمصابين بالنورستانيا أو فقر الدم أو الهبوط النفسى بصفة عامة » (٣) ويؤكدون هــذا المعنى فيقولون « فالكوميديا هى التى ترد الى الشخص العاجز الذى يعتقد فى نفسه أنه أدنى من الجميع شعوره بالتفوق على الغير ــ أو على شخص آخــر على الأقل ــ وهذا الشعور هو الكفيل بأن يعيد الى نفسه ــ ولو الى حين ــ الثقة والاطمئنان والشجاعة » (٤) ٠

ومن قبيل هذا المعنى ما يلاحظه الباحثون من لجوء المستضعفين الى ســلاح

---

(١) المصدر السابق ٨٣ ٠
(٢) المصدر السابق ٦٩ ٠
(٣) سيكولوجية الفكاهة والضحك ١٨٧ ، ١٨٨ ٠
(٤) المصدر السابق ١٨٩ ٠

السخرية واعتصامهم به يوجهونه نحو الطاغين والباغين عليهم ، وما يلاحظونه أيضا من أن هذا السلاح في أيدى هذه الفئة ماض فعال ، فيقول سلى الانجليزى « ولكن الضحك أيضا هو الثأر السلمى العادل لجماعة الضعفاء من أطفال ونساء وعمال لأنه فى أيديهم كأمضى سلاح » (١) والحقيقة التى تستنبطها من تجارب الباحثين وملاحظاتهم فى كل ما سبق ، والتى تستنبطها من الواقع أيضا ان هؤلاء الذين يستطيعون أن يسخروا من غيرهم قد يكونون مستضعفين ، ولكنهم لا يكونون ضعفاء ، والفارق بين الاثنين كبير ، فليس من اللازم أن يكون المستضعف ضعيفا فى الحقيقة ، بل قد يكون قويا ، ولكن قوة أكبر منه تحاول أن تطغى عليه وتستضعفه ، ومقدرة شخص أو فئة من الناس على أن تسخر دليل واضح على أن فيها قوة وثباتا وحيوية بأى درجة من الدرجات ، وخاصة اذا كانت سخريتها موجهة ضد عدوها ، ولذلك يضيف العلماء ان « الحس الفكاهى » بالاضافة الى دلالته العقلية يدل على ان صاحبه يشعر بان له كيانا وشخصية ، فيقولون « كلمة الباحثين اجتمعت على ان (الحس الفكاهى) سمة عامة قيمة من سمات الشخصية » (٢) ·

ومما يقترن بالفكاهة المفارقات ، فاحتواء الكلام على مفارقة لا يتوقعها السامع ، بأن يكون السامع متابعا لموضوع ما ، وبحكم التوقع المنطقى للأحداث فى ترتب بعضها على بعض ، يتوقع السامع شيئا معينا أو نحوا معينا من الكلام يتفق مع ما سبق أن استمعه ، ويترتب عليه ، أو يناسب الموقف الذى يصدر فيه هذا الكلام ، واذا هو يفاجأ بما لا يتفق مع ما قبله ، أو ما لا يناسب الموقف، هذا النوع هو المقصود بالمفارقة ، ويعتبر نوعا من السخرية ، ومظهرا من مظاهر الفكاهة ، ويترتب عليه الضحك الذى يبدو دائما كثمرة ونتيجة لكل أنواع الفكاهة ، والذى جعله الباحثون كما قلنا عنوانا على الظاهرة كلها · يقول علماء النفس « من أسباب الضحك المفارقة التى يحملها الكلام او الموضوع » (٣) ويقولون أيضا فى سياق تعداد الميول الانفعالية التى ترتبط بالظاهرة « فى المجال الذهنى ·· كثيرا ما يتولد الضحك عن المفارقات » (٤) ·

ويقرر الباحثون خلال استعراضهم لأطوار الظاهرة وتدرجها مع الحضارة البشرية ، ان السخرية والضحك كانت لدى البدائيين ساذجة لا تكاد تتعدى المظهر والشكل ، فالبدائى يسخر ويضحك من مجرد العيوب الجسمية والعاهات الموروثة ، ولا يكاد يتعدى ذلك ، وهو وضع طبيعى بحكم تفكير البدائى وانحصار مداركه فى الشكل الظاهرى ، دون مقدرة على التعمق فى المعانى والمدركات

---

(١) المصدر السابق ٧٠ ·
(٢) المصدر السابق ٢٠٠ ·
(٣) سيكولوجية الفكاهة والضحك ٨٥ ، ١٠٢ ·
(٤) المصدر السابق ٩٣ ·

العقلية أو الأوضاع الاجتماعية ، أما فى أطوار الحضارة التى تدرجت فيها البشرية بعد مرحلة البداوة ، فان الانسان أصبح يستطيع أن يجعل لسخريته وضحكه هدفا مقصودا أعمق وأسمى من سذاجة البدائى ، يقول الباحثــون « ضحك البدائيين هو فى صميمه أشبه ما يكون بضحك الأطفال ·· ساذج تغلب عليه نزعة السخرية وروح المعاكسة ·· » (١) ويقولون فى توضيح ذلك ومقارنته بطور الحضارة « الانسان البدائى يضحك فى العادة من عيوب الآخرين الجسمية ، ونقائصهم الخلقية ، وعاهاتهم الموروثة ، بينما تجد فى المجتمعات الراقية ان من شأن التربية الأخلاقية ·· أن تعمل على نهى الفرد عن الضحك لمثل هــــذه العيوب » (٢) ·

٤ ــ الساخر :

هل المقدرة على انشاء السخرية وصياغتها متاحة لكل أحد ؟ وهل فى وسع الشخص العادى أن يكون ساخرا ؟

للاجابة عن ذلك نضطر الى نظرة الى الواقع ، وحين ننظر الى الواقع نجد من البداهة ان الاجابة بالنفى الواضح المؤكد ، فليست السخرية من البساطة واليسر بحيث تتاح لكل أحد ، بل ولا لعدد كبير فى المجتمع الواحد ، فالواقع يؤكد ان القادرين على السخرية ليسوا بالكثيرين ، ولا يمكن أن يقال انهم يمثلون نسبة أى نسبة فى مجتمع ما ، لأنهم من القلة بحيث لا يكونون نسبة ، وانما يصدق القول اذا قلنا انهم أفذاذ بارزون بالنسبة لمجتمعاتهم ، وأفذاذ بارزون فى مقارنة المجتمعات بعضها ببعض ، فالمجتمع قد يمثل السخرية فيه شخص واحد ، بل الأمة أو العصر قد يمثل سخريتهما شخص واحد ، ولذلك حين يعدون أفذاذ الساخرين فى الغرب يكاد لا يبرز منهم الا فولتير ، وحين يعدون أفذاذ الساخرين فى الشرق العربى يكاد لا يبرز الا الجاحظ ·

وحين نذهب الى الباحثين نجدهم يقررون ذلك بصورة تكاد تكون اجماعية وبصورة يبرز فيها التأكيد ، ويشيرون الى الصفات التى لا يمكن أن تتهيأ للساخر سخريته الا بتحققها ، فيعددون جوانب كثيرة تتعلق بالناحية العقلية ، يرونها ملازمة للسخرية أى ملازمة للساخر نفسه ، لولاها لما استطاع أن يكون ساخرا فيقولون مثلا فى سياق السخرية التى عنوانها الضحك « من المؤكد ان العنصر الادراكى ــ أو العرفانى ــ لابد أن يلعب دورا هاما فى الغالبية العظمى من النكات على اختلاف أنواعها والواقع أنه لولا ما تنطوى عليه الفكاهة من منطق أو ذكاء أو سرعة بديهة أو حسن تخلص أو براعة فى الرد لما كانت مثارا للضحك على الاطلاق » (٣) ويقولون فى السياق نفسه أيضا « من الحديث المعاد أن نقرر ان

---

(١) المصدر السابق ٦٥ ·
(٢) المصدر السابق ٦٥ ·
(٣) سيكولوجية الفكاهة والضحك ١٧٠ ·

الضحك فى جانب منه عملية عقلية تقترن بالكثير من مظاهر النشاط الذهنى كالفطنة وسرعة البديهة والسخرية والتهكم والقدرة على التلميح والبراعة فى الرد ..» (١) .

ومن آثار احتياج السخرية الى العقلية الفذة القدرة على صياغة السخرية ، فان الصياغة أهم عنصر فى السخرية وفى أنواع الفكاهة كلها ، بحيث نجد كثيرا ان الفكاهة البالغة التأثير لو صيغت بأسلوب آخر لفقدت حيويتها وتأثيرها . ومن الواضح فى ذلك ان تأثير السخرية يكمن أهمه فى التصوير ، بأن ترسم السخرية صورة فكاهية أو طريفة أو تنطوى على مفارقة بحيث تشعر بأن هذه الصورة تكاد تكون مجسمة وتحس بأنها ماثلة أمام أعيننا نتأمل مواضع السخرية فيها ، وهذه المقدرة على التصوير هى موطن الصعوبة التى لا يتخطاها الا من أوتى موهبة خاصة ، ولذلك يقول شكسبير « الايجاز هو روح الدعابة أو النكتة .. الايجاز البليغ الذى يخفى وراءه نقدا لاذعا .. » (٢) ويؤكد الجاحظ حقيقة أن روح الفكاهة مقرونة بصياغتها ، وان أى تغيير فى صياغتها عند نقلها أو حكايتها يفقدها روحها وتأثيرها فيقول « ومتى سمعت بنادرة من كلام الأعراب فاياك أن تحكيها الا مع اعرابها ومخارج الفاظها ، فانك ان غيرتها بأن تلحن فى اعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت عن تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، كذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام فاياك وأن تستعمل فيها الاعراب أو تتخير لها لفظا حسنا فان ذلك يفسد الامتاع بها » (٣) .

ولكن أبرز المعانى التى لاحظ الباحثون أن الساخر يشعر بهـــا شعورا واضحا مسيطرا هو الشعور بالتفوق والانتصار والاستعلاء وما يدور فى فلك الشعور بالعزة ازاء الموقف الذى يوجه فيه سخريته ، وهذه حقيقة يؤيدها المنطق والواقع ، فلاشك ان السخرية بالاضافة الى كونها أسلوبا عدائيا تعنى احتقار من توجه اليه السخرية وازدراءه فى الجانب الذى تصوره السخرية ، والاحتقـار والازدراء لا يعقل صدورهما الا من الأقوى الأعز ، ولا يكفى فيهما مجرد القوة والعزة ، بدليل اننا قد نكون أقوياء ويكون لنــــا خصم مكافىء فلا نستطيع أن نسخر منه ، وحتى مجرد تفوقنا أو انتصارنا عليه لا يتيح لنا السخرية منه اذا كنا نشعر انه مازال قويا ومازال يستطيع الصمود والمقاومة ، وانما تتاح لنا السخرية منه اذا شعرنا بأن شوكته تحطمت وانه لم يعد الخصم القوى الذى يشغل نفوسنا ويثير اهتمامنا ، ومعنى ذلك ان السخرية يصاحبها دائما شعور من الساخر بالتعالى والترفع والتفوق على من يتهكم به ، وليس من المصادفة أن يلاحظ النقاد أن المتنبى كان مولعا بالتصغير فى شعره ، فقد لوحظ انها ظاهرة بارزة فى شعر المتنبى تميز بها شعره عن شعر غيره كما لاحظ ذلك المعرى فى

---

(١) المصدر السابق ١٨١ ، ١٨٢ .
(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك ١٥٤ .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٤٥ ، ١٤٦ .

حديثه عن المتنبي وشعره ، ويقول المعري عقب هذا النقد « دلت أشياء في ديوانه على انه كان متألها » (١) وسواء قصد المعري بهذا المعنى أن يجعله سببا لسيطرة نزعة التصغير على المتنبي أم لم يقصد ، فالواقع ان هذا المعنى يقع في جوهر السبب الذي جعل المتنبي يولع بالتصغير ، فكون المتنبي متعاظما متعاليا على كل أحد ، وعلى كل شيء حتى كأنه يدعي الألوهية من شأنه أن يجعله يستصغر كل الناس ، ويزدري كل شيء وهذا المعنى نفسه هو روح السخرية ومدلولها ، لأن السخرية لا تعدو أن تكون احتقار من يسخر منه ٠

وما سبق أن قرره الباحثون من خلال تجاربهم وملاحظاتهم من ان الضحك الساخر نشيد انتصار ، وانه شعور بالتفوق والاستعلاء ، كل ذلك تأييد لأن السخرية لابد أن يصاحبها في نفس الساخر شعور بالتعالي والترفع بقدر ما تحمل سخريته من احتقار المزدري وتصغير شأنه ، والامام محمد عبده يوضح هذا المعنى في قوله « من شأن القوي المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه في المنزع » (٢) وذلك في سياق حديثه عن سخرية زعماء قريش من المسلمين ، ولكنه يقرر ان ذلك لم يكن حدثا عابرا ، وانما هو ناموس اجتماعي دائم ، وان السخرية مقترنة دائما بالقوة المسيطرة ، والعزة الغالبة فيقول « كذلك كان شأن جماعة من قريش كأبي جهل والوليد ٠٠ ٠٠ وهكذا يكون شأن أمثالهم في كل زمان ٠٠ » (٣) وقد يقال انه ربما تشاهد سخرية الضعيف من القوي ، كما يشاهد احيانا في سخرية بعض العاملين من رئيسهم ، أو المرؤوسين من زعيمهم ، مع ان الرئيس هو القوي المسيطر بحكم مركزه وسلطته وهم الضعفاء ، فنقول ان السخرية حينئذ لا تتأتى الا في حالة شعور المرؤوسين بفشل رئيسهم أو عدم صلاحيته لمركزه ، فيتحول شعورهم نحوه الى نوع من الاحتقار والازدراء قد يتيح لهم أن يسخروا منه فيما بينهم ، وحيث يستقر هذا الشعور في نفوسهم يكونون في مركز نفسي أقوى من مركز الذي يسخرون منه مهما يكن ذا قوة مسيطرة ، وكأن سخريتهم حينئذ تنادي بتنحيته وابعاده واعلان نزوله الشديد عن مستوى الكفاءة والصلاحية لمنصبه ٠

ومما سبق كله نرى ان السخرية ليست مجرد تهجم أو هجاء أو تهوين شأن ، وبالأحرى ليست مجرد أسلوب فكه يثير النفوس أو يبعث على الضحك ، وانما ترتبط بها نواح وأهداف على جانب كبير من الاهمية ، سواء من الناحية النفسية المعنوية أو من الناحية الاجتماعية ٠

ومن هذا نعلم كما سنرى ان القرآن الكريم لم يختر أسلوب السخرية من أعدائه ليكون مجرد تهكم أو استهزاء أو تحقير ، كما يتراءى لمفسري القرآن والباحثين فيه ، وانما اختاره لأهداف أبعد ، وأغراض أعمق ، تبدو فيها الدراسة

---

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ٩٣ ٠

(٢) تفسير جزء عم « كتاب الشعب » ٣٢ ٠

(٣) المصدر السابق تفسير « ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » المطففين

العلمية ، والتخطيط المتسق ، الذى يثبت ان القرآن الكريم كان أسبق من علم النفس وباحثيه ادراكا للسخرية فى معناها العلمى ، واستفادة من عمقها الاجتماعى ، كما ان القرآن ـ بحكم كونه الناطق بلسان المسلمين والمعلم لهم ـ قد نقل أتباعه فيما يشبه الطفرة من السخرية البدائية أو القريبة من البداوة التى يحصرها علماء النفس فى التهكم من العيوب الجسمية أو النقائص الشكلية والمادية الى السخرية الحضارية المتطورة التى لابد أن تخفى وراء مظهرها البسيط غرضا أو أغراضا هادفة الى نواح معينة تنحصر فى الاصلاح ومحاربة الرذيلة والتفاهة ، والدعوة الى المثل العليا والمبادىء القويمة والسلوك الصحيح ، وبهذا أيضا يكون القرآن قد سما بأتباعه من اتخاذ السخرية مجرد سلاح للتحطيم والهدم كما كانوا يألفون فى الهجاء ·

دواعي سخرية القرآن

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »

حين ننظر الى سخرية القرآن الكريم نظرة التأمل والبحث ، نجد انها أبعد مدى مما توحيه النظرة العجلى ، أو النظرة الضيقة المحددة المدى ، ويبدو ذلك اكثر وضوحا حين ننظر اليها في الاطار العام لأهداف القرآن · حينئذ نجد انها تهدف الى اكثر من غاية ، وتحقق أكثر من نتيجة ، ومن حيث ان السخرية بطبعها سلاح وأسلوب عدائي ، فمن الواضح أن يكون أبرز أهدافها الأعداء ، وأن يكون القرآن قد جندها في عتاده الحربي ، ليواجه بها أعداءه كسلاح من أسلحته ·

وقد كانت سخرية القرآن كما سنرى قوية التركيز والتصميم من جهة ، ومتعددة الوجوه والصور من جهة أخرى ؛ وحيث ان اختيار السلاح من حيث ذاتيته ، ومن حيث نوعه تحدده طبيعة العدو من حيث قوته ، ومن حيث نوع عدائه أيضا ، لذلك كان يلزم أن نلقي نظرة على أعداء الاسلام في طبيعة عدائهم ونوعه ، ومهما تكن هذه النظرة خاطفة أو سريعة ، فانها ستوضح لنا مدى حاجة القرآن – بوصفه دستور الاسلام ورائد المسلمين – الى حشد كل سلاح ، ليواجه بهذه الأسلحة أعداءه المختلفين ، ولكننا نرى ان سخرية القرآن لم تستهدف أعداء الاسلام بالمعنى العرفي وحدهم ، أعني لم تستهدف أعداء الاسلام من غير المسلمين وحدهم ، وانما استهدفت كل مصدر يمكن أن يسيء الى مبادىء الاسلام ، ولو كان المصدر نابعا من صفوف المسلمين أنفسهم ، في صورة عادات وتقاليد ، أو خلق لا تقره مبادىء القرآن ، أو غير ذلك ، كل هذه الأجواء يراها الاسلام ظلمات تكتنف حياة الناس ، فهو يريد أن يبدلها لهم نورا ، ويراها عوائق في طريقهم الى الخير ، فهو يريد أن يمهد لهم هذا الطريق ·

ويمكن في هذه النظرة العجلى الى الأجواء المعادية لمبادىء الاسلام والمعوقة لبسطه وانتشاره أن نلمح بوضوح ما يلي :

أولا — الأعـــداء :

يتضح من بحوث وتجارب علماء النفس والاجتماع كما سبق أن السخرية تؤدي دورا خطيرا في حياة الناس أفرادهم ومجتمعاتهم ، ومن هذا نعلم أولا أن سخرية القرآن لم تكن مجرد تهكم أو تحقير لأعدائه ، وانما استهدفت أغراضا عديدة نتبينها واضحة حين ندرس سخرية القرآن ونحاول التعمق في فهم أهدافها على ضوء بحوث العلماء وتجاربهم ٠

ومما لاشك فيه ان هذه الأغراض للسخرية أو غيرها مهما تعددت في القرآن فانها تنتهي الى غاية وهدف واحد ، هو الاصلاح العام ، والهداية الشاملة للبشرية كلها ، فاذا كان القرآن قد اتخذ من السخرية أو غيرها سلاحا لحرب أعدائه ، فمن الواضح في مبادىء الاسلام ، والذى ينبغى أن يكون واضحا في كل نفس ، أن أعداء القرآن لا ينظر اليهم على أنهم مجرد أعداء للمسلمين كجماعه أو أمة ، وانما ينظر اليهم على أنهم أعداء الله ، والله سبحانه ليس بينه وبين أحد نسب أو صلة خاصة ، وليست عنده للمسلمين أو غيرهم محاباة أو تحيز ، وانما الكل عباده ، وهو سبحانه رب الجميع ، ولا يتفاضل عنده جنس على جنس، ولا لون على لون ، ولا جماعة على جماعة ، ولا فرد على فرد قط الا بمقياس واحد ، حدده القرآن الكريم نفسه في قوله « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ٠

واذا كان القرآن الكريم وهـــو كلام الله يعتبر « الناطق بلسان المسلمين » بالنسبة لأعدائهم ، فليس لأن المسلمين ذوو اثرة عند الله لذاتهم أو اشخاصهم، وانما باعتبار واحد ، هو كونهم القائمين على حمل شريعة الله وتنفيذها وتبليغها والذود عنها ، ومقاومة من يتصدى للمساس بها ، أو يقف عقبة في طريقها ، وهي أمانة صعبة ثقيلة ، واذا كان المسلمون الأولون قد بلغوا عند الله منزلة لم تبلغها جماعة أو أمة أخرى ، كما يقرر القرآن ذلك في قوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس » فليس ذلك لأنسابهم أو سلالتهم أو أى اعتبار الا اعتبارا واحد ، هو انهم حملوا تلك الشريعة فأحسنوا حملها ، وبلغوها فأحســـــنوا تبليغها ، ولم يحاولوا أن يجعلوا من شريعة الله نفعا شـــــخصيا ، أو كسبا ماديا لهم ، وانما جعلوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم فداء لهذه الشريعة ، وبهذا التميز الروحى والخلقى بلغوا في جملتهم قمة الاصلاح الروحى ، والخلقى ، فكانوا اصلح الناس للدين ، واصلح الناس للدنيا ، وهاتان القمتان معا لم تستطع أمة على وجه الأرض أن تبلغهما الا المجتمع الاسلامى الأول ، وأصعب عقبة استطاع المسلمون اجتيازها هي التوفيق بين القمتين ، وجمعهما معا ، فقد يكون بلوغ قمة الصلاح الروحى وحده أمرا ميسورا ، وقد يكون بلوغ قمة الصلاح الدنيوى وحده أشد يسرا ، ولكن جمعهما معا في نفس واحدة هو ما يشبه المستحيل الذى استطاع المسلمون الأولون تحطيمه » ٠

فالقرآن اذن انما يعتبر الممثل للمسلمين والناطق بلسانهم باعتبار حملهم للشريعة التى اختارها الله لتكون شريعته على الأرض ، ومن الواضح أن مجرد

الحمل دون التنفيذ والتطبيق لا يزن عند الله ولا عند الناس شيئا ، والا أصبح مثلهم كمثل الذين حملوا التوراة فلم يحملوها أى لم يعملوا بها .

وحين نمد البصر مع القرآن الكريم فى نظرته الى أعدائه الذين هم أعداء المسلمين ، نجد ان الاسلام أحيط ولا زال يحاط بأمواج عاتية ومتلاحقة من الأعداء الألداء ، والعداوات المتنوعة الألوان والوجوه ، وفى هذا يمتاز الاسلام عن غيره من الأديان ، فالأديان نزلت موقوتة بزمان معين ، وخوطب بها أقوام محددون ، أما الاسلام فوضعه أساسا غير ذلك ، فهو مطلق الزمان والمخاطبين به، حيث يخاطب كل الأزمنة والعصور ، كما يخاطب كل الأمم على اختلاف أنواعها ، ومن هنا كان أعداؤه من الكثرة والاختلاف بمقدار ما بين العصور والأمم من اختلاف . كما يقول العقاد « فليس فى التوراة ولا فى الانجيل أكثر من اشارات عارضة الى الملحدين الذين ينكرون وجود الله ، لأن أنبياء التوراة والانجيل كانوا يخاطبون أناسا يؤمنون باله اسرائيل ، ولا يشكون فى وجوده .. أما القرآن فقد كان يخاطب أقواما ينكرون وأقواما يشركون ، وأقواما يدينون بالتوراة والانجيل ، ويختلفون فى مذاهب الربوبية والعبادة ، وكانت دعوته للناس كافة من أبناء العصر الذى نزل فيه ، وأبناء سائر العصور ، ومن أمة العرب وسائر الأمم » (١) .

والعلاقة بين السخرية والأعداء وثيقة ، فان السخرية نفسها سلاح عدوانى بطبعها ، والباحثون يقررون من خلال بحوثهم ان السخرية سلاح فعـــال فى الحروب سواء أكانت حروبا نفسية أم عسكرية ومن ذلك قولهم « وقد اهتم بعض الباحثين بدراسة العلاقة بين الحرب والفكاهة ، فاظهرنا قوم منهم على أن الفكاهة نفسها مظهر من مظاهر العدوان ، وقالوا انها تمد أهلها باحــــدى الوسائل الفنية البارعة فى محاربة العدو » (٢) ويعنون بالفكاهة السخرية .

أما حين نذهب لاستعراض أبرز الأعداء الذين اتخذتهم سخرية القرآن غرضا من أغراضها ، وكانت سلاحا ضدهم ، لا للحديث عن عداوتهم وتفصيلها وورد القرآن عليها فى سخريته ، وانما لشىء من بيان كثرة الأعداء الذين احاطوا بالاسلام ولا زالوا ، والذين اختلفوا فى عداوتهم وتفننوا فيها ، والهدف الذى تركزت عليه كل العداوات هذه ، هو تحطيم الاسلام ان لم يمكن محوه ، فيمكن الالماح الى أبرز هؤلاء الأعداء وأنواع الحملات التى وجهت الى الاسلام فيما يلى :

الأعـــداء العـــرب :

وذلك بحكم البدء الزمنى والجغرافى للاسلام ، فقد نبت الاسلام فى مكة ، وقضى بها نحو ثلاث عشرة سنة لم يكد يكون له فيها أعداء ظاهرون من غير العرب،

---

(١) الله ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٨٢ .

لأنه كان حينئذ حبيس جدران مكة وجبالها ، ومع ذلك كانت هذه الفترة أعصب الفترات التى مرت بالمسلمين من حيث أنهم أفراد . ولم يكن في مكة من هؤلاء الأعداء غير العرب ، ثم انتقل مركز الاسلام الى المدينة ، فاتسع نطاق العداء للاسلام ، وبدأ اختلاف أنواع العداوات ، فظهر من غير العرب اليهود ، وظهر نوع من العداء لم يعرفه المسلمون في مكة وهو النفاق ، ثم بدأ الاسلام ينتشر مع الدعوة والفتوح ، وبدأ الأعداء يكثرون وتتنوع عداواتهم ، ويمكن استعراض أبرزهم فيما يأتى مراعيا الايجاز فى الحديث عمن ستأتى أحاديث خاصة بهم .

١ ــ المشركون :

الشرك فى العرف الاسلامى عبادة غير الله بمعنى أن يتخذ الانسان شريكا لله فى العبادة ، ويستثنى الاسلام من هذا الوصف أهل الكتاب ، أى الذين لهم كتاب سماوى وهم اليهود والنصارى فان القرآن يخاطبهم على أســـاس أنهم أصحاب دين سماوى ولكنهم حرفوه وانحرفوا عنه ، ويحملهم مسئولية هـذا التحريف والانحراف فلا يجعل للمسلمين سلطانا عليهم طالما لم يتعرضوا لنشر الدعوة الاسلامية ، ولم يبدأوا المسلمين بالعداء . أما المشركون فنوعان من حيث الموقع ، المقيمون فى مركز الدعوة الاسلامية بالجزيرة العربية ، وهؤلاء بحكم موقعهم فيهم خطورة على نشر الاسلام وعلى كيانه نفسه ، لذلك جعل الاســـلام للمسلمين عليهم كل السلطان ، فلا يقبل الاسلام مجرد وجود الشرك فى أرض العرب ، وأما فى غير الجزيرة العربية ، فان الاسلام ينظر اليهم على أنهم أعداء ، ويحذر المسلمين منهم ، ويبيح لهم أن يبسطوا سلطانهم عليهم . وليس تفصيل هذا الحديث مما يعنى الموضوع ، وانما يعنيه أن الشرك من حيث الموقع والزمن كان أول وأخطر من تعرض له الاسلام .

وقد تمثل الشرك فى هذه الفترة فى قريش ومن والاها ، وقد انقسموا فى التاريخ الاسلامى وفى حديث القرآن عنهم ــ من حيث نوع العـداوة ــ ثلاثة أقسام .

الأول جمهور المشركين الذين كانوا فى جملتهم يمثلون الجبهة المضـادة للاسلام ، والتى ظلت حتى سيطر الاســلام على شبه الجزيرة تحمل لواء الجبهة المعادية المحاربة للاسلام بكل ما أوتيت من قوة ، وكانت هذه الجبهـة السند الأساسى والعمود الفقرى لكل الأعداء الآخرين ، فقد يكون الآخرون أشد عداوة للاسلام ، وأكثر تفننا وتدبيرا فى حربه ، ولكنهم لم يكونوا من القوة والصلابة والعناد الذى واجه الشرك به الاسلام .

والثانى جماعة معينون من المشركين ، كانوا بالاضافة الى عداوتهم للاسلام بصفتهم مشركين ــ يملكون سلاحا معينا يحاربون به الاسلام والمسلمين ، هو سلاح السخرية ، وهم الذين حددهم القرآن الكريم فى قوله « انا كفينـــاك

المستهزئين » ، وقد كان هذا السلاح من الخطورة والتأثير بحيث اهتم به القرآن فخص القائمين به من المشركين بحديث خاص ، ووجه نحوهم حربا خاصة أيضا .

والقسم الثالث هم قادة المشركين أو « أئمة الكفر » كما سماهم القرآن نفسه ، وهؤلاء كانوا يمسكون زمام الجبهة المضادة للاسلام ، ويوجهونها بكل ما أوتوا من قوة وتفكير وتدبير ، وكانوا بطبيعة وضعهم القيادى ، وما فيهم من قدرات ومزايا تؤهلهم للقيادة أخطر جبهات الشرك على الاسلام ، حتى ان القرآن ميزهم بحرب وأحاديث وسخريات خاصة .

٢ ـ اليهـــود :

جعلهم القرآن في مقدمة الذين يضمرون للاسلام العداء العميق المتغلغل ، فهم في الترتيب النوعي للعداوة أشد الناس عداء للاسلام كما يصرح القرآن الكريم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ، وقد كانوا حين بدأ الاسلام يتركزون في يثرب (المدينة) وما حولها ، وكان مركز الاسلام في مكة بعيدا عنهم ، ولم يكن خطر الاسلام قد اشرأب في هذه الفترة التى كان المشركون فيها يضيقون على المسلمين الخناق ، ويسومونهم أشد العذاب ، ليرهبوا بذلك غيرهم ممن قد تسول له نفسه التسلل الى صف المسلمين وما كاد الاسلام يستنشق الهواء بانتقاله الى المدينة ، حتى أحس اليهود كأن خطرا داهما قد تحدر عليهم واندفع نحوهم ، فجن جنونهم ، وثارت في نفوسهم كل كوامن الحقد والبغضاء ، وتحفزت في قلوبهم كل نزعات الشر والعدوان . ورغم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد تعمد ألا يبداهم بعدوان ، وأن يقبل منهم السلم ويمنحهم حسن الجوار ، واعلنهم بذلك ، الا أن طاقة العداوة للاسلام في صدورهم كانت أقوى من الرغبة في هذا الود ، ونزعة العدوان في طبيعتهم كانت أكثر سيطرة على نفوسهم من الرغبة في السلام ، فاعلنوا حربا عاتية متنوعة الأساليب والألوان على الاسلام ، بعضها ظاهر ، وبعضها خفى ، وبعضها مباشر ، وبعضها غير مباشر ، وكان طبيعيا أن يبادلهم القرآن هذه الحرب ، وأن يوجه اليهم أسلحة متنوعة أيضا ومن بينها السخرية .

٣ ـ النصـــارى .

ولا أعنى بوضعهم هنا ترتيبا في العداوة ، فالواقع أن عداوتهم للاسلام في الترتيب النوعي تجيء في المؤخرة ، ومن الأسباب التى تجعلهم في هذا الوضع بالنسبة للاسلام ، انهم يتعرضون لاضطهاد أو حقد دينى من قبل اليهود ، فهم يشاركون المسلمين في أن اليهود ينظرون الى كليهما نظرة التكفير الدينى، والعداء العنصرى ، والقرآن نفسه يصرح بحقيقة هذا الترتيب النوعى لأعداء الاسلام ووضع النصارى فيه فيقول « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركو ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم

قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » (١) ، ولكن مهما يكن من شيء ، ومهما تكن درجة عداوتهم ، فهم نوع من الأعداء ، كما تسوق الآية نفسها ، لأنها تتحدث عن أعداء المؤمنين ، وكل عدو لجنس المؤمنين فهو غير مؤمن ، ولا يختلف الوضع ان كانت اللام للعهد بمعنى أن يكون المقصود بالمؤمنين المسلمين – وهو الأظهر – فالواقع ان من لا يدينون بالاسلام أعداء له ، وان تفاوتت درجة العداوة كما هو الحال بين اليهود والنصارى في عداوتهم للمسلمين (٢) .

وقد كان النصارى حين بدأ الاسلام قلة فى الحجاز ، فبصرف النظر عن الأفراد الذين كانوا منبثين في البلاد يزاولون بعض أنواع التجارة ، لم يكن هناك مركز للمسيحية الا في نجران ، ولم يكن صوتهم كأعداء للاسلام بارزا ، وقد عاملهم المسلمون بهذه الطريقة ، فلم يعلنوا عليهم حربا أو عداء واضحا ، وحتى القرآن الكريم ، يبدو دائما من حديثه عن النصارى تجافي اللهجة العنيفة معهم ، والاعتماد على الحجة والمنطق في ردهم الى جادة الدين القويم ، وكذلك كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، ومن ذلك قصة وفد نجران، وكانوا كما تصفهم الروايات ستين راكبا « قدموا على رسول الله وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول اليهم امرهم العاقب أمير القوم .. والسيد ثمالهم وصاحب حلهم ومجتمعهم .. وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم .. دخلوا المسجد .. وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله فقال النبي دعوهم فصلوا الى الشرق، فتكلم السيد والعاقب .. فقال لهما الرسول أسلما ، قالا أسلمنا قبلك ، قال كذبتما يمنعكما من الاسلام ادعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير ، قالا ان لم يكن ولدا لله فمن أبوه ؟ وخاصموه جميعا في عيسى فقال لهم النبي : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدا الا وهو يشبه أباه ؟ قالوا بلى . قال ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا بلى ، قال : ألستم تعلمون ان ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى ، قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا لا . قال ألستم تعلمون أن الله حي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا بلى . قال فهل يعلم عيسى عن ذلك الا ما أعلم ؟ قالوا لا . قال فان ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء ، وربنا لا يأكل ولا يشرب ؟ قالوا بلى . قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذي كما يغذى الصبي ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث ؟ قالوا بلى . قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فسكتوا ، فأنزل الله صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها » (٣) ، وحين يتحدث القرآن عن النصارى لا يهاجمهم في خلق

---

(١) سورة المائدة ٨٢ .

(٢) أنظر تفسير الآية السابقة في الكشاف للزمخشري .

(٣) معالم التنزيل للبغوي ٢/٩٢ (هامش تفسير ابن كثير) وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/١٩٦ .

او سلوك كما يفعل مع اليهود ، وانما يركز حديثه على ناحية العقيدة ، وحتى حينما يسخر منهم ، فان سخريته لا تتجه الى الخلق والسلوك ، بل الى العقيدة أيضا ، كسخريته من اعتقادهم الوهية عيسى عليه السلام ،فان القرآن يسخر من ذلك ، فى صورة محاورة بين الله سبحانه وعيسى بن مريم يوم القيامة ، فالمفروض سبحانه أعلم بذلك من غيره ، ولكن الله سبحانه فى هذه الصورة الساخرة ، هو ان عيسى لم يأمر احدا ، ولم يرض لاحد ان يتخذه الها ، والمفروض ايضا ان الله الذى يسأل ، كما يسأل اى انسان عن امر يجهله ، والمسئول هو عيسى نفسه الذى اتخذوه الها ، وتضيف السخرية جانبا آخر هو ادخال مريم فى ادعائهم انها اله ، وتكون الاجابة من عيسى نفسه أيضا بتكذيب الذين اتخذوه الها فيقول القرآن « واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شهيد » (٢) فالاستفهام فى الآية الأولى يتضمن سخرية واضحة ·

٣ ــ العداوة المزدوجة وامتدادها :

واعنى بذلك ازدواج العداوة بين اليهود والنصارى ضد الاسلام وامتداد هذه العداوة عبر العصور ضد الاسلام ، وذلك ان الصراع فى العصور الأولى كان فى ناحية العقيدة أبرز منه فى الناحية السياسية او النفعية ، فقد كان الصراع بين أصحاب الأديان بارزا فى رغبة أصحاب كل دين فى أن يكون دينهم هو الظاهر المرموق ، وأن يخفت صوت الأديان الأخرى بجوار صوته ، ويخبو بجوار بريقه ، واذا ارتبطت بهذا المعنى مصالح أخرى فانما تجىء تبعا أو فى المرتبة التالية ، ولكن التطلع الشديد الى المنافع الاقتصادية والسياسية ، وأساليب الحضارة وما استتبعته من تفتح آفاق جديدة وآمال متجددة أمام الأمم ، جعل المصالح الاقتصادية والسياسية تحتل المكان الأبرز فى الصراع بين أصحاب الأديان ويجىء صراع الأديان فى المرتبة التالية ، ونتيجة لذلك بدأ المسيحيون يشاركون اليهود فى نظرتهم الى الاسلام على أنه خطر يهدد كيانهم ومصالحهم جميعا ، وأخذ التقارب فى النظرتين ــ نظرة اليهود ونظرة النصارى الى الاسلام ــ يزداد ، وبرز هذا التقارب فى الحروب الصليبية ، ثم ازداد بروزا فى العصور التالية حتى اليوم ، تبعا لنمو هذه العوامل التى أدت الى التقارب فى النظرتين مضافا اليها الجهود الذاتية المتواصلة التى يبذلها اليهود لحرب الاسلام ، والتى لم تنقطع منذ عرف اليهود الاسلام حتى اليوم ·

---

(٦) سورة المائدة ١١٦ ، ١١٧ ·

ففى الحروب الصليبية حين برزت المطامع الدنيوية ، والمنافع الاستعمارية وأخذت تطغى على النزعة الدينية ، وضح هذا التقارب بين النظرتين اليهودية والمسيحية الى الاسلام ، ولكنهما بالطبع يغلفان هذه المطامع بغـــلاف الدين والعقيدة ، وهؤلاء دعاة الحروب الصليبية يصرحون بحقيقة هذا التقارب كما يقول باحثوهم أنفسهم ، « ان أحد أكبر دعاة الحروب الصليبية (سان برنار) قد دعا الى القضاء على الكفرة ــ يعنى المسلمين ــ بحد السيف من جهة ، والى التقرب من اليهود من جهة ثانية ، مذكرا بالحلف الذى كان قد قام قديما بينهم وبين الله » (١) ثم استمر هذا التقارب بين وجهتى النظر اليهودية والمسيحية ضــــد الاسلام تنميه المطامع ، وتغذيه الجهود اليهودية ، حتى بلغ حدا يقرب من الاتحاد ، وكأنه ليس بين اليهودية والمسيحية خلاف أو عداء ما دامت جهودهما موجهة ضد الاسلام ، وهؤلاء باحثوهم المعاصرون يقررون صلب هذه الحقيقة فيقولون « اليهودية والمسيحية هما على مستوى واحد ، اليهودية دين صحيح فقد تلقت كلام الله ، ولكنها توقفت فى منتصف الطريق والمأخذ الرئيسى عليها الوحيد فى الواقع هو أنها لم تقبل المسيح ، اذن هناك وسيلة للتوصل الى اتفاق ، وأما مع الاسلام فلا » (٢) فهم يقررون هذا فيما يشبه الدعوة الى الاتفاق بين اليهودية والمسيحية ضد الاسلام ، وتعميهم هذه الرغبة الملحة عن أبسط قواعد المنطق ، وتضطرهم الى المغالطة التى لا يسيغها أصغر العقول ، فهم يقررون فى الكلام السابق ان الخلاف بين اليهودية والمسيحية يسير الشأن ثم يصرحون بهذا الخلاف الذى يرونه يسير الشأن ، والذى يمكن تلافيه أو غض الطرف عنه ، فاذا هو أساس المسيحية نفسها ، وهو الاعتراف بالمسيح ، فاذا كان اليهود لا يعترفون بالمسيح نفسه على انه نبى او صاحب رسالة ، أو أى صفة دينية ، فمعنى ذلك بداهة أنهم لا يعترفون بالدين المسيحى جملة وتفصيلا ، فكيف يكون هذا خلافا يسير الشأن ؟ وكيف يمكن معه التوصل الى اتفاق بين اليهود والمسيحيين ؟ ومع أن هذا الخلاف بين اليهودية والمسيحية ، هو نفسه الخلاف بين اليهودية والاسلام ، حيث ان اليهود لا يعترفون بمحمد ، كما لا يعترفون بالمسيح ، فكيف يكون عدم اعترافهم بالمسيح يسيرا ويمكن التوصل معه الى اتفاق ، ثم يكون هذا الخلاف نفسه بالنسبة للمسلمين عسيرا ويستحيل معه التوصل الى اتفاق ؟

والأكثر من هذا غرابة انهم يحاولون الزعم بان الحروب الصليبية قد اوجدت روحا من التقارب بين المسيحيين الغربيين والمسلمين ، مع انهم يؤكدون فى الوقت نفسه ان هذه الحروب قد أوجدت التقارب الشديد بين اليهودية والمسيحية فى حربهما ضد الاسلام ، فمع ما قرره صاحب كتاب الاسلام فى الغرب من كلامه السابق ، يقرر أيضا هذا الكلام البالغ الغرابة والنكر ، فيقول عن المسيحيين

---

(١) الاسلام فى الغرب جان بول رو تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز ١٥٨ .
(٢) المصدر السابق ١٥٨ .

الغربيين نقلا عن كاتب آخر «ودفعهم الى نسيان التعصب الديني من أجل الانسانية الحقة ، فهذا (بودان) كما يقول المؤرخ (ميشليه) يبدأ في اعتبار العرب اناسا مثل غيرهم ، ويتابع ميشليه قوله : وعلم صلاح الدين المسيحيين حقيقة خطرة ، هي أن المختون في امكانه أن يكون قديسا ، وبامكان المسلم أن يولد فارسا بصفاء القلب والشهامة والمروءة) (٢) فقد كان اذن من الأحداث الغريبة في الغرب أن يصف شخص منهم العرب بمجرد أنهم آدميون وأنهم (أناس مثل غيرهم) . ثم يكون المؤرخون منهم هم الذين يعتبرون هذا حدثا جديدا ، ويعتبرون أنفسهم مؤرخين ، مع ان أبسط وصف وأيسره للمؤرخ حتى يستحق أن يكون مؤرخا أن يلم ببدهيات التاريخ ، وأوضح هذه البدهيات أن العرب ليسوا مجرد آدميين ، وانما هم الذين نقلوا العالم كله من ظلمات البداوة والتخلف الى مراحل الحضارة والتقدم ، ولم يكن مكانهم أو ذكرهم أو حضارتهم أو علومهم ومعارفهم في موضع الخفاء من وجه البسيطة ، وانما ظلوا قرونا عديدة ورايتهم لا تنافسها راية في العالم علوا ، وحضارتهم لا تشاركها في العالم حضـــارة ، وعلومهم ومعارفهم لا تشاركها أيضـــا — مجرد مشاركة — علوم ومعارف أخـرى ، ومن أقربهـا وأوضحها بالنسبة لمؤرخي الغرب ، حضارة العرب وعلومهم في مكان من الغرب نفسه وهو الأندلس ، هذه الحضارة التي لا ينازع منصف في أنها كانت المصباح الذي أنار للحضارة الحديثة طريقها الى التدرج والتقدم ، ولكن الغـــرب علماءه وباحثيه وخاصة مؤرخيه كأنهم لم يبلغهم من ذلك شيء ، ولم يبلغهم أن العرب أناس مثل غيرهم ، فالحروب الصليبية وحدها — لا تاريخ الاسلام ، ولا أمجاده ولا حضارته ومعارفه في قرونه الطويلة — هي التي جعلتهم يبدأون في التفكير بأن العرب آدميون كسائر الناس ، ثم يرفضون أن تتجاوز نظرتهم الى العـرب والمسلمين هذا القدر من الآدمية ، فلا يقبلون أن يتصوروا كون المسلم فارســـا يحمل شيئا من صفاء القلب أو الشهامة والمروءة كما يقولون ولذلك ينكرون على مؤرخهم أن يقرر هذه الحقيقة ويعلق باحثهم على كلام المؤرخ بقوله « قد يكون المؤرخ مبالغا » وذلك عقب الكلام السابق ، أما المؤرخ نفسه فمع تقريره الحقيقة السابقة الا أنه يفزع منها ويرى فيها خطرا ، حيث يبدأ كلامه السابق عن هذه الحقيقة بقوله « وعلم صلاح الدين المسيحيين حقيقة خطرة .. » ولكنهم يفصحون عن المعنى الحقيقي الذي يراود نفوسهم وتمتلئ به مشاعرهم ، وهو أن الحقيقة الصارخة المفزعة لهم أن احتكاكهم بالعرب والمسلمين في الحروب الصليبية علمهم أن في الاسلام قوة دافقة دافعة لا يقف أمامها شيء حين تتاح لهـا الظروف أو حين تدفعها الظروف الى الحركة ، ولذلك يقول باحثهم معلقا على الحديث السابق « لقد أحس المسيحيون الغربيون آنذاك — يعني بعد الحروب الصليبية وفشلها العسكري — بضرورة وجود سلاح فكري لمقاومة الاسلام بأساليبه .. » (٢) وليس معنى ذلك

---

(١) الاسلام في الغرب جان بول رو ١٥٩ .

ان الحرب الفكرية أو النفسية لم يبدأها الغرب الا بعد الحرب الصليبية ، وانما معناه ان الغرب حينئذ أيقن ان الاسلام بوصفه دينا أقوى مما كان يتصور أو يظن ، فبدأ يتوع ويخطط لحرب مدروسة منظمة من جميع وجوهها العسكرية والفكرية والنفسية والاقتصادية ضد الاسلام ، واستمرت هذه الحرب حتى اليوم.

ومن الوسائل النفسية التى حاول الصليبيون بها حرب الاسلام أنهم أثناء الحروب الصليبية دبروا محاولة لسرقة جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد انتدبوا شخصين فى صورة حاجين مغربيين استأجرا منزلا مجاورا لقبر الرسول ، وأخذا يحفران لينتقبا الجدار ويصلا الى الجثمان الكريم ، ولكن امر انكشف فى اللحظات الأخيرة بواسطة رؤيا منام أرشد النبى فيها عنهما (١) ..

فالعداوة للاسلام اذن ليست فى عصره الأول ، ولا فى عصر معين ، ولما كان الاسلام دعوة مطلقة لكل زمان ومكان ، لذلك كان يلزم لهذا الخلود أن يتضمن القرآن — دستور الاسلام — مقومات ذاتية تبقى معه ملازمة له ، كما يقول السيوطى « هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية — القرآن — ليراها ذوو البصائر (٢)» ومن هذه المقومات الذاتية فى القرآن ، والتى راعت العصور وما يستجد فيها السخرية كما سيأتى فى الأحاديث المخصصة لهذه النقاط السابقة ، ولا أعنى السخرية لذاتها ، وانما أعنى أن القرآن قد صاغ بعض أسلحة دفاعه فى أسلوب السخرية واذا أردنا شيئا من توضيح لنوع العداوة المزدوجة التى تمخض عنها التقارب المصطنع بين اليهودية والمسيحية الغربية ضد الاسلام ، والذى أخذ يبرز ويتضح منذ الحروب الصليبية نقول ان هذه العداوة قد دبرت ونظمت تنظيما مقصودا محكما بحيث تشمل كل أنواع الحروب التى عرفتها البشرية من حروب عسكرية الى اقتصادية الى نفسية بكل ما تشمله الحرب النفسية من فكرية وعقيدية ومعنوية وغير ذلك ، فقد رأينا آنفا دعوة زعمائهم ومفكريهم الى ايجاد سلاح آخر يحاربون به الاسلام بعد فشلهم العسكرى فى الحروب الصليبية ، ومن ذلك ما يورده صاحب كتاب الاسلام فى الغرب من أن « بطرس كاهن كلونى المشهور قال : من الخطأ أن نعطى الحركة المحمدية اسم البدعة المخجل ، يجب أن نفعل شيئا ضدها ، أى يجب أن نكتب .. ولكن اللاتين وعلى الأخص فى العصور الحديثة لا يجيدون الا لغاتهم القومية ، وهكذا لم يستطيعوا أن يعرفوا ضخامة هذه الغلطة ولا أن يسدوا عليها الطريق»(٣) فمن هذا نعلم أنهم أخذوا ينظمون حربا أقوى غير الحرب العسكرية التى لم تنجح فى الحروب الصليبية ، وكانت أول خطوة يسلكونها هى الدعوة الجادة الملحة الى تعلم لغة المسلمين العرب ، وقد أخذت هذه الدعوة طابع الأمور الهامة التى تناقش

---

(١) انظر القصة فى منزل الوحى محمد حسين هيكل ٥٨٥ — ٥٨٧ .
(٢) الاتقان فى علوم القرآن ١١٦/٢ .
(٣) جان بول رو ص ١٥٩ .

وتنظم على مستويات عليا ، ولذلك برزت هذه الحقيقة « فى سنة ١٣١١ ميلادية دعا مجمع فيينا الذى ترأسه البابا كليمونت الخامس الى احــداث كراسى فى الجامعات لتعليم اللغة العربية والعبرية » (١) وبعد أن أثمرت هذه الدعوة الى تعلم اللغة العربية ، بدأت الحملة المدبرة فى تنظيم وتخطيط دقيق هادف لبث هؤلاء الذين تعلموا اللغة العربية ونشرهم فى ارجاء العالم الاسلامى كله ، وهم الذين عرفوا بالمستشرقين والمبشرين ، وقد وجهوا همهم أول الأمر الى الدول الإسلامية الكبرى عددا واقتصادا ، هذه الدول التى يرون أن جهودهم فيها قد تكون أكثر اثمارا ، بخلاف مركز الاسلام فى الأرض العربية حيث يحتاج الى جهود أشد من حيث قوة وسيطرة الاسلام وثقافته على أبنائه ، ولذلك اختاروا أولا الدول الآسيوية البعيدة عن مركز الاسلام كالهند واندونيسيا ، كما يقول المؤلف السابق « وفى مطلع القرن السادس عشر نظمت الارســاليات الآســيوية الكبرى » (٢) وهكذا يحدثنا باحثوهم هم عن مهمة المستشرقين وأهدافهم الحقيقية التى خفيت على كثير من المثقفين المسلمين فى العصر الحديث ، وخدعوا عنها بعدة حجب غطت على عيونهم ، من أبرز هذه الحجب ضعف ثقافتهم الاسلامية الذى جعلهم يصدقون كل ما يكتبه المستشرقون عن الاسلام ، بل يعجبون به ويتعصبون له فى كثير من الأحيان ، وقبل هذا كله أن نفوسهم كانت مهيــــأة للاعجاب بالمستشرقين والتعصب لهم بحكم الظروف الســياسية التى خيمت على الأمة الاسلامية فى العصور السابقة ، والتى جعلت من الغرب غالبا ومن الأمة الاسلامية مغلوبا على أمره ، فليس بالغريب أن تكون نفوس كثير من مثقفى المسلمين مهيأة للاعجاب بالمستشرقين الذين يمثلون القوة الغالبة كما يقول ابن خلدون فى نظريته الاجتماعية « المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب » (٣) وقد يكون المستشرقون أدوا للعلم خدمات جليلة ، وقد يكون لهم الفضل أو معظم الفضل فى النهضة العلمية فى الشرق ، وقد يكون لهم الفضل أو معظم الفضل فى تأسيس مناهج البحث العلمى وأسسه الحديثة ، وقد يكون لهم فضل غير ذلك ، ولكنهم قبل كل شىء ارساليات خاضعة لجهات معينة ولتخطيط معين ينتهى الى نتيجة واحدة ، هى التى نادى بها « بطرس كاهن كلونى المشهور » فى دعوته المشار اليها آنفا من وجوب عمل شىء ضد « الحركة المحمدية » ، كالكتابة ، وقد أدى المستشرقون هذه المهمة فكتبوا ،واستطاعوا أن ينشروا سحابة ولو رقيقة من الالحاد أو التشكيك أو الاستهانة حول الاسلام وثقافته لدى بعض — وان لم يكن كثيرا — من المسلمين وخاصة المثقفين الذين أتيح لهم أن يطلعوا على ما كتبه المستشرقون ، وحين نضرب مثالا لذلك ، ننظر الى جولد تسهر الذى يعتبره الأكثرون من خير المستشرقين

---

(١) المصدر السابق ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق ١٦٠ .

(٣) مقدمة ابن خلدون (عنوان فصل) .

اعتدالا ومن أقلهم تحاملا وضغنا على الاسلام فيما كتب ، فنجد كتابه « مذاهب التفسير الاسلامي » في جملته صورة من هذه الحملة المنظمة الموجهة ضد الاسلام وثقافته ، وموضوع الكتاب كما يبدو من عنوانه دراسة للقرآن وتفسيره وما نتج عنهما من مذاهب في مختلف العصور ، والبريق الأخاذ المؤثر في بحث جولد تسهر الاطلاع الواسع العميق في العلوم الاسلامية ، وقد أستغل هذا البريق في تخطيط بعيد المدى ، يستهدف هدم أسس الاسلام أو التشكيك فيها ، فنجده في الباب الأول يجعل كل دراسته فيه وبحثه هادفا الى غاية واحدة ، هي نفي ان القرآن كلام الله ، ويجعل حجته في ذلك — وهي تناقض الواقع مناقضة صريحة — ان القراءات التي ورد بها القرآن تدل على أنه ليس له نص موحد ، ويعقب على ذلك بقوله « فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نص منزل أو موحى به يقدم في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصـــــــورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في نص القرآن » (١) ثم يصرح بالغاية الحقيقية التي يستهدفها من البحث كله فيقول « انما يمكن أن ينسب (القرآن) الى نفسه حق الصدور عن الله اذا جاء في قالب موحد متلقى من الجميع بالقبول » (٢) وفي سبيل الوصول الى هذه الغاية يرتكب كثيرا مما يخالف الواقع وتأباه أمانة البحث العلمي كادعائه ان القراءات ليست الا مجرد تعديل أجراه أفراد من المسلمين تصحيحا لما رأوه خطا في نص القران ، أو تأييدا لمذهب أو رأى يعتنقونه ، كقوله تعليقا على القراءة الواردة في الآية الثانية عشرة من سورة الصافات (بل عجبت ويسخرون) حيث يقول « ويبدو ان اسناد العجب الى ضمير المخاطب من قبيل التصحيح والتصويب »(٣) ويروى أيضا ان العلماء المسلمين حاولوا تصحيح أو تعديل آيات مما يزعم في فهمه للقراءات حيث يقول « بيد أن من أحدثوا التعديل المذكور لم يجروا مثله في الآية ١٦٦ من سورة النساء ٠٠ فتركوها دون تغيير لصعوبة التعديل بها » (٤) ٠

ثم يمضي في الباب الثاني وهو (التفسير بالمأثور) لينتهي أيضا الى غاية مقصودة وهي ان التفسير المأثور « وجوه من التفسير مختلف بعضها مع بعض ومتعارض بعضها مع بعض » (٥) وفي خلال الوصول الى هذه الغاية يرتكب أيضا ما تأباه أمانة البحث كمحاولته اثبات ضيق أفق العلماء المسلمين ، وضعف مداركهم حتى بالنسبة للقرآن ، وأنهم كانوا لا يصلون الى الفهم الصحيح للقرآن الا بالرجوع الى اليهود الذين أسلموا ، ومن ذلك قوله « كان يفترض عند هؤلاء

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامي جولد تسهر ص ٤ ترجمة د. عبد الحليم النجار ٠

(٢) المصدر السابق ص ٧ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٣ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٣٣ ٠

(٥) المصدر السابق ص ١٠٤ ٠

الأحبار اليهود فهم ادق للمدارك الدينية العامة الواردة فى القرآن وفى أقوال الرسول » (١) وبينما نجده يحاول الحط من قدر محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه جميعا نجده فى سياق تمجيد اليهود يرفع ابن عباس الى درجة لا تسيغها العقول ولم يدعها له أحد من المسلمين مهما تغالى فى حب ابن عباس وتقديره ، ومن ذلك قول جولد تسهر « وفى كل مشكلات التفسير يبدو ابن عباس كأنه متنبىء بأخبار الغيب ، وأحيانا كأنه مظهر الهى » (٢) ، ومع ذلك فليس تمجيده لابن عباس هو موضع الغرابة لذاته ، بل موضع الغرابة أنه يشير بوضوح الى أن السبب الوحيد فى أعجابه بابن عباس وتمجيده هو لجوء ابن عباس فى بعض مشكلات التفسير الى بعض أحبار اليهود ، كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار اليهوديين اللذين أسلما ، ولذلك يقول أيضا عن ابن عباس مؤيدا رأيه بكلام مستشرق آخر « هذا الأب الاول لتفسير القرآن — يقصد ابن عباس — والمحصول الذى تعلمه من أهل الكتاب قد بينه ليونى كيتانى أخيرا على وجه ممتاز » (٣) وفى سبيل ذلك يجعل نافع بن الأزرق — الذى كان مجرد زعيم من زعماء الخوارج — شيخا لعلماء اللغة فيقول فى سياق مساءلة نافع بن الأزرق لابن عباس عن معانى بعض ألفاظ من القرآن واستعمالها فى الشعر العربى على ما أحاط بهذه القصة كلها من شك تاريخى يقول « وهذه مبايعة من عالم اللغويين المتأخرين لأبى التفسير » (٤) ، ويمضى جولد تسهر فى مواضع كثيرة يظهر التعصب لليهودية دون ابداء حجة او منطق ، اللهم الا مجرد التحامل على الاسلام دون حجة صحيحة او منطق سليم كقوله تعقيبا على تحديد شخصية الذبيح ، هل هو اسحاق أم اسماعيل ؟ فيقول مثلا « فقد أخذ محمد فى احدى السور المكية قصة التوراة دون تسمية الابن المعين للتضحية ، والظاهر ان محمدا نفسه باخبار من اليهود والنصارى كان لا يفترض غير اسحاق ذبيحا ، ويبدو أيضا أن أحدا لم يشك فى ذلك فى القرن الاول للاسلام » (٥) ، بل يمتد تحامله على الاسلام الى تحامل على العرب باعتبارهم عنصرا ، وفى سبيل ذلك يرتكب أيضا مغالطات تاريخية قد يكون هو بحكم دراسته الواسعة للثقافة الاسلامية أعلم من كثير من غيره بأنها مغالطات ، ومن ذلك اتهامه للمسلمين العرب بالعنصرية والتعصب الطبقى بتحقيرهم للموالى المسلمين ، مع أنه من بدهيات التاريخ ان البشرية كلها فى تاريخها الطويل لم تعرف هذه المثالية التى تجلت فى العصر الأول من الاسلام ، ومنها محو التفرقة العنصرية والطبقية ، تحت شعار القرآن الكريم « ان اكرمكم

---

(١) المصدر السابق ص ٨٨ ·
(٢) المصدر السابق ص ٩٣ ·
(٣) مذاهب التفسير الاسلامى جولد تسهر ص ٨٨ ·
(٤) المصدر السابق ص ٩٠ ·
(٥) المصدر السابق ص ٩٩ ·

عند الله أتقاكم » وشعار محمد صلى الله عليه وسلم « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » هذه المثالية التي طبقت في العصر الأول أكمل تطبيق على الحياة الاجتماعية كلها ، وفي أمثلة كثيرة بارزة مشهورة في التاريخ الاسلامي ، سما فيها كثير من الموالي الى رتب وأمكنة كان يغبطهم عليها المجتمع الاسلامي كله ، ومع ذلك يتعرض لقصة عكرمة مولى ابن عباس ، فيقرر أولا عن عكرمة قوله « يبدو أن هذا الرجل ـ عكرمة ـ الذي كان موضع ثقة ابن عباس قد أساء استغلال علاقته بابن عباس ، فنشر باسمه مالم يسمعه منه أصلا » (١) ومع ان هذا واضح في تجريح عكرمة ، بل في نزع الثقة والأمانة عنه ، مما يجعل المسلمين بطبيعة الحال ينفضون أيديهم منه ، ويضمرون له النفور والازدراء ، الا أن جولد تسهر يضيف بعد حديثه السابق قوله « روى أنه عند دفن عكرمة السالف الذكر لم يتكامل من الرجـال عدد يكفي حتى لحمل جنازته ، على حين ظهر القرشيون في جمع كبير لتشييع جنازة كثير الشاعر في نفس اليوم ، حقا كان ملحوظا في ذلك باعث تحقير المولى حتى بعد وفاته بازاء تشريف العربي الأصيل الحرية » (٢) وهكذا نجد أنه هو نفسه يسوق السبب في انفضاض المسلمين عن عكرمة ، ولكنه يتجاهله ويتجاهل منزلة الشعراء في المجتمع العربي القديم وخاصة أعلام الشعراء وأفذاذهم مثل كثير عزة ، يتجاهل هذا كله لينحرف الى هواه في الصاق تهمة بالمسلمين العرب هو يعلم بحكم ثقافته انهم منها براء ٠

وكذلك يمضي في الباب الثالث (التفسير في ضوء العقيدة) لينتهي الى أهم نتيجة يستهدفها من الباب ، وهي الاعجاب الشديد بالمعتزلة ، لا لأنهم أصحاب فكر ورأى واجتهاد ، بل لأنهم يخالفون جمهور المسلمين في مواقف وآراء كثيرة ، ويخرجون في رأيه عي حرفية القرآن كانكارهم لوجود الجن مع أنه ورد في القرآن (٣) ومثل انكارهم للسحر مع أنه ورد في القرآن وفي حديث قصة سحر اليهود للرسول (٤) ٠

وكذلك في بابه الرابع (التفسير في ضوء التصوف الاسلامي) ينتهي منه الى ربط الثقافة والفكر الاسلامي بالثقافة والفكر الاغريقي ، فيجعل الثقـــافة الاغريقية مصدرا استقت منه المذاهب الاسلامية واعتمدت عليه (٥) ، واستمد منه فلاسفة الاسلام أفكارهم ، بل يحاول جولد تسهر أن يصل بهذا الغمز الى القرآن نفسه على أساس أن الأفكار الاغريقية مصدر للقرآن نفسه حيث يقول في

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامي جولد تسهر ص ٩٥ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٩٥ ٠

(٣) أنظر المصدر السابق ١٦٦ ٠

(٤) أنظر المصدر السابق ١٦٣ ، ١٦٤ ٠

(٥) أنظر المصدر السابق ٢٠٤ ـ ٢١٠ ـ ٢١٧ ٠

حديثه عن الغزالى « وهنـــا نرى الغزالى الذى يتهمه خصومه ــ غير متجنين على الحقيقة ــ بانه يجعل افكار الفلسفة الاغريقية اساسا للقرآن على أنهـــا معناه الباطن » (١) .

وأخيرا يعترف جولد تسهر نفسه بالحملات الفكرية المنظمة ضد الاسلام فيقول تعقيبا على ايمان محمد عبده ومدرسة المنار التابعة له بان الاسلام فيه الكمال « هذا الاقتناع واليقين هو الذى يحفظ لهذه المدرسة بقاءها باطراد أمام التجاهات التبشير الصادرة عن الجوانب المسيحية التى افتتحت مجالا عريضا فى مصر على الأخص منذ الاحتلال الانجليزى والتى تصدر مراكزها كتبا مؤلفة باللغة العربية وتقود حملات على الاسلام من الجدل لا تنقطع » (٢) .

وهكذا نجد شخصا مثل جولد تسهر يوصف بانه من أكثر المستشرقين اعتدالا واقلهم جورا عن الحق وتحاملا على الاسلام ، ومع ذلك نجده يحمل هذه الروح التى يتطاير منها شرر الحقد على الاسلام من كل جانب ، فكيف بمن هم أكثر منه جورا ، وأشد منه بغضاء للاسلام ؟ وكيف بالمبشرين الذين تبـــدو مهمتهم واضحة جلية وهى حرب الاسلام فى مواطنه أو فيما يجاورها ؟ مهمتهم واضحة لأنهم لا يقنعونها بقناع العلم ، ولا يغلفونها بغلاف البحث عن حقائق علمية أو تاريخية أو غير ذلك كما يفعل المستشرقون ، وبهذا نجد كتاب جولد تسهر مجرد حرب نفسية فكرية عقدية منظمة ضد الاسلام وخاصة القرآن .

٤ ــ المنافقون :

ابتلى المسلمون بالمنافقين منذ ظهر الاسلام فى المدينة ، وقد عانى المسلمون منهم عناء قاسيا مرا ، فان المنافقين وقفوا جهودهم وتفكيرهم وكل طاقاتهم على حرب الاسلام والمسلمين ، وقد كان فيهم القادة والزعماء الذين تسمع كلمتهم ، ويطاع أمرهم ، وكان فيهم ذوو العقول العميقة الخبيثة ، التى تحسن الكيد ، وتجيد المكر وتنمق الحديث ، وقد استـــطاعوا كما سيأتى أن يكونوا شبكة مترامية الأطراف ، منظمة الخيوط ، يرتبط بها كل أعداء الاسلام ، من اليهود والمشركين ، وأصحاب المذاهب المحطمة والمصالح المهددة ، وكل من له مصلحة فى مقاومة تيار الاسلام ، كما أنهم قد استطاعوا أن يخلقوا حربا كاملة التنظيم العســـكرى والاقتصادى والنفسى ضد المسلمين ، فيحزبون الأحزاب ، وينسقون بين جهود أعداء الاسلام فى حربهم العسكرية والاقتصادية ، وأن ينظموا حربا نفســـية تستهدف تحطيم وحدة الصف داخل المسلمين أنفسهم وخاصـــة فيما يتعلق بالحساسية القديمة بين الأوس والخزرج من جانب وبين الأنصار والمهاجرين من

---

(١) المصدر السابق ٢٢٥ .
(٢) مذاهب التفسير الاسلامى جولد تسهر ٣٦٩ .

جانب آخر في خلق حساسيه جديدة بينهم ، كما تستهدف هذه الحرب النفسية زعزعة ثقة المسلمين بعقيدتهم من جانب وبقيادتهم من جانب آخر ، بنشر موجات متلاحقة منظمة ، من الدعايات والفتن والتشكيك في كل شيء ، حتى في سلوك أخص من يتصلون بقيادة المسلمين وأقربهم اليها ، كفتنة حديث الافك ، وقد كان اليهود من أبرز الاصابع التي تحرك هذه الفتن من وراء الحجب (١) ولئن كان الاسلام بوصفه عقيدة قد أثبت أنه أقوى من هؤلاء الأعداء جميعا،ومن حروبهم على اختلاف أنواعها ، ولئن كانت قيادة المسلمين الأولى ممثلة في شخص الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم قد أثبتت أيضا انها أقوى من ذلك كله وأكثر ثباتا في نفوس أتباعها وأنصارها من التأثر بأن عدو وبأى نوع من الحرب ، لئن كان هذا كله فان ذلك لا يمنع من أن هؤلاء الأعداء وما نظموه من حــــروب مختلفة الأشكال ، قد أرهقوا المسلمين وكلفوهم من أرواحهم وأموالهم ونفسياتهم شططا ، وجعلوهم يهتزون أحيانا ولكنه اهتزاز الأغصان من شجرة صلبة شامخة أمام الرياح ، وهذا العناء الشديد الذي عاناه المسلمون من الأعداء وحروبهم المختلفة . كان من الطبيعي أن يجعلهم في حاجة ملحة الى أسلحة متنوعة ، يصدون بها هذه الحروب المتنوعة ، وقد تكفل لهم القرآن بأهم هذه الأسلحة ، ومنها سلاح السخرية ، الذي اتخذه المنافقون أيضا سلاحا من أهم الأسلحة لحرب الاسلام والمسلمين (٢) .

٥ ـ الحرب الفكرية العقدية :

لم يكن حرب المنافقين للاسلام فترة عارضة ، أو زمنا محددا ، كما ان المنافقين لم يكونوا ممثلين لنسب معين ، أو مذهب أو جهـــة خاصة ، وانما هم كل عدو يستطيع أن يعمل في الخفاء ، بأى صورة من صور التخفى ، وبأى سلاح من الأسلحة الخفية الصورة ، وان لم تخف آثارها ، ولذلك استمر حرب النفاق ضد الاسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تشعب حزبه وتعددت صوره وأسلحته ، وان كان التاريخ يؤكد أن أصابع اليهود كانت أقوى محرك للنفاق سواء في حياة الرسول أو ما ولى ذلك من العصور .

وقد كان انتصار الاسلام وسيطرته على شبه الجزيرة ، ثم فتوحاته الواسعة المدوية ، ويأس المنافقين يأسا كاملا من الحروب العسكرية ، كل ذلك جعلهم يركزون جهودهم على الحرب الفكرية وحرب العقيدة داخل المجتمع الاسلامي . مستهدفين حرب الاسلام باعتباره عقيدة بتشكيك المسلمين في دينهم وخاصـــــة

(١) أنظر للمثال سيرة ابن هشام ٢/١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٧٠ ـ ١٧٤ .
(٢) أنظر المصدر السابق ٢/١٥٠ وتفسير الرازي ١/١٩٠ .

اسسه التى يقوم عليها ، ومستهدفين أيضا ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، سواء فى مجال السياسة والحزبية ، أو فى مجال الفكر والعقيدة أو فى مجالات أخرى عديدة •

ولكن الحقيقة التى يلمسها بوضوح كل دارس للتاريخ الاسلامى ، أن هذه الفتن التى نشبت فى الأمة الاسلامية فى وقت واحد ، أو فى فترات متقـــاربة متلاحقة ، فى كل ميـــدان من ميادين السياسة والفكر والعقيدة ، لم تكن وليدة الصدفة او نتيجة التطور فى المجتمع ، ولم تكن وليدة مجرد المطامع والأغراض الشخصية او العصبية كما يطيب لكثير من الباحثين أن يقفوا عنده ، بل الحقيقة التى لا تحتـــاج الى كبير عناء فى الاستنتاج أن هذه الفتن كانت مدبرة منظمة فى تخطيط واحكام ، ومهما تباعدت أماكن هذه الفتن ، أو تعددت صورها ، فمن غير العسير على الباحث أن يربط بعضها ببعض ، وأن يجمع خيوطها التى تبـــدو متباعدة متباينة ، فاذا هى شبكة مترابطة ، تمسك بها أيد معينة ، وتحركها عقول محددة ، ومن الغريب ان التاريخ نفسه يشير دائما الى هذه الأيدى وهـــذه العقول ، ويحدد اشخاصها فى كثير من الأحيان ، ولكن الأكثر غرابة ان الباحثين فى هذه الفتن يكادون يقفون عند مجرد عرضها التاريخى ، أو ربط بعض منها ببعض ، دون أن يهتموا بربطها بالأيدى المحـــركة لهـــا ، والعقول المدبرة من ورائها •

وليس من شأن هذا البحث أن يقف عند مثل هذه الأمور التى تحتاج الى بحوث خاصة ، وانما يمر بها ليشير الى ما يعنيه منها •

وبالنسبة للحرب الفكرية والعقدية التى لجأ اليها المنافقون نستطيع أن نمسك ببعض الخيوط من حياة الرسول ثم نتابع بعضها على ضـــوء التاريخ والتسلسل المنطقى ، فالتاريخ يحدثنا ان أحبار اليهود وعلماءهم ، كانوا فى حياة الرســـول لا يألون جهـــدا ، ولا يتركون فرصـــة ، الا يبثون فيها سمومهم لنشر التشكيك الدينى بين المسلمين،وكأنهم أحسوا ان جهودهم لا تبلغ بهم ما يريدون وهم على دينهم من اليهودية ، حيث يجعلهم هذا موضع النفور من المسلمين ، فلجأ كثير منهم الى الاسلام خداعا ونفاقا ، واخذوا ينشرون التشكيك • ومن ذلك قول المؤرخين : وممن تعوذ بالاسلام ودخل فيه وهو منافق من أحبار يهود ســـعد ابن حنيف وزيد بن اللصيت ونعمان بن أوفى بن عمرو وعثمان بن أوفى ، وزيد ابن اللصيت الذى قال حين ضلت ناقة النبى : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال النبى حين بلغه •• وانى والله ما أعلم الا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها فهى فى هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها •• وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون

منهم ويستهزئون بدينهم » (١) ثم ساق ابن هشام عددا كبيرا آخر من هؤلاء الأحبار المنافقين ، وساق بعض ما أثاروه من تشكيك (٢) .

وحتى اذا نظرنا الى خير رجلين من هؤلاء الأحبار الذين دخلوا الاسلام فأولاهم المسلمون ثقتهم واحترامهم ، وهما عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، فاني وان كنت لا أملك لأن ما يمكن أن يكون فيه تجريح صريح لهما ، الا أننا حين نتتبع بعض أخبارهما في الاسلام فاننا لا نملك أن ندفع عن نفوسنا بعض الريبة التي تحيط بهما ، ومن ذلك ما امتلأت به كتب التفسير من الاسرائيليات المنسوب معظمها الى عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، وواضح من هذه الاسرائيليات أنه لا يقصد بها خدمة الاسلام ، أو فتح مورد ثقافي للمسلمين كما كان ينتظر من شخصين آمنا بدين جديد فأخلصا له ولاخوانهم فيه، بل الواضح منها قصد بين الى التلبيس على عقول المسلمين ، ومزج حقائق دينهم الواضحة النيرة بأساطير وخرافات لا تناسب التفكير السليم ، والعقول التي تحمل أي شيء من الوعي والادراك .

ومن الأخبار التي تتجلى فيها الريبة أكثر وضوحا ما تروى الروايات من أن عبد الله بن سلام « جاء حتى أخذ بعضادتي باب المسجد فقال أنشدكم بالله يا قوم ، أتعلمون أني الذي أنزلت فيه ومن عنده علم الكتاب ؟! » (٣) فهذا التصرف من عبد الله بن سلام يبدو في ظاهره شيئا عاديا ، ولكن قرن هذا التصرف بسلوك المسلمين حينذاك يجعله نشزا غريبا لا تستريح اليه النفس ، فكأنه بهذا الأسلوب يخاطب قوما غرباء عليه ، وكأنه بذلك يحاول أن يدفع عن نفسه ريبة ولو في صفة من صفاته سواء أكان يحس هذه الريبة منهم فيه ، أم يحسها هو في دخيلة نفسه ، ولم يعهد في أحد ممن دخلوا الاسلام بصدق مثل هذه اللهجة .

وكذلك كعب الأحبار بالاضافة الى الاسرائيليات الكثيرة المنسوبة اليه ، نجد في أخبـــاره مثل قوله « ان الله قسم رؤيته وكلامه بين نبيين موسى ومحمد » (٤) فرؤية الله وكلامه اللذان ثبتا لموسى حتى بنص القرآن لم يدعهما أحد من المسلمين لمحمد ، بل ولا يتفق مع جوهر الاسلام نسبتهما الى محمد صلى الله عليه وسلم ، فماذا يقصد كعب باثارة هذا بين المسلمين ؟ وهذه عائشة تقول حين سمعت كلام كعب « معاذ الله لقد قف شعري مما قلت ، من زعم

---

(١) سيرة ابن هشام ١٤٩/٢ ، ١٥٠ .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١٧٠/٢ .
(٣) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٥/١ .
(٤) مذاهب التفسير الاسلامي جولد تسهر ١٠٤ عن صحيح الترمذي ١٨٦/٢ .

أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » (١) فعائشة تدرك أن هذا كلام مدسوس على الاسلام ، وتتهمه صراحة بأنه فرية ، بل من أعظم الفرية على الله وعلى الاسلام ·

ثم توالت فتن فكرية عقدية أخذت تنتشر بين المسلمين من مصادر معينة بعضها ظهر ، وبعضها لم تصل اليه الأيدى ، منها فتن عبد الله بن سبأ الذى أخذ يتجول فى الأمصار الاسلامية ليكون بعيدا بعض الشىء عن قبضة الخلافة ، واخذ يشكك عامة المسلمين فى دينهم بنشر أفكار دخيلة على الاسلام كفكرة كعب السابقة ، ومنها قوله ان عيسى سيرجع حيا الى الناس بعد موته فمحمد أولى بهذا ، واذن فمحمد سيرجع حيا بعد موته كما يرجع عيسى ، بالاضافة الى فتن سياسية جامحة استطاع أن يغرس جذورها بل أن ينميها وكان من نتائجها ثورة الأمصار على عثمان وقتله ، وما استتبع ذلك من أحداث غيرت وجه الحياة فى الأمة الاسلامية ·

ومن هذه الفتن المبكرة فى تاريخ الاسلام ما ورد من « أن رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فارسل اليه عمر وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ قال أنا عبد الله بن صبيغ فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه وفى رواية أخرى فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة ثم تركه حتى برأ ، ثم عاد ، ثم تركه حتى برأ ، فدعا به ليعود ، فقال ان كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا ، فأذن له الى أرضه ، وكتب الى أبى موسى الأشعرى لا يجالسه أحد من المسلمين » (٢) ·

ومن هذه الفتن العقدية المبكرة أيضا هذه الفتنة الجامحة المشهورة فى ادعاء أن عليا اله ، وقد ثارت هذه الفتنة فى حياة على نفسه ، وحاربها بكل قوة وعنف حتى انه حرق زعماءها بالنار ، ومع ذلك لم يستطع أن يقضى عليها ، بل قال اتباعهم حين حرقوا بالنار : الآن ازددنا ايمانا بالوهية على ، فانه لا يحرق بالنار الا رب النار ، ومثل هذا المعنى من الواضح ان وراءه عقولا مدبرة ، تخشى أن تقتل الفتنة قبل أن تؤتى ثمارها ، فتوجد حجة تبرر استمرارها حتى تحقق الفتنة غايتها ·

ومن هذه الفتن التى أطلت برأسها فى المجتمع الاسلامى بقوة ، المذاهب التى طغى عليها الاسلام بانتشاره وسيطرته على مواطنها ، فان أصحابها لم يستكينوا ، بل أخذوا بالتعاون مع أصحاب الفتن يحرصون على نشرها بين

---

(١) المصدر السابق ·
(٢) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/٤ ·

المسلمين ، ومن هذه المذاهب المانوية (١) والزرادشتية والمزدكية ، وقد كبدت المسلمين عناء شديدا فى مقاومتها فكريا وحرب أصحابها عسكريا ، وهذه المذاهب منسوبة الى أصحابها المنادين بها ، ومنها مذهب التجسيم الذى يقول أصحابه ان الرجوع الى غير الجسم محال ، ومنها مذهب التناسخ بين الأرواح والأجسام (٢) .

وكذلك الأمر بالنسبه للقرآن نفسه ، فقد تزعم اليهود حرب القرآن منذ بدء الاسلام ، ولا يزالون حتى اليوم ، يواصلون هذه الحرب بكل ما أوتوا من قوة وحرص ، فبالاضافة الى التشكيك والتلبيس الذى حاولوا أن يحيطوا به بعض معانى القرآن فى حياة الرسول ومن وليه من الخلفاء ، تسوق الروايات أنه « كان أول ما ظهر من الكلام فى القرآن مقالة تعزى الى رجل يهودى يسمى لبيد ابن الأعصم ، فكان يقول ان التوراة مخلوقة ، فالقرآن كذلك مخلوق ، ثم أخذها عنه ابن أخته وأشاعها ، فقال بها بنان بن سمعان الذى اليه تنسب البنانية ، وتلقاها عنه الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية » (٣) فاليهود اذن أول من أشاع فتنة القول بخلق القرآن ، هذه الفتنة التى هزت فكر المجتمع الاسلامى عصورا عديدة ، وشغلت مفكرى المسلمين ، بهذا البحث الجدلى الذى لا طائل تحته عن أن يفكروا فيما هو أجدى على الاسلام والمسلمين ، وانقسم فيه مفكرو المسلمين قسمين ، يكذب بعضهم بعضا ويحارب بعضهم بعضا ، ومدبرو الفتنة يتفرجون ويستمتعون بأن أثمرت فتنتهم هذه الثمرة الكبيرة ، ومما يدل على ان اشاعة مثل هذه الفتنة ليست وليدة فكر واحد ، أو نتيجة مصادفة ، اننا نجدها شبيهة بكثير من الفتن السابقة لها ، مما يدل على تخطيط وتدبير يكمن وراء هذه الفتن كلها ، فطريقة الاستنتاج فى قول هذا اليهودى ان التوراة مخلوقة فالقرآن كذلك مخلوق ، تشبه الاستنتاج فى قول اليهودى السابق ان عيسى سيرجع ، فكذلك محمد سيرجع ، وتشبهان الاستنتاج فى قول اليهودى الأسبق ان موسى رأى ربه وكلمه ، فكذلك محمد رأى ربه وكلمه ، واذن فالفتن متعددة مختلفة ، ولكن مصدرها واحد ، وأسلوب اثارتها ونشرها أيضا كذلك . على أنهم لم يكتفوا بمجرد اثارة الفتنة ونشرها ، بل يتابعون ويحركون نارها كلما همت أن تخبو أو تنطفىء ، ومن ذلك اثارة البحث فى ألفاظ عربية واضحة الدلالة فى اللغة العربية بقصد التشكيك العقدى فى الاسلام ، كاثارة البحث فى الألفاظ التى تتعلق بذات الله سبحانه واتخاذ شبهات منها مع أنها لا تحمل شيئا من شبهة ، ولم يرد قط أن عربيا سأل عن معناها أو التوى

---

(١) نسبة الى مانى الايرانى مدعى النبوة عام ٢٤٢ م ودعوته خليط من المذاهب والأديان وتعتمد على تقديس الكواكب .

(٢) والقول بالهين للخير والشر . انظر الصيام فى القرآن محمد الدسوقى ص ١٩ .
(انظر عن هذين المذهبين للمثال تفسير الرازى (مفاتيح الغيب) ١/٣٣٦ .

(٣) اعجاز القرآن للرافعى ١٦٠ .

عليه فهمها فى نحو عصرين كاملين من الاسلام ، من هذه الألفاظ (استوى) فى قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» ولفظ (اليد) فى قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) ونحو ذلك من الألفاظ التى أثيرت على انها شبهات وشغل بها علماء الكلام وعلماء التفسير (١) ومن الواضح ان اثارة مثل هذه المسائل سهلة ميسورة فيكفى لشخص مغرض الى الفتنة ان يدعى الجهل بمعناها او الرغبة فى اجلاء اللبس عنها ، أو يدفع بعض الناس الى السؤال او البحث فيها حتى تصل الى مستوى العلماء الباحثين ، وتصبح بعد ذلك ــ لا قبل ذلك ــ شبهة ، وأصبحت هذه الفتن والشبهات موضع اهتمام لعلماء المسلمين ، كما أنها استطاعت ان تؤثر فى بعض السذج والبسطاء ، حتى أحس العلماء ان شيئا ولو واهنا من الالحاد والشك الممتزجين بالجهل قد خيما على بعض المسلمين كما يقول الباقلانى فى خطبة كتابه عن القرآن مشيرا الى بعض الأسباب التى دفعته الى تاليف الكتاب « وذكر لى بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه ــ القرآن ــ وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه ، وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم الى عظم ما يقولونه اخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم ‥ والجهل فى هذا الوقت أغلب والملحدة عن الرشد أبعد » (٢) ٠

بل ان بحوث العلماء فى اعجاز القرآن لم يخل بعضها من التأثر بهذه الفتن ، كما يقول السيوطى « وقد خاض الناس فى وجه الاعجاز كثيرا ، فبين محسن ومسىء ، فزعم قوم ان التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة الذات وأن العرب كلفت فى ذلك ما لا يطاق وبه وقع عجزها وهو مردود » (٣) فمثل هذا التفكير الذى يدفعه السيوطى ، والأسلوب الذى يساق به من الواضح أنه دخيل على الاسلام ٠

ومن الفتن التى شابت بحوث علماء المسلمين حول اعجاز القرآن ، مسألة القول بالصرفة ، وأول من نادى بها صراحة من المتكلمين ابراهيم النظام شيخ الجاحظ ، حيث نادى بأن اعجاز القرآن ليس فى ذاته ، وانما لأن الله صرف العرب عن معارضته مع قدرتهم على المعارضة ، فكان صرف الله لهم عن المعارضة هو المعجزة ، وقد تابع الجاحظ هذا القول فنادى به ودعمه (٤) ٠ ولكن أستاذ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى ينعى على هذا القول نعيا شديداً ، ويسخر منه سخرية بالغة فيقول « أرأيت لو أن نبيا قال لقومه : ان آيتى ان أضع يدى

---

(١) انظر للمثال الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/٦ ــ ٤٠ ٠
(٢) اعجاز القرآن للقاضى أبى بكر الباقلانى ١/٤ ــ ٥ (هامش الاتقان للسيوطى) ٠
(٣) الاتقان فى علوم القرآن ٢/١١٨ ٠
(٤) اعجاز القرآن عبد الكريم الخطيب ١/١٥٦ ٠

على راسي هذه الساعة ، وتمنعون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم ، وكان الأمر كما قال ، مم يكون تعجب القوم ؛ أمن وضع يده على راسه أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم ؟ » (١) ٠

ومن الفتن التي شابت بحوث بعض العلماء ، تلك الفتنة التى نشرت بين المسلمين أخيرا ومؤداها « ان النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد عليه الأذى تمنى فى نفسه أن ينزل من القرآن ما يثنى على الأصنام ليكسب قريشا ، وحين نزلت سورة النجم تضخمت الأمنية فى نفسه فلما بلغ (ومناة الثالثة الأخرى) وسوس له الشيطان فقرأ (تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى) وروايات أخرى منها (انها لمع الغرانيق العلى) وانهن لهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن لهى التى ترتجى) ٠٠ » (٢) وقد اشتهرت هذه الفتنة بأنها مسألة الغرانيق . وتزعم الفتنة ان هذه المسألة هي التفسير لقوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم آياته والله عليم حكيم » (٣) ولقوله تعالى « وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ، اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » (٤) ، ولكن الامام محمد عبده يوضح ما فى هذه المسألة من فتنة ، ويشير الى ما يكمن وراءها من هدف مقصود ، ومقصد مدبر لاشاعة الفتن العقدية بين المسلمين ، مشيرا أيضا الى هؤلاء المتربصين لاثارة الفتن من أعداء الاسلام ، ومنهم المنافقون واليهود ، مستشهدا بكلام بعض العلماء السابقين الذين أشاروا الى هذه الفتنة (٥) ٠

على أن هذه الجهود الدائبة المدبرة لحرب الاسلام وخاصة القرآن ، والتى تشير كل الدلائل على ان أصابع اليهود دائما أقوى محرك ومدبر لها ، لم تنقطع فى عصر من العصور ، بل لا زالت مستمرة حتى اليوم بقوة وعنف ، والصحف والأنباء لا تزال تردد الأخبار عن المحاولات المسعورة من جانب اليهود لتحريف القرآن الكريم ونشره محرفا مزيفا فى مختلف الدول الاسلامية من قارتى آسيا وأفريقيا (٦) ٠

والحقيقة التى لا ريب فيها ان الاسلام لم يحارب فى عصره الأول ولا فى

---

(١) دلائل الاعجاز ٣٥٣ ٠

(٢) دروس من القرآن الكريم للامام محمد عبده تقديم طاهر الطناحى انظر ١٢٣ ــ ١٣٠ ٠

(٣) سورة الحج ٥٢ ٠

(٤) سورة الاسراء ٧٣ ــ ٧٥ ٠

(٥) انظر دروس القرآن للامام محمد عبده ١٢٨ ، ١٣٨ ٠

(٦) انظر للمثال صحيفة أخبار اليوم المصرية عددى ٢٩ يولية ، ١٣٠ يولية سنة ١٩٦٨ ٠

عصر معين حسب ، ولكن حرب أعدائه لم تنقطع ولم تفتر جهودها فى أى عصر من العصور ، ولازال حتى اليوم يحاط بحرب ضارية عاتية ، تدبرها وتنظمها مصادر عديدة متنوعة . فبالاضافة الى جهود اليهود ، وجهود التحالف والتقارب بين اليهودية والمسيحية الغربية ضد الاسلام كما أشرنا ، هناك جهود مذهبية أخرى ، بعضها قديم ، وبعضها مستحدث ، ومنها ما يهدف الى حرب الاديان كلها وفى مقدمتها الاسلام ، ومنها الشيوعية التى تقوم على الايمان بثلاثة والكفر بثلاثة ، الايمان بكارل ماركس ولينين وستالين ، والكفر بالله وبالدين ، وبالملكية الخاصة ، والتى تؤمن ايمان الاعتقاد بأن الدين مخدر للشعوب (١) ، ومنهـا الوجودية التى تدعو الى انكار وحرب كل ما جاءت به الأديان من روحانيـات وغيبيات ، تحت شعار « لا وجود فى الوجود لغير ما هو قائم ماثل أمامك » (٢) فكل شيء غير محسوس ولا واقع مادى فى نظرهم خرافة يجب أن تحرر منها عقول الشعوب ، ويرون ان الحقيقة هى ما يمكن أن ينتفع بها الفرد انتفاعا ماديا ، والحقيقى هو ما يؤدى الى النجاح (٣) ، كما يقررون ذلك ، ويعنون به النجاح المادى أعنى المحسوس المباشر .

ومما لاشك فيه ان هذه العداوات والحروب الفكرية التى منى بها الاسلام تستهدف فى أهم جوانبها الحرب النفسية ضد المسلمين ، بكل ما يعرفه الباحثون المحدثون للحرب النفســية من أهداف ، وأهمها حرب الفكر ، والعقيدة والشجاعة ، والثقة (٤) ، والهدف الاول وهو زعزعة الفكر والعقيدة أهم الأهداف لانهما مصدر القوة المعنوية التى تمنح صاحبها قوة العزيمة والثبات ، واحتمال المشقة والتضحيات ، فاذا اهتزت العقيدة ، تيسر تحقيق الهدف الثانى وهو النيل من الشجاعة والثقة فى النفس وفى المبدأ ، ونعود فنقول ان هذا الجانب ، وهو جانب العداء الموجه ضد الاسلام ، أهم دواعى السخرية وأهدافها ، لأن السخرية بطبيعتها أسلوب عدائى ، وهى من أمضى الأسلحة فى تحطيم معنويات العدو ، كما قرر الباحثون ، وكما يؤيد الواقع الملموس ، ومن هذا نفهم ان القرآن حين اختار السخرية سلاحا من أسلحة مقاومته وحربه لأعدائه انما يعطى المسلمين سلاحا قويا نافذا ، يصدون به سخرية أعدائهم من جانب ، ويسهمون به فى تحطيم معنويات العدو وثقته من جانب آخر ، وهذا العرض السريع الموجز لاهم العداوات التى أحيط بها الاسلام لا يقصد منه هنا تفصيل موقف القرآن منه ، فلذلك مواضعه من البحث ، وانما يقصد منه بيان سبب مهم من أسباب سخرية القرآن .

---

(١) انظر النظام الشيوعى ماهر نسيم ١٨ — ٦٠

(٢) الاتجاهات المعاصرة فى الفلسفة عبد الفتاح الديدى ١٧٠ وما بعدها .

(٣) نظرية فى الانفعالات جان بول سارتر ترجمة د. سامى محمود ص ٧٧ وما بعدها .

(٤) الحرب النفسية صلاح نصر ١٠٨/١ .

ثانيا ـ الأعداء وآثارهم :

ومن شأن هذه العداوات المختلفة ، والأعداء المتنوعين ، والحروب المتعددة أن تترك آثارا عديدة مختلفة في نفوس طرفي الخصومة والصراع ، المسلمين واعدائهم ، فبالنسبة للمسلمين يمكن الاشارة في ايجاز الى أهم الآثار التي يمكن أن تتركها في نفوس* عامتهم أو بعض من عامتهم ، تلك الحروب الرهيبة القاسية التي صبها عليهم أعداؤهم ، على أن أترك تفصيل ذلك وتفصيل موقف سخرية القرآن في هذا الميدان الى المواضع الخاصة بذلك .

١ ـ الناحية المعنوية :

لو تصورنا حياة المسلمين وهم يلقون من العذاب والاضطهاد ما يفوق طاقة البشر وليس كل فرد ـ بحكم اختلاف التكوين وتركيب الطباع ـ قادرا على تحمل هذه الرهبة والقسوة ، ولذلك نجد بعض المسلمين ، اضطر تحت وطأة هذا العذاب أن يظهر غير ما يبطن ، وأن يجاري الأعداء فيما يريدون منه وهو الرجوع عن الاسلام مظهرا لهم أنهم قد بلغوا منه ما يريدون ، كعمار بن ياسر الذي عذره الرسول ، وعذره القرآن نفسه في ذلك ، ونزل في حقه من القرآن « من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (١) واذا كان عمار بن ياسر قد بلغت به شدة العذاب من جانب ، وعدم القدرة على الاحتمال هذا الحد ، فان آخرين لم يبلغ بهم الاضطهاد هذه الدرجة ، أو كانوا أكثر احتمالا من عمار ، فظلوا مؤمنين ظاهرا وباطنا يحتملون كل ما يصب عليهم ويوجه نحوهم ، ولكنهم بوصفهم بشرا ، فيهم ما في الطبيعة البشرية من ضعف يقرره القرآن في قوله «وخلق الانسان ضعيفا » ، يمكن أن نتصور معاني كثيرة قد تجول في نفوسهم ، أو تراودهم بين الحين والحين ، وان لم يظهر عليها أحد قط من الناس ، قد نتصور من هذه المعاني شعورا بالضعف ، أو شعورا بالهوان ، أو شعورا بقسوة الأحداث ، أو ضعف النصير من الناس ، بل اننا يمكن أن نلمس شيئا ولو يسيرا من ذلك في نفسية الرسول نفسه من خلال كلامه في بعض الأحداث القاسية المرة التي اجتازها في صراعه مع الأعداء ، ومن ذلك قصته حينما لجأ الى ثقيف مستعينا بهم على جبروت قريش واضطهادهم له ولأصحابه ، فاذا ثقيف تتنكر له ، بل تزيد من آلامه وحزنه ، وتبالغ في اهانته ، بأن تأمر العبيد والأطفال باتباعه يستهزئون به ويسخرون منه ، ويرمونه بالحجارة ، فيقول عندئذ في بعض قوله ما مضمونه « اللهم أشكو اليك ضعفي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين [٢] » .

---

(١) ١٠٦ سورة النحل .

ولذلك نجد القرآن كثيرا ما يسلي الرسول ويسري عنه همومه ، كقوله تعالى فيما يتعلق بالسخرية « **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** » (١) وكقوله أيضا عن سخرية أعداء النبي به « **واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون** » (٢) ويسوق القرآن أيضا صورة من سخرية أعداء النبي به ، ولكنه يوجه اليهم سخرية بالغة ، حيث يسخر منهم في عقيدتهم فيجعلهم لا يعبدون شيئا ، وانما يعبدون مجرد الهوى في النفس ، ويسخر منهم في عقولهم فيجعلهم في مرتبة الموازنة بينهم وبين الأنعام ، ثم يفضل الأنعام عليهم ، حيث انها تؤدي في الحياة دورها الطبيعي الذي خلقت من أجله ، أما هم فيخالفون الفطرة التي فطر الناس عليها ، ويحاربون غريزة أولية في الانسان وهي الشعور بالخالق ، وهي ما يسميها علماء النفس غريزة التدين ، فتفضيل الأنعام عليهم اذن وان بدا في صورة السخرية البالغة الا أنه معنى حقيقي لا تجوز فيه ، يقول القرآن الكريم عن السخريتين منهم ومن القرآن « **واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا ؟ ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ، أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** » (٣) ولذلك يدرك المفسرون للقرآن وضوح هذه المواساة للنبي ، فيكررون كثيرا في هذه المواضع انها تسلية له صلى الله عليه وسلم (٤) ، ومع ذلك فمما لاشك فيه ان هذه التسليات وان كانت منوطة بشخص النبي الا أنها ليست قصرا عليه وحده ، وانما هي تسلية للمسلمين جميعا لأنهم يعانون مع النبي بعض ما يعانيه ، وقرن التسلية بشخص النبي ليس الا من باب التسرية عن المسلمين في شخص النبي ، ثم كون القرآن ينوط الآلام بشخص النبي في عرضه لما يتعرض له من آلام ثم تسليته عنها حكمة عميقة يحسها المؤمنون ، فاذا كان النبي على جلال قدره في نفوسهم ، وعلى ما له من منزلة عند ربه ، يعرضه ربه لهذه الآلام ويضعه في هذه الصورة فان غيره من المؤمنين أولى أن يكون في هذا الموضع .

ففي مثل هذه السخرية يجد المسلمون تسرية عما تحمل نفوسهم من هم وضيق ، وما تلقيه حملات الأعداء فيها من شعور بالضعف والهوان ، أو من وساوس أخرى قد تحوم حول الثقة بالنفس أو العقيدة أو الحزب الذي ينتمي

---

(١) سورة الأنعام ١٠ .

(٢) سورة الأنبياء ٣٦ .

(٣) سورة الفرقان ٤١ ــ ٤٤ وانظر تقرير المعاني السابقة في تفسير الكشاف للزمخشري ٣٢١/٢ ــ ٣٢٣ .

(٤) انظر للمثال تفسير جزء عم للامام محمد عبده ص ١١ سورة النازعات .

اليه ، أو النصير المرتكن اليه ، وعلماء النفس يتررون فى بحوثهم الكثيرة التى يؤيد بعضها بعضا كما سبق أن السخرية من خير الأسلحة فى الصراع والحروب ، وانها سلاح فعال سواء فى صف أصحاب السخرية من تخفيف آلامهم ورد الثقة اليهم ، وشعورهم بالتعالى والتفوق أو فى صف أعدائهم ، فالسخرية ذات فائدتين ، أو تضرب عصفورين بحجر كما يقولون ، فهى فى الوقت الذى تجدى فيه على الساخرين هذه الفوائد ، تجدى عليهم أيضا انها تحطم معنويات العدو ، وتحارب أقوى عصب يستفيد به أى محارب فى حربه ، وهو عصب الثقة بالنفس وبالموقف الذى ينتمى اليه ، ونلاحظ ان القرآن يبلغ من افادة المسلمين بسخريته حدا بليغا مؤثرا ، حيث يسوق لهم سخرية أعدائهم ، مكررا اياها على أسماعهم من باب الاستهانة بها والاستخفاف بشأنها ، ثم يتبعها بسخريته التى تحطم قوة الأعداء ، فى الوقت الذى ترفع فيه ثقة المسلمين بأنفسهم وبدينهم وتقويها ، حين ترتسم فى أذهانهم صورة أعدائهم فى هذا الوضع المهين الذى يترفع عنه كل ذى عزة أو عقل ، كما صور لهم القرآن أعداءهم عاكفين على عبادة نزوات وأهواء يجرون وراءها ويهلكون فى سبيلها أنفسهم وأموالهم ، مصورا اياهم أيضا فى موازنة بالغة السخرية بينهم وبين الأنعام .

وكذلك فى سخرية أخرى يصور القرآن فيها سخرية الأعداء ، عارضا اياها بكل ما تحمل نفوس الأعداء ، من تهوين قدر الرسول ، ومحاولة ابعاد صفة النبوة عنه ، واتهامه بالسحر ، ثم يدحض القرآن هذه الحجج والأضاليل قبل أن يسخر منهم ، ثم يضعهم فى صورة مزرية مهينة ، حين يرسم صورتهم فى الآخرة وقد قرن بعضهم الى بعض فى الأصفاد كأنهم السوائم ، وأمامهم جهنم كأنها تعقل ، فتبدى لهم الغيظ ، وتسمعهم زفير الحقد والوعيد ، واذا هم يلقون فى مضايقها بأصفادهم وأغلالهم كما يلقى المتاع ، أو كما يقذف الحطب الى النار ، ثم يوازن القرآن بين حالهم هذه وحال المؤمنين ، فبينما يكون الاعداء فى هذه الحال ، يكون المؤمنون فى نعيم لا يوصف جماله ولا متعته ، ومهما يكن رأى أعداء الاسلام فى هذه الصور ، فالمهم فيها بالنسبة لموضوعنا ، ان المؤمنين يعتقدون فيها وفى صدقها اعتقاد اليقين ، وهذا يكفى لأن يجعل نفوسهم تتأثر بها وبأهدافها فتقوى من معنوياتهم وثقتهم بأنفسهم وبدينهم وربهم ، وتهون فى الوقت نفسه من شأن أعدائهم فى نفوسهم وهذه ثمرة ليست باليسيرة ، كما ان أعداء المسلمين المخاطبين بهذه الصور ، ومن يتابعهم ، مما لا شك فيه أيضا أنه مهما كذبوا فى صدق هذه الصور ومهما تكن نظرتهم اليها ، فانها ستلقى فى نفوسهم نوعا من التأمل فيها، ثم احتمال صدقها،ومهما يضعف هذا الاحتمال فيكفى فيه أن يضعف يقينهم بدينهم ، ويشككهم فى معتقداتهم وموقفهم ولو شكا يسيرا ، وليس المهم فى قوة الشك أو ضعفه ، بل المهم زعزعة اليقين بموقفهم ، لأن اليقين مراحله ليست متعددة ، بل يكاد يكون مرحلة واحدة ، فاما يقين ، واما عدم يقين ، وزعزعة اليقين بأى درجة تمحو عن صاحبها صفة الايمان والاعتقاد .

ففى مثل هذه السخرية التى تضرب الى عدة اهداف ، يقول القرآن الكريم « وقالوا مال هذا الرسول ياكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ، او يلقى اليه كنز او تكون له جنة ياكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصـــورا ، بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، اذا راتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، واذا القوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ، لا تدعوا اليوم ثبورا واحـدا وادعوا ثبورا كثيرا ، قل اذلك خير ام جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا ، لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا » (١) ٠

فقد عرض القرآن أولا سـخرية أعداء الرسـول به ، بكل ما تحمل هذه السخرية من تهكم وتهوين ، كما يقول الزمخشرى فى تفسير (وقالوا مال هذا الرسول ياكل الطعام ٠٠ الآية) وفى هذا استهانة وتصغير لشأنه ، وتسميته بالرسول سخرية منهم وطنز (٢) كأنهم قالوا ما لهذا الزاعم أنه رسول ٠٠ أى ان صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا يأكل الطعام كما نأكل ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ٠٠ » (٣) ولكن القرآن لا يكتفى بأن يسخر منهم ، وانما يعرض سخرياتهم نفسها ليشعرهم ويشعر المسلمين معا انها غير ذات شان ، ولو كان القرآن يرى فيها خطرا أو تأثيرا على نفوس المسلمين ما ساقها ، ويزيد القرآن على السخرية السابقة من أعدائه ، فيصور موقفا طريفا يجمع فيه بين المشركين الذين يعبدون غير الله ، وبين هؤلاء المعبودين من دون الله ، فيسأل الله سبحانه هؤلاء الآلهة على مرأى ومسمع ممن كانوا يعبدونهم (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ؟) فيكذب الآلهة عابديهم ، مقرين هم بوحدانية الله فى ألوهيته ، مسفهين لهؤلاء الذين عبدوهم ، فيقول عقب الآيات السابقة مباشرة « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ، فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ، وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا » ٠

والمفسرون يدركون اثر هذه السخرية سواء فى نفوس المسلمين أو فى

---

(١) سورة الفرقان ٧ ـ ١٦ ٠
(٢) الطنز : السخرية انظر صحاح الجوهرى مادة طنز ٠
(٣) انظر تفسير الكشاف للآية السابقة ٣/٢٠٩ ٠

صفوف أعدائهم ، كما يقول الزمخشري في تفسير الآيات السابقة « فائدته ان يجيبوا – يعني الآلهة المزعومين – بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم اياهم فيبهتوا وينخذلوا وتزيد حسرتهم ويكون ذلك نوعا مما يلحقهم من غضب الله وعـــذابه ، ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحـــالهم ونجـــاتهم من فضـــيحة اولئك » (١) ·

٢ – بالنسبة لأعداء المسلمين :

مما هو واضح في التاريخ الاسلامي ان القرآن ومنه السخرية كان أشد ما يقض مضاجع أعداء الاسلام ويثير ثائرتهم ، والأخبار والقصص في ذلك كثيرة مشهورة ، ذلك لأنه وخاصة السخرية فيه كان يشعر أعداء الاسلام الأولين ، ان المسلمين ليسوا من الهوان والضعف الذي يوحي به ظاهرهم ، ما داموا يملكون هذا الكلام الذي يفيض تعاليا وشعورا بالعزة والقوة والاستهانة بالأعداء ، حتى ان المسلمين وهم في هذا الاضطهاد والضعف الظاهري يستهزئون ويسخرون من أعدائهم على قوتهم وكثرتهم ، والساخر بالطبيعة لا يكون هو الضعيف ، بل لابد أن يكون هو الأقوى والأعز ، الذي يملك زمام الموقف ويثق بالنصر ، بل الملاحظ في القرآن الكريم ان السخرية مركزة في الآيات والسور التي نزلت بمكة ، فهي في هذه الآيات تبلغ قمة الاستهانة بالأعداء والازدراء بهم ، وخاصة بالعقيدة ، وبالزعماء أئمة الكفر ، فكان يجن جنون المشركين ، حين يقسون على ضعف المسلمين وقلتهم حتى يخيل اليهم أنهم بلغوا منهم ما يريدون أو كادوا ، واذا هم يجدون هؤلاء الضعفاء القلة ، يقولون كلاما لا يدل على ضعف ولا حتى أمل في الاستسلام أو الاستكانة ، وانما يفيض بالشعور بالعزة ، والأمـــل المستحكم في النصر والغلبة ، بل يسخرون من الأعداء ، ويبلغون منهم في هذه السخرية مبلغا عظيما ، وهذه قصة تدل على ما للقرآن وسخريته من أثر في نفوس أعدائهم ، فأم جميل زوج أبي لهب ، حين سمعت ما نزل فيها من سخرية ، أو ما قاله محمد في زعمها من هجائها والسخرية بها تكاد تفقد صوابها ورشدها، وتقول الرواية « ان أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر ، وفي يدها فهر – حجر ملء الكف – من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله فلا ترى الا أبا بكر ، فقالت يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله اني لشاعرة ثم قالت :

مذمما عصـــينا ۞ وأمـــره أبينـــا

ودينه قلينا »(١)

---

(١) تفسير الكشاف ٢/٢١٣ ·

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٧٨ اشارة الى سورة المسد ·

وحين نتصور مبلغ سخرية القرآن من امرأة في ذروة المجد والشرف ، ثم هي انثى ككل امرأة ، يعنيها قبل كل شيء صورتها ومظهرها في نفوس الناس وقلوبهم ، واذا هي تجد من يمحو عزها وشرفها ، ويقبح صورتها حتى يجعلها مجرد حمالة للحطب ، بل أكثر من ذلك يرسم صورتها وكأنها دابة تقاد بحبل من ليف في عنقها ، حين نتصور امرأة ، وامرأة في هذا الموضع من قومها ، تبلغ منها سخرية القرآن هذا المبلغ ، يمكن أن نتصور ما تتركه هذه السخرية في نفسها ٠

وكذلك المشركون وأعداء الاسلام ، حين نتصور اعتزازهم بقوتهم ، وقوة الأمل الذي يراودهم بل يسيطر على أحلامهم في أن يقتلوا هـذا الدين ، وأن يعيدوا هؤلاء الصابئين المستضعفين من المسلمين الى حوزتهم ، ثم يفاجأون بأنهم يسخرون سخرية البالغ العزة والقوة والازدراء لأعدائه ، حين نتصور ذلك وغيره في نفوس أعداء المسلمين ، يمكن أن نتصور ما تتركه سخرية القرآن من أثر في نفوسهم ، وأيضا زعماء الكفر ، هؤلاء الذين شبوا على الزهو والخيلاء ، وسيطرت معاني العزة والتعالي على نفوسهم ، حتى انهم ليجعلون هذا الزهو رأس مالهم الذي يحفظ عليهم سيادتهم ، ويبسط سلطانهم على من هم دونهم ، حين يجدون المسلمين الضعفاء يسخرون منهم ومن زعامتهم ومن خيلائهم في قرآنهم ، يمكن أيضا أن نتصور مبلغ ما تثيره هذه السخرية في نفوسهم ، ويمكن حينئذ أن نتصور الأسباب التي دفعتهم الى حشد كل مواهبهم من السخرية المباشرة في مواجهة المسلمين ، وكل مواهبهم من الهجاء الشعري ضد المسلمين ٠

ثالثا ــ العادات والتقاليد :

من أهم ما يميز المجتمعات ، في نظرة علماء الاجتماع اليها ، سيطرة العادات والتقاليد عليها ، كما يقول بيجهوت « ان المحاكاة كانت القوة التي صاغت المجتمع البدائي في قالبها وأنها لا تزال أعظم الأصول الجوهرية في المبادىء الاجتماعية ٠٠ ان عملية المحاكاة تسير الآن في مناحي الحياة كافة ٠٠ المحاكاة قسرية ولا شعورية. وهي من القوة بالدرجة التي نعاني فيها الألم اذا أحسسنا بعدم التوفيق في المحاكاة ٠٠ » (١) وكما يقولون « وسلطة العادة على المجتمع أمر غير منازع فيه فالعادة تكون قوة يمثلها باكون بأنها المدبر الأساسي لحياة الانسان ويقول عنها (لوك) انها قوة أعظم من قوة الطبيعة » (٢) وقد اصطدم الاسلام أول أمره بمجتمع لا تسيطر فيه قوة الا قوة العادات ، فلا يوجد قانون ، ولا سلطة تشريعية ولا سلطة تنفيذية ، وانما هي سلطة العادات التي تسير المجتمع ، وتتحكم في كل شئونه ، حتى في نفسيات أفراده ، بخضوعهم وانقيادهم الكامل لكل ما هو

---

(١) نفسية المجتمع موريس جينز برج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ٥٣ ٠
(٢) السلطة في المجتمع للدكتور عبد العزيز عزت ٥٩ ٠

موروث متبع ، عن الآباء والأجداد ، ومن ذلك ما يروى من أن أبا لهب عم الرسول كان أول أمره يعطف عليه ويدافع عنه كما كان يفعل أبو طالب ، فأراد بعض المشركين أن يفسد عطفه على ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فدسوا الى أبي لهب من يقول له ان محمدا يزعم أن عبد المطلب في النار ، فعندئذ بدا عليه التنكر لابن أخيه ، فأرسل اليه يسأله : أين عبد المطلب ؟ فأجابه الرسول : مع قومه ، فأخذ أبو لهب يطمئن ، ولكنهم دسوا اليه أن يسأل محمدا : وأين قومه ؟ فأجاب النبي : في النار ، فعند ذلك أعلن أبو لهب عداءه الشديد لابن أخيه (١) فهذه السيطرة الشديدة للعادات والتقاليد عقبة كئود أمام أى مصلح وأمام أى تشريع ، وعلماء النفس يقررون ان السخرية من الأسلحة الفعالة فى مقاومة العادات والتقاليد وفى تحقيق التغير الاجتماعى الذى كان من أبرز أهداف القرآن الكريم وسخريته ، فيقولون « اذا كان للضحك صبغة محافظة من حيث هو أداة نواجه بها الأجنبى فانه على العكس قد يقوم بوظيفة النقد والاصـــلاح بالنسبة الى الجماعة ذاتها لأنه بسخريته من العادات البالية والتقاليد العتيقة انما يعمل على خلق جو جديد فى صميم الجماعة ومن هنا فان للضحك وظيفة اجتماعية نافعة .. هو وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من التغير الاجتماعى » (٢) :

ومن هنا نفهم جانبا مهما من اهتمام القرآن الكريم بالسخرية اللاذعة من عاداتهم ومحاكاتهم ، وخاصة ما يتعلق بالآباء ، فان القرآن يعرض أولا تمسكهم الشديد باتباع آبائهم على أى وضع ، وفى أية حال ، ثم يسخر من آبائهــم ، ومن اتباعهم لآبائهم الذين تصورهم هذه السخرية ، وكثيرا ما يسوق القرآن هذه السخرية فى استفهام يبرز السخرية المقصودة ، كقوله « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، ومثل الذين كفروا كمثل الذين ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يهتدون » (٣) .

ويرسم القرآن صورا عجيبة من سخريته بهم فى اتباعهم لآبائهم دون وعى أو تفكير ، بل أحيانا يبلغ من سخريته بهم أن يجعل سبب اتباعهم لآبائهم ومحاكاتهم لهم انهم وجدوا آباءهم ضالين عن الهدى وعن التفكير السليم وعن الطريق السوى ، فأغراهم هذا الضلال باتباعهم ، بحيث كان السبب فى اقتدائهم بآبائهم يقينهم من ضلال هؤلاء الآباء ، وأنهم لو عرفوا ان آباءهم مهتدون أو على نهج قويم لرفضــوا اتباعهم ، وفى هذا غاية ما يمكن أن يصور من سفه الرأى وخطل السلوك ، ويمهد القرآن لهذه السخرية بصورة أخرى يجعل فيها

---

(١) انظر هامش السيرة للدكتور طه حسين .
(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك ٦٩ .
(٣) سورة البقرة ١٧٠ ، ١٧١ .

هؤلاء الذين يسخر منهم يتذوقون عذابا غريبا عجيبا يتجرعونه على مراحل من شجرة عجيبة غريبة ، وشراب اشد منها هولا وغرابة ، ثم يجعل هذا العذاب كله من أجل شيء واحد ، هو اختيارهم عامدين للضلال والسفاهة على الهوى والصواب متمثلا فى اقتدائهم بهؤلاء الآباء ، فيقول بعد عرضه لصور من النعيم الذى يمتع به المهتدون « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، انا جعلناها فتنة للظالمين ، انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ، ثم ان مرجعهم لآلى الجحيم ، انهم الفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » (١) .

وهكذا يركز القرآن حملته على العادات والتقاليد ، سواء تمثلت فى اتباع الآباء أو فى سلوك وعادات أخرى ، مؤثرا جانب السخرية ، لأنها كما يقرر علماء النفس والاجتماع ، وكما يؤيد الواقع الملموس ، من أنجع الوسائل فى زعزعة ايمان المجتمعات بالعادات والانقياد لها ، كما سيأتى فى مواضع أكثر تفصيلا .

رابعا ـ الاصلاح الداخلى :

ومع أن القرآن يركز حملته على أعداء الاسلام ، الا أنه لا يترك الجبهة الداخلية للمسلمين ، فيجعل لها نصيبا بارزا من السخرية ، حماية لها مما قد يشوب صفاءها ، أو يفسد طهرها من مختلف الانحرافات ، أو الانسياق وراء الغرائز والنزوات ، واتباع المطامع والأهواء ، وما يجر ذلك كله فى المجتمع الاسلامى ، من انقسامات ، ومن انحرافات ، أو ظهور أخلاق لا ترضاها مبادىء الاسلام .

وعلماء النفس يعرفون للسخرية أثرها فى المحافظة على الجبهة الداخلية للساخرين وتقويمها ، بالاضافة الى هدف التغيير الاجتماعى الى ما هو أفضل ، كما سبق (٢) ونرى القرآن الكريم يولى هذا الجانب من سخريته اهتماما واضحا بابراز العيوب التى ينهى عنها أو يأمر بتحاشيها ، فمثلا ينهى القرآن عن أنواع من السلوك ، كانت شائعة فى المجتمع الجاهلى ، كالتعالى والتجبر ، الذى يرون فيه مظهرا للسيادة وبسطة النفوذ ورهبة الجانب ، وكان هذا المعنى يدفع السادة من الكبار ، وطلاب السيادة والمتطلعين اليها من الشباب الى اصطناع مظاهر فظة خشنة من السلوك والحركات ، فى المشى والكلام ، وحتى فى اللباس ، ولكن القرآن لا يسلك فى النهى عنها أسلوب المعانى المجردة ، أو الوعيد والترهيب ، وانما يسلك أسلوب السخرية البالغة التى ترسم فى ذهن السامع صورة منكرة

---

(١) سورة الصافات ٦٣ ـ ٧٠ وانظر تفسيرى الكشاف والطبرى لهذه الآيات .
(٢) انظر الفصل السابق ومراجعه.

شديدة النكر لمن يزاول هذا المسلك ، او يتزيى بهذا المظهر ، وبذلك تتحول صورة المظاهر التى كان يصطنعها السادة وطلاب السيادة الى صور منفرة لا تثير اعجابا ولا اكبارا ، ولا توهم سيادة ولا ارهابا ، وانما تثير سخرية وضحكا وازدراء لمن يدنو منها ، كوصفه لمظاهر الكبرياء التى كان يتمثل بها السادة ومقلدوهم ، والتى يمكن ان توجد فى اى مجتمع بدافع حب السلطان ، او العتو والتعالى على الناس ، فيصور القرآن صورة لشخص متعجرف متعال على الناس ، يمشى شامخا بأنفه ، معرضا عنهم بوجهه ، مختالا مزهوا بكبريائه ، ولكنه يقرن هذه الصورة كلها ، بصورة جمل مريض بداء معين ، هو الصعر ، والصعر داء يعرفه العرب فى الابل ، يصيب الواحد منها فيلوى عنقه ، فلا يستطيع الجمل الذى يصيبه هذا الداء أن يمشى معتدل العنق ، وانما يمشى دائما معوج الرقبة ملتويها وكذلك من مظاهر الخيلاء والتعالى التى كان يصطنعها السادة وطلاب السيادة ، اصطناع مشية خاصة تدل على بروز موضع صاحبها فى المجتمع ، وتكاد تميزه عن غيره من الناس ، واصطناع صوت خاص أيضا يتسلح به حينما يحتك بالناس ويريد أن يبرز هيبته وجبروته لهم ، وبالطبع يجنح هذا الصوت الى الارهاب والتخويف ، بأن يكون قويا مدويا شديد النفاذ الى الآذان ، ولكن القرآن يشوه تلك المشية بأن يجعلها بغيضة ممقوتة ، ثم يعمد الى هذا الصوت المصطنع ، فيقرنه بأبشع صورة وأنكرها ، وهى صورة حمار ناهق ، وبذلك يفقد هـذا الصوت تأثيره وهدفه ، بل يتحول الى عكس المقصود منه ، فبدل أن يثير فى نفس سامعيه الوجل والخشوع والرهبة ، يصبح بسخرية القرآن منه لا يثير الا السخرية من صاحبه والتهكم به ، يقول القرآن عن ذلك كله ، فى هذا التصوير الموجز الساخر البليغ على لسان لقمان وهو يوصى ابنه « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لايحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » (١) .

---

(١) سورة لقمان ١٨ ، ١٩ وانظر فى تفسيرها وتفسير لفظ تصعر الكشاف للزمخشرى والقاموس المحيط للفيروزابادى وأساس البلاغة للزمخشرى مادة (صعر) .

السخرية والحرب النفسية

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »

الحرب النفسية كما يعرفها الباحثون قديمة يشير اليها ويرويها التاريخ منذ عرف التاريخ ووسائل الحرب النفسية قد تكون أحيانا عفوية تمليها ظروف الصراع بين خصمين ، ومحاولة كل منهما أن يقهر خصمه ويتغلب عليه ، فيسلك كل وسيلة يرى فيها تحطيم شوكة خصمه ، وشل قوته ، بما تهيئه له ظروفه ، وظروف خصمه أيضا ، ولعل هذه العفوية هي التي جعلت الحرب النفسية قديمة قدم التاريخ ، أو أشد قدما ، حين يحكم الباحثون اليوم على بعض ظروف الصراع القديم بين الجماعات والامم على أنه حرب نفسية ، في حين أن الذين صدرت منهم هذه الوسائل قد لا يكونون قد قصدوا بها الحرب النفسية بالمعنى الذى يعنيه الباحثون ، وانما صدرت منهم كوسائل تمليها شدة الحرص على سلوك كل الوسائل الممكنة ضد الأعداء .

ولكن الباحثين عندما يضعون الحرب النفسية موضع الدراسة العلمية المخططة ، يرون أنها تستهدف « النضال من أجل عقول الرجال وارادتهم » (١) والمقصود بالرجال الأعداء ، بمعنى محاولة التأثير فى عقيدتهم وتفكيرهم ، وفى قوة اراداتهم وعزيمتهم ، لأن محور القوة الحقيقية فى أى طرف من أطراف الصراع ، هو العقيدة والارادة ، ومن الواضح أنه ليس المراد بالعقيدة مجرد العقيدة الدينية ، وانما المراد أن يكون أحد طرفى الصراع مؤمنا بموقفه من الخصومة ، وأن ايمانه بهذا الموقف فى درجة العقيدة المتمكنة من النفس ، فالطرف الذى يملك هذا الايمان سواء أكان مصدره دينيا أم غير دينى ، ويملك الارادة للدفاع عن هذه العقيدة ، هو الطرف الأقوى دائما فى أى صراع ، ومهمة الحرب النفسية أن تضعف من هذا الايمان ، وهذه الارادة ، والطرف الذى يستطيع أن يؤثر فى

---

(١) الحرب النفسية صلاح نصر ٢٣٩/١ .

ايمان خصمه بموقفه ، وفي ارادته ، هو الطرف الذى ترجى له نتيجة الصراع ، ولأهمية هذا المحور ، ودوران نتائج الحروب حوله ، اخذ يحتل في العصر الحديث مكانا بارزا في الصراع بين الدول ، بل يمكن ان يقال أنه اصبح أبرز مجال في الصراع بين الأمم والشعوب ، حتى (قيل في تاريخ الحربين العالميتين ان الحرب النفسية كانت السلاح الذى كسب الحرب) (١) ونتيجة لذلك اصبحت الحرب النفسية ميدانا مستقلا أو خاصا ، تحشد له الدول أفكارها وتخطيطها وامكانياتها ، واصبح في الجيوش العسكرية أقسام وادارات مختصة بالحرب النفسية مثل (قسم الحرب النفسية – مهام قسم الحرب النفسية – التنظيم للحرب النفسية) (٢) ، ولئن كانت الحرب النفسية في تحديد أهدافها لدى خبراء الحرب النفسية (توجه ضد الفكر والعقيدة والشجاعة والثقة) (٣) فان وسائلها غير محددة ، بل تشمل كل وسيلة يمكن أن تؤثر في أى ناحية من هذه النواحي التي تندرج تحت ما يسمى بالقوة المعنوية للعدو ، ويمكن أن توصف بأنها كل وسائل الحرب غير العسكرية .

وبالنسبة للقرآن الكريم قد يبدو غريبا لدى بعض الناس أن يقال انه استهدف الحرب النفسية بصورة يبدو فيها القصد واضحا ، ولكن الحقيقة التي لا يرتاب فيها كل متأمل في القرآن الكريم أنه جعل الحرب النفسية ضد أعدائه هدفا محددا مقصودا ، بل ومخططا أيضا ، فالسخرية نفسها كما تراها في كل صورها الموجهة الى الأعداء نوع من الحرب النفسية ، وسلاح من أسلحتها ، وكذلك حديث القرآن الى أعدائه أو عنهم ، يمكن أن نستشف منه في جملته القصد الواضح الى الحرب النفسية ، وحتى في التخطيط العسكرى الذى ينظمه القرآن ضد اعدائه ملزما المسلمين أن ينفذوه نجد انه يهدف الى أن تكون الحرب النفسية غرضا مقصودا فيه .

وحين نتأمل ابرز آية في القرآن الكريم تنظم للمسلمين وتأمرهم بالحشد العسكرى للأعداء نلمس فيها استهداف الحرب النفسية كهدف أساسى مع الحرب العسكرية ، وذلك في قوله تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » (٤) فالآية كما يبدى ظاهرها ، وكما يفهمها المفسرون ، وكما هو الواقع تأمر المسلمين بأن يحشدوا كل قواهم العسكرية لأعدائهم أعداء الله ، ولكن تأملا غير طويل ولا عميق يبدى لنا في الآية ما هو أوسع من ذلك مدى وأبعد غاية ، ويبرز لنا خطة واضحة

---

(١) المصدر السابق ٢٢٩/١ .
(٢) الحرب النفسية صلاح نصر ٢٢٩/١ .
(٣) المصدر السابق ٢٢٩/١ .
(٤) الآية ٦٠ سورة الأنفال .

للحرب النفسية مصاحبة للحرب العسكرية ان كانت هناك حرب عسكرية ، ومستقلة بذاتها ان لم يكن قتال عسكري ، وذلك ان الآية لم تأمر بالقتال مباشرة بل ولم تجعله غاية مباشرة للاعداد والحشد العسكرى ، فنحو ذلك يؤديه مثل قوله تعالى « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ‥ » ومثل « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء ‥ » ولكن الآية الكريمة الأولى لم تأمر بالقتال ولم تجعله غاية وهدفا من الحشد العسكرى ، وانما أمرت بالاعداد فى قوله تعالى (وأعدوا) ، ومعنى ذلك أن الحالة حينئذ ليست حالة قتال ، ولكنها حالة صراع نفسى مع الأعداء ينتظر معه أو بعده قتال ، فهذا الاعداد مقصود لذاته ليكون حشدا حربيا رهيبا يثير فى نفوس الأعداء الرهبة والخوف ، ويحطم من معنوياته ، فتكون النتيجة أحد أمرين ، اما أن يبلغ الخوف فى نفوس الأعداء حد احجامهم عن مواجهة المسلمين بالقتال ، فيحقق المسلمون أغراضهم بدون حرب ، واما أن يلقوا المسلمين بنفسية ومعنويات ضعيفة من أثر الرهبة التى أثارتها حشود المسلمين ، وكلا الحالين نصر للمسلمين ، ويؤكد هذا المعنى الاطلاق فى متطلبات الحشد والاعداد ، فالآية لم تأمر باعداد جيش أو عتاد أو نوع معين من الاعداد ، وانما أمرت بالحشد العام لكل امكانيات المسلمين ونواحى قوتهم فى قوله سبحانه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فالقوة هنا عامة ، ولئن كان المفسرون يرون المراد بها الرمى ، وهو رمى السهام عن القوس ، الا أن السياق نفسه فى الآية لا يؤيد حصر القوة فى الرمى أو أى شىء محدد فالسياق يجعل اثارة الرهبة فى نفوس الأعداء هى الهدف ، والرمى أو أدواته لا يحقق هذا الهدف ، وانما يحققه أن نفهم أن المراد بالقوة المأمور بحشدها كل نواحى القوة التى يمكن أن تؤثر فى نفسية العدو ، وذلك على الوجه الذى تسلكه الدول اليوم فى صراعها وحربها النفسية ، بحشد كل امكانياتها وابراز هذه الامكانيات سواء أكانت عسكرية أم علمية أم اقتصادية أم غير ذلك لتؤثر بها فى نفسية العدو ، ومما يؤيد ذلك فى الآية تخصيص رباط الخيل بعد ذلك (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) فرباط الخيل هو المظهر العسكرى ، وكونه معطوفا على القوة قبله يقتضى — بحكم السياق وبحكم أن العطف يقتضى المغايرة — أن تكون القوة غير هذا المظهر أو أعم منه على الأقل ، فالآية تأمر بحشد كل امكانيات القوة على العموم ، ثم تخصص المظهر العسكرى بوصفه أبرز ما يثير الرهبة فى الأعداء ، وفى الآية ناحيتان تشيران الى ارادة الحرب النفسية كهدف أساسى ، احداهما ان الآية لم تأمر باعداد القوة ورباط الخيل للقتال وانما لاثارة الرهبة فى نفوس العدو (ترهبون به عدو الله وعدوكم) واثارة الرهبة غاية ما يهدف اليه أى نوع من أسلحة الحرب النفسية التى ينحصر هدفها فى التأثير فى معنويات العدو · والناحية الأخرى ان الآية تصرح بأن هذا الحشد والاعداد المأمور به ليس موجها الى العدو الظاهر وحده ، وانما ليكون قوة ذاتية لدى المسلمين يرهب الأعداء الظاهرين الذين يتوقع قتالهم (عدو الله

وعدوكم) ويرهب كل عدو آخر قد يتطلع الى الطمع فى المسلمين أو الاحتكاك بهم (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) ٠

فالحرب النفسية من حيث هي اذن هدف واضح من أهداف القرآن الكريم وتخطيطه ، لتكون سلاحا فى وجه أعداء الإسلام ، وليقاوم بها المسلمون الحرب النفسية التى يشنها الأعداء عليهم ، وما السخرية الا لون من الوان الحرب النفسية ٠

وأما موقف أعداء الاسلام من هذه الحرب ، فحين نلقى نظرة على هؤلاء الأعداء منذ فجر الاسلام ، نجد انهم لم يكونوا من السذاجة أو البساطة التى يروق لبعض الناس أن يصوروهم فيها ، بما يوحى لفظ الجاهلية ، بل حين نتامل وسائل الحرب النفسية التى ادارها أعداء الاسلام ضده ، نرى فيها حربا نفسية كاكمل ما يهدف اليه أى منظم ومخطط لها ، وذلك لأن اعداء الاسلام الأولين رغم البداوة التى تجللهم ، والبيئة المنعزلة القاحلة التى نشأوا فيها كان كثير منهم على ذلك يتمتع بدرجات عالية من الذكاء النفاذ ، والتفكير العميق ، والادراك البعيد للأمور، والارادة القوية الصلبة ، وآية ذلك ان هؤلاء الأعداء أنفسهم هم الذين أثاروا اعجاب العالم حينما اعتنقوا الاسلام ، وأبرزوا للناس مواهب مازالت تثير اعجاب أبناء الاسلام وأعدائه على السواء ، ومن هؤلاء مثلا عمرو بن هشام أعنى من الأعداء الذين لم يقدر لهم أن يعتنقوا الاسلام ، فقد يتصوره كثير من الناس — بحكم اللقب الذى وصفه به الاسلام وهو أبو جهل — انسانا جاهلا تافه العقل والتصرف ، محدود التفكير والتدبير ، ضعيف الشخصية أو المكانة ، والواقع انه لو كان كذلك او قريبا من ذلك ما كان القرآن ليعنى به ، فيشير اليه فى أكثر من موضع اشارة الاهتمام الواضح بعداوته للاسلام ، وبالرد على وسائله فى هذه العداوة ، وما كان المسلمون ليهتموا به هذا الاهتمام أو يحذروه هذا الحذر ، وما كان الرسول ليجعله أحد شخصين اثنين يركز اهتمامه عليهما ، ويرى فى اسلام احدهما نصرا للاسلام فيقول « اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين ، عمر ابن الخطاب ، وعمرو بن هشام » (١) ولكنه كان من قوة الشخصية ، ومن قوة التفكير ، ومن قوة الارادة ، بحيث حظى بكل هذا الاهتمام من القرآن ، ومن الرسول ، ومن المسلمين ، فأبو جهل لم يكن جاهلا بالمعنى العام لكلمة الجهل بل انه كان ذكيا مدركا الى درجة قد لا يخطىء من يصفها بالعبقرية ، وكان قويا حازما الى درجة الزعامة التى تفرض نفسها (٢) ، ولعل فى ادراكه لخطورة الاسلام وعظم شأنه منذ بدأت دعوة النبى له ، دليلا على بعد نظره ، وادراكه القوى النافذ للأمور فى مهدها ، ففى الوقت الذى كان فيه الاسلام يسير الشأن لا يكاد يأبه

---

(١) انظر صحيح البخارى وبقية الحديث ٠

(٢) انظر على هامش السيرة للدكتور طه حسين فصل صريع الحسد ٠

لخطره أحد ، مجرد رجل يدعو الى دين جديد بطريقة هادئة عادية ، بل مستترة لا يكاد يحس بها أحد ، ولا تفزع أحدا ، وليس حوله الا نفر قد يعدون على أصابع يد واحدة يؤمنون بكلامه ودعوته ، وقد سبقهم نفر دعوا أو آمنوا بشيء وان كان يسيرا مما يدعو اليه محمد ، كورقة بن نوفل وصحبه المتحنفين الذين اعتنقوا المسيحية قبل الاسلام ، وأعلنوا ذلك في قومهم (١) ، ولكن عمرو بن هشام كان أسبق قومه ادراكا لخطر الاسلام منذ أول وهلة ، وكان أبعدهم نظرا في تقديره لمستقبل هذه الدعوة الوليدة ، وبلغ من تقديره لخطورة الاسلام ومستقبله أن أولاه كل اهتمامه ، وصب عليه كل قوته وارادته ونتاج تفكيره ، فأبو جهل لم يكن جاهلا بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، بل كان على النقيض منها ، وانما كان جاهلا شديد الجهل في زاوية معينة ، هي تقديره لمصلحته الشخصية ، فقد تصور ان الاسلام سيهدم مجده ، في حين كان يمكن أن يتصور ما هو خير له ، وهو ان الاسلام سيدعم هذا المجد ويرفع من شأنه ٠

ولم يكن أبو جهل وحده صاحب المواهب الشخصية في قومه ، وانما كان يشاركه في هذه المواهب عدد غير قليل ، وان تفاوتت حظوظهم منها ٠

وهذه المواهب هي التي أدارت الحرب الأولى ضد الاسلام ، أو هي التي بدأت الحرب ضد الاسلام ، ولذلك حين نتأمل هذه الحرب التي أداروها ضد الاسلام نجد انها لم تكن مجرد مقاومة أو اضطهاد ، ولم تكن مجرد أساليب عفوية وقتية ، وانما تبدو فيها مواهب مدبريها وقوادها ، ولولا ان الاسلام كان دينا سماويا ، تحميه وتدير صراعه وحروبه قيادة أقوى ادراكا ، وأرسخ يقينا ، وأقوى ارادة من أعدائه ، لكان يمكن بل لكان يتوقع أن يقتل الاسلام في مهده أو قبل أن يشب عن طوقه ٠

على ان الحرب الاولى ضد الاسلام ، وان كانت قد بدأتها قريش وزعماؤها ، الا أنها شملت أعداء آخرين لا يقلون خطرا عن قريش ، حينما انتقلت قيـــادة الاسلام من مكة الى المدينة ، فشملت من الأعداء الآخرين الخطرين ، اليهـــود والمنافقين ، اللذين استطاعوا أن يوحدوا جهودهم ضد الاســـلام مع قريش وينسقوها ، ٠

وحين نلقي نظرة تحليلية على الحرب النفسية التي أدارها هؤلاء الأعداء ضد الاسلام ، نجد أنهم بلغوا أقصى ما يعرفه لها العصر الحديث من أطوار وفنون وجوانب ، فشملت الاقتصاد والعقيدة والتأثير المعنوي بكل جوانبه ، ويمكن أن نشير الى هذه النواحي كما يلي :

---

(١) سيرة ابن هشـــام ٢٤٣/١ ـ ٢٤٤ وهم أربعة ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمر بن نفيل ويسمون بالمتحنفين ٠

اولا – الحرب الاقتصادية :

مع ان المسلمين فى الفترة الأولى لم يكونوا جماعة مستقلة أو منفصلة عن غيرها من الجماعات مما يتيح لأعدائها أن يحاربوها اقتصاديا ، وانما كانوا أفرادا متناثرين فى انتمائهم الى البيوت والقبائل ، فضلا عن أنهم كانوا فى هذه الفترة الأولى يمثلون الطبقة الفقيرة الكادحة ، التى لا تملك مالا ، ولا توصف بثراء أو ثروة ، مما لا يتصور معه تنظيم حرب اقتصادية ضدهم ، ومع ذلك فكرت العقول المدبرة فى أعدائهم وعلى رأسها أبو جهل فى خلق أى وسيلة لحربهم من الناحية الاقتصادية للتأثير فى معنوياتهم حتى ينفضوا من حول الرسول ، وحتى تكون حالهم عبرة للذين يفكرون فى الانضمام اليهم ، وقد اضطر أعداء الاسلام فى سبيل حرصهم على تنفيذ خطتهم الاقتصادية ضد المسلمين الى أن يؤذوا بها كثيرين ممن لا يدينون بالاسلام ، بل يشاركونهم عداءه ، فقرروا مقاطعة بنى هاشم والمطلب ، وتعاهدوا على ألا يبايعوهم ولا يناكحوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم . وكتبوا بذلك صحيفة أودعوها جوف الكعبة ، ونفذوا هذه المقاطعة وهذا الحصار واستمر تنفيذه سنتين أو ثلاثا (١) ولم يصرفهم عنه الا يأسهم من جـــدواه ، وخشيتهم أن يثير فى صفهم شقاقا وخلافا بين المصرين على المقاطعة ، والذين أخذوا يعطفون على بنى هاشم والمطلب .

ولئن كانت هذه المقاطعة مثلا للحرب الاقتصادية التى ديرها أعداء المسلمين ضدهم ، فانها لم تكن حادثا عفويا أو عارضا ، وانما كانت حربا منظمة مقصودة من جانب أعداء الاسلام .

والقرآن الكريم يصرح بموقف أعدائه من هذه الحرب ، وبالهدف الذى تطلعوا اليه من ورائها ، وهو أن يتخذوا من الحرب الاقتصادية ضد المسلمين سلاحا نفسـيا يؤثر فى معنوياتهم حتى ينفضوا من حول الرسول وينصرفوا عن هذا الدين ، فيقول سبحانه « واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين » (٢) ولئن كان أهل مكة قالوا هذا عن الفقراء عامة وفقراء المسلمين خاصة ، فان المنافقين بالمدينة حصروا الهدف وحددوه فيما نقله عنهم قول القرآن الكريم « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن الســـموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣٧٣/١ – ٣٧٦ وجوامع السيرة لابن حزم ٦٤ وما بعدها .
(٢) الآية ٤٧ سورة يس .

ثانيا ـ العقيـــــدة :

من الطبعي ان تكون الحرب النفسية ضد الاسلام مركزة على العقيدة بحكم انها موضع الخلاف والخصومة بين المسلمين وأعدائهم ، ولذلك كان أبرز ما ظهر من الصراع بين الاسلام وأعدائه حول العقيدة ، حيث شعر أعداؤه أنه عقيـدة جديدة ، تهدد عقيدتهم وتهددهم ، حتى ان عداء قريش ضد الاسلام لم يستحكم ، ولم تجتمع كلمتهم على حرب الرسول الجديد ، الا عندما أبدى تسفيهه لعقيدتهم وجهر بسب آلهتهم (١) عنـد ذلك أجمعوا على حربه ، ووجد أبو جهل وأعوانه كل الآذان صاغية مستجيبة لدعوته الى القضاء على هذا الدين الجديد ووأده فى مهده ، وقد استهدفت حربهم فى هذا الميدان ناحيتين ، احداهما الاعتقاد باعتباره جوهرا للعقيدة ، والأخرى شخصية الرسول بوصفه ممثلا لهذه العقيدة ٠

فاما عن العقيدة فقد بذلوا كل ما فى وسعهم وبصفة مستمرة أن يسفهوا كل ما جاء به الاسلام ويسخروا منه ، ويكذبوه محاولين دحضه وصرف الناس عنه ، ومن ذلك ما يروى من أنه « جلس رســول الله مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث وفى المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله فعرض له النضر فكلمه النبى حتى أفحمه ، ثم تلا عليه (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) ٠٠ ثم قام رسول الله واقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس فقال الوليد ٠٠ ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد ٠٠ قال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبـده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ٠ فعجب الوليد ومن كان معه ورأوا انه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك للنبى فقال : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، انهم انما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته ٠ فأنزل الله « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » أى عيسى بن مريم وعزير ٠٠ ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ٠٠ الى قوله ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم ٠٠ » (٢) فهم يهاجمون صلب العقيدة ويشككون فيها فى صورة دفاعهم عن عقيدتهم ، وهكذا كانوا دائما يحاولون ، ومن ذلك ما يروى « ان الأخنس بن شريق حليف بنى زهرة ، وكان من أشراف القوم وممن يستمع منه ، فكان يصيب من رسول الله ويرد عليه ،

---

(١) الآية ٤٧ سورة يس ٠
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٢٧٦ ٠

فنزلت ‎·· ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ·· » (١) وكذلك كان يفعل أبو جهل والنضر بن الحارث ومن تولوا زعامة الشرك في مكة ، وقد حملوا للسخرية نصيبا بارزا في حربهم هذه ، ومن ذلك ما يروى من أن النضر بن الحارث بن كندة ، كان يتتبع مجالس النبي ودعوته الى الاسلام ، فاذا قام النبي من مجلس ، جلس بعده يحدث باخبار فارس وملوكها ، ثم يسخر من حديث النبي قائلا ما حديثه الا أســـاطير رواها محمد واكتتبها كما رويت احاديثي واكتتبتها (٢) ومن ذلك أيضا ما يروى من أن العاص بن وائل السهمي كان لخباب بن الأرت دين عليه ، فقال لخباب حين طلب الوفاء به « انظرني الى يوم القيامة كما يقول صاحبك ، فاقضيك حقك » (٣) ولكن القرآن يرد عليهم وعلى سخريتهم أولا باول ، فمما نزل في النضر بن الحارث عـــلى أثر حديثه عن الأساطير (٤) قوله تعالى « واذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين » وقوله « ويل لكل أفاك اثيم » وقوله « كان في أذنيه وقرا » ومما نزل في العاص بن وائل عند سخريته من القيامة « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ، كلا سنكتب ما يقول ونمد له العذاب مدا ، ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » (٥) فقد وصفوا ما يقوله الرسول كله بانه أساطير ، ووصفوا القرآن بانه سحر وسخروا وكذبوا بكل ما يتعلق بالعقيدة الاسلامية ·

وكان القرآن لهم بالمرصاد يرد كل سهم يطلقونه الى نحورهم ، ويرد على كل سخرية لهم بسخرية أشد وانكى ، ويحطم مصادر الفتنة ، والسنة السخرية والاستهزاء · واما عن حربهم لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الرسول في نظرهم راية الاسلام ومتكا المسلمين ، بل كان الاسلام كله يرونه ممثلا في شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا قضى عليه فقد قضى على الاسلام وحتى اذا لم يمكن القضاء على حياته ، فيمكن القضاء على الاسلام بالقضاء عـلى الكيان الأدبي لشخصية رسول الاسلام ، وذلك بتشويه هذه الشخصية وتجريدها من هالة الجلال وصفة النبوة التى يرتبط بها المسلمون ·

ولذلك ركز أعداء الاسلام اهتماما شديدا على النيل من شخص الرسول ، على أساس أن تشويه شخصه يصرف الناس عن اتباعه ، فرموه بانه شاعر ، وبانه ساحر ، وبانه مجنون ، وبانه كاهن ، وعمدوا الى العدوان المباشر على شخصه ، والى السخرية منه ، والاستهزاء به في كل صورة تمكنهم منها الظروف ، وهذه بعض صور كمثال لذلك، فمما يرويه الرواة « ان قريشا اشتد أمرهم للشقاء

(١) المصدر السابق ١/٣٨٤ ·
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٨١ ·
(٣) المصدر السابق ١/٣٨٠ ·
(٤) انظر المصدر السابق ١/٣٨١ ·
(٥) سورة مريم ٧٧ ــ ٨٠ ·

الذى أصابهم فى عداوة رسول الله ومن أسلم معه منهم فأغروا برسول الله سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون » (١) ومن ذلك ان النبى كان يطوف بالكعبة يوما ، وحولها نفر من قريش ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول وسخروا منه ، فبدا الألم فى وجهه الكريم ، ثم مر ثانية فى طوافه ، فغمزوه بالقول الساخر أيضا ، ثم مر الثالثة ففعلوا به ذلك ايضا ، ثم لم يكتفوا بذلك ، فتكاثروا عليه يؤذونه ويهينونه ، حتى ان رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر دونه يدافع عنه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ (٢) .

ومن ذلك أيضا سخرية أبى جهل من النبى وما جاء به ، كسخريته من زبانية جهنم ، كما تسوق الرواية « فقال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله وما جاء به ، يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ٠٠ أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ »(٣)

والقرآن نفسه يسجل كثيرا من سخريتهم بشخص الرسول وما جاء به، تهوينا من شان هذه السخرية واستخفافا بها سواء فى نظر هؤلاء الأعداء أو فى نظر المسلمين أنفسهم ، مع الرد عليها اما بهذا التهوين ، واما بسخرية دامغة لا تبقى فيمن تصب عليه كيانا ، ومن ذلك قوله تعالى « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » (٤) ثم «ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليك ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ، ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون» (٥) ومن سخريتهم بما جاء به الرسول فيما حكاه القرآن عنهم « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا » (٦) ومن سخريتهم بشخص الرسول وما جاء به « واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ، خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ، ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ، لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ، بل تأتيهم

(١) سيرة ابن هشام ٣٠٩/١ — ٣١٠ .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ٣٠٩/١ ، ٣١٠ .
(٣) المصدر السابق ٣٣٦/١ .
(٤) سورة الأنعام ٤ ، ٥ .
(٥) سورة الأنعام ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .
(٦) سورة الكهف ٥٦ .

بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ، ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » (١) فهم يسخرون من شخص النبى بأقصى ما تحمله الالفاظ من تهوين وتحقير فى قولهم « أهذا الذى يذكر آلهتكم » وهم يسخرون لا من كلامه ولا من دعوته فحسب ، وانما يسخرون من مجرد شخصه ومجرد رؤيتهم له فى قوله عنهم « واذا رآك الذين كفروا » ويسخرون مما جاء به النبى ، ومن وعيده لهم فى هذا التهوين والاستخفاف البالغ من قولهم « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ » ولكن القرآن يرد عليهم سخريتهم بسخرية أخرى ، حين يصورهم فى هذه الصورة البالغة التحقير والاهانة وهى صورتهم فى جهنم التى يكذبون بها ويسخرون من الوعيد بها « لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون » ولتكون صورة التهوين والتحقير أبلغ فى نفس السامعين واوسع تخيلا وتصورا يترك القرآن (لو) بدون جواب، ليتاح للسامع أن يتصور ويتخيل من أحوالهم حينئذ ما يشاء ، ويرد القرآن أيضا على سخريتهم من الوعيد واستعجالهم اياه ، بهذه السخرية الهادئة ، التى تدوى مع هدوئها فى كل سمع ، وتفزع كل قلب « سأريكم آياتى فلا تستعجلون » .

ومثل هذه السخرية بشخص الرسول وما جاء به حكى القرآن عنهم سخرية أخرى فى قوله « واذا رأوك أن يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ ، ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ، أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون أن هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» (٢) فمجرد رؤية شخص الرسول تثير سخريتهم البالغة أيضا ، حرصا منهم على أن يوهموا الناس أن هذا الشخص الذى قد يتطلعون الى الايمان به واتباعه لا يزن شيئا ولا يصلح لشىء فضلا عن أن يكون رسولا لله ، ويتهاونون قليلا فى تقدير ما جاء به فلا يستطيعون التهوين الكامل له ، ولا الازدراء المباشر له ، لأنه أمر عقلى ، ومن طبيعة الأمور العقلية أن يكون تفاوت العقول فى ادراكها والحكم عليها يسيرا ، فلو قالوا ان ما جاء به هذا الشخص الذى يدعى النبوة تافه فلن تقرهم عقول الآخرين على ذلك ، ولذلك احتالوا على ذلك باشارتهم الى أن ما جاء به انما هو نوع من التضليل والخداع الذى تنخدع له العقول ، وأنهم هم كادوا ينخدعون به لولا أن اعتصموا بعقيدتهم ورفضوا الانسياق وراءه ، فيقولون « ان كان ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » ولكن سخرية القرآن تحمل عليهم فى سخريتهم من شخص الرسول وغمزهم لما جاء به حملة تحطم سخريتهم وغمزهم ، بل تحطم كيانهم كله كعقلاء ، وكآدميين ، فتكتفى سخرية

---

(١) سورة الأنبياء ٣٦ ــ ٤١ .
(٢) سورة الفرقان ٤١ ــ ٤٤ .

القرآن فى الرد على غمزاتهم بهذه العبارة البالغة الوقع « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ؟ » ، وتعمد الى تحطيمهم ونبذهم من محيط العقلاء ومحيط الآدميين الأصحاء ، فى ثلاث صور كل منها يهدم جانبا منهم ، بحيث لا يبقى لهم بعدها كيان ، وأولها صورة الشخص العاكف العابد لمجرد الشهوة والهوى ، فهو شخص مجرد عن العقيدة ، لأنه لا يعبد شيئا ، وهو شخص سفيه ، لأن العاقل لا يعبد هواه « أرأيت من اتخذ الهه هواه ؟ » والصورة الثانية تسلبهم كل صفات العقلاء ، فهم لا يفكرون ، ولا يدركون ، بل هم لا يسمعون مجرد استماع ، لأن السمع الذى لا يصحبه تفكير لا يعتبر سمعا ، وتستثنى الصورة بعضا منهم لا يشمله هذا الوصف ، من باب الصدق فى تقرير الحقيقة ، ومن باب الحث لهم على الايمان ، فقد يتسابق كثير منهم الى أن ينأى بنفسه عن هذا التصوير ، ويحظى بأن يكون من البعض الذين لا تشملهم الصـــورة « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ » وتصدير الصورة بهذا الاستفهام فى «أم تحسب .. ؟ » وما يتضمنه من الظن ، مما يضفى على الصورة بلاغة فى الوقع والتأثير ، وأما الصورة الثالثة ففيها المحو الكامل للبقية الباقية من كيانهم ، وهى صفة الآدمية ، فالصورة تخرجهم من نطاق الآدمية ، لتضعهم مع الانعام والماشية ، موازنة بينهم وبينها ، وتنتهى الصورة الى تفضيل الأنعام عليهم ، لأن الانعام تؤدى الغرض الذى وجدت من أجله ، وتسلك السبيل التى اريدت عليها ، اما هم فينحرفون عنها ، « ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »"

ويسخرون من شخص النبى وما جاء به من القول بالبعث يوم القيامة ، فيجعلون أنفسهم لا يصدون الناس عنه ، بل يدعونهم الى مشاهدته وسماع هذا الكلام البالغ السفاهة فى دعواهم والذى يستحق أن يجتمع اليه النـــاس كما يجتمعون الى شىء بالغ الغرابة والعجب ، ويجعلون هذا الكلام فى مرحلة بعيدة عن التصديق والحقيقة ، لا تحتمل الا أمرين ، أن يكون هذا الرجل مفتريا على الله هذا الكلام ، أو هو رجل مجنون يقول كلاما لا تسيغه العقول ، ولكن القرآن لا يولى سخريتهم اهتماما لذاتها ، وانما يعمد الى الناحية العقلية المنطقية التى حاولوا أن يخدعوا عقول الناس بها ، فيقرر فى الرد عليهم أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من البعث ، فضلا عن العذاب الذى ينتظرهم والعذاب الذى يعيشون فيه من صراع الحيرة والشك فضلا عن ذلك هم فى جور عن الصواب وضلال شديد عن الحق والسداد ، والدليل على ذلك ان أيسر نظرة وأدنى تأمل لكل ما يحيط بهم من الأرض والسموات يثبت ضلال عقولهم وتفاهة تفكيرهم ، وفوق ذلك كله ، فان أمرهم يسير عند الله ، يستطيع لو أراد أن يريهم صورا من التنكيل بهم وهم أحياء لا تخطر لهم على بال ولكن أمرهم كله أهون عنده من ذلك « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ، أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى

العذاب والضلال والبعيد ، أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب » (١) ٠

ولكن القرآن فى موضع آخر يسوق سخريتهم من البعث ، ثم يركز فى الرد عليهم على سخرية عجيبة ، بصبها عليهم ، وأعجب ما فيها أنها مسوقة على ألسنتهم، وكأنهم هم يسخرون من أنفسهم ، ومن تكذيبهم بالآخرة ، مصورا الموقف الشديد السخرية فى محاورة بينهم وبين اتباعهم يوم القيامة ، هؤلاء الأتباع السذج الذين خدعوا بأضاليل سادتهم ، وصدهم اياهم عن الايمان ، حين يلقى كل فريق منهم جريمة الكفر على الآخر « فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب ، بل عجبت ويسخرون ، واذا ذكروا لا يذكرون ، واذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا ان هذا الا سحر مبين ، أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ، فانما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ، احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ، من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم ، وقفوهم انهم مسئولون ، ما لكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا انا لذائقون ، فأغويناكم انا كنا غاوين ، فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون ، انا كذلك نفعل بالمجرمين ، انهم كانوا اذا قيل لهم لااله الا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ، انكم لذائقو العذاب الأليم ، وما تجزون الا ما كنتم تعملون»(٢) فقد سخروا مما جاء به الرسول « وقالوا ان هذا الا سحر مبين » وسخروا من شخصه الكريم ، فوصفوه بأنه شاعر ومجنون فى وقت واحد ، ولكن سخرية القرآن منهم فى تصوير فزعهم الشديد من العذاب يوم القيامة ، ثم فيما يسيطر عليهم من ذل العذاب والخزى والشعور بالضعف هم وأزواجهم وآلهتهم التى كانوا يعبدونها ، ويرجونها للنصر فى الدنيا والنجاة فى الآخرة ، وما أبلغ السخرية بهم حين يقال لهم جميعا فى هذا الموقف « ما لكم لا تناصرون ؟ » وما أشد حساسية الوتر الذى يضرب عليه القرآن فى هذه السخرية التى يصورهم فيها مع أتباعهم ، الأتباع يلقون على السادة تبعة كفرهم ، والسادة يسفهونهم متنصلين من هذه التبعة « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين » ومن شدة حساسية الوتر الذى تضرب عليه سـخرية القرآن

---

(١) سورة سبأ ٧ ــ ٩ ٠

(٢) سورة الصافات ١٦ ــ ٣٩ ٠

فيما يتعلق بالأتباع أنه يمكننا أن نتصور نفسية هؤلاء الأتباع ، وشعورهم نحو السادة حينما يسمعون هذه السخرية باتباعهم لسادتهم الذين يصدونهم عن الاسلام ، فهم يستهدفون بسخريتهم من شخص الرسول ، ومما جاء به ، أن يحاربوه في نشره لدعوته ، فينفروا الناس عنه ، ويصدوهم عن اتباعه ، والقرآن يرد سهامهم الى نحورهم ، فيحاربهم في النقطة نفسها ، مستهدفا صرف الأتباع عنهم ، بالسخرية منهم ، ومن انقياد الأتباع لهم ، وشتان ما بين السخريتين .

وفي صورة أخرى تحتدم معركة السخرية ، بين المشركين والقرآن ، حول شخص الرسول وما جاء به ، فيستعرض القرآن أغلب ما قالوه ، وما سخروا به من الرسول ودينه ، ثم يرد عليهم قولهم وسخريتهم ، مرحلة مرحلة ، ونقطة فنقطة ، في قوله « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فاني معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين ، أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنـــات ولكم البنون ، أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون » (١) فيرد عليهم قولهم التافه في أن الرسول كاهن أو مجنون ، مثبتا قلبه وقلب أتباعه بأن هذه الدعوى من التفاهة بحيث لا تستحق أكثر من التكذيب العابر ، فما كان لشخص حظي بالنعمة الكبرى ، نعمة النبوة أن يتركها الى الكهانة أو يمزجها بها ، وما كان لعاقل أن يتهم شخصا يحمل هذه الأمانة الكبرى بالجنون ، ثم يستعرض سخرياتهم من الرسول وما جاء به ، ليحطم كل ما يطل منها بسخريته البالغة ، فان قالوا ما محمد الا شاعر نتربص موته فتنقضي خطورته ، وينطفيء هذا النور الذي يعشى أبصارهم ، فان القرآن يكتفي بالسخرية من هـــذا بأن يطلب من النبي أن ينقل اليهم هذه السخرية « قل تربصوا فاني معكم من المتربصين » ثم يواصل القرآن سخريته متسائلا متعجبا ، أهذه الأوهام أوحتها اليهم عقولهم ؟ فان العقول السليمة لا توحي لأصحابها بمثل هذا ، أم هو مجرد بغي وطغيان ؟ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ؟ » فان قالوا ان ما جاء به محمد ليس الا اختلاقا من عنده ، وافتراء على الله ، فان ما جاء به محمد نور ساطع ، ينفذ الى كل القلوب ، وتتجاوب معه كل الأفئدة ، الا قلوبا ران عليها الضلال ، وأعماها الهوى ، فقلوبهم من هذا النوع الذي لا يحمل استعدادا للايمان ، كالمرآة الصدئة التي لا تعكس ما يواجهها من صور ، فان كانوا مقتنعين حقا بأن ما جاء به محمد من

(١) سورة الطور ٢٩ ـ ٤٣ .

اختلاقه ، فلماذا لا يختلقون هم مثل اختلاقه ؟ مع دعواهم انهم خير منه واعقل ؟ « أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » ، وهم حين ينكرون الخالق ، كيف تقرهم العقول على هذا ؟ الا يسالون انفسهم ، أو يسالهم السائلون عن ابسط شيء واقربه اليهم ، وهو من خلقهم هم أم خلقوا جزافا من غير خالق ؟ بل أكثر من هذا ، من المسلم به عقليا أنه لا مخلوق بدون خالق ،فاذا كانوا ينكرون الخالق الحقيقي فمن يكون الخالق في نظرهم ؟ أيكونون هم الخالقين ؟ « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ » واذا تركنا قضية خلقهم هم ، فلينظروا الى السموات والأرض ، من خلقهما ؟ ولينظروا الى تنظيم الكون ، وتقدير أرزاق أهله ، من يملك ذلك ؟ أهم يملكونه ويتحكمون فيه ، ويسيطرون عليه ؟ « أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ؟ » وهم حين يخوضون فيما لا علم لهم به ، ولا يملكون من أمره شيئا ، فمن أين لهم حق هذا التدخل وهذا العلم الذى يدعونه ؟ كل ذلك في السماء وحدها ، فهل لهم سلم يصعد فيه صاعدهم فيعلم من ذلك ما يشاء ويشاءون ؟ ان كان ذلك فليأت هذا المستمع وليثبت لهم ولنا دعواه « أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين » ويواصل القرآن سخريته منهم ومن عقولهم ودعاواهم ، فهم يقولون ان الملائكة بنات الله ، وهم دائما يفضلون البنين على البنات ، حتى ان بعضهم ليئدهن ، فاذا كان الله راغبا في الولد ، أفيختار لنفسه النوع الأدنى فى نظرهم وهو البنات ؟ ويصطفيهم هم بالبنين ، مع أنه هو الخالق الذى يملك الاختيار ؟ « أم له البنات ولكم البنون ؟ » وبعد هذا كله ، ألا يسألون أنفسهم وقد ظهر الحق حتى من خلال هذه المناقشة ، لماذا لا ينصاعون له ، ولماذا يصرون على تكذيب النبى وعدم الايمان بما جاء به ؟ أوجدوه يسالهم أجرا على دعوته فهم يفرون من ثقل هذا الأجر وتبعته « أم عندهم غيب آخر غير الغيب الذى يدعوهم اليه النبى ؟ » أم تسالهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » وحينئذ ظهر الحق ، ودمغت كل سخرياتهم ودعاواهم وحججهم ، فماذا بقى لهم ، لم يبق لهم الا أن يقولوا : نحن نعلم ان ذلك كله حق ، وان كل ما نقوله باطل ، ولكنا نعمد الى هذا الباطل لنتخذه وسيلةلتضليل الناس والتغرير بهم ، وصرفهم بهذا الكيد عن اتباع محمد ، فعندئذ يقول لهم القرآن ان عندنا كيدا يبتلع كيدهم ويمحوه « أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون » ثم يختم لهم القرآن بهذه الحقيقة التى لا ينبغى أن يختلف عليها عقلان ولكنه يصوغها لهم بأسلوب السخرية أيضا « أم لهم اله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون » .

وهكذا يتخذ أعداء الاسلام من السخرية سلاحا يحاربون به العقيدة الاسلامية ممثلة في شخص النبى وما جاء من العقيدة ، ويجعلون من هذا السلاح حربا نفسية عاتية ، يسلطونها على أتباع النبى ، ليشككوهم فى عقيدتهم ، وينفروهم من قائدهم الدينى فيما يتصورون ، ويسلطونها أيضا — وقد يكون ذلك أهم فى نظرهم — على الذين يتطلعون الى أتباع هذا النبى والايمان به ، ولكن القرآن

لا يترك لهم هذا الميدان المهم ، الذى يرتبط به مستقبل الاسلام، بل يدخله بأسلحة من نوع أسلحتهم ، ويحاربهم فى الهدف الذى يركزون عليه ، وهو وقف انتشار الاسلام ، فبينما يضع الأعداء كل ما يمكنهم من عراقيل فى هذه السبيل ، اذا القرآن يحطم هذه العراقيل ويمحوها ، بالسلاح الذى تسلح به الأعداء نفسه ، وهو الأسلوب الساخر ، واهمية النقطة التى تدور حولها حرب السخريتين وهو انتشار الاسلام،فى صورة التركيز على الاتباع فى كلا الطرفين، هذه النقطة واضحة فى الآيات التى تصور هذه المعارك النفسية كما سبق ٠

وحين نرجع الى ما انتهى اليه علماء النفس والاجتماع من أهمية كبرى لأثر الزعامات فى سلوك الأفراد (١) ، وتوجيه الزعامات للمجتمعات فى سلوكها بصفة رئيسية ، ندرك سر اهتمام القرآن بتحطيم زعامات الشرك ، وقادة أعداء الاسلام وخاصة بالسخرية منهم ، وندرك أيضا ان سخرية أعداء الاسلام من شخص الرسول وما جاء به لم تكن شيئا هينـــا ولا يسيرا ، وانما كانت سلاحا خطيرا من الناحية الاجتماعية فيما يتعلق بانقياد الجماعة لهذه الزعامة ، ولذلك أولاها القرآن اهتمامه الواضح ، فى كسر حدة سلاحها ، والتهوين من شـأنه ، وابراز تفاهة مضمونة من ناحية ، واستخدام سلاح مضاد ، يستهدف تحطيم الزعامات فى الجبهة المضادة للاسلام ، حتى يشل تأثيرها فى أفراد الجماعة المنقادة لها ، وحتى لا تكون عقبة فى سبيل نشر الاسلام ، فسخرية القرآن ، تحمى زعامة المسلمين وتحفظ لها جلالها وتأثيرها ، فى الوقت الذى تحطم فيه زعامة الجبهة المضادة ، وتشل تأثيرها ، وأما اختيار السخرية كسلاح بارز من أسلحة هذه الحرب ، فندرك أهميته على ضوء ما سبق أن قرره علماء النفس من خطورة السخرية كســلاح نفسى فى الحرب ٠

ثالثا ـ التأثير النفسى :

وليس معنى هذا العنوان ان ما سبق بعيد عن التأثير النفسى أو منفصل عنه ، وانما أعنى أن هذا الحديث ، تتجه فيه الحــرب النفسية وفى مقدمتها السخرية الى التأثير النفسى المباشر ، أما ما سبق ، فانه وان كان فى محيط التأثير النفسى الا أنه يتجه الى هدف معين ، هذا الهدف هو المباشر ، ثم يأتى التأثير النفسى ، كهدف غير مباشر ، وقد سلكت الحرب النفسية ضد الاسلام ، فى محاولتها التأثير على معنويات المسلمين ، ومعنويات الذين يتطلعون الى الانضمام فى سلك الاسلام ، نواحى مختلفة ، وتقمصت مظاهر عديدة ، ولكن هذه النواحى وتلك المظاهر على تنوعها واختلافها ، كانت تركز على هدف واحد ، هو عزل محمد ودعوته ، ثم توجيه كل ما يمكن اليهما من تشويه وتسفيه وتنفير ، حتى

---

(١) انظر مناهج البحث فى علم النفس ت٠ج ٠ اندروز وجماعة ترجمة د٠ يوسف مراد ٩٥٢/٢ ـ ٩٥٤ ٠

ينفض الناس عنهما ، ويتراجع الذين ترنو اعينهم اليهما ، ومن هذه السبل التى سلكتها الحرب النفسية بين الاسلام واعدائه ٠

١ – الاضطهاد :

سواء أكان اضطهادا بدنيا أم نفسيا ، فقد كان أول ما تبادر الى نفوس أعداء الاسلام ، وهم فى نشوة عزتهم ، واعتزازهم بقوتهم وكثرتهم ، واستهانتهم بالمسلمين فى ضعفهم وقلة عددهم ، أن يصبوا كل ما تحمله قوتهم ، وما يتيحه لهم طغيانهم ، وما يقذف به حقدهم الشديد على هذه الدعوة الجديدة ، على هذه القلة المستضعفة من المسلمين ، فهؤلاء سادة قريش ورؤساء عشائرها ، تقول عنهم الروايات « فاشتد هؤلاء ورؤساء سائر قبائل قريش على من اسلم منهم ، يعذبون من لا منعة عنده ، ويؤذون من لا يقدرون على عذابه » (١) وتقول الروايات أيضا « ولقى أصحاب رسول الله من العذاب أمرا عظيما ، ورزقهم الله على ذلك من الصبر أمرا عظيما ، لما ذخر الله لهم فى الآخرة من الكرامة ، فطعن الفاسق عدو الله أبو جهل سمية أم عمار بن ياسر بحربة فى قلبها فقتلها رضوان الله عليها » (٢) وأيضا « وكان سادات بلال من بنى جمح يأخذونه ، ويبطحونه على الرمضاء فى حر مكة ، يلقون على بطنه الصخرة العظيمة ثم يأخذونه ويلبسونه فى ذلك الحر الشديد درع حديد ويضعون فى عنقه حبلا ويسلمونه الى الصبيان يطوفون به وهو فى كل ذلك صابر محتسب لا يبالى بما لقى فى ذات الله تعالى » (٣) وقد بلغ من شدة اضطهاد الأعداء للمسلمين أنهم على ما تحمله قلوبهم من ايمان دافق ، واستماتة فى سبيل المحافظة على عقيدتهم ، بل واستعذاب لما يلقونه فى سبيلها ، انهم ضاقوا بهذا البلاء الشديد ، حتى الذين ينتمون الى رءوس قريش ويتسنمون ذروة مجدها وقوتها ، لم تطق نفوسهم هذا العذاب ، ففكروا أن يفروا بدينهم الى أى وجه من وجوه الأرض مهما بعدت بينهم وبينه الشقة ، ففى الروايات « فلما كثر المسلمون واشتد العذاب والبلاء عليهم ، أذن الله لهم فى الهجرة الى أرض الحبشة ٠٠ فكان أول من خرج من المسلمين فارا بدينه الى أرض الحبشة عثمان بن عفان مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مراغما لأبيه ، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، ٠٠ ومن بنى أسد الزبير بن العوام ، ٠ ومن بنى عبد الدار مصعب بن عمير ، ومن بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف (٤) فهؤلاء وآباؤهم واصهارهم من علية القوم وسادتهم ، ومع ذلك يلغ بهم الاضطهاد والعذاب هذا المبلغ ، الذى جعلهم يفرون بدينهم الى هذا المنأى

---

(١) جوامع السيرة لابن حزم مراجعة أحمد محمد شاكر ص ٥٤ وما قبلها ٠
(٢) المصدر السابق ٥٤ ٠
(٣) المصدر السابق ٥٤ ٠
(٤) جوامع السيرة لابن حزم تحقيق أحمد محمد شاكر ص ٥٥ – ٦٢ ٠

الذي لعلهم كانوا يتخيلونه أبعد مكان على وجه الأرض ، ومع ذلك أيضا لم يتركهم أعداء الأرض يستطعمون الأمن والراحة فى هذا المكان ، فأرسلوا فى أثرهم وفدا الى النجاشى ، يستهدف أمرين ، احدهما أن يشوه محمدا ودينه فى دعايات مضادة والآخر محاولة رد هؤلاء الذين افلتوا من عذاب قريش واضطهادها (١) .

واحداث الاضطهاد الذى صبه أعداء الاسلام على المسلمين مشهورة فى تاريخ الاسلام ، ولم يكن هذا الاضطهاد حوادث فردية ، أو فترات معينة ، وانما كان حملة عنيفة مستمرة على كل المسلمين ، وكل ما بين أفراد المسلمين من فوارق فى تعرضهم للاضطهاد ، انما هى فوارق نوعية ، فى نوع الاضـــطهاد الذى يتعرضون له ، فالفقراء والضعفاء من المسلمين ، يتعرضون للاضطهاد والتعذيب البـدنى ، والأقوياء منهم يتعرضون للتعـذيب النفسى ، والنتيجة واحـدة او متقاربة ، فحتى النبى صلى الله عليه وسلم على جلال شخصه فى عيون أتباعه واعدائه معا ، نال من هذا الاضطهاد النفسى قسطا عظيما ، ان لم يكن اعظم مما لاقاه اى فرد من المسلمين ، وقد سبق الاشارة الى بعض ذلك ، ومن هـذا قصته المشــهورة فى لجـوئه الى ثقيف ، حينما اشتد عليه الأذى وضــاق به ، فلجأ الى ثقيف عله يجد فيهم حماية له من أذى قومه ، فاذا هم يلقونه بأذى أشد من ايذاء قومه ، حتى أغروا به سفاءهم وعبيدهم وصبيانهم بعد طرده عليه السلام ، يشيعونه بالتسفيه والايذاء ويرمونه بالحجارة .

ولكننا حين نتجاوز الاضطهاد الفردى الذى لم يسلم منه فرد من المسلمين ، نرى اضطهادا جماعيا يديره أعداء الاسلام ضد المسلمين بصفتهم جماعة ، وذلك بعد أن قويت شوكة المسلمين فى المدينة ، وأصبحوا اقوى من أن يعذبوا كأفراد ، فان أعداء الاسلام واصلوا حملة اضطهادهم للمسلمين كجماعة ، فى صور أخرى ، منها الحروب العاتية العنيفة المتواصلة التى ظل أعداء الاسلام ، يديرونها ويتعاونون عليها ضد المسلمين .

وكان هدف أعداء لاسلام بطبيعة الحال أن يصلوا بالمسلمين فى اضطهادهم اياهم الى المرحلة التى يعرفها علماء النفس بأنها مرحلة الاذلال او الاذعان ، حين تشتد المعوقات وتقسو على الفرد ، فقد يبلغ شعور الفرد بقسوة هذه العوائق حد الخور ، بل حد التفكك الكامل فى الوظائف الجسمية والعقلية فى بعض الأحيان (٢) ، أو يصلوا بالمسلمين على الأقل الى مرحلة من مراحل الاحباط (٣) وهى النكوص كما يقولون ، ويظهر الناس الذين لاقوا احباطا نكوصا بأن يصبحوا أكثر قابلية للايحاء وأقل قدرة على النقد ، فهم على استعداد لتصديق ما يقال

---

(١) انظر المصدر السابق ٦٣ .
(٢) انظر علم النفس التربوى آرثر جيتس وجماعة ترجمة عبد العزيز القوصى وجماعة ٣٦/٣ ، ٣٧ وانظر علم النفس الاجتماعى فى الصناعة ا٠ براون ص ٢٨١ .
(٣) الأحباط اصطلاح يقصد به شعور الفرد بأن هناك عائقا جعله يفشل فى تحقيق أمل معين .

لهم » (١) ، فعلماء النفس ينتهون من بحوثهم فى التعويق الذى يعترض رغبات الأفراد وآمالهم ، الى أن الأفراد يختلفون فى تأثرهم بهذا التعويق ، وذلك بطبيعة اختلاف الافراد فى قوة ارادتهم أو مقاومتهم للظروف ، فبعضهم يجنـــح الى الاستسلام والاذعان لهذه الظروف ، على درجات متفاوتة فى الاذعان ، وبعضهم يقاوم الظروف ، على درجات أيضا حسب ما تحمل نفوسهم من قوة الارادة وصلابة العزيمة ، ولكن علماء النفس يرون فى المعوقات لذاتها « صقلا للأفراد ، وتنمية واستغلالا للطاقات الكامنة فى الفرد ، كما يقولون » ويبدو من المحتمل ان امتناع التعويق لا يعين على تطور شخصية متميزة ، فالفرد اذا لم تعترضه عقبة يظل شيئا تافها غبيا مجردا من الخيال ، مطمئنا كاطمئنان البقر ، ويؤيد هذاالرأى الدراسات التى قام بها شرمان وهنرى حول بعض الجماعات التى تقطن الجبال .. ومن المحتمل أيضا أن خبرة ملاقاة المشكلات والملاءمة الكافية معها تجربة لازمة لتطور الفرد المستقل المكتفى بذاته ، ومع أن تنازل الفرد عن كثير من رغباته الأنانية ينطوى على عملية تعويق أكثر من أى شىء آخر ، فلابد للفرد من هذا التنازل حين يتقدم ليشغل مكانه الكامل كعضو مسئول فى المجتمع » (٢) .

فقد كان يمكن لأعداء الاسلام أن يصلوا بالمسلمين الى مرحلة من مراحل الاذلال أو الاذعان والاستسلام ، ولكن يقين العقيدة فى نفوسهم أولا ، وما سلحهم به القرآن من أسلحة ذاتية فيهم ، وأسلحة مضادة لأعدائهم من الناحية النفسية ، جعلهم أقوى من هذه المعوقات التى أحاطهم بها أعداؤهم على شدة هذه المعوقات وقسوتها ، بل جعلهم القرآن يستفيدون من هذه المعوقات صقل أشخاصهم ، على الوجه الذى يقرره علماء النفس ، حتى أصبحوا بعد أن كان معظمهم قبـــل الاسلام مجرد فرد فى قطيع من العامة والمستضعفين ، يسوقه السادة والزعماء ، فى وضع يصفهم فيه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » (٣) فأصبحوا نجوما لامة ، بعد أن كانوا أفرادا فى القطيع .

وأما موقف الاسلام من سلاح الاضطهاد الذى سلطه الأعداء على أبنـــاء الاسلام ، فلم يكن ينتظر من الاسلام أن يبادلهم هذا الســـلاح مهما تمكن من استعماله ، فالاسلام لا يبادلهم الاضطهاد ، وانما يدعوهم مجرد دعوة الى الخير والعقيدة الصحيحة ، وكل ما يسلكه الاسلام من وسائل القوة ، فانما هـــو لحماية هذه الدعوة .

ولكن العجيب أن الاسلام مع كونه لم يبادلهم هذا السلاح ، الا أنه حقق الغرض الذى يستهدفه هذا السلاح ، دون لجوء الى الوسائل التى سلكها أعداء الاسلام ، فالقرآن بما صبه على أعداء الاسلام من حرب نفسية ، جعلهم وهم يضطهدون المسلمين ، يشعرون أن المسلمين لا يتأثرون بالاضطهاد ، وانما هم الذين يتأثرون ، ويشعرون بآثار نفسية سيئة ، أسوأ مما كانوا ينتظرونه من

علم النفس الاجتماعى فى الصناعة أ . براون ترجمة مجموعة ص ٢٧٩ وما قبلها .
علم النفس التربوى آرثر جيتس وجماعة ترجمة القوصى وجماعة ص ٢٨ .
انظر صحيح البخارى .

وراء اضطهادهم للمسلمين ، فالقرآن بما يثبت به يقين المسلمين فى العقيدة ، ويقينهم بالنصر فى الدنيا، والسعادة فى الآخرة ، جعلهم حتى وهم قلة مستضعفون يشعرون بأنهم الأعلون ، وأنهم الأعزون الغالبون ، وكذلك جعل القرآن أعداء الاسلام ، بما ألقى فى قلوبهم من الشك على الأقل فى عقيدتهم ، وفى موقفهم الذى يحاربون من أجله ، ومن اليأس أو التشكك على الأقل فى نجاح حربهم ، ومن اليأس أو التشكك أيضا فى مستقبلهم كله فى الدنيا والآخرة ، ويكفى من هذا ان يؤكد لهم القرآن ان الله سبحانه بجلاله وقدرته التى لا تغلب مؤيد للمسلمين ومعاد لهم ، ومن أمثلة هذه الآية الكريمة « اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (١) فهذا المعنى ولا شك يلقى فى نفوس المؤمنين قوة لا تغالب ، حين يشعرون بان الله وملائكته معهم بعد قوله « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » فأى قوة تغالب قوة المؤمن بالله ، وبأن هذا القرآن كلام الله حين يؤكد له القرآن أن ملائكة الله تقاتل معه ، ومن ناحية أخرى ، فان أعداء الاسلام حين يرون المسلمين موقنين بهذا ، ألا يلقى هذا فى قلوبهم يأسا أو شكا على الأقل فى نتيجة المعركة بالنسبة لهم ؟ (٢) ٠

وفى هذه المعركة العنيفة من قبل الكافرين ، القاسية على المسلمين ، يبرز القرآن للمسلمين سلاحا قويا ، يواسون به نفوسهم المرهقة ، ويضمدون جراحهم النازفة ، ويصيبون به أيضا أعداءهم ، هو سلاح السخرية ، فيجعلهم القرآن بما يتلو عليهم من السخرية بأعدائهم يسخرون حتى وهم فى أقصى حالات الضعف والتعرض للاضطهاد ، ويصبون هذه السخرية على أعدائهم ، والقرآن سخر سخرية موجعة من أعداء الاسلام ، من قادتهم وزعمائهم ، ومن عقولهم وأفكارهم ، ومن عقيدتهم وعاداتهم ، ومن مستقبلهم وما ينتظرهم فى الدنيا والآخرة ، ومن غير ذلك ، كما سيأتى فى الأحاديث المخصصة لذلك ، وهذه السخرية فى الظروف الحرجة القاسية التى مرت بالمسلمين ، يمكن أن نتصور معها ما أدته من علاج لجراح المسلمين ، وصيانة لنفوسهم من الشعور بالذلة أو الهوان ، وعلماء النفس كما مر فى صدر هذا البحث ، يعرفون للسخرية أثرها فى تخفيف الآلام ، ومقاومة الشعور بقسوة الظروف ، ويجدون فيها « بديلا عن البكاء » « ومنفذا للتنفيس عن الآلام » وكذلك كانت السخرية بالنسبة للمسلمين حفاظا على الثقة بالنفس ، كما يقرر علماء النفس أن فى السخرية « تجديدا للنشاط وتقوية للروح المعنوية ، واعادة للثقة بالنفس » بل كانت للمسلمين من مصادر الشعور بالعزة والعلو والانتصار على أعدائهم ، كما يقول علماء النفس ان السخرية ملازمة للشعور بالتعالى والنصر وأنها ليست الا « نشيد

---

(١) سورة الأنفال ١٢ ٠

(٢) سورة الأنفال ٩ ٠

(٣) انظر بين الدين والحياة عبد المنعم النمر (مختارات الاذاعة) ص ٦٤ ٠

انتصار » (١) ، وكذلك يمكن أن نتصور شعور أعداء الاسلام بهذه السخرية ، في الوقت الذي ينتظرون فيه من المسلمين ، اذعانا واستسلاما لهم ، أو شعورا بالضعف والهوان على أهون الفروض ، فاذا هم لا يجدون في المسلمين ضعفا ولا خورا ولا استسلاما ، وانما يجدونهم ساخرين منهم ، مستهزئين بهم ، متعالين عليهم .

٢ ـ السخرية :

ومن أسلحة التأثير النفسي التي اعتمد عليها أعداء الاسلام ضد المسلمين ، السخرية ، فقد جعلوها سلاحا مستقلا يحاربون به الاسلام وأبناءه ، واشتهر أفراد من قريش ومن حولهم عرفوا لدى قومهم بالبراعة في السخرية من الاسلام والمسلمين ، فكانوا يترقبون سخرياتهم هذه ويتناقلونها بعد صبها على المسلمين ، وهم الذين أشار اليهم القرآن بقوله مخاطبا الرسول الكريم « انا كفيناك المستهزئين » وقد شملت سخريتهم كل ما يمكن أن يؤذي المسلمين ، في عقيدتهم أو رسولهم ، أو ضعفهم أو فقرهم ، وما السخريات التي ساقها القرآن على ألسنتهم الا أمثلة ونماذج لما صدر منهم من سخريات ، والقرآن الكريم حدد نفرا معينا من هؤلاء المستهزئين ، حصرهم المؤرخون المسلمون معتمدين في ذلك على القرآن نفسه ، فان القرآن هو الذي ساق أمثلة ونماذج من سخرياتهم بالاسلام والمسلمين ، في سياق تسفيه هذه السخريات أو الرد عليها ، ولولا القرآن لما وصلنا في أغلب الظن شيء من تفاصيل سخريتهم ، لأن المعاصرين والمشاهدين لهذه السخريات ، والذين كان يتوقع أن يكونوا هم الرواة لها ، لم يبق أحد منهم قط على دينه بعد وفاة الرسول عليه السلام ، ومن الطبعي أن يتحرج المسلم عن رواية سخرية تمس صلب دينه ، لذلك كان القرآن أهم مرجع في تفاصيل ما صدر من أعداء الاسلام من سخريات ، وقد حدد المؤرخون المسلمون نفرا من هؤلاء الساخرين بالاسلام ، لارتباط سخريتهم ببعض القرآن الكريم(٢) ومنهم أبو لهب عم الرسول وزوجه أم جميل بنت حرب ، اللذان نزلت فيهما سورة المسد ، ومنهم أمية بن خلف الذي نزلت فيه « ويل لكل همزة لمزة .. » لأنه كان دائما يهمز النبي ويلمزه ، ومنهم العاص بن وائل السهمي ، الذي كان لخباب بن الأرت عليه دين ، فقال لخباب حين قاضاه اياه : أنظرني الى يوم القيامة كما يقول صاحبك ـ النبي ـ فأقضيك حقك . ومنهم أبو جهل بن هشام، الذي قال لقريش حين نزل حديث شجرة الزقوم في القرآن : يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ قالوا لا ، قال : عجوة يثرب

---

(١) انظر الفصل الأول (السخرية) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٢/١٥، ١٦ وفيه أن عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومه هم الأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن طلاطلة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل .

بالريد ، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقما (١) ومنهم النضر بن الحارث الذى كان يتتبع النبى ، حين يقوم من مجلسه ، يجلس ليسفه ما قاله النبى ويزعم لهم أنه أساطير الأولين ، ومنهم الوليد بن المغيرة الذى كان من أكبر زعماء التكذيب والسخرية من النبى وما جاء به ، ونزل فيه كثير من الآيات ، ومنهم الأخنس بن شريق ، الذى نزلت فيه « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم » لأنه كان « يصيب من رسول الله ويرد عليه » وكان من أسباب اهتمام القرآن بالرد عليه أنه « كان من أشراف القوم وممن يستمع منه » فحطم القرآن جلاله فى نظر أتباعه ، وشوه صورته بكشفه على حقيقته أمام الناس ، كما أنه كان من أسباب اهتمام القرآن بالرد على الوليد بن المغيرة ، والاشارة الى شخصه ، المنزلة القيادية الكبيرة التى كان يحتلها فى قومه حتى انه كان يقول « لو كان حقا ما يقول محمد لنزل هذا القرآن على أو على أبى مسعود الثقفى (٢) فهو يرى أنه هو وعروة بن مسعود الثقفى المكنى أبا مسعود أحق رجلين فى العرب بأن يكونا فى قمة الناس وذروتهم ، وقد قال القرآن فى دعوى الوليد هذه « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ثم سخر من كلامهم بقوله « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » (٣) ، ولكن القرآن يحطم من هالة الوليد ونظرة أتباعه اليه بهذه السخرية الموجعة فى قوله « ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، أنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ، ٠٠ » (٤) ولكن القرآن يعترف له بقوة التفكير ، وعمق الكيد ، كما يقول المفسرون فى قوله تعالى « فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر » يقولون « تعجيب من تقديره واصابته فيه المحز ، ورميه الغرض الذى كان تنتحيه قريش » (٥) وهذه الخطورة التى اتصف بها كثير من قادة العداء والحرب ضد الاسلام ، هى التى كانت من أسباب اهتمام القرآن بنفر معين ، فى مهاجمتهم والسخرية منهم بالاشارة الى أشخاصهم فى كثير من الآيات ٠

ومن الساخرين المحددة أشخاصهم ، أبى بن خلف الجمحى وعقبة بن أبى معيط ، اللذان يروى عنهما ابن هشام أنهما « كانا متصافيين حسنا ما بينهما ،

---

(١) التزقم البلع ٠

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى ١٩٥/٤ ٠

(٣) سورة الزخرف ٣١ ـ ٣٢ ٠

(٤) سورة المدثر ١١ ـ ٣٠ ٠

(٥) تفسير الكشاف ٥١٩/٤ ٠

فكان عقبة قد جلس الى النبي وسمع منه ، فبلغ ذلك ابيا ، فاتى عقبة قائلا له : الم يبلغني أنك جالست محمدا ·· ثم أقسم ألا يكلمه حتى يتفل في وجه محمد صلى الله عليه وسلم ·· ففعل ذلك عدو الله عقبة ، فنزلت (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا ، لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشـــيطان للانســـان خذولا (١) ·

ومنهم أمية بن خلف الذى أحضر عظما باليا وجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يبعث هذا يا محمد ؟ فقال له النبي « ·· يبعثه الله واياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك النار » فنزل من القرآن الكريم (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذى انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون » (٢) ·

وهناك غير هؤلاء من الذين عرفوا بالسخرية من الاسلام والمسلمين (٣) وحين نستعرض الأمثلة التي أوردها القرآن من سخرياتهم ، نجد أنهم بلغوا بسخريتهم حدا بالغا يبدو فيه التنظيم والفكر ، ويظهر فيه الوصول الى مرتبة الخطورة ، وامكان التأثير فى معنويات العامة ، سواء كانوا من محدثي الاسلام أو المتطلعين الى الاسلام ، وهو الهدف الأساسي من السخرية ، وهو أيضا موطن الخطورة في السخرية ، فمن مظاهر التنظيم والفكر والتدبير فى هذه السخرية ، انها شملت كل شيء يهم المسلمين ، شملت الاسلام بوصفه دينا وعقيدة ، فسخروا من كل جديد فى عقيدة الاسلام ، كالبعث والقيامة ، والملائكة والغيب ، والوحدانية التي تميز بها الاسلام ، كقولهم « أجعل الآلهة الها واحد ؟ ان هـــذا لشيء عجاب ·· » (٤) وسخروا بتركيز شديد من شخص الرسول وما يصدر عنه ، كما سبق ، باعتباره مركز القيادة فى الاسلام ، والممثل للعقيدة الاسلامية ، ولجماعة المسلمين معا ، وسخروا أيضا من المسلمين كجماعة ، فسخروا من ضعفهم كما تسوق الروايات ، ومن ذلك أنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس اليه المستضعفون ، خباب وعمار وابو فكيهة يسار مولى صفوان ، وصهيب وأشباههم هزأت بهم قريش » (٥) ولكن القرآن الكريم يواسي هؤلاء المستضعفين ، ويطمئنهم الى ثبات قدمهم فى الاسلام ، وثبات مكانتهم عند الله ورسوله ، وأنهم مهما وجه اليهم من استهزاء أو سخرية ، فان ذلك لا يقلل من مكانتهم فى الدين ،

---

(١) سورة الفرقان ٢٧ ــ ٢٩ وانظر القصة فى سيرة ابن هشام ١/٣٨٥ ·
(٢) سورة يس ٧٨ ــ ٨٣ ·
(٣) انظر ما سبق من الروايات عن الساخرين فى سيرة ابن هشام ١/٣٧٦/٣٨٨ ·
(٤) سورة ص ٥ ، ٦ ·
(٥) سيرة ابن هشام ١/٤٢٠ ·

فيخاطب الرسول فى شأنهم مؤكدا لهم أنه لا ينبغى أن يصرفه عنهم حرصه على اسلام هؤلاء الذين يسخرون منهم ، وقد ذكرت بعض الروايات ان الرسول كاد يجامل بعض قادة الشرك فى ابعاد هؤلاء المستضعفين عنه فى بعض الأحيان ، حرصا على أن يتألف بذلك قلوب المتكبرين من أعدائه ، فأنزل الله سبحانه « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ، واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » (١) وتتركز سخرية المشركين بهؤلاء الضعفاء فى قولهم عنهم (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) ويقول الزمخشرى فى تفسير الآيات « روى أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردت عنا هؤلاء الأعبد ، يعنون فقراء المسلمين ، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم ، وأرواح (٢) ، جبابهم — وكانت عليهم جباب من صوف — جلسنا اليك وحادثناك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين ، فقالوا فأقمهم عنا اذا جئنا ، فاذا قمنا فأقعدهم معك ان شئت فقال : نعم ، طمعا فى ايمانهم ، وروى أن عمر رضى الله عنه قال : لو فعلت حتى ننظر الى ما يصيرون. قال : فاكتب بذلك كتابا ، فدعا بصحيفة وبعلى رضى الله عنه ليكتب ، فنزلت فرمى بالصحيفة ، واعتذر عمر عن مقالته ، قال سلمان وخباب : فينا نزلت ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا ، ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا اذا أراد القيام فنزلت (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) فترك القيام عنا الى ان نقوم عنه ، وقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى ، معكم المحيا ، ومعكم الممات » (٣) ومعنى ذلك ان سخرية أعداء الاسلام هذه ، كادت تؤدى الغرض منها وهو التأثير النفسى لولا أن قطع القرآن عليها الطريق .

ومن سخريتهم بالمسلمين فى ضعفهم ، ما حكاه القرآن على لسانهم وهم فى جهنم « وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار » (٤) وسياق سخريتهم من ضعفاء المسلمين يجمل المقصود من وصفهم اياهم بالأشرار ، انهم « من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى » (٥) وهم يعترفون بأنهم جعلوهم هدفا لسخريتهم (اتخذناهم سخريا) .

---

(١) سورة الأنعام ٥٢ — ٥٤ .

(٢) أرواح يعنون ان رائحة جبابهم كريهة .

(٣) تفسير الكشاف ٣١/٢ .

(٤) سورة ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٥) تفسير الكشاف للزمخشرى ٧٩/٤ .

وسخروا من المسلمين فى فقرهم ، فجعلوا من الفقر الذى يعانيه المسلمون حينذاك ، مادة للاستهزاء والسخرية من فقر المسلمين ، ويربطون هذا سخريتهم من عقيدة الاسلام ، كما ينقل القرآن عنهم « واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين » (١) . فحين علموا أن الاسلام يفرض الزكاة والصدقة ، جعلوا من ذلك وسيلة للسخرية ، كأنهم تصوروا أنهم لو أسلموا فسيكون هذا التكليف بالزكاة والصدقة عبئا عليهم ، فجعلوا لسخريتهم به هدفين ، أحدهما الاستهزاء بفقر المسلمين ، والآخر الغمز فى العقيدة الاسلامية ، والتأثير فى نفسيات المسلمين من هذه الزاوية بمحاولة تشكيكهم فى صلتهم بالله ، وفى مقدرة الله سبحانه على أن يغنيهم ، ومحاولة جعل الفقراء من المسلمين يسائلون انفسهم لماذا لا يغنينا الله ؟ وأى حكمة لله فى تركنا فقراء ونحن المؤمنون به ؟ كما يقول المفسرون ، فاخرجوا هذا الجواب ــ انطعم من لو يشاء الله أطعمه ــ مخرج الاستهزاء بالمؤمنين .. فاذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله ، أيفقره الله ونطعمه نحن ؟ وقيل كانوا يوهمون أن الله لما كان قادرا على اطعامه ولا يشاء اطعامه فنحن أحق بذلك .. (٢) .

فقد بذل أعداء الاسلام اذن جهدا كبيرا متعمدا ومدبرا ، فى أن يجعلوا من السخرية سلاحا يحاربون به الاسلام ، وحين نرجع الى ما قرره علماء النفس من آثار ونتائج للسخرية حين تستخدم كسلاح (٣) ، نجد أن أعداء الاسلام كادوا يحققون بحربهم النفسية للمسلمين وفى مقدمتها السخرية بعض النتائج لصالحهم ، كما سبق من ان الرسول عليه السلام هم أن يتألفهم بتحاشيه بعض أصحابه أحيانا ، وكما قيل فى سبب نزول قوله تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم .. » (٤) .

ولكن القرآن الكريم قطع على حربهم النفسية وعلى سخريتهم الطريق ، فشل حيوية سخريتهم وأبطل مفعولها بما صبه عليهم من سخرية ، وبما رصد لكل سخرية معادية من سخرية جارفة لا تبقى أمامها السخرية المضادة ولا أصحابها لأن سخرية القرآن من الأعداء فضلا عن ابطالها مفعول سخريتهم ، فانها تحقق فى الأعداء الآثار التى كانوا ينتظرونها فى المسلمين ، ومن أهم الآثار التى يعرفها علماء النفس للسخرية حينئذ أنها تزعزع كيان من توجه ضده وتهز معنوياته ، وتفقده أو تشككه فى الثقة بالنفس والموقف الذى يدافع عنه ، ولئن كان أعداء الاسلام بسخريتهم من المسلمين فى ضعفهم وفقرهم قد أوشكوا أن يحققوا شيئا

---

(١) سورة يس ٤٧ .
(٢) تفسير الكشاف ١٥/٤ .
(٣) انظر الفصل الأول من هذا البحث (السخرية) .
(٤) انظر سيرة ابن هشام ٣٨٠/١ ــ ٣٨١ .

من أهدافهم في زعزعة الثقة بالنفس واضعاف المعنويات ، فان القرآن بسخريته المضادة قد أبطل ذلك وحقق ما يقوله علماء النفس عن آثار السخرية من مثل قولهم « أما حين نغمز بالسخرية ·· أو تستهجن أفعالنا أو توبخ أو ننتقد أو نصغر أو نحتقر أو نهمل أو نزدري فاننا نعاني اعتداء مباشرا على تقديرنا لذاتنا » (١)·

٣ ــ الدعـاية :

(أ) أسلوب الأعـــداء :

وأعني بالدعاية كل وسائل الاعلام المباشرة أو غير المباشرة ، التي يسلكها احد طرفي المعركة لتقوية جبهته ، واضعاف جبهة خصمه ، ووسائل الاعلام تختلف بطبيعة الحال من عصر الى عصر ، حسب الظروف المتاحة لكل بيئة وكل عصر ، ولكنها أيا كان اختلافها تكاد تكون وسائل تلقائية يمليها حرص كل طرف في الحرب على أن يحقق لنفسه النصر على عدوه ، وهي بهذا الاعتبار من أقدم الوسائل النفسية في الحروب ، وظل الاهتمام بها يتزايد ، وأخذ الاهتمام بتنظيمها وتنسيقها يحظى بالعناية ، حتى احتل المقام الأول في الحروب المعاصرة ، ويعرف الباحثون ان الدعاية قد احتلت مكان الصدارة في الحرب العالمية الأولى (٢) ، كما انهم يعرفون ان الحرب النفسية بصفه عامة ــ وفي مقدمتها الدعاية ــ كانت السلاح الذي كسب الحرب في الحربين العالميتين (٣) ·

وحين ننظر الى الحرب النفسية بين الاسلام وأعدائه من زاوية الدعاية ، نجد ان أعداء الاسلام الأولين قد استغلوا هذا السلاح بأقصى ما يتاح لهم من امكانيات وحشدوا له كل ما تصل اليه أيديهم من وسائل ، ولم يكونوا في هذه الوسائل من السذاجة او البساطة التي يطيب لبعض الناس أن يتصورهم فيها بحكم ما في البيئة التي عاشوا فيها من بداوة ، أو بحكم ما يوحيه الوصف اللاصق بهم وهو الجاهلية ، فالواقع أن وسائلهم وخاصة الدعاية ، بلغت من القوة والاحكام بحيث يمكن أن يقال انا لو وازناها حتى بأحدث الوسائل تكاد لا نجد في الوسائل الحديثة تقدما عنها الا في ظروف البيئة والعصر وضخامة الامكانيات ·

فمما سلكته دعاية أعـــداء الاسلام السخرية ، وقد جعلوا من سخريتهم بالاسلام والمسلمين سلاحا قويا يضعفون به معنويات المسلمين ، ويصدون به الراغبين في الاسلام عنه ، وكما سبق القول فانهم سخروا من كل شيء في الاسلام والمسلمين ، سخروا من العقيدة الاسلامية بكل ما جاءت به ، من وحدانية

---

(١) علم النفس التربوي آرثر جيتس وجماعة ترجمة عبد العزيز القوصي وجماعة ص ٣٦ ·
(٢) انظر الحرب النفسية صلاح نصر ٧٩/١ ·
(٣) المصدر السابق ٧٨/١ ·

الله ، ومن الملائكة ، ومن البعث ، ومن القيامة ، ومن النار وما فيها وغير ذلك · وسخروا من المسلمين ، من ضعفهم ، ومن فقرهم ، ومن آمالهم سواء في الدنيا أو في الآخرة ، وركزوا سخريتهم على شخص الرسول ، فاتهموه بانه كاهن ، وانه مجنون ، وانه شاعر ، وانه كذاب ، وانه ساحر (١) ، ومما لاشك فيه أن هذه الاتهامات ليست الا دعايات مقصودة ، يراد بها تشويه شخصية الرسول في نظر اتباعه والمتطلعين الى اتباعه ، أو تشكيكهم في شخصيته على الاقل ، وعلماء النفس يقررون مثل ذلك ، كقولهم « ان انتشار اشاعة بان شخصا شهيرا قد أصيب بالجنون انما هو فعل عدوانى ·· » (٢) ، ومن الواضح في كون اتهامات أعداء الاسلام التي وجهوها نحو الرسول مجرد دعايات مقصود بها حرب الاسلام على الوجه الذى أشرت اليه ، أن مطلقو هذه الاشاعات ، وهم من القادة أصحاب الفكر والتدبير ، أعلم الناس بكذب هذه الاشاعات ، وانه لم يكن لهم من هدف حولها الا صرف الناس عن اتباع الرسول · واملهم في أن تروج هذه الاشاعات لدى بسطاء العقول من العامة والاتباع ·

ومن وسائل الدعاية التي لجا اليها أعداء الاسلام الشعر . فمن المعروف ان الشعر كان أبرز وأهم وسائل الدعاية والاعلام في المجتمع العربي القديم على الاطلاق ، وكذلك حشد أعداء الاسلام كل ما يملكون من قدرات شعرية ليوجهوها ضد الاسلام ، هجاء وسخرية ، ولئن كانت سيطرة الاسلام على المجتمع ، ودخول افراده جميعا تحت لواء الاسلام قد حالت دون وصول كثير من هذا الشعر الينا ، لتحرج الرواة من روايته ، فان ما وصل الينا لارتباطه باحداث أو آيات من القرآن الكريم يشف عن الجهد الكبير الذى بذله أعداء الاسلام في اتخاذ الشعر سلاحا للدعاية ضد الاسلام (٣) ، ومن أمثلة نظرتهم الى خطورة الشعر في هذا الميدان ، ان الأعشى هيا قصيدة يمدح بها النبى ودينه ، واولها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا

ثم رحل به الى مكة ليلقى بها النبى صلى الله عليه وسلم ، ففزعت قريش ، وبذلوا كل جهد حتى ردوا الأعشى دون أن يلقى النبى صلى الله عليه وسلم (٤) ·

وبلغ من اهتمامهم باستغلال الشعر ضد الاسلام ، انهم كانوا يجعلون الجوارى يغنين بما يقال من شعر في هجاء الاسلام ، ومن هؤلاء جاريتا عبد العزى ابن خطل وهما فرتنا وصاحبتها ، وسارة مولاة بنى عبد المطلب ، اللاتى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتلهن يوم فتح مكة (٥) وليس هناك من سبب لأمر النبى

(١) أنظر للمثال الآيات ٢٩ ـ ٣٤ سورة الطور ·
(٢) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة ا · براون ترجمة جماعة ص ٢٨٠ ·
(٣) أنظر للمثال سيرة ابن هشام ٢٧٨/٢ ـ ٤٢٠ ·
(٤) المصدر السابق ٤١١/١ ـ ٤١٦ ·
(٥) انظر جوامع السيرة لابن حزم ٢٣٢ وسيرة ابن هشام فى أحداث فتح مكة ٣٠/٤ ·

يقتلهن ولو وجدن متعلقات بأستار الكعبة سوى خطورة الدور الذى يؤدينه ضد الاسلام ، وهو نشر دعاية من أخطر وسائل الدعاية حينذاك وهى الشعر ، بأخطر وسيلة حتى اليوم وهى الغنـــاء ، وهذان الهدفان أو الوسيلتان هما اللتـــان استهدفهما أعداء الاسلام من غناء الجوارى بهجاء الاسلام . ومن الوسائل الخطيرة التى سلكها أعداء الاسلام فى الدعاية ، نشر الاشاعات عن سلوك بعض المسلمين ، ومن أخطر هذه الاشاعات حديث الافك ، الذى استهدف شخص النبى صلى الله عليه وسلم ممثلا فى زوجه عائشة رضى الله عنها ، فقد عمد بعض المنافقين أثناء غزوة بنى المصطلق ، الى اتهام عائشة رضى الله عنها بالفاحشة مع صفوان بن المعطل ، واشتد انتشار الاشاعة بعد رجوع المسلمين الى المدينة ، وقد كان لهذه الاشاعة أثر خطير هز كيان المسلمين هزا عنيفا ، وجعلهم وفى مقدمتهم النبى صلى الله عليه وسلم يعيشون أياما عصيبة قاسية ، تعرض فيها النبى وأهل بيته لآلام نفسية مرة،وتعرض فيها كيان المسلمين كله للتمزق والانقسام،ومن ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حين أحس الصدى الخطير لاشاعة الافك خطب على المنبر فى المسلمين يكذب هذه الاشاعة ، فقام أسيد بن الحضير الأوسى يقول عن مروجى الاشاعة ، ان كانوا من الأوس نكفكهم ، وان كانوا من اخواننـــا من الخزرج فمرنا بأمرك يا رسول الله ، فوالله انهم لأهل لأن تضرب أعناقهم ، فقام سعد ابن عبادة الخزرجى وتصفه عائشة فى روايتها بأنه كان قبل ذلك يرى رجلا صالحا ، فقال لأسيد بن الحضير : كذبت ، وتثاور (١) الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين — الأوس والخزرج — شر ، ونزل رسول الله — من فوق المنبر — فدخل على عائشة ، ثم دعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، فاستشارهما فى أمر عائشة ، فاما أسامة فأثنى على عائشة خيرا ،وأما على فانه قال : ان النساء لكثير، وانك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية تصدقك (٢) ومن المؤكد أن هذه الدعاية كانت ستزداد خطورة واستفحالا على كيان المسلمين كله ، لولا أن حسمها القرآن نفسه مشيرا الى خطورة هذه الدعاية على المسلمين من وجوه كثيرة ، فى قوله تعالى (ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا

---

(١) تثاور ثار بعضهم الى بعض بالشر يعنى الأوس والخزرج .

(٢) انظر القصة مفصلة فى سيرة ابن هشام ٣٤١/٣ — ٣٤٢ ، ٣١٢/٤ ، ٣١٣ .

لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون • ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم • يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم • ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم • ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم • يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون • يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين)(١) والمؤرخون يشيرون الى أن مثيري هذه الدعاية جماعة من المنافقين على رأسهم عبد الله بن أبى ، ولكن الذين أفصحوا بها وروجوها جماعة ظاهرون ، منهم حسان بن ثابت ، ومسطح ابن أثاثة ، وحمنة بنت جحش (أرملة مصعب بن عمير) وقد ضرب هؤلاء حد القذف حين ثبتت براءة عائشة بنص القرآن ، ومن الآثار النفسية الخطيرة التى ألقاها حديث الافك في نفوس بعض المسلمين أن رجلا كحسان بن ثابت يعد لسان المسلمين الشعرى ، في الدفاع عن المسلمين وصد الدعاية الشعرية ضدهم . يشترك في هذا الاثم الكبير ، بل وتصل زعزعة نفسه الى أن يقول شعرا يعرض فيه بالمهاجرين من أصحاب النبى ومنه :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضة البلد (٢)

ومن الآثار التى تمخض عنها الافك ان صفوان بن المعطل الذى رميت به عائشة ، أراد أن يثأر لنفسه من حسان بن ثابت ، فاعترض حسانا وضربه بالسيف ، ولكن حسانا نجا ، وبالتالى كان من الطبيعى أن ينقم حسان أو أحد ذويه على صفوان هذا ، لولا ان النبى هدأ حسانا قائلا « أحسن يا حسان في الذى قد أصابك » قال حسان « هي لك يا رسول الله » (٣) .

ولئن كانت هذه الأحداث بعض ما ظهر من آثار دعاية واحدة هي حديث الافك ، فان ما خفى من آثارها ، وما علق بالنفوس منها ، وما أثارته في القلوب من بلبلة واضطراب بين المسلمين ، كان ولا شك أكبر وأعظم .

ومما سلكه أعداء الاسلام من وسائل الدعاية ضد الاسلام ، انتهاز فرصة الأسواق والمواسم ، وخاصة موسم الحج ، لنشر كل ما تتمخض عنه أفكارهم من دعايات ، وترصدهم للوافدين على النبى رغبة في الاسلام أو استطلاع ما جاء

---

(١) الآيات ١١ ـ ٢٥ سورة النور .

(٢) الجلابيب لقب أصحاب النبى عند مشركي مكة . وابن الفريعة يعنى صفوان بن المعطل . وقد عاتبه النبى على هذا الشعر قائلا « يا حسان أتشوهت على قومى أن هداهم الله للاسلام » .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣٤١/٣ ـ ٣٥٤ .

به ، وتلقيهم اياهم بهذه الدعايات ، ومن ذلك صدهم الأعشى عن الاسلام كما سبق ، وكذلك قصة هذه الرواية «قدم على رسول الله عشرون رجلا أو نحوهم من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ـ أو نجران ـ فجلسوا اليه بالمسجد، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم بالدمع .. فلما قاموا اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم لتأتوهم بخبر الرجل ، فتفارقون دينكم ؟ » (١) .

ومما سلكوه أيضا لاظهار مقدرتهم على رد الخارجين على دينهم ، انتشار اشاعة بين الذين هاجروا الى الحبشة من مسلمى قريش . وقد صدق بعضهم الاشاعة كما تسوق الرواية « اتصل بمن كان فى أرض الحبشة أن قريشا أسلمت وكان هذا الخبر كذبا فانصرف منهم قوم ، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية ، وأبو حذيفة بن عتبة ، والزبير ، ومصعب بن عمير .. (وآخرون) فوجدوا البلاء والأذى على المسلمين الذين بمكة ، فبقوا صابرين على الأذى الى أن هاجروا الى المدينة » (٢) .

وقد بلغ من حرصهم على اظهار مقدرتهم ان أبا جهل واخاه الحارث بن هشام صمما على أن يعيدا أخاهما لأمهما وابن عمتهما عياش بن ربيعة من المدينة بعد أن هاجر اليها مسلما ، فأتيا المدينة ، وكلما عياشا متوددين اليه ، وأخبراه أن أمه قد نذرت ألا تغسل رأسها ولا تستظل حتى تراه ، فرقت نفسه ورجع معهما ، فكتفاه فى الطريق وأبلغاه مكة مكتوفا ليكون عبرة لغيره ، ثم حبساه بمكة مسجونا حتى خلصه بعض المسلمين خفية (٣) وتضيف رواية أخرى أنهما ، حين دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا ثم قالا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا » (٤) .

وكان أمثال عياش قد هاجروا الى المدينة خفية ، فلم يتح لقريش أن تمنعهم من الهجرة أما الذين أتيح لهم أن تصدهم فقد فعلت ، كما فعلت بهشام ابن العاص بن وائل السهمى ، فحين علم جبابرة قريش بهجرته ، قطعوا عليه الطريق ، ثم عذبوه حتى أظهر لهم الرجوع عن الاسلام .

ومن وسائل أعداء الاسلام أيضا أن اثنى عشر منافقا بالمدينة اجتمعوا على فكرة معينة ، هى أن يقيموا مقرا لدعايتهم ، فى وسيلة يلبسونها ثوب الاسلام، فبنوا مسجدا ، وطلبوا من الرسول أن يصلى لهم فيه ، ليصبح مقرا معترفا به من المسلمين ، ينافسون به مسجد الرسول ويدبرون فيه ما يشاءون دون أن

---

(١) المصدر السابق ٤١٨/١ ، ٤١٩ .
(٢) جوامع السيرة لابن حزم ٦٥ ، ٦٦ .
(٣) انظر جوامع السيرة لابن حزم ٨٨ .
(٤) سيرة ابن هشام ٨٤/٢ ، ٨٥ .

تحول حوله الشبهات ، ولكن القرآن كشف للمسلمين ما يهدفون اليه ، فأنزل الله « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد اسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جنهم والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » (١) وبالطبع لم يصل فيه النبى ، بل أمر بتحريقه ، وعرف فى التاريخ الاسلامي بمسجد الضرار (٢) .

بل كان أعداء الاسلام يتخيرون أحيانا أحرج المواقف لنشر اشاعات مسمومة يهدفون منها الى تحطيم قوة المسلمين المعنوية ، وذلك أثناء القتال ، أو التهيؤ للقتال ، ومن ذلك تلك الاشاعة الخطيرة التى نشرت بين المسلمين من جانب أعدائهم أثناء القتال فى غزوة أحد بأن محمدا قد قتل ، وقد كان لهذه الاشاعة أثر كبير فى الهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى أحد ، ومن ذلك أيضا ما أشاعه المنافقون بين جيش المسلمين وهو يتهيأ لقتال الروم فى تبوك من تثبيط معنوى ، ومن ذلك قولهم للمسلمين « أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال » (٣) .

ومن أغرب الوسائل التى لجأ اليها اليهود ليتخذوا منها مادة للدعاية الهادمة ضد الاسلام لو نجحت ، أنهم تآمروا على فتنة النبى ، فذهب اليه جماعة منهم يطالبون منه أن يقضى لهم فى خصومة بينهم وبين قومهم بغير حقهم ، ولكن الرسول أبى (٤) ، وقد جعلوا ذلك مقابل أن يعتنقوا الاسلام .

ب ـ أسلوب الاسلام :

يعترف خبراء الحرب النفسية والباحثون فيها ، بأن نجاحها يعتمد على مدى قرب مادتها من الصدق والحقيقة ، كما يقولون « يجب أن يكون معظم المادة التى تستخدم فى الحرب النفسية حقيقيا » (٥) وهذا المعنى يضع فاصلا كبيرا فى الفرق بين أسلوب أعداء الاسلام وأسلوب الاسلام فى هذه الحرب ، فبينما نجد أسلوب الأعداء يعتمد على الكذب والاختلاق ، بل اللجوء الى ادعاءات

---

(١) الآيات ١٠٧ ـ ١١٠ سورة التوبة .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١٨٥/٤ ، ١٨٦ .
(٣) سيرة ابن هشام ١٨٠/٤ .
(٤) انظر سيرة ابن هشام ١٩٦/٢ .
(٥) الحرب النفسية صلاح نصر ١٠٣/١ .

وفرى لا تقرها أبسط العقول ، كاتهامهم النبي نفسه بأنه مجنون ، نجد أسلوب الاسلام يعتمد على الصدق الخالص ، والحقيقة الكاملة ، والمنطق الذى لا تنكره العقول .

ومن الواضح أن أى دعاية مهما يحكم تدبيرها ، ما دامت لا تعتمد على الحقيقة ، فان الأيام والأحداث ستظهر بطلانها ، والعقول ستدرك ما فيها من تضليل ، ولئن نجحت وانطلت على الناس فى فترة ما ، فمن المؤكد أنها ستنقلب حربا على مدبريها ، حين يكتشف الذين انطلت عليهم أنهم كانوا مخدوعين مغررا بهم ، فينقلبون حربا على من خدعوهم بهذا الكذب .

وهكذا كان الوضع فى الحرب النفسية بين الاسلام وأعدائه ، فقد جهد أعداء الاسلام فى نشر دعايات واشاعات كاذبة ملفقة ، سرعان ماأظهرت الأحداث ، وأدركت العقول بطلانها ، فاذا الناس يدخلون فى الاسلام أفواجا بعد أن كانوا يدخلونه فرادى .

أما الاسلام فانه وان كان قد بادل أعداءه الحرب النفسية ، فانه اعتمد كل الاعتماد بحكم كونه سماويا على الحقيقة الكاملة ، واذا الناس يدركون بوضوح صدق كل ما يصدر عنه وكذب كل ما يصدر ضده ، ولذلك يقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر على قتلى أعدائه ، معتزا بصدق ما يقول للناس ، وبتصديق الأيام والأحداث له ، فيقول لهؤلاء القتلى : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فانا وجدنا ما وعد ربنا حقا » (١) .

وحين ننظر الى الوسائل التى سلكها الاسلام من زاوية الدعاية ، نجد أنه قد تهيأت للمسلمين أسلحة عديدة تفوقوا بها على أعدائهم تفوقا كبيرا .

وأول هذه الأسلحة ، القرآن الكريم ، الذى بهر العرب بأسلوب نظمه ، ووجوه اعجازه التى أفاض فى الحديث عنها كثير من مفكرى ومؤلفى المسلمين (٢) ، ولكنهم مع ذلك كله لم يصلوا ببحوثهم الى كل السر الباهر الذى يتضمنه القرآن ، والذى كان المصدر الأول للاعجاز ، ولست أعتقد أنه سيأتى من يكشف عن هذا السر كله ، مهما بحث الباحثون ، أو فكر المفكرون ، فان هذا السر هو جلال القرآن ، وتأثيره فى النفوس ، والناس يقولون فى أمثالهم الدارجة (اذا عرف السبب بطل العجب) ولكن العجب لن ينتهى من القرآن ، لأنه حينما ينتهى تزول عن القرآن صفة الاعجاز ، ولذلك سيبقى هذا السر مصدرا لجلال القرآن ، وكون القرآن يوحى بسر

---

(١) انظر صحيح البخارى .

(٢) انظر للمثال دلائل الاعجاز للجرجانى والبيان والتبيين للجاحظ واعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى ومعانى القرآن للفراء ومعالم التنزيل للبغوى وثلاث رسائل فى اعجاز القرآن للرمانى والخطابى وعبد القاهر الجرجانى تحقيق محمد خلف الله وآخر واعجاز القرآن للرافعى .

أو جلال يعلو عن فهم العقول له ليس بالغريب . فانت قد ترى شخصين ، فلا تحس بينهما بفارق جسمي . أولا تفكر في هذا ، وانما تحس احساسا قويا ، بأن لاحدهما هيبة وجلالا وتأثيرا في النفس وليس للآخر شيء من ذلك وقد تحاول أن تعلل مصدر الهيبة والجلال والتأثير الذى يشع من هذا الشخص ، ولكن من المؤكد أنك لن تصل من ذلك الى كل شيء ، وكذلك الأمر في سر اعجاز القرآن . وتأثيره الذى سيطر على نفوس العرب ، ولكن هناك نقطة من هذا السر يعرفها نقاد الأدب في تقدمهم ، ولكن الباحثين في اعجاز القرآن لم يتجهوا اليها بوضوح ، وهى أن الكلام يحمل دائما روح صاحبه وشخصيته ، بحيث يحس الناقد أحيانا بالفارق بين كلام وآخر ، من مجرد احساسه بما يوحيه أحدهما من مشاعر أو ايحاءات تصاحب الكلام وروحه هى التى تشع من خلال الكلام ، والباحثون في اعجاز القرآن لا يختلفون في أن القرآن كلام الله ، فلماذا لا يدركون أو لا يقولون ان من اعجاز القرآن أنه يحمل ويوحى بجلال ذات الله سبحانه ، لأنه صاحب هذا الكلام ؟ وأن من أهم أسباب تأثيره في النفوس ، الشعور بأن مصدر هذا الكلام مصدر غير عادى ، فأهم الفوارق بين القرآن وغيره من الكلام ، ليس التراكيب وأوجه البلاغة التى جهد في بحثها الباحثون ، ولكن هذا الأهم هو الشعور النفسي للسامع بمصدر هذا الكلام وبما يوحيه من جلال قائله . وقد أشار بعض الباحثين الى هذا المعنى ، وان كانت اشارة عابرة ينقصها التحديد والتوضيح ، كقول الرافعى « والقرآن وان كان لم يخرج عن أعلى طبقات اللغة .. غير أنه أتى بذلك من وراء النفس ، لا من وراء اللسان ، فجعل من نظمه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية ، وأدار المعانى على سنن ووجوه تجعل الألفاظ كأنها مذهب هذه المعانى في النفس ، فليس الا أن تقرأ الآية على العربى .. حتى تذهب في نفسه مذهبها .. وما نشك على حال في أنها كانت طريقة العرب في الاحساس باعجازه » (١) .

وليس هذا الحديث مقصودا لذاته هنا ، وانما نكتفى منه بأن القرآن كان أقوى سلاح لدى المسلمين ، فقد بهر الجزيرة العربية قاطبة ، ودوى الحديث عنه في كل ركن ، وتناقلت أخباره الركبان ، على أنه كلام عجيب يقوله محمد ، لم يسمع أحد مثله ، فطغى على الشعر ، وطغى على كل حديث ، وكان أكبر دعاية وأسرعها انتشارا ، وأوقعها تأثيرا في النفوس وجذبا للقلوب ولا يزال القرآن الكريم أقوى سلاح يملكه المسلمون ، حتى ان الباحثين يردون ظاهرة استعصاء الأمة العربية على الذوبان في غيرها من الأمم المستعمرة ومحافظتها على كيانها القومى رغم أقسى الظروف الاستعمارية التى تعرضت لها وجود القرآن بينها ، في اجتماعها على القرآن ، وتحديد القرآن الذاتها

---

(١) اعجاز القرآن مصطفى صادق الرافعى ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

وكيانها ، بينما نجد أمما أخرى قد أمحت قوميتها وذابت فى الأمة المستعمرة لها (١) .

وتلى القرآن الكريم فى الأهمية شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، فشخصية الرسول نفسها كانت من أهم وسائل الدعاية للاسلام، فقد جمع الله فيها كل ما يمكن أن يوصف به بشر من فضائل ، وقد جمع القرآن هذه الفضائل فى وصف الله لرسوله بقوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » (٢) ، وهذه الفضائل التى اكتملت فى شخص النبى ليست موضع خلاف بين كل من عاصروا النبى أو رأوه ، سواء من أتباعه أو أعدائه ، باستثناء الدعايات التى أطلقها ضده أعداؤه ، فمن الواضح أنها كذب متعمد ، والدليل على ذلك ، أن كل من بقى من قائليها ومدبريها على قيد الحياة آمن بمحمد قبل موته ، ايمان الصدق واليقين ، ولم يرجعوا عن ايمانهم أبدا حتى حينما أتيح لهم الرجوع كفترة ردة بعض العرب ، وكان التنافس على الفضائل فى المجتمع العربى على أشده حينذاك ، وخاصة بين الزعماء ، والمتطلعين الى الزعامة ، لأن الشهرة بالفضائل كانت من أقوى مبررات الزعامة فى المجتمع ، وكان التنافس على الفضائل واكبارها بين القادة ، ينعكس على عامة المجتمع فى اكباره لهذه الفضائل والاعجاب الشديد بها ، حتى ان شهرة شخص بفضيلة واحدة كالمروءة أو الشجاعة كانت كفيلة بترشيح صاحبها للزعامة ، واذا هذا المجتمع الشديد التنافس على الفضائل ، ولو لفضيلة واحدة يرى بينه رجلا قد اكتملت فيه كل الفضائل ، بل يزيد عن كل ما عرفه المجتمع من فضائل ، هذه الهيبة الشديدة التى أضفاها الله على شخصه الكريم فى غير تكبر ولا غطرسة، بل مع رحمة ورأفة لم يعرف الناس لهما مثيلا ، هذه الهيبة التى يحس بها الناظر اليه فتملأ نفسه اكبارا واجلالا ، ويحس بها البعيد عنه من أتباعه فيسيطر عليه الحنين والشوق اليه ، ولكن العجيب فى هذه الهيبة أنها كانت تملأ قلوب أعدائه رعبا وهم بعيدون عنه ، وقد حدث النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الهيبة ، فى أن الله أعطاه خمسا لم يعطهن أحد قبله ، واحداهن « نصرت بالرعب » (٣) ، وفى رواية أخرى « نصرت بالرعب من مسيرة شهر » يعنى أن أعداءه يحسون الهيبة منه فيرعبون وبينهم وبينه مسيرة شهر ، والدليل على صدق ذلك موجة الردة عن الاسلام التى اجتاحت الجزيرة العربية فور موت النبى ، حتى لم يبق على الاسلام الا مكة والمدينة ، ومن الواضح فى هذه الموجة ، وفى وقتها المقرون بوفاة النبى مباشرة ، أنها نتيجة لشعور المرتدين بزوال هيبة كانت تتملك عليهم قلوبهم ، فتمتلىء بها نفوسهم .

---

(١) انظر الاسلام فى القرن العشرين عباس محمود العقاد .

(٢) الآية ٤ سورة القلم .

(٣) انظر صحيح البخارى ، وشروحه للرواية الأخرى .

ومن آثار اكتمال الفضائل في شخص النبي ، هذا الحب الشديد العميق الذي سيطر على قلوب أصحابه له ، حتى كان الواحد منهم يتمنى أن يفديه بكل شيء حتى حياته .

وليست الافاضة في هذا الحديث أيضا مما يقتضيه الموضوع ، وانما يعنينا منه أن شخصية النبي كانت من أكبر وسائل الدعاية للاسلام ، وليس هذا مما يحتاج الى تدليل . ولئن كانت هاتان الوسيلتان ، القرآن وشخصية الرسول، قد هيأهما الله لنجاح الاسلام وانتصاره ، فان هناك وسائل للدعاية نظمها الاسلام ممثلا في شخص الرسول الكريم قائد المسلمين .

ومن هذه الوسائل أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حينما توجه بجيشه لفتح مكة وكان قريبا منها ، انتهز فرصة مرور أبي سفيان ، وهو من أكبر زعماء مكة ، ليوقع في نفسه رعبا من كثرة جيش المسلمين وقوته ، ولينقل هذه الصورة الى أهل مكة ، كما تسوق الرواية « أمر رسول الله العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم (١) الجبل أو الوادي ليرى جيوش الله تعالى ففعل ذلك العباس وعرض عليه القبائل قبيلة قبيلة ، الى أن جاء موكب رسول الله في المهاجرين، والأنصار خاصة ، كلهم في الدروع والبيض ، فقال أبو سفيان من هؤلاء ؟ قال هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، فقال والله ما لأحد بهؤلاء من قبل ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، فقال العباس : أنها النبوة يا أبا سفيان ، قال فهذا اذن ، فقال العباس : يا أبا سفيان ، النجاء الى قومك ، فاسرع أبو سفيان ، فلما اتى مكة عرفهم بما احاط بهم » (٢) ، ومن الطبيعي ان نقل دعاية كهذه على لسان زعيم كبير يؤثر تأثيرا نفسيا شديدا على قوة الأعداء ، وقد كان من آثارها أن المسلمين دخلوا مكة فلم يجدوا بها مقاومة ذات شأن .ومن وسائل الدعاية المصاحبة للحادثة السابقة ، أن جيش المسلمين حينما بلغ مر الظهران في طريقه الى مكة ، أمر النبي باشعال نيران كثيرة أضاءت لها الوديان والجبال ، حتى أصبح المنظر رهيبا يثير في قلوب قريش فزعا شديدا (٣) .

ويصاحب هذه الدعايات التي تثير الرهبة والرعب ، دعايات أخرى لينة رقيقة تجذب القلوب ، وتؤلف النفوس ، ومن ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم امر في فتح مكه ان يؤمن كل من دخل داره ، او دخل المسجد ، او دخل دار أبي سفيان ، وامر بهذا قبل دخول مكة ، وجعله قرين دعاية الرهبة التي استعرض فيها أبو سفيان جيش المسلمين ، فامر ان يبلغ

---

(١) الخطم المقدم المطل على غيره. كالأنف من الحيوان .
(٢) جوامع السيرة لابن حزم، ٢٣
(٣) انظر العبقرية العسكرية في غزوات الرسول محمد فرج ٤٨ .

ابو سفيان هذا لأهل مكة (١) ومن ذلك أيضا أن النبى عهد الى أمراء جيشه في فتح مكة ألا يقاتلوا الا من قاتلهم (٢) .

على ان بعض خلق الرسول كان من وسائل الدعاية التى تجذب الى الاسلام ، كالجود الفياض الذى عرف منه ، والنبى نفسه يشير الى انه يستخدم هذه الصفة فيه لطمانينة القلوب المريضة أو الجامحة وجذبها الى الاسلام ، ومن ذلك قوله « انى لأعطى الرجل وغيره احب الى منه خشية أن يكبه الله في النار » (٣) ، فقد كان يهدى الى أعدائه ، ويعطى بعضهم عطاء دافقا يثير العجب فى قلوب اعدائه ، كاعطائه صفوان بن امية مائة من الابل وصفوان مازال على كفره مما كان سببا مباشرا فى اسلامه (٤) ، وكذلك خلق الرحمة فيه صلوات الله عليه ، فقد كان يميل دائما الى العفو والتسامح الا ما تضطره اليه مصلحة الاسلام ، وكان هذا اللين من جانبه يشد القلوب اليه والى دينه ، ومن ذلك هذه الرواية « خرجت خيل لرسول الله فاخذت رجلا من بنى حنيفة لا يشعرون من هو ، حتى اتوا النبى فقال أتدرون من اخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى ، احسنوا اساره ، ورجع النبى الى اهله فقال اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به اليه .... ثم قال النبى : اطلقوا ثمامة ، فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع ... ثم رجع مسلما يبايع النبى صلى الله عليه وسلم » (٥) هذا مع أن النبى كان يعرض عليه الاسلام أثناء الأسر فيابى ، وانما ذهب حتى البقيع بعد سراحه ثم رجع مسلما ، ليدل على انه آمن ايمان اليقين ، وليس اسلام الخوف والذلة ، ثم كان ثمامة بعد هذا ركنا يطمئن اليه المسلمون حتى أنه قطع على قريش طريق قوافلها ومنع ما كان يصل اليها من اليمامة عن طريق بنى حنيفة ، حتى استشفع أهل مكة بالنبى لدى ثمامة ، فكتب النبى الى ثمامة أن يخلى بينهم وبين الحمل (٦)

والقرآن يشجع النبى على الاستزادة من هذا الخلق الذى وهبه النبى، مشيرا الى اثره فى الدعاية وكسب الأنصار ، كقوله « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٧) ويغرى المسلمين بالعفو حتى فى أحرج المواقف ، كاغراء أبى بكر بالعفو عن مسطح بن أثاثة بل الاحسان اليه مع أنه كان من اكبر مروجى اتهام عائشة ابنته بالفاحشة فى قصة الافك ، فيقول القرآن الكريم ، بعد أن

---

(١) انظر جوامع السيرة لابن حزم ٢٣٠
(٢) انظر سيرة ابن هشام ٤/٢٨
(٣) انظر صحيح البخارى
(٤) انظر على هامش السيرة دكتور طه حسين فصل (طبيب النفوس)
(٥) سيرة ابن هشام ٤/٣١٥
(٦) سيرة انظر المصدر السابق ٤/ ٣١٦ – ٣١٧
(٧) الآية ٣٤ سورة فصلت

ابو بكر اقسم الا ينفق على مسطح بعد اليوم « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم » (١) قال أبو بكر : بلى والله انى لأحب أن يغفر الله لى ، وواصل انفاقه على مسطح ، وهذا الخلق فى الرسول وفى دعوة القرآن له ، وفى تطبيق المسلمين اياه من الوسائل التى تغرى بحب هذا الدين وأبنائه .

وبما أن الشعر كان أهم وسيلة للدعاية والاعلام فى المجتمع العربى ، فقد أولاه النبى اهتماما واضحا ، بتشجيع الشعراء المسلمين على قول الشعر ، واغرائهم بالمغريات المادية والأدبية ومن ذلك قوله « ان من الشعر لحكمة ، وان من البيان لسحرا » (٢) وقوله لحسان يغريه بالرد على قريش « قل وروح القدس معك » (٣) ، وكان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير يمدحونه ، ويسمع منهم ، ويصغى اليهم ويأمرهم بالرد على المشركين (٤) ومن أمثلة اهتمامه بالشعر وتشجيعه الشعراء ، أنه قال يوما لكعب بن مالك : ماننسى ربك ، وما كان ربك نسيا شعرا قلته ، قال : وما هو يارسول الله ، قال : أنشده يا أبا بكر ، فأنشد أبو بكر :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها
وليغلبن مغالب الغلاب (٥)

ومن ذلك أيضا أن النبى استنشد حين استسقى ربه فسقى قول أبى طالب :

وأبيض يستقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطيف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل (٩)

وهكذا كان النبى يلفت الناس الى ما قيل فيه وفى دينه من مدح بالشعر ، لا لذات المدح ، وانما لأن هذا الشعر ستتناقله القبائل ، فيكون من وسائل الدعاية للاسلام ، ولذلك حينما قال كعب بن زهير قصيدته المشهورة « بانت سعاد » أمام النبى يمدحه ويمدح دينه بها ، سر النبى بها ، فلما بلغ كعب فى انشاده قوله :

---

(١) الآية ٢٢ سورة النور
(٢) دلائل الاعجاز للجرجانى ١١
(٣) دلائل الاعجاز للجرجانى ١١
(٤) المصدر السابق ١٢
(٥) المصدر السابق ١٢ ، ١٣ وسخينة لقب لقريش لأنها كانت تختص بصنع طعام يسمى السخينة . وينسب الشعر لحسان
(٦) دلائل الاعجاز للجرجانى ١٣ والممدوح بهذا الشعر هو النبى .

ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
فى فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما اسلموا زولوا (١)

حينئذ أشار النبى الى الحلق : أن اسمعوا (٢)

وكان النبى يمر ذات يوم فى بعض أزقة مكة ومعه أبو بكر ، فسمع رجلا ينشد :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبى « يا أبا بكر هكذا قال الشاعر ؟ » قال : لا يا رسول الله ، ولكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا سألت عن آل عبد مناف

قال النبى : هكذا كنا نسمعها (٣)

وحين نظر النبى الى قتلى أعدائه يوم بدر مصرعين ، قال لأبى بكر : لو ان أبا طالب حى لعلم ان أسيافنا قد أخذت بالأنامل ، وذاك لقول أبى طالب :

كذبتم وبيت الله ان جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأنامل
وينهض قوم فى الدروع اليهم نهوض الروايا فى طريق حلاحل(٤)

وقد سمع النبى شعر النابغة الجعدى ، ومن دعائه له « أجدت لا يفضض الله فاك » (٥) وما ذلك الا أن الشعر كان أقوى وسيلة للدعاية حينذاك ، حتى أن البيت الواحد كان يرفع شخصا أو يضعه ، بل يرفع قبيلة كاملة أو يضعها، مما هو معروف فى تاريخ الأدب ، فكان طبيعيا أن يستغل الاسلام هذا السلاح القوى لمصلحته ، سواء فى الدعاية له ، أو الدعاية ضد أعدائه ، ولذلك نجد عمر ابن الخطاب يتألم مما قالته هند بنت عتبة من رجز ضد المسلمين متشفية فى قتل حمزة ، فيفزع الى حسان بن ثابت ، ويقول له : لو سمعت ما تقول هند ، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ماصنعت بحمزة ؟ قال حسان.. ولكن أسمعنى بعض قولها أكفيكموها .. فأنشد عمر بعض ما قالت .. فقال حسان فيها أبياتا منها :

أشرت لكاع وكان عادتها لؤما اذا أشرت مع الكفر

---

(١) زولوا هاجروا يعنى مدح النبى والمهاجرين .
(٢) دلائل الاعجاز للجرجانى ١٦ ، ١٧ ومجالس ثعلب ٣٤٢
(٣) المصدر السابق ١٥ .
(٤) المصدر السابق ١٣ .
(٥) المصدر السابق ١٦ .

وبلغ من انفعال حسان ، وغضبه من شعرها أنه أفحش في هذا الهجاء حتى أن الرواة تحرجوا من روايته فلم ينقلوه (١)

واذا أردنا أن نضرب مثالا لأهمية الشعر في المعركة بين الاسلام وأعدائه ومدى تأثيره فهذه قصة سلافة بنت سعد بن شهيد القرشية ، وكان بشير بن أبيرق قد لزمه حد السرقة بالمدينة ، فهرب الى مكة ، ونزل على سلافة بنت سعد ، فحين سمع حسان بن ثابت أنها آوته ، هجاها بأبيات يعرض بها فيها ، وما أن بلغها شعر حسان حتى طردت نزيلها بشير بن أبيرق ، قائلة انما أهديت الى شعر حسان ، وأخذت رحله وطرحته خارج الدار وقالت : حلقت وسلقت وخرقت ان بت في منزلي ليلة •

ولهذه الخطورة الشديدة التي كانت للشعر ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاول أن يكف ألسنة أعدائه من الشعراء بأى وسيلة ولو بقتلهم ، كما أمر بقتل كعب بن زهير فقال « من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله » لأنه قال قصيدة يعاتب فيها أخاه بجيرا على اسلامه ، هاجيا الاسلام ، ومعرضا بالنبى وأبى بكر ومنها :

الا ابلغــا عني بجيرا رســالة ... على اى شيء ويب غيرك دلــكا
على خلــق لم تلــق اما ولا ابا ... عليه ولم تدرك عليه اخا لكــا

وحين جاء كعب مسلما قال له النبى : أنت الذى تقـول ، كيف قال يا أبا بكر ؟ فأنشده القصيدة حتى بلغ

ســقاك ابـو بكر بكـاس روية ... وانهلك المامـور منهــا وعلكــا

قال كعب : ليس هكذا قلت يا رسول الله ، انما قلت « وأنهلك المأمون منها وعلكا » (٢) ، وكذلك كان أبو عفك أحد بنى عمرو بن عوف من المنافقين بالمدينة ، وكان شاعرا فهجا النبى بشعر منه :

لقـد عشت دهــرا وما أن أرى ... من النـــاس دارا ولا مجمعــا
ابــر عهــودا واوفى لمــن ... يعــاقد فيوم اذا ما دعـا
من أولاد قيلـــة في جمعهم ... يهـد الجبـــال ولم يخضعا (٣)
فصــــدعهم راكب جاءهم ... حــلال حــرام لشتى معا (٤)

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٣/٣ ، ٤٤ •

(٢) مجالس ثعلب لأبى العباس ثعلب ٣٤٠ ، ٣٤١ وفي الرواية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال تعقيبا على تصحيح كعب فى شأن أبى بكر (مأمون والله) •

(٣) أولاد قيلة الأوس والخزرج •

(٤) يعنى بالراكب النبى صلى الله عليه وسلم •

فقال النبى : « من لى بهذا الخبيث ؟ » فخرج سالم بن عمير فقتله (١) . وخطورة السخرية فى الشطر الأخير واضحة ومع أن النبى ليس من عادته بل كان ينهى عن قتل النساء حتى فى الحرب ، الا أن خطورة الشعر فى الدعاية جعلته يأمر بقتل عصماء بنت مروان ، لأنها كانت شاعرة ، وكانت تهجو الاسلام والمسلمين بشعرها ، ومن ذلك قولها :

باست بنى مالك والنبيت وعوف وباست بنى الخزرج
اطعتم أتاوى من غيركم فلا من مراد ولا مذحج (٢)
ترجونه بعد قتل الرؤس كما يرتجى مرق المنضج
الا انف يبتغى عزة فيقطع من امل المرتجى ؟ (٣)

فقال النبى حين بلغه ذلك « الا آخذ لى من ابنة مروان ؟ » فسمع ذلك عمير بن عدى الخطمى وهو عنده ، فلما امسى تلك الليلة سرى عليها فى بيتها فقتلها . فقال النبى « نصرت الله ورسوله يا عمير » (٤) ، وحين نتأمل ما تهدف اليه عصماء من شعرها ، نحس مدى الخطورة التى تنطلق من هذا الشعر ، والتى تحتاج الى حسم عاجل حيث تحرض على اغتيال النبى وكذلك أمر النبى بقتل كعب بن الأشرف — وهو من طيىء وأمه يهودية من بنى النضير — لأنه كان من أشد ألسنة الدعاية ضد الاسلام (٥) وقد قال حين سمع انتصار المسلمين فى بدر ، وقتلهم عددا كبيرا من سادة قريش : أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء ؟ ، فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، فلما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى ، وجعل يحرض على رسول الله ، وينشد الأشعار ويبكى قتلى قريش ومن شعره هذا :

ويقول أقوام أسر بسخطهم ان ابن الأشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ظلت تسوخ باهلها وتصدع

وكان يشبب بنساء المسلمين فى شعره ، ولكن النبى حقق له تمنيه بطن الأرض ، فأمر بقتله ، فقتله أخوه من الرضاعة محمد بن مسلمة وجماعة معه ، ويقول محمد بن مسلمة بعد قتله « ورجعنا الى أهلنا فاصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله ، فليس بها يهودى الا وهو يخاف على نفسه » ويقول كعب ابن مالك أيضا مشيرا الى ما كان لمقتل كعب من أثر فى الدعاية لقدرة المسلمين على النيل من عدوهم وان كان فى قوة كعب بن الأشرف وتحصنه

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣١٢ ، ٣١٣ .
(٢) تعنى بالأتاوى النبى اى آخذ الاتاوة .
(٣) تحرض على اغتيال النبى .
(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٣١٣ — ٣١٥ .
(٥) انظر معالم التنزيل لابى محمد البغوى ٢/ ٣١١ — ٣١٢

فقـــودر منهم كعب صريعـــا فغدت بعد مصرعه النضير (١)

وكذلك نجد النبي حينما فتح مكة ، وأصبح أعداؤه في قبضته عفا عنهم جميعا ، الا نفرا معدودين سماهم ، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، وذلك لاعتبارات الخطورة على الاسلام نفسه من ناحية الدعاية ضده ، كقينتي عبد الله بن خطل ، اللتين « كانتا تغنيان بهجاء رسول الله » (٢) وعبد الله بن سعد الذي كان كاتبا للوحي عند النبي بعد أن أسلم ، ثم ارتد ورجع الى الشرك مع قومه من قريش ، فكان يســـخر مما كان يكتبه من الوحي ويشكك الناس فيه (٣) .

على أن هناك وسائل للدعاية للاسلام يهيئها الله للمسلمين ولو عفوا في أوقاتهم العصيبة ، ومن ذلك أن الله سبحانه حين أراد للمسلمين في قلتهـــم وضعفهم أن يخوضوا معركة بدر مع كثرة أعدائهم وقوتهم ، حشد للمسلمين كل الوسائل التي تقوى من عزمهم وأملهم في النصر ، وفي الوقت نفسه حشد لأعداء الاسلام ما يحطم روحهم ويفل من عزمهم ومن ذلك رؤيا رأتها عاتكة بنت عبد المطلب بمكة قبل أن تخرج قريش للمعركة ، ورؤيا رآها جهيم بن الصلت في المنام وجيش قريش بالجحفة ، وكلتاهما كفيلة بأن تؤثر في عزم قريش وأملها في النصر ، يروى ابن هشام رؤيا عاتكة فيقول « رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم بثلاث ليال رؤيا أفزعتها .. قالت للعباس ابن عبد المطلب رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها ، ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت (٤) فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار الا دخلتها منها فلقة .. فطلب منها العبـــاس الكتمـــان .. ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان له صديقا ، فذكرها له ، واستكتمه اياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها ... قال العباس فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش ، يتحدثون برؤيا عاتكة فقال لي أبو جهل : يابني عبد المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبية ؟ ... أما رضيتم أن يتنبـــأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فان يك حقا ما تقول فسيكون ، وان

---

(١) انظر القصة كاملة في سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٩ وانظر جوامع السيرة لابن حزم ١٥٤ ، ١٥٥

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٩

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٨

(٤) ارفضت : تفتتت

تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا انكم أكذب أهل بيت فى العرب) ثم يمضى العباس فى روايته قائلا أن نســـاء بنى عبد المطلب اجتمعن فى المساء مغضبات لاهانة أبى جهل لشأن عاتكة ، وأنه أحماه غضب النساء ، فغدا فى اليوم الثالث مغضبا يريد أن ينتصف من أبى جهل ، يقول العباس « فدخلت المسجد فرأيته (أبا جهل) وكان رجلا خفيفا حديد الوجه، حديد اللسان ، حديد النظر .. خرج نحو باب المسجد يشتد (١) ... واذا هو قد سمع ما لم أسمع ، صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، قد جدع بعيره (٢) ، وحول رحله وشق قميصه ، يقـول : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة (٣) ، اموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث » (٤) ومن هذا نرى مدى الأثر الذى أحدثته هذه الرؤيا فى صفوف قريش ، حيث كانت حديث قريش وأنديتها قبل أن يتحقق صدقها ، فكيف بها وقد صدقت ؟ وكيف يكون أثرها فى نفوسهم وهم يقاتلون فى بدر ، وقد وقر فى نفس كل منهم « ألا انفروا لمصارعكم » ؟

بل يشاء الله سبحانه أن يزيد معنويات قريش تحطيما بعد رؤيا عاتكة، فحين خرج جيش قريش سار حتى بلغ الجحفة ، واذا جهيم بن الصلت يرى رؤيا أخرى تؤيد رؤيا عاتكة يقول « وانى لبين النائم واليقظان اذ نظرت الى رجل قد اقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ، ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وابو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وفلان وفلان ، فعدد رجالا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش ، ثم رأيته ضرب فى لبة بعيره ثم أرسله فى المعسكر، فما بقى خباء من أخبية المعسكر الا أصابه نضح من دمه ، قال : فبلغت أبا جهل فقال : وهذا أيضـــا نبى آخر من بنى عبد المطلب (٥) ، ســـيعلم غدا من المقتول . (٦)

ولئن كان من دعايات أعداء الاسلام اظهار مقدرتهم على رد المفارقين لدينهم منهم ، فان النبى صلى الله عليه وسلم أبطل سلاحهم هذا ، فحين استطاع أبو جهل وأعوانه أن يردوا هشام بن العاص من طريقه فى الهجرة الى المدينة ، وأن يرد هو وأخوه الحارث عياش بن أبى ربيعة من المدينة الى مكة بعد اسلامه ، قال النبى : « من لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشـــام بن العاص ؟ » فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك بهما ، فخرج من المدينـة الى مكة ، فوجدهما

---

(١) يشتد : يسرع .
(٢) جدع بعيره : قطع انفه .
(٣) اللطيمة : الابل تحمل الطيب .
(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٤ ــ ٢٤٦ .
(٥) لعل صحته من بنى عبد مناف .
(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٧ .

محبوسين ، فاحتال حتى تسور عليهما الحبس ذات ليلة ، وكسر قيديهما بسيفه. ثم حملهما على بعيره ، حتى قدم بهما على النبى بالمدينة (١) وحينئذ يعلم الناس أنه وان كان أبو جهل وحزبه قادرين على نيل الخارجين عليهم ، فان محمدا وحزبه قادرون على أن يردوا اليهم كيدهم ٠

وهكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه ربه ، ثم المسلمون ،يحشد كل وسيلة نفسية أو عسكرية للمسلمين ، حتى ينتصر الاسلام على أعدائه ، ولقد بلغ من حرصه على ذلك ان لجأ مرة الى المصارعة البدنية بعد أن أعياه الاقناع بالمنطق ، لأنه وجد المصارعة هى الاسلوب الذى يفهمه خصمه ، يروى ابن هشام « كان ركانة بن عبد يزيد بن عبد مناف أشد قريش ، فخلا يوما برسول الله فى بعض شعاب مكة ، فقال له النبى : يا ركانة الا تتقى الله وتقبل ما أدعوك اليه ؟ فقال انى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك ، قال النبى : أفرأيت ان صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم ، قال : قم حتى أصارعك، ٠٠٠ فبطش به النبى ٠٠ ثم قال : عد يا محمد ٠٠ فبطش به مرة أخرى ٠ فعاد ركانة لقومه يقول : يا بنى عبد مناف ، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله ما رأيت أحدا أسحر منه قط » (٢) ٠

ولذلك أيضا كان النبى صلى الله عليه وسلم يجعل نفسه المثل الأعلى دائما فى البطولة والاقدام ، ليكون مثلا لأصحابه ، ورهبة لأعدائه ، ومن ذلك ما يرويه أصحابه عنه « ما لقى رسول الله كتيبة الا كان أول من يضرب ، فلما غشيه المشركون جعل يقول : الله أكبر أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب، فما رؤى يومئذ أحد كان أشـــجع منه » (٣) ، وكان له من أدوات الحرب ما للمقاتلين الذين يعنون بالتبريز فيها (٤) ٠

ومن هذا كله نعلم أن سخرية القرآن ليست فكاهة ، وليست مجرد استهزاء وتحقير لشخص أو طائفة من الناس ، وانما هى جانب من حرب عاتية عنيفة بين الاسلام وخصومه ، وسلاح من عتاد حاشد يسلح به القرآن أتباعه ، ليقاوموا به عتادا حاشدا قد تسلح به خصومهم فى الدين ٠

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٧ ، ٨٨ ٠
(٢)المصدر السابق ١/ ٤١٨ ٠
(٣) دراسات اسلامية محمد عبد الرحمن الجديلى ١٠٩ ٠
(٤)انظر اخلاق النبى للأصبهانى ١٤٦ ــ ١٦٥ عن أسلحة النبى ومطاياه ٠

طابع سخرية القرآن

« كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة »

يلاحظ الباحثون في الفكاهة أن السخرية في مرحلة البداوة البشرية سطحية شكلية ، لا تكاد تتعدى السخرية من الشكل المرئي ، فيضحك البدائي ويسخر من شخص أعرج مثلا أو ذي عاهة في خلقته ، فيقولون « الانسان البدائي يضحك في العادة من عيوب الآخرين الجسمية ، ونقائصهم الخلقية، وعاهاتهم الموروثة ، بينما نجد في المجتمعات الراقية أن من شأن التربية الأخلاقية .. أن تعمل على نهي الفرد عن الضحك لمثل هذه العيوب .. ان ضحك البدائيين هو في صميمه أشبه ما يكون بضحك الأطفال .. ساذج تغلب عليه نزعة السخرية وروح المعاكسة .. (١) ، فالسخرية اذن في مرحلتها البدائية ساذجة شكلية ، سواء في الدافع اليها أو في ذاتها ، بمعنى أن الأشياء السطحية تثير السخرية عند البدائي ، وسخريته نفسها سطحية ، قد لا تتعدى مجرد الضحك أو الاشارات التي تنبىء عن سخريته ، أو تصدر منه سخرية بسيطة شكلية لا ترمي الى هدف ، ولا تحتاج حتى الى فكر في صياغتها .

ولئن كانت الحضارة قد ارتفعت بالسخرية من هذه السطحية في موضوعها وصياغتها ، فان القرآن الكريم يمتاز في سخريته عن الأطوار التي وصلت الحضارة بالسخرية اليها من ناحيتين ، احداهما أن القرآن كان أسبق من أي حضارة في الترقي بالسخرية الى وضع يمكن أن ينظر اليه على انه فن مستقل . والثانية أن القرآن قد نقى سخريته مما يمكن أن يوجه الى السخريات الأخرى من انتقاص ، سواء من الناحية الفنية في صياغتها ، أو من ناحية الموضوع الذي تهدف السخرية الى علاجه .

واذا أردنا أن نتأمل النواحي البارزة في سخرية القرآن يمكن أن نلمح فيها ما يأتي

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٦٥ .

١ ـ التصوير :

من المعروف لدى علماء النقد والبلاغة أن المعاني المجردة أضعف وسائل التعبير ، لأنها تؤدى معاني مفردة أو عابرة لا تعلق بالنفس كثيرا ، ولا تثير في الخيال حركة أو انفعالا ، أما الوسائل التي تعلق بالنفس وتثيرها فهي الوسائل التي تجسد المعنى في صورة أو تقرنه بصورة ، ويعلل الرازي الفرق بين موقف النفس من المعاني المجردة وغيرها بقوله « من طبع الخيال المحاكاة والتشبيه ، فاذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال ، واذا ذكر معه الشبه أدركه العقل مع معاونة الخيال ، ولا شك أن الثاني يكون أكمل، وأيضا فنحن نرى أن الانسان يذكر معنى ولا يلوح له كما ينبغي ، فاذا ذكر المثال اتضح وصار مبينا مكشوفا ،واذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره في الكتاب الذي لا يراد منه الا الايضاح والبيان (١) ويعني بالكتاب القرآن ، وذلك في سياق دفاعه عن اعتراض أعداء الاسلام على بعض ما ضرب القرآن من أمثال ، ويعني من ذلك أن تمثيل المعنى المجرد أو تشبيهه بشيء محسوس يجعل له وقعا ورسوخا في النفس ، حيث تستخدم النفس أكثر من وسيلة لاستيعاب هذا المعنى بعد قرنه بشيء محسوس ، فبعد أن كانت النفس تكتفي في ادراك المعنى المجرد بالعقل ، أصبحت تحتاج الى العقل والخيال في قرن هذا المعنى بشيء محسوس أو بشيء آخر ، واستخدام أكثر من وسيلة سواء من الوسائل غير الحسية كالوسيلتين السابقتين ، أو الوسائل الحسية كالسمع والبصر ، من شأنه أن يزيد المعنى ثباتا ورسوخا في النفس، كما هو معروف في علم التربية .

وعلماء البلاغة يسمون المعاني المجردة أسلوب الحقيقة ، ولا يكادون يعدونه من أساليب البلاغة ، بل يكادون يحصرون البلاغة في مرحلتين ، مرحلة عليا، وهي صوغ المعنى المجرد في صورة محسوسة ، بحيث يوحي الكلام بأن المعنى المجرد هو هذه الصورة المحسوسة نفسها ، وهذه المرحلة في عرفهم نوعان ، الاستعارة ، والكناية ، ومرحلة دون هذه المرحلة العليا ، وأقل منها رتبة في البلاغة ، وهي قرن المعنى المجرد بشيء آخر أكثر وضوحا في النفس ، وهذه المرحلة في عرفهم تسمى التشبيه (٢) .

والباقلاني يؤكد الفارق بين المعنى المجرد والمعنى المصور ، في سياق حديثه عن اعجاز القرآن بقوله « واذا كان الكلام انما يفيد الابانه عن الأغراض القائمة في النفوس .. وكان مع ذلك أحكم في الابانة عن المراد ، وأشد تحقيقا في الايضاح عن الطلب ، وأعجب في وضعه ، وأرشق في تصرفه ، وأبرع

---

(١) تفسير الرازي ١/ ٢٣٦ .

(٢) أنظر كتب البلاغة مثل مفتاح البلاغة للسكاكي وتهذيب السعد ودلائل الاعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني .

فى نظمه ، كان أولى وأحق بان يكون شريفا .. وقد أجمعوا على أن من أحذق المصورين من صور لك الباكي المتضاحك ، والباكي الحزين ، والضاحك المتباكي، والضاحك المستبشر ، وكما أنه يحتاج الى لطف يد فى تصوير هذه الأمثلة ، فكذلك يحتاج الى لطف فى اللسان والطبع فى تصوير ما فى النفس للغير (١) ويعنى بتصوير « الباكي الحزين » وتصوير « الضاحك المستبشر » القدرة على تصوير المشاعر والانفعالات النفسية ، ويقول الجرجانى عن هذا الفارق « المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة » (٢) .

ويشير الرافعى الى شيء من هذا المعنى فيقول « فانت تعرف أن أفصح الكلام ... الذى تريده كلاما فتراة نفساحية .... » (٣)

والقرآن الكريم يعتمد فى أسلوبه على التصور ، وخاصة فى السخرية ، وقد يقال أن السخرية بطبيعتها لا تكون الا فى صورة معينة محددة حتى تتحقق فيها السخرية ، والجواب عن ذلك ان هذا القول غير مسلم به ، فموضوع السخرية أعنى الشيء الذى وقعت عليه السخرية هو الذى يصدق عليه هذا ، لانه لا تتصور السخرية الا من شيء محدد معين ، أما السخرية نفسها فلا يلزم فيها ان تكون صورة محددة ، بل قد يكفى احيانا للسخرية مجرد لفت النظر الى الشيء الذى تسخر منه ، ولو بالاشارة أو الضحك أو لفظ عادى .

اما سخرية القرآن فانها ترتسم دائما فى صورة ، أو تقترن بصورة محددة ، بحيث يشعر السامع كانه يرى هذه الصورة بعينيه ، ويرى منها موضع السخرية واضحا بارزا . ولكن الأسمى من ذلك فى صور سخرية القرآن ، انها ليست مجرد صور محددة أو واضحة فى الذهن ، وانما هى صورة مثيرة للانفعال والمشاعر ، بحيث يشعر السامع أن هذه الصورة قد أثارت فى نفسه مشاعر وانفعالات نحو موضوعها ، وهذا المعنى وهو الاثارة للمشاعر والانفعالات ، هو المقياس الحقيقى الذى يفرق بين الأدب أو الفن الرفيع وغيره ، فليس الأمر مجرد تصوير ، وانما هو مدى قدرة الصورة على التأثير فى النفس واثارتها بما توحيه الصورة من شتى المشاعر ، ومختلف الانفعالات ، والجاحظ يعبر عن هذا المعنى بأسلوبه المعروف بالطرافة فيقول « النادرة الباردة جدا قد تكون اطيب من النادرة الحارة جدا ، وانما الكرب الذى يختم على القلوب ويأخذ بالأنفاس النادرة الفاترة التى لا هى حارة ولا باردة ، وكذلك الشعر الوسط ، والغناء الوسط ، وانما الشأن فى الحار جدا والبارد جدا ، وكان محمد بن عباد يقول : والله لفلان اثقل من مغن وسط ، وابغض من ظريف

---

(١) اعجاز القرآن للقاضى أبى بكر الباقلانى ١/ ١٥٩ .
(٢) دلائل الاعجاز ٤٨ .
(٣) اعجاز القرآن مصطفى صادق الرافعى ٢٣٣ .

وســـط » (١) وما يعبر عنه الجاحظ بالبارد والحار ، هو معنى الاثارة ، لأن الوسط لا يحدث في النفس تأثيرا لكونه شيئا عاديا لا جديد فيه ، وانما الجديد ان تشعر النفس بانفعال طارئ من شيء ما ، ولو كان هذا الشيء ســمجا ، ويجعل الجاحظ هذا المعنى مقياسا لكل ادب او فن ، وهو مقياس على جانب كبير من الأهمية ، حين يراعى فى نقد الأدب والفن بصفة عامة ، ولا يقلل من أهميته كونه لا يعتمد على قواعد أو ضوابط ، وانمـا يعتمد على الاحســـاس الوجدانى للناقد والمتذوق ، فان ما وضع من قــواعد فى الآداب والفنــون لم يستطع حتى اليوم ان يكون مقياسا دقيقا لتقويم الأدب والفن ، والمفاضلة بين مستوياتهما ولم يستطع أن يطغى على الاحســـاس الوجدانى والذوق فى كونهما المقياس الأول ، والجرجانى أستاذ قواعد البلاغة العربية يقرر بعد كل ما بذله من جهود فى تحديد قواعد البلاغة وتثبيتها أن المرجع الأخير فى الحكم على اى ادب انما هو الذوق ، فيقول فى سياق حديثه من وجوه الاعجاز «انت لا تستطيع أن تنبه السامع لها .... وتحدث له علمـا بها حتى يكون مهيئا لادراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما فى نفسه احساسا ... » (٢) ، ومن القريب أن هذه النتيجة ينتهى اليها دائما كل الباحثين فى اعجاز القرآن . فالمقياس الأول اذن فى قيمة اى ادب او فن ان يحدث فى النفس انفعالا وتأثيرا كما يقول الجاحظ ، والمقياس الأول ايضا فى الحكم على ذلك وتقويمه هو الذوق كما يقــرر الجرجانى وحين ننظر الى صور القرآن الكريم نجد من أوضح ما فيها هذه الاثارة التى تبلغ بالشعور المقصودة اثارته حدا بالغا ، فمثلا حين ينهى القرآن عن الغيبــة ، كان يمكن أن يكتفى بمجرد تحريمها ، أو بيان ضررها ، أو الأمر بالابتعاد عنها ، ولكن القرآن يبين أولا المقصود ، وهو النهى عن الغيبة ، ولكن هذا النهى المجرد يمكن ان تخف حدته فى النفس أو يضعف سلطانه فى غمـار النواهى ، او تحت وطـأة الاغراء ، فان الغيبة من الامور التى تعرض لكل النـــاس ، بحكم اى وضـــع اجتماعى ، ولذلك كان مجرد النهى عنها غير كاف فى التنفير منها ، فيرســم القرآن صورة معينة لتحقق هذا التنفير ، يقول القرآن « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتـا ؟ فكرهتمـــــوه ... » (٣) فاى اشمئزاز وأى تقزز تثيره صورة شخص يأكل لحم آدمى ، بل جيفة آدمى ، وهذا الاشمئزاز واثارته فى النفس مقترنا بالغيبة هو هدف الآية فى تصويرها ، وفى تشبيهها المغتاب بآكل جيفة آدمى ، وهذا الآدمى أخ ، ولو قد اقتصرت الآية على مجرد النهى من الغيبة لما كان لها هذا الأثر ، ولو قد كانت الصورة خالية من هذه الاثارة لما كان لها هذا الوقع ، ولكن مثل اثارة الاشــمئزاز فى

(١) البيان والتبيين للجاحظ عبد السلام هارون ١/ ١٤٥ .

(٢) دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجانى ٣٥٦ ويقرر فى خاتمة الكتاب ان العمدة فى ادراك البلاغة الذوق والاحساس .

(٣) الآية ١٢ سورة الحجرات .

النفس الى هذه الدرجة هو ما يمتاز به تصوير القرآن . ومما يجعل لأسلوبه هذا التأثير الذى حير العرب ، وحير الباحثين فى اعجاز القرآن ، لانهم يحسونه ولكنهم لا يستطيعون تحديده او التعبير عنه كما يريدون ، وكما يصرح بذلك واحد من اشهرهم وهو الخطابى (١) ، على أن التصوير فى سخرية القرآن يركز دائما على ابراز المعنى الذى توجه اليه السخرية ، والمراد صرف البشر عنه مع لاشارة فى أغلب الأحيان خلال الصورة الى وسيلة العلاج ، او الوسيلة التى توصل الى ما يدعو اليه القرآن . فنجد القرآن مثلا يحاول أن يصرف الناس عن التقليد الأعمى ، الذى لا يهدف الا الى التمسك بالعادات الموروثة دون نقد لها أو تفكير فيها ، ولما كان للعادات سلطان قاهر على المجتمعات ، بحيث لا يؤثر فى زحزحتها مجرد النهى عنها أو بيان مساوئها ، بل ولا حتى القوانين التى تحرمها وتضع لها العقوبات ، كما يعرف ذلك علماء الاجتماع فيما سبق أن اشرنا اليه ، لذلك تحاشى القرآن هنا النهى المجرد بالاسلوب العادى ، ولجأ الى اسلوب السخرية لانها أبلغ وسيلة فى معالجة العادات كما سبق ، ولم يجعل القرآن السخرية بالاسلوب العادى ، لانه ضعيف التأثير ، وانما لجأ الى التصوير المثير ، فيقول « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولايهتدون ؟ ، ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (٢) . فالقرآن لا يسوق كلامه على مجرد أنه ينهاهم عن التقليد . وانما يحكى موازنة ومفاضلة اقاموها بين اتباعهم ربهم ، واتباعهم آباءهم ، بعد أن طلب منهم اتباع الله ، وفى هذه المفاضلة نراهم يرفضون اتباع الله رفضا شديدا مباداها ، لا يصدرون فيه عن تعليل بل ولا عن مجرد ترو أو تفكير . واذا القرآن يتجاهلهم ، لانهم بعد أن بلغوا من الجهالة والسفه ، انهم لا يدركون الفرق بين ما انزل الله مع وضوح الحق فيه ، وبين سلوك آبائهم مع وضوح الضلال فيه ، لا يستحقون العناية ، ولا أن يوجه اليهم خطاب ، فيلقى القرآن الخطاب لا اليهم ، بل الى كل ذى عقل يستحق أن يخاطب ، فيوجه القرآن هذا السؤال : أيتبعون آباءهم حتى ولو كان آباؤهم مجردين من المعقول ، مغرقين فى الضلال ؟ ويترك القرآن هذا السؤال لكل عاقل أن يجيب عنه ، ولكن القرآن لا يكتفى بذلك ، وانما يرسم لهم صورة من حقهم أن يتأملوها ، وعلى العاقل أن يراعيها فى اجابته عن السؤال السابق ، هذه الصورة هى منظر مألوف للجميع فى تلك البيئة التى دار فيها الصراع بين القرآن واعدائه ، منظر الراعى فى الصحراء ، وصورة هؤلاء المتقادين لآبائهم بعقول مغلقة ، وعيون عمى ، حين يدعوهم الداعى الى الهدى واتباع ما انزل الله فلا يعقلون مما يدعوهم اليه شيئا ، أشبه ما تكون بصورة راع أمامه قطيع من البهائم

---

(١) انظر بيان اعجاز القرآن لأبى سليمان الخطابى ص ٢١ (ضمن كتاب ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن) .

(٢) الآيتان ١٧٠ ، ١٧١ سورة البقرة .

يرعاه ، فقد يأمر هذا الراعى احدى مواشيه بكلام عادى أن ترجع من شرودها وقد يوجه الراعى الى القطيع كلاما فصيحا ، ولكن عليه ان يراعى أن القطيع لا يفهم كلامه ، ولا يعى مما يقول الا مجرد صوت ، فهو « ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء » ، وحين نتصور راعيا أمامه قطيع ماشية ، وقد انفعل ببعض سلوك قطيعه فهو ينعق ويجهر صـــوته ، بما يوحيه لفظ (ينعق) والقطيع سادر فيما هو فيه ، لأنه لا يعى من نعيق الراعى معنى ، ثم نطبق هذه الصورة على هؤلاء الذين تعنيهم الصورة ، والرسول يدعوهم الى الهدى بكل ما أوتى من جهد فى التبليغ ، وحرص على الاقناع ، وهم منكبون على ضلال آبائهم ، لا يسمعون من دعاء الرسول الا ما تسمعه البهائم من راعيها دون وعى أو فهم لشىء مما يقول ، ولنا أن نتصور مدى تأثير هذه السخرية فى نفوســـهم ، وفى نفوس الذين يعنيهم موقف هؤلاء .

وفى المعنى الأخير وهو اعراضهم عن داعيهم الى الهدى يرسم لهم القرآن صورة أخرى أشد نكرا ، ثم يقرنهم بهذه الصورة ، فيسوق القرآن الحديث عن اعراضهم لا بالأسلوب العادى ، وانما فى صورة سؤال تعجبى ساخر من الاعراض عن الدعوة الى الخير والهدى ، ثم يصف نفورهم الشديد من هذه الدعوة التى تريد بهم الخير وصفا مع بساطته لكونه غير غريب عليهم ، ومع كونه من البيئة التى ألفوها الا أنه يثير فى النفس انفعالات شـــتى ، بعضـــها مضحك ، كتشبيههم بالحمير فى حالة الرعب والفزع ، وبعضها محزن كتصور أن يصل السفه بانسان عاقل أن يفر ممن يدعوه الى خيره كما يفر الحمار من وحش يفاجئه ، ولكن الصورة فى جملتها تستحوذ على النفس ، وتدعو الى التأمل ، وفوق ذلك فهى واضحة فى الذهن كأنها منظر مشاهد بالعين ، وهى فى ايجازها « فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » (١) ،

ومن الأمور الدقيقة فى الصورتين السابقتين ، انهما صـــورتا موضـــع العيب ، وأشارتا الى العلاج ، فأما موضع العيب فهو الغاؤهم عقولهم حتى عادوا كالبهائم ، لان الفارق بين الانسان وسائر الحيـــوان هو العقل ، وأما الاشارة الى العلاج ، فهى الدعوة الضمنية فى الصورتين الى استعمال العقـول التى يمتاز الاسلام بالدعوة دائما الى استعمالها ، لثقة الاسلام فى موافقة كل ما جاء به للعقول ، ولذلك ختمت الصورة الأولى بهذا التعبير « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » وكذلك الصورة الثانية تتضمن الدعوة الى العقل من مجرد التشبيه بالحمر ، لأن أشهر ما يتميز به الحمار الغباء .

وكذلك يدعو القرآن فى الخلق الاجتماعى الى التواضـــع ولين الجـــانب والألفة ، ولكنه لا يسلك فى ذلك سبيل الوعظ الكلامى ، وبيان مضار الكبرياء ،

---

(١) الآيات ٤٩ — ٥١ سورة المدثر ، والقسورة الأسد أو جماعة الصائدين .

وفوائد التواضع ، وانما يرسم للمتكبر المتعالى على الناس لوحة فنية ، لو استطاع رسام ان يبرز ما تتضمنه فى لوحة مصورة ، لكانت من اخلد الرسوم، فيستغل القرآن معلومات البيئة وخبراتها لتكون اقرب الى النفس واوقع فيها ، ومن هذه المعلومات مرض يعرفه العرب ، يصيب الابل فيلوى اعناقها، فتمشى معوجة العنق ، وهذا الداء يسمى الصعر ، فيعمد القرآن الى تفظ هذا المرض ، فيصم به المتكبر المغرور ، والمتعالى على الناس ، الذى يمشى شامخا بأنفه لاويا عنقه،معرضا بوجهه عن الناس،وهو يحسب أن فى ذلك ترفعا وهيبة ومكانة بين الناس ، فاذا القرآن يجعله مجرد مريض ، وهذه الصورة البالغة فى السخرية ترتسم فى ذهن السامع ، وكأنها ماثلة أمامه ، ومن البدهى ان تحضره كلما شاهد شخصا تنطبق عليه ولكن الدقيق فى الصورة أنها فضلا عن كونها تبلغ أقصى ما يراد بها من الناحية الفنية ، فان التشبيه فيها قائم على أساس عملى دقيق ، فتشبيه المتكبر على الناس المولع بالتعالى والسيطرة عليهم بحيوان مريض ليس لمجرد التنفير ، وانما هو حقيقة علمية ، حيث يقرر علماء النفس ذلك فيقولون « ان الرجل المحب للسلطة انما هو رجل عليل يميل الى أن يعوض أوجه نقصه هو بالحصول على السيطرة على الآخرين » (١) .

وحين تذهب صور القرآن فى سخريتها نحو الشرك بالله ، تجدها تبرز عدة أمور ، من أهمها ابطال الهدف الأساسى الذى ترتكز عليه عبادتهم لآلهتهم ، وهو ان هؤلاء الآلهة لن يحققوا لعابديهم شيئا مما يرجوه العابد من معبوده ، ومنها تحطيم جلال هؤلاء الآلهة ببيان حقيقتهم ، فمثلا هذه صورة تحدث المشركين عن آلهتهم الذين يرجون منهم الخير ، ويتقون منهم الضر ، بأن هؤلاء الآلهة لن يستطيعوا أن يخلقوا اضعف شىء يضرب به المثل فى الهوان وهو الذباب ، وترتكز سخرية الصورة على معنى معين ، وهو تحدى هؤلاء الآلهة ان يستنقذوا من الذباب شيئا يسلبه منهم ، ومن الواضح حتى للمشركين ان أصنامهم أو معبوديهم لا يستطيعون ذلك ، ولكن الهدف البليغ هو تصوير هؤلاء الآلهة وهم يسابقون الذباب ليستنقذوا منه شيئا سلبهم اياه ، ثم لا يستطيعون ، وتصور الخيال للآلهة فى هذا الوضع غاية فى الاستخفاف بهم والسخرية منهم « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (٢) فأى تصوير أبلغ فى السخرية ، من صورة الآلهة وهم مجتمعون يبذلون كل جهد وتعاون ليخلقوا حتى شيئا من أحقر الأشياء التى يضيق الناس بكثرتها وحقارتها ، ومع ذلك يفشلون ! وأى سخرية ابلغ من صورة هؤلاء الآلهة الذين يعبدهم بعض الناس وهم يسابقون الذباب ، ثم أيضا لا يستطيعون ؟ ولئن كان لكل صورة تعليق كما يعهد الناس فى التعليق

(١) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة ا . براون ترجمة جماعة ص ٢٦٣ .
(٢) الآية ٧٣ سورة الحج .

على الصور ، فان التعليق على هذه الصورة يرد الخيال عن متابعة هذه الصورة التى تثير الضحك من الآلهة ، والسخرية من عابديهم ، الى الجد العميق ، والتفكير الجاد ، بهذا التعبير الذى يفيض عتابا وتأنيبا « ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز » .

وكذلك الصورة الأخرى تعمد الى الزاوية المهمة فى نظرة المشركين الى آلهتهم وهى اعتمادهم على الآلهة ، مما قد يجعل فى نفوسهم اطمئنانا الى الآلهة وثقة واملا فيهم ، ولكن القرآن يسخر من هذا المعنى ، فيبين لهم أن هؤلاء الآلهـــة لا يصلحون عمادا ، ولا يرجى منهم شيء ، غير ان القرآن لا يسوق لهم ذلك بالكلام المجرد ، وانما يرسم منه صورة مألوفة لديهم ، ثم يرفعها أمام أعينهم ، هـــذه الصورة تتضمن شخصا اراد أن يتخذ لنفسه سكنا وملاذا يأوى اليه ، ويحتمى به ، ويتحصن فيه ، واذا هو لا يأوى الى بيت ، ولا الى حصن وانما الى نسيج العنكبوت ، وصورة هذا الشخص اللاجيء الى بيت العنكبوت ، قابعا فيه ، متخيلا انه فى حصن او مأوى ، معتقدا ان هذا البيت يحقق له الايواء والحماية ، غير مدرك انه غير مأوى ولا محمى ، وان هذا البيت لا يحقق له شيئا مما يتخيل او يعتقد ، فهو كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمل حين تحس الخطر ، معتقدة انها بدفنها رأسها أصبحت فى مأمن ، وان الصائد لن يراها ، تقول هـــذه الصورة « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون»(١) والمفتاح الذى يعطيهم القرآن اياه ليفيقوا من غفلتهم ، ويدركوا سوء ما هم فيه هو الدعوة الى العلم والتفكير « لو كانوا يعلمون » ، ومن هذا المعنى يستمد التعليق على الصورة ، وهو انهم اذا أرادوا العلم الحقيقى ، فان مصدره الأصيل هو الله سبحانه ، فليتعلموا منه هذه الحقيقة « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » .

والصور التى تسخر من نتيجة الشرك يوم القيامة كثيرة ، وهى ترسم المشركين فى أوضاع تثير كثيرا من مشاعر النفس وانفعالاتها ، ومن ذلك هذه الصورة التى ترسم المشرك وهو يتلقى جزاء أعراضه وعناده للحق ، وعدائه لدعاة الخير ، فتمثله فى منظر عجيب وهو يصطلى العذاب الشديد ، فهو فى صلب النار ، يتصب عليه كل بلائها ، وتنتابه أحاسيس الرعب والألم من هذا العـــذاب ، والشيء البدهى المألوف ان الانسان حينما يحس بمصدر ألم أو يلمسه ، تندفع يداه تلقائيا لاتقاء هذا المصدر ، ولكن هذا المشرك لا يملك حينئذ حتى هـــذه الوسيلة التلقائية ، لان يديه مغلولتان ، أو لأنه بلغ من العجز والانهيار ، والذل والاستكانة انه لا يستطيع تحريك عضو من أعضائه للدفاع عن نفسه ، فلا يملك الا وجهه يذود به عن نفسه يمينا وشمالا ، وحين نتصور شخصا فى النار ، وحاله هذه من الضعف ، ومنظره وهو يدافع عن نفسه بوجهه ، نجد أى مشاعر تثيرها

(١) الآية ٤١ سورة العنكبوت .

هذه الصورة في نفوسنا « أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » (١) ، والتعليق على الصورة ، وهو الذى تنصب عليه السخرية المرة ، هو أنهم وهم فى هذا الحال الشنيع يقال لهـم « ذوقوا ما كنتم تكسبون » ، ولفظ (ذوقوا) نفسه سخرية بالغة ، وصورة أخرى تبدأ منذ ادخالهم جهنم ، نرى فيها هؤلاء المشركين ، الذين يتعـالون ويعاندون ربهم اليوم ، مكذبين بوعيده ، مستهينين ، لا يبالون من فرط غرورهم بشيء ، نراهم وقد تحولوا الى مخلوقات ضعيفة ، بل كأنهم قطع من خشب او شيء مما توقد به النار ، والطريف الساخر فى الصورة أن يؤخذ كل واحد منهم من ناصية رأسه وقدميه ، ويقذف به فى النار ، ثم صورته وهو يصطلى حـر جهنم ، فيشتد به العطش الشنيع ، فيستغيث طالبا الماء ليطفىء به شيئا من النار التى تتأجج فى أحشائه وجسمه ، فيسخر منه خزنة جهنم بالا يرفضوا طلبه ، بل يسقونه ، ولكن من شيء أشد شناعة من النار ، وهو الحميم ، وفوق ذلك فان لكل مجرم منهم سمة وعلامة تميزه ، زيادة في النكاية به ، والاهانة له « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين حميم آن » (٢) ، وفى الصورة التعليق الساخر عليها وهو « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون » والمجرمون هم أنفسهم الذين يعذبون فيها .

وهناك صور كثيرة للقادة الذين تزعموا حملة الشرك ، وحرب الاسلام ، هؤلاء القادة قد يرى فيهم أتباعهم نماذج للعزة والقوة والتسلط ، ولكن القرآن يرسم لهؤلاء الأتباع صورة هؤلاء القادة ، فى منظر مهين ، حيث نرى هذا الزعيم المتصلف الذى لا يرى سلطانا فوق سلطانه وجبروته فى صورة القرآن ، يرى سلطانا فوق قوته وجبروته ، يأمر عبيده بأن يجروا هذا الزعيم جرا ، ويسحبوه سحبا ، ثم يلقوه فى جهنم القاء كأى شيء تافه حقير ، ثم يصب من فوق رأسـه العذاب صبا ، وهو مستكين ذليل ، لا يملك دفاعا ولا صدا ، ثم يصب عليـه أيضا العذاب النفسى ، فى صورة سخرية واستهزاء حين يقال له « ذق انك أنت العزيز الكريم » وتبدو روعة الصورة فى الموازنة بين مجد هذا الزعيم وجبروته فى الدنيا ، وبين حاله الذليلة المهينة هذه عند الله « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق انك أنت العزيز الكريم ، ان هذا ما كنتم به تمترون » (٣) وليس من المستطاع التعبير عن مدى ما تحمله السخرية التى توجه اليه وهو فى هذا الهوان الشديد بهذا القول البالغ التهكم « ذق أنت العزيز الكريم » حيث تؤكد لهذا الشخص عزته وكرمه بمؤكدات

(١) الآية ٢٤ سورة الزمر وتقدير الكلام أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب كمن آمن العذاب .
(٢) الآيات ٤١ ـ٤٤ سورة الرحمن .
(٣) الآيات ٤٧ ـ ٥٠ سورة الدخان .

كثيرة ، ان وانت والألف واللام فى العزيز الكريم هذا مع أنه يرسف فى هذا الهوان الشديد الذى ترسمه صورته فى جهنم .

واحيانا تحتوى صـــورة القرآن على منظرين ، متصل المعنى ، أو يكمل أحدهما الآخر ، كمرحلتين لموضوع واحد ، وذلك كصورة عذاب المشركين فى جهنم ، فهذه صورة تبين أمرين مرتبطين ، أحدهما حالة جهنم ومدى بشاعة عذابها ، والآخر حالة المشركين وهم يعذبون فيها ، فأما حالة جهنم فى الصورة ، فهى من شدة ما فيها من نار ، ومن قوة اتقاد هذه النار تجدها تغلى غليانا شديدا مسموعا ، ولكن صوت غليانها فيه ايحاء واضح نحو المشركين كأنه دعاء أواستقبال لهم ، فهذا الصوت حينما يدنو المشركون من جهنم لا يعود مجرد صوت غليان وانما هو حرارة استقبال لهم ، ولكنه ليس استقبال الترحيب والتكريم ، وانما استقبال الحقد الشديد ، والغل العميق ، وأما حالة المشركين فى جهنم ، فهى أننا نراهم فى الصورة ، وقد حشدوا وحشروا فى مكان ضيق منها ، وقد قرن بعضهم ببعض فى السلاسل ، وهذا الوضع فى تصويرهم انما يقصد به بطبيعة الحال زيادة السخرية بهم ، فليست جهنم ضيقة حتى يحشروا متراصين متلاصقين ولا يخشى منهم حينئذ الهروب حتى يربطوا بالســــلاسل ليطمأن الى بقائهم فى أماكنهم ومن الطريف فى الصورة أن يتهاتفوا بكلمة شعبية عند العرب قائلين : واثبوراه ، والثبور الهلاك ، يدعون الهلاك لينقذهم مما هم فيــه ، والأطرف ان مثل هذا الدعاء يغلب استعماله عادة لدى النساء ، كأنهم أصبحوا من الضعف بهذه الدرجة ، والتعليق على الصورة يحمل اقصى ما تطيق السخرية وهو «لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعو ثبورا كثيرا » والصورة كاملة هى « بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هناك ثبورا ، لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا (١) .

وتتفنن الصور الساخرة ، فى تصوير عذاب المشركين فى الدار الاخرى، فهذه صورة تبرز مشاعرهم نحو العذاب ، وفى هذه الصورة تجدهم ساكتين صامتين ، فلا تبدو منهم حركة ، ولا يصدر منهم صوت ، صورة عادلة بسيطة ، ولكننا حين نتأمل انفعالاتهم فى الصورة ، اذا الصورة ليست عادية ولا خافتة ، وانما صارخة التعبير ، مثيرة الوقع ، ذلك لأنها تصور ما يسيطر عليهم من ذل وضعف واستكانة وهوان حين يرون جهنم وهم يساقون اليها ، وتتركز هـــذه الانفعالات التى تعتريهم كلها فى أعينهم ، فكل ما يمكن أن يتصور من رعب وذل واستسلام يرتسم فى نظرة ذليلة مستكينة لا يستطيعون معها فتح أعينهم كالنظر العادى ، وانما من نظرة جانبية خافتة لا تعبر عنها الألفاظ ، وانما يعبر عنها الرسم الدقيق ، أو التخييل العميق ، وعلى هذه الصورة تعليقان ، أحدهما

---

(١) الآيات ١١ ــ ١٤ سورة الفرقان .

« ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » والآخر يسخر من اعتمادهم على آلهتهم في الدنيا ، وكيف انهم لا يملكون لهم في حالهم هـــذه شيئا . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله » والصورة هي « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ان الظالمين في عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل » (١) ٠

ومما لاشك فيه ان من أدق ما تمتاز به صور القرآن الكريم مقدرتها على ابراز المشاعر النفسية في وضع ظاهر ، كاننا نراه بأعيننا ، وغالبا ما يتركز ابراز المشاعر والانفعالات في نظرة العين كالصورة السابقة ، فان تصوير القرآن لنظرة عين تطل منها انفعالات معينة يجعلنا كاننا نشاهد هذه العين ونرى فيها كل ما يدور بنفس صاحبها من انفعال ، فهذه أيضا صورة تبين لنا مشـــاعر المنافقين في ظروف معينة ، فالمنافقون يعتمدون على مقدرتهم في التمثيل ، بأن يلبسوا ثوبا غير ثوبهم الحقيقي ، وأن يستطيعوا اخفاء حقيقتهم اخفاء كاملا على المسلمين ، ولكن القرآن يلفت نظر الرسول وأولى الألباب من المسلمين الى منظر معين تستطيع العين الفاحصة أن تدرك ما وراءه ، هذا المنظر يتحقق حينما يشعر المنافق أنه عرضة للخطر ، هنالك يدور الصراع الرهيب في نفسه بين حرصه على اخفاء حقيقته ، وحرصه على حياته ، وقد تمكنه مقدرته القوية على التمثيل من ضبط نفسه وحركاته ، فيظل هادئا عادى المظهر ، ولكن عضوا خاصا في جسمه لا يستطيع حينئذ أن يتحكم في حركاته ، وهو عيناه ، فان ما في نفسه كله يطل من عينيه ، بحيث يتاح لكل ذى بصيرة أن يرى بوضوح كل ما يدور في دخيلته ، وصورة القرآن ترسم عيني هذا المنافق ، حين يشعر بالخطر عـــلى حياته ، بأنهما أشبه بعيني شخص يعالج سكرات الموت ، حين تشل منه كل حركة ، ويسكن منه كل عضو ، الا عينيه ، فان محجريهما يدوران ،ولكنه دوران الضعف والاستكانة ، والرعب والفزع ، ومشاعر وانفعالات كثيرة يمكن أن نتصورها حين نتصور حالة شخص يعاني سكرات الموت ، ولكن البارز في نظرة المنافقين ، هو تعلق هذه النظرة بشخص الرسول ، كأنهم يتشبثون به مستغيثين مستجيرين من شدة ما يراودهم من فزع ، والصورة هي « أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير ٠٠ » (٢) ٠

والتعليق على الصورة يتضمن اخزاء شديدا لهم ، في أن هذا الرعب الذى تبديه صورتهم هذه في حالة الخوف ينقلب الى عكسه حينما يحسون الأمن « فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد » ٠

---

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ سورة الشورى ٠

(٢) من الآية ١٩ سورة الأحزاب ٠

ويؤكد القرآن هذه الصورة بصورة أخرى ترسم انفعالات المنافقين تطل من أعينهم حينما يحسون الخطر على حياتهم « فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم » (١) ·

ومن حيث ان القرآن يهدف كله الى الهداية ، وتوضيح الطريق المستقيم للبشر ، لذلك نلاحظ أن صوره ليست مقصودة لذاتها ، وانما تشير دائما من طرف خفى او واضح الى الهدف الأساسى الذى يستهدفه القرآن ، كما نرى فى التعقيبات السابقة التى تصحب الصور ، وهذه صورة توضح الهدف من رسمها ، نرى فيها أعداء الله وهم فى أقسى حالات العذاب والمهانة ، فالوجه أكرم ما فى الانسان ، وهو أشد حرصا على حمايته من أى عضو آخر ، ولكننا نرى وجوه المشركين فى هذه الصورة تعذب بطريقة عجيبة ، حيث تقلب فى النار كما يقلب اللحم أثناء شوائه على النار ، هذه الوجوه التى يراها الناس فى الحياة عزيزة قوية متمنعة حتى على وعيد ربها ، والتعليق على الصورة يوضح الهدف منها ، والهدف يتضح فى النظرة الى واقع المشركين فى الحياة ، وواقعهم ينحصر فى معضلتين ، أحدهما عصيانهم لله وللرسول ، والآخر تأثرهم بقادة الشرك وانقيادهم لهم ، ويبين لهم القرآن نتيجة هذين الأمرين فى هذه الصورة البشعة التى تقلب فيها وجوههم فى النار ، ومع الصورة يدعوهم الى الطريق القويم وهو طاعة الرسول ، وعدم الانسياق الأعمى وراء أحد ، ولو كان هذا الاحد زعيما أو رئيسا ، ولكن القرآن لا يسوق هذه الدعوة منفصلة عن الصورة ، وانما يجعلها جزءا من الصورة ، بل يجعلها منطوقة بلسانهم هم ، وهم يتأسون هذا العذاب « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ، وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » (٢) ، وفى هذا التوضيح الذى تضمنه التعليق على الصورة يمكن لكل ذى فكر أن يحدد سبيله ، وأن يفكر فى مهمة هذا الرسول الذى بعثه ربه اليه ، قبل أن يقول مع القائلين « يا ليتنـــا أطعنا الله وأطعنا الرسول » ، وأن يفكر فى وضعه من هؤلاء السادة الذين يقودونه الى غير هدف ، والذى ينساق وراءهم فى غير تفكير ، قبل أن يحيط به سوء الانقياد ، فيعتذر حين لا ينفعه الاعتذار ، ولا يملك حينئذ الا أن يسخط على هؤلاء السادة داعيا عليهم ، لاعنا اياهم ، قائلا مع القائلين « ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » ·

على ان بعض الصور الساخرة فى القرآن الكريم تسوق ما تهدف اليه من الهدى فى صورة قصة قصيرة ، يدور فيها حوار عميق صاحب بين من تشملهم

---

(١) من الآية ٢٠ سورة محمد وأولى لهم بمعنى ويل لهم ·
(٢) الآيات ٦٦ ـ ٦٨ سورة الاحزاب ·

الصورة ، فهذه صورة تلفت نظر الاتباع الى خطورة اتباعهم للسادة دون وعى ، مبينه لهم نتيجة هذا الاتباع ، فى صورة يرون فيها أنفسهم ورؤساءهم ، ويسمعون كلمة الحق على ألسنتهم هم ، وألسنة رؤسائهم أيضا ، والصورة تمثلهم اولا مع رؤسائهم موقوفين أمام الحكم الأعظم سبحانه يوم القيامة ، والله سبحانه لا يكلمهم ، ولا يرجع لهم قولا ، ولا يبين لهم الحق حينئذ ، لأنه بينه لهم فى الدنيا فعصوه ، وانما يتركهم هم ينطقون الحق ، فيدور حوار عميق لا يخلو من سخرية، بينهم وبين سادتهم ، ثم تنتهى الصورة بما يصدره سبحانه من حكم عليهم جميعا فيرون أنفسهم راسفين فى أغلال جهنم ، بعد أن استبان لهم الحق ، وسيطر عليهم الندم الغامر لما ضيعوا حياتهم فى ضلال الاتباع « ... ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددنا كم عن الهدى بعد اذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تامروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون » (١) .

ولما كان تأثير الزعماء والسادة فى المجتمع القبلى على الاتباع من أكبر العقبات أمام انتشار الاسلام فى أول عهده ، لذلك نجد كثيرا من الصور تعالج هذا الأمر ، تأكيدا لخطورته ، واثارة للتفكير فيه خاصة عند الأتباع ، وهم السواد الأعظم الذى تعنى الأديان كلها بالتأثير فيه ، فتلك صورة أخرى تصور الأتباع مع سادتهم أمام الله ، ومعهم آلهتهم الذين يعبدون ، وحين يكتمل اجتماعهم كما كانوا مجتمعين فى الدنيا ، يعيد اليهم القرآن بسخريته صورة تعاونهم فى الدنيا ، وما كانوا يعتقدونه من ثقة بعضهم فى بعض ، واعتماد بعضهم على بعض ، فيسالهم فى سخرية بالغة « مالكم لا تناصرون ؟ » ولكنهم لا يحيرون من الخزى جوابا ، بل ينطلقون فى التلاوم ، كل فريق يلقى التبعة على الآخر ، أو يحاول التنصل منها ، ثمّ يرتسم التعليق على الصورة ، متضمنا السبب الذى دعاهم الى أن يقفوا هذا الموقف المهين ، وهو « انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ، انكم لذائقو العذاب الأليم ، وما تجزون الا ما كنتم تعملون » وفى هذا التعليق مجال لهم أن يفكروا اليوم فى هذا المصير ، وأن يتلافوا اصطلاءه مع المصطلين ، والصورة هى « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ، من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم ، وقفوهم انهم مسئولون ، مالكم لا تناصرون ؟ بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا

---

(١) الآيات ٣١ — ٣٣ سورة سبأ .

عليكم من سلطان ، بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا انا لذائقون ، فاغويناكم انا كنا غاوين ، فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون ، انا كذلك نفعل بالمجرمين ، انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ، ويقولون ائنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنــون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ، انكم لذائقو العذاب الأليم ، وما تجزون الا ما كنتم تعملون » (١) .

ولما كانت حالات الشرك مختلفة ، كان من الطبعى أن تراعى الصور ذلك ، فليس كل الكافرين يكفر عن تبعية ، وليست كل حالات الشرك ينطبق عليها التصوير السابق ، فهناك من يشركون بدافع من أنفسهم ، ليسوا من السادة ، وليسوا من الأتباع ، والقرآن يعتبر مثل هؤلاء أتباعا أيضا ، ولو للشيطان ، فالمفروض ان الشرك لا يتفق مع العقل ، ولا مع المنطق ، وكل من منحه الله عقلا أى عقل لا يتصور أن ينازع فى حقيقة واضحة هى أن له وللكون الها ، وان هذه المخلوقات التى تعبد باطلة لا يسيغ عقل أن يتصورها غير مجرد مخلوقات ، واذن فالشرك لا يكون بداهة عن عقل أو تفكير ، وانما يكون خضوعا لتاثير ، اى نوع من التاثير ، فالسادة يتمسكون بالشرك لانهم يريدون التمسك بسيادتهم ، والأتباع يتمسكون بالشرك لانهم لا يملكون القدرة على مخالفة سادتهم ، والذين هم ليسوا من أولئك ولا هؤلاء يتمسكون أيضا بالشرك لوقوعهم تحت تاثير اى شئ ، قد يكون هذا الشئ مجرد تعلقهم بسنة الآباء والأجداد ، وقد يكون خوفا من تضحية يرون الايمان يدفعهم اليها ، وكل ذلك يمكن أن يرمز له بالشيطان ، على اعتبار أن الشيطان يمكن أن يكون رمزا لكل ما يغالب النفس من غرائز وانفعالات وشهوات فهذا النوع من المشركين واقع تحت هذا التاثير الذى يدور فى دخيلته لهوى معين فى نفسه ، وليس هناك ما يمنع ان يكون المراد بالشيطان مخلوقا حقيقيا من الجن ، وسواء كان هذا أو ذاك ، فالشيطان أصــبح رمزا لشخصية معينة مقترنة بالضلال والاضلال ، وهذه الصورة من القرآن نرى فيها هذا النوع من المشركين فى وضع مهين ، حيث يساق كل مشرك كما تساق الأنعام ومعه شهيد على كفره ، وهنالك يدور الحوار بينه وبين قرينه الشيطان ، فاذا قرينه الذى كان يبدى له الود والاخلاص فى الدنيا يتنكر له اليوم ، بل يحقره ، ويتباهى بانه استطاع اغواءه واعداده لجهنم « وقال قرينه هذا ما لدى عتيد » ويحاول المشرك ان يتخذ من ذلك عذرا لنفسه فيلقى تبعة طغيانه على هــذا القرين ، ولكن قرينه لا يخجل من أن يكذبه ، وأن يقرر ان المشرك هو الذى « كان فى ضلال بعيد »

ولئن كان مثل هذه الصورة قدعالج وضع نوع من المشركين ، فهذه الصورة أيضا تبين للمشركين حقيقة تقطع الطريق على بسطاء العقول فى أن يتصوروا

---

(١) الآيات ٢٢ ـ ٣٩ سورة الصافات والمراد بأزواجهم أشباههم فى الذنب ، السارقون مثلا مع السارقين، أو نساؤهم اللاتى على دينهم ، والمراد باليمين : أن السادة كانوا يحملونهم بالقوة على الكفر لأن اليمين كناية من القوة . انظر الكشاف للزمخشرى .

أن مثل هذه المحاورات والمخاصمات قد تجدى عليهم شيئا يوم القيامة ، فالصورة تؤكد لهم أن هذا التخاصم لا ينفعهم فى شىء ، وأن كلمة الله التى أنذرهم فيها بالوعيد فى الدنيا ان أصروا على اشرك لن تبدل « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ، ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد ، مناع للخير معتد مريب ، الذى جعل مع الله الها آخر فالقياه فى العذاب الشديد ، قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » (١) .

وتحرص صورة القرآن عن المشركين فى الآخرة على أن يكونوا هم النادمين بأخطائهم التى أسلفوها فى الدنيا ، على أن بعض الصور نجدها تحشد عدة أهداف تشير بها الى الأحياء اليوم أن يتأملوها ويتداركوا عواقبها قبل أن تنفد الفرصة ، ولا ينفع الندم ، ومن ذلك هذه الصورة التى نراها تجمع عدة أهداف ، منها موازنة بين المؤمنين والمشركين يوم القيامة ، حيث نرى فيها المؤمنين أهـــل اليمين يتمتعون بنعيم جنات متنوعة فى المتعة والنعيم ، بحيث لا يحصى نعيمها ولا يوصف ، وانما يترك للذهن أن يتصور ما يشاء فى هذا النعيم ، وهنالك يتساءل هؤلاء المنعمون فيما يسمرون به من أحاديث ، عن المجرمين ، ومن هنا تبدأ الاهانة والتحقير للمشركين ، فهم لا يسمعون حديث المؤمنين ، ولا يتاح لهم أن يردوا على هذا التساؤل ، لأنهم بمنأى شديد عن مكان المؤمنين ، وانما يردون على سائل يسألهم عن سبب دخولهم جهنم ، وهذا السائل ينقل اجابتهم الى المؤمنين ، فقد جمعت الصورة بين ابعادهم ، وبين كون الاجابة على ألسنتهم ، وتتضمن الصورة معنى جديدا غير العقيدة ، وهو أن من أخطائهم اعراضهم عن التراحم الاجتماعى ، وحرمانهم المساكين من العطف والرحمة ، بالاضافة الى أخطاء أخرى كثيرة خاضوا فيها مع كل خائض ، وتتضمن الصورة أيضا معنى مهما ينبغى أن يتأكدوا منه منذ اليوم ، وهو أن يمحوا من خيالهم كل أمل فى أن تكون هناك شفاعة لهم ، وحتى لو كانت لغيرهم شفاعة ، فهم محرومون من أى شفاعة ، لأنهم لا يستحقونها ، ولكن العجيب فى هذه الصورة أن التعليق عليها ليس مجرد كلام أو معنى مجردا ، وانما هو صورة أيضا ، تنصب عليهم فيها سخرية مرة ، من ناحيتين ، احداهما صيغت فى سؤال متهكم متعجب من اعراضهم عن الدعوة الى الخير ، والتذكير بالحق « فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ » ، والأخرى تصـوير اعراضهم عن التذكير ، فقد كانت صورة اعراضهم تحمل غاية السخرية ، حيث أشبهوا فى اعراضهم حمرا وحشية هاجمها أسد فجأة ، فولت متفرقة مذعورة ، بأقصى ما تملك من قوة ونفار ، والصورة هى « كل نفس بما كسبت رهينة ، الا أصحاب اليمين ، فى جنات يتساءلون ، عن المجرمين ، ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ،

---

(١) الآيات ٢١ ـ ٢٩ سورة ق .

وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » (١) .

وهذه مجرد نماذج من تصوير القرآن الكريم ، الذى شمل تصويره كل ما يهدف اليه القرآن من دعوة ، ولو ذهبنا نستقصى ذلك فى القرآن لضاق عنه المقام ، ولكننا آثرنا التمثيل بالتصوير الذى يتخذ طابع السخرية والتهكم مراعاة للموضوع .

وهكذا نجد التصوير فى القرآن ، بما يحمل من دقة التعبير والابراز ومن الاشارات الواضحة والاشارات غير الصريحة ، وبما يراعى من شـــمول للجوانب التى يهدف القرآن الى معالجتها ، يضرب المثل المعجز .

٢ – الايجـــــاز :

يقول شكسبير « الايجاز هو روح الدعابة أو النكتة .. الايجاز البليغ الذى يخفى وراءه نقدا لاذعا » (٢) والسخرية هى النقد اللاذع المصوغ فى قالب الدعابة أو النكتة ، ومضمون كلام شكسبير ان الايجاز هو روح السخرية ، بمعنى ان السخرية تتفاوت فى مدى تحقيقها لهدفها بمدى تحقق الايجاز فيها .

ولاشك ان القرآن الكريم كله مثال لأقصى ما يمكن من الايجاز الذى يؤدى أقصى ما يمكن من هدف ، والسخرية فى القرآن مثال لذلك ، فاننا نجد اللفظ الواحد قد يؤدى معنى تعجز عن أدائه ألفاظ كثيرة ، وجمل عديدة ، والحديث عن الايجاز البليغ الذى يتسم به تعبير القرآن دائما مستفيض الحديث عند المفسرين والباحثين فى اعجاز القرآن ، بل نجد اللفظ الواحد احيانا يرسم صورة كاملة ، كأننا نراها ماثلة أمامنا ، توحى الينا بكثير من المشاعر والخيالات كما نرى فى بعض ما يأتى من أمثلة .

وقد رأينا فيما مر من الصور ، كيف ان الآية الواحدة ، أو الكلمات المعدودة من آية ، ترسم صورة ساخرة ، كاملة الوفاء بالغرض منها .

ولئن كان ضرب الأمثال موجودا فى الكتب السماوية ، فان أمثلة القرآن فضلا عن استيعابها تمتاز بالايجاز المركز ، الذى يفتح كل لفظ من الفاظه مجالا أمام الخيال ، ليتصور كيف يشاء على ضوء الحدود الأساسية للألفاظ ، فنجد من أمثال الانجيل قول المسيح « مثل ملكوت السماء كمثل رجل زرع فى قريته حنطة جيدة نقية ، فلما نام الناس جاء عدوه فزرع الزوان بين الحنطة ، فلما نبت الزرع وأثمر العشب عليه الزوان ، قال عبيد الزارع يا سيدنا أليس حنطة جيدة

---

(١) الآيات ٣٨ – ٥١ سورة المدثر .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ١٥٤ .

زرعت في قريتك ؟ قال : بلى ، قالوا فمن أين هذا الزوان قال : لعلكم إن ذهبتم أن تقلعوا الزوان فتقلعوا معه الحنطة ، فدعوهما يتربيان جميعا حتى الحصاد ، فآمر الحصادين أن يلتقطوا الزوان من الحنطة ، وأن يربطوه حزما ، ثم يحرقوه بالنار ، ويجمعوا الحنطة الى الخزائن ، وأفسر لكم ذلك الرجل الذى زرع الحنطة الجيدة ، هو أبو البشر ، والقرية هي العالم ، والحنطة الجيدة النقية هي نحن أبناء الملكوت الذين يعملون بطاعة الله ، والعدو الذى زرع الزوان هو ابليس ، والزوان هو المعاصي التي يزرعها ابليس وأصحابه ، والحصادون هم الملائكة ، يتركون الناس حتى تدنو آجالهم فيحصدون أهل الخير الى ملكوت الله ، وأهل الشر الى الهاوية » (١) .

ولكننا في القرآن نجد أحيانا اللفظ الواحد يؤدى معاني كثيرة ، فمن ذلك قوله تعالى « هذا نزلهم يوم الدين » (٢) ، وذلك في سياق العذاب الذى يصب على أعداء الله يوم القيامة ، فالنزل فيما يعرفه العرب هو التكريم الذى يعد للنازل ، ولكن القرآن يسخر من أعدائه ، يقول الجاحظ « والعذاب لا يكون نزلا ، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمي باسمه » (٣) ، فكون القرآن يجعل العذاب الأليم الذى يصطلونه تكريما وضيافة لهم ، سخرية موجعة ، ولكن من زاوية الايجاز نجد أن لفظا واحدا هو (نزلهم) يثير في النفس كثيرا من المعاني والمفارقات الطريفة الضاحكة ، حين نتصور ما يعانونه في جهنم ، ثم نتصور سخرية هذا اللفظ الذى يحول ساخرا كل هذا العذاب الى نعيم واكرام .

وكذلك نجد هذه السخرية الموجزة ، التي تتركز في لفظ واحد ، في مثل قوله تعالى « وقال الذين في النار لخزنة جهنم .. » (٤) ، فلفظ خزنة يوحي لذاته بصورة كاملة ، هي صورة حراس يقومون على حراسة جهنم وحفظها وأداء ما يقوم به الحراس من عمل ، وهذا التصوير يحمل سخرية شديدة بالذين صب عليهم الوعيد بجهنم ، والجاحظ بذكائه اللامع ، وروحه المعروفة بالفكاهة ودقة الحس ، يدرك ما يحمله هذا اللفظ من سخرية فيقول « والخزنة الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به » (٥) ووجه السخرية الذى يبسطه الجاحظ هو أن لفظ الخزنة يوحي بحسب الظاهر ، أن ما في جهنم شيء ممتع تهفو اليه النفوس ، وتتطلع اليه القلوب ، وقد تمتد اليه الأيدي ،

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١/ ٢٣٧ .
(٢) الآية ٥٦ سورة الواقعة .
(٣) البيان والتبيين ١/ ١٥٣ .
(٤) من الآية ٤٩ سورة غافر .
(٥) البيان والتبيين ١/ ١٥٣

فيحتاج الى حراس يحفظونه ، كذلك يوحي هذا اللفظ بظاهره ، ان الذين يزجون في جهنم قد يحاولون الفرار والهروب ، فيحتاجون الى حفظة يمنعونهم من الهرب ، وكذلك يوحي بان جهنم من الجمال والامتاع والرغبة فيها بحيث يتسابق الناس الى دخولها ، وقد يحاول بعضهم التسلل اليها ، فهي تحتاج الى حراس يمنعون الناس عنها ، فوضع عليها الخزنة ، وهذه المعاني التي تتداعى في النفس من ايحاء لفظ الخزنة ، هي موضع السخرية ، لما تنطوي عليه من مفارقة طريفة بينها وبين واقع جهنم الذي لا يخالج النفس شك في انها عكس هذه المعاني تماما ، فلا جهنم جميلة تهواها نفس ، ولا ما تحتوى عليه ممتع يقبل عليه انسان ، وانما هي عنوان لكل مؤلم وقاس ورهيب ، ولكننا في سياق الحديث عن الايجاز في سخرية القرآن ، نرى كيف ان لفظا واحدا كلفظ الخزنة ، اوحى الى نفوسنا بكل هذه المعاني والخيالات والطرائف ، ودار حوله كل هذا الحديث .

وكذلك نجد لفظا واحدا مثل « تصعر » في قوله سبحانه « ولا تصعر خدك للناس » (١) فهذا اللفظ يرسم صورة كاملة يقارنها الخيال بصورة اخرى ، يرسم اللفظ صورة شخص متكبر متعجرف متعال على الناس ، تائه في غروره وتعاليه ، يحاول أن يفرض هذا التعالي على الناس في كل شيء ، وبكل ما يملك من وسائل ، حتى مشيته ، لا يكون فيها معتدلا كما يمشي الناس ، ولا سوى الخلقة كما فطره الله ، وانما يزور عن الناس بجانبه ، ويشيح عنهم بخده ، معرضا عنهم ، مزدريا لهم ، متعاليا عليهم ، شامخا بأنفه ، مع اعراضه بجانب وجهه ، هذه الصورة ترتسم في الخيال مما يوحيه تصعير الخد ، ولكن لفظ « تصعر » يجعل الخيال يقرن هذه الصورة بصورة جمل مريض ، أصابه داء الصعر ، وهو مرض خاص بالابل ، يصيب الواحد منها ، فيلوي عنقه ، فيمشي معوج العنق ، رافع الرأس ، متجها بوجهه وأنفه الى أعلى ، فهاتان الصورتان ، صورة المتكبر المتعالي في مشيته هذه ، وصورة الجمل المريض في منظره هذا ، واقترانهما في النفس ، وتصور الخيال لهما ، مع الموازنة بينهما ، كل ذلك مما يوحيه لفظ (تصعر) ، وهذا أقصى ما يتاح للفظ واحد أن يؤديه من تصوير وتعبير وايحاءات تشغل النفس بالتفكير فيها ، وتستحوذ على الخيال بحيث يجوب معها ، يوازن بينها ، ويستمتع بطرافة هذه الموازنة ، وهذه المقارنة نفسها هي موضع السخرية البالغة بالمتكبرين المتعالين .

وكذلك نجد احيانا جملة واحدة ترسم صورة كاملة ، وهذه الصورة توحي بمعان وأخيلة كثيرة ، فهذه صورة عن المشركين يوم القيامة لا تصف عذابهم ولا تتحدث عن تفاصيل ما يعانونه من عذاب نفسي ، يرزحون تحت وطأة مشاعر عارمة من الخزي والندم ، والاحساس بالذنب ، والخجل من النفس

(١) الآية ١٨ سورة لقمان .

وما أسلفت ، ولا عن أوضاع كثيرة يمكن للخيال أن يتمثلها فى حالهم حين يلقون ربهم ، ولكن القرآن يستعيض عن ذلك كله ، بأن يرسم لهم صورة فى وضع معين ، وهذا الرسم وان لم يتحدث عن شيء من تفاصيل حالهم ، الا أنه يترك للخيال مجالا فسيحا ليتصور من هذا الرسم كيف يشاء ، وهذه الجملة هى (ناكسو رءوسهم) من قوله تعالى « ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم » (١) ، فتصورنا للمشركين منكسين لرءوسهم عند الله تحت وطأة شعورهم بما أجرموا ، هذا التنكيس يوحى للنفس بمعان قد لا يؤديها كلام مهما يطل ·

وكذلك نجد جملة واحدة ، ترسم لنا صورة واضحة المعالم ، وهى وان لم تنطق بكلام ، الا أن ما توحيه فى النفس أبلغ وأكثر تعبيرا ، وأوسع دلالة من أى كلام ، وذلك كتصوير القرآن لما يعترى المنافقين من مشاعر الخوف والرعب والشعور بالخطر ، حين يواجههم موقف يمتحنون فيه ، فالمفروض انهم يحاولون خديعة المسلمين ، فيظهرون لهم أنهم لايقلون عن أى مسلم اسلاما وعبادة وتضحية فى سبيل الاسلام ، وقد يتمكنون من اجادة هذا المظهر فى كل موقف يشاركون فيه المسلمين ، ولكن موقفا معينا يضعهم أمام عقبة صلبة لا تقوى نفوسهم عندها على استمرار التمثيل وخديعة المسلمين ، هذا الموقف هو الشعور بالخطر ، عند ذلك تجتاحهم مشاعر عارمة من الخوف والرعب والفزع ، وقد يكون هناك مجال واسع لوصف مشاعرهم هذه ، وان ذلك ليحتاج الى كلام كثير ووصف مستفيض ، ولكن القرآن يكتفى عن هذا الكلام الكثير ، والوصف الطويل ، بصورة يرسمها لهم وهم يعانون هذه المشاعر ، وتبدو الصورة فى مظهرها بسيطة ولكنها تؤدى مالا يؤديه كلام طويل ، وتوحى للخيال والنفس بمعان لا يبرزها وصف مهما يطل ، فالقرآن يصوغ ذلك كله فى جملة واحدة معبرة ، هى (تدور أعينهم) من قوله تعالى « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم ·· »(٢) وتصورنا الشخص تدور عيناه بهذه الصورة فى موقف الخوف يغنينا عن أى كلام ويفتح لنفوسنا مجالا فسيحا لتتصور ما يدور فى دخيلة صاحب هاتين العينين ·

وهكذا نجد السخرية فى القرآن تتركز دائما فى كلام موجز ، يغلب عليه التصوير ، ولئن كان من سمات البلاغة الرفيعة عند العرب الايجـــاز الذى يتحدثون عنه بأنه (خير الكلام ما قل ودل) ولئن كان أسمى ما يوصف به شخص من بلاغة أنه يستطيع أن يعبر عن المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة ، والا يكون فى كلامه حشو لا تقتضيه ضرورة المعنى ، حتى يكون الكلام كما يصفه الجاحظ مزكيا اياه « وقال بعضهم — وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه — لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك » (٣) ، ولذلك كان النقاد ، ينفرون من

---

(١) من الآية ١٢ سورة السجدة ·
(٢) من الآية ١٩ سورة الأحزاب ·
(٣) البيان والتبيين ١/ ١١٥ ·

الكلام الذى يزيد على مقتضيات المعنى ، ويعبرون عن ذلك بانهم « كانوا يكرهون ان يزيد منطق الرجل على عقله » (١) .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينازع فى أنه افصح العرب بلاغة ، ومع ذلك نجد من وصفه لنفسه فيما يتعلق ببلاغته « انا معشر الأنبياء بكاء » (٢) ، اى قليلو الكلام ، فالايجاز دائما محور أساسى للبلاغة ، والقرآن قد تسنم هذه الفضيلة البلاغية ، واحتل ذروتها .

ولكن الايجاز فيما يتعلق بالسخرية له اهمية خاصة فوق اهمية الكلام المجرد ، فان الهدف الأساسى من اى سخرية اما رسم من نسخر منه فى صورة مهينة ، أو تضمين الكلام مفارقة مفاجئة لم تكن النفس تتوقعها من سياق الموضوع . وفى كلا الحالتين يلزم ان يكون للسخرية وقع وتاثير فى النفس ، لا من حيث مضمون الصورة ، ولا من حيث المعنى فى المفارقة ، ولكن من حيث أن يترك التصوير او التعبير مجالا للخيال ان يسبح مع الصورة فى مداولات واسعة ، واستنباطات اوسع مما يحمله ظاهر الألفاظ ، كما راينا مثلا فى تصوير دوران أعين المنافقين من الخوف ، فان النفس يمكن ان تتخيل وراء هذه الصورة معانى أكثر مما تؤديه الألفاظ ، وتتخيل مشاعر وانفعالات كثيرة تدور وراء هذه الأعين الدائرة المضطربة ، او اوسع مما يحمله ظاهر اللفظ فى المفارقة التى تتضمن ايراد معنى على معنى أو موضوع مناقض له بصورة تقصد بها الطرافة ، فمن ذلك مثلا ان نتصور أعداء الله فى جهنم يصلون عذابها الشديد ، وقد كانوا فى الحياة يكذبون بها ، ويتهمون من توعدهم بها بان كلامه سحر ، فوجودهم فى جهنم حينئذ حقيقة بالنسبة لهم ، لأنهم يقاسون عذابها ، وهذا العذاب الذى هم فيه حقيقة أيضا يعانون منها ما لا يوصف من الآلام ، واذا سائل يسالهم وهم فى هذا الحال الشنيع مذكرا اياهم بما قالوه فى الدنيا « افسحر هذا ؟ .. » (٣) ، لأنهم لا يشكون فى ان ما يصطلونه عذاب حقيقى ، والسائل أيضا لا يشك فى ذلك ، وانما يسخر منهم ، والتناقض بين الحقيقة البالغة الوضوح وهى كونهم فى العذاب الحقيقى ، وبين السؤال الذى يتضمن احتمال نفى العذاب عنهم هو موضع المفارقة ، وهنا قيمة الايجاز فى السخرية ، فان هذه الجملة القصيرة (أفسحر هذا ؟) تثير فى النفس صورة واضحة ، وخيالات كثيرة ، عن واقع هؤلاء المعذبين فى عذابهم ، وعن ماضيهم فى حياتهم ، وعن السخرية بهم ، واثر هذه السخرية فيهم .

وكذلك من المفارقات البالغة فى الايجاز والايحاء معا ، هذه المفارقة التى يتنزل فيها أسلوب مخاطبة الله تبارك وتعالى لعباده الى الأسلوب الذى يتفاهمون

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١١٤ .
(٢) المصدر السابق ١/ ١١٤ وبكاء بكسر الباء
(٣) من الآية ١٥ سورة الطور .

به فيما بينهم ، ليكون أبلغ وقعا في نفوسهم ، وأكثر تأثيرا في قلوبهم ، فمن البداهة بمكان ان أي مؤمن لا يظن في الله سبحانه انه مشغول عن عباده بشيء يصرفه عن متابعة أمورهم أو محاسبتهم عليها ، وانه سبحانه لا تصرفه الهيمنة على شيء عن شيء آخر ، بل هو مدبر دائما للكون كله وما فيه ، لا تخفى عليه ذرة منه ، هذه حقيقة واضحة كل الوضوح في نفس كل مؤمن ، لا تنتابه فيها ذرة من شك ، ومع ذلك نجد الله سبحانه يفاجيء عباده بمعنى يناقض هذه الحقيقة في ظاهره ، فيقول لهم « سنفرغ لكم أيها الثقلان » (١) ، والرماني يتحدث عن هذا المعنى فيقول « والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ في الوعيد ، وحقيقته ستعمد ، الا أنه لما كان الذي يعمد الى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجري به التعارف دللنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصـــــــة موقع الحكمة » (٢) ، وبالاضافة الى أن هذا التعبير في الآية الكريمة يفيد أشد الوعيد فان مما يلفت النظر فيه أن تكون جملة واحدة هي (سنفرغ لكم) توحي بكل هذه المعاني ، وتثير في النفس والخيال تصورات كثيرة في الموازنة بين الواقع فيما يتعلق بذات الله سبحانه ، وبين ما يوحيه ظاهر التعبير في الآية .

والذي نحب ان يكون واضحا من هذا الحديث ، ان السخرية على وجه الخصوص أحوج ما تكون الى هذا الايجاز الذي يترك للنفس وللخيال مجالا واسعا للتصور والتخيل والتفكير ، وبمقدار تحقيق التعبير الساخر لهذا المعنى يكون نجاحه في أداء الغرض منه ، وبمقدار تفاوت التعابير الساخرة في هذا المعنى أيضا يكون تفاوتها في الجودة ، ولاشك ان سخرية القرآن كما رأينا في الأمثلة السابقة ، قد بلغت حدا لا يسامى ، وليس أدل على ذلك من أن يحمل اللفظ الواحد كما سبق ما يحمله من تصوير وايحاء . ونعود فنقول ان هـــذا المعنى هو ما يعنيه شكسبير بقوله « الايجاز هو روح الدعابة أو النكتة .:. الايجاز البليغ الذي يخفي وراءه نقدا لاذعا » ، وايجاز القرآن يكتمل فيه قول الجرجاني في حديثه عن الاستعارة التي هي نوع من التصوير « انها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ .. فانك لترى بها الجماد حيا ، والأعجم فصيحا » (٣) .

٣ ــ التسامي :

والمعنى بالتسامي ان الاسلام يسمو عن الاسفاف في الخصومة ، ولا ينزل الى مستوى الحقد والغل الشخصي ولا يرضى الا بالخصومة الكريمة التي تقوم على مبادىء معينة ، وتهدف أيضا الى مبادىء معينة ، وهذه حقيقة يمكن أن تصدق

---

(١) الآية ٣١ سورة الرحمن .

(٢) النكت في اعجاز القرآن للرماني ص ٨١ (ضمن كتاب ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)

(٣) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ص ٣١ .

على الأديان ، بل هي واقع الأديان السماوية كلها ، فالأصل في الأديان السماوية انها تدعو الى الخير ، في الدنيا للآخرة ، وتحارب الشر والظلم ، وحتى الخصومة مهما بلغت ، فان للخصم فيها حدودا اذا جاوزها كان ظالما ، بل يجعل النبي صلى الله عليه وسلم تجاوز الحد والفجور في الخصومة علامة من علامات النفاق الذي لا يتفق قط مع خلق المؤمنين ، ومن ذلك قوله « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منها ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا خاصم فجر » (١) ٠

وهذه الحقيقة في الأديان السماوية يعرفها حتى أعداء الأديان ويعترفون بها ، فهذا وليم جيمس وهو من كبار دعاة الوجودية ٠٠ يقول في سياق تعداده للأمور التي يستفيد منها الأفراد « والتجربة الدينية ، حيث يعتبر الاعتقاد الحقيقي ما يسري عن الأفراد ، ويثبت قلوبهم في المحن ، ويسمو بهم فوق مستوى أنفسهم » (٢) ٠

ولكن الاسلام ضرب أمثلة خالدة في التسامي بالخصومة ، حيث جعل من ذلك مبادىء ثابتة لا يجوز لأبنائه ان يتعدوا حدودها ، وهو بحكم كونه لم يكن مجرد دين للأفراد ، وانما كان مع ذلك دين الجماعة والدولة ، فقد اتسع مبدأ التسامي فيه ، وشمل أحوال الجماعات ، وأحوال الدول ، ومن ذلك نهى النبي عن التمثيل بالأسرى في الحرب ، منعا قاطعا ، ولم يبرر ذلك عنده حتى خطورة عدوه على الاسلام ، كما حدث حين أسر سهيل بن عمرو ، وكان خطيبا من أخطر الدعاة ضد الاسلام ، فرأى عمر بن الخطاب أن يكف هذا اللسان عن الدعاية ضد الاسلام بأن ينزع ثنيتيه ، فطلب من النبي أن يأذن له في نزع ثنيتي سهيل قائلا « يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا ، فقال النبي : لا أمثل به فيمثل الله بي وانه كنت نبيا » (٣) ، وكما قالت عائشة في وصف النبي « كان خلقه القرآن » فيمكن أن نقول : انه وان كان هذا السلوك من النبي نحو الأسرى يتفق مع خلقه ورحمته في كل تصرفاته ، الا أن القرآن يجعل من خلقه هذا تشريعا ملزما ، وليس خلقا اختياريا ، ومن ذلك ان النبي حينما رأى الوحشية والبشاعة التي مثل بها في عمه حمزة يوم أحد ، غضب غضبا شديدا ، وأقسم لئن أظهره الله على قريش ليمثلن بسبعين منهم مثلة لم ترها العرب ، ولكن القرآن الكريم يرده الى حلمه وحكمته ورحمته ، فينزل من القرآن « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم

---

(١) انظر صحيح البخاري ٠
(٢) نظرية في الانفعالات جان بول سارتر ترجمة د٠ سامي محمود ص ٧٧ ٠
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٣ ٠

ولا تك في ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (١) ولئن كان القرآن في هذا جعل العقوبة بالمثل حقا وتشريعا ، فانه أمر النبي نفسه بالعفو في قوله (واصبر) لئلا تكون في حياة النبي أحداث تشذ عن خلقه المفطور عليه ٠

وتجلى هـذا في فتح مكة ، حيث عهد النبي الى أمراء جيشه الا يقاتلوا الا من قاتلهم (٢) ثم عفا عن أعدائه بعد أن أصبحوا في قبضة يده ٠

ومن روائع التسامي بالخصومة في الاسلام ، ما شرعه الاسلام لأبنائه في معاملتهم لأهل الذمة ، اليهود والنصارى ، من معاملة انسانية رفيعة ، ومن ذلك عهد النبي لنصارى نجران ، حيث جاء فيه « ولنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم ، وملتهم وبيعهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش » (٣) ، وحتى حينما يدعو الاسلام أهل الذمة الى الدين ، فانما يدعوهم بالحسنى ، لا يتجاوز المنطق العادل ، والمساواة بينهم وبينه في الاحتكام الى الحق « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٤) ، وحتى اذا خانوا وغدروا بالمسلمين بعد عهدهم معهم ، فان الاسلام لا يبيح للمسلمين أن يبادلوهم خلقهم ، ولا أن يدهموهم ، وانما ينذرونهم بنقض العهد الذي يجمعهما ، لأن الله لا يحب للمسلمين أن يجعلوا وسيلتهم الى النصر خيانة أو غدرا أو خلقا ملتويا ، أو حتى مجرد الاعتماد على انتهاز الفرص ، وانما يلزمهم الخلق الكريم ، والسلوك الشريف ، ويتعهد لهم مقابل تمسكهم بهذا الخلق ، أن يكون النصر لهم (٥) ٠

بل من السمو في الخصومة الذي يروع البشرية كلها ، أن يتعهد الاسلام بالأمن والحماية لمن طلبهما ، ولو كان من أعدى أعدائه ، ومن أروع أمثلة الاسلام في ذلك قوله تعالى « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (٦) ومن مضمون الآية ، ومن ختامها الذي ختمت به ، نعلم ان الاسلام « دين اعلام لمن لا يعلمون ، واجارة لمن يستجيرون ، حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه » ٠

---

(١) آخر سورة النحل ٠
(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٨ ٠
(٣) الاسلام نظام انساني دكتور مصطفى الرافعي ١٧١ ٠
(٤) الآية ٦٤ سورة آل عمران ٠
(٥) انظر في ظلال القرآن سيد قطب ٤٨/١٠ ـ ٥٠ ٠
(٦) الآية ٦ من سورة التوبة ٠

ولكنه انما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التي تحول بين الأفراد وسماع كلام الله ، وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل الله ، فتحول بينهم وبين الهدى» (١) .

فالاسلام يلتزم دائما جانب المبادىء ، ولا يرضى لأبنائه قط ان ينحرفوا أو يحيدوا عنها مهما جر عليهم ذلك من كسب ، أو حقق لهم من نصر ، لأنه ليس دين التسلط والقهر ، وليس دين المطامع والمنفعة ، وانما هو دين الهـــداية والارشاد ، دين الخير للناس كافة ، والخير لا يتفق مع القسوة أو التجبر أو الطمع الاسلام لا يرضى قط بمبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) ، هذا المبدأ الذى اتخذته ولازالت تتخذه كثير من الأمم أداة يصطلى عذابها الأفراد ، ويطبقونه أحيانا فى وحشية وبشاعة لا تتفق قط مع أيسر مبادىء الخلق والرحمة والانسانية ، كما يجرى فيما يسمونه (غسيل المخ) حين تصب على بعض الأفراد الوان بشعة من التعذيب النفسى والعصبى والبدنى ، لتغيير معتقداتهم ، أو لانتزاع اعترافات منهم ، والتى يطبقون كثيرا من تجاربها على الكلاب ، على أساس ان النتائج التى يحصلون عليها من تجاربهم على الكلاب ، يمكن ان يحصلوا عليها من تطبيقها على الانسان (٢) .

على ان الاسلام قد عانى من قسوة أعدائه وفجورهم وطغيانهم الشىء الكثير ولكن الاسلام لا يرضى لأبنائه أن يتخلوا عن خلق الاسلام ، ولا ان يجاروا أعداءهم فى خلقهم مهما يكن من حال ، كما رأينا فى نهى القرآن للنبى عن أن ينفذ وعيده فى الانتقام من التمثيل بعمه ، ثم أمره بالصبر والعفو .

وليس هذا الحديث استطرادا ، بل هو أساس يرتبط به الحديث عن تسامى السخرية فى الاسلام ، فالسخرية لا تمثل خلقا أو نهجا منفصلا فى الاسلام ، وانما هى نمط يسير على وتيرة الاسلام ، فى خلقه ومبادئه ، التى لا تختلف ولا تتباين فى أى لون من ألوان السلوك أو التشريع فى الاسلام .

وحين نذهب الى سخرية القرآن من حيث السمو الانسانى فيها ، نجد انها تضرب المثل الأعلى للسخرية بالعدو ، مهما تكن عداوته ، ومهما تكن خطورته فحين ننظر الى الصور السابقة مثلا على اختلافها ، نجد انها تستهدف أمرين .

١ — قوة التصوير والتأثير ، من الناحية الفنية والأدبية .

٢ — تحطيم جانب معين يقف عقبة أمام انتشار الاسلام ، وقد يكون هذا الجانب مجرد تمسك المشركين باتباع آبائهم ، وقد يكون اعتقادهم فى نفع الآلهة لهم ، وقد يكون تأثرهم وخوفهم من مخالفة السادة والزعماء ، وقد يكون غير ذلك ولكنه دائما يدور فى فلك معين فقط ، هو تمهيد السبيل أمام الاسلام بوصفه

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب ١٤٢/١٠ ، ١٤٣

(٢) انظر الأمن العام (المجلة العربية لعلوم الشرطة العدد ٤١ ص ٣ — ٥ نقلا عن تجارب وبحوث عالمية .

عقيدة ، وازالة العقبات التي تصد الناس عنه ، او تحول بينهم وبين الاستماع له وتفهم حقيقته .

واذن فليس في الاسلام باعتباره دينا عداء شخصي ، أو عداوة مقصودة لذاتها ، وحينئذ لا يكون هناك محل للحقد والغل لذاتهما ، والحقد والغل لذاتهما ، اللذان يدفعان الى مجاوزة الحد في الخصومة ، والنيل من الخصم باكثر مما تقتضيه الخصومة ، والاسلام حينما يكون طابعه هكذا فهو يجعل هذا الطابع خلقا وتشريعا لابنائه ، يعاملون به خصومهم ، ولا يجيز لهم أن يتعدوا حدوده .

وقد كانت السخرية في بداوتها لا تتعدى الضحك من العيوب والنقائص الجسمية كالعاهات ويقرر علماء النفس والاجتماع في ملاحظاتهم عن السخرية عند البدائيين ان « الانسان البدائي يضحك في العـــادة من عيوب الآخرين الجسمية ، ونقائصهم الخلقية ، وعاهاتهم الموروثة .. ان ضحك البدائيين هو في صميمه أشبه ما يكون بضحك الأطفال .. ساذج تغلب عليه نزعة السخرية وروح المعاكسة » (١) ، ولئن كان تقدم الحضارة البشرية قد ارتفع بالسخرية عن هذا المظهر البدائي ، فان هذا الارتفاع كثيرا ما ينتكس فيعود الى اســوا مما كانت عليه السخرية في البداوة ، لأن عيب السخرية في البداوة انها لا تتعدى مجرد الانتقاص والتحقير ، دون هدف سام ترمي اليه ، ويتمثل ذلك في معظم الهجاء الشعري ، حيث نجد معظمه لا يرمي الا الى تحقير شخص وانتقاصه باي صورة من الصور ، دون أن يهدف الى غاية سامية من وراء هجائه وسخريته ، على أن بعض هذا الهجاء الساخر ، ياخذ طابع السخرية البدائية نفسه ، فنجده يسخر من عيوب جسمية ، وعاهات خلقية في خصمه ، وهذا النوع كثير شائع في الهجاء .

ومن ذلك مايرويه ثعلب في مجالسه (٢) ، ومانجده منبثا موفورا في كتب الأدب .

وفيما يتعلق بحرب السخرية بين الاسلام واعدائه ، فاننا نرى ســـمو سخرية الاسلام في هذه الخصومة ، حين نرى اسفاف سخرية أعـــداء الاسلام وهجائهم للمسلمين (٣) . وقد بلغ من اسفاف أعداء الاســلام واقذاعهم في الهجاء والسخرية بالمسلمين ، ان اضطروا الذين يدافعون عن الاســـلام من الشعراء أن يجاروهم أحيانا فيبادلوهم اقذاعا باقذاع ، ومما لا شك فيه ان الاسلام لا يرضى لهم ذلك ، لأنه لا يبيح قط الحيد عن الخلق والمبادىء ، ولذلك نجد رواة التاريخ الاسلامي يتعففون عن رواية هذا الاقذاع ، كما فعل ابن هشام

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ص ٦٥ .
(٢) انظر للمثال مجالس ثعلب لأبي العباس ثعلب ص ٥٣٦ ، ٥٢٤ .
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/٢٨٠ — ٤٣٨ ، ٣/١٥٠ — ٢٥١ ، ٤/٣١٢ — ٣٢٠ .

في سيرته ، ولذلك نجده يكرر كثيرا مثل قوله « تركنا من قصيدة حسان ثلاثة أبيات — في يوم بدر — لانه اقذع فيها » (١) وكذلك « تركنا منها بيتا واحدا أقذع فيه » (٢) وكذلك أيضا في هجاء حسان بن ثابت لهند بنت عتبة ردا على هجائها المسلمين في أحد يقول ابن هشام « فقال حسان :

أشرت لكاع وكان عادتها ... لؤما اذا أشرت مع الكفر

وهذا البيت في أبيات له تركناها وأبياتا أخرى أيضا له على الدال وأبياتا أخرى على الذال لانه أقذع فيها » (٣) ، ومن ذلك قصيدة لأبي طالب يهجو فيها من خذله من قبائل قريش ، يقول ابن هشام بعد أن ساق بعضها « تركنا منها بيتين اقذع فيهما » (٤) .

أما سخرية القرآن فمن البدهي أنها بعيدة كل البعد عن الاقذاع ، وعن نبو الألفاظ ، بل عن طابع العداء الشخصي ، أو العداوة لذاتها ، فليس ذلك هو المقياس الذي ينظر به الى سخرية القرآن ، وانما القياس انها مثل أعلى للسمو الذي لا يهدف الا الى الغاية العليا ، وهي تحقيق الخير للناس في دينهم ومعيشتهم ، وكما سبق القول ، فان سخرية القرآن حينما تهاجم فردا أو طائفة فانها لا تحمل طابع العداء أو الحقد لذاتهما ، وانما تهدف الى شيء واحد حينئذ ، وهو ازالة هذه العقبة التي تعترض طريق نشر الاسلام وبلوغه الى كل اذن وقلب ، فحينما يسخر القرآن من القادة والزعماء فانما يهدف الى تحطيم هالتهم الكاذبة في نفوس الأتباع ، حتى يثوب الأتباع الى رشدهم ويدركوا ان هؤلاء السادة لن يغنوا عنهم شيئا ، وانما يسوقونهم الى الضلال والهاوية ، وحينما يسخر القرآن من بعض الخلق السائد في المجتمع كتصعير الخد والتعالي على الناس ، فانما يهدف الى تحقيق مجتمع فاضل تسيطر عليه مظاهر الرحمة والتعاون وتبادل التقدير والاحترام ، وأن يكون مقياس التفاضل بين أفراد المجتمع ، لا مظهر أجسامهم ، ولا مقدار قوتهم وتجبرهم ، وانما مقدار ما تحمل قلوبهم من خير ، وما يستطيعون اداءه للمجتمع من نفع ، وحينما يسخر القرآن مثلا من بعض العادات ، كوأد البنات ، أو من نظرة التشبث بالآباء والأجداد دون وعي أو تفكير ، فان القرآن لا يهدف الى مجرد التسفيه أو التحقير (٥) وانما يهدف الى خلق مجتمع جديد ، لا يشده ضلال الماضي ، ولا ينخر فيه فساد حاضر ، مجتمع جديد يتربى على خلق الاسلام ومبادئه ، كما يبدو ذلك واضحا فيما سبق التمثيل به من سخريات .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥٨ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٨٥ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ٤٤ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٨١ .
(٥) انظر نظرات جديدة في التفسير محمد عبد الرحمن الجديل ص ٥٤ .

على أن هناك معنى تحب ان يكون واضحا لا يلتبس بغيره ، فليس معنى التسامى مجرد الرفق والرحمة ، لأن الخصومة بطبعها ليست هى مجال الرحمة والرفق ، ومن البدهى ان السخرية بطبعها مظهر عدائى ، فليس معنى تسامى السخرية في القرآن انها هادئة ولا وادعة ، وانما معناه انها تتجنب دائما نبو الألفاظ ، وقبح المعنى ، وانها دائما هادفة ، وهدفها تحقيق الاسلام بوصفه دينا وعقيدة ، ومبادئه باعتباره سلوكا وشريعة ، فنجد سخرية القرآن مثلا تتجافى عما تنفر منه النفوس ، فى مثل ردها على الذين يعتقدون الوهية المسيح ، تنفى عن المسيح أى صفة غير انه رسول من قبل ربه كسائر الرسل ، وأمه مجرد امرأة صالحة صديقة ، فلا علاقة لهما بالألوهية قط ، والدليل على انهما بشر كغيرهما من الناس ، انهما يجرى عليهما ، ويصدر منهما سائر ما يصدر من البشر ، وخاصة من الأمور التى لا يتفق قط تصورها مع الألوهية ، كالبول والغائط وسائر السلوك والغرائز البشرية التى يكنى عنها ، ولكن سخرية القرآن لا تصرح بشيء من ذلك ترفعا وتساميا بسخرية القرآن أن تنزل الى مستوى سخرية البشر ، وحملا للبشر على أن يتأسوا بها ، فتخفى سخرية القرآن ذلك كله بالنسبة للمسيح وأمه ، وترمز له بشيء واحد ، هو « كانا يأكلان الطعام » لأن أكل الطعام تتبعه أشياء كثيرة ، يتسامى القرآن عن ذكرها ، ويكتفى بمجرد الاشارة اليها (١) ، وذلك من قوله تعالى « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » (٢) فالقرآن يسمو فى لفظه ومعناه عما تجفوه النفوس ، ولكنه يركز على المضمون ، وعلى الهدف ، والتركيز على المضمون هنا واضح رغم بساطة التعبير فى ظاهره ، لأن القضية هى ادعاء بعض الناس نسبة المسيح الى الالوهية ، وغاية السخرية ممن يدعون ذلك ويعتقدونه ، أن يقال لهم تصوروا ان الها يأكل الطعام ، ثم يأتى الغائط ، وسائر ما يأتيه الناس ، ومجرد رسم هذه الصورة فى مقام ادعاء الالوهية بالغ الرد والتهكم بقائل هذا القول ، والهدف واضح ، وهو ردهم الى المنطق السليم ، والتفكير القويم ، ويتمثل هذا الهدف فى التعليق على الصورة وهو « انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ؟ » .

وكذلك حين تتجه سخرية القرآن نحو الأفراد ، مع ان المفروض ان الأفراد الذين اتجهت اليهم سخرية القرآن بأشخاصهم كانوا أشد أعداء الاسلام كأفراد ، والدليل على مبلغ عدائهم وخطورتهم على الاسلام أن يعنى القرآن بهم حتى يهاجمهم ، ويحدد أشخاصهم اما تصريحا واما تلميحا اليهم وتركيز السخرية على شخص معين كان يمكن أن يكون أفسح مجال للرد على طغيانهم وفحشهم فى

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ١/ ٥١٧ ، ٥١٨ .
(٢) الآية ٧٥ سورة المائدة .

العداء للاسلام ، ولكن القرآن وهو كلام رب العالمين ، ونبراس الهداية للبشرية ، والمثل الأعلى للخلق الانساني ، لا يمكن ان ينزل الى مستوى البشر فى اسفافهم، لانه كما قلنا لا يعاديهم لمجرد العداء ، وانما يقى الاسلام شرهم ، داعيا اياهم هم وغيرهم الى الهدى ، ولكن القرآن مع تحاشيه للاسفاف ونبو الألفاظ ، وقبيح المعنى والموضوع ، ينال منهم بتساميه ما لا تناله سخرية البشر فى أى لون من ألوانها ٠

فلننظر مثلا الى مثال لسخرية القرآن من عدوين كانا من ألد أعداء الاسلام وأكثرهم خطورة ، وهما عبد العزى بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب فقد كان عبد العزى مع أنه عم الرسول صلى الله عليه وسلم من أشد طغاة مكة ، فى ايذاء الرسول والمسلمين ، وصد الناس عن الاسلام ، وذن من خطورته فى صد الناس عن الاسلام أنه عم الرسول ، والمفروض انه بهذه الصفة يكون مصدق القول والرأى لدى كثير من العامة ، وخاصة الوافدين من القبائل ، وامرأته كانت تحتل فى قريش مكانا رفيعا ، فهى أخت أبى سفيان بن حرب ، وزوجة عبد العزى بن عبد المطلب ، ومع ذلك كانت تنزل فى عدائها للرسول الى درجة من الاسفاف لا تليق بأى امرأة شريفة ذات مكانة ، ومن ذلك انها كانت تلقى الشوك فى طريق النبى بالليل ليمشى عليه ، وكانت تمشى بالنميمة (١) ٠ وتنشر الدعايات ضد المسلمين ، فقد كانت اذن هى وزوجها من أخطر أعداء الاسلام ، ومن أشد العقبات التى تحول دون انتشار الاسلام وهو ما زال فى مهده ، فما كان أحوج الاسلام الى أن تنحى من طريقه هذه العقبات الصلبة التى تصد الناس عنه ، وتحول بينه وبين بلوغه اياهم ، وقد تكفلت سخرية القرآن بهذه المهمة ، فعمدت الى الطاغية الكبير عبد العزى ، ووصمته بكنية بشعة أصبحت اسما له بعد اسمه الحقيقى ، وهى (أبو لهب) وأصبح هذا الوصف ملازما له ، مقترنا به فى ذهن كل من يذكره أو يراه ، وأصبح الناس بدل أن يستعيدوا فى أذهانهم ما يقوله عبد العزى ضد ابن أخيه ودينه وأتباعه ، يستذكرون هذا الوصف الذى لم يعهد له العرب مثيلا ، وبدل أن يرهب الناس عبد العزى حين يرونه ، ويترددون فى الاقبال على الاسلام خوفا منه أصبحوا حين يرونه يبتسمون فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بين بعضهم بعضا لأنهم لا يرون أمامهم طاغية عتيا ، ولا جبارا عنيدا ، وانما يرون شخصا يحمل اسما طريفا لم يسمعوا بمثله هذا الاسم يكسوه لهبا ونارا ، ويؤكد القرآن هذا المعنى فى أذهان العامة ، أعنى معنى اسقاط المهابة والجلال عن عبد العزى ، فيؤكد لهم أنه هو وما يكتسب من مال بيديه تافهان ، وماله هذا العريض ، لا ينبغى أن يغر أحدا أو يخدعه عن الحقيقة الواقعة ، وهى أن ماله كله لن يغنى عنه شيئا ، فلينظروا اليه على حقيقته ، وهو أنه مجرد « أبو لهب » وليقبلوا على الخير فى كنف الاسلام ٠

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٤/ ٦٥١ ٠

وأما زوج أبي لهب ، فان سخرية القرآن تنزلها في أعين نساء قريش والعرب ، وفي أعين الذين تبلغهم عداوتها للنبي ودينه ، من قمة مجدها وشرفها الى حضيض تتمنى المرأة باعتبارها أنثى ، وخاصة اذا كانت في منزلة أم جميل أن يطويها الثرى قبل أن يتمثلها الناس في هذه المنزلة الحقيرة ، فقد جعلها القرآن مجرد حمالة للحطب ورسم لها منظرا مضحكا ،أشـــــبه بما يسمونه (الكاريكاتير) ، وهو منظر امرأة مربوطة في جيدها بحبل ، كما تربط أي دابة (١) ، ويشير القرآن بحملها الحطب الى خلق النميمة فيها ، وكل ما وصفت به اشارة الى جهودها الآثمة التي تعارض بها الاسلام وتحاربه(٢) ، وقد يكون وصفها بالحبل في جيدها اشارة الى انها لا تعدو في تفكيرها وسلوكها نحو الدين أن تكون دابة كأي دابة تقاد بحبل من جيدها ، فليس تفكيرها هو الذي يقودها، وانما هي مشدودة الى عادات وتقاليد جاهلة ، ومقودة أيضا بهذه العادات ، وذلك كما وصف القرآن غيرها من المشركين بأنهم كالأنعام بلْ هم أضل سبيلا.

ونرى أسلوبا آخر في السخرية من شخص لم ينازع في أنه بلغ من السيادة والمجد في قومه مرتبة لم يصل اليها بل لم يبلغها زعيم آخر حينئذ ، حتى ان المشركين حين استكثروا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يختصه الله بالرسالة ، رأوا هذا الشخص أحد رجلين اثنين في العرب يحق لهما أن يناط بهما أعلى مجد وأعظم منصب ، هذا الشخص هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، والآخر عروة بن مسعود الثقفي (٣) وقد شهد القرآن نفسه للوليد ، بعمق التفكير ، وبعد التدبير ، كما شهد له بأمور كانت من أهم مقومات القوة والسيادة في المجتمع حينذاك منها كثرة الأموال ، ووفرة البنين ، في قوله تعالى « ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر؛ فقال انهذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر.. » (٤) ، فشخص كان يملك من السيادة والمجد ، ومن القوة والسلطان ، ومن الذكاء وعمق التفكير ، ومن مقومات الجاه وبسط النفوذ ، ما يملكه الوليد بن المغيرة ، كما يشير القرآن الكريم نفسه ، ثم يستخدم ذلك كله في حربه للاسلام والمسلمين ، لاشك تكون حربه خطيرة فعالة ضد الاسلام ، ولذلك قرر القرآن مهاجمته في أكثر من موضع ، ولكننا في سياق الحديث عن سمو السخرية في القرآن ، نقول انه مع خطورة الوليد ابن المغيرة في حربه للاسلام ، الا أننا نجد سخرية القرآن به ، مع عنفها الشديد

---

(١) انظر تفسير سورة المسد في الكشاف للزمخشري ٤/٦٤٩ ــ ٦٥٢ .

(٢) انظر نظرات حديثة في التفسير محمد عبد الرحمن الجديلي ص ٥٣ ، ٥٤ ..

(٣) الآية ٣١ سورة الزخرف « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

(٤) الآيات ١١ ــ ٣٠ سورة المدثر .

فى الموضوع ، بحيث شوهت كل مقومات مجده وشخصه ، قد تحاشت كل ما يمت الى الاقذاع والفحش من قريب أو بعيد ، وذلك بالاعتماد على كشف حقيقته وبيان صفاته التى قد يخدع عنها الأتباع والعامة من الناس ، ومن العجيب أن يجمع القرآن فى سخريته منه ، بين الأوصاف البراقة المغرية فيه ، والتى تثير بين الاتباع اعجابهم به ، وبين الأوصاف الحقيقية التى قد تخفى على كثير منهم ، وكان القرآن يقول لهم ، هذا ظاهره الذى تعرفونه والذى يثير اعجابكم ، ولكن ينبغى أيضا أن تعرفوا دخيلته لتكونوا على بينــة من أمره فلا تخـدعوا بمظهره ، فأما أوصافه الظاهرة التى يعجب بها الأتباع ، فهى فيما سبق من الآيات « .. خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ... » وأما أوصافه الحقيقية التى ينبغى أن تكون هى مدار الحكم عليه لدى العقلاء ، لأن الأوصاف السابقة مجرد أعراض غير ثابتة من المال والبنين والجاه ، أما أوصافه الثابتة التى تمثل خلقه فهى « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، ان كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم .. » (١) والهماز الكثير الطعن للناس فى غيبتهم ، والعتل الفاتك الشديد الخصومة ، والزنيم لا يقصد به طعن فى النسب ، كما قال ابن هشام « ولم يقل زنيم لعيب فى نسبه ، لأن الله لا يعيب أحدا بنسب ، ولكنه حقق بذلك نعته ، ليعرف ، والزنيم العديد للقوم » (٢) والعديد الذى يعد فى الناس وليس منهم ، وقد يكون هذا المعنى اشارة الى صفاته الظاهرة التى توحى بالخير ، وتغرى بالاعجاب فهذه الصفات تسلكه فى عداد الخيرين ، الذين يرجى منهم النفع والخير ، ولكنه فى الحقيقة زنيم بمعنى غريب بين الخيرين ، لأنه فى واقعه ودخيلته شرير وليس خيرا .

ونجد التركيز فى الحديث السابق للقرآن عن الوليد ، منصبا على الهدف العام لسخرية القرآن ، وهو تمهيد السبيل لنشر الاسلام ، وازالة العقبات من طريقه ، ولذلك نجد التعبيرين فى الآيات السابقة « ولا تطع » ثم « ان كان ذا مال وبنين » يحققان هذا المعنى بوضوح ، فمن الواضح أنه ليس النبى صلى الله عليه وسلم هو المقصود بالنهى عن اتباع الوليد وطاعته ، وانما المقصود هم الاتباع الذين تغلب عليهم دائما طاعة السادة والزعماء ، فالقرآن يخاطب هؤلاء الأتباع فى صورة خطابه للنبى ، موجها اياهم الى أنه لا ينبغى لهم أن يطيعوا مثل هذا الشخص بسبب ماله وبنيه ، بل ينبغى أن يفهموا حقيقته التى تمثلها هذه الأوصاف التى تسوقها الآيات الكريمة ، ثم تنصب السخرية المرة الهادمة على شخص الوليد ، فهذا الشخص القوى المتسلط صاحب المال والبنين ،

---

(١) الآيات ١٠ ــ ١٦ سورة القلم .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٨٤ ، وانظر تفسير الكشاف للزمخشرى لهذه الآيات ، وانظر من هدى القرآن (نظرات حديثة فى التفسير) محمد عبد الرحمن الجديل ص ٨٧ ، ٨٨ .

والفكر والتقدير ، الذي يملأ قلوب أتباعه اعجابا واكبارا بمظهره وجلاله ، تمسح سخرية القرآن هذا المظهر الكبير الجليل ، لتضع مكانه صورة ساخرة ، نرى فيها الوليد وقد شوه منه أبرز موضع في أكرم عضو من الانسان ، على اننا لا نراه في الصورة هو الوليد كما يعرفه الناس ، وانما نراه أشبه بحيوان ذي خرطوم ، وقد وسم خرطومه بعلامة بشعة منفرة ، تشوه مظهره ، وتثير الضحك والسخرية منه ، فهذا أيضا رسم (كاريكاتيرى) يمثل الوليد في هذا المنظر المضحك في ظاهره ، المثير للتفكير العميق في حقيقته ، حين نرى شخصية عظيمة في أعين أتباعها ، يرن ذكرها وجلالها في نفوس هؤلاء الأتباع وقلوبهم ، قد سلبت هذه الشخصية من مجدها وهالتها ، لتوضع في هذا المنظر المضحك المزرى • ولنتمثل أتباع الوليد حين تتحول صورته الضخمة المهيبة في نفوسهم الى ضخامة فيل مثلا مشوه الخرطوم ، ولنتخيل الفارق بين نظرة الاكبار والاجلال التي ينظرون بها اليه ، ويتمثلونه بها في نفوسهم ، وبين نظـــرة الضحك والسخرية التي ينظرون بها الى صورته هذه التي رسمتها سخرية القرآن •

ونعود فنقول انه ليس معنى تسامى ســخرية القرآن انها رقيقة أو وادعة مع أعداء القرآن ، بل انها لتدمر كل شيء أتت عليه أو اتجهت نحوه تدميرا لا يبقى بعده ولا يذر ، وتحطم هدفها تحطيما لا يقوى بعده على النهوض ، ولكن ذلك كله يتحقق بالأسلوب المهذب ، والتعبير الكريم ، واللفظ النقي النظيف ، فنجاح سخرية القرآن يتمثل في قوة النسج ودقته ، والاحكام في التوجيه نحو الهدف المنشود في اصابته ، مع مراعاة الاعتبارات الأخرى التي هي موضوع الحديث ، فقوتها اذن موضوعية وليست شكلية ، كالسخرية أو الهجاء اللذين يعتمدان على سطح الألفاظ •

٤ ـ الدعوة الى التفكير :

مما لاشك فيه انه ليس هناك دين يدعو الى العقل والتفكير كما كان الاسلام دائما لا يترك فرصة ، الا ويدعو الناس جاهدا الى استخدام عقولهم ، ويحارب بكل قوة ذلك الانسياق الأعمى وراء أي شيء ، ولذلك كانت من خصائص الاسلام ان معجزته الكبرى وهي القرآن عقلية ، يقول الســيوطي « وأكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية •• وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية •• لأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ــ القرآن ــ ليراها ذوو البصائر » (١) ، وآيات القرآن تدعو كثيرا الى التفكير ، وتنعى كثيرا على الذين لا يحاولون التفكير •

وفيما يتعلق بسخرية القرآن ، نقول أولا انه من الواضح ان السخرية نوع من الفكاهة أو تتضمن الفكاهة ، وكون القرآن يجعل السخرية أسلوبا

---

(١) الاتقان في القرآن ٢/ ١١٦ نقلا عن اعجاز القرآن عبد الكريم الخطيب ١/ ٧٢ •

من أساليبه ، نجد له دلالات كثيرة فيما يتعلق بالدعوة للتفكير ، فعلماء النفس يقولون « أثبتت التجارب والبحوث ان هناك ارتباطا وثيقا بين الحس الفكاهي والذكاء • فكلما ارتفع الذكاء كان الاحساس بالفكاهـــة أقوى » (١) ، ومعنى ذلك ان القرآن حين يستخدم الفكاهة أو أسلوبا يتطوى على الفكاهة ، فانه ينمى فى أبنائه حدة الذكاء ودقة الملاحظة ، وسرعة الخاطر مما يتطلبه الاحساس بالفكاهة ويؤكد علماء النفس الصلة الوثيقة بين الفكاهة وحيوية الشخصية بصفة عامة فيقولون « كلمة الباحثين اجتمعت على أن الحس الفكاهي سمة هامة قيمة من سمات الشخصية » (٢) ، فهم يجمعون على أن الحس الفكاهي فضلا عن ارتباطه بالذكاء ، فانه علامة على حيوية الشخصية ونضجها وتحدد كيانها كما يفهم من التعبير ، ويعللون ارتباط الفكاهة بالذكاء وسرعة البديهة ، بأنه لولا هذا لما كان للفكاهة الأثر الذى ينتظر منها ، فيقولون « والواقع انه لولا ما تنطوى عليه الفكاهة من منطق أو ذكاء ، أو سرعة بديهة ، أو حسن تخلص ، أو براعة فى الرد ، لما كانت مثارا للضحك على الاطلاق (٣) ويزيدون معنى ارتباط الفكاهة بالذكاء تاكيدا فيقولون « من الحديث المعاد أن تقرر ان الضحك فى جانب منه عملية عقلية تقترن بالكثير من مظاهر النشاط الذهنى كالفطنة وسرعة البديهـة والسخرية والتهكم والقدرة على التلميح ، والبراعة فى الرد •• » (٤) •

ولئن كانت السخرية بانطوائها على روح الفكاهة ، وبما تؤديه من أهداف، تخدم عدة أغراض كانت حياة المسلمين القاسية الجافة فى حاجة اليها (٥) فان المعنى الذى نتحدث عنه الآن والذى يجمع على حقيقته علماء النفس ، وهو ارتباط السخرية بالذكاء ، من حاجات المجتمع التى يخدم القرآن بها أبناءه كمجتمع وكافراد •

على ان أهمية جانب الذكاء والتفكير مرتبط أشد الارتباط بالاسلام من حيث تثبيت مبادئه ونشره ، لأن الاسلام نبع فى بيئة جاهلية ، سيطرت عليها عادات موروثة ، وتقاليد طاغية السلطان ، وكانت هذه التقاليد هى الدين المسيطر على النفوس ، والعقيدة المستحوذة على القلوب ، واذا كان علماء النفس يقررون كما سبق ان السخرية نفسها من أنجع الوسائل فى تغيير العـــادات المسيطرة على المجتمعات ، فان الذكاء المقترن بالسخرية ، اعنى الذى تتطلبه السخرية ، هو نفسه أهم المتطلبات التى يحتاجها التغيير فى المجتمع ، فان علماء الاجتماع لا يختلفون فى ان سيطرة العادات على نفوس الافراد بالغة القـــوة والتحكم ، وان سيطرة العادات أقوى حتى من القانون بما يفرض من عقوبات

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٢٠٧ ، ٢٠٨ •
(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٢٠٠ •
(٣) المصدر السابق ١٧٠ •
(٤) المصدر السابق ١٨١ ، ١٨٢ •
(٥) انظر الفصل الاول من هذا البحث •

مهما اشتدت ، حيث يلاحظون ان الأفراد يخضعون لسلطان العادات مهما جرمها القانون ، او فرض لها من عقوبات وزواجر (١) وبعد تاكيداتهم الكثيرة لسيطرة العـادات ، يتساءلون عن وسائل تغييرها ، وعن السبل الكفيلة بزحزحة هـذه الصخرة العتية الراسخة فى نفوس الأفراد ، وهى العادات ، فيقررون ان التفكير بما يستلزمه من ميل للبحث ، وقدرة على الموازنة والتمييز بين قيم الأمور ، هو الطريق الأمثل لتغيير العادات ، وان الشعوب التى استطاعت النجاح فى مقاومة العادات ، هى الشعوب التى نجحت فى تنمية وسائل التفكير والبحث لدى أبنائها ، فيقول علماء النفس بعد تاكيدهم رسوخ العادات وسيطرتها « واذا استفسرنا كيف يصنع التقدم ؟ قيل بأنه يرجع الى ميل آخر ، يلاحظ فى كافة الجماعات المتقدمة ، ذلك هو الميل الى البحث والمناقشة ، وهو ميل يشجع على الابتكار ، ويحفز على استخدام الذكاء ‥ ويعود على التفكير المستقل ، وقد أثبت بيجهوت ‥ ان التقدم لم يتحقق الا فى تلك البلاد التى بكرت فى جعل المناقشة أساسا لنظام الحكم ‥ » (٢) ، ومن هنا يتضح لنا السر فى جانب مهم من دعوة الاسلام الدائبة الملحة الى استخدام التفكير ، والاعتماد على العقل ، فان الاسلام فضلا عن كونه دين عقل وتفكير ، وفضلا عن محاربته للانقياد والتبعية لذاتهما ، فانه يشير بدعوته الى العقل ، الى أنه لا يكتفى بأن يعتمد حتى أبناؤه على مجرد الايمان دون تفكير ، بل يصرح بهذا ويؤكده ، ونرى النبى صلى الله عليه وسلم يدعو أبناء الاسلام الى أن يحتكموا دائما الى تفكيرهم ، واستقلالهم الذاتى فى نظرتهم للأمور ، ومن ذلك قوله « لا يكن أحدكم امعة (٣) ، يقول أنا مع الناس ، اذا أحسن الناس أحسنت ، واذا أساءوا أسأت ، بل وطنوا أنفسكم اذا أحسن الناس أن تحسنوا ، واذا أساءوا أن تتجنبوا اساءتهم » ، فلكون الاسلام واثقا من مبادئه ، ومن موافقتها للتفكير والعقل ، يدعو الناس جميعا الى استخدام التفكير ، بما فيهم أبناؤه أنفسهم ، ولعلنا نلمح فى دعوة أبنـائه الى التفكير واستقلال النظرة الى الأمور معنى بعيد الأثر فى حياة الأمة الاسلامية ، فالاعتماد على قوة الايمان فى توجيه السلوك داخل المجتمع ، قد يكون موقوت النجاح أو محدوده ، بمعنى أن قوة الايمان وحدها ، من شأنها أن تقل حدتها بمرور الأجيال ومضى العصور ، وحتى فى العصر الواحد ، لا تتحد قوة الايمان فى نفوس الأفراد ، بل يتفاوتون فيها قوة وضعفا ، وبما ان الاسـلام دين البقاء والاستمرار ، فمن الطبعى أن يراعى فى تشريعه خفوت جذوة الايمان مع مضى العصور ، وبما انه دين استهدف تكوين الأمة ، فمن الطبعى الا يقتصر على مراعاة الأفراد أو الجماعات المحدودة ، وانما يراعى الأمة الضخمة ، التى تجمع العديد من المختلفين فى ايمانهم ، وفى قدرة هذا الايمان على توجيه السلوك

---

(١) انظر نفسية المجتمع موريس جينزبرج ترجمة عبد العزيز عبد الحق وآخر ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٤ .

(٣) الامعة : الدائم التبعية لغيره .

قوة وضعفا ، والعامل الذى لا يضعف مع الأيام ، بل لعله يزداد ، هو التفكير ، ولذلك يجعله الاسلام مؤازرا ومناصرا دائما للايمان ، بمعنى ان الاسلام حين يدعو الى العقل والتفكير ، فانه يجعله سندا لايمان الفرد ، ولن يضل انسان جعل رائديه الايمان والتفكير •

على ان من أسوأ ما بليت به الأديان السابقة للاسلام ، اعتماد أبنائها على الايمان وحده ، دون استخدام التفكير ، وقد استطاع بعض رجال الدين ، وطلاب المطامع الشخصية أن يتخذوا من هذا الباب مقودا يقودون به الأتباع الى حيث يريدون هم ، لا حيث يريد الدين ، حين جعلوا من أنفسهم قوامين على الدين ، ومتحدثين باسم الله سبحانه ، فاستطاعوا أن يخدعوا الأتباع ، وأن يضللوهم باسم الدين ، ولكن الاسلام يحاول جاهدا أن يسد هذه الثغرة ، حتى لا يتسلل منها المفسدون المضللون ، كما تسللوا في الأمم السابقة ، وذلك بأن يدعو كل فرد الى استخدام تفكيره ، وألا ينقاد مغمض العينين قط ، سواء في أمر دينه ، أو أمر دنياه •

وفوق ذلك فانه مما لاشك فيه ان الايمان المبنى على التفكير والاقتناع العقلى ، خير من ايمان التقليد والانقياد ، بل ان ايمان الاقتناع هو الايمان الصحيح الذى يعتد به ، كما يرى فلاسفة الاسلام الذين يمثلهم المعتزلة ، حيث يرون ان ايمان التقليد باطل ، ولا يعتبر الايمان الا اذا كان صادرا عن تفكير واقتناع ، ولا ريب انهم لم يخترعوا هذا الرأى اختراعا ، وانما استقوه من صلب الاسلام وتوجيهه ، ومن دعوته الدائمة الى التفكير •

والاسلام في دعوته للتفكير ، وجعله أساسا من أسس الايمان ، يسبق بذلك نظريات المعرفة لدى الفلاسفة الذين يراهم الناس اليوم مبتكرين مخترعين ، بل يرونهم مصححين للأديان ، ولتفكير المتدينين ، وان صدق هذا على غير المسلمين ، فانه لن يصدق قط على المسلمين ، لأن الاسلام سبق هؤلاء الفلاسفة بالدعوة الى المعرفة العقلية والى التفكير المنطقى ، والى التأمل العميق ، فمثلا حين تقارن نظرية سارتر فى المعرفة التى يقول فيها « فليس للشىء حقيقة ، وانما ظاهر عام يقدمه للذات العارفة ، وللانسان الذى يستشعر ما حوله ، وبذلك يصير علم الوجود وصفا لظاهر الوجود مثلما يتبدى عليه ويتشكل فيه » (١) ، واذا صرفنا النظر عن حرفية كلام سارتر الى المضمون ، فاننا نجد جوهر كلامه ينصب على الأشياء كلها فى الوجود ، فليست هى الحقائق النهائية ، وانما هى ظواهر تدعو للتفكير والتأمل لدى ذوى المعرفة ، وبالتفكير والتأمل يصل العقل الى الحقيقة النهائية ، التى يدل عليها ظاهر الأشياء ، حين نقارن جوهر هذا الكلام بالقرآن ، نجده أولا بروحه واتجاهه مما دعا اليه القرآن بقوة وتركيز ، فننظر مثلا الى قوله تعالى « ان فى خلق السموات والأرض

---

(١) الاتجاهات المعاصرة فى الفلسفة عبد الفتاح الديدى فصل الفلسفة الوجودية ١٦٥ ـ ٢٥٧ •

واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » فالآية تجعل كل ما فى الوجود من مرئيات ومدركات ليس هو الحقيقة ، بل دليلا الى الحقيقة ، فهى تدعو الى التأمل فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وهذا التأمل ليس شيئا عابرا ، أو سطحيا ، وانما هو سلسلة يتدرج التأمل فى حلقاتها حتى يبلغ الحقيقة ، هذا الكون العظيم الذى تدعو الآية الى تأمله ، وتأمل ما فيه من عجائب ، يحتوى على عجائب كثيرة ، وأمور عميقة المدلول ، كل شىء على انفراده عجيب ، ومجموع الأشياء فى تلاؤمها وفى اختلافها أيضا عجيب ، والشىء الواحد فى تفاصيله وأجزائه عجيب ، ولاشك ان هذا التأويل الذى يدعو اليه القرآن ، يؤدى بالمتأمل الى تساؤلات كثيرة لا تنتهى ، والى عجب كبير لا ينقضى والى حيرة واسعة لا تحد ، لأن موضوع التأمل وهو الكون وما فيه ، ليس كله فى متناول الحواس ، بل ولا الادراك المحدد ، بل وليس فى متناول العقل ، ولكن هذا الطوفان الشديد فى التأمل ، وهذه الحيرة الواسعة المدى خلال التأمل ، لابد أن تنتهى بالتأمل السليم الى بعض التساؤلات التى تؤدى مباشرة الى الحقيقة ، من خلق هذا الكون العجيب ؟ وما الحكمة فى خلقه ؟ وما موقفى أنا كجزء من هذا الكون ؟ وحينئذ يجد التأمل السليم نفسه أمام حقيقتين لا مفر منهما ، أولاهما خالق هذا الكون العجيب اله واحد هو الله سبحانه ، وثانيتهما ان المتأمل ليس الا مخلوقا لله عليه أن يسلك الطريق الذى رسمه له الله ، وقد تبقى فى نفس المتأمل بعض الحيرة ، وبعض التساؤلات ، بل لابد أن يبقى من ذلك الكثير ، ولكن هذا الكثير هو صلب الايمان بالاله الواحد ، حين يشعر المتأمل أنه مجرد مخلوق صغير ، فى عالم كبير عجيب ، لا يدرك كنهه ، ولا يصل عقله الا الى أيسره ، بل كلما ازدادت الحقيقتان الســـــابقتان رســــوخا فى نفس المتأمل ازدادت حيرته ، ولكنها حيرة الاكبار لله وما خلق ، وليست حيرة الشك والتردد .

فنظرية سارتر فى المعرفة اذن تقول أن كل الأشياء المدركة ليست هى الحقائق ، بل (ظاهر) يوصل تأمله والتفكير فيه الى الحقائق ، والقرآن نفسه يقرر هذه الحقيقة ، ولكن الاختلاف الشديد بينهما فى كنه هذه الحقيقة ، فبينما نجد القرآن يتدرج بالمتأمل فى التتابع المنطقى ، حتى يصل الى الحقيقة السامية التى يفهم بها وضع الكون كله ، ووضعه هو بصفته جزءا من الكون ، نجد نظرية سارتر تقف بالمتأمل عند حدود ذاته هو فحسب ، الحقيقة عند الوجوديين هى ما فيه مصلحة الفرد ، والشىء الحقيقى ما يوصل الى منفعة مباشرة ، كما يقولون « تعرف الحقيقـــة بنتائجهـــا العمليـــة .. فالحقيقى هو ما يؤدى الى النجاح .. (١) .

وفى هذا انحراف واضح بالتفكير والتأمل ، ففضلا عن ان وقوف المتأمل أو المفكر بالحقيقة عند ذاته أو مصلحته هو ، تجاهل للآخرين ، ولمصالحهم ، فان

---

(١) نظرية فى الانفعالات جان بول سارتر ترجمة سامى محمود ص ٧٧ .

اعتقاده ان الحقيقة تدور حول مصلحته الشخصية يؤدى فيما يؤدى الى تعدد الحقائق واختلافها وتضاربها ، لتعدد مصالح الناس واختلافها وتضاربها ، بحيث يمكن أن يقال حينئذ ان الحقائق متعددة ومختلفة بمقدار تعدد الناس واختلافهم ، ومن الواضح ان هذه النتيجة لا تتفق مع المنطق السليم ، بل لا تتفق مع مبدأ البحث عن الحقيقة ، وهو المبدأ الذى تقوم عليه هذه الفلسفة ، لأن الحقيقة لا تتعدد ، ولا تختلف ولا تتضارب ، فاذا كانت هذه الفلسفة قد اتفقت مع القرآن فى مبدأ البحث عن الحقيقة والدعوة اليه ، فانها قد انحرفت انحرافا شديدا قبل أن تبلغ الحقيقة .

أما الاسلام فانه يؤكد دائما دعوته الى التفكير السليم القائم على المنطق والحجة ، ومن ذلك فيما يتعلق بذات الله سبحانه « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » (١) ، فلا يكتفى بأن يقول لهم ان الله واحد ، ولكن يقول لهم فكروا بعقولكم ماذا يكون الحال بين الآلهة لو كانوا متعددين كما تزعمون ؟ الا تقارنون حالهم بحالكم حيث يطمع بعضكم فى بعض ، ويطغى بعضكم على بعض ؟

ومن ذلك أيضا « وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٢) فكون المخلوقات لابد لها من خالق ، وكون الخالق هو الله وحده ، لا ينازع فيهما عقل سليم ، وهم لا يستطيعون جحد ذلك ولو فى المحاجة والمناقشة ، والقرآن يحكى عنهم ذلك « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله .. » واذا كانوا لا يستطيعون انكار هذه الحقيقة ، أفلا يفكرون ؟ أفلا يقدرون فى أنفسهم لو سلب خالق النعم نعمه فمن الذى يأتى بنعم لا يستطيعها الا خالق الكون ؟ والقرآن يسوق لهم هذه الدعوة الى التفكير فى صيغة أسئلة ، تحتاج الى ترو وتفكير ، وتحتاج الى أجوبة ، كل ذلك ليحملهم على التفكير واستخدام العقول « من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ » وكذلك « من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ » ، فمجرد وضعهم أمام أسئلة ، تحتاج الى التفكير ، وتضطرهم الى استخدام العقول ، ليجدوا لها جوابا ، حفز واضح الى تحكيم العقول ، ودعوة صريحة الى التفكير والمعرفة .

---

(١) الآية ٩١ سورة المؤمنون .
(٢) الآيات ٧٠ ــ ٧٣ سورة القصص .

والسخرية فى القرآن الكريم تخدم جانب العقل والتفكير من ناحيتين ، احداهما ان مجرد استعمال القرآن لأسلوب السخرية ، يحفز الى التفكير ، وينمى جانب الذكاء ودقة الملاحظة كما يؤكد ذلك علماء النفس ، والأخرى ان سخرية القرآن نفسها ليست مجرد فكاهة ، ولا أسلوب مرح ، وانما هى صور عقلية تحمل العقل حملا على التفكير والتدبر ، وما من صورة أو نموذج من نماذج سخرية القرآن الا ويتجلى فيه هـذا الطابع ، طابع فتح المناقشة ، واستعمال التفكير ، وتحكيم العقول ، وذلك واضح فيما سبق من أمثلة السخرية ، بل اننا نجد الدعوة الى التفكير بارزة فى السخرية أحيانا ، حتى كان عدم التفكير وحده هو الذنب الذى يودى باصحابه ، ويدفعهم الى عذاب السعير ، فهذا مثـل من أمثلة سخرية القرآن ، نرى فيه صـورة لجهنم وهى صاخبة ساخطة ، تكاد تتمزق من شدة الغيظ والحقد على الكافرين ، وهى تئز من شـدة الغليان ، وشهيقها وزفيرها يمزق آذان الكافرين وهم مدفوعون اليها ، وصـــورة الكافرين يلقون فيها على أفواج القاء ، كما يقذف بحزم الحطب الى النار حزمة فحزمة ، وفى أثناء القاء كل فوج الى جهنم ، يدور حوار طريف بين خزنة جهنم وهذا الفوج ، يسألهم الخزنة : ألم يأتكم نذير ؟ والسؤال نفسه سخرية « وتوبيخ يزدادون به عذابا الى عذابهم ، وحسرة الى حسرتهم » (١) ، فان الخزنة يعلمون حق العلم ان قد جاءهم نذيـــر فكذبوه ، ولكنهم يسخرون منهم ، ويجيب الكافرون بأنهم لا ينكرون انهم جاءهم النذير ، ولا ينكرون انهم كذبوا النذر ، بل يقررون انهم ادعو انهم على حق ، وان النذر هم المبطلون الذين يخوضون فى الضلال الكبير ، ثم تأتى الحقيقة التى تنطقها ألسنتهم ، والتى ترتكز عليها السخرية ، وتتركز فيها دعوة الاسلام الى التفكير والمعرفة ، وحكمه على تركهما بأنه جريمة وذنب عظيم « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصـــحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » ومن الواضح انهم فى ندمهم هذا الشديد الذى يبدونه لا يقصدون نفى حاسة السمع ، أو نفى وجود العقل فيهم ، وانما يقصدون (لو كنا نسمع الانذار سماع طالبين للحق ، أو نعقله عقل متأملين) (٢) ، وذلك فى قوله تعالى « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ كلما القى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الا فى ضلال كبير ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » (٣) ، فالذنب الذى اعترفوا به ، والذى استحقوا من أجله جهنم ، وان كان فى حقيقته هو الكفر ، الا أن القرآن يقرنه بسبب الكفر ،

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى ٤/ ٤٦٣ .
(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى ٤/٤٦٣ .
(٣) الآيات ٦ ـ ١١ سورة الملك .

وهو عدم استخدامهم للعقول ، فكان عدم تفكيرهم واستخدامهم عقولهم هـو الذنب العظيم الذى أودى بهم ، وليس بعد هذه الدعوة دعوة الى التفكير والمعرفة .

واذا كانت الصورة السابقة تنعى عدم التفكير على الجماعات ، كصور ومعان كثيرة أخرى تهدف الى هذا الهدف ، فهناك أمثلة كثيرة أخرى تحدد النعى على الأفراد فى عدم استخدامهم العقول ، ومن ذلك هذا النعى الشديد الذى تصبه هذه الصورة على أحد المشركين ، مصورة أنه تاجر ، وان تجارته شراء الضلال أو وسيلة الضلال ، ليضل به الناس ويصرفهم عن الحق والهدى ، وقد حكم الله عليه بالعذاب المهين ، مبينا موقف هذا الشخص من الدين ، وهو أنه لا يحاول أن يتأمل ، ولا أن يتدبر ، ولا أن يفكر ، وانما يســـمع وكأنه أصم ، لكونه لا يستخدم تفكيره ، ولئن كان المفسرون يقولون ان المعنى بهذا النعى هو النضر ابن الحارث ، لأنه كان يشترى كتب الأعاجم وأحاديثهم ليشغل بها الناس عن الاتجاه الى الاسلام ، فان القرآن حين يقرر معنى أو يصدر حكما ، فانه وان عنى به حادثة معينة اقترن بها نزول هذا المعنى أو الحكم ، الا ان هذا المعنى أو الحكم يكون عاما ينطبق على كل حالة مشابهة ، فى قوله تعالى « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ، واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » (١) ولنتأمل تركيز ابراز موضع التفكير والمعرفة والدعوة اليهما فى قوله سبحانه « بغير علم » وقوله « كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا » .

---

(١) الآيتان ٦ ، ٧ سورة لقمان .

السخرية والبيئة

« مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا »

لاشك ان القرآن الكريم غير كونه نورا للهداية ، ونبراسا للاصلاح الديني والاجتماعي ، له اعتبارات أخرى كثيرة ينظر اليه من خلالها ، ومن هذه الاعتبارات كونه القمة العليا في ميدان الأدب .

ومن خصائص الأدب أنه يعبر عن البيئة التي نشأ فيها ، بحيث يشعر قارىء أى أدب بالجو العام لبيئة هذا الأدب ، والظروف المحيطة به في مهده ، والقرآن الكريم من زاويته الأدبية يعتبر أبلغ معبر عن الجو العربي الذي كان مهبط القرآن ومشرقه ، وليس لهذا المعنى صلة بالمحلية ، فليس معنى كون القرآن معبرا عن البيئة العربية انه محلي أو مرتبط بمكان معين ، وهذا المعنى لا يصدق أيضا على أى أدب ، بدليل أننا نجد آدابا عالمية ، يقرأها العالم كله في أمكنة وأزمنة مختلفة ، ويجدون فيها المتعة الأدبية ويحسون فيها الذوق الفني ، مع انها بطبيعة الحال نشأت في مكان معين ، وزمان معين من العالم ، وهما بطبيعة الحال أيضا يختلفان عن غيرهما من الأمكنة والأزمنة ، فلا تعارض في أى أدب بين أن يحمل طابعا محليا ، وبين أن يكون انسانيا عاما ، وأولى ما يكون هذا المعنى انطباقا على القرآن الكريم ، فانه لا يتخذ من البيئة موضوعا أو غرضا مقصودا لذاته ، كما نجـــد في كثير من أنواع الأدب ، التي تنصب بعض موضوعاتها على البيئة ذاتها ، كوصف معين ، أو حالة معينة ترتبط بمكان خاص أو كبعض القصص التي ترتبط أحداثها بأشخاص وأمكنة معينة ، أما القرآن فانه وان برزت فيه البيئة واضحة ، الا أنه لا يتخذها غرضا مقصودا ، وانما تأتي خلال هدف عام ، أو سياق هادف .

ومع كون القرآن لم يتخذ من البيئة العربية غرضا مقصودا الا اننا نجده أصدق وأبلغ في تصوير الحياة العربية والبيئة العربية من اى أدب أخرجته البيئة العربية نفسها كما يقرر الدكتور طه حسين بعد دراسته للأدب العربي الجاهلي ،

أن الشعر الجاهلي كله لم يصور الحياة الجاهلية وانما صورها القرآن الكريم حيث يقول « فالحياة الجاهلية يجب أن تلتمس في القرآن لا في الأدب الجاهلي » (١) .

وفي سياق الحديث عن السخرية ، وهي بالطبع مجرد جانب من القرآن الكريم ، نجد ان سخرية القرآن قد استوعبت كل مظاهر البيئة العربية ، بحيث يرى المتأمل فيها كل المعالم العامة للبيئة والحياة العربية ، وبحيث يشعر أنه يعيش في هذه البيئة ، يحس مناخها ، ويرى أرضها وطبيعتها ، ويتمثل عادات أهلها وأسلوب حياتهم .

ويمكن أن نضرب أمثلة للبيئة العربية وحياتها في سخرية القرآن بحيث تشمل أهم نواحي البيئه فيما يلي :

١ ـ الأرض وطبيعتها :

من المعلوم ان الجزيرة العربية التي كانت مهبط القـــرآن الكريم بيئة صحراوية أهم ما يبرز فيها أرضها الصخرية الصلبة ، وجبالها المتشـــابكة الشامخة ، وصحراواتها الفسيحة الشاسعة ، ليس فيها خصب في الأرض ، ولا وفرة في الماء ، وكل ما يمكن أن تستند اليه الحياة فيها تلك العيون الصغيرة التي تتفجر من بين الصخور ، فتأوي اليها الحياة ، وتتحول ساحتها الى عمران ومجتمع بعد ان كانت صحراء جدباء ، ومن مرئيات هذه البيئة تلك الأشجار التي تنبتها مياه الأمطار والسيول ، فتعتمد عليها حياة الرعي في الصحراء ، ومن طبيعة الأرض الصحراوية كما هو معروف أن يكون مناخها متطرفا في برده وفي حره معا ، شديد الحرارة في الصيف ، شديد البرودة في الشتاء ، وينطبق هذا على الليل والنهار ، فبينما يشتد الحر في النهار ، يشتد كذلك البرد في الليل .

وتتراءى لنا طبيعة الأرض العربية واضحة خلال سخرية القرآن ، فمن ذلك هذه السخرية الشديدة التهكم بالمتكبر المختال ، الذي ترسمه سخرية القرآن رسما (كاريكاتيريا) مضحكا بأنه يمشي مشية عجيبة غريبة ، لا كما يمشي الناس ، ولا كما يوجب التفكير والخلق الصحيح أن تكون المشية ، فهو يضرب الأرض بقدميه كأنه يريد أن يخرقها ، ويشمخ بأنفه ووجهه الى السماء كأنه يريد أن يطاول الجبال في ارتفاعها ، ولكن سخرية القرآن تقول له « ولا تمش في الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » والسخرية الشديدة واضحة في قوله تعالى « انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » فمن البديهي أن أحدا لا يظن أنه سيخرق الأرض مهما تكن مشيته ، وأن أحدا لا يظن أنه سيبلغ بقامته رءوس الجبال مهما مد

---

(١) في الأدب الجاهلي دكتور طه حسين ٣٣٢ .

عنقه ، ومهما شمخ بأنفه ، ومهما تطاول بقامته ورأسه ، ولكنه كما يقول الزمخشري « تهكم بالمختال » (١) ، وكما يقول ابن المنير « وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية في الانزجار عنها » (٢) ، ولو استطاع رسام ساخر أن يرسم هذا المنظر ، منظر شخص يمشي مشية غريبة ، يحاول فيها ان يخرق الأرض بضرب قدميه اياها ، وأن يطاول جبالا حوله بشموخ أنفه ومده قامته لكان من أبلغ الرسوم ، على اننا نلاحظ دقة التعبير في قوله تعالى « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » فقيد موضع السيئة بجانب الله سبحانه ، بينما أطلق الكراهة ، اشارة الى أن هذه المشية ، وما تدل عليه من خلق صاحبها ، ذنب عند الله ، وفوق ذلك هي مشية مكروهة من الله ومن الناس ، لأن الناس لا يحبون المتعالى عليهم ، وحتى ان اظهروا له طاعة أو تقربا ، فان قلوبهم لا تضمر له الا البغض والكراهيه ، والذى يعنى الموضوع من هذه السخرية ما يوحى به قوله تعالى « انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » فقد تضمن هذا التعبير ان هذا الشخص المختال في مشيته ، حوله جبال يحاول ان يطاولها ، ومعنى ذلك انه يمشي في بيئة تنتشر فيها الجبال ، وهو واقع البيئة العربية ، فانها بيئة جبلية ، وكذلك التأكيد لهذا الماشي المختال بانه لن يخرق الأرض ، فانه وان كان معلوما ان المشى لن يخرق اى أرض ، الا أن التعبير يوحى ضمنا بصلابة الأرض التى يمشى عليها هذا المختال ، لأن المبالغة التى تقتضيها السخرية انما تتحقق اذا تصورنا أن الأرض التى يمشى عليها صلبة جدا لا يخرقها المشى ، ولا ما هو أقوى من المشى ، بخلاف ما لو تصورنا انها أرض رخوة لينة ، فان المبالغة تفقد جانبا كبيرا من وقعها فى النفس ، وبهذا توضح لنا هذه السخرية طبيعة الأرض التى يعيش فيها العربي ، وهى الأرض الصخرية الصلبة ، والجبال المنتشرة فيها •

ومن طبيعة هذه الأرض الصحراوية ندرة الماء فيها ، ومن أكبر مشاكل التنقل والسفر فيها مسيس الحاجة الى الماء ، وفى الصحراء حين تشتد حرارة الشمس فى وقعها على الرمال تحدث انعكاسات ضوئية ، فتعكس الرمال وهج الشمس فى صورة تموجات ضوئية مما يسمى بالسراب ، حيث يرى الناظر الى الصحراء حينئذ هذه التموجات الضوئية وكأنها مياه بحر واسع ، وفى حالة المسافر أو الضال الذى فقد الماء ، فانه يتصور ان أمامه بحرا حقيقيا ، فيظل يمشى اليه ، معتقدا انه سيبلغه ، ولكن المسافة بينه وبين البحر الذى يتصوره تظل ثابتة مهما مشى ، وهكذا يمشى حتى يسقط من الكلل والجهد الذى لا طائل تحته ، وهذه الصورة عن السراب مألوفة للعرب بحكم معيشتهم فى الصحراء وخبرتهم بها ، ولذلك ساقها القرآن لهم فى سياق سخريته من الكافرين بالله ، الذين يخدعون أنفسهم ، ويخدعون الناس ، بما يقدمونه من أعمال توحى بالخير ،

---

(١) تفسير الكشاف ٢/ ٥٢١ فى تفسير الآيتين السابقتين ٣٧، ٣٨ سورة الاسراء •

(٢) الانتصاف للامام أحمد بن المنير الاسكندرى حاشية الكشاف للزمخشرى ٢/ ٥٢١ •

ويأنها من أعمال الصالحين ، ولكن القرآن يقول لهم ان الأعمال مهما تكن سيئة أو حسنة ، فانها فى المرتبة الثانية بعد العقيدة ، فالعقيدة هى الأساس الذى يحاسب عليه الانسان أولا ، فان تحققت فيه صفة الايمان بالله ، فله بعد ذلك أن ينتظر ثواب عمله ، أما ان انتفت عنه صفة الايمان ، فلن ينفعه بعد ذلك شىء ، ويكون مثله فى انتظاره ثواب أعماله ، وانتفاعه بها عند الله ، مثل المسافر الذى فقد الماء ، ثم راى السراب فحسبه ماء ، فيظل يطلبه ويسعى اليه حتى يدركه الهلاك ، دون أن يصل الى شىء ، كذلك هذا الذى ينتظر ثواب عمله مع كفره ، يظل يمنى نفسه بهذا الوهم حتى يصطدم بجهنم « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » (١) ، وتعبير (وجد الله عنده) سخرية بهذا الكافر يتضمن الوعيد الشديد ، فانه من الواضح ان الله سبحانه لا يوجد عند شىء معين ، ولا فى مكان معين ، بل ولن يلقاه هذا الكافر ، ولكنه التصوير الساخر المتهكم المتوعد ، وكذلك تعبير (وفاه حسابه) فيه سخرية بالكافر ، لأن التوفية تنصرف فى الذهن الى الخير ، فكان ظاهر التعبير يوحى بأن الله سيعطيه خيرا كثيرا هو حق له ، وليس الأمر كذلك بداهة ، ولكنها السخرية التى تصب على أعداء القرآن .

ولكن الصورة بعد هذا كله تبدى لنا ظاهرة من ظواهر طبيعة البيئة العربية الصحراوية وهى ظاهرة السراب ، ولكنها ظاهرة مالوفة معروفة لدى العرب ضربها القرآن مثلا لهم .

ومن مظاهر البيئة وطبيعتها فى شبه الجزيرة العربية ، عدم وجود الأنهار ، وحيث انها أرض صحراوية جبلية ، فالماء فيها لا يكون الا من الآبار التى تشق فى الصخور ، وأحيانا تخرج عيون الماء من هذه الصخور أيضا ، فالماء فى كل حال يخرج من الحجارة ، ولذلك ضرب الله سبحانه هذا المظهر من مظاهر البيئة مثلا لقلوب طائفة من الناس هم اليهـود ، بأن قلوبهم قاسية لا تحمل الرحمـة ، ولا تعرف اللين والرأفة ، ولكن المثل مضروب للعرب ، ولذلك اختير المثل من بيئتهم ، فحين أراد القرآن أن يعبر للعرب عن ان قلوب هؤلاء بلغت من القسوة حدا كبيرا ، حتى كأنها الحجارة ، ثم يوازن المثل بين قلوبهم والحجارة ، فيبين ان الحجارة ارق من هذه القلوب ، لأن الحجارة يتفجر منها أحيانا ماء رقيق عذب ، وتتشقق أحيانا عن الماء السلسبيل ، ولكن قلوب هؤلاء لا تنفجر عن رحمة ، ولا تنشق عن لين أو شفقة .

وظاهرة أخرى من ظواهر البيئة يشير اليها هذا المثل وهى ما يعرفه علماء (الجغرافيا) بظاهرة (التحات والتعرية) حيث تتآكل بعض الصخور من توالى

---

(١) الآية ٣٩ سورة النور .

تزول الأمطار ومرور الرياح عليها ، فيتفتت سطحها ، ولا يزال يتآكل بمضي الزمن ، فقد يتآكل مثلا جانب أو قمة من جبل ، ولكن تبقى بعض الصخور لصلابتها غير قابلة للتآكل أو يكون تآكلها بطيئا ، فيتفتت ما حولها ، وتبقى هي حتى تفقد اتصالها بما حولها فتسقط ، فسقوط بعض الصخور ، أو بعض القمم من الجبال منظر معروف لدى سكان البيئات الجبلية ، ولذلك جعله القرآن مثلا ضربه لهم في سياق حديثه عن قسوة قلوب اليهود ، ومقارنتها بالحجارة ، حيث ان الحجارة أحيانا تتداعى وتسقط ، ولكن قلوب هؤلاء صامدة في قسوتها لا تتداعى ولا تلين ، ولا تتحرك عن حالتها ، فيقول القرآن الكريم « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منها الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط (١) من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » (٢) .

والعربي الذي يعيش في الصحراء ، لا تخلو حياته من التعرض للعطش والحاجة الى الماء ، فهو أعلم الناس بقيمة الماء ، وأكثرهم احساسا بشدة الحاجة اليه ، لأنه من أكثرهم معرفة لخطورة العطش وألمه الشديد ، والقرآن يجعل في سخريته هذا المعنى مثلا يضربه لهم ، فالذين يعبدون الها غير الله سبحانه ، مثلهم كمثل شخص شديد العطش ، فوجد الماء الذي يمكن أن يروي ظمأه ، وكان المعقول أن يسعى الى الماء فيتناول منه ويشرب ، ولكنه لسفهه وحمقه بسط يديه الى الماء ، وطلب من الماء أن يأتيه حتى يدخل فاه ، وظل ينتظر من الماء أن يسعى اليه ، وأن يقبل اليه حتى يدخل فاه ، ومن المحقق ان الماء لن يسعى ولن يقبل ، ولكن حمق هذا الظمآن وسفهه جعلاه يصر على أن ينتظر حتى يأتي الماء اليه ، كذلك الذين يدعون آلهة غير الله ، لن يجدوا لدعائهم مجيبا ، لأنه لا اله الا الله « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال » (٣) ، ومن الواضح انه لا يتصور أن يصدر من عاقل أن يبسط كفيه الى الماء ثم ينتظر أن يأتي الماء اليه ، ولكنها المبالغة التي تقتضيها السخرية من عقول هؤلاء الذين ينتظرون ان تستجيب لهم الأحجار والنصب التي يتخذونها آلهة من دون الله .

ومن ظواهر الصحراء التي يألفها العربي ، هبوب الرياح العاتية ، والعواصف الشديدة ، التي تقتلع الخيام ، وتزحزح الأشياء ، والتي تبلغ من شدتها أحيانا انها تعوق الحركة ، وتشل نشاط الحياة ، وتصل في كثير من الأحيان الى التدمير والاتلاف ، وهذا المنظر لكونه مألوفا لدى العربي في الصحراء ، يضربه له القرآن مثلا كمثل السراب ، للذين يكفرون بالله ، ثم يعتقدون ان ما يعملون

---

(١) يقول الزمخشري : يهبط أي يتردى من أعلى الجبل . تفسير الكشاف ١١٦/١ .
(٢) الآية ٧٤ سورة البقرة .
(٣) الآية ١٤ سورة الرعد .

من أعمال توحي بالخير تنفعهم عند الله والحقيقة أنهم بعد الكفر لن ينفعهم شيء قط ، وانهم مهما عملوا من أعمال ظاهرها الخير ، فان أعمالهم هذه أشبه بكومة من رماد خلفته النار ، ثم اجتاحت هذا الرماد رياح عاصفة عاتية ، فلا شك ان هذه الرياح والعواصف ستذرو الرماد مهما كثر في كل وجه ، وتفرقه في كل أفق ، فكذلك أعمال الكافرين بدد ضائع ما داموا لم يهتدوا الى منبع الخير وهو الايمان « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشـــتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » (١) ، ولئن كان المعنيان في هذا المثل ومثل السراب واحدا ، وهو عدم انتفاع اى انسان بعمل من الأعمال ما دام غير مؤمن ، الا أن الاسلوب في المثلين ، أوضح لنا ظاهرتين من ظواهر الصحراء ، وهما السراب ، والعواصف والرياح .

ومن مظاهر طبيعة البيئة العربية السحاب والغمام ، وأهمية السحب في البيئة العربية ليست لذاتها ، أعني انها ليست مجرد منظر مألوف من مناظر البيئة ، بل أهميتها من حيث ان آمال الناس وحياتهم في البيئة مرتبطة بها ، لعدم وجـود المـاء الكافي للحياة ، فالنبات والزراعة والمراعي في البيئة تعتمد اعتمادا كاملا على نزول المطر ، فاذا انقطع لفترة طويلة تعرضت الحيـاة كلها للخطر ، ولذلك ترتبط آمال الناس بالمطر ، وتظل عيونهم وقلوبهم مترقبة ظهور السحاب الذي يرجى منه المطر ، وتعلق عيونهم وامالهم برؤية السحاب ، يجعل للسحاب في نفوسهم وقعا وتأثيرا لا يحس به من يعيش في بيئة أخرى ، ومن هذه الزاوية تأتيهم سخرية القرآن ، في توعدهم بالعذاب ان أصروا على الكفر وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيتجاهلهم القرآن في الخطاب ، ويتحدث عنهم متسائلا متعجبا ، كيف يستخفون بوعيد الله لهم بالعذاب ؟ ان الله سبحانه لديه كل الوسائل لتنفيذ الوعيد ، ومن الممكن أن يأتيهم العذاب من أي جهة ، حتى من الجهة التي ينتظرون منها الرحمة والخير وهي السحاب ، فمن الممكن أن يحول الله السحاب الى عذاب يفاجئهم في الوقت الذي ينتظرون فيه المطر الذي تتعلق به حياتهم وآمالهم « هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمـام والملائكة وقضي الأمر والى الله ترجع الأمور » (٢) والمراد بإتيان الله اتيان عذابه ، أي من الممكن أن يأتيهم عذاب الله ولو من الغمام الذي ينتظرون منه الخير كأن يتحول الى صاعقة أو نحوا من الأخطار التي تنجم عن السحب والأمطار ، وكان يمكن أن يقال هل ينظرون الا أن يأتيهم عذاب الله ، ولكن التهويل الذي يتضمن زيادة الارهاب والتخويف بأن يكون الله سبحانه هو نفسه الذي يأتيهم ، يبلغ بالوعيد أقصى ما يراد منه ، ونستفيد من هذه الصورة مظهرا من مظاهر طبيعة

---

(١) الآية ١٨ سورة ابراهيم وفي سورة القمر (انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) .
(٢) الآية ٢١٠ سورة البقرة .

البيئة والحياة فيها ، وهو تعلق نفوس أهل هذه البيئة وآمالهم بالسحاب لكونه مقدمة للمطر ·

وكذلك نجد طبيعة البيئة فيما يتعلق بما يعرف بالمناخ القاري الذي يتميز بشدة البرودة وشدة الحرارة ، حيث رأينا فيما سبق تصوير السخرية للحر الشديد في جهنم وفي صورة السراب الناتج عن شدة حرارة الشمس المنصبة على الرمال ، وكذلك كان من أنواع العذاب في جهنم البرد الشديد المعبر عنه بالزمهرير ، وذلك ليسيطر على نفس الكافر الشعور بالعذاب وقسوته وآلامه في كل أوقاته ، فان كان في حر شديد فليمتثل في نفسه كيف يكون حاله في حر جهنم ، وان كان في برد فليتمثل أيضا كيف يكون في زمهرير جهنم ·

ومن لوازم الحر الشديد العطش ، ومن الطبيعي أن يكون العطش في بيئة شديدة الحرارة نادرة الماء من المشاكل البارزة التي يكثر التعرض لها ، ولا يكاد يخلو انسان من معاناتها ، ولذلك نجد أغلب أحاديث القرآن الكريم عن جهنم يتضمن وصفا واضحا لشدة العطش فيها ، ولفظاعة الماء الحميم الذي يسقاه أهل جهنم فيقطع أمعاءهم ·

٢ ــ حيوانات البيئة :

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر كثير من حيوانات البيئة التي تحتل موضعا بارزا في حياة أهلها اما من الناحية المعيشية كالنحل (١) ، الذي تعتمد عليه حياة كثير من أهل البيئة في اقتصادهم حيث يغل عليهم من العسل ما يمكن أن يعيشوا عليه في الاكل أو في البيع ، وكالنمل الذي ينتشر في كثير من البيئات فيكون مصدر قلق لأهلها فيما يتلفه من متاعهم ومساكنهم ، وأما من ناحية العادات كالغراب (٣) ، الذي كانوا يتشاءمون منه ، ويعتبرون صــــوته نذير الفراق والبين ، وأما من نواحي أخرى وحين نتحدث عما ورد في سخرية القرآن من ذكر للحيوان ، لا نعني استقصاء كل ما ورد ذكره من ذلك ، فان كثيرا من الحيوانات يعتبر وجوده مشتركا ، بين البيئات ، ويمكن أن يوجد في كل مكان ، ولكننا في سياق الحديث عن بيئة معينة هي البيئة العربية ، نريد أن نضرب أمثلة لكون سخرية القرآن أوضحت لنا معالم البيئة العربية ، هذه المعالم التي تميز هذه البيئة وتعتبر طابعا لها ، لا تشترك معها فيه كل البيئات ، ومن هذه المعالم فيما يتعلق بحيوان البيئة ، اننا نجد سخرية القرآن قد أوضحت لنا

---

(١) الآيتان ٦٨ ، ٦٩ سورة النحل ·
(٢) الآيتان ١٨ ، ١٩ سورة النمل ·
(٣) الآية ٣١ سورة المائدة ·

صورا عن كثير من الحيوانات الملازمة للبيئة العربية ، والتى لها تأثير فى حياة أهلها ·

ومن هذه الحيوانات الابل ، فالعرب بحكم معيشتهم فى بيئة صحراوية ، يعتمدون على الابل فى أهم شئون حياتهم ، فى السفر ، وفى التنقل وفى حمل المتاع ، حتى ان الناقة لتعد جزءا أساسيا من حياة البدوى ، ولا يعتبر ذا مال من يملك ناقة ، لأنه لا يمكنه الاستغناء عنها ، ولا تستقيم له الحياة اذا فقدها ، والذى يمتاز به العرب بحكم ملازمتهم للابل ، واعتمادهم عليها ، واهتمامهم الشديد بشئونها ، انهم يملكون الخبرة الكاملة فى كل ما يتعلق بالابل ، فيعرفون أنواعها ، وطبيعة كل نوع ومزاياه ، ويعرفون حيـــــاتها ولوازمها وخصائصها ، فى المأكل والمشرب والقدرة على التحمل ، والصبر على العطش ، ويعرفون امراضها ، وطبيعة كل مرض وأعراضـــه وآثاره وطريقـة علاجـه ، بل وطرق الوقاية منه فى كثير من الأحيان ، كمعرفتهم للعدوى الشديدة فى مرض الجرب الخاص بالابل ، حتى ان مبرك الجمل الأجرب يمكن أن يعـــدى الصحيح ، كما يقول شاعرهم :

··· وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب

ولهم فى الابل وما يتعلق بها كتب خاصة ، ولأهمية الابل الشديدة فى حياتهم تكاد لا تجد شاعرا منهم لم يتحدث كثيرا عن ناقته ·

وسخرية القرآن قد أشارت الى خبرتهم القوية فى أمراض الابل ، هذه الخبرة التى تعتبر من خصائصهم بحكم البيئة ، ومن ذلك الحديث عن احد هـــذه الأمراض ، وهو الهيام ، فالهيام كما يعرفه العرب مرض يصيب الابل ، فيظما الجمل أو الناقة المصاب بهذا الداء ، فلا يروى من الماء مهما شرب ، يقـــــول ذو الرمة :

وقد زودت مى عـلى النأى قبلة علاقات حاجـــــات طويل سقامها
فاصبحت كالهيماء لا المـــــاء مبرد صداها ولا يقضى عليها هيامها (١)

فذو الرمة يعرف كما يعرف غيره ان الهيام يجعل الناقة فى حالين، أحدهما أن الماء لا يرويها مهما شربت ، والثانى ان الهيام غير قاتل لها ، بل تعيش به الناقة أمدا طويلا ، وسخرية القرآن تجعل هذين الوصفين منطبقين على أهل جهنم ، تشبيها لهم بالابل الهيم ، وتأكيدا للتشبيه تجعلهم يأكلون فى النار من الشجر ، كما تأكل الابل من الشجر ، ولكن شجر جهنم يختلف عن شجر الدنيا ، وهم

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى والانتصاف لابن المنير الاسكندرى ٤/٣٦٩ تفسير سورة الواقعة والنأى الرحيل والشطر الأول يعنى أن مى زودته قبلة عند الرحيل والشطر الثانى يعنى ان هذه القبلة جعلته يتطلع الى وصال عسير المنال ·

أيضا ياكلون من هذا الشجر الشنيع فيملاون بطونهم كما تأكل الابل من شجر المرعى فعملا بطونها ، وحين تمتلىء بطونهم من شجر النار ، يحتاجون الى ماء كثير ليطفئوا تاجج النار فى احشائهم ، كما تحتاج الناقة الهيماء أو الجمـــل الأهيم الى ماء كثير ، ولكنهم يشربون من ماء حميم ، هو نار أيضا ، ويظلون يشربون فلا يرتوون ، كما لا ترتوى الهيم « ثم انكم ايها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين » (١) ٠

ومن الأمراض الخاصة بالابل كما يعرفها العرب ، مرض الصعر ، وهو داء يصيب البعير فيلوى عنقه ، فيمشى الجمل معوج العنق ، وقد سخر القرآن بهذا المرض من الذين يتكبرون ويختالون على الناس فى مشيتهم ، فيصطنعون التعالى على الناس بل أعناقهم وشموخ انوفهم ، والاعراض باشداقهم ، فحولت سخرية القرآن مظهرهم هذا كله من دليل على التعاظم والتعالى الى مرض ، هو معروف لديهم ، وهو صعر الابل « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور » (٢) ٠

فقد اظهرتنا السخريتان السابقتان اذن لا على مجرد وجود حيوان تعتمد عليه البيئة فى حياتها ، وهو البعير ، وانما على أن هذا الحيـــوان من الاهمية والتمكن فى حياة العرب ، بحيث يعرفون عنه كل شىء ، ويلمون بكل أحواله ، بحكم ملازمتهم له ، واهتمامهم به ٠

وهناك من الحيوانات الأليفة التى يعتمد عليها جانب كبير من معيشة البيئة فى التنقل القريب ، وحمل المتاع ، وهو الحمار ، ولكن الحمار حيوان مستحقر عند العرب ، يضربون به المثل فى الغباء ، ويجعلون التشبيه به غاية فى الذم والاهانة ، حتى انهم ليكنون عنه بالطويل الأذنين ، نفورا من ذكر اسمه ، ومن العرب من يستنكف ركوبه ، ويؤثر المشى بقدميه على أن يركبه مهما بلغت منه مشقة المشى ، وصوته مضرب المثل ايضا عندهم فى القبح والذم به (٣) ، وقد استغلت سخرية القرآن هـــذه الصـــورة القبيحة فى أذهان العرب عن صـــوت الحمار ، لتنفر بها الناس من أولئك المتجبرين الطاغين ، الذين يستخدمون جهور أصواتهم فى ارهاب الناس والسيطرة عليهم ، بان جعلت أصواتهم هذه العالية المدوية ، ليست دليل قوة ولا جبروت ، وانما هى نهاق حمير ، والموازنة بين وصف أصواتهم بهذا ، وبين الصورة المرتسمة فى ذهن العرب عن صـــوت الحمار ، تجعل كل جهير الصوت يخجل من صوته فضلا عن أن يستخدمه فى الارهاب والتخويف ، وسخرية القرآن تسوق ذلك فى مقام سرد آداب اجتماعية

---

(١) الآيات ٥١ ـ ٥٦ سورة الواقعة ٠
(٢) الآية ١٨ سورة لقمان ٠
(٣) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٣/ ٣٩٤ ٠

وخلقية منها » واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير » (١) ومن العمد الى زيادة التقبيح والتنفير من رفع الصوت أن يتجاهل التشبيه بصوت الحمير ، وتجعل هذه الأصوات المنهى عنها هى فعلا أصـــوات حمـــير ٠

ولئن كان الحمـــار فى أذهان العرب من النكر والقبح بهـــذه الدرجـــة ، والتشبيه به يبلغ أقصى ما يراد من اهانة وتحقير ، فان الحمار اذا كان ذا عاهة يكون أشد قبحا ، وأكثر تنفيرا ، والتشبيه به وهو معيب الجسم أكثر اهانة ، وأبلغ تقبيحا ، وقد عمدت سخرية القرآن الى الاشارة الى تشبيه بعض أعدائه بهذا الوضع البالغ النكر ، فقد كان بعض أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ممن خفت أحلامهم ، وسفهت ألسنتهم يعيرونه بأنه لا ولد له يعقبه ، وانه بموته ينقطع ذكره وتنتهى سيرته ، ويقولون انه أبتر لا عقب له ، ولكن سخرية القرآن تأخذ هذا الوصف وتقرنه بوصف آخر شنيع فى أذهان العرب حين يشبه به ، وهو الحمار المقطوع الذنب ، فانه يسمى الأبتر ، فقد صور القرآن أن هذا العدو الذى يتحدث عن الرسول هذا الحديث ، هو الأبتر ، وظاهره أنه هو الأبتر الذى لا عقب له (٢) ، ولكن هدف التعبير منصب على تشبيه هذا الأحمق الذى يتحدث عن الرسول بذلك ، تشبيهه فى غبائه وتفاهة تفكيره بالحمار ، بل بأقبح حمار وهو الأبتر المقطوع الذنب « ان شانئك هو الأبتر » (٣) ٠

ومن الحيوانات الأليفة ذات الأهمية البارزة فى حياة العرب ، الكلب ، فهو أنفع حارس يعتمد عليه فى الليل ، وحياتهم الدائمة المخاطر ، التى يتعرضون فيها كل حين للسطو والغارة من الانسان والوحوش ، أحوج ما تكون الى يقظة الكلب ، وحاسته القوية فى شم كل غريب ، فيتنبهون من نباحه الى ما يحيط بهم من خطر ، ولذلك يكاد الكلب يكون من لوازم البدوى فى الصحراء ، وكذلك للكلاب فى الصحراء أهمية كبيرة فى الصيد ، فالصائدون يعتمدون على كلابهم فى ملاحقة حيوان الصيد ، وبهذه الأهمية يكون للكلب موضع بين فى حياة البدو ، ولكن الكلب على أهميته هذه لا يعرف له العرب الا فضيلة واحدة هى الوفاء لصاحبه ، بحيث لا يتنكر ولا ينسى الصحبة مهما طال عليها الأمد ، أما فيما عدا ذلك فهو خسيس عندهم فى كل صفاته ، ملازم الدناءة والحقارة ، ولذلك لم تشفع له فضيلته تلك ، فلم ترفع من شأنه بين الحيوانات الأخرى الأليفة ، بل طغت خسائسه على فضيلته فأصبح مضرب المثل عندهم فى الخسة والدناءة ، وسخرية القرآن تستغل معرفة العرب للكلب وتحقيرهم اياه ، فتتخذ منه صورة ترسمها للكافر الحقير ، الذى لا يفرق بين الهدى والضلال ، وسخرية

---

(١) الآية ١٩ سورة لقمان ٠

(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٤/ ٦٤٥ ٠

(٣) الآية ٣ سورة الكوثر ٠

القرآن لا تبرز اوصافا خسيسة للكلب ، وان كانت تشير اليها ضمنا ، وانما تبرز وصفا ملاحظا بوضوح في الكلب ، وهو أنه يلهث دائما في غير ما يدعو الى ذلك ، فهو يخرج لسانه ويلهث بقوة ، دون أن يعاني جهدا أو مشقة أو عطشا أو غير ذلك ، وانما هي طبيعته التي طبع عليها ، فكذلك هذا الكافر الذي كرمه الله فأعطاه من نعمه ومعرفته ، وهداه الى خيره ورشده ولكنه ترك هذه النعم ، ولفظ هذه الهداية ، وانزل نفسه من المنزلة الكريمة التي وضعه الله فيها ، الى وضع خسيس حقير من التغابي عن العقل ، والتجاهل عن الحكمة ، وايثار أدنى الملذات الجسمية والمادية ، على لذة الروح ، وسعادة المعرفة ، وكرامة العلم والهداية ، فكان في نزوله الى الخسة أشبه بالكلب في خساسته ، وحين تذهب أنت يا من تريد له الهداية والرشد ، تجهد نفسك معه في غير نفع ، فلن يجدي معه هديك ولن يرده الى الرشد ارشادك ، بل يستوي حاله بعد جهدك معه في ارشاده ، وقبله ، لأن طبعه غير مهيأ للهداية ولا للوضع الكريم ، كطبع الكلب الذي يفرض عليه أن يلهث ، سواء تحمل جهدا أم لم يتحمل « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم يظلمون » (١) ، وسواء قصد بهذا المثل شخص معين من بني اسرائيل أو أمية بن أبي الصلت من قريش (٢) أو غيرهما ، فلاشك ان المثل عام في كل من ينطبق عليه هذا الوصف ، والآية نفسها تصرح بهذا العموم « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » وكذلك « ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » .

ومن الحيوانات الوحشية في بيئة العرب ، الحمار الوحشي ، وهم بحكم خبرتهم بالصحراء وحيوانها يعرفون الحمار الوحشي ، ويعرفون طبيعته وصفاته ، ومن طبيعته التي خبروها ، ارهاف حسه وشدة شعوره بما يحيط به من خطر ، ثم عدوه الشديد الذي لا يسابق ، حين يشعر بالخطر محدقا به ، « ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الابل وشدة سيرها بالحمر ، وعدوها اذا وردت ماء فأحست عليه بقانص » (٣) ، وقد وصف كثير من الشعراء العرب وخاصة في الجاهلية ، هذه الميزة الظاهرة لحمر الوحش في شدة العدو اذا أحست بالخطر كقول صخر الغي يتحدث عن هذه الصفة في حماري وحش من قصيدة طويلة :

---

(١) الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧ سورة الأعراف .

(٢) انظر عمدة التفسير لابن كثير ٥/ ٢٧٥ وتفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) ١٣/ ٢٥٢ الى ص ٢٧٥ والنكت في اعجاز القرآن للرماني ١٧٥ ، ١٧٦ وتفسير الكشاف للزمخشري ٢/ ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري ٤/٥٢٤ .

كلا العلجين أصـــــعر صيعرى   تخال نسيل متنيه الثغاما (١)

وسخرية القرآن تستغل خبرة العرب بحيوان الصحراء ، ومنه حمار الوحش ، فترسم صورة لأولئك الذين ساق الله اليهم الهداية ، وأرسل اليهم النور ، ليستضيئوا به ، وتستنير حياتهم ببهائه ، فاصـــموا آذانهم وأغلقوا ابصارهم ، بل نفروا من هـــذا النور نفارا شـــديدا ، وكأنهم جماعة من حمر الوحش فاجأها خطر يتهدد حياتها ، فانطلقت مذعورة باقصى ما أتيح لها من عدو ، لا تلوى على شيء ، ولا تفكر في شيء ، ومن الواضح ان قرن موقف أعـداء الاسلام بهذه الصورة من حمر الوحش ، وتمثلها في الذهن ، اى المقارنة بينهما تحمل أقصى سخرية بقوم يتصورون في أنفسهم العقل والقوة والغلبة « فمالهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » (٢) .

ومن حيوانات البيئة العنكبوت ، فهو حيوان مألوف يرونه ويرون آثاره كثيرا ، يألف الأماكن المهجورة ، ويتخذ لنفسه بيتا رقيقا شفافا ، يصلح له هو ، ولكنه لا يصلح لشيء آخر ، لأنه لا يحمي من شيء ، ولا يقي من شيء ، ولا يستر شيئا ، ولا يحتوى كذلك على شيء ، الا هذا الحيوان الضعيف الذى لا يكاد يبدو للعيان ، وقد اختارت سخرية القرآن هذه الصورة من حياة العنكبوت وبيته ، لتشبه بهـا آلهة المشركين بالله ، واحتماء المشركين بهؤلاء الآلهـة ، وعقدهم آمالا عليهم ، ورجاءهم منهم خيرا أو شرا ، فالعنكبوت وبيته أوهى ما يعرفه العرب ، واتخاذ بيت العنكبوت بيتا بالمعنى الذى يعرفه الناس للبيوت ، غاية في تفاهة التفكير ، وخيبة الأمل ، ومن ثم يصبح تفكيرهم وتصبح آمالهم اشبه بالعنكبوت نفســـه في الضـــعف والوهن « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ، ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » .

٣ ـ حيـــاة البيئة :

من الحقائق الواضحة ان القرآن الكريم تبرز فيه الحياة العربية بصـــورة واضحة ، رغم ان الحديث عنها غير مقصود لذاته ، ولا هو مباشر ، ورغم تفرقه في مواضع كثيرة من القرآن ، ورغم ان الحديث عنها موجز ، يكاد يكون كالاشارة في بعض الأحيان .

وحياة العرب تتسم بطابع البداوة ، أرضهم صحراء تكاد تكون مجدبة ، تعتمد اعتمادا أساسيا على شيئين ، حياة الرعى ، وتنمية الماشية ، وحيـــاة

---

(١) ديوان الهذليين ٢/ ٦٣ ـ ٦٦ والأصعر لاوى العنق ، والنسيل ما تطاير من شعره ، والثغام نبات جاف يصف منظر شعرى الحمارين اللذاء عدوهما .

(٢) الآيات ٤٨ ـ ٥١ سورة المدثر والقسورة الأسد او جماعة الصائدين .

التجارة ، ومعظمها تجارة داخلية لتداول الانتاج المحلى فى الأماكن التى ينقصها هذا الانتاج من البيئة ، وقليل من التجارة الخارجية ، لتبادل السلع مع بعض الشعوب الأخرى ، ولأهمية التجارة فى حياتهم نجد الحديث عنها كثيرا متنوعا فى القرآن الكريم .

والعرب حتى ظهور الاسلام يعتبرون شعبا منعزلا ، لم يتح له اختلاط مؤثر بالشعوب الاخرى ، فظل محافظا على لغته ، متشبثا بتاليده وافكاره ، وكانت هذه التقاليد هى السلطان الوحيد الذى يحكم البيئة ويسيطر عليها .

ولما كانت سيطرة العادات عليهم أهم عقبة أمام الاسلام فى انتشاره ، فقد نعت سخرية القرآن عليهم نعيا شديدا فى انقيادهم لسابقيهم من الآباء والأجداد ، دون وعى أو تفكير أو تدبر ، نعت عليهم ان الله اعطاهم عقولا يفكرون بها ، فالغوا هذه العقول ، ليتشبثوا بأوهام الماضى وأباطيله ، دون محاولة لاستغلال نعمة أنعمها الله عليهم وهى العقل ، وأرسل اليهم من يرشدهم الى الطريق القويم وينير لهم هذه الظلمات الحالكة القاتمه التى يتخبطون فى ظلامها وضلالها ، فوضعوا أصابعهم فى آذانهم كيلا يسمعوا من كلامه شيئا ، واغمضوا عيونهم حتى لا تبصر انبلاج النور الساطع أمامها ، واغلقوا عقولهم واوصدوها ايصادا شديدا ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أحكموا اغلاقها بأقفال صلبة قوية ، حتى لا يستطيع منطق أو حجة أن تزحزح ابوابها « أم على قلوب اقفالها ؟ » .

فبينما نجد القرآن يقرر هذه الحقيقة عنهم ، فى حكاية محاورة بينهم وبين من يدعوهم الى الهدى والتفكير القويم ، فيرفضون الهدى ، ويتمسكون بآبائهم فى ضلالهم وتفاهة تفكيرهم ، كقوله تعالى « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (١) ، بينما يقرر القرآن هذه الحقيقة عنهم فى مواضع كثيرة ، نجده احيانا يسخر من تشبثهم باتباع الآباء مع وضوح ضلالهم ، وظهور جهلهم وجورهم عن الطريق القويم ، فتجعلهم سخرية القرآن متأكدين من ضلال آبائهم ، وتفاهة تفكيرهم ، ثم ان تأكدهم من ضلال آبائهم هو الذى حملهم على اتباعهم ، وليس مجرد اتباع ، بل تسابق شديد العدو ؛ واندفاع بأقصى ما يمكنهم من جرى وراء هذا الضلال حين تأكدوا أنه ضلال ، ومعنى ذلك أنهم يبحثون عن الضلال لذاته فيتبعونه ، بحيث لو عرفوا ان آباءهم على هدى لانصرفوا ورفضوا اتباعهم ، بل لو شكوا مجرد شك فى هذا لما تشبثوا باتباع آبائهم هذا التشبث ومما لاشك فيه ان هذا التصوير من أبلغ التهكم والسخرية بهم ، وصورتهم وهم يهرعون راكضين أشد الركض فى اثر ضلال آبائهم ، حين تأكدوا من أنه ضلال

---

(١) الآية ١٧٠ سورة البقرة .

يحمل غاية الاستخفاف والاستهزاء « انهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » (١) ٠

ومن ابرز مظاهر الحياة المعيشية التى تعتمد عليها البيئة الرعى ، فحياة المراعى هى المسيطرة على وجه الحياة ، ومشاهد المراعى هى الشىء المألوف الذى لا يجهله انسان فى البيئه ، ولا يحتاج فى شئونه الى مرشد ، وما منهم الا صاحب مرعى يملك السوائم فيه ، أو أجير يرعى لصاحب الماشية ماشيته ، وسخرية القرآن فى دعوتها الدائمة الى العقل ، والى الهدى ، تلتمس أقرب الطرق الى أذهانهم لتوصل الهدى منها الى عقولهم ، ومن اقرب الطرق الى اذهانهم مشاهد الرعى ، فهذه صورة ساخرة ، تصور الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل داع يدعوهم الى الهدى كانه راع يرعى غنما فى أحد المراعى ، فهو يحرص حرصا شديدا على أن يقود هذا القطيع من الماشية الى خير مرعى ، وأن يجمع شمله حتى لا يند من القطيع شىء او يشرد ، ووسيلته لهذا الجهد كله هو صوته الذى ينعق به على غنمه ، ووضع المشركين فى هذه الصورة وضع الغنم القاصـــية أو الشـــاردة عن المرعى وعن القطيع ، تشرد عن القطيع غير مدركة لما يتهددها من خطر الضياع أو سطو الذئاب ، والراعى ينعق عليها بصوته يدعوها الى الرجوع ، ولكنها لا تعقل من كلامه الا مجرد صوت يبلغ الآذان دون فهم مضمونه أو فحواه ، فكذلك هؤلاء المشركون ، الشاردون عن الهدى الواضح ، والخـــير البين ، يدعوهم داعى الهدى ، ويجهد صوته فى الدعاء ، ولكنهم لا يعقلون من دعائه شيئا ، ولا يفهمون من كلامه الا صوتا يبلغ آذانا صما ، وعقولا قـــد أحكم عليها الرتاج « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (٢) ، ويبدو المشركون فى الموازنة أكثـــر ضلالا ، حيث يزيدون على الماشية الصمم والعمى « ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » ، ولكن الصورة تجعلنا نشعر بجو المرعى وحياة الرعى التى تعتبر أبرز مظاهر البيئة ، ومثل هذه الصورة التى صيغت من حياة البيئة لها فى نفوسهم وقع قد لا يحسه الذين لم يألفوا هذه الحياة كما يحسونه هم (٣) ٠

ومن المظاهر البارزة فى حياة العرب فى الصحراء اشعال النيران ، فقد كان اشـــعال النيران فى الليل مظهرا من مظاهر الكرم والسخاء ، يوقد الكريم ناره ، فيلجأ اليها من ضـــل الطريق فى الصـــحراء ، ويأوى اليها من نفد زاده من المسافرين ، أو احتاج الى ضيافة ، أو اشتد عليه البرد ، وهى فى كل حال

---

(١) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ سورة الصافات والاهراع الاسراع الشديد انظر تفســـير الكشـــاف للزمخشرى ٠

(٢) الآية ١٧٠ سورة البقرة ٠

(٣) انظر عمدة التفسير لابن كثير ٦/٢ وفيه من الاقوال انها نزلت فى طائفة من اليهود وانظر تفسير الكشاف وفيهما من الأقوال أنه مثل ضرب لدعائهم الأصنام التى لا تعقل والأظهر أنها فى المشركين ويرجح ذلك الآية السابقة لها ٠

علم واضح لهداية أولئك وغيرهم اليها ، وملجأ لكل ذى حاجة ، حتى أصبح ايقاد النار فى الليل علامة السخاء ، وموضع التنافس الشديد بين سراة القوم وأصحاب الجاه والغنى والسيادة ، وحتى أصبح منظر النيران هذه شيئا مألوفا غير غريب عليهم ، وقد حفلت أشعار الشعراء بالحديث عنها فخرا أو مدحا ، فايقاد النار اذن أصبح ظاهرة واضحة فى حياتهم •

وسخرية القرآن تاتيهم من زاوية هذه العادة ، فتتحدث عن المنافقين ، فى كونهم عرفوا الاسلام عن كثب ، واتيح لهم أن يستمعوا الى القرآن الكريم ، والى روح الاسلام بما تشعه من نور وهاج ، وبما تبعثه فى القلب من سكينة واطمئنان اتيح لهم ذلك وخالطوه ، وكان من المفروض لو أنهم يعقلون ، ولو أن فى نفوسهم استعدادا للهدى والخير ، أن يستضيئوا بهذا النور الذى شع أمامهم ، ولكن نفوسهم بطبعها غير مهيأة لاستقبال الضوء ، وغير صالحة للتأثر بالهدى ، فان هذا النور الذى يملأ من حولهم الفضاء يتحول فى نفوسهم الى ظلام دامس ، واذا هذه النفوس تتحول الى كهوف ومغارات دامسة الظلام ، بينما النور يسطع أمامها فى كل وجه ، فكان مثلهم كمثل موقد نار ، ما ان أوقد ناره ، واستعد للاستفادة من ضوئها يهتدى به ، ويرى على هديه ما يهمه أن يراه ، اذا هذه النار تنطفىء ، فيتحول نورها الساطع الى ظلام دامس ، ولا يستفيد منها الا العشى الذى يشعر به من ينتقل فجأة من النور الى الظلام ، والى خيبة الأمل الذى كان يرجوه فى الاستفادة من هذه النار « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى لا يرجعون » (١) ، واختيار النار فى الحديث عن الاستضاءة يناسب البيئة حيث ان ألفها لايقاد النيران أكثر من الفها للمصابيح •

ومن آثار ايقاد النيران عند العرب ، الرماد ، فمناظر الرماد فى كثرته ، وتعدد أماكنه ، وما يرتبط به من مناظر أخرى ، كآثار الرياح فيه حين تذروه فيتفرق فى الآفاق ، أو الأمطار حين تهطل عليه ، ونحو ذلك ، كل هذا شىء مألوف لديهم ، وقد أصبح الحديث عن الرماد من الكنايات المشهورة عن الكرم ، عند العرب ، فاذا قيل فلان كثير الرماد ، فمعناه أنه كريم جواد ، كثير ايقاد النار ليأوى اليها الضيوف ، ويترتب على كثرة ايقاد النار ، كثرة تخلف الرماد •

والقرآن الكريم يسخر من الكافرين ، الذين أغلقوا عقولهم وقلوبهم عن نور الله ، ليشركوا به غيره ، ويكفروا بما أنعمه عليهم ، ثم يرجون الخير من أعمال يؤدونها فى حياتهم ، يتباهون بها ، ويفخرون بنسبتها اليهم ، فيستحضر القرآن لهم ولغيرهم صورة رماد من هذه الأكوام الكثيرة التى يرونها منه ، وقد هبت عليه عاصفة عاتية من الريح ، فانها ستذروه فى كل وجه ، وتفرقه فى كل أفق ،

---

(١) الآيتان ١٧ ، ١٨ سورة البقرة •

بحيث لا يبقى منه شيء ، ولا يستطيع أحد أن يعثر منه على شيء ، يستحضر هذه الصورة فى أذهانهم ليقرنها بصورة أعمال هؤلاء الكفرة التى يظنونها خيرا وبرا ، فان هذه الأعمال مع كفرهم لن تنفعهم بشيء ، ولن يجدوا منها يوم القيامة شيئا « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » (١) .

ومن لوازم هذه النيران الكثيرة التى يوقدونها الحطب ، فطالما كان هناك نار ، فهناك جامعون للحطب ، يلتمسونه فى كل مكان ، ليحبوا به النار التى تحتاج الى الحطب الكثير ، والذين يجمعون هذا الحطب هم بطبيعة الأمر اما من العبيد الأرقاء ، واما من الفقراء المعدمين الذين لا يجدون وسيلة للعيش الا بذل جهدهم البدنى لقاء أجر زهيد يدفعون به غائلة الجوع ، وخطر الموت ، وفى كل حال فجامعو الحطب ليسوا من السادة ، وليسوا من ذوى المكان فى المجتمع ، بل ليسوا حتى من أوساط الناس ، وانما هم فى درجة من صغر الشأن قد يضرب بها المثل فى هذا الشأن الهين الصغير (٢) .

وسخرية القرآن تختار هذه الصورة من الهوان الاجتماعى فى نظرهم ، لا لتشوه بها رجلا ، فالعمل الحلال أيا كان نوعه فى الاسلام شرف ونوع من الجهاد ، وانما اختارت سخرية القرآن هذه الصورة لتكسر بها من شموخ أنف امرأة متعالية طاغية ، تحتمى بمجد الآباء والأجداد ، وتتدرع بثراء الزوج والأولاد ، فتبغى على المسلمين ، وتصد عن سبيل الله ودينه الحنيف ، ومن الواضح ان امرأة بهذه المنزلة فى قومها ، وبهذه العزة فى أنفها ، يبلغ منها أيما مبلغ أن تصور فى صورة جامع للحطب ، فى قوله تعالى « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمـــالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » (٣) وقد بلغت منها هذه السخرية ان أفقدتها صوابها ، فذهبت لتضرب النبى صلى الله عليه وسلم وتهجوه ، كما يروى ابن هشام فيما سبق .

وحياة البيئة العربية قبل الاسلام ، كانت شاقة كادحة رهيبة فى كثير من جوانبها ، فالموارد القليلة التى أتيحت للبيئة جعلتهم يعانون فقرا شديدا ، يزيد من هـــذا الفقر احتكار السادة والزعماء لمعظم هـــذه الموارد ، فعامة الناس لا يبقى لهم الا أن يكافحوا بأجسامهم وتحملهم كل مشقة ليحصلوا على لقمـــة العيش ، وهناك الحروب المتواصلة المنتشرة ، التى لم تكد قبيلة تسلم من لظاها ، والتى يهيىء كل فرد نفسه دائما للمشاركة فيها ، كل هذه الظروف الصعبة

---

(١) الآية ١٨ سورة ابراهيم .

(٢) ومن ذلك الحديث الشريف ومضمونه (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) .

(٣) سورة المسد .

القاسية ، جعلت أهل البيئة يتطلعون دائما الى انجاب البنين ، ليجدوا منهم عونا على هذه الحياة ، وينفرون من انجاب البنات لأنهن فى مثل هذه البيئة مجرد عبء يحمله الاباء ، كما يقول الزمخشرى عن نفور العرب من البنات « على انهم انفر خلق الله عن الاناث وامقتهم لهن، ولقد بلغ بهم المقت ان وادوهن »(١).

وسخرية القرآن تتحدث عن هذه النظرة التى كان العرب ينظرونها الى البنات ، وذلك خلال الحديث عن نوع من أنواع كفرهم ، وهو قولهم ان الملائكة بنات الله ، فيقول لهم القرآن متهكما متعجبا ، أيكون الله سبحانه ، هو الخالق للبنين والبنات ، ثم يختار لنفســـــه البنات ، ويؤثركم انتم بالبنين ؟ مع أنكم اذا بشر أحدكم بانه ولدت له بنت ، اسود وجهه غما وحزنا ، وظل فى هذا الحزن بسبب انجابه بنتا ، الا تفكرون حتى بمنطقكم أنتم ؟ كيف يختار من يملك الخيار لنفسه النوع الأدنى ، ليؤثر أعداءه بالنوع الأفضـــــل ؟ « وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنـــات واصـــفاكم بالبنين ؟ ، واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظـل وجهــه مســــودا وهو كظيم » (٢) .

وقد سبق القول بان التجارة كانت أحد عمادين تقوم عليهما حياة العرب الاقتصادية ، سواء كانت تجارة محلية داخلية ، أو تجارة خارجية مع الأمم الأخرى ، لذلك نجد القرآن الكريم يحدثهم كثيرا بلغة التجارة التى يفهمونها والتى تشغل أذهانهم وتملأ نفوسهم وآمالهم . وسخرية القرآن تتحدث بلغة التجـــارة عن أولئك المنافقين الذين ســـولت لهم انفسهم أنهم يستطيعون أن يخدعوا كل الناس ، ليستفيدوا هم ، يخدعون المسلمين فيظهرون لهم أنهم مسلمون ، حتى يأمنوا جانبهم من ناحية ، وحتى يستفيدوا من انتسابهم الظاهرى الى الاسلام ، ويخدعون الكافرين أيضا فيظهرون لهم أنهم معهم ، وأنهم انما يضللون المسلمين ، ويغررون بهم ، وهم فى الواقع لا مع هؤلاء ، ولا مع أولئك « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » وانما مع أنفسهم فحسب ، هم يبغون المنفعة من كلا الوجهين ، الوجه الذى يلقون به المسلمين ، والوجه الذى يلقون به الكافرين ، لا يهمهم من الجهتين الا الكسب والمنفعة المادية لأنفسهم ، فهى اذن تجارة مادية ليس غير ، ولا يهمهم من الفريقين الا ما يهم التاجر من تجارته ، ولذلك تتحدث عنهم سخرية القرآن بلغة التجارة التى يستهدفونها ، فتصورهم تجارا ، ولكن تجارتهم ليست سلعا مادية ، وانما هى سلع روحية ومعنوية ، أعطاهم الله الهداية وقرب منهم النور ، وأدنى اليهم الخير والحق ، ولكنهم أخذوا هـــذا الخير كله ، وهـــذا الهدى ، وذهبوا ليتجروا به فدفعوه ثمنا لسلعة اخرى،ظنوها رابحة تدر عليهم الخير الكثير،واذا هم يجدون ان هذه السلعة

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى ٤/ ١٩٥ .

(٢) الآيات ١٥ ــ ١٧ سورة الزخرف ومعنى (جعلوا له من عباده جزءا) جعلوا الملائكة بناتا لله فالمولود جزء من الوالد .

التى عادوا بها من سوقهم ، والتى دفعوا فيها ثمنا عظيما لا يقدر بشيء ، وجدوها سلعة خاسرة تافهة ، لأنها الضلال نفسه ، ولنا أن نتصور مقدار ما يصيب التاجر المحترف من حزن وهم وخيبة أمل ، حين يكتشف أنه فقد ليس مجرد رأس ماله ، أو جانبا كبيرا من ماله ، وانما فقد ثقته بنفسه وبخبرته بصفته تاجرا ، حيث يتبين انه بلغ من الجهل بالتجارة ، ومن سفه التصرف فيها أن يدفع ثمنا عظيما لا يقدر بمال ، ليشترى به ضلالا وخسرانا « اولئك الذين اشتروا الضـــلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (١) ، وتصوير نظرة المنافقين الى الهدى والضلال على انهما من السلع التجارية ،ثم بيان عدم اهتدائهم الى تمييز الجودة من الرداءة فى هـــذه السلع مع وضوحهما ، ثم خسرانهم فى هـــذه التجارة من حيث كانوا يلتمسون الكسب والنفع ، كل ذلك واضـــح التهكم والسخرية بالمنافقين ، الذين يحسبون أنهم بنفاقهم يسخرون من المسلمين ٠

وسيطرة نزعة التجارة على البيئة كعماد أساسي يتحدث عنها القرآن كثيرا فهذه النزعة عامة فى البيئة لا تختص بها طائفـــة دون طائفة ، ولذلك يتحدث القرآن بآثارها حتى عن المؤمنين ، مما يستشف منه ان هـــذه النزعة قد تزاحم حتى العبادة فى نفوس بعض المسلمين فيقول القرآن عن ذلك « يأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، واذا رأوا تجارة او لهوا انفضـوا اليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خـــير الرازقين » (٢) ، ويروى ان الآية الأخيرة نزلت فى حق بعض المسلمين ، حين كانوا بالمدينة فى مجاعة ، فقدم دحية الكلبى بتجارة وهم بالمسجد يستمعون الى النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الجمعة ، وكان من عادتهم استقبال القوافل بالطبول ومظاهر الفرح ، فانفض معظم المسلمين عن استماع خطبة الرسول مهرولين الى القافلة خشية أن تنفد السلع قبل أن يدركوها (٣) فيبين لهم القرآن ان التجارة مهما يكن شأنها ، ومهما تكن ظروفها لا ينبغى أن تنافس الايمان ، ولا أن تشغل عن العبادة ، لأنها عرض منتقل ، وظل غير ثابت ، ثم يرشدهم الى التجارة الرابحة ، الدائمة الكسب ، الثابتة النفع ، وهى الايمان بالله وطاعته ففى هذه التجارة يتحقق لهم خير الدنيا وخير الآخرة ، خير الدنيا بالنسبة لهم هو أن تتحقق لهم أعظم أمنية تراود نفوسهم ، وهى النصر على أعدائهم وأعداء الله ، وخير الآخرة كثير لا يحصيه القول والتفصيل ، وكلا الخيرين يضمنه لهم

---

(١) الآية ١٦ سورة البقرة ٠

(٢) الآيات ٩ ــ ١١ سورة الجمعة ٠

(٣) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٤/ ٤٣٥ ــ ٤٣٦ ٠

الله سبحانه ، ان جعلوا تجارتهم مع الله « يايها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » (١) ٠

---

(١) الآيات ١٠ ـ١٣ سورة الصف ٠

السخرية الاجتماعية

« انهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون »

من الأسس التي قام عليها الاسلام أنه دين مجتمع لا دين أفراد فحسب ، واذا كانت الأديان الأخرى تستهدف تقويم الأفراد ، برسم الطريق لهم الى الله ، فان الاسلام يستهدف الغايتين ، غاية تقويم الفرد ، من الناحية الروحية ، وغاية اصلاح المجتمع وتنظيمه بوصفه مجتمعا ودولة ، فالأديان الأخرى روحية فحسب ، وحتى حينما تهتم بناحية اجتماعية ، فانما تعالجها من زاوية الفرد ، ومدى حاجة الفرد الى هذه الناحية ، أما الاسلام فانه دين روحي واجتماعي ، يجمع بين التركيز على التربية الفردية ، والتركيز أيضا على وضع الأسس والنظم التي يحتاجها المجتمع ككل ، والأمة كافة ·

والناحية الاجتماعية في الاسلام لكونها أساسا فيه ، نجدها عامة شاملة لكل ما يعتري المجتمعات والأمم من ظروف ، وما تحتاج اليه من نظم وأسس يقوم عليها بناؤها ، وما يجب أيضا أن تقاومه من ظروف تؤثر في كيانها وسلامة بنيانها ·

والاسلام انبثق والعالم كله يموج في ظلام وضباب كثيف ، ويتخبط في حيرة عشواء ، لا يتضح معها طريق ، ولا يستبين فيها معلم ، وكان في أحوج عصوره الى نور يبدد هذا الظلام ، والى هدى ينقذه من هذه الحيرة ·

والمجتمع الذي أشرق فيه الاسلام أول ما أشرق ، كان من أشد هذه المجتمعات ظلاما ، وأكثرها حيرة واضطرابا ، فقد كانت فيه أمام الاسلام عقبتان ، احداهما الظلام الروحي ، والأخرى الاضطراب الاجتماعي ، حيث كان العرب في العقبة الأولى مجتمعا وثنيا ، لم يتعد المرحلة البدائية التي تعبد النصب والأصنام، ولا تكاد تعرف من الدين والروحية الا ما يتعلق بهذه الأصنام التي يربطون بها خيرهم وشرهم على السواء ، وكل بصيص من الضوء الروحي قبل الاسلام لم يكن

ليبدد شيئا من حلكة الظلام المسيطر على المجتمع ، بل لم يكد البصيص تمسه يرى في وسط هذا الدجى الشديد ، ذلك لأن هذا البصيص كان يتمثل في بعض افراد بلغوا من صفاء التفكير وصفاء الروح أنهم أدركوا أن هذه الأصنام التى يعبدونها لا تمثل الدين القويم ، وان هناك ما هو خير من ذلك ، ينبغى أن يفكر فيه النـــاس ، وأن يوجهوا عقولهم الى استطلاعه ، ولكن كيف يهتدون الى هذا الطـــريق ؟ بل وما هذا الطـــريق ؟ ذلك ما لم تكن عقولهم لتبلغه ، ومنهم قس ابن ساعدة خطيب العرب ، وأمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور ، أو كان يتمثل في بعض أفراد أتيح لهم ان يحتكوا ببعض الأديان الأخرى ، كورقة بن نوفل وصحبه الثلاثة المتحنفين ، الذين اعتنقوا المسيحية لاحساسهم بالجهل والضلال في عبادة الأصنام ، فالاسلام اذن في هذه الناحية أمام عقبة كئود ، تتمثل في قوم لا يعرفون الدين ، حيث كان الاسلام أول نور سماوى يظهر لهم ، فالدين الاسلامى كان مفاجئا ، لم يسبق بدين ، ولا بتمهيد لدين ، ولو قد كان مسبوقا بشيء من ذلك لكان يمكن أن يكون ذلك تخفيفا على الاسلام في العبء ، وتيسيرا عليه في الجهد ، فان الدين السابق كان سيحمل العبء أو جانبا من العبء ، في تمهيد النفوس للتدين ، وتهيىء الظروف لمبادىء السماء ، ولكن الاسلام كان عليه أن يبنى من الأساس ، وأن يزيل أكداسا وأكواما من الحجارة والصعاب ، قبل أن يبدأ في بناء الأساس ٠

وبالنسبة للعقبة الثانية أمام الاسلام ، كان العرب في مجموعهم مجتمعا قبليا ، لم يعرف نظام الحكم بالمعنى الذى تعرفه الدول ، وانما هو قبائل متنافرة متباغضة متنافسة ، يسعى بعضها الى التعالى على بعض ، ويجهد بعضها في تحطيم قوة البعض الآخر ، وللوصول الى ذلك كانوا يسلكون وسائل من الفوضى والجرائم لا يسيغها منطق ، وهذا المجتمع القبلى الذى لم يعرف نظام الحكم والدولة ، لم يكن بطبيعة الحال لديه قوانين منظمة ، أو وسيلة معينة يسير على نظامها المجتمع ، وانما هى عادات متوارثة ، تلزم عامة المجتمع ، ولكنها قد تكون أحيانا غير ملزمة للأقوياء ، من القبائل والأفراد ، حيث يستطيع هؤلاء بقوتهم أن يخرجوا على هذه العادات دون أن يستطيع أحـــد النكير عليهم ، على أن هـــذه العادات لم تضعها قوانين ، ولم يملها فكر ، ولم تخططها جماعة ، وانما أملتها ظروف البيئة ، وظروف المعيشة في هذه البيئة ، ونتج عن هذا كله أن تحولت الحياة الاجتماعية الى مجرد صراع ، صراع في كل ميدان ، في ميدان الثروة القوى هو الذى يستطيع أن يملك بمقدار قوته ، وكلما كان أقوى كان أقدر على الامتلاك لنفسه ، وحرمان غيره من حق التملك ، سواء كانت قوته عصبية ، أو كانت قوة المال والجاه ، وصراع في ميدان الكيان الأدبى ، سواء أكان بين الأفراد أم بين القبائل ، فجاه القبيلة وزعامتها والمكانة الأدبية فيها ، ميدان للتنافس بين أفراد منها ، كل منهم يريد أن يستأثر بجاه القبيلة ومكانتها ، دون الآخرين ، وكذلك الصراع العنيف بين القبائل ، كل قبيلة تريد أن تكون لها الكلمة العليا ، والجانب المرهوب ،

والمرعى الخصب والمورد الأفضل ، دون القبيلة الأخرى ، وأسوأ ما في الأمر كله أن الحكم الوحيد فى هذا الصراع الرهيب الذى يسيطر على جوانب الحياة ، هو القوة وحدها ، فالقوى يستطيع أن يملك كل شيء ، وأن يحرم غيره من كل شيء ، ومن المشهور فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، أن كليبا كان له حمى من المرعى ، لا يستطيع أن يدخله راكب ولا راجل ، ولا أن ترعى فيه ماشية غير ماشيته ، وفى مقام العادات ، كان من عادة العرب قبل الاسلام أن يحرموا بالحج من خارج الحرم ، ولكن قريشا كانت تستأثر لنفسها دون العرب بأن تحرم من داخل الحرم (١) ·

ومن ذلك كله تأتى صعوبة المهمة المنوطة بالاسلام ، فالاسلام ليس عليه أن ينشىء مبادىء ونظما يسير عليها الأفراد ، وينتظم فيها المجتمع فحسب ، فلو كان المجتمع مهيأ لذلك لكان الخطب يسيرا ، وانما عليه أن يزيل عقبات راسخة لا حصر لها ، لأنها تشمل كل نواحى المجتمع ، وعليه أن يمحو كل السيئات الفردية والاجتماعية وما أكثرها ، قبل أن ينشىء المبادىء الجديدة ، والنظم التى يريد للأفراد والمجتمع أن يسير عليها ، وهذا الصراع العنيف ، والمقاومة الهائلة التى لقيها الاسلام ، هى عنوان لصعوبة العقبات التى كان الاسلام يزيل فيها ، والتى لابد من ازالتها قبل أن يغرس مبادئه وتشريعه وخلقه ، ليكون الغرس فى أرض صالحة مهيأة خصبة ·

ومن الواضح أن الاسلام له وسائل عديدة ، وأسلحة متنوعة حقق بها هذا التغيير الاجتماعى ، ولكن الذى يعنى الموضوع منها وسيلة السخرية ·

وقد يبدو لبعض الناس شيء من البعد بين السخرية والاصلاح الاجتماعى ، خصوصا من قبل دين سماوى كالاسلام ، ولكن علماء النفس والاجتماع ، لايختلفون فى أن السخرية من أقوى الأسلحة فى التغيير الاجتماعى ، وفى زعزعة رواسب اجتماعية قد تفشل فى محاربتها حتى القوانين أو مقاليد السلطة والعقاب ، فهم يقررون كما سبق الاشارة اليه ، أن السخرية أقوى سلاح تهدد به الجماعة الخارجين على نظامها ، وعلى تقاليدها ، ومن هنا نجد أن الاسلام يفرض نفسه — كما هو الواقع — على المجتمع ، ويحكم على الخارجين عليه وعلى آدابه بالاباق والخروج على الوضع الصحيح ، لأنه شريعة الله التى ارتضاها لعباده ، فلو نادى بها فرد واحد فى مجتمع ، فهذه الشريعة مع المنادى بها هى المجتمع الصحيح السليم ، والآخرون جميعا آبقون عنها ، واذا اتخذ الاسلام السخرية سلاحا للاصلاح الاجتماعى ، فانه كما يقرر علماء النفس يستخدم سلاحا من أقوى الأسلحة الناجحة فى التغيير الاجتماعى ، حيث يقولون « والواقع أن الضحك هو السيف المصلت الذى تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية

---

(١) انظر على هامش السيرة للدكتور طه حسين ·

وآدابها العامة ، وكل من تحدثه نفسه بالخروج على قوانين الجماعة ، وأساليب سلوكها ، فانه لابد من أن يستهدف لسخريتها اللاذعة وضحكها الموجع » (١) ، ويتضح لنا مدى عمق الاسلام ، ومدى سبقه في استخدام ما يراه علماء النفس اليوم نظريات مستحدثة مبتكرة ، حين يأتي للناس في اصلاحهم من الزوايا التي تمس نفوسهم مساسا مباشرا ، وتلامس انفعالاتهم ، فهو حين يستخدم السخرية، فانما يأتيهم من أقرب الطرق التي تؤثر في نفوسهم حتى يرجعوا الى صوابهم ، ويثوبوا الى الطريق القويم ، طريق الهدى والصلاح ، ويقول علماء النفس في تأكيد نجاح سلاح السخرية ، وأثره في نفوس الذين يخرجون على الطريق القويم « وليس أدل على كون الضحك أداة اصطنعها المجتمع لتأديب أفراده من أن الجماعة واقفة بالمرصاد لكل من يستهين بتقاليدها ، أو يستخف بمعاييرها ، فهي ماتكاد تلمح سلوكه الغريب حتى تصب على رأسه النكات صبا » (٢) ، والاسلام بحكم كونه هو العقيدة السليمة ، والسلوك الصحيح ، يفرض أن كل الخارجين عليه ، جماعات مغايرة ومعادية ، والاسلام أيضا بحكم كونه دينا سماويا ، ليس دين عنصرية ولا عصبية ، وانما هو دين الله ، فكل من تمسك به فهو المسلم ، أيا كان نوعه ، وأيا كانت عصبيته أو بيئته وكل من خرج عليه فهو مغاير له ، ومعاد اياه ، أيا كان نوعه أو بيئته ، حتى ولو كان من أبناء الاسلام أنفسهم ، وبهذا نرى الاسلام حين يستخدم سلاحا كالسخرية من الخارجين عليه ، أو المناوئين له ، فانما يستهدف كل من خرج على مبادئه ، ســـواء كان من أعدائه ، أو من أبنائه ، لأنه لا يعامل الناس على أساس عصبية ، وانما على أساس المبادىء ، فكل متمسك بمبادئه فهو المسلم المرضي عنه وكل جائر عن المبادىء عدوه ، كما يقرر القرآن الكريم « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » وكما يقرر النبي صلى الله عليه وسلم « الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » .

فالاسلام اذن حين يستخدم السخرية للاصلاح الاجتماعي ، ينظر الى الجماعات الخارجة عليه ، ليردها الى الهدى ، ويرنو أيضا الى أبنائه داخل جماعة الاسلام ،ليرد المنحرف منهم عن جادة الطريق ، وعلماء النفس يعرفون للسخرية أثرها القوى في كلا المجالين ، ومن ذلك قولهم ، انهحينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات باعتبارها جماعة مغايرة لها — فانها تحافظ بهذه السخرية نفسها على صميم كيانها الاجتماعي ، ولكن اذا كان للضحك صبغة محافظة من حيث هو أداة نواجه بها الأجنبي ، فانه على العكس قد يقوم بوظيفة النقد والاصلاح بالنسبة الى الجماعة ذاتها ، لأنه بسخريته من العادات البالية ، والتقاليد العتيقة ، انما يعمل على خلق جو جديد في صميم الجماعة ، ومن هنا فان للضحك وظيفــه اجتماعية نافعة .. هو وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من التغير الاجتاعي (٣) .

سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٦٨ .
سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٦٩ .
المصدر السابق ٦٩ .

والقرآن الكريم رسم الاصلاح الاجتماعي من جميع جوانبه الفردية والاجتماعية ـ في تشريعات وآداب تشمل كل ما يحتاج اليه الفرد ،وما يلزم المجتمع بصورة كاملة لاتحتاج الا الى التفاصيل التى يقتضيها تطور الحياة ، وتقلب الظروف .

وبالنسبة للسخرية كأحد جوانب القرآن يمكن التمثيل لأهم الجوانب الاجتماعية التى استهدفت علاجها وازالة العقبات أمام الاسلام فيها فيما يلى :

١ ـ مبدأ التمسك باتباع الآباء :

وهذا الجانب وثيق الصلة بالعادات ، وكان يمكن ان يكونا حديثا واحدا ، فكلاهما تشبث بالماضى ، ولكن التمسك باتباع الاباء نزعة مستقلة فى نفوسهم ، وهى أعم من العادات نزعة تسيطر على افكارهم أو تقود سلوكهم ، وتوجه عقيدتهم، فقد اتخذوا من آبائهم وأجدادهم وخاصة البارزين ذوى التاريخ منهم مايشبه الآلهة ، يتغنون بأمجادهم ، ويقدسون كلامهم ، ويسيطر عليهم اعجاب شديد بكل ما ينسب اليهم من قول أو فعل ، او عقيدة ، ومن أمثلة ذلك ما سبق من قصة أبى لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يؤازره ويتعصب له أول أمره ، حتى فكر بعض أعداء الرسول فى أن يحمله على التخلى عن مناصرة ابن أخيه ، فالتمس أهم نقطة تسيطر على نفسه ، وعلى نفوس المجتمع ، وهى تقديس الآباء والأجداد ، فقال لأبى لهب ان محمدا يزعم أن عبد المطلب فى النار، ففزع أبو لهب ، وأرسل الى النبى يسأله أين عبد المطلب الآن ؟ فرد النبى صلى الله عليه وسلم بأنه مع قومه ، فطابت نفس أبى لهب ، وقال : نعم المقام أن يكون مع شيوخ قريش ، ولكن الذى أراد الوقيعة بينه وبين ابن أخيه ، عاد يقول له : فان محمدا يزعم أن شيوخ قريش فى النار ، فأرسل أبو لهب الى النبى يسأله : وأين قومه ! فأجاب النبى بأنهم فى النار ، هنالك انقلب أبو لهب عدوا من أشد أعداء النبى وألدهم عداء (١) .

وقد كان تشبثهم هذا الشديد بكل ما يتعلق بالآباء أهم عقبة أمام الاسلام ، انهم يقدسون الآباء ، ولا تقبل نفوسهم اى مساس بهم ، أو تجهيل أو تأثيم يلصق بهم ، فى حين أن الاسلام يقوم على أساس تكفيرهم وتضليلهم ، والا لما كان دعوة جديدة ، ودينا مصلحا لأوضاع خاطئة ، وحين يناقشون فى عقيدة ، أو عادة خاطئة قد يناقشون ويجادلون ، ولكنهم حينما تعجزهم الحجة ، ويعييهم المنطق ، فالملجأ الأخير عندهم هو الركون الى الآباء ، بأنهم وجدوا آباءهم هكذا يفعلون ، أو هكذا يعتقدون ، وهم عندئذ يلغون عقولهم وأشخاصهم كمفكرين ، ركونا الى أن آباءهم على ما لهم من جلال وقدر ، ما كانوا ليخطئوا ، ولو كان هذا خطئا ما فعلوه أو اعتقدوه ، ومن هنا نفهم نعى القرآن عليهم نعيا شديدا متكررا فى

---

(١) انظر على هامش السيرة للدكتور طه حسين .

انقيادهم بهذه الصورة وراء آبائهم ، ونفهم وصفهم المتكرر فى القرآن بأنهم لا يعقلون ، لأنهم حينئذ يلغون عقولهم وتفكيرهم الغاء كاملا مستندين الى عقول آبائهم وأجدادهم ، فوصفهم اذن بأنهم لا يعقلون ، لا يحمل مبالغة أو تشنيعا ، وانما هو حقيقة واقعة ، يوضحها تشبثهم بآثار الآباء دون تفكير أو منطق ·

ولذلك نجد القرآن يصور مدى تشبثهم باتباع آبائهم ، فى حين لا حجة لهم ولا منطق فى هذا الاتباع ، بل حتى مع وضوح ضلال آبائهم وسفه تفكيرهم ويصور القرآن أيضا الغاءهم عقولهم وتفكيرهم استنادا الى عقول آبائهم ، بأنهم أصبحوا حينئذ كالغنم التى لا تعى من كلام راعيها الا مجرد الصوت الذى لا يدل على معنى ولا يفهم منه شىء بالنسبة لهم « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينـــا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شـــيئا ولا يهتدون ، ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (١) ·

وهم يرون ان سنة آبائهم مهما يكن شأنها فهى الخير كل الخير لهم ، لأنهم لا يرون شأنها الا خيرا ومجدا ، ولكن القرآن يتساءل متهكما متعجبا من منطقهم وتفكيرهم ، أيتبعون آباءهم ، ويرفضون هدى الله ونور الرسول ، حتى ولو علموا بأن آباءهم جاهلون ، وانهم فى ضلال ؟ أيصدر هذا من عاقل ؟ أو يسوغ فى أى تفكير ؟ ولكن الحقيقة انهم فى كل موقف يذكرون فيه آباءهم يصبحون حقيقة بدون تفكير ، وبدون عقولهم ، لأنهم يرون عقول آبائهم وسنتهم مغنية لهم عن التفكير ، مغنية لهم عن كل شىء « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ؟ » (٢) ·

واقصى ما يصل اليه منطقهم من اعتدال ، أن يزعموا حين تعييهم الحجة، ويعجزهم المنطق ، ان هذا الضلال الذى هم فيه غير مسئولين عنه ، وانما المسئولون هم آباؤهم ، فآباؤهم هم الضالون ،ثم ورثوا هم هذا الضلال فلا ينبغى ان يحاسبوا عليه ، وانما يحاسب آباؤهم ، والقرآن نفسه هو الذى يصور هذه الحجة على ألسنتهم ، وكأنه يقول ان أقصى ما يمكن أن يحتجوا به من حجة هو هذا ، ولكن القرآن انما يسوق ذلك ليصل بهم الى منطق وتفكير سليم ، والى أن يتدبروا أمرهم فى حياتهم قبل أن يفوت أوان التدبر ، فهو يقطع عليهم كل أمل فى الاحتجاج ، او وهم فى النجاة من العقاب ، فيبين لهم انه خلق لهم عقولا ليفكروا بها ، وهذه العقول لا تعجز قط عن ادراك وجود الله والتفكير فى آثاره ، ما دامت راغبة فى معرفة الحقيقة ، والوصول الى اليقين ، فهذه

---

(١) الآيتان ١٧٠ ، ١٧١ سورة البقرة ·
(٢) الآية ١٠٤ سورة المائدة ·

العقول نفسها حجة عليهم ، وشاهدة على تعمدهم الكفر ، وقصدهم الى الضلال ، فهي منذ اليوم في حياتهم شاهدة عليهم ، حتى لا يحتجوا يوم القيامة بانهم كانوا غافلين في الحياة عن الحق ، أو أن يحتجوا حتى بافضل ما يمكن ان يدافع به عنهم على وهنه ، وهو أن يقولوا ان آباءنا هم الضالون ، واما نحن فمقتدون بهم مجرد اقتداء ، فليعلموا منذ الآن ان ذلك كله لا ينفعهم بشيء ، لأن عقولهم ستكذبهم قبل كل شيء « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » (١) وقوله تعالى (ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا) ليس مقصودا به ظاهر الألفاظ وحرفية الكلام ، وانما المقصود ان كل شيء في الحياة شاهد على وحدانية الله ، وانه الخالق وعقولهم لا تنكر هذا ، كما يقول الزمخشري « وقوله — ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا — من باب التمثيل والتخييل ، ومعنى ذلك انه نصب لهم من الادلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه اشهدهم على أنفسهم واقررهم وقال لهم : ألست بربكم ؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا ، وشهدنا على أنفسنا ، واقررنا بوحدانيتك » (٢) ٠

وأحيانا يشير لهم القرآن الى براءة آبائهم من اتباعهم اياهم ، فمهما يكن من ضلال آبائهم أو شركهم أو جهلهم ، فهم محاسبون على ضلالهم هم ، وليسوا محاسبين على اتباع أبنائهم لهم ، فعلى هؤلاء الأبناء أن يستخدموا عقولهم ، وأن يفكروا في مسئوليتهم ، ولا يقحموا آباءهم في ضلالهم وحيدهم عن الحق ، فآباؤهم لن ينفعوهم ، ولن يتحملوا من مسئوليتهم وذنبهم شيئا ، لأن آباءهم لم يلغوا عقولهم ، ولم يسولوا لهم الشر والضلال ، وانما سولته لهم نفوسهم ، واذا كان هناك من يعينهم على هذا فليسوا الآباء ، وانما الشيطان الذي يدفعهم جاهدا الى الجحيم ، بما يزين لهم من وسائل الضلال ، وهذا المعنى من القرآن الكريم ، يستهل الحديث عنهم في مقام تمسكهم باتباع الآباء ، بانهم حينئذ لا يصدرون عن علم وتفكير ، ولا عن هداية التمسوها ، ولا عن دين يعتقدونه ، وانما عن مجرد التمسك بالآباء ، والانقياد الأعمى لهم « ٠٠ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » (٣) ٠

---

(١) الآيات ١٧٢ — ١٧٤ سورة الأعراف ٠
(٢) تفسير الكشاف ٢/١٣٧ ٠
(٣) الآيتان ٢٠ ، ٢١ سورة لقمان ٠

ويبين القرآن ان اتباع الآباء ، والتمسك بالتقاليد الموروثة سواء أكان في العقيدة أم في السلوك ليس ظاهرة فريدة يختص بها المجتمع العربي حينذاك وانما هي ظاهرة اجتماعية ملازمة للمجتمعات ، وخاصة البدائي منها أو القريب من البداوة ، وان الوعي العلمي ، والنضج العقلي هما السبيل للتخلص من سيطرة هذه النزعة البدائية ، ولذلك يدعو الاسلام ، دائما الى العلم والى التفكير ، وفي هذا المعنى يتحدث القرآن عن نوع من الكفر المتلبس باتباع الآباء ، أعني بالكفر في صورة عادة موروثة ، وذلك في مقام نسبة بعض الناس الملائكة الى الله ، وزعمهم انهم بنات الله ، ثم عبادتهم للملائكة ، ثم احتجوا في ذلك ببعض الحجج التي نجد أبرزها اعترافهم بالانقياد وراء الآباء ، ثم يناقشهم القرآن مناقشة عقلية منطقيّة مفحمة ، مبينا لهم ان كل ما يدعونه من حجج وهم باطل تسوله لهم نفوسهم ، وان الحقيقة ان اتباع الآباء ظاهرة اجتماعيـــــة ، ملازمة لكل المجتمعات ، هم والسابقون على شاكلتهم سواء ، وان هذه المجتمعات تلغي عقولها وتفكيرها أمام سلطان هذه النزعة السيئة ، يقول القرآن الكريم « وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ ، واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهــو كظيم ، أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون ، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون ، أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهــــدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا انا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف عاقبة المكذبين » (١) فقوله تعالى « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » واضح في أن نزعة التقليد الموروث ظاهرة اجتماعية عامة ، وعلماء الاجتماع لا يختلفون في ذلك قط ، بل يؤيدونه ويؤكدونه بشتى الوسائل ، والدليل على لزوم هذه الظاهرة ووضوحها في المجتمعات البدائية أو القريبة من البداوة ، قوله تعالى « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير .. » فان القرى التي تحتاج الى النذير هي التي يشيع فيها الجهل والفساد ، وكل ما هو في حاجة الى مصلح ، وهكذا في المجتمعات التي يرسل الله سبحانه اليها الأنبياء ، فلو لم تكن من الجهل بالدرجة التي تحتاج الى من يعلمها وينير لها حياتها ، ولو لم تكن من الفساد بالدرجة التي تحتاج من يقومها ويبين لها وجه الصواب وسبـــــيل الصلاح ، لولا ذلك لما كانت هذه المجتمعات في حاجة الى أنبياء ، ولكانت مهمة الأنبياء لا موضع لها ، ولا حاجة اليها .

(١) الآيات ١٥ ، ٢٥ سورة الزخرف .

واخيرا فان القرآن يدمغ هذه النزعة المسيطرة عليهم فى التشبث بآبائهم ، بعد بيان الحق لهم ، وبعد علمهم علم اليقين ان آباءهم ضالون ،فيسخر منهـــم القرآن الكريم ، بأنهم آثروا الضلال لتأكدهم من انه ضلال ، فأسرعوا فى اثره اسراعا شديدا ، وانهم لو علموا أن آباءهم على حق لما اتبعوهم ، لأنهم يبحثون عن الضلال ، ويؤمونه لذاته ، فى قوله تعالى « انهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » (١) ·

٢ ــ العــــــادات :

رأينا فى الحديث السابق كيف ان القرآن الكريم يؤكد مبدأ تمسكهم باتباع الآباء دون تفكير ، بل مع يقينهم بخطأ هذا الاتباع ، يؤكد هذا بأساليب مختلفة ، وصور متنوعه ، ويؤكد ان هذا الاتباع ظاهرة عامة فى كل مجتمع على هذا المستوى من الجهل والتأخر والفساد ·

والعادات نوع من هذه النزعة ، غاية الامر انها يغلب التعبير بها عن السلوك لا عن العقيدة ، أما مبدأ الاتباع للآباء ، فهو عام فى العقيدة وفى السلوك ·

وكون العادات بصفتها نوعا من اتباع الآباء ، لها ما لاتباع الآباء من سلطان على نفوس المجتمعات ، وسيطرة على أفكارهم وعواطفهم كما يؤكد القرآ الكريم، أمر لا ينازع ولا يختلف فيه علماء الاجتماع ، بل يزيدونه تأكيدا وتوضيحا ، فيؤكدون من بحوثهم وتجاربهم ، ان العادة أقوى من أى سلطان فى المجتمع ، حتى من سلطان القانون نفسه ، مهما انطوى على عقوبات أو روادع ، لأن التشبث بالعادة الموروثة عن الآباء ، فضلا عن قوته وعمقه فى نفوس الأفراد ، فان الضغط الجماعى ، وشعور الفرد بأن المجتمع كله يراقبه ، ويلزمه التمسك بهذه العادة ، مما يزيده تشبثا بالعادة ، واصرارا عليها ، ولا تستطيع قوة حينئذ ولا قوة القانون أن تجعله يتخلى عن هذه العادة ، ويرون ان القانون لا يتعرض لخطر الاهمال ، والخروج عليه كما يتعرض له حين يتعرض لعادة من العادات ، فيقولون عن (مظاهر الاصطدام بين القانون والعادة الجمعية) حين يتعارض القانون مع العادات « حينما يهاجم قانون خاص آية عادة اجتماعية شائعة فى آية جماعة محلية ، يضطر اضطرارا كبيرا الى آن يعتمد على الجزاء الخطر ، كما نعلم وهو استخدام القوة ، الا ان لدى العادة الجمعية موضع المهاجمة تفوقا يرجع الى انها تطاع بطريقة اكثر تلقائية ·· وعلى ذلك فالقانون الذى يهاجم عـــادة جمعية شائعة يتعرض حتى لو لقى أغلبية من المؤيدين الى الافتقار الى مسوغ للتأييد لابد منه اذا أريد أن يكون قانونا فعالا ، وهو على كل حال يخلق قوة مقاومة تعرض سلطته للخطر ، واذا لم يستعن هذا القانون بالأحوال الاجتماعية

---

(١) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ سورة الصافات ·

الملائمة لنمو عادة جمعيه تؤيده ، فانه من المحقق أن يفشل » (١) ويؤكدون تغلب العادات على القانون في السيطرة على نفوس الأفراد فيقـــولون « ومن المناسبات التي يؤسف لها وجود تعارض بين العادة الجمعية والقانون ، وذلك لأن الناس يفضلون دائما أن يسلكوا طريق العادة مفضلين اياها على طاعة القانون » (٢) ·

ومن ذلك نفهم خطورة مهمة الاسلام الذى جاء ليغير وجه الحياة كله ، ويمحو عادات كثيرة لا تناسب مجتمعا متدينا متحضرا مفكرا يريده الاسلام ، ومن ذلك نفهم أيضا هذه المقاومة العنيفة الصلبة التي ووجه بها الاسلام منذ بدا ، لانه يحارب عادات وتقاليد ، تشبعت بها النفوس ،وسيطرت على الافكار والعواطف وزادها سيطرة تعاون أفراد المجتمع على التمسك بها ، ومحاربة من يخرج عليها ، فهى ملزمة للفرد بصفته فردا ، وللمجتمع بصفته مجتمعا ، كما يقول علمـــاء الاجتماع « تختلف قواعد السلوك عن القوانين الطبيعية من ناحية ، ومن ناحية أخرى تحمل في طياتها معنى الالزام ·· وهي كذلك ــ مظاهر السلوك العام والآداب ــ لها صفة التنظيم وتمارس الضغط على كل من الفرد والزمرة ، ليعملا وفقا للمعايير السائدة ·· والمجتمع في كل حالة من هذه الحالات يسند هـــذه القواعد بممارسة درجة ما من الضغط على الشخص الذى يحيد عنها » (٣) ، وحتى ان أرسطو يصف العادة بأنها « طبيعة ثانية » (٤) بل يذهب بعض علماء الاجتماع الى أبعد من ذلك في سيطرة العادات والتقاليد على المجتمعات فيرون ان التقليد (المحاكاة) هو القوة التي صاغت سلوك المجتمعات البدائية كله ، فكان هذه المجتمعات لا شخصية لها ولا فكر ، وانما يحدد شخصيتها وفكرها وسلوكها طابع التقليد الذى يسيطر عليها ، بل ان التقليد لا يقتصر سلطانه على المجتمعات البدائية وحدها ، وانما هو قوة مسيطرة أيضا على كل المجتمعات بصفة عامة ، وان كل مظاهر السلوك في أى مجتمع ، وكذلك سائر مظاهر العادات يمكن ارجاعها الى سيطرة التقليد في المجتمع ، ويرون أن التقليد ليس اختياريا لدى الأفراد والمجتمعات ، وانما هو قوة اضطرارية تلزم المجتمع ، بل قوة لاشعورية ، ويرون ان أقوى نواحي التقليد سلطانا هو ما يتعلق بالعقيدة ، ومن هذا نفهم سر الحملة الشديدة للقرآن الكريم على المشركين في تقليدهم آباءهم في الشرك دون وعي أو تفكير ونفهم أيضا تكرار القرآن لغلبة هذا التقليد عليهم ، وتصويره لسيطرة التقليد الشديدة عليهم ، وبذلك نجد علماء الاجتماع في كل ما ساقوه من بحوث ونتائج ونظريات عن سيطرة التقليد والعادة وأثرهما في المجتمع ، انما يؤيدون القرآن الكريم ، فقول القرآن الكريم « وكذلك ما أرسلنا من

(١) المجتمع ر٠م ما كيفر وشارلز هـ بدج ترجمة د· على احمد عيسى ص ٣٥٤ ·
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥ ·
(٣) المصدر السابق ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ ·
(٤) الوجيز في الفلسفة محمود يعقوبي ص ٦١ ·

قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (١) هو ما يقرره علماء الاجتماع من سيطرة التقليد على المجتمعات ، وكذلك ما يقرره علماء الاجتماع من ان التقليد قوة قسرية ولاشعورية يقع الأفراد تحت سطوتها دون وعى أو تفكير ، نجد ذلك فى أكثر من موضـع من القرآن الكريم ، ومن ذلك ما سبق من ان المشركين حتى مع وضوح الحق ، ويقينهم منه ، يرفضونه لمجرد الخضوع للتقليد ، ومن ذلك قوله تعالى عقب الآية السابقة « قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا انا بما أرسلتم به كافرون » وعلماء الاجتماع لا يعدون فى كل ما قرروه فى هذا المجال ان يؤكدوا ما قرره القرآن الكريم ، ومن ذلك قولهم « ان المحاكاة كانت القوة التى صاغت المجتمع البدائى فى قالبها ، وانها لا تزال أعظم الاصول الجوهرية فى المبادىء الاجتماعية وقد أثبت بيجهوت ان عملية المحاكاة تسير الآن فى مناحى الحياة كافة ، الزى .. الأسلوب الأدبى .. العادات .. بل فى السياسة والدين .. انما ترجع كلها فى رأيه الى محاكاة الجماهير لايحاء عرضى معين .. وعنده ان هذه المحاكاة قسرية ولا شعورية ، وهى من القوة بالدرجة التى تعانى فيها الألم اذا أحسسنا بعدم التوفيق فى المحاكاة » (٢) ثم يقول « الموطن الرئيسى لناحية المحاكاة فى طبيعتنا هو ما ندين به من اعتقاد ، وهذا يبين لنا انه — بيجهوت — أدرج مع المحاكاة ما يسمى الآن عادة بالايحاء ، وقد دلل على ان المحاكاة قوة محافظة نافذة تؤدى الى قبول العادات الراسخة » (٣) ويقررون أيضا عن (قوة العادة الاجتماعية) قولهم « تكلم شكسبير عن العادة الجماعية الطاغية وأسماها موتتين المربية العنيفة الحائنة ، وعند بيكون هى الحاكم الرئيسى فى حياة الانسان ، .. ونسب لها (لوك) من القوة ما يفوق قوة الطبيعة ، ومن المؤكد ان العادة الجماعية فى المجتمعات البدائية تنفذ الى كافة مناحى الحياة ، وتقرر أدق تفصيلات السلوك ، ونجد بين الشعوب المتمدينة أن سيطرة كل من العادات الجماعية والأذواق الوقتية الشائعة هى أعظم ما يقرره الباحثون لها عادة » (٤) .

وإذا أردنا تأكيدا أو تفسيرا لما أكده القرآن الكريم فيما سبق من الأمثلة لاصرار المشركين على اتباع الآباء ، ورفضهم كل منطق أو تفكير ، بل مع يقينهم من ضلال آبائهم ، ووضوح الحق الذى يدعون اليه ، فلننظر الى ما يقرره علماء الاجتماع ، من وراثة التقاليد ، حتى ولو كانت افكارا ، وانتقالها بالوراثة من جيل الى جيل ، حيث يقولون عن التقاليد « يقصد بالتقاليد جملة الأفكار والعادات الفردية والجماعية التى يسير على نهجها شعب من الشعوب ، ويتوارثها أفراده جيلا عن جيل ، ولم يكن من الخطل أن تعتبر بمثابة وراثة اجتماعية ، لأن كيفية

(١) الآية ٢٣ سورة الزخرف .
(٢) نفسية المجتمع موريس جنزبرج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص ٥٣ .
(٣) نفسية المجتمع موريس جينز برج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص ٥٤ .
(٤) المصدر السابق ص ١٧٠ — ١٧٢ .

فعلها وتأثيرها قوية الشبه بالوراثة البيولوجية ، فهي كالأخيرة تشكل أفعال الأفراد ، وتحدد سلوكهم ، وقد رأينا أن التقاليد عامل رئيسي في نمو العاطفة القومية ، وفي التشكيل الفعلي للأنماط القومية » (١) ويؤكدون هذه الوراثة للتقاليد ، ويؤكدون أيضا ما قرره القرآن الكريم في كثير من المواضع ، من أن المشركين يتصرفون في شركهم ، وفي جدالهم عن الشرك وهم مسلوبو التفكير والعقول ، « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » وقد يبدو لبعض الناس وبعض المفسرين أن في أسـلوب القرآن حينئذ نوعا من المبالغـة التي يقصد بهـا زيادة النكير على المشركين ، وزيادة التقريع لهم على شركهم واتباعهم آباءهم دون تفكير ، ولكننا حين ننظر الى ما يقرره علمـاء الاجتماع ، نجد أن ما قرره القرآن الكريم حقيقة كاملة لا تحمل شيئا من مبالغة أو حتى مجرد تصوير أو تمثيل ، فمن ذلك قول علماء الاجتماع عن العادة الجماعية « يمكن أن تقوم وأن يؤديها الفرد بصفة عامة دون اجراء أية عملية عقلية » (٢) وذلك بعد تقريرهم أن العادة الجماعية ترجع الى (السلالة أو الجنس) ويزيدون هذا توضيحا في قولهم عن العادة الجماعية أيضا « وتنحصر أهمية الغرائز بوجه خاص في تلك الحقيقة ، وهي أن الحيوان يمكنه بواسطة الغرائز أن يمضي في أداء نسق معقد من الأفعال دون أن يكون مضطرا الى التفكير في كل خطوة من خطواته ، أو الى ادراك الغاية الحقيقية لهذا النسق المسلسل من الأفعال كمجموع كلي .. والكائن البشري كسائر الحيوانات الأخرى قد وهب كيفيات موروثة للسلوك .. بيد أنه في حالة الكائن البشري فان السلالة تؤثر في الفرد أيضا عن طريق التقاليد أو العادات الجماعية ، أي تثبيت وترسيخ تلك الكيفيات من الفعل أو نقلها جيلا عن جيل » (٣) .

وخلاصة ما ينتهي اليه كل أحاديث علماء الاجتماع عن سيطرة العادات والتقاليد على المجتمعات ، من أنها ملزمة ، وأن سلطانها أقوى على النفوس من أي سلطان ، وأن الأفراد يجدون أنفسهم مدفوعين الى مزاولتها تحت كل الظروف ودون وعي أو تفكير منهم ، لأنها (قسرية) وكذلك (لاشعورية) ، كل ذلك نجده في القرآن الكريم لا اشارة ولا تعريضا ولا تضمينا ، وانما تصريحا واضحا في مواضع كثيرة منها قوله تعالى في تصوير رفضهم الدعـوة الى طريق الله ، وتمسكهم بتقليد آبائهم ، مع وضوح الحق الذي يدعون اليه ، ووضوح خطأ آبائهم وضلالهم ، وأن مثلهم في ذلك حين يسـمعون الداعي الى طريق الله فلا يحاولون التفكير في دعوته ، مثل الماشية التي لا تعي من كلام راعيها الا مجرد الصوت والنعيق ، دون أن تفهم مما يقول شيئا ، وأنهم في تمسكهم بتقليد

---

(١) المصدر السابق ١٦٢ .
(٢) المصدر السابق ١٧٠ .
(٣) نفسية المجتمع موريس جينز برج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص ٦٩٩ .

آبائهم ورفضهم الخروج عليه صم وبكم وعمى ،لانهم لا يحاولون أن يعقلوا من نتيجة تمسكهم بالتقليد ورفضهم الدعوة الى الله شيئا ، فيقول سبحانه « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (١) .

وبالنسبة لسخرية القرآن ، فقد اشرنا الى ما قرره علماء النفس والاجتماع من ان السخرية من أقوى الوسائل فى مقاومة العادات ، وفى التغيير الاجتماعى بصفة عامة ، لان مجرد الدعوة فى المجتمع الى ترك العادات والتقاليد لا يلقى استجابة قط ، مهما قامت الدعوة على المنطق او وضوح الحق فيها ، والقرآن نفسه يؤكد ذلك فى أكثر من موضع كما سبق ، بل يؤكد انهم يوقنون ان آباءهم على ضلال ، ومع ذلك يتشبثون بتقليدهم . فالدعوة المجردة لا تلقى اذن استجابة فى مجال العادات والتقاليد ، لأن الدعوة المجردة تعتمد على المنطق واستخدام التفكير ، والتقاليد تؤدى كما يقول علماء الاجتماع بطريقة قسرية ولاشعورية ، فلا تحتاج الى استخدام التفكير ، أما السخرية فانها تصل الى النفوس بطريقة غير عادية ، لأنها تضع الفرد أمام عقبة أشد من العقبة التى يزاول العادات من أجلها ، فمثلا حين توصم عادة من العادات بالسخرية من مزاولتها ، يجد الفرد نفسه حين يتعرض لمزاولة هذه العادة أمام مأزقين متعارضين عليه ، أن يتحاشاهما ، أحدهما انه يجد نفسه مضطرا لمزاولة هذه العـــادة خشية انكار المجتمع عليه ، والآخر انه لو زاول هذه العادة فسيتعرض للسخرية التى وصمت بها هذه العادة ، وعند الموازنة بين المأزقين ، نجد ان الاخير وهو الذى تتعلق به السخرية أقسى وأشد من الاول ، لأن السخرية تمس شخصية الفرد مساسا مباشرا ، حيث يشعر انه سيصبح أضحوكة وموضعا للتندر ، مما يمس صميم كيان الشخصية ، ويزعزع فيها الثقة بالنفس ، ويهـــز جوانب من أهم ما يحرص عليه الفرد ، سواء فى نظرته الى نفسه ، أو نظرة المجتمع اليه ، فاذا كان خروجه على العادة والتقليد ، يمس حرصه على نظرة المجتمع اليه برضى ، فان التعرض للسخرية يمس هذه الناحية ، وناحية أخرى وهى نظرته الى نفسه ، ولذلك كانت السخرية كما يقول علماء الاجتماع وعلماء النفس عن الضحك عدوان السخرية « يقوم بوظيفة النقد والاصلاح بالنسبة الى الجماعة ذاتها ، لانه بسخريته من العادات البالية والتقاليد العتيقة انما يعمل على خلق جو جديد فى صميم الجماعة ، ومن هنا فان للضحك وظيفة اجتماعية نافعة .. و وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من التغير الاجتماعى » (٢) ويؤكدون ذلك بقولهم « وصفوة القول ان معظم الباحثين مجمعون على ان الضحك وان كان ظاهـــرة

---

(١) الآيتان ١٧٠ ، ١٧١ سورة البقرة .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ص ٦٩

فسيولوجية .. الا انه وثيق الصلة بكل ما يحيط بالأفراد من ظروف اجتماعية .. وهو نفسه قد يكون بمثابة أداة تعيننا على تحقيق ذلك التغير الاجتماعي» (١) .

وسخرية القرآن من اتباع الآباء على تلك الصورة كما مر في الحديث السابق تعتبر سخرية من العادات بصفة عامة ، ولكن اذا أردنا أن نمثل لسخرية القرآن من العادات التي كانت شائعة في المجتمع ، فلنضرب مثالا بنظرة المجتمع العربي حينذاك الى البنات ، فكما سبق الاشارة اليه كان العرب نظرا لظروفهم الاجتماعية من معيشتهم في صراع دائم بعضهم مع بعض في الحروب والخلافات والخصومات ، وفي صراع دائم أيضا مع ظروفهم في الحياة والمعيشة ، من أرض مجدبة قاحلة ، ومواد ضيقة شحيحة ، لا يحصل الفرد فيها على ضرورات حياته الا بأشق الجهد ، وأعنف الوسائل ، هم لذلك كانوا يؤثرون البنين على البنات. ويرون البنات في هذا الصراع العنيف عبئا ثقيلا يفرون منه ويضيقون به أشد الضيق ، أما البنون فهم السواعد القوية ، والعون على هذه الحياة بما فيها ، ولذلك كان من تقاليدهم المشهورة ان القبيلة لا تهنأ الا بأحد ثلاث ، بولد يولد ، أو فرس تنتج ، أو شاعر ينبغ ، أما البنات فولادتهن كابوس ثقيل ، تضيق به الصدور ، وتغبر له الوجوه ، ولكن الله سبحانه خالق البنين والبنات ، كليهما لحكمة وضرورة يحيا بها الناس ، لا يريد لعباده أن يفرقوا بين خلقه هذه التفرقة الظالمة ، ولا ان ينظروا الى نوع منهم هو البنات هذه النظرة الهوجاء ، ولكنه سبحانه لا يعظهم بذلك وعظا ، ولا يجعل القرآن مناقشتهم فيه مناقشة مجردة ، لأن المناقشة في العادات والتقاليد غير مجدية كما سبق ، وانما يسوق القرآن ذلك في تصوير ساخر ، للذي يبشر بولادة بنت له ، فيصوره القرآن لا مجرد حزين أو مغتم ، أو خائب الأمل ، وانما يصوره وقد انقلب الى صورة غير صورته ، مسود الوجه ، يغالب ثورة من الحزن والحنق والضيق ، ثم يصوره وقد شعر بخزي وهوان يجعلانه لا يستطيع مواجهة الناس ، فيختفي عن الأعين ، وينزوي عن الناس ، ثم يصور صراعا عنيفا يثور في نفسه ، بين أن يمسك هذه المولودة ويبقيها عنده محتملا ما يشعر به من هوان وذل وصغار بين الناس وأن يئدها ويتخلص من عبئها وعارها وهمومها التي ثارت في نفسه ، ثم يبين لهم القرآن سوء هذه النظرة الى البنات ، ويشير الى ظلم البنات في هذا الوضع، كجزء من الظلم الذي يعبر به القرآن عن الكفر ، ومن تتمة هذه السخرية في نظرتهم الى البنات ، انهم مع هذا النفور الشديد من البنات ، ينسبونهن الى الله في زعمهم أن الملائكة بنات الله ، غير مقدرين كيف ينفرون هم هذا النفور منهن. ثم ينسبونهن الى الله الخالق المختار « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ، للذين

(١) المصدر السابق ص ٨٣ ، ٨٤ .

لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا جرم ان لهم النار وانهم مفرطون » (١) وتصوير الشخص مسود الوجه ، متواريا من الناس ، مغالبا لصراع رهيب فى نفسه من مجرد أن يبشر بولادة بنت له لاشك سخرية لاذعة ، تجعل كل من تولد له بنت فى هذا المجتمع ، قبل أن يفكر فى نسبتها اليه ، وقبل أن يشعر بأثر ذلك فى نفسه ، يتمثل هذه الصورة المنفرة ، التى لا يرضاها انسان لنفسه، ولا يرضى أن ينظر اليه الناس فيروه فيها .

واذا أردنا أن نستعرض بعض الجوانب الاجتماعية المرتبطة بالعادات ، والتى تعرضت لها سخرية القرآن ، فلنتوسع قليلا فى مدلول العادة ، بمعنى اننا لا ننظر اليها بالمعيار العرفى الذى يحدده علماء الاجتماع ، وانما نتحدث عن العادات بالمعنى العلمى لها ، وبما يرتبط بها ، أو يترتب عليها ، فكل ذلك يعتبر مكملا لمعنى العادات ومقترنا بها فى أغلب الأحيان ، فموضوع الحديث هو العادات او ما يتعلق بها من زاوية سخرية القرآن ، كجانب من الجوانب الاجتماعية التى عالجتها السخرية فى القرآن الكريم .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نتحدث عن أبرز ما تناولته سخرية القرآن كنماذج لشمول السخرية فى القرآن كل ما يتعلق بالنواحى الاجتماعية ، فنقول :

١ ـ الصلات الاجتماعية :

يقول علماء النفس عن السخرية التى يعبرون عنها حينئذ بأثرها وهو الضحك « الضحك يقوم بوظيفة المصحح الاجتماعى ، لأنه يعمل على صيانة الاستقرار الفكرى والاتحاد العاطفى فى المجتمع الواحد ضد شتى عوامل التنافر أو المفارقة أو الابتداع أو الاغراب ، فالضحك عندهم لا يؤدى وظيفة الجزاء الاجتماعى فحسب ، وانما هو يعمل أيضا على تقوية الروح الجماعية والتعاطف الجمعى بين أفراد الجماعة الواحدة » (٢) ، ومعنى ذلك ان السخرية كما تستخدم سلاحا خارجيا يوجه ضد الأعداء ، وضد الجماعات الأخرى ، فهى أيضا تستخدم سلاحا داخليا فى صميم الجماعة ، ضد عوامل التخلخل والفرقة والتصدع ، أو ضد الانحرافات الفردية بمختلف أنواعها .

وفى كل الميادين التى تجدى فيها السخرية استخدمها القرآن الكريم .

---

(١) الآيات ٥٧ ـ ٦٢ سورة النحل وانظر تفسير الكشاف للآيات ومعانى القرآن للفراء ٢/١٠٦.

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ص ٧٢ .

ومنها هذا الميدان الداخلى ، داخل المجتمع الاسلامى نفسه ، وذلك لحماية المجتمع الاسلامى من الثغرات التى يمكن أن يتسلل منها الشر بينهم ، فيؤثر فى علاقتهم بعضهم ببعض ، أو تدفع أحدا منهم الى الانحراف عن طريق الاسلام ، أو التأثر بمغريات خارجية ، تؤثر فى دينه أو خلقه بوصفه مسلما ·

فمن العادات العربية القديمة مجالس الشراب ، التى كان يحرص عليها لذاتها ، لما فيها من لذة الأنس ، ومتعة الحديث فى هذا الجو الخاص ، فاذا كانت الخمر عندهم متعة يحرص عليها ، فان مجالس الأنس عليها متعة أخرى ، لا تقل عن متعة الخمر ، ان لم تفقها عند الكثير ، كما يقول الفرزدق :

وما بقيت من اللذات الا احاديث الكرام على المدام (١)

وفى هذه المجالس كانت تتوثق العلاقات الشخصية ، وتنعقد الصداقات القوية ، حتى انه من أقوى ما يعبر عنه من توثق الصلة والصداقة بين شخصين أن يقال انهما نديما شراب ·

ثم جاء الاسلام ، فافترق بعض هؤلاء الندماء عن بعض ، حين دخل بعضهم فى ظل الاسلام ، وبقى آخرون فى ضلال الاصنام ، افترقوا فى الدين ، ولكن بعضهم لم تنفصم عرى الصداقة بينهم وبين أقرانهم من المشركين ، لأن الاسلام لم ينه عن استمرار الصلات الشخصية ما دامت لا تمس الدين والخلق الاسلامى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٢) بل يرغبهم فى استمرار هـــذه الصلة « ان الله يحب المقسطين » عسى أن يكون فيهـــا خـــير وهداية لأصدقائهم ·

واذا كانت هذه الصداقات التى تبنى فى مجالس الشراب تعتبر عندهم من أوثق الصداقات ، فان حديث القرآن عن الصداقات والصـــلات الشخصية لا يعنيها بذاتها ، وانما يعنى كل صلة شخصية ، وان أشار الى صلة الشراب ، فانما من باب اتخاذها مثلا لأوثق الصلات ، للوصول من ذلك الى الغرض الذى يهدف اليه القرآن ، والقرآن بالطبع يهدف الى أن تكون كل الصـــلات قائمة على الخير ، وهادفة الى الخير ، وهادفة أيضا الى اجتناب الشر ، كما يقول القرآن الكريم « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ويولى القرآن الصداقات الشخصية اهتماما خاصا ، لما لها من أثر كبير فى التأثير والتأثر ، فالثغرة التى تعتبر أضعف موطن فى الشخص يمكن أن يؤتى منها ، هى نقطة الصداقة ، فالصديق يمكن أن يؤثر فى صديقه ، وأن يتأثر به أيضا كما لا يمكن ذلك بالنسبة لشخص آخر ، والقرآن يهدف الى تحويل كل شىء

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٣٤/٤ والانتصاف لابن المنير (حاشية الكشاف) ·

(٢) الآية ٨ سورة الممتحنة ·

ليكون أداة للخير ، وطريقا للهدى والاصلاح ، فيجيء العلاقة القائمة على الايمان بكل ما يتضمنه معنى الايمان من عقيدة أو خلق أو تعاون على الخير فيجعل هذه العلاقة قمة العلاقات التى لا تعد لها الا علاقة الدم « انما المؤمنون اخوة » ، ويستثنى هذه العلاقة الخيرة من جميع العلاقات ، فيجعلها هى العلاقة الدائمة الباقية فى الدنيا والآخرة ، وما عداها من العلاقات فمن شانه الا يدوم لانه لم يقم على الاسس التى تضمن له الدوام ، ولذلك تتحول هذه الصداقات الى عداء وتخاصم يوم يكتشف كل من طرفيها ما فى نفس صاحبه ، ويعرف حقيقته ، « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » .

ولكن سخرية القرآن لا تكتفى بهذا العرض المجرد للتنبيه الى خطورة الصداقة التى لا تقوم على الخير ، ولا تدعو الى الخير ، وانما ترسم صورة ساخرة من قرين سوء ، حاول أن يضل قرينه المهتدى لولا أن أنقذه الله وحماه من شره ، وترسم سخرية القرآن أيضا صورة جميلة جذابة رائعة لهذا القرين الصالح الذى عصمه الله من ضلال قرينه ، لتكون المقارنة بين الصورتين فيها مفارقة شديدة توضح السخرية بقرين السوء وتبرزها ، وتدعو العقلاء الى التدبر والتقدير والتفكير فى صلاتهم بالآخرين ، حتى لا ينزلقوا من حيث لا يتعمدون تحت تأثير صداقات الآخرين لهم ، فالقرين الصالح فى صورة القرآن يتمتع فى الجنة بكل ما تهفو اليه النفوس من المتع بالذات ، فليس فيهما أكل (١) ولا ملبس ولا مقاعد ولا قصور كما تصور مواضع أخرى من القرآن ، ولعل فى هذا اشارة الى مجالس الشراب التى قامت فيها تلك الصداقات وانعقدت فيها الأواصر فى ظل المنادمة ، فهذه المجالس لا تحوى عادة غير الشراب بما فيه من متعة لنفوس الشاربين ، والساقيات بما يحققن من لذة لأجساد الشاربين ، فلعل هذه الصورة من القرآن اقتصرت على وصف هاتين المتعتين فى نعيم القرين الصالح ، مع المتعة الثالثة وهى مجلس الشراب نفسه ، والمنادمة بين الخلان على الشراب ، فهذا القرين الصالح يتمتع فى الجنة بهذه المتع الثلاث ، وهى بالطبع تختلف عن مثيلاتها من متع الدنيا ، لانها متع كاملة بكل ما تهفو اليه النفوس ، وخالية من كل شائبة من الشوائب التى تعكر هذه المتع فى الدنيا ، فالقرين الصالح فى مجلس شراب مع أخلاء له فى الجنة ، يديرون بينهم الحديث على الشراب ، وكان من منادمة هذا القرين لخلانه ، أن ذكر لهم حادثة بارزة فى حياته وهى صداقته فى الدنيا لشخص معين ، ولعل هذه الصداقة بينه وبين هذا الشخص انعقدت فى مجالس شراب ذكره بها مجلس شرابهم هـذا فى الجنة « من باب (الشىء بالشىء يذكر) ، ثم فرق بينهما الاسلام ، ولكن الصداقة لم تنفصم ، بل استمرا قرينين ، وبدل أن يهتدى قرينه بهداه حاول أن يرده عن الاسلام الى الكفر ، مجادلا اياه فى موضوع البعث ، ساخرا عن تصديقه أنهم

---

(١) فى الآيات ذكر الفواكه ، وهى من متطلبات مجالس الشراب وليست أكلا بالمعنى المفهوم .

سيبعثون بعد الموت ويحاسبون ، وظل يقول له « أانك لمن المصدقين ؟ أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمدينون ؟ » وهذا الاسلوب الاستفهامي التعجبي من القرين الكافر يتضمن سخرية واضحة من صديقه المؤمن ، بأسلوب يستعمل للسخرية كثيرا حتى في اللغة العامية الدارجة بهذه الصياغة نفسها ، ويواصل القرين الصالح حديثه لندامائه ، ثم يدعوهم الى أن يطلعوا على قرينه الكافر ، ليروا نتيجة كفره وسخريته من الايمان ، فيطلع الى قرينه الكافر فاذا هو فى وســط جهنم يصطلى فيها من كل الأهوال ، ولئن كانت الجنة والنار قد فرقا بينهما الى غير لقاء ، فان القرين الصالح يجب أن يودعه وداعا يزيده ألما وعذابا فوق عذاب جهنم ، بما يقرعه ويؤنبه على محــاولته اضلاله ، ثم تقارن ســـخرية القرآن بين المصيرين اللذين يختلفان اختلافا عظيما ، موضحة الغاية التى تهدف اليها السخرية من هذا المثل . وهى أن العمل والتنافس ينبغى أن يوجه الى النتيجة التى انتهى اليها القرين الصالح من وضعه فى الجنة « لمثل هذا فليعمل العاملون» وتركز سخرية القرآن على صورة طريفة من عذاب جهنم الذى يصــطليه قرناء السوء مع المصطلين ، وهو شجرة الزقوم ، حيث نراها فى ســـخرية القرآن صورة فى غاية الغرابة والطرافة والعجب ، فالصورة لا تتحدث منها عن أغصان ولا أوراق ، ولا ثمر ولا جزع ، وانما تصـــور كل ما فيها على أنه أشياء كأنها رءوس شياطين ، ولكن ما هى رءوس الشياطين ؟ وما صفتها ؟ وما أشــكالها ؟ ذلك ما لا يمكن لأى وصف أن يؤديه ، وانما يؤديه أن تترك الصورة للنفوس تتخيل هذه الرءوس كما تشاء ، وتسبح فى تصورهم كما تريد ، على ضوء ما علق بها من أساطير الجن ، وأوهـــام العفاريت ، فالألفاظ ليست ذات قيمة ، لأنها لا تؤدى المراد ، وهو التشنيع والتخويف الى أقصى الحدود ، وانما يؤدى المراد أن نتصور شجرة عظيمة هائلة ، كل ما فيها يشبه رءوس الشياطين ، واذا كانت هذه البشاعة الشنيعة لشجرة الزقوم من مجرد تصورها فى الخيال ، فكيف تكون بشـــاعة الأكل منها ؟ وكيف يكون التصـــور للأكل من رءوس الشـــياطين أو ما يشبهها ؟ ان قرين الســـوء ومن معه فى جهنم ســـيأكلون من هذه الرءوس أو ما يشبهها ، وليس بمجرد أكل ، بل سيملأون بطونهم ملأ ، حتى يتخمون ، وهذا الأكل الذى يملأ البطـون فيتخمها يحتـــاج بالضرورة الى شراب كثير ، وسيشربون بعد الأكل كثيرا ، ولكنه شراب « من حميم » « وهكذا تتعدد مواضع السخرية فى الصورة ، لأنه تعدد هادف الى عبر ينبغى التفكير فيها ، ولكن صلب الصـــورة يتركز على الصـــداقات الشخصية ، والتحذير مما قد تجره من وبال ، حتى يراجع كل ذى صداقة صداقته ، ويستهدف من هذه العلاقة الخير وحده ويتحاشى كل جانب سىء فيها ، يقول القرآن الكريم موجها الحديث الى نوع من الكافرين سيأتى الحديث عنه « انكم لذائقو العذاب الأليم ، وما تجزون الا ما كنتم تعملون ، الا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضـــاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ،

كأنهن بيض مكنون ، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم انى كان لى قرين ، يقول أانك لمن المصدقين ، أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمدينون ؟ قال هل انتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال تالله أن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، افما نحن بميتين الا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ؟ ان هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون ، أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ؟ ، انا جعلناها فتنة للظالمين ، انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنها رءوس الشياطين ، فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ، ثم ان مرجعهم لالى الجحيم ، انهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » (١) ٠

وبهذا الاتجاه فى العلاقات الشخصية يريد الاسلام أن يبنى مجتمعا صحيحا قوى البنيان ، فان العلاقات الشخصية هى الأساس الذى يتبنى عليه كل ترابط اجتماعى ولو تصورنا مجتمعا تقوم كل علاقاته الشخصية على الخير والمبـــادىء والطهر ، وتبنى كل روابطه الفردية على التعاون الهادف الى الخير ، المتسامى عن السفاسف والنفعية المجردة ، لأمكننا أن نحكم على هذا المجتمع بأنه المجتمع الكامل فى بنيانه الاجتمـــاعى ، وبأنه المجتمع القوى بهذا الترابط المتين ، فان أخطر ما تبلى به جماعة أو مجتمع أن تتفكك روابطه وعلاقاته ، وأن تهى الخيوط التى تربط بين الأفراد رباطا حقيقيا ، ولو تصـــورنا مجتمعا متفكك الروابط الحقيقية بين أفراده ، ولا تقوم الروابط فيه الا على الأهواء الشخصية والمنافع الذاتية لأمكننا أن نحكم بفساد هذا المجتمع ، وضعفه المعنوى ، مهما تهيأ له من وسائل القوة المادية وقد أثبت المجتمع الاسلامى الأول قوته الخارقة الجبارة، بهذه العلاقات الوثيقة التى قامت بين أفراده على الايمان والخير والمبادىء العامة ، التى تستهدف المصلحة العامة ، وتجعل المصلحة الذاتية الفردية فى المرتبة الثانية أو الأخيرة ، ويؤكد صلى الله عليه وسلم هدف القرآن فى أن تقوم العلاقـــات الشخصية على الخير والمبادىء فى قوله عليه السلام « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لايحبه الا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » (٢) ٠

والقرآن يبلغ فى محافظته على قوة العلاقـات الشــــخصية أقصى المدى لأهميتها فى بناء المجتمع ، فيريد من الفرد أن يبنى علاقته بالآخرين على الخير ، ثم يطلب منه أن يحافظ على هذه العلاقة من كل ما يمكن أن يسىء اليها أو يضعفها من قريب أو بعيد ، فيحسن صلته بأخيه حاضرا ، ويرعى هذه الصلة غائبا ، مع مراعاة أن الاسلام قد جعل الايمان نفسه صلة من أقوى الصــــلات بين كل من يجمعهم الايمان « انما المؤمنون اخوة » لأن هذه الصلة هى التى تكون المجتمع الاسلامى ، فالفرد مطالب باحسان الصلة فيمن يتاح له أن يتصل بهم ، ومطالب

---

(١) الآيات ٣٨ ــ ٧٠ سورة الصافات ٠

(٢) رواه البخارى ٠

موق ذلك بأن يرعى الصحبة حتى مع غياب الطرف الآخر ، وهذا المعنى يشكل ما يشبه العادة في المجتمعات ، فمن عادة المجالس في المجتمعات أن يكون وقودها الغائبون ، وأعم تسلياتها وأسمارها سيرة شخص غائب ، فاذا انتهى حديثه انتقلوا الى ذكر شخص آخر وهكذا ، وفي أغلب الاحيان تتداول هذه الأحاديث على الألسنة حتى تبلغ أصحابها ، ومما لا شك فيه أن كل انسان يؤذيه أن يتحدث عنه أحد بسوء ، ومن الطبيعي أن يضمر هذا الغائب في نفسه نفورا ممن تناول غيبته ، وحيث أن ذلك ليس حادثا فرديا أو عارضا ، بل كما هو واضح يشبه أن يكون عادة ملتزمة في المجالس ، فستتعدد الأحاديث غير المرضية عن الغائبين ، وسيتعدد تبعا لذلك النافرون من الذين اغتابوهم ، وهكذا تتحول هذه الظاهرة أو العادة أو ترك الناس فيها على سجيتهم الى معول يهدم الأواصر الاجتماعية بالتدريج داخل كل جماعة ، والاسلام في حرصه الشديد على أن تظل أواصر مجتمعه قوية وثيقة ، يحاول دائما أن يسد كل الثغرات التي يمكن أن ينفذ منها التشقق الاجتماعي داخل صفوف المجتمع الاسلامي ، ومن أهم هذه الثغرات الغيبة ، فينهى القرآن عنها نهيا حازما قاطعا ، ولكنه يعلم أن المعاني المجردة ضعيفة المفعول والأثر في النفوس ، وخاصة فيما يتعلق بالعادات ، وما يشبه العادات ، فيلجأ الى السخرية ، مصورا الغيبة تصويرا بشعا منفرا ، قلما يصوره القرآن في أي موضوع آخر ، حيث يصور من يغتاب شخصا بأن يذكره في غيبته بما يكره ، في صورة لا يمكن أن تقبلها نفس بشرية مهما يكن نوعها أو مزاجها ، فتقارن بين هذا الشخص الذي يؤذي أخاه وهو غائب ، بشخص بلغت به الوحشية الدنيئة أن يعمد الى لحم آدمي فيأكل منه ، وليس مجرد لحم آدمي ، بل أن هذا الآدمي ميت ، وليس مجرد ميت ، بل أن هذا الميت أخـــوه وليس الأكل عن ضرورة أو كراهية ، وانما أكل عن اختيار ورغبة وشهية ، فتقول هذه الصورة الساخرة من القرآن الكريم « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (١) ، وقد فهم المسلمون خطورة هذا الأمر الذي ينهى القرآن عنه بهذا التصوير الشنيع ، فيقول ابن عباس « الغيبة ادام كلاب النـــاس » (٢) ويتحدث الزمخشـــري عن فهمه لما تضمنه تصوير القرآن للغيبة فيقول « تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى ، منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصـــولا بالمحبة ومنها اسناد الفعل الى أحدكم ، والاشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتا » (٣) ، ولكنهم مع ذلك قصروا حديثهم على الناحية الدينية الخلقية ، وعلى النـــاحية الفردية من أهداف تصور القرآن ، دون أن يفصحوا عن الهدف الاجتماعي الذي ترمي اليه صـــورة

---

(١) الآية ١٢ سورة الحجرات .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ٤/٢٩٧ .

(٣) المصدر السابق .

القرآن ، مع ان القرآن نفسه يصرح بهذا المعنى تصريحا فى الآية التالية للآية السابقة مباشرة ، ويشير اشارة واضحة الى الربط بين الغيبة والهدف الاجتماعي العام حيث يقول « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » (١) فهذه الآية تحصر الغرض من اختلاف النوع البشرى من الذكر والأنثى ، واختلاف الأماكن والشعوب والقبائل فى غاية واحدة هى التعارف وربط الصلات الاجتماعية على كل طبقاتها ومراحلها بين الأفراد والجماعات والأمم ، والشق الأخير من الآية يشير الى الأسس التى ينبغى أن تقوم عليها هذه الروابط والصلات ، وهو التقوى بكل ما تعنيه كلمة التقوى من معان روحية ومعان اجتماعية ، حيث يصرح هذا الشق بأن المقياس الوحيد للتفاضل بين الناس هو التقوى ، فالله سبحانه لا ينظر الى الناس ولا يعاملهم الا بهذا المقياس ، وهى دعوة صريحة الى التقوى لتكون خلقا لكل فرد ، وحيث يكون الافراد اتقياء ، فستكون صلاتهم بالضرورة قائمة على التقوى ، وهو الهدف الأخير فى هذا المقام ٠

(ب) الخلق الاجتماعى :

ولكن الدعوة العامة التى يوجهها القرآن الكريم بأن تقوم الصلات على الايمان والخلق ، تصطدم أحيانا بعقبات صلبة من العادات الراسخة ، أو النزعات الفردية التى تنبع من الحرص على المنافع الشخصية ، أو ارضاء غرائز معينة تسيطر عليهم ، لذلك لم تكن الدعوة العامة كافية فى محاربة هذه العقبات وتحطيمها ، ولذلك عمد القرآن الكريم وخاصة بالسخرية الى تحطيم هذه العقبات ، وازالتها من طريق الاصلاح الاجتماعى الذى يرسمه القرآن ، واذا أردنا أن نضرب أمثلة لأبرز النواحى التى دعا اليها القرآن فى سخريته لمقاومة هذه العقبات فنقول :

١ ـ التعاطف النفسى فى المجتمع :

فيدعو القرآن فى مواضع كثيرة منه الى أن يسود روح التعاطف والمودة النفسية بين أفراد المجتمع ، بحيث يشعر كل فرد أنه لا يوجد فاصل نفسى بينه وبين الآخرين ، وبأن أفراد المجتمع مهما تفاوتت حظوظهم من جاه أو مال أو منصب أو غير ذلك ، فان نفسياتهم وأرواحهم جميعا لا تفاوت بينها ، ولا حواجز تفصل بينها ، ولكن هذه الدعوة الانسانية من جانب القرآن تصطدم بأوضاع اجتماعية اتخذت فى كثير من الأحيان طابع العادات والتقاليد المسيطرة على النفوس ، أو تصطدم بنزعات فردية تتحكم فيها المنافع الذاتية ، والتنافس الشخصى فمثلا من الأوضاع الاجتماعية فى كل المجتمعات ، وخاصة فى المجتمع

---

(٤) الآية ١٣ سورة الحجرات ٠

العربي القديم ، أن هناك مقومات معينة كالجاه والمنصب والمال ، تدفع أصحاب الحظوظ الوافية منها الى التأثر النفسي بهذه المقومات ، فيجعلون فضلهم على غيرهم في هذه المقومات فضلا على غيرهم أيضا في المنزلة الاجتماعية فيحاولون أن يفرضوا هذا الفضل على غيرهم فرضا ، جاعلين لأنفسهم منه حقوقا يمتازون بها عن غيرهم ، منتقصين بهذه الحقوق من حقوق الآخرين ، فمثلا في المجتمع العربي القديم ، كان أصحاب الجاه أو المال أو النسب لا يقبلون أن يكونوا في مستوى غيرهم من الناس ، ولا يقبلون أن يعاملوا على أنهم كسائر الناس ، بل يفرضون لأنفسهم على الناس أوضاعا وحقوقا بحيث تجعلهم بارزين في المجتمع ، ممتازين عن غيرهم وكانوا يحاولون أن يظهروا ذلك في كل شيء ، حتى في لباسهم وفي مشيتهم ، وفي كل ما يتعلق بمظهرهم ، ولذلك كان يمكن أن يعرف الواحد من هذه الطبقة بمجرد مشيته أو ملبسه ، أو مظهره كله ، وقد أصبح ذلك في حكم التقليد المتوارث الذي يتشبث به أصحابه كالعادة الراسخة ، والذي يعرفه المجتمع فلا ينكر عليه ، لأنه أصبح في حكم التقليد الذي يقره المجتمع ولا ينكره، بل ينكر عدم صدوره من أصحابه أو يعجب له ، لأنه يكون حينئذ خارجا على العرف المألوف .

فهذه الأوضاع الاجتماعية اذن كانت تقسم المجتمع الى طبقات عليا وسفلى ، ومن البديهي أن التعاطف النفسي ، والتقارب العاطفي بين هذه الطبقات واه شديد الوهي ، ان لم يكن منعدما انعداما كاملا ، فأصحاب الطبقة العليا لا يرضون ان ينزلوا بنفسياتهم وعواطفهم الى طبقة يحتقرونها لأنهم يرونها دونهم مكانا ، وأصحاب الطبقة السفلى يجدون حاجزا صلبا يفصل بينهم وبين من هم أعلى منهم ، فهم يريدون أن يرتفعوا الى هذه النفوس العليا في المجتمع ، ولكنهم لايملكون ولا يستطيعون ، فترتد نفوس الى نوع من الحقد على تلك النفوس العليا ، أو النفور منها ، أو تحاشيها على أيسر الفروض ، وهذا بالطبع لا يمنع الصلة العملية أو الاجتماعية بينهم ، فقد تقوم الصلة العملية أو الاجتماعية بين اثنين مع انعدام الصلة النفسية بينهما بالمعنى الذي نتحدث عنه ، كالصلة بين الخادم وسيده ، أو بين القوى والمستضعف ، أو نحو ذلك .

ولكن الاسلام يحرص كل الحرص في كل ما يدعو اليه في هذا المقام على تحقيق هذه الصلة النفسية بالذات ، بين أفراد المجتمع جميعا ، مهما تفاوتت حظوظهم من المقومات الاجتماعية ، ولذلك نجده يحارب أشد الحرب كل ما من شأنه أن يؤثر في الصلة النفسية ، والتقارب العاطفي بين أفراد المجتمع ويدعو القرآن بقوة واصرار الى كل ما يحقق هذه الصلة ، كما سبق ذكره من الآيات ، وقد حقق النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصلة النفسية بين أفراده جميعا على تفاوت حظوظهم من المقومات الاجتماعية ، كما لم يتحقق ذلك قط في تاريخ البشرية قبل الاسلام ، ومن المؤكد انه لن يتحقق مرة أخرى ، وهذا

مما لا يتنازع فيه أى منصف ، حتى من أعداء الاســلام ، وقد ضرب هذا الجيل امثلة خالدة فى هذا المعنى لازالت تبهر الناس وتثير اعجابهم ، وهى امثلة كثيرة ومشهورة ، وليس مما يقتضيه الموضوع ، وكل ما يتعلق منها بالموضوع أنهـا اثر من آثار خلق القرآن الذى طبقه المسلمون .

ولكن الذى يعنينا أن الاوضاع الاجتمـــاعية التى كانت فى المجتمع قبل الاسلام ، كانت تخلق فواصل نفسية بين بعض أفراد المجتمع وبين البعض الآخر ، حتى أنه كان من الأسباب التى تمنع بعض أصحاب المقومات الاجتماعية من الدخول فى الاسلام نفورهم وانفتهم من أن يصبحوا فى مستوى غيرهــم ، أو أن ينزلوا بنفسياتهم الى مستوى غيرهم ، كما يروى « أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو طردت عنا هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان واضرابهم رضوان الله عليهم جلسنا اليك وحادثناك ، فقال عليه الصلاة والسلام ما أنا بطارد المؤمنين ، فقالوا فاقمهم عنا اذا جئنا ، فاذا قمنا فاقعدهم معك » ولكون هذا الوضع كان معترفا به فى المجتمع حينذاك كعادة وتقليد راسخين ، قال عمر طمعا فى ايمانهم ، موافقا على طلبهم ، يخاطب النبى « لو فعلت حتى ننظر الى ما يصيرون » (١) ، ولكن القرآن نهى الرسول نهيا شديدا قاطعا عن أن يوافقهم فيفرط بذلك فى مبادىء الاسلام (٢)

واذن فقد كانت هذه الأوضاع ، فضلا عن كونها تخالف مبادىء الاسلام ، كانت من العقبات أمام انتشار الاسلام ، ولذلك حاربها القرآن حربا عنيفة ، ونهى نهيا شديدا عن كل ما يدفع اليها ، أو يغرى بها من المعانى والمظاهر .

ولكن النهى المجرد كما قلنا ضعيف الأثر فيما يتعلق بالعادات أو الغرائز ، ولذلك لجأ القرآن الى السخرية من هذه الأوضاع ، تدعيما وتنفيذا لدعـوته ، فالسخرية تتبع أهم المظاهر التى تنبع من الشعور بهذه الأوضاع ، فتحطمها بالتصوير المتهكم ، الذى يجعـل منها أضحوكة بعـد أن كانت مظهرا للتفوق الاجتمــاعى .

ومن ذلك مثلا أنه كان من أمارات السيادة والجاه لشخص ما فى المجتمع أن يصطنع لنفسه مظهرا خاصا يمتاز به السادة من عامة الناس ، ومن هـذا المظهر اسبال الازار ، وطول الرداء ، ومنه المشية الخاصة التى تنبىء عن الترفع عن عامة الناس ، والتعالى عليهم ، وقد يكون لكل من هؤلاء طريقة خاصة فى هذه المشية ، ولكنها جميعا تتخذ طابع التكلف والتصنع الذى يدل على أن لصاحبه ميزة عن غيره فى المجتمع .

---

(١) تفسير الكشاف ٢/٢١ .
(٢) الآية ٥٢ سورة الانعام .

ويسخر القرآن الكريم من هذه المشية فى عدة جوانب منها ، هى الجوانب المصطنعة المتكلفة ، فيسخر من الذين يسيطر عليهم الزهو والخيلاء ، فيما سبق من الحديث ، فيمشى الواحد منهم وكأنه يخرق الأرض بدبه اياها ، وكأنه يطاول الجبال بشموخ أنفه ورفع هامته الى السماء ، ولكن القرآن لا يكتفى بمجرد ان ينهاه عن تصور هذه المعانى او تمثلها فى النفس ، وانما يرسم له صورة (كاريكاتيرية) ساخرة : فى صورة شخص يريد ان يخرق الارض بكل دبة قدم عليها فى مشيته ، وبأنه يتعالى ويرتفع بقامته ليطاول الجبال من حوله فى ارتفاعها ، وليس أحد يظن أنه سيخرق الارض بمشيه ، ولا ان يبلغ الجبال بطوله ، ولكنه التصوير الساخر الذى يقرن هذه المشية بهذه الصورة الشديدة السخرية ، سواء فى نفس من يريد أن يمشيها ، أو فى نفس من ينظر اليه « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » (١) ٠

وفى موضع آخر من القرآن الكريم ، تتناول السخرية مظهرين من مظاهر الانفصال النفسى فى المجتمع ، حين يتعالى بعضه على بعض ، فيتخذ لنفسه مظهرا يمتاز به عن الآخرين ، وهذان المظهران اللذان تناولتهما السخرية ،هما تلك المشية الخاصة ، والصوت الخاص الذى يعمد بعض المتعالين الى أن يتخذه لنفسه حين يتكلم ، ويتمثل فى جمهورية مصطنعة يريد أن يثير بها الرهبة فى نفوس الناس ، وان يجعل من رنينها رعبا يجعل الناس يقشعرون منه ، وهذان المظهران يسخر منهما القرآن سخرية بالغة الاهانة والتحقير لمن يلجأ اليهما ، فيصور صاحب هذه المشية بأنه مجرد بعير مريض بداء فى عنقه ، هو الصعر الذى يلوى أعناق الابل حين يصيبها ، ويصور صاحب ذلك الصوت بأنه مجرد حمار ناهق بأقصى صوته « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » ، وبهاتين الصورتين يتحول هذان المظهران ، من مظهر سيادة وجاه ورفعة فى المجتمع الى مظهر مضحك ، مثير للسخرية والتحقير والاهانة لكل من تراوده نفسه أن يصطنعهما ٠

وقد كان لدعوة القرآن بمبادئه الواضحة الحازمة الى التعاطف النفسى بين أفراد المجتمع جميعا ، وجعلهم جميعا مهما تفاوتت أنصبتهم من المقومات الاجتماعية يقفون على قدم متساوية ، وصف متكافىء أمام كل الحقوق والواجبات ، وأمام كل وضع عام فى المجتمع ، كان لهذه الدعوة ، ولتدعيمها بالسخرية من الذين يحاولون الخروج عليها أعظم الأثر وأبلغه فى نفوس المسلمين جميعا ، فاذا هم يتحولون بمجرد انتقالهم من الجاهلية الى الاسلام دون فارق زمنى ، أو اجتياز مراحل انتقالية قط ، من مجتمع تتحكم الطبقية النفسية فى كل حياته ، وفى

---

(١) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ سورة الاسراء ٠

جميع أنواع سلوكه ، الى مجتمع متساو كامل التساوى فى نفسياته ، وفى نظرة كل فرد الى الآخر بالنسبة لهذه الزاوية بالذات ، شعارهم قول القرآن الكريم « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » ، ولكن هذا الفضل عند الله وحده ، أما عند الناس ، وأمام المجتمع فهم كأسنان المشط .

وقد أحسن المسلمون الأولون تطبيق هذا المبدأ حتى كانوا غرة ناصعة فى جبين البشرية كلها ، وكانوا كما وصفهم القرآن الكريم « كنتم خير امة أخرجت للناس ... » ، حتى ان عمر بن الخطاب حين جاء سعد بن أبي وقاص ليأخذ عطاءه فتخطى الناس ليصل الى الخليفة فيأخذ عطاءه قبل غيره ، ضربه عمر بدرته . وقال له منكرا عليه تخطيه الناس: أغرك انك خال رسول الله؟ وسعد بن أبي وقاص فى منزلته عند المسلمين جميعا أحد أفراد يعدون على أصابع اليدين فى الأمة الاسلامية كلها .

٢ – التعاطف المعيشى :

وقد حدد الاسلام نظاما كاملا مفصلا للتعاون والتعاطف المعيشى ، وأبرزه نظام الزكاة ، ولكننا لا نتناول هذا المعنى هنا من حيث هو نظام مفصل ، ولا من حيث أثره ، فذلك كله معروف فى الاسلام ، وليس من صلب الموضوع ، ولكن الذى يعنينا فى مقام الحديث عن موقف سخرية القرآن من الخلق الاجتماعي حين ينحرف عن مبادئ الاسلام ، هو أن القرآن فى مجال التعاون والتعاطف المعيشى بين أفراد المجتمع ، لا يريد أن يكون ذلك مجرد نظام اجبارى كالذى يتمثل فى الزكاة ، وانما يريد أن يجعل منه خلقا يتحلى به أفراد المجتمع ، بحيث يجدون من صدورهم الوازع الخلقى الذى يشعرهم بواجبهم الانسانى نحو الآخرين ، بصرف النظر عما هو مفروض عليهم ، فالنظم المفروضة اذا لم تتجاوب فيها أخلاق الأفراد ، واذا لم تكن موافقة لرغباتهم النفسية من حيث ما يمليه الخلق والضمير، فان هذه النظم والقوانين تتحول فى كثير من الأحيان الى مجرد نظم شكلية لا تعبر عن خلق المجتمع المطبقة فيه ، لأنها تتعارض مع اتجاهاته النفسية ، ومن ثم يلتمس الأفراد كل الوسائل ، وينتهزون كل الفرص للخروج على هذه النظم والاستهتار بها ، ولكن الاسلام لا يريد لنظمه أن تكون شكلية ، ولا أن يشعر الأفراد أنها لا تلتقى مع اتجاهاتهم ونزعاتهم النفسية ، ولذلك نجد الاسلام يحمى هذه النظم بأن يجعل لها فى نفوس الأفراد أسسا متينة من الخلق والاستعداد ، بحيث تكون موافقة لأخلاق الأفراد واستعدادهم النفسى .

ونظام كالزكاة يصطدم فى نفوس الأفراد بغريزة حب المال والحرص عليه ، ولو تركت هذه الغريزة بسلطانها على النفوس ، لكان من العسير على هذه النفوس أن تتقبل نظام الزكاة ، ولا لتمس كثير من الأفراد الوسائل للتهرب منه ، انقيادا لغريزة حب المال والحرص عليه ، هذه الغريزة التى تبدو آثارها فى

نواح عديدة من الخلق والسلوك لدى أفراد المجتمع ، كالبخل ، والحرص على اكتناز المال ، وما يدور في هذا المحيط من خلق كثير من الناس •

وهنا يأتي دور سخرية القرآن ، فانها تعمد الى هذه العقبات التي تقف أمام النظام العام الذي حدده الاســـلام للتعاون المعيشي ، وجعله مفروضا على الافراد ، والتي تنبع من غرائز مضادة للخير في نفوسهم فتحطمها ، وتجعل منها شيئا بغيضا ممقوتا يحاذر كل فرد أن يلصق به شيء منها ، وتجعل من يتصف بها ، ينظر الى نفسه ، وينظر اليه الناس ، نظرة لا يحب أحد أن ينظر اليه بها •

واذا أردنا أن نضرب أمثلة لأهم النواحي التي تناولتها سخرية القرآن في هذا الموضوع نقول :

(أ) البخل :

والبخل كظاهرة خلقية معروف في المجتمعات ، وهو ينبع من غريزة الحرص على المال ، وحيث انه نابع عن غريزة ، فمن الطبيعي ان يكون الاستعداد له موجودا في كل النفوس ، وانما يقاوم بمعان أخرى تعارض الاتجاه اليه ، وقد يقاوم بصورة عكسية ، فيتحول السلوك من البخل الى التبذير والاسراف ، ولا يكون التبذير حينئذ انعداما لاستعداد البخل في نفس صاحبه ، ولا يكون أيضا مجرد خلق يوصف به هذا الشخص ، وانما هو نابع أيضا من غريزة أخرى ، هي غريزة حب الذات ، أو ما يسميه علماء النفس (الأنا) ، هـــذه الغريزة التي تدفع الفرد الى تركيز اهتمامه بذاته ، والحرص على ابراز هـــذه الذات ، وان يحقق لها صاحبها كل ما يرى فيه نفعا لها • واذا كان البخل والتبذير متقابلين ، فان الغريزتين اللتين نبعا منهما ليستا متضادتين ، بل هما من أقرب الغرائز في الفرد التصاقا ، وانما جاء التضاد في أثريهما وهما البخل والتبذير ، من أن غريزة حب الذات تدفع صاحبها أحيانا الى الرغبة الجامحة في ابراز ذاته ، وفرض هذا البروز على المجتمع ، ويسيطر هذا المعنى على صاحبه ، فيدفعه الى سلوك سبيل تحقق له هذه الرغبة الجامحة ، ومن هذه السبل أن يظهر للناس بمظهر السخي الذي ينفق بغير حدود ، ويعطي بغير حساب ، فان هذا السلوك في نظره يحقق له شعوره بذاته واشعار الناس بذاته على الصورة التي يرتضيها ، وبالقدر المسيطر على نفسه من هذا المعنى ، واذن فالبخل والتبذير كلاهما يمثل جموح غريزة بشرية ، وهذا الجموح ليس من الخير ، وكل جموح لا يعد في الفضائل ، بل يعد في الرذائل ، كما يعرف الفلاسفة الفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين (١) كالجود فانه فضيلة ، ولكن الجموح فيه رذيلة ، سواء كان جموحا الى أسفل وهو البخل ، او كان جموحا الى أعلى وهو التبـــذير ، فكلاهما رذيلة ، والاسلام دائما يدعو الى هذا الوسط ، لأنه دائما يدعو الى

---

(١) انظر الوجيز في الفلسفة محمود يعقوبي ص ١٨١ •

الفضائل « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (١) .

وسخرية القرآن تهاجم هاتين الرذيلتين ، ولكنها تركز اهتمامها على البخل، لأنه أكثر شيوعا من التبذير ، ولأنه أثر مباشر لغريزة الحرص ، فهو شائع في كثير من الافراد ، أما التبذير فهو مجرد وسيلة من وسائل كثيرة لارضاء غريزة حب الذات ، ولذلك لا يظهر الا في افراد معدودين في كل مجتمع غالبا ، ولذلك كان اهتمام سخرية القرآن بالبخل أوضح في الصورة التي تصور البخيل بانه ليس مجرد مستمسك بما عنده ، ولا مجرد مانع بره عن الناس ، وانما هو شخص مغلول اليدين ، وليس وضع الغل ، او وضع اليدين في الغل عاديا كما يألف الناس في الاغلال ، وانما نراهما مغلولتين الى عنقه ، وتصورنا لشخص غلت يداه الى عنقه ، لا شك أنه يدعو الى الطرافة والعجب ، ويجعل المتصف بهذه الصورة أضحوكة وموضعا للتندر ، وأما التبذير فلكونه مع أنه رذيلة هو اقرب الى الخير من البخل ، حيث ينتفع من ورائه بعض الناس ، لذلك كان من تصوير سخرية القرآن له اخف وأيسر تهكما من تصوير البخل ، حيث نرى المبذر في الصورة مبسوط اليد ، وبسط اليد يعني انها فارغة لا تملك شيئا ، لان امساك الشيء يكون عادة بقبض اليد عليه ، أما بسطها فمعناه أنه لا شيء فيها ، وهكذا يكون مصير المسرف حيث يجد نفسه بعد حين غالبا ولا شيء في يده ، ثم تجمع سخرية القرآن بين نتيجة هاتين الرذيلتين في صورة واحدة ، نرى فيها كلا من البخيل والمسرف « قاعدا » ملوما من الناس على البخل ، ومتحسرا على ضياع ماله بالنسبة للمبذر ، في قوله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (٢) ولفظ « تقعد » لذاته يرسم صـــورة ساخرة من البخيل والمبذر ، حين يجد كل منهما نهايته بين الناس ، فالبخيل (قاعد) وكأنه ملازم للأرض كشخص مقعد ، ولكنه يتلقى اللوم الذي ينهال عليه من كل جانب ، والمبذر أيضا قعيد الأرض بعد أن نفد ماله ، ويمكن أن نتمثله جالسا مطرقا الى الأرض ، شارد الذهن ، يفيض أسى وحسرة وألما ، بعد أن أصبح صفر اليدين ، فلم يجد من ماله شيئا ، ولم يجد من الذين أحسن اليهم حتى المواساة ، ولم يجد مما كان يهدف اليه من ابراز ذاته بين الناس شيئا ، بل وجدها أمعنت في الانزواء من حيث أراد لها الظهور .

وفي موضع آخـر يجعل القرآن الكريم البخـل من الصفات الأساسية للمنافقين ، لأن النفاق يقوم على طلب المنفعة الذاتية وحدها ، دون الاستعداد لأي تضحية ، والجود لا يتفق وهذه النزعة ، لذلك كان من الطبيعي أن يكون البخل من مقومات النفاق ، ولكن سخرية القرآن لا تعبر عن بخلهم بالألفاظ ،

---

(١) من الآية ١٤٣ سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٩ سورة الاسراء .

وانما تصورهم وأيديهم مقبوضة ، لا تنبسط بأى خير ، ولا تمتد بأى بر ، فيقول القرآن عنهم « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضـــون أيديهم نســـوا الله فأنساهم أنفسهم ان المنافقين هم الفاسقون » (١) والتعبير بالمضارع فى (يقبضون) يعنى حرصهم الدائم والمتجدد على الشح وعدم الاستعداد لأى بذل ٠

(ب) اكتناز المال :

ومن الواضح أن الاسلام لا يحارب اكتناز المال لذاته ، وانما يحاربه من زاويتين ، أو باعتبارين فحسب ، أحدهما ألا يؤدى فيه حق الله الذى هو فى الواقع حق المجتمع فى هذا المال ، وهو الزكاة ، والاعتبار الآخر أن يكون الاكتناز نابعا من جموح غريزة حب المال ، وسيطرتها على صاحبها ، فان هذه السيطرة من شأنها أن تجعل من صاحبها مجرد عبد للمال يقضى حياته منصرفا الى جمعه، معرضا عن أى هدف آخر من أهداف الخير ، والاسلام ينظر دائما الى المال على أنه عرض من أعراض الحياة المتنقلة الزائلة بين الناس ، وعلى أنه وسيلة للحيـــاة الكريمة ، ولفعل الخير ، وليس غاية تستهدف لذاتها ، والفرق كبير جدا بين النظرة اليه على انه غاية ، من حيث ما تمليه النظرتان من سلوك صاحبيهما ، فالاسلام لا يحارب اكتناز المال لذاته اذن ، بل يحاربه من هاتين الزاويتين ان وجدا فى صاحبه ، ومن ذلك ما يروى من أن النبى صلى الله عليه وسلم رؤى جالسا بجوار الكعبة مرة وهو يقول « هم الأخسرون ورب الكعبة ، هم الأخسرون ورب الكعبة » فسأله بعض أصحابه : من هم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ قال «الأكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا ، وأشار بيديه فى كل ناحية» (٢) ويعنى بالاشارة فى كل اتجاه الذين ينفقون من أموالهم فى كل وجه من وجوه الخير ، لأن هذا الانفاق يدل على أنه من الذين ينظرون الى المال على أنه وسيلة لا غاية ، وبهذا تنتفى عنه المعانى التى يحاربها الاسلام فى جمع المال ٠

وسخرية القرآن تهاجم اكتناز المال على الوجه المشار اليه ، والسخرية بطبيعتها لا تلجأ الى المعانى المجردة ، وانما تلجأ الى التصوير ، والمعانى الطريفة التى تحمل مفارقة تثير الانتباه ، فهذه صورة من سخرية القرآن باكتناز المال ، لا تنهى عن الاكتناز بصريح اللفظ المألوف ، وانما تستثنى أولا من الكانزين من ينفق من هذا المال فى سبيل الله ، وأما الباقون فتأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يزف اليهم بشرى ، ولما كان المال حبيبا الى النفس ، ويقترن جمعـــه واكتنازه بالسرور فى نفوس المولعين باكتنازه ، فانهم حين يسمعون أنه ستزف اليهم بشرى تنبسط نفوسهم ، ويتوقعون بشرى حقيقية تدخل سعادة جديدة الى

---

(١) الآية ٦٧ سورة التوبة ٠

(٢) انظر صحيح البخارى والرواية هنا بالمضمون ٠

غرسهم مع سعادتها بالمال ، ولم لا يتوقعون البشرى ؟ أليس تفانيهم في جمع المال واكتنازه طلبا للسعادة والبشريات ؟ فلتتطلع نفوسهم الى هذه البشرى التي يزفها اليهم النبي ، ولكنهم يفاجأون بما لم يخطر لهم على بال ، يفاجأون بأن هذه البشرى هي « عذاب أليم ينتظرهم » ، وما شكل هذا العذاب الاليم الذى فوجئوا به من حيث لا يحتسبون ؟ انه مالهم نفسه الذى قضوا حياتهم يجمعونه ويكنزونه، هو نفسه سيكون أداة العذاب لهم ، وكيف ذلك ؟ انه مظهر غريب من العذاب ، حيث يتحول ذهبهم ، وتتحول فضتهم الى مكاو يحمى عليها في نار جهنم ، ثم تنهال عليهم هذه المكاوى في كل موضع من أجسامهم يكوى فيه عادة ، كما يرون الابل مثلا وهي تكوى ، ولكنهم يزاد لهم موضع يكوون فيه ، لا يؤلف فيه الكي حتى في البهائم ، وهو الجباه ، ثم تصب عليهم سخريتان لفظيتان ، احداهما « هذا ما كنزتم لأنفسكم » . والاخرى يقال لهم فيها « ذوقوا ما كنتم تكنزون » ، ولا شك أن كل مؤمن ذى مال يجزع من تصور أن تطبق عليه هذه الصورة ، فيفكر ويقدر قبل أن تستريح نفسه الى ماله المكنوز ، حين يستمع الى قوله تعالى « .... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (١) .

والسخرية من اكتناز المال في القرآن متعددة ، ومنها هذه الصورة التي تقرن كانز المال بالكافرين المدبرين عن الله ، حيث تجعل النهم الشديد في جمع المال خلقا للكافرين ، وليس للمؤمنين ، الذين يوقنون بأن رزقهم عند الله ، وأنهم لا يملكون دون الله شيئا ، وأن هذا الرزق الذى منحهم اياه أقل ما يجب عليهم فيه أن يؤدوا حق صاحبه الرازق الذى يملك أن يبسط في هذا الرزق ، كما يملك أن يقبضه اليه ويطويه عن صاحبه ، فالايمان يجعل المؤمن سخيا بماله ليقينه بأنه رزق من عند الله ، وأن الله يملك أن يزيد في هذا الرزق أو أن ينقص ، وأن يمحو ، فهذا اليقين يسهل على المؤمنين بذل مالهم في سبيل الله ؛ أما الكافر فانه يعتقد أنه ماله هو ، جمعه بكده وجهده ، ولذلك تشير هذه السخرية في القرآن الى ربط الحرص الشديد على جمع المال بمعنى الكفر ، وتجعلهما معا في مستوى واحد من جهنم ، يتلظون عذابا غريبا ، فرغم أنه نار ، وأنه نار جهنم التي لا تبقى على شيء ، الا أن السخرية تجعل هذه النار الشنيعة لا تأكل الا جلدة الرأس منهم ، لنتصور منظرهم بعدئذ ، وقد سلخت جلود رءوسهم من شدة النار ، وأجسامهم كما هي ، فتقول هذه الصورة « كلا انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى .... » (٢) والشوى جلدة الرأس ، وجمع فأوعى ، أى جعل ماله في أوعية بعد جمعه ،

---

(١) من الآية ٣٤ والآية ٣٥ سورة التوبة .

(٢) انظر دراسات اسلامية محمد عبد الرحمن الجديل ص ٩٦ .

كناية عن كنزه ، والواضح فى هذا الاسلوب ليس تصوير شدة العذاب ، فهناك صور لعذاب جهنم تحدث عنها القرآن اشد واقسى ، ولكن الواضح هو تشويه شكل هؤلاء الذين تناولتهم السخرية بحيث نراهم كما هم ، ولكن مع هـذا التشويه البشع فى نزع جلدة رأس كل منهم ·

(جـ) منع الخير :

والاسـلام كمـا سبق يريد ان يجعل الاستعداد للخير خلقا يتحلى به المسلمون ، وليس مجرد خضوع لنظم مفروضة محددة ، ولذلك يدعو كثيرا الى البر والخير فى كل وجوهه ، ولكننا فى مقام الحديث عن النواحى الاجتماعية نعنى ما يدور حول العطف على محتاجيه ، ومساعدة ذوى الحاجة الى العون على الحياة ، فان الاسلام يريد لمجتمعه أن يقوم على التعاطف والتعاون والتراحم ، وهـذه المعانى خيوط متينة تربط افراد المجتمع بعضهم ببعض ، وكل مجتمع يفقد هذه المعانى مفكك واه ، لا يعدو أن يكون مجتمع وحوش يصرع القوى فيه الضعيف، ويهلك الكليل فيه دون أن يلقى عونا أو رحمة ، ونجد الدعوة الملحة الى كل معانى الخير متعددة فى القرآن الكريم ·

وسخرية القرآن تناولت جوانب كثيرة من هذه المعانى ، فنعت نعيا شديدا على متجاهليها ، وانه ليبلغ من الاهتمام بهذه المعانى الاجتماعية أن تجعلها سخرية القرآن فى كثير من المواضع ضمن صفات الكافرين ، أو ضمن الأسباب التى تدعو الى العذاب الشديد فى جهنم ، ومن ذلك هذه السخرية التى سبق الحـديث عنها ، والتى تجعل منع الخير من الأسباب التى دفعت أصحابها الى الجحيم ، فى قوله تعالى « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ، ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد ، مناع للخير معتد مريب ، الذى جعل مع الله الها آخر فألقياه فى العذاب الشديد ، قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضـلال بعيد ، قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد ، ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » (١) فقد جعلت الصورة منع الخير معدودا مع الشرك على أنه صفة من صفاته ، ومن المعانى التى ساقها المفسرون لمنع الخير قول الزمخشرى « مناع للخير : كثير المنع للمال عن حقوقه ، جعل ذلك عادة له لا يبذل منه شيئا قط » (٢) ، وفى الصورة الساخرة التى جعلت المشركين فى اعراضهم عن الدعوة الى الله ونفورهم منها « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » تجعل هذه الصورة عدم اطعام المسكين من الأسباب التى أودت بأصحابها الى سقر ، وتجعله أيضا معدودا مع الكفر والتكذيب بيوم الدين فى قوله تعالى « كل نفس

---

(١) الآيات ٢١ ــ ٢٩ سورة ق ·
(٢) تفسير الكشاف ٣٠٧/٤ ·

بما كسبت رهينة ، الا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » (١) .

بل تجد سخرية القرآن تولي اطعام المسكين اهتماما شديدا ، فلا تكتفي باطعام المسكين ، وانما تطلب أيضا حض الناس على اطعامه ، وحين تصب تقريعها لا تصبه على عدم اطعام المسكين ، وانما تصبه على عدم الحض على إطعامه ، وليس ذلك فحسب ، بل تجعل عدم الحض على اطعام المسكين هو السبب الوحيد مع الكفر ، اللذان دفعا بالمتصف بهما الى جهنم ، في حالة من الاهانة والتحقير شديدة الوقع ، حيث تجد المتصف بهما مستخزيا ذليلا ، يناجي نفسه باللوم العنيف ، والتقريع العميق ، متمنيا الموت لينجو من هذه الالام ، متذكرا حقارة ماله الذى منعه عن المحتاجين ، وأنه لم ينفعه اليوم بشيء ، ثم تراه مسوقا الى جهنم في حالة بالغة الهوان ، مكبلا مغللا ، تحوطه سلسلة تبلغ من ضخامتها وطولها أن يشعر هو بالضآلة وحقارة الحجم والشأن بجوارها ، ثم يتذوق من ألوان العذاب في جهنم ما يشاء الله « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، انه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام الا من غسلين ، لا يأكله الا الخاطئون » (٢) .

بل ان القرآن ليجعل عدم الحض على اطعام المسكين مع قهر اليتيم هما الكفر ، كما يجعل عدم اسداء العون الى المحتاجين انه من كبائر الاثم قرينا للرياء ، وللاستخفاف بالصلاة ، وهذا أقصى ما يمكن أن يتصور في قوة الدعوة الى التعاطف والتراحم الاجتماعي في قوله تعالى « أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون » (٣) ويقول الزمخشري عن أن القرآن جعل ايذاء اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين هما الكفر ، يقول « والمعنى ، هل عرفت الذى يكذب بالجزاء من هو ؟ ان لم تعرفه فذلك الذى يكذب بالجزاء ، هو الذى يدع اليتيم أي يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى ...... » (٤)

(١) الآيات ٣٨ ــ ٥٢ سورة المدثر .
(٢) الآيات ٢٥ ــ ٣٧ سورة الحاقة .
(٣) سورة الماعون .
(٤) تفسير الكشاف لسورة الماعون ٤/٦٤٢ .

ومما يرويه الزمخشري في تفسير (الماعون) قوله « عن ابن مسعود ما يتعاون في العادة من الفاس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها ، وعن عائشة : الماء والنار والملح : وقد يكون منع هذه الأشياء محظورا في الشريعة اذا استعيرت عن اضطرار ، وقبيحا في المروءة في غير حال الضرورة » .

بل ان القرآن لا يرضى بأن يكون العطاء تكلفا واصطناعا ، أو مغالبة للنفس ، وانما يريد أن يكون البذل خلقا نابعا من سماحة الايمان ، واعتماد المؤمن على ربه ، ويقينه بأن ما انفق من شيء فان الله يخلفه ، هذا الايمان الذى يجعله ينفق بسخاء ، وينفق في كل وقت تدعوه الحاجة الى الانفاق . ولذلك نجد القرآن يبدى اللوم على العطاء القليل ، الذى يدل على انه مغالبة للنفس ، وعجز عن قهر جموح غريزة حب الامتلاك ، مما يؤدى به الى الامساك عن الانفاق ، فيقول سبحانه « افرايت الذى تولى ، وأعطى قليلا واكدى ، اعنده علم الغيب فهو يرى ، أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وابراهيم الذى وفى ، الا تزر وازرة وزر أخرى ، وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وان الى ربك المنتهى » (١) والاكداء قطع العطاء والامساك عنه ، ويروى أن هذه الآيات نزلت في عثمان بن عفان ، حينما كان المسلمون في بدء الاسلام لم يتفقهوا بعد في الدين ، وكان عثمان يحب أن يبذل كثيرا في سبيل الله ، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة ، يوشك الا يبقى لك شيء ، فقال عثمان : ان لى ذنوبا وخطايا ، وانى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ، فقال عبد الله : اعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت هذه الآيات(٢) ، ومع أن هذه القصة تتمشى مع معانى الآيات ، الا اننا نؤثر أن يكون التفاتنا الى معنى الآيات لذاتها بصرف النظر عن القصة على فرض صحتها ، فان القرآن من المعروف أنه وان كان هناك أسباب لنزول آياته ، الا أن معناه وأهدافه دائما عامة ، وكان سبب النزول مجرد مثل ينطبق عليه معنى الآية ، والمعنى الذى يعنينا من الآيات السابقة تركيز النعى على عدم الاعطاء ، وكذلك الموعظة ، واشارة الى اللوم حتى على العطاء القليل .

(د) صقل المسلمين :

ومن حيث ان القرآن قد دعا الى ما يخلق من المسلمين مجتمعا كاملا ، تتحقق فيه الصفات الفاضلة ، فان من الجوانب ذات الأهمية الكبرى في بناء هذا

---

(١) الآيات ٣٣ ــ ٤٢ سورة النجم .

(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٤/٣٣٩ ويلاحظ أن ذلك على فرض صحته كان في بدء الاسلام قبل أن يلموا بالاسلام على حقيقته وسورة النجم من أوائل ما نزل بمكة ، ويلاحظ أن عبد الله بن سعد ارتد عن الاسلام بعد ذلك ثم عاد اليه .

المجتمع ، وكل مجتمع ، الأفراد أنفسهم ، فان المجتمع فى جملته مجموع أفراد ، وكل حكم نحكمه على مجتمع ما ، فانما ينبع من الحكم على الأفراد فاذا كان الأفراد صالحين ، كان المجتمع صالحا ، وان كانوا عكس ذلك كان المجتمع كهذا العكس ٠

ولسنا نعنى من هذا الحديث كل ما دعا اليه الاسلام من اصلاح وتقويم بالنسبة للأفراد ، فالواقع ان كل ما دعا اليه القرآن من هذا النحو ينصب على الأفراد ، لأنهم هم المخاطبون به ، والمطلوب منهم تطبيقه وتنفيذه ، ولكننا نعنى جانبا معينا هو صقل الأفراد بحيث يشعر كل واحد منهم أنه شخصية لها جانب من الاستقلال فى المقدرة على تحمل المسئولية ، وعلى مواجهة الصعاب ، وعلى تنفيذ ما يناط بها فى المجتمع ، وخارج المجتمع ، ولا أظن أحدا حتى من أعداء الاسلام ينازع فى ان الاسلام كان أنجح الأديان والدعوات فى تحقيق هـذا المعنى فى أبنائه الأولين بصورة الكمال الذى لا يتحقق الا فى الخيال ، وفى تصورات المصلحين التى يعلمون قبل غيرهم انها مجرد تصورات وأمانى لا يمكن لها التحقق فى واقع البشرية ، ولكن الاسلام استطاع أن يجعل هذه الخيالات حقيقة واقعة ، وأن يبنى مجتمعا كاملا تتمثل فى كل أفراده هذه الحقيقة ، حتى كانوا كما شهد لهم الله سبحانه « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وحتى كانوا كمـا وصفهم النبى صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجـوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » (١) ، وحتى كان من أبرز ما يظهره التاريخ الاسلامى هو شخصيات أفراد هذه الأمة ، حتى الأشخاص العاديون منهم ، فى مواقفهم من الجهاد ، ومن التضحية ، ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن كل ما يتاح للفرد ان يظهر أثره فيه ٠

ومن الواضح ان هذا الانقلاب العظيم الذى حول مجتمعا معظمه من الأرقاء والأتباع والضعفاء ، الى هذا المجتمع الذى كان خير مجتمع أخرج للناس ، انما كان بفضل الاسلام وتربيته للأفراد ٠

ومن هذه التربية صقل الأفراد فردا فردا ، حتى يشعر كل فرد بذاته وبقيمته وبواجبه فى المجتمع ، ويشعر المجتمع نحوه بذلك ، ومن العجيب أننا حين نتأمل وسائل الاسلام فى هذا الهدف ، نجد ان من أبرزها تعريض الأفراد للمحن ، واختبارهم بالشدائد ، وعرضهم على ألوان من البلاء ، وحين نستعرض هذا الجانب فى القرآن الكريم نجده واضحا ملموسا ، ونجد ان تعريض أفراد المسلمين للبلاء والمحن والتضحيات الشاقة أمر لم يأت عفوا ، بل ولم يكن لمجرد اقتضاء الأحداث له ، وانما كان أمرا مقصودا أراده الله سبحانه لذات هـذا الأمر ، ومن ذلك قوله تعالى « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا

---

(١) انظر صحيح البخارى ٠

انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (١) ، فالله سبحانه يعدهم بالبلاء في أنواع وصفوف شتى ، وكذلك قوله سبحانه « لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » (٢) والله سبحانه يجعل الآيات نفسها ناطقة بالحكمة في تعريضهم لهذه الألوان كلها من البلاء ، وهي صقلهم وتعويدهم الصبر ، وكلمة الصبر قد تبدو يسيرة او عادية المدلول لكثرة تداولها ، ولكن مضمونها شيء كبير ، ان الصبر أعظم قوة يمكن ان يتصف بها انسان من بين أنواع القوة البشرية ، لأنه يتضمن التحكم في قوة الاحتمال ، وقوة الارادة ، وهما دفة الانسان ، بل ودفة الحياة كلها ، وبمقدار ما يتاح لفرد منهما بمقدار ما يكون عظيما بكل ما تعنيه الكلمة من مدلول العظمة ، بل ان القدرة على التحلي بالفضائل ، والقدرة على تجنب الرذائل ، مهما يكن نوع كل منهما ومقداره انما يقاس بمقدار نصيب الشخص من هاتين الطاقتين ، قوة الاحتمال ، وقوة الارادة .

وحين نذهب الى علم النفس لنلم ببعض ما يقوله علماؤه عن قيمة تعرض الفرد لما يسمونه (التعويق) وهو العقبات التي تعترض حياة الفرد لتحول بينه وبين أمانيه القريبة ورغباته العاجلة ، أو تجعل بينه وبينها متاعب ومصاعب يتحتم عليه اجتيازها قبل أن يبلغ هدفه ، حين نلم بما يقرره الباحثون عن قيمة ذلك في حياة الأفراد ، ولزومه لكل شخصية يراد بها أن تكون على قدر كبير من القوة والكفاءة والشعور بالاستقلال الذاتي والقدرة على مواجهة الصعاب وتحمل الأعباء ، حينئذ نعلم الحكمة من حرص القرآن على أن يعرض أفـــراد المسلمين لكل هذه الألوان من البلاء والمحن الكثيرة لمتعددة الصنوف والجوانب ، فمن ذلك قول علماء النفس عن (منافع التعويق) (٣) يقولون « ويبدو من المحتمل ان امتناع التعويق لا يعين على تطور شخصية متميزة ، فالفرد اذا لم تعترضه عقبة يظل شيئا تافها غبيا مجردا من الخيال ، مطمئنا كاطمئنان البقر ، ويؤيد هذا الرأى الدراسات التي قام بها (شرمان) و (هنرى) حول بعض الجماعات التي تقطن الجبال ، .. ومن المحتمل أيضا ان خبرة ملاقاة المشـــكلات والملاءمة الكافية معها تجربة لازمة لتطور الفرد المستقل المكتفي بذاته ، ومع ان تنازل الفرد عن كثير من رغباته الأنانية ينطوى على عملية تعويق أكثر من أى شيء آخر فلابد للفرد من هذا التنازل حين يتقدم ليشغل مكانه الكامل كعضو مسئول في المجتمع » (٤) فهم اذن يقررون أن تعرض الفرد للعقبات والمشكلات والصعاب لازم ليجعل منه شخصية مستقلة قوية قادرة على تحمل المسئولية ،

---

(١) الآيات ١٥٥ – ١٥٨ سورة البقرة .

(٢) الآية ١٨٦ سورة آل عمران .

(٣) عنوان الفصل في المرجع التالي ذكره .

(٤) علم النفس التربوى آرثر بيتس ، ت.د ماكونل وآخرين ترجمة مجموعة ص ٢٧ ، ٢٨ .

وشغل المكان الايجابي الفعال في المجتمع ، ومن هذا تزداد فهما ويقينا بحكمة الله سبحانه في تعريض أفراد المؤمنين للعقبات والمصاعب والتضحيات الشاقة العنيفة القاسية ·

وحين ننظر الى السخرية التي اتخذها القرآن الكريم سلاحا من أسلحة الهدى والتقويم ، نجد ان السخرية من حيث هي تكمل هذا المعنى في صقل الافراد وتنمية شخصياتهم ، فعلماء النفس يقررون ان روح السخرية ، والاحساس بالفكاهة وتذوقها من علامات النضج العقلي ، بل ومن سمات النضج في الشخصية بصفة عامة ، فيقولون « كلمة الباحثين اجتمعت على أن « الحس الفكاهي » سمة هامة قيمة من سمات الشخصية » (١) وعن علاقة الذكاء بالحس الفكاهي يقولون « أثبتت التجارب والبحوث ان هناك ارتباطا وثيقا بين الحس الفكاهي والذكاء ، فكلما ارتفع الذكاء كان الاحساس بالفكاهة أقوى » (٢) . والذكاء الذي يرتبط بالحس الفكاهي هو من مقومات الشخصية ، ومن أبرز معالم النضج فيها ·

وسخرية القرآن ساهمت في ميدان صقل الافراد بنصيب وافر ، ومن حيث الهدف العام وهو الدعوة الى تكوين المجتمع الكامل في ظل الاسلام ، فقد عمدت سخرية القرآن الى النيل من كل جانب يتنافى مع هذا الهدف ، ولما كان صقل أفراد المسلمين من جوانب هذا الهدف العام ، فقد اسهمت السخرية بالسهم القوي فيه ، ومن ذلك موقف المسلمين يوم أحد ، فمع أن نتيجة المعركة ، وهي هزيمة المسلمين ، وانتصار أعدائهم ، تعتبر هذه النتيجة لذاتها من عوامل صقل المسلمين ، حتى لا يغتروا بالنصر الكبير الذي حققوه في بدر ، وحتى لا يقر في نفوسهم ان الاسلام لابد أن ينتصر لمجرد انه دين الله ، وان المسلمين لابد أن ينتصروا لمجرد أنهم يدافعون عن هذا الدين ، وحتى يوقنوا بأنهم لا يمكن أن ينتصروا حتى يكونوا بحيث يستحقون النصر ، من قوة الايمان ومن حب التضحية في سبيل هذا الايمان ، نقول فضلا عن ان نتيجة أحد لذاتها كانت من عوامل الصقل لأفراد المسلمين ، فان بعض مواقف المسلمين في أحد كانت جديرة باللوم ، لا تتفق مع ما ينبغي أن يكون عليه مثلهم من طاعة الله ورسوله ، ومن التضحية مهما بلغت من الفداحة أو الثقل على النفوس ، وقد لامهم القرآن الكريم ، وفي بعض هذا اللوم سخرية وتقريع ، ومن ذلك ان القرآن يسألهم في لهجة السخرية والانكار « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ » فيتهكم القرآن من ظنهم ان مجرد الدخول في الاسلام ، والانتظام في جماعة المسلمين كاف لأن يكونوا جميعا من المؤمنين الذين يستحقون الجنة ، مبينا لهم ان مجرد الاسلام الظاهري

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ص ٢٠٠ ·
(٢) المصدر السابق ٢٠٧ ، ٣٨ ·

أو السطحى أو الواهى لا يرفع صاحبه إلى الدرجة التى يعد فيها من المؤمنين أهل الجنة ، وحتى لا تكون لهم حجة يوم القيامة ، يعرضهم الله للمواقف الصعبة ، حتى يظهر كل فرد على حقيقته أمام نفسه ، وأمام الناس ، ففى هذه المواقف تبدو المعادن على حقيقتها ، ويتجلى القدر الذى يحمله الفرد من الايمان الحقيقى .

وتشتد لهجة سخرية القرآن من أفراد المسلمين ، حين تذكرهم بأنهم خالفوا الرسول فى رأيه أن ينتظروا المشركين حتى يصلوا الى المدينة ، فأصروا على الرغبة فى الخروج للاقائهم خارج المدينة ، مظهرين حبهم للموت ، وتمنيهم الشهادة فى سبيل الله ، فتذكرهم سخرية القرآن بهذا الموقف وبتمنيهم الموت وانهم رأوا الموت الذى كانوا يتمنـــونه قبـل خروجهم من المدينة ، ولكنهم لم يواجهوه كما تمنوا ، بل فروا عنه ، وفروا عن رسول الله تاركين اياه وحده يواجه أعداءه جميعا ، فيذكرهم القرآن بهذا فى لهجة تفيض سخرية وتأنيبا « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » وكما يقول الزمخشرى « وهذا توبيخ لهم عن تمنيهم الموت ، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحاحهم عليه ، ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده » ويسخر القرآن أيضا من الحجة التى اعتمد عليها كثير من المسلمين فى فرارهم يوم أحد ، وهى انهم سمعوا بأن الرسول قتل فوقع الرعب فى قلوبهم ففروا ، فيذكرهم القرآن بأن الايمان الذى فى القلوب انما هـــو لله لا للرسول ، وما محمد صلى الله عليه وسلم الا رسول من عند الله كغيره ممن أرسلهم الله « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتـل انقلبتم على أعقابكم ؟ » وكان عبد الله بن قمئة قد رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بحجر فكسر رباعيته ، وشج وجهه ، ثم أقبل يريد قتل النبى ، فتصدى له مصعب بن عمير دفاعا عن النبى ، فقتل مصعب بيد ابن قمئة ، وكان مصعب قريب الشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم فى شكله ، فظنه ابن قمئة النبى فأشاع فى المشركين انه قتل محمدا ، وسرت الاشاعة بين المسلمين فكانت من أهم أسباب النتيجة التى انتهى اليها المسلمون فى أحد .

ويبدأ حديث القرآن لهم عن موقف أحد ، بشىء من التعزية للمسلمين ، بأنهم ان يكونوا قد أصيبوا فى هذه المعركة فان أعداءهم قد أصيبوا منهم قبل ذلك ، ثم يبين لهم الحكمة فى ان الله سبحانه أراد لهم هذه النتيجة المرة فى حلوقهم ، وهى أن يتضح المؤمنون بقلوبهم من المسلمين بألسنتهم ، وأن تتضح درجة الايمان فى قلب كل منهم ، ثم النتيجة العظمى وهى صقل أفراد المسلمين وتمحيصهم ، يقول سبحانه « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ، وما محمد الا رسول قد

خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » (١) ٠

ثم يسوق القرآن سخرية أخرى بعد هذه الآيات ، مصورة فرار المسلمين فى صورة لا تليق بمن يوصف بالايمان وحب التضحية فى سبيل الله ، اذ صورتهم السخرية مسرعين فى الهرب ، لا يصدهم عن ذلك حتى المرتفعات والجبال فيصعدون فيها ، وقد أعرضوا عن كل شىء ، وكان الخوف أذهلهم عن التفكير فى أى شىء الا الهرب الى أى وجه دون التفكير حتى فى صلاحية هذا الوجه للهرب أو عدم صلاحيته ، وتصور الرسول فى أخراهم يدعوهم الى الرجوع وهم فى هذه الحال المقوتة من الاسراع فى الهرب دون الالواء على شىء « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » ٠

ولكن القرآن يوضح معنى ذا أهمية كبيرة فى صقل شخصية الأفراد ، هذا الصقل الذى كان هدف فى تعريضهم لهذا البلاء الشديد ، والمحنة القاسية ، والمعنى ذو الأهمية هو تعويدهم على ثبات الشخصية ، بحيث يصبح طابعها وخلقها هو الثبات أمام كل الأحداث والمثيرات ، مرها وحلوها ، بحيث لا ترعبهم الأحداث المرة ، ولا تزعزعهم الملمات القاسية « لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم » وكما يقول الزمخشرى « لتتمرنوا على تجرع الغموم ، وتضروا باحتمال الشدائد ، فلا تحزنوا من بعد على فائت من المنافع ، ولا على مصيب من المضار » (٢) ، فيقول سبحانه « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » (٣) ٠

والحكمة فى تعريض أفراد المسلمين للبلاء ، وعرضهم على المحن ، يوضحها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » (٤) ، فالحكمة اذن فى تعريضهم للبلاء تبيان درجة الايمان التى ينبىء عنها موقف الجهاد والتضحية ، ودرجة القوة المعنوية بمقدار الاحتمال وقوة الارادة ، ثم الحكم العام عليهم ، وهو الذى يصبح حديثا عنهم وأخبارا تنسب اليهم وتروى عنهم ٠

ويجيب القرآن عن سؤال قد يراود كثيرا من البسطاء فى الناس ، وهو لماذا لا ينصر الله الحق دون أن يعرض أصحابه للمحن وهو قادر على ذلك ؟

---

(١) الآيات ١٤٠ ــ ١٤٤ سورة آل عمران وانظر فى تفسيرها الكشاف للزمخشرى ١/٣٢٢ ٠

(٢) تفسير الكشاف ١/٣٢٩ ٠

(٣) الآية ١٥٣ سورة آل عمران وانظر عمدة التفسير لابن كثير وفيه قوله (فاتكم) من الغنيمة والنصر ٠٠ (أصابكم) من القتل والجراح والغمان أحدهما الهزيمة والاخرى عدم الغنيمة أو اشاعة موت النبى ٠

(٤) الآية ٣١ سورة محمد ٠

او لماذا يتيح الله لاعدائه أن يطغوا أو يبغوا وهو قادر على الانتقام منهم دون حاجة الى عون من أحد من عباده ، فيجيب القرآن الكريم عن ذلك بقوله « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » (١) ، وفى المعنى الأخير من الآيات يجيب القرآن عما قد يدور بخلد بعض الناس ، من التفكير في ان بعض الناس يذهبون ضحية الايمان فيقتلون دفاعا عن الدين والمبادىء ، فيبين لهم القرآن ان هؤلاء لم يذهبوا كما يتصور بعض الناس ، وانما حقق الله لهم أمنية الشهادة فى سبيله ، وضمن لهم حياة خيرا من حياتهم الدنيا ، وأعد لهم عنده كرامة تهون عندها كل تضحية ، كما يصرح القرآن الكريم بذلك فى كثير من مواضعه ، جاعلا الشهداء فى موضع بارز ، ومنزلة خاصة عند الله سبحانه .

---

(١) الآيات ٤ – ٦ سورة محمد .

السخرية والقيادات

« فقاتلوا ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون »

لولا أهمية هذا الموضوع في تاريخ الاسلام ، لكان يمكن ان يندرج في الحديث السابق عن أثر سخرية القرآن في النواحي الاجتماعية ، فان القيادات ، وما يترتب على قيامها من وجود أتباع لهذه القيادات ، وما ينتج عن هذا النظام من أثر في المجتمع وفي توجيه سلوكه ، كل ذلك من الظواهر الأساسية في كل النظم الاجتماعية ، فان علماء الاجتماع لا يختلفون في ان قيام الزعامات وما يترتب عليها من هذه الآثار المشار اليها وغيرها ظاهرة ملازمة لكل مجتمع ، بل ولكل جماعة ، ولذلك لا يلزم أن تخضع نظمها للنقد والمنطق الصحيح ، فلا يقال مثلا : كيف استحق هذا الزعيم الزعامة ؟ وماذا يملك من مقوماتها ؟ ولا يقال : لماذا ينقاد هؤلاء الأتباع لهذا الزعيم ؟ وما الدواعي التي ترغمهم على الخضوع ؟ أو ما السلطة التي يملكها هذا الزعيم حتى يفرض عليهم الخضوع ؟ كل ذلك وغير ذلك لا يخضع لمنطق ، لأن قيام الزعامات ، وانقياد الأتباع لها ، أمر ملازم لكل مجتمع مهما صغر او كبر ..

على ان علماء الاجتماع يلاحظون من خلال بحوثهم وتجاربهم أمورا ذات أهمية كبيرة في فهمنا للمجتمع العربي الذي اصطدم بالاسلام حينما أشرق عليه نور الدين الحنيف ، فلكي نزداد فهما لوضع قادة المجتمع العربي فيه ، ووضع الأتباع في انقيادهم لهم ننظر الى قول علماء الاجتماع في حديثهم عن (الأساليب الشخصية للسلطة والزعامة) (١) يقولون « للسلطة أشكال متعددة ، وهي جزء لا يتجزأ من أي نظام اجتماعي ، وهي من أبسط جوانبها واقلها اجتماعية تبدو في صورة مجرد قوة تفرض نفسها كسلطة السيد على العبد ، وسلطة الحاكم المستبد على رعيته .. فهنا قد تتوقف السلطة على الجزاء الذي تتحكم فيه فحسب ، ولكن بالاضافة الى ذلك فان من لواحق السلطة ان الشخص

(١) عنوان للفصل المنقول منه الكلام التالي . "

المحكوم يتخذ دائما موقف المتهيىء لتلقى الاوامر ووضع الخاضع الذى يقبل ان يكون تابعا لصاحب السلطة .. وتتعدد أسباب هذه التبعية الاختيارية . فان قبول السلطة قد يكون التقدمة التى تصدر عن الشخص احتراما للسن أو للثروة وقد تبدو كمحتويات مجردة أو غير شخصية لمركز الحاكم .. ومما يعزز السلطة كذلك تلك البواعث المتعلقة بالمصالح الشخصية ، فالخضوع ظاهرة تدعو اليها فى أكثر الأحيان مصلحة شخصية تستبق الحوادث فى تخيل الفوائد المرتقبة من الخضوع » (١) ويقولون عن الزعامة الشخصية ومقوماتها المعتادة « الزعامة الشخصية تختلف .. عن سلطة الوظيفة من حيث انها تتوقف على الشجاعة والسمعة والمهارة والقدرة على الخطابة وغيرها من صفات الزعيم .. وعندما يعمل الزعيم فى نطاق النظام القائم فانه يضيف الى السلطة قوة جديدة انه بذلك يشرحها من جديد ، ويمدها بحيوية جديدة » (٢) ويقولون عن اهمية العلاقة بين الاتباع والزعماء من حيث تأثير هذه العلاقة فى الوضع والسلوك فى المجتمع « ولا يسعنا والأمر كذلك أن ندهش كثيرا لما ذهب اليه عالم الاجتماع الالمانى (زيمل) من اعتبار العلاقة بين الزعماء وأتباعهم **اهم العلاقات الاجتماعية قاطبة** » (٣) ويقولون عن ان قيام الزعامات لازم لكل مجتمع ، ولكل جماعة مهما صغرت ، ومهما كان نوعها « ولكن القادة الطبيعيين موجودون فى كل الزمر سواء منها المنظمة وغير المنظمة ، فلكل عصبة من الأشرار مثلا قائد أو أكثر كما ان لكل زمرة لعب ، أو شرذمة من الأصدقاء ، أو مجموعة من الجيران قائدها أو زعيمها » (٤) .

واذن فالمجتمع العربى الذى أشرق فيه الاسلام هو بالضرورة كأى مجتمع فيه قيادات وزعامات ، وهذا واضح فى التاريخ ، حيث كان أبرز ما فى المجتمع حينذاك هم السادة والزعماء الذين يحتلون مكان الصدارة والقيادة والتوجيه فى المجتمع ، حتى ان أشخاصهم وأحاديثهم تكاد تحجب المجتمع كله من ورائها ، فلا يظهر للمجتمع نفسه أثر واضح ، لأنهم المتكلمون بلسان المجتمع ، والمعبرون عنه ، والممثلون له ، حيث ان سلطتهم بحكم الوضع الاجتماعى « قوة تفرض نفسها » ، ولئن كان يبدو فى ظاهر الأمر ان كثيرا من هؤلاء السادة والزعماء لا يملكون من السلطة ما يخضعون به المجتمع الذى ينتمون اليه أو جانبا منه ، مما يثير شيئا من تساؤل أو عجب عما يدعو أتباعهم الى الانقياد لهم ، وعن الضرورة التى تلجىء هؤلاء الأتباع الى الخضوع لهم وعدم القدرة على الخروج عن طاعتهم ، فان الوضع الاجتماعى نفسه أيضا كما يقرر علماء الاجتماع يجعل « الشخص المحكوم يتخذ دائما موقف المتهيىء لتلقى الأوامر ، ووضع الخاضع

(١) المجتمع ر . م ما كيفر وشارلز هـ . بيدج ترجمة د. على احمد عيسى ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .
(٢) المصدر السابق ٢٩٣ .
(٣) المصدر السابق ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٤) المصدر السابق ٢٩٤ .

الذى يقبل أن يكون تابعا لصاحب السلطة » واذن فوجود القيادات التى تفرض نفسها وسلطتها فى المجتمع العربى ، وخضوع المجتمع وانقياده لهذه القيادات أمر طبيعى ينبع من طبيعة الأوضاع الاجتماعية قبل أن نحتاج الى اثبات ذلك بالتاريخ ، وكذلك عندما يثور شىء من تساؤل عن المقومات التى استحق بها قادة المجتمع العربى أن يكونوا قادة أو زعماء ، وعندما يقال ان بعضهم لم يكن يملك من مقومات القيادة ما يؤهله لذلك ، فان الرد على ذلك هو ان طبيعة الأوضاع الاجتماعية لا تشترط مقومات معينة أو حتى منطقية ، ليكون الشخص بها قائدا أو زعيما اجتماعيا ، بل يكفى فى ذلك كما يلاحظ علماء الاجتماع « السن أو الثروة » بل قد لا يوجد فى الزعيم شىء قط يؤهله للزعامة ، ومع ذلك يصبح زعيما ، ويفرض سلطته وزعامته ، ويتهيأ الاتباع للخضوع له ، والانقياد لزعامته ، كأن تكون زعامته بالوراثة مثلا ، وحينئذ تكون سلطته كما يقول باحثو الاجتماع « قد تبدو السلطة كمحتويات مجردة أو غير شخصية لمركز الحاكم » .

والتاريخ يؤكد هذه الظواهر الاجتماعية فى المجتمع العربى ، حيث كان لكل قبيلة أو حى من العرب سيد مطاع الكلمة ، لا يجرؤ على عصيانه الا منافس له فى الزعامة ، أما الاتباع فلم يحدثنا التاريخ عن أن أحدا منهم شق عصا الطاعة أو تمرد على زعيمه ، وقد كانت قريش قبيلة من العرب ، وقد حظيت بقسط من الوعى والتقدم ، لم يتح لغيرها من قبائل العرب ، بحكم كونها فى بلد تشبه العاصمة للعرب ، بما فيها من مناسك للحج ، وبما فيها من وسائل الربط بين العرب فى التجارة والمحافل وغير ذلك ، وقد حملهم هذا الوعى الذى تفوقوا به على العرب ، على شىء من التنظيم والتقسيم للسيادة والزعامة بينهم ، وخاصة فى الأمور العامة ، فقد يكون لكل حى فيهم زعيم يبسط زعامته على حيه ، ولكن الأمور العامة كمناسك الحج ، والاستعداد للحرب ونحو ذلك ، قد اتفقوا على تقسيمها فيما بينهم ، بحيث يكون لكل حى التصيب الذى يلائمه من هذه الأمور ، كجزء من السيادة له ، وبالتالى يتقاسم زعماء هذا الحى ذلك الجزء من السيادة ، لا ينازعهم فيه أحد ، حتى ان أبا سفيان حين اعرس بزوجه هند بنت عتبة ، وكان اليه نحر الابل فى موسم الحج ، وكان من عادتهم أن يعكف المعرس مع عروسه سبعة أيام لا يخرج من داره ، فقالوا له : اخرج لنحر الابل حتى لا يتولى أحد غيرك نحرها ، فأجاب مطمئنا الى رسوخ سيادته وسلطانه فيما أسند اليه : والله لو نحرها أحد غيرى لنحرته ، وقد كان أن انتظروا بنحر الابل حتى خرج أبو سفيان من اعراسه .

وعلماء الاجتماع كما يؤكدون ظاهرة الزعامات الاجتماعية ، كذلك يؤكدون تأثير هذه الزعامات فى سلوك الجماعة ، فالزعيم لابد أن يكون له تأثير فى سلوك الجماعة ، وان كانت هذه الآثار تختلف باختلاف نوع الزعامة ، كالزعامات التى يعرفونها باسم (الاوتوقراطية) المستبدة ، والزعامات

(الديمقراطية) التى تعتمد على الشورى ، ولكنها جميعا ذات آثار واضحة فى سلوك الاتباع (١) ، الذى يسيطر عليه دائما طابع الخضوع والانقياد ٠

وحينما انبثق الاسلام فى مكة العربية ، هبت جميع الزعامات والقيادات فى وجهه ، تقاومه وتحاربه بكل ما أوتيت من سلطان ونفوذ ، وبكل من وراءها من اتباع وأنصار ، وقد وحدت هذه الحرب بين الزعماء فى جبهة واحدة ، هى حرب الاسلام ، فقد رأوه جميعا خطرا على نفوذهم ، وتهديدا لزعامتهم ، فبذلوا كل ما فى نفوسهم من جهد ، وكل ما يملكون من قوة ، يصبونها أحيانا على الأفراد ، ويدفعون بها أحيانا الى حروب عامة ، والمقاومة التى لقيها الاسلام من القادة والزعماء مشهورة معروفة فى التاريخ لاسلامى (٢) وقد أشرنا فيما سبق الى نماذج منها ، ولم تقتصر هذه المقاومة على زعماء مكة والمدينة ، وانما شارك فيها كل من أتيح له ذلك من زعماء القبائل العربية ، ومنهم عامر بن الطفيل الذى أخذ يؤلب قبائل من بنى سليم على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (٣) ، وعلى العكس كان اسلام واحد من الزعماء يعتبر كسبا كبيرا، حيث يمضى وراءه قومه فى الاسلام ، أو يستطيع أن يقدم للمسلمين بحكم مركزه خدمات لا يستطيعها الشخص العادى ، كما حدث من نعيم بن مسعود يوم الخندق ، حيث كان من الأسباب الأساسية فى نصرة المسلمين بخذلان أعدائهم وتفوقهم يومئذ ، وذلك انه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت قال النبى « انما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا ان استطعت ، فان الحرب خدعة » فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة فاحتال حتى أقنعهم بألا يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا رهائن منهم ، ثم خرج الى قريش فأقنعهم بأن بنى قريظة متواطئون مع محمد وان طلبهم الرهائن دليل على ذلك ، ثم خرج الى غطفان بمثل ذلك ، فلما أرسلت بنو قريظة تطلب الرهائن أيقنت قريش وغطفان بصدق قول نعيم ، فاختلف الأحزاب الذين كانوا متفقين على حرب الاسلام بفضل مكيدة نعيم بن مسعود (٤) ، ولاشك انه لولا مركز نعيم فى نظرهم جميعا لما أتيح لسعيه هذا الأثر ٠

واذن فقد كان قادة الكفر عقبة صلبة أمام الاسلام ، وحاجزا منيعا بين نور الاسلام وعامة الناس ، ولئن كان الاسلام قد حاربهم بعنف ، ورد كيدهم بكيد أشد ، وأولاهم من اهتمامه فى حربهم جانبا كبيرا ، فليس ذلك لمجرد حرص الاسلام على تجنب عداوتهم ، أو لمجرد حرصه على ضمهم الى صفوف المسلمين ،

(١) انظر مناهج البحث فى علم النفس ت ٠ ج ٠ اند روز وجماعة ترجمة يوسف مراد ٢/٩٥٢-٩٥٤ ٠
(٢) انظر جوامع السيرة لابن حزم ٥١ ــ ١٥٥ وسيرة ابن هشام ١/٢٣١ ــ٢/١٥٠ ٠
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣/١٨٥ ٠
(٤) انظر سيرة ابن هشام ٣/٢٤٧ ٠

وانما المعنى البارز الذى يبدو بوضوح من أخبار الاسلام ، والذى يؤيده القرآن نفسه ، ان أهم ما يستهدفه الاسلام من حرب القادة والزعماء ، هـو تحطيم سيطرتهم على الأتباع ، ونزع هؤلاء الأتباع من براثن القادة ، ومخالب الزعماء حتى يتاح لهم أن يسمعوا كلام الله ، وأن يتأملوا هداه فى طمأنينة نفس ، وسكون فؤاد ، فان الاسلام ، وكذلك كل الأديان السماوية ، لا تميز شخصا عن شخص ولا تهتم بفرد عن فرد ، لمجرد الأوضاع الاجتماعية ، واذا كان لها ايثار لطائفة على طائفة ، فان الطائفة الأحب الى الأديان فى الاتجاه اليها انما هى طائفة العامة من الناس ، لا طائفة الخاصة ، وليس ذلك أيضا لمعنى دنيوى ، وانما لأن نفوس هؤلاء أكثر استعدادا للهداية ، وأقرب ميلا الى هدى الله ، لان دين الله دائما مع رغباتها وأمانيها ، أما الخاصة من الناس فغالبا ما ينظرون الى الأديان على انها حرب لآمالهم ، وعقبة فى سبيل أمانيهم الشخصية .

فالاسلام اذن فى حربه لقادة الكفر لا يعنيه أشخاصهم ، ولا مجرد عدائهم فى ذاته للدين ، وانما يعنيه كل العناية كونهم عقبة صلبة فى سبيل انتشاره ، وكونهم حائلا بينه وبين عامة الناس ، بحكم نفوذهم وسيطرتهم على العامة ، وانقياد العامة وخضوعهم لهم ، على النحو الذى يعرفه علماء الاجتماع .

وقد حارب الاسلام قادة الكفر بوسائل مختلفة ، منها حملة القرآن الكريم عليهم ، ومن أبرز هذه الحملة أسلوب السخرية الذى صبه عليهم ليحطم به كيانهم بصفتهم عقبة كئودا أمام انتشار الاسلام .

ويمكن أن نضرب بعض الأمثلة لأهم الجوانب التى تناولتها سخرية القرآن فى حملتها على قادة الكفر فيما يلى :

١ ــ موقف قادة الكفر من الاسلام :

فحين نستعرض الآيات الكريمة التى تناولت أئمة الكفر يمكن ان نلاحظ فيها ترتيبا منطقيا لحرب منظمة ضد هؤلاء القادة ، تبين السخرية فى هذه الحملة موقف القادة من الاسلام ، وصدهم الناس عن سبيل الله ، والوسائل المختلفة المتنوعة التى بذلوا كل جهد وتفكير ليجعلوها حربا على الاسلام وقضاء عليه فيما كانوا يتمنون ، وبهذا يبين القرآن السبب الأساسى الذى يحاربهم من أجله ، وفى هذا أيضا عرض منطقى للخصومة ، فحيث كان الاسلام طرفا فى الخصومة ، فمن المنطقى أن يعرض موضوع الخصومة ، وجانب العدوان من خصمه ، ليحق له بعد ذلك أن يدلى بحججه وأسلحته فى هذه الخصومة ، وليتاح للذين تعرض عليهم الخصومه ــ وهم الناس جميعا فى نظر القرآن ــ أن يدركوا الخصومة على حقيقتها ، وأن يوازنوا بين موقف القرآن ، وموقف قادة الكفر فيها ، ليلتمسوا موضع الحق ، ويدركوا جانب الباطل .

وفى بيان سخرية القرآن لموقف قادة الكفر من الاسلام ، نجد عرضا

شاملا لأهم الوسائل التى سلكها القادة لحرب الاسلام ، وحين نتأمل هذه الوسائل ، وننظر اليها مجتمعة ، نجد أنهم كانوا خطرا حقيقيا يهدد الاسلام تهديدا مخيفا ، وأنه لولا ان الاسلام دين الله ، ولولا أنه قد جابههم بوسائل وأسلحة أشد وأقوى من أسلحتهم لكان لخطورة حرب القادة أثرها الكبير فقد نظموا حربا عاتية على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بصفته قائد المسلمين ، والممثل لشريعة الاسلام ، وفى تقديرهم انهم حين ينجحون فى تحطيم هذه القيادة يكونون قد نجحوا فى محو الاسلام كله ، وفى هذا التقدير جانب كبير من الحقيقة ، يؤيده أنه كان من أهم الأسباب المباشرة فى هزيمة المسلمين يوم أحد بعد ان كان الانتصار فى قبضتهم هو الاشاعة التى سرت بينهم بأن الرسول قد قتل ، فاذا هم ينفض جمعهم ، ويولون فرارا فى كل وجه (١) ، ولعل بين هذا المعنى وبين قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم « والله يعصمك من الناس » (٢) ارتباط ، من حيث انه فى حماية الله سبحانه لرسوله فى هذه الفترة التى لم ترس فيها قواعد الاسلام بعد ، حماية للاسلام نفسه .

ولكن قادة الكفر سلكوا كل وسيلة لمحاولة القضاء على شخص الرسول ماديا بقتله ، أو معنويا بتحطيم جلال شخصه فى أعين الناس ، ومن ذلك انهم أخذوا يشيعون فى الأتباع استنكارهم أن يكون محمد الفقير اليتيم الذى لم يسود على قبيلة أو حى ، ولم يعقد له لواء رياسة او زعامة هو الرسول الذى يختار لينزل عليه القرآن العظيم ، مدعين ان الحق والانصاف يقتضى ان هذه المنزلة العظمى التى كرم بها محمد هذا لا يستحقها فى العرب غير أحد رجلين لا ثالث لهما ، لأنهما اللذان لا ينازع العرب ، أى لا ينازع الأتباع فى أنه لا ينبغى ان تعلو عليهما منزلة لأحد من العرب ، وهما الوليد بن المغيرة المخزومى ، وعروة ابن مسعود الثقفى ، ويعرض القرآن دعواهم هذه فيقول « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » (٣) فالقرآن يعرض دعواهم كما ساقوها ، ثم يسخر منهم فى تدخلهم فى أمر لا يملكونه ، ولا يعرفون موضعه ، ولا يفقهون ماهيته ، ثم يضرب لهم مثلا بتفاوتهم فى الرزق والمعيشة والمنزلة الاجتماعية ، ومع ذلك لا ينكرون هذه القسمة ، أفلا يتدبرون ؟

فأول ما يهاجمون به شخص الرسول اذن أنه لا يستحق منزلة النبوة ، لأن فى سادة القبائل فى نظرهم من هو أكبر شأنا وأنفذ سلطانا ، فهو أحق

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣/١٠ ــ ١٢٠ .
(٢) من الآية سورة المائدة .
(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ سورة الزخرف .

بالنبوة ، وهم حين يقولون ذلك ، فانما يريدون أن يهونوا من شأن الرسول في نظر الأتباع والعامة ، حتى لا تميل قلوبهم نحو الاسلام ، وحيث قرروا هذا لأتباعهم ، فمن الطبيعي أن يدعموه بما يجعل الأتباع يعتقدون انه حقيقة ، ولذلك يسخرون من شخص الرسول في صور مختلفة ، أشرنا الى بعضها فيما سبق ، ومن ذلك محاولتهم تحقير شخص الرسول صلى الله عليه وسلم والسخرية منه أمام الأتباع ، حتى يوقن الأتباع ويؤمنوا بما يدعيه سادتهم نحو هذا الرسول ، فينقل القرآن عنهم « واذا رآك الذين كفروا أن يتخذونك الا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ وهم بذكر الرحمن هم كافرون » (١) ولذلك يعزى القرآن الرسول مهونا له من شأن سخريتهم به ، مؤكدا له ان هذه سنة المجتمعات ، ولكن النصر دائما للحق « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » (٢) وكما سخروا منه بقولهم « أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ » فكذلك سخروا منه بقولهم « أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » في قول القرآن عنهم « واذا رأوك أن يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ ، ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ؟ » فالقرآن يرد على سخريتهم بهذه السخرية الواثقة من الحق ، والواثقة من انهم في قبضتها ، بقوله « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ؟ فلم يؤكد لهم انهم سيعذبون على هذه السخرية من رسولهم الكريم ، بل لم يجعل ذلك خبرا ، وانما جعله أمرا واقعا مفروغا منه ، ولكن الذى يتبههم اليه ، انهم حين يرون هذا العذاب المفروغ من وقوعهم فيه ، حينئذ يتبين لهم أين المحق من الضال ، ولثقة القرآن في الحق وفي وضوحه لم يذكر لهم من هو المحق ، ومن هو المضل ، لأن ذلك أوضح من أن يقرره .

ويزداد حرص قادة الكفر على اقناع أتباعهم بهوان شأن النبي ، والتشكيك في دعوته ، وتزداد حدة سخريتهم منه ، فيخاطبون أتباعهم بما ينقله عنهم القرآن الكريم « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ » (٣) ففى قولهم لأتباعهم « هل ندلكم على رجل .. » وفي أسلوب التشكيك بين كذبه على الله وبين الجنون ، كل ذلك سخرية من الواضح انه قصد بها أقصى التهوين من شأن الرسول ودعوته والتشكيك فيهما ، ومن الواضح أيضا ان الذين تصدر منهم هذه السخريات ، وهذا التوجيه انما هم القادة والزعماء لا الأتباع .

واستهدفت حربهم المنظمة ضد الاسلام الدين نفسه ، فقد حاولوا بكل ما أوتوا من جهد وتفكير أن يضللوا عامة الناس ، ويشككوهم في كل ما جاء به الاسلام ، وقد أشرنا الى أمثلة لذلك فيما سبق ، ومن ذلك ما يحدد القرآن

---

(١) الآية ٣٦ سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤١ سورة الأنبياء .

(٣) في الآيتين ٧ ، ٨ سورة سبأ .

نسبته الى القادة المتجبرين المتكبرين من محاولتهم تضليل الناس ، بجدالهم فى الدين لا عن علم ، ولا عن التماس للحق ، ولا عن حجة يستندون اليها ، وانما لمجرد الرغبة فى تضليل الناس وصدهم عن سبيل الله ويشير القرآن بذلك الى نوع معين من الزعماء ، او الى شخص معين يروى عن ابن عباس انه أبو جهل ابن هشام ، ولكن القرآن يسخر من ثنيه عطفه متكبرا مختالا على الناس على هذا الجهل الذى يجادل به فى دين الله ، ويسخر منه بأنه سيذيقه الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ثم ليسمع هذه السخرية « ذلك بما قدمت يداك » وهذا المعنى من القرآن الكريم هو « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد » (١) ·

ونوع آخر من القادة بلغ به الحرص على صرف الناس عن الاسلام ، أن يضحى بماله ليشترى به أى شىء يلهيهم ويشغلهم عن هذا الحديث الذى سيطر على مجامع العرب وأنديتهم ، وشغل قوافلهم وركبانهم ، وهو حديث الدين الجديد ، فهذا النوع من القادة ، أو هذا الشخص المعين ، رأى فى انشغال الناس بالحديث عن الدين الجديد ، وأخذهم حديثه مأخذ الجد والتفكير خطرا يجرف معه الأتباع والأنصار الى الاسلام ، فيصبح هو وأضرابه من السادة نصبا جوفاء ، لا أتباع لهم ولا سيادة ، ثم يصبحون هدفا سهلا أمام هذا الدين الجديد ، فيطيح بهم فى سهولة ويسر ، فلان يضحى بشىء من ماله يشترى به أحاديث وأساطير تشغل الناس عن حديث محمد ودينه ، أو يشترى جوارى وملذات يجدون فى متعتها صارفا لهم عن هذا التفكير ، أو أى شىء يحقق شيئا من هذا الغرض ، خير من أن يضحى بنفسه وماله وجاهه حين يكتسحه هذا الدين الجديد ، ولكن القرآن يسخر منه ، لافتا نظره الى أنه قبل أن يشغل الناس ويضلهم عن سبيل الله ، ينبغى أن يفكر فى نفسه ، وأن ينظر خيرها من شرها ، ولكنه بدل أن يفكر فى ذلك او يحاول التأمل فى هذا الدين الجديد ، صم أذنيه ، كأن بهما وقرا وصمما ، ثم أسرع مدبرا لا يلوى على شىء ، ولا يستمع الى شىء ، وكأنه شخص فاجاه خطر داهم ، فأطلق ساقيه للريح ، لا يحاول من سيطرة الخوف عليه أن يستمع الى شىء ، أو يتأمل شيئا ، يقول القرآن الكريم « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ، واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » (٢) ويروى أن المعنى بهذا هو النضر بن الحارث ، ولكنها ولاشك تتجه الى كل من يتطبق عليه مضمونها ·

---

(١) الآيات ٨ ــ١٠ سورة الحج وانظر فيها تفسير الكشاف للزمخشرى وثانى عطفه كناية عن الكبر والخيلاء وهو سخرية من مظهر المتكبر ·

(٢) الآيات ٦ ، ٧ سورة لقمان ·

وفي محاولتهم تشكيك الأتباع في الدين الجديد ، يريدون أن يصلوا الى اقصى ما يستطيعون من اقناع الأتباع بهوان شأن هذا الدين ، وانهم يستطيعون أن يأتوا بمثل ما أتى به من الآيات ، ثم يزيدون للأتباع تأكيدا بأن دعواهم هذه حق ، فيسخرون من ادعاء النبي وأصحابه أن دينهم هو الحق ، ويصورون هذه السخرية في أن يحتكم هؤلاء القادة الى الله ، فهم يدعونه أن يهلكهم ان كان القرآن حقا من عنده ، لأنهم يكونون حينئذ كافرين ، وجزاء الكافر الهلاك ، يقولون هذا في مقام الثقة من أن كلامهم هو الحق ، وكلام النبي باطل ، لتستقر هذه الثقة في نفوس الأتباع ، ولكن القرآن يسخر منهم بطريقة أخرى تجعلهم في غاية الهوان ، فيقرر لهم انهم حقا يستحقون العذاب والاهلاك ، ولكنهم في حمى هذا الذي يكذبونه ويسخرون منه ، ولولا مقامه فيهم لحل عليهم العذاب الذي يدعون أن ينزله الله عليهم « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين ، واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ، وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١) وقيل أيضا انها نزلت في شأن النضر بن الحارث ، وعما في الآيات من سخرية يقول الزمخشري « وقوله : هو الحق تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين هذا هو الحق » (٢) يعني تهكم من الكافرين بالنبي .

وفي موضع آخر يشير القرآن الكريم الى نوع من القادة المعتدين الآثمين ، الذين يطيب لهم أن يصفوا آيات الله بأنها أساطير وخرافات ، حين تعييهم الحجة والمنطق ، وقد يجدون هذا كافيا في تصديق الأتباع واقتناعهم ، ولكن القرآن يسخر من قلوبهم فيجعلها وكأنها شيء بال ، وقد أتلفه القدم ، فأصبح وقد خيمت عليه طبقة ذهبت بصفائه ونقائه ، كالصدأ ونحوه ، وبذلك تصبح هذه القلوب غير صالحة ولا مؤدية لعملها ، وهذا الصدأ الذي علاها انما هو آثامهم وجرائمهم ، ثم يهون القرآن من شأنهم بأنهم محجوبون عن الله ، يوم لا يكون لأحد أمل أو مطمع أو شهوة كما في الدنيا ، وانما يصبح الأمل كله يومئذ محصورا في رضى الله ، فهم حينئذ محجوبون عن هذا الرضى الذي تتعلق به النفوس والآمال ، وبعد أن يصطلوا من عذاب الجحيم تصب عليهم السخرية المرة التي تذكرهم بما اكتسبوا في الحياة ، حين يقال لهم « هذا الذي كنتم به تكذبون » يقول القرآن الكريم « وما يكذب به الا كل معتد أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا انهم

---

(١) الآيات ٣١ ـ ٣٤ سورة الانفال .

(٢) انظر الكشاف ٢/١٦٦ .

عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم انهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون » (١) .

وتسوق سخرية القرآن نوعا آخر من كفر القادة ، وتحديهم لما جاء به الاسلام ، ودعواهم انهم يملكون مصيرهم بأيديهم لا يخيفهم ولا يضعف ثقتهم فى أنفسهم ما يدعو اليه هذا الدين مما يخالف هذه الدعوى ، وذلك ليزدادوا فى أعين الأتباع قوة وعلوا ، حيث يتحدون الدين ، ويتحدون الله ، ولكن القرآن يرد على هذا الكافر العنيد فى سخرية هادئة ولكنها موجعة مخزية ، تبين له حقيقة نفسه ، وهوان شأنه « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ، كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ، ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » (٢) ويقول الزمخشرى « نزلت فى الوليد ابن المغيرة ، والمشهور انها نزلت فى العاص بن وائل ، قال خباب بن الأرت ، كان لى عليه دين فاقتضيته ، فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد ، قلت : لا والله لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث ، قال : فانى اذا مت بعثت ؟ قلت : نعم ، قال اذا بعثت جئتنى وسيكون لى ثم مال وولد فأعطيك ، وقيل : صاغ له خباب حليا فاقتضاه الأجر ، فقال انكم تزعمون انكم تبعثون ، وان فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ، فأنا أقضيك ثم فانى أوتى مالا وولدا حينئذ » (٣) ومهما يكن من شيء فان هذه الآيات رد على سخرية بعض القادة ، وعلى وسيلة من وسائل حربهم للاسلام ، وهى وان نزلت فى مناسبة شخص معين ، أو اشارات الى أحد هؤلاء القادة ، الا انها صادقة على كل ما ينطوى عليه هذا اللون من الكفر ، وهى فوق ذلك ايقاظ للأتباع من سبات الانقياد الأعمى لهؤلاء الزعماء .

ومن أخطر الوسائل التى لجأ اليها قادة الشرك السخرية ، وكانت سخريتهم تنصب على كل ركن من أركان الدين الجديد ، على شخص الرسول ، وعلى الدين نفسه فى كل ما جاء به ، وعلى المسلمين ، ولئن كان علماء النفس يؤكدون كما سبق ان سلاح السخرية من أقوى الأسلحة وأخطرها فى التأثير فى نفوس الأعداء ، فانهم بذلك انما يؤيدون القرآن الكريم ، فان القرآن لم يؤكد شيئا كان له تأثير وألم وضيق فى نفس الرسول ، كما أكد ذلك بالنسبة لسخرية المشركين منه ومن دعوته ، وذلك ان قريشا قد حشدت مواهبها فى السخرية ، متمثلة فى نفر من زعمائهم ، وأخذوا يحاربون الاسلام من جميع وجوهه وأركانه بهذه السخرية ، وكما يفهم من لهجة القرآن الكريم وأسلوبه ، فان شيئا لم يؤثر فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يضق صدره

---

(١) الآيات ١٢ — ١٧ سورة المطففين .
(٢) الآيات ٧٧ — ٨٠ سورة مريم .
(٣) تفسير الكشاف ٣/٣٠ .

بشيء كما ضاق بهذه السخرية ، وكان الذين تولوا جانب السخرية خمسة نفر من زعماء قريش يصفهم الرواة بأنهم « ذوو أسنان وشرف » (١) وهم الوليد ابن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود ابن المطلب ، والحارث بن الطلاطلة ، يقول عنهم القرآن الكريم ، وعن ضيق الرسول بسخريتهم « انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، ولقد تعلم انك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (٢) ، واذا لاحظنا من خلال دقة أسلوب القرآن الكريم وان كل ما فيه يحمل دلالة مقصودة ، فاننا نجد انه يؤكد ضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بسخرية المستهزئين ، وقد أكد القرآن هذا الضيق بخمس وسائل فى أسلوبه ، أولها (اللام) ، وثانيها (قد) ، وثالثها لفظ (تعلم) الذى يدل على اليقين فى حدوث الفعل المؤكد وهو (يضيق) ورابعها (أن) وخامسها لفظ (يضيق) نفسه بما فيه من معنى المضارعة التى تدل على تجدد حدوث الفعل وهو الضيق ومعنى مضارعة الفعل ان الضيق كان كثير التجدد والتردد فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من سخرية أعدائه ، واذا اضيف هذا المعنى الى المؤكدات السابقة كلها فاننا نفهم ان النبى لم يضق بشيء كما ضاق بسخرية أعدائه ، لأن القرآن لم يؤكد ضيقا اعترى الرسول من أى حرب شنها عليه اعداؤه كما أكد ضيقه بالسخرية ، واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم نفسه يتأثر بالسخرية ويضيق بها هذا الضيق ، فكيف بغيره من المسلمين ، وكيف يكون وقع السخرية وتأثيرها فى نفوس عامة المسلمين ؟ وكيف يكون أيضا وقعها فى نفوس عامة الناس ممن كانوا يتطلعون الى الدخول فى كنف الاسلام ؟

على ان المستهزئين كانوا يركزون سخريتهم فيما يركزون على عامة المسلمين ، يريدون أن يثيروا فى نفوسهم نفورا من دينهم الجديد ، وأن يزعزعوا ثقتهم بايمانهم ودينهم ، والقرآن يصور ان زعماء المشركين من الذين نيطت بهم السخرية من الاسلام والمسلمين ، كانوا يتخذون من أشخاص المسلمين مادة للسخرية فى مجالسهم ومحافلهم ، وحتى مع أهليهم ، ولكن القرآن يعزى المسلمين الذين تنال منهم هذه السخرية ، بأن يسخر من المشركين ، ويحقر من شأنهم ، فهم غير حفظة ولا حكام ، وليس من شأنهم أو حقهم الحكم بضلال المسلمين أو رشدهم ، ثم يقلب لهم الوضع ، فيبين للمسلمين ، انهم هم الذين سيسخرون يوما ما من أعدائهم ، حين يتبين كل من الفريقين حقيقة موقفة من الدين الجديد ونتيجة هذا الموقف ، يقول القرآن الكريم « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون ، واذا انقلبوا الى أهلهم

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٢/ ٤٦٠ وسيرة ابن هشام ١/٣٧٥ – ٣٨٥ وجوامع السيرة لابن حزم ٥١ – ٥٤ .

(٢) الآيات ٩٥ – ٩٩ سورة الحجر .

انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون ، وما ارسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الارائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » (١) ، ويحدد المفسرون ان المقصودين هم من زعماء قريش وقادتها ، وعلى رأسهم أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي (٢) ومما يقوله المفسرون عن الآيات في مدلولها « كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم » (٣) ، وعن معنى (فكهين) يقولون « ملتذين بذكرهم والسخرية منهم » (٤) .

ونعود فنقول اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم كان يضيق من سخرية أعدائه هذا الضيق الذي أكده القرآن الكريم على الوجه المشار اليه ، فكيف يكون موقف المسلمين ؟ وكيف يكون تأثرهم وضيقهم بسخرية الأعداء منهم ؟ ومعنى هذا كله ان السخرية من أقوى الأسلحة وأمضاها وأشدها تأثيرا في نفوس الأعداء كما يؤكد علماء النفس ذلك ، ومعنى ذلك أيضا ان الاسلام قد واجه حروبا متنوعة مختلفة الوجوه ، وهي حروب ليست هينة ولا سهلة ، وان الاسلام لو لم يكن من العمق في نفوس المؤمنين به ، والقوة في قلوبهم بالدرجة التي كان عليها ، لما استطاع أتباعه أن يصمدوا لهذه الحروب العنيفة القاسية ، وانه لو لم يوفق الاسلام في خلق أسلحة مضادة أشد وأمضى من أسلحة أعدائه لما استطاع هو بوصفه دينا أن يصمد في هذه الحرب ، فضلا عن أن ينتصر فيها انتصاره الباهر الماحق .

ولكن المستهزئين لم يكتفوا باستهزائهم الكلامي بالمسلمين ، بل أصحبوه بالاهانة العملية ، فيحكى القرآن عن نوع معين من زعماء الكفر ، أو شخص معين يذكر الرواة انه أبو جهل بن هشام ، كان يتعرض لمن يصلي من المسلمين ، ومنهم الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، فيسخر منهم وينهاهم عن الصلاة ، ولكن القرآن يسخر من مصدر قوته التي هيأت له البغي والطغيان والتعرض لمن يعبدون ربهم ، فيهون من شأن غناه الذي دفعه الى الطغيان مبينا ان كل شيء راجع في نهاية مطافه الى الله سبحانه ، ثم يقرعه على نهيه من يصلي لربه عن صلاته ، ساخرا من جهله وضلاله ، وصده عن سبيل الله ، مبينا انه يجهل أيسر ما ينبغي أن يدركه الانسان نحو ربه ، وهو احساسه بأن الله يرى « ألم يعلم بأن الله يرى » وفي حذف المفعول من يرى اطلاق يتضمن تهكما بهذا الكافر يوحي بنفي الكافر مجرد الرؤية عن الله سبحانه ، ثم تشتد لهجة سخرية القرآن من هذا الكافر في الوعيد والتهديد ، فلا يهدد بانتقام او عذاب أو نكال الا بصورة معينة ، تبدو بسيطة ، ولكنها تحمل غاية الاهانة والتحقير لهذا

---

(١) الآيات ٢٩ ــ ٣٦ سورة المطففين .
(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشري وتفسيري الطبري وابن كثير .
(٣) تفسير الكشاف الكشاف للزمخشري للآيات .
(٤) المصدر السابق .

الكافر ، والسخرية من قوته وجبروته ، فتصوره مقبوضا على ناصية رأسه الكاذبة الخاطئة ، ثم يسخر منه القرآن وهو في هذا الحال طالبا منه أن يدعو نادية بما فيه من قادة وزعماء وجبابرة لينقذوه من هذا الهوان « كلا ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى ، ان الى ربك الرجعى ، ارأيت الذى ينهى ، عبدا اذا صلى ، ارأيت ان كان على الهدى ، أو امر بالتقوى ، ارأيت ان كذب وتولى ، الم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب » (١) وفي الصورة الأخيرة من الآيات تبلغ السخرية من الكافر المعنى بها أقصى ما يتصور في مجتمع كالمجتمع العربى ، فشخص مثل عمرو بن هشام (أبي جهل) يرى هو ، وقد يرى كل الناس في مجتمعه ، ان أى صورة من صور العذاب أو الهوان أخف وأيسر بالنسبة اليه من هذه الصورة التى صورته بها سخرية القرآن ، فتصويره مكبلا بالأغلال ، أو معذبا في جهنم ، أو أى شيء من ذلك ، لا يبلغ من زعامته ، ولا يحط من منزلته وقيادته في المجتمع ، ما يبلغه تصويره وقد أهمل كل شيء فيه الا ناصيته ، فناصيته « كاذبة خاطئة » وهذه الناصية وهي قمة الشخص ، نراها في أبي جهل ، وقد قبض شخص اقوى من أبي جهل عليها ، وأمسك شعرها بقوة وعنف ، ثم أخذ يجره ويجذبه بهذه القوة وهذا العنف ، وأبو جهل في الصورة ذليل مستكين مستسلم ، لا يملك حولا ولا قوة ، ولا يبدى مقاومة ولا دفاعا ، لأنه لا يملك من ذلك شيئا ، وحتى الذين يمكن أن يؤمل فيهم نصرته من زملاء نادى قريش ، وهو دار الندوة المشهورة ، التى كانت عضويتها مقصورة على السادة والزعماء ، هؤلاء الزعماء لا يملكون له أيضا شيئا ، ويقال عنه حينئذ « فليدع ناديه » ، والسفع من قوله تعالى « لنسفعا بالناصية » هو « القبض على الشيء وجذبه بشدة) (٢) ، ولنا أن نتصور وقع هذا التصوير في نفس شخص يملأه الغرور ، ويسيطر عليه الشعور بالعزة التى لا تمس ، والقوة التى لا تقهر ، كأبى جهل بن هشام ، الذى لم يفارقه شعور العزة والأنفة حتى وهو صريع يعاني سكرات الموت حين قتل في غزوة بدر ، فيروى ان عبد الله بن مسعود كان موتورا منه لكثرة أذاه له ، فحين رآه صريعا ، جثم بجسمه الضئيل فوق صدر أبي جهل ، ولكن أبا جهل يقول له وهو يغالب الموت : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا راعي الغنم ، فكيف يتصور وهو يرى نفسه ، ويراه الناس في هذه العزة ، مجذوبا من شعر ناصيته ، وان ناصيته هذه التي ترتعد منها فرائص الناس ، لا وصف لها الا أنها « كاذبة خاطئة » ؟ ، ثم كيف يكون تصور الأتباع الذين يرون في أبي جهل قوة لا تغالب وجبروتا لا يقف أمامه شيء ، حين يرونه في هذه الصورة ؟ .

---

(١) الآيات ٦ ــ ١٩ سورة العلق .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ٤/٦٢٠ .

وهكذا يستعرض القرآن موقف قادة الكفر من الاسلام ، فيبين للناس انهم لم يتركوا وسيلة من وسائل الحرب والكيد للسلام الا سلكوها ، ولم يتركوا ركنا من أركان الاسلام الا حاولوا هدمه ، كما حاولوا هدم شخص الرســـول صلى الله عليه وسلم ، وهدم العقيدة الاسلامية بما تضمنته من مبادىء وتشريع وأسس ، وحاولوا هدم المسلمين باعتبارهم مجتمعا ، وسلكوا كل وسيلة حربهم وكيدهم ، ومن وسائلهم السخرية ، والاسلام يرد عليهم كل وسيلة بمثلها ، فيسخر منهم كما سخروا ، ولكن سخرية القرآن كما رأينا لا تبقى أمامهــا ولا تذر ، على ان مجرد رواية القرآن لسخريتهم ، وكونه يســوق وينقــل سخرياتهم ، هو نوع من التحقير لهم ولسخريتهم ، فلو كان القــرآن يعنى بسخرياتهم أو يخشى تأثيرها لما كان يرويها ، وينقلها من مجتمع صغير ، هو المجتمع الذى قيلت فيه ، الى مجتمع واسع بمقدار اتساع الاسلام وانبساطه ، لكنها ثقة القرآن فى تفاهة أثر سخريتهم ، وهوان شأنها •

وبعد أن يعرض القرآن الكريم خصومته مع القادة ، ويعرض عدوانهم على الاسلام ، وصدهم عن سبيل الله ، يأخذ فى الرد عليهم ، وتحطيم جبروتهم الذى جعلوه عتبة أمام الاسلام •

٢ ـ السخرية من استغلال المظهر :

سبق القول بأنه أصبح فى حكم التقاليد المقررة المعروفة فى المجتمــع العربى القديم ، اتخاذ القادة والزعماء مظهرا خاصا يميزهم عن غيرهم من الناس ويشمل هذا المظهر كل ما يمكن أن يضفى على صاحبه مزيدا من الهيبة والجلال بين الناس ، ومزيدا من الرهبة والخضوع بين الأتباع ، فكان للزعيم مشية خاصة تبــدو فيها آثار القوة والعظمة ، وأقرب شىء الى تحقيق ذلك ، هو ألا يعتمد على مجرد نقل قدمه والخطو بها ، وانما يحاول أن يضرب الأرض بكل خطوة ينقل فيها قدمه ، بحيث يحس الناس بضربه للأرض ، ويحس هو بأنه يطأ الأرض بطريقة ترضى غروره وكبرياءه ، وللزعيم أيضا مظهر فى عرض قامته على الناس حين يمشى ، فينبغى عنده أن تكون هذه القامة شامخة مرفوعة ، معرضة عن عامة الناس ، ولذلك كان التعبير بشموخ الأنف كناية مشهورة عند العرب عن العزة والمنعة والترفع ، وحتى فى الثياب ، كان للقادة والسادة مظهر خاص ، يتمثل فى طول الثياب عن الوضع الذى يألفه الناس ، ولذلك كان جر ذيول الثياب والعباءة مقصورا فى الرجال على مظهر السيادة والزعامة •

وهذه المظاهر المتكلفة المصطنعة كان يقصد بها قبل كل شىء الاعــلان المجسم المحسوس عن السيادة والقوة ، وكان هذا الاعلان موجها بطبيعة الحال الى الناس وخاصة الاتباع ، ليكون هذا المظهر حاجزا بين السيد والأتباع فى المنزلة الاجتماعية ، فلا هم يرتفعون اليه ، ولا هو ينزل اليهم ، وانما عليهم أن

ينظروا وأن تمتلىء نفوسهم هيبة وخوفا واكبارا ، فهذا المظهر اذن وسيلة من وسائل السيطرة وبسط النفوذ على الاتباع •

ولئن كان الاسلام يرى القادة والزعماء من حيث هم عقبة بينه وبين عامة الناس ، فى وصوله اليهم ، فان المظهر الذى يصطنعه هؤلاء الزعماء عقبة أيضا ، أو جزء من العقبة الكبرى التى تتمثل فى الزعماء أنفسهم ، ولذلك حارب الاسلام هذا المظهر ، كجزء من حربه للقادة ، وتنحيتهم من طريقه ، حتى يتاح لنوره أن يصل الى الناس • ونرى فى تشريع الاسلام وآدابه بصفة عامة ، كراهيته لهذه المظاهر ، فمن آداب الاسلام كما يعرفها الفقهاء كراهية طول الثياب ، مما يوحى بالتشبه بمظاهر قادة الكفر التى حاربها الاسلام ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم ينهى عن مشية الخيلاء ، وقد رأى أحد أصحابه ذات مرة أثناء الحرب ، يمشى مزهوا مختالا مظهرا العجب ، فقال « هذه مشية يبغضها الله الا فى هذا الموطن » •

ويحتقر الاسلام دائما من شأن التكلف والاصطناع فى المظهر ، بحيث يتخذه صاحبه ستارا يخفى به شيئا غير حميد فى نفسه ، أو يتخذه عنوانا لمعنى غير انسانى فى نفسه كالكبرياء ، والتيه على الناس ، أو محاولة البغى والطغيان عليهم ،ويتناول القرآن هذا التحقير بالسخرية منه فى صور مختلفة ، مثلنا لبعضها فيما سبق من العادات •

ومن ذلك تصوير الشخص المغرور المتلىء بحب التعالى حين يمشى بين الناس شامخ الأنف ، مزورا عنهم بصفحته ، معرضا عنهم بوجهه ، فى صورة جمل مريض بداء الصعر الذى يلوى أعناق الابل حين يصيبها فى قوله تعـــالى « ولا تصعر خدك للناس » ، وهو تشبيه مع سخريته دقيق كامل الانطباق ، سواء من ناحية الشكل فى المظهر ، أو من ناحية الموضوع فى النفس ، فان علماء النفس يؤكدون ان السلوك المتكلف فى أى ناحية من النواحى انما يدل على مرض نفسى يتمثل فى شعور الفرد بنقص فى نفســه يحاول أن يعوضــه بأى صورة ، وأبرز ما يهدف اليه التعويض غالبا هو الرغبة فى السيطرة عـــلى الناس ، واظهار التعالى عليهم ، ومن مظاهر التعالى وحب السيطرة هذا المظهر الذى يسخر منه القرآن الكريم ، يقول علماء النفس « الرجل المحب للسلطة انما هو رجل عليل يميل الى أن يعوض أوجه نقصه هو بالحصول على السيطرة على الآخرين » (١) ، ويقولون « عندما يحس الفرد بالنقص احساسا عميقا فانه يميل لأن يعوض تعويضا زائدا » (٢) •

وليس معنى ذلك ان كل القــادة والزعماء ينطبق عليهم هــذا الوصف السابق من علماء النفس ، وليس كلهم أيضا ينطبق عليه وصف القرآن الكريم

(١) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة ١ • براون ترجمة مجموعة ص ٢٦٣ •
(٢) المصدر السابق ٢٦٥ •

في المظهر الذي يسخر منه ، ولكن الواقع ان القرآن يسخر من هذه المظاهر أيا كان الشخص الذي تنطبق عليه ، وحين نتساءل عن الذين ينطبق عليهم هذا الوصف في المظهر ، نجد أنه من الواضح أن ينطبق على كثير من السادة والزعماء، لان الأشخاص العاديين في مجتمع كالمجتمع العربي تحكمه تقاليد وطبقية معينة في الأوضاع الاجتماعية ، لا يستطيع فرد من طبقة أن يلبس ثوب طبقة أخرى فيه ، لأنه لا يتاح لهم ولا يستطيعون أن يظهروا بهذا المظهر الذي يخص السادة والكبراء في المجتمع ، ولئن ظهروا فانما يعرضون أنفسهم على أيسر الفروض لسخرية المجتمع وانكاره عليهم •

ويسخر القرآن الكريم من مظهر المشية المتكلفة ، فيذكر أصحابها انهم حين يضربون الأرض بأقدامهم فلن يخرقوها ، فليوفروا على أنفسهم هذا الجهد الذي يتعبهم في غير طائل ، وانهم حين يشمخون بانوفهم أو يرفعون قاماتهم الى السماء ، فلن يبلغوا طول الجبال ، فليقتصدوا وليريحوا أنفسهم مما لا جدوى منه « ولا تمش في الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » (١) •

وينهي القرآن ساخرا ، من مظهر التكلف في المشيء والصوت ، هذا التكلف الذي يستهدف التعالي على الناس باصطناع مظهر مخالف لهم ، وبمحاولة التأثير على نفوسهم بهذا المظهر ، في قوله سبحانه « واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » (٢) ، وقد يقال ان مثل ذلك من الآداب التي يدعو اليها الاسلام في التزام الوقار والرزانة التي تليق بالمؤمن ، والتي عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عكسها بقوله « سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن » (٣) ، وهذا من بعض جوانب المسالة حق ، ولكن من ناحية أخرى فاننا حين نستعرض مظاهر السلوك في المجتمعات التي تحكمها التقاليد والطبقية كالمجتمع العربي ، نجد ان هذه المظاهر مقصورة على السادة والزعماء الذين يحاولون دائما أن يضفوا على أشخاصهم وسلوكهم هالة من الهيبة والاكبار ، في كل ما يتاح لهم ان يصطنعوه ، ويؤيد هذا ان هذا المعنى من النهي عن هذين المظهرين ، في المشية والسلوك ، جاء في سياق الحديث عن المتجبرين المتكبرين من السادة ، فان الآية السابقة تالية لقوله تعالى « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور » وتصعير الخد والاختيال لا يصدر عادة الا من طبقة السادة والزعماء •

ويسخر القرآن من الذين يتخذون من المظهر ستارا يخفون به ما في نفوسهم من ريب ومرض ، فبعض الناس يعمدون الى مظهرهم يخدعون به الناس ويضللونهم حتى يصلوا تحت ستار هذا المظهر الى ما يريدون ، ومنهم المنافقون

---

(١) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ سورة الاسراء
(٢) الآية ١٩ سورة لقمان •
(٣) تفسير الكشاف للزمخشري ٣٩٣/٣ •

الذين نزل في شأنهم قوله تعالى « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ٠٠ » (١) ، ويذكر الرواة انها نزلت في عبد الله ابن أبي وجماعة من المنافقين كانوا يحاولون خديعة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين معتمدين على مظهرهم وتنميق كلامهم ، ولكن الآية وان نزلت في حادث أو شأن معين ، الا انها جعلت مضمونها وهو الاعتماد على المظهر الشـكلي ، أو الرنين الكلامي علامة على كل سلوك يخفي وراءه ريبة أو التواء ٠

ومن الغريب في مبلغ دقة القرآن وعلاجه لكل داء بما يحسمه من نوعه ، ومطابقته بين الجريمة والجزاء ، أن يخص السادة المتكبرين بأن يكون من جزائهم يوم القيامة تشويه مظهرهم ، اشارة الى انهم اتخذوا من المظهر وسيلة للتكبر والتجبر والبغي ، فيجعلهم يوم القيامة في مظهر قبيح منفر ، فيقول القرآن الكريم « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ؟ » (٢) ، وذكر المتكبرين في الآية يشير الى ان المقصودين بتعذيبهم بتشويه الوجوه يوم القيامة ، نوع معين من الكاذبين على الله وهم القادة المتكبرون على الناس ٠

٣ ـ حقيقة القـــادة :

كما سبق القول بأن علماء الاجتماع يلاحظون ان المجتمعات التي تحكمها التقاليد ، لا توجد فيها مقاييس معينة ، أو كفاءات منطقية لتولي الزعامة والقيادة في المجتمع ، بل يكفي وجود أي ميزة ولو عادية ، يستند اليها الزعيم في زعامته كالسن أو الثروة ، بل تكون الزعامة أحيانا مجردة من كل المقومات التي تؤهلها للزعامة ، والتي تجعل من صاحبها زعيما ذا كفاءة (٣) ، كما في حالة الزعيم الذي يرث الزعامة عن آبائه دون أن يكون في شخصه شيء من مقوماتها ٠

فان سخرية القرآن الكريم تكشف للأتباع حقيقة هؤلاء القـــادة الذين يملأون عيونهم هيبة ورهبة ، ويستحوذون عـــلى قيادهم وعنانهم ، تبين لهم سخرية القرآن أن هـــذه الهالات التي يرونهـــا أمامهم كبيرة مهيبة ، ليست في حقيقتها الا ذوات جوفاء مجردة عما تستحق من أجله الطاعة والانقياد لها ، وهذه الحقيقة تبدو واضحة حين تنظر الى موقف هؤلاء القادة من الدين ، فان أصحاب النفوس السليمة ، والقلوب البريئة من الأمراض والجهل ، لم يترددوا كثيرا في الاعتراف بالحق ، والانحياز الى الدين ، وأما أصحاب النفوس المريضة بالحقد أو الحسد أو الطمع أو الجهل أو نحو ذلك ، فانهم أصروا عـــلى كفرهم ، بل ازدادوا كفرا وعنادا ، وانقلبوا حربا عاتية على الدين ٠ وهؤلاء هم الذين

---

(١) من الآية ٤ سورة المنافقون ٠
(٢) الآية ٦٠ سورة الزمر ٠
(٣) انظر المجتمع ـ ماكيفر وشارلز هـ بيدج ترجمة د علي أحمد عيسى ص ٢٩١

عمدت سخرية القرآن الى كشف حقيقتهم وخبايا نفوسهم للاتباع ، حتى تنقشع من فوق عيونهم غشاوة الخضوع الأعمى لهؤلاء الزعماء ، فيروهم على حقيقتهم ، ويعلموا من أمرهم ما كانوا يجهلون ، فيبين لهم القرآن نوعا من هؤلاء الزعماء ، يمشى ثانيا عطفه من الكبر والخيلاء ، فهذا المظهر الذى يرونه به لا ينبغى أن يغرهم ، ولا ينبغى أن يجعلوا منه دلالة على ما يتوهمون فى صاحبه من معان وصفات يوحيها شعورهم بعظمته وسيادته ، فلينظروا الى هذا الذى يثنى عطفه عليهم حين يجادل فى الله سبحانه ، انه حينئذ يمثل كل الجهل ، وكل الضلال عن الحق ، وكل المكابرة العشواء ، ثم هو بعد ذلك يثنى عطفه ويختال معجبا بنفسه ، متعاليا على الناس ، دون أن يسأل نفسه ، أو يسأله أحد : علام العجب والخيلاء ؟ أعلى الجهل ، أم على الضلال عن الحق ؟ ، « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » (١) ٠

ونوع آخر يختلف فى سلوكه ومنهجه فى الحيـــاة ، ولكنه فى حقيقته والآخرين سواء ، فمنهجه انه لا يدين بدين ، ولا يعتقد عقيدة ، ولا يسعى الى شيء ، الا شيء واحد ، هو هواه وأطماعه ، فهو يعبد أطماعه وأمانيه ، ولا يعتقد الا فيما يحقق له نفعا شخصيا ومصلحة مباشرة ، وأما حقيقته فهى الجهل المطبق على عقله وقلبه ، المصم لآذانه ، المغشى على بصره ، الذى يجعله سابحا تائها فى الضلال ، لا يدرى أين هـــو ، ولا أين الطريق ؟ لأنه لا يريد أن يدرى ، ولا يريد أن يخرج من هذه الظلمة الحالكة « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ » (٢) ، وحين نتصور شخصا مختوما على سمعه ، لا يسمع شيئا قط ، وعلى قلبه فلا يفقه شيئا قط ، مغشى على بصره لا يرى حتى موضع قدميه ، ومع ذلك فهو جاد فى عبادة هـــواه ، ماض فى تخبطه هذا يطلب كل ما يحس فيه نفعا أو كسبا ، هذه الصورة نحس فيها ولاشك تهكما بالغا بمن تنطبق عليه ٠

ويعمد القرآن الكريم الى نموذج من أكبر نماذج السيادة والزعامة فى المجتمع العربى كله ، وهو الوليد بن المغيرة أو غيره ، ليكون مثلا للاتباع ، فلينظروا الى حقيقة هذا الزعيم الأعلى فى زعامته وسلطانه وسيادته ، ثم ليقدروا بعد ذلك ، اذا كانت هذه حقيقته وخلقه ومقوماته ، فكيف تكون حقيقة الآخرين ممن هم دونه قوة وسيادة ، وممن هم دونه خلقا ومروءة فى الناس ؟ أما حقيقته فهى انه شخص (مهين) يعرف هو فى نفسه ذلك ، ولذلك يحاول أن يعوض شعوره بالمهانة النفسية بأن يطغى ويبغى ويبسط سلطانه وجبروته على الناس كما يقول

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ سورة الحج ٠
(٢) الآية ٢٣ سورة الجاثية ٠

علماء النفس كما سبق ، وأما خلقه الحقيقى فهو مجموعة من النقائص والرذائل ، تكفى كل منها لهدم شخص كريم الخلق ، فهو شخص يعتمد على الحلف لشعوره بعدم ثقة الناس فى كلامه ، ويعتمد فى زعامته وسلطانه على ان يضرب الناس بعضهم ببعض ، ليوقع بينهم فيرتفع هو على أنقاض صلاتهم ، فيغمز هذا ، ويهمز فى ذلك ، ثم يمشى بينهم بما غمزه وهمزه ، وما يفرق بينهم ثم هو حقود على الناس ، لا يحب ان يصل الخير الى احد ليستأثر هو دونهم بكل شىء ، وفوق ذلك فهو طاغية ، يعتمد فى تدعيم سيادته ومكانته فى المجتمع على البغى والعدوان ، وعلى الجفوة والغلظة ، ثم يبدى القرآن شيئا من السخرية فى انه لا ينبغى أن يطاع شخص فيه كل هذه النقائص والرذائل لمجرد انه يملك مالا أيا كان هذا المال ، أو لأن له بنين مهما يكن شانهم ، وهذا المعنى يعتبر جوهر الحد الفاصل بين المجتمعات المتقدمة ، والمجتمعات المتخلفة ، فالمجتمعات المتقدمة هى التى لا تتيح لزعيم أن يحتل مكان الزعامة الا اذا كان يملك المقومات الحقيقية المعقولة لها ، فيكون كفئا لهـــــذا المنصب أو قريبا من الكفاءة على أهون الفروض ، اما المجتمعات المتخلفة فيتاح لأى شخص ولو كان مجردا من أى كفاءة ، بل ولو كان يحمل كثيرا مما يناقض خلق الزعامة اذا عاونته التقاليد ، كما يقرر علماء الاجتماع انه يكفى فى هذه المجتمعات لاحتلال مكان السيادة والزعامة مجرد السن أو المال او ما هو دون ذلك كمجرد الوراثة ، فالقرآن الكريم يحاول نقل المجتمع من درجة التخلف ، الى مستوى التقدم والوعى والنقد الاجتمـــــاعى ، فيضرب لهم مثلا بهذا النموذج من الزعماء ، مبينا لهم حقيقته ، مشيرا الى الوضع المعيب فى نظرة المجتمع المتخلف الى الزعامة ، وهو الاهتمام بالشكليات والتقاليد كالاهتمام بالمال والبنين فى كونهما شـــكليات تجعل لهما التقاليد اعتبارا فى تولى الزعامة فى المجتمع ، يقول سبحانه « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، ان كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » (١) ، ثم تنصب سخرية عنيفة على هذا الزعيم سيأتى الحديث عنها فى موضعها .

واذا كان النموذج السابق من الزعماء يبرز فى خلقه حب الافساد بين النـــاس ، واعتماد زعامته على خلق غير كريم ، فان هناك نوعا آخر من الزعماء يبرز فى خلقه الشح والقسوة على الناس ، والانسلاخ من التراحم والتعاطف الاجتماعى ، وقد أشار القرآن الى هذه الجوانب فى الخلق الاجتماعى لهذا النوع من الزعماء بقوله « ولا يحض على طعام المسكين » وجعل هذه الصفة احـــدى صفتين استحق بهما هذا الزعيم ألوانا من الهوان والعذاب والنكال يوم القيامة ، احداهما « انه كان لا يؤمن بالله العظيم » والأخرى عدم حضه على طعام المسكين ، والسياق كله يحدد ان المقصود زعيم قوى المكانة والسلطان فى المجتمـــع .

---

(١) الآيات ١٠ – ١٦ سورة القلم وانظر فى تفسيرها الكشاف للزمخشرى .

بما أوتي من مال عريض ، وجاه واسع ، وسلطان مطاع ، وان جرمه كان عظيما استحق أنواعا من الهوان والعذاب الشديدين في الآخرة ، ويحدد القرآن الكريم هذا الجرم في الصفتين السابقتين ، عدم الايمان بالله ، وعدم الحض على طعام المسكين ، ولكننا حين نتأمل الاقتران بين الصفتين نلاحظ عـــدم التكافؤ أو التقارب بينهما ، بحيث يوحي هذا الاقتران بشيء من غرابة ، فكون عدم الايمان بالله جرما عظيما وكفرا يستحق العذاب الشديد أمر واضح ، ولكن كون عدم الحض على طعام المسكين جرما مساويا للكفر ، او دافعا الى العذاب الشديد غير واضح حتى بالقياس الى التشريع والأحكام في الاسلام ، فالآية لم تقل انه لا يطعم المســكين ، مما كان يمكن حمله على منع الحقوق في المـال كالزكاة ، وان كان هذا غير مستقيم في التقدير أيضا ، لأن غير المؤمن لا يطالب بالزكاة ، وانما يطالب أولا بالايمان ، ولكن الآية تذهب الى أبعد من منع الاطعام ، وهو عدم حض الناس على اطعام المسكين ، ومن الواضح انه لا يتناسب في القصد ليكون قرينا للكفر ، بل ولا ليكون مجرد جريمة محددة يعاقب عليها ، كما هو واضح في التشريع الاسلامي ، واذن فالقصد بعدم الحض على طعام المسكين شيء آخر غير مجرد المنطوق الحرفي ، فما هو المعنى الأقرب الى العقول في المقصود به ؟ ولمحاولة الاجابة عن ذلك يمكن أن نفهم الصفتين معـا ، على اعتبار انهما مكملتان لبعض ، أعني مكملتين لصفات شخص وصف بهما ، فالصفة الأولى وهي عدم الايمان بالله ، تعني وصف عقيدة هذا الشخص ، وهو أنه تافه التفكير من حيث العقيدة ، حيث يعبد أي شيء غـــير الله سبحانه ، ولا يهتدي لأمر بدهي وهو الاحساس بوجود الله تبارك وتعالى ، والصفة الثانية تعني وصف خلق هذا الشخص وسلوكه الاجتماعي ، وهو انه شخص مجرد من الرحمة والعطف والاحساس بمسئوليته باعتباره فردا في المجتمع ، عليه أن يساهم بما أنعم عليه به ، في دفع الضر عن الناس ، وانقاذ المنكوبين ، وعون البائسين ، فعدم الحض على طعام المحتاج وصف للخلق الاجتماعي لهذا الشخص ، وليس المقصود فيما أعتقد والله سبحانه أعلم الطعام بالذات ، وانما ذكر الطعام كمثل لحاجة كل محتاج في أي ناحية وأي صورة من صور الاحتياج الى العون ، وعدم حض هذا الشخص على الطعام ليس المقصود به هذا المعنى ذاته ، وانما هو مثل لاعراضه عن أي عون للناس ، وأي مساعدة للمحتاجين ، فعدم الحض عـــلى الطعام اذن يعني الخلق الاجتماعي لهذا الشخص الذي تهاجمه الآيات ، وكون الطعام للمسكين بالذات ، يعني الخلق النفسي لهذا الشخص ، فالمسكين أحوج الناس وأحقهم بالرحمة والعطف والمواساة ، وكون الشخص الذي تعنيه الآيات لا يرق ولا يتأثر حتى بأشد الحالات اثارة للرحمة والشفقة معناه انه شخص مجرد من الرحمة ، مطبوع على القسوة ، ولو قد كان التعبير في الآية هو عدم الحض على طعام المحتاج أو الفقير ، لما أوحى بهذه الصفة النفسية للشخص الذي تعنيه الآيات ، أما التعبير بالمسكين ، على أساس انه مثل لغاية الاحتياج والحرمان

فمعناه ان الشخص المعنى بالآيات قد انتفت من نفسه كل رحمة ، فلا تؤثر فيه حتى أشد الحالات اثارة للرحمة ، في قوله « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنه سلطانيه ، خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، انه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » (١) .

على ان المعنى الحقيقى فى سياق الآيات أكثر وضوحا ، فالآيات لا تعنى شخصا عاديا ، وانما تعنى زعيما فوى الزعامة ، فياض المال ، واســـع الجاه والسطان يتحسر على عدم اغنائهما عنه يوم القيامة ، حيث كان يظن فى حياته ان ماله هذا العريض ، وسلطانه ذلك المبســـوط سيخضعان له كل شيء ، ويحميانه من كل شيء « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » .

واذا كان الشخص العادى يحط من قدره ، ويسفه من شخصه أن تجتمع فيه الصفتان السابقتان اللتان تدلان على خلوه من كل خير ، سواء فى التفكير والعقيدة ، أو فى خلقه النفسى والاجتماعى ، فان اجتماع الصفتين فى الزعيم أقبح وأشد ذرايه ، فالمفروض فى الزعيم الذى يستحق الزعامة ، أن يكون على قدر غير قليل من صفات خيرة يمتاز بها عن سائر الناس من الأتباع ، حتى يحق له أن يعلو عليهم ويتزعمهم ، فيمتاز عنهم فى تفكيره وعقله ، ويمتاز عنهم فى صفاته وسجاياه النفسية والاجتماعية ، وبهذا يصبح جديرا بأن يكون زعيما ، وهناك معنى معين يزداد على ضوئه وضوح الصفة الأخيرة فى الآيات السابقة ، وهو أن الزعيم بحكم وضعه الاجتماعى وهو الزعامة ، أهم ما يلزمه من الصفات روح الرعاية والعطف ، بحيث يشعر الأتباع برعايته لهم وحدبه عليهم ، واهتمامه بمشاكلهم وعثراتهم ، فالزعامة فى المجتمع نوع من الابوة الواسعة النطاق ، وبمقدار ما يتحقق من هذه الصفة فى الزعيم بحيث يشعر هو بهذه الابوة لأتباعه ، ويشعر الأتباع بما يشبه البنوة لهذا الزعيم ، بمقدار ما يتحقق هذا المعنى فى الزعيم بمقدار ما ينجح فى زعامته ، وبمقدار ما يحـكم عليه بوصفه زعيما .

ولكن هذا الزعيم الواسع المال ، النافذ السلطان ، الذى تعنيه الآيات لم يحمل من الصفات شيئا قط يؤهله للزعامة ، بل حمل ما يقضى بخطأ تزعمه فى المجتمع ، وخطأ المجتمع فى قبوله زعامته ، حمل سقامة التفكير المثلة فى ضلال العقيدة ، وحمل تجرده من صفات الخير النفسية والاجتماعية ، وعـلى الأخص الصفة التى هى الزم لوازم الزعيم الحقيقى وهى الرحمة والرعاية للمجتمع الذى يتزعمه ، ولذلك لم يكن تعبير القرآن الكريم فى ذمه انه لا يطعم المحتاجين ،

---

(١) الآيات ٢٥ ـ ٣٤ سورة الحاقة .

وانما كونه لا يحض الناس على اطعام المحتاجين ، لان الاطعام وعدمه مسئولية الفرد العادى أما الزعيم فزعامته تفرض عليه مسئولية فوق مسئولية الفـــرد العادى ، هذه المسئولية هى رعاية مجتمعه الذى يتزعمه ، فاذا كان الزعيم المسئول عن رعاية مجتمعه ، لا يحمل شيئا من رحمة ، ولا يهتم بحاجة محتاج ، ولا تؤثر فيه أشد الحالات اثارة للرحمة ، فلاشك انه لا يصلح قط أن يكون زعيما ، وهذه النتيجة هى موضع التركيز الذى تهدف اليه دائما الآيات التى تتحدث عن القادة والزعماء ، فان هذه الآيات تتناول القادة والزعماء من جوانب مختلفة ، ولكنها تنتهى دائما الى الاشارة الى نتيجة معينة ، هى لفت أنظار الأتباع الى أن هؤلاء الزعماء ، لا يصلحون للزعامة ، فلا ينبغى أن ينقادوا لهم ، ولا ان يتأثروا بهم ، ولا ان يطيعوهم فى صدهم عن الاسلام ، وقد سبق القول بأن النقطة الأساسية فى حرب القرآن للقادة والزعماء ، هى انهم عقبة فى سبيل انتشار الاسلام ، وبلوغه الى آذان الناس وعقولهم .

وسواء أكان ما يقوله المفسرون من ان هذه الآيات نزلت فى الاســـود ابن عبد الأشد (١) ، أم لم يكن فلاشك فى انها تهدف الى نوع معين من الزعماء ، هو الذى تنطبق عليه الصفتان .

وتنوع آيات السخرية حديثها عن القادة الكافرين ، حتى تشمل مختلف نماذج الزعماء الذين كانوا بارزين فى المجتمع ، وحتى لا يكون هناك مجال أمام الأتباع الذين يسيطر عليهم الاعجاب ببعض الزعماء والاكبار لهم ليحمـــلوا ما تسوقه بعض الآيات عن الزعماء على انه لا ينطبق على زعيمهم الذى يعجبون به ، وقد لا يرون فيه الا كل خير وفضيلة . فهذا نوع آخر من أئمة الكفر ، تصوره سخرية القرآن وقد قامت زعامته على دعامتين ، أحداهما « ســـلاطة اللسان » والأخرى النهم الشديد فى جمع المال ، فهو يؤسس زعامته على المال الكثير ، يظل مسعورا فى جمعه وحشده ، متهالكا عليه ، منصرفا بكل جوارحه وحواسه الى كل ما يمكن أن يدر عليه مالا ، لأنه لا يفكر فى شىء غير المال ، معتقدا ان ماله سيحقق له كل شىء ، حتى كأنه سيخلد بهذا المال الى الأبد ، وبعد أن يرى الناس قد أعشى عيونهم بريق ماله ، وخدر عقولهم رنين ذهبه ، فاصبحوا لا ينظرون اليه بعيون بصيرة ترى خلقه وسلوكه عـــلى حقيقته ، ولا يفكرون فيه بعقول تعرف من هو ؟ وما حقيقته التى ينبىء عنهـــا خلقه وسلوكه ؟ بعد ان يطمئن الى انهم لا ينظرون اليه بعيون بصيرة ، ولا بعقول مقدرة ، وانما ينظرون اليه من خلال اعجابهم بماله ، وطموحهم الى النفع من ثرائه ، يحاول أن يبسط سلطانه وزعامته ، فيسلك سبيلا لا تتفق مع الخلق الكريم ، ولا ترضاها النفس الطيبة ، يعتمد على لسانه يلدغ به ذات اليمين

---

(١) انظر تفاسير الكشاف للزمخشرى وجامع البيان للطبرى وعمدة التفسير لابن كثير فى تفسير الآيات

وذات الشمال . حتى يخيف الناس منه ومن لسانه ، وحتى هـذا اللسـان سيفا مسموما يرهبه كل من يمكن ان يناله باى نوع من أنواع الايذاء أو التفريق فليعرف الأتباع حقيقة هذا النوع من الزعماء ، وليقدروا فى نفوسهم وعقولهم ، كيف ينقادون لشخص اساس زعامته عروض شكلية ، من مال متنقل زائل ، ووسيلة زعامته وسلطانه مجرد ايذاء الناس بلسانه « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبـذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، انهـا عليهم موصدة ، فى عمد ممدة » (١) ، وسواء أكانت الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق أم فى الوليد بن المغيرة ، أم فى أمية بن خلف كما يروى المفسرون ، أم غير ذلك فلاشك انها تعرض نموذجا لنوع من الزعماء ، وحتى ان كان المقصـود بها شخص معين ، فليس هذا الشخص لذاته وحده ، وانما لكونه يمثل نوعا من القادة الذين يخدع الأتباع عن حقيقتهم .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد عرض قضيته مع أئمة الفكر ، فبين فبهـا موقفهم من الاسلام وصدهم الناس عن سبيل الله ، وظهر واضحا انهم جائرون عن الحق ، ظالمون فى خصومتهم للدين ، وقد كان يمكن ان يكون هذا القدر كافيا فى الحكم عليهم ، وأن يحدد كل مستمع الى الخصومة رأيه فيهم وسلوكه معهم ، ولكن الأتباع دائما مفتونون بالقادة والزعماء ، يعجبون بهم وبكل ما يتصفون به ، وبكل ما يصدر عنهم ، وقلما ينظرون اليهم نظرة الناقد البصير ولذلك يكمل القرآن حديث الزعماء للأتباع ، فيلفت نظرهم الى أمور قد يرون فيها أو فى بعضها اعجابا بزعمائهم واكبارا لهم ، مع انها فى حقيقتها نقائص تنبع من أمراض فى نفوسهم ، ونزعات منطلقة نحو الشر ، فليفكر الأتباع بعد أن عرفوا حقيقة زعمائهم ، واطلعوا على خبايا نفوسهم ، ومكنونات سجاياهم وليحكموا على هؤلاء الزعماء ، لكن القرآن أيضا يعلم ان الأتباع لا يزالون مفتونين بزعمائهم طالما بقيت هـذه الصلة وهى التبعية للزعماء ، فيخطو القرآن بالأتباع الى النتيجة المنطقية فى هذه الخصومة ، فحيث تبين ان الزعماء جائرون ظالمون فى خصومتهم مع الاسلام ، وحيث عرف الأتباع حقيقة زعمائهم ، فليعرفوا الحكم على هؤلاء الزعماء .

٤ ــ حكم الله :

وقد أصبح واضحا بعد هذا كله ، لكل ذى عقل وادراك ، ان هؤلاء القادة الذين يحاربون الله ورسوله ، والذين يتخذون من زعامتهم سيفا يرهبون به عباد الله ، ويصدونهم به عن طريق الله ، انهم أعداء الله .

---

(١) سورة الهمزة . والهمز الكسر واللمز الطعن والمراد الكسر من اعراض النـاس . انظر الكشاف .

ولئن كان الكافرون جميعا أعداء الله ، فان القادة لهم وضع خاص فى هذا العداء ، تشير اليه دائما سخرية القرآن الكريم ، فاننا نلاحظ ان الآيات التى تتعلق بالزعماء ، لا تسوقهم فى تيار العداوة العامة للاسلام ، وانما تبرز مكانهم فى العداوة ، وتبرز مكانتهم فى الجزاء أيضا ، فكما ان عداءهم للدين يمتاز عن عداء عامة الناس ، بما فيه من خطورة وقوة وقدرة على التأثير ، فكذلك تكون نظرة القرآن الى عداوتهم ، وكذلك يكون جزاؤهم ٠

ونلاحظ فى الآيات التى تتعلق بالزعماء ناحيتين يغلب أن يتميز بهما أسلوب القرآن فى حديثه عن الزعماء ، زيادة على المعانى التى تبدو فى حديثه عن غيرهم من الكافرين والمشركين ، احداهما اشتداد لهجة الوعيد ، والأخرى وضوح السخرية وقوة تركيزها ، وهما المناسبان لوضع القادة فى المجتمع ، ونظرة الاتباع اليهم ، فحيث كان الأتباع يرون فى هؤلاء القادة شيئا كبيرا وقويا ، يرون فيهم القوة الغالبة ، والهيبة الموهوبة ، التى تحملهم على الثناء بهم ، والانقياد لهم ، فان القرآن يحطم هذا المعنى فى نفوس الأتباع بالناحيتين السابقتين ، اشعار الاتباع بأنه مهما تكن قوة هؤلاء القادة ، ومهما يكن سلطانهم ، فان هناك قوة أعظم من قوتهم ، وسلطانا أكبر من سلطانهم ، بل قوة عظمى ستجعلهم عبرة ومثلا بما تذيقهم من ألوان النكال والعذاب الذى يصغر أمامه كل شيء ، وتتضاءل عنده كل قوة ، واشعار الأتباع أيضا بان هذا الجلال المقترن بأشخاص الزعماء فى نفوسهم ، ليس الا هالة كاذبة ، ووهما خادعا مضللا ، لانهم لا يعرفون حقيقة هؤلاء الزعماء ، ويكادون لا يدركون من شأنهم الا هذا المظهر المتكلف الخادع ، وهذا الصوت المنكر المدوى ، وهذا السلطان الكاذب الذى يعتمد فى أغلب الأحيان على أنواع من سفاسف الخلق ، ورذائل الطوايا ، أما حقيقتهم ودخيلة نفوسهم ، وطبيعة أخلاقهم فيعلمها العليم بالخبايا سبحانه ، فيظهرها للاتباع فى هذه السخرية التى تبدى الزعماء على حقيقتهم فى تفاهة الشأن ، ووهن الكيان ٠

فتعمد سخرية القرآن مثلا الى أكبر زعيم تعرفه مكة حينئذ ، بل ويعرفه العرب حينذاك ، وهو الوليد بن المغيرة ، فتجعل لمنزلته فى عداء الاسلام وضعا ومكانا خاصا ، وكأن القرآن يستله ويخرجه من بقية زمرة الكفر ، ليكون فى موضع ظاهر للأتباع ، يرونه فيه وهو يتلقى جزاء كفره ، وجزاء استغلاله للنعم التى أنعم الله عليه بها ، ليحولها الى حرب على دين الله والداعين اليه ، ولذلك نجد ان الله سبحانه يتحدث عنه بأسلوب قلما يتحدث القرآن به عن الآخرين من سائر أعداء الله ، أسلوب يوحى بأن العداوة بينه وبين الله سبحانه كأنها عداوة شخصية ، كالتى تكون بين اثنين من البشر ، أحدهما قوى غاية القوة ، واثق من قدرته والانزال بعدوه ، ولذلك نجد القرآن يسلك فى التعبير عن هذه الخصومة أسلوبا شعبيا مألوفا فى الاستعمال لدى الناس ، وذلك فى قوله تعالى « ذرنى ومن خلقت وحيدا » ، ومن الواضح ان المدلول لهذا التعبير غير حقيقى ٠

فليس هناك من يمنع الله سبقانه أو يحول بينه وبين شيء حتى يأمره الله بأن يتركه ، وليست الخصومة بين الله سبحانه وهذا الكافر على هذه الصورة التى توحى بوجود خصمين محددين مشخصين ، يتباريان فى عداوتهما ، فلا يتصور اجتماع الله جل جلاله مع شخص فى عداوة على هذه الصورة المادية المجسدة ، كما أنه لا يتصور الوضع العام لذى يوحي به ظاهر التعبير ، وهو التفرغ للعداوة والاهتمام بها على هذه الصورة ، فالله سبحانه قادر على كل شيء ، وعلى انفاذ ما يريد دون حاجة الى هذه الصورة من التفرغ أو الاهتمـــام الخاص ، فالأسلوب في واقعه اذن ليس حقيقيا ، وانما هو تمثيل متنزل الى أفهام العامة من الأتباع ، متبسط الى صورة من واقع الحياة الذى يلمسه لناس ويشاهدونه ، ليكون ذلك أوقع فى نفوسهم ، وأكثر انطبـاعا فى قلوبهم ، فاذا كان النـاس يشعرون بان هذا التعبير لا يصدر الا من القوى الواثق من قدرته ونصره على خصمه ، حتى أصبح هـذا التعبير مقترنا بالشـعور بالعزة ، مثيرا للمشـاعر والانفعالات حول هذا المعنى ، اذا كان هذا التعبير يوحى بذلك فيما بين الناس ، فكيف يكون وقعه اذا صدر من الله سبحانه ؟ وكيف يكون شعورهم نحو الخصم الأضعف الذى يتصدى له الله سبحانه بذاته ويتوعده ؟ ومع ان هذا التعبير فى جملته غير حقيقى ، بل هو تمثيل لابراز أقصى الوعيد بأسلوب قريب الى الأذهان، الا أنه ان كان يحمل اشارة الى شيء من الحقيقة،فهى توجيه الخطاب الى النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى «ذرنى» ويكون ذلك نوعا من التكريم للنبى فى أنه لايحب انزال العذاب والهلاك بهؤلاء المشركين أملا فى ايمانهم ، والله سبحانه يكرمه بمنع العـذاب عنهم فى الدنيـا من باب قوله تعـالى « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم » فكأن القرآن الكريم بقوله « ذرنى » يشير الى أن النبى مع كل ما يلقاه ويتحمله من عداوتهم وايذائهم لا يحب لهم العذاب ، ولكن هذا الأسلوب فى جملته ، رغم هذه الاشارة التى قد يكون متضمنا لها ، لا ينفى انه اسـلوب تمثيل وليس حقيقة .

وبعد هذا التعبير « ذرنى ومن خلقت وحيدا » تسوق الآيات السبب الذى وضع هذا الزعيم الكافر موضع العداء الخاص مع الله سبحانه ، وهو أنه تجاهل نعما كثيرة أنعم الله عليه بها ، منها أنه جعله فى مكانته ومنزلته بين الناس وحيدا لا يساميه شخص آخر من الزعماء ، ومنها أنه آتاه مالا عريضا مبسوطا ممدودا ، ومنها أنه رزقه بنين من خير البنين الذين يعتز بهم ويتباهى ، ومنها أنه مهد له سبيل الجاه والسلطان ، تمهيدا لا تعترضه عقبة ، ولا تعكره منافسة زعيم آخر ، ولا ينغصه عصيان أو تمرد من الاتباع ، ولكنه بدل أن يشكر هذه النعم ، ويوجهها نحو الخير ، استدار بها نحو أشد الشرور جرما ، وهو أن يحارب بها الله نفسه سبحانه ، وهو صاحبها والمنعم عليه بها ، فى صورة حربه لرسول الله ، ودين الله ، والمؤمنين بالله ، « انه كان لآياتنا عنيدا » وابرز القرآن مثلا من استغلاله لنعم الله عليه ، وتحويلها الى حرب لله ، وهو استغلاله

العقلية الكبيرة ، والتفكير العميق الذى منحه الله اياه ، ليجعله حربا على دين الله ، فيفكر لقومه ، ويدبر لهم بتفكيره ، فى وسيلة يطعن بها فى القرآن الكريم ، وذلك حين أحس ان أقوى سلاح فى الاسلام هو القرآن ، واحس بما للقرآن من تأثير فى النفوس ، ووقع على الأسماع والقلوب ، وأحس أيضا ان كل ما رمى به القرآن من طعن فيه ، بوصفه بالشعر ، أو الكهانة ، أو آثار الجنون ، أو نحو ذلك ، لا يصلح أن يكون وسيلة لصرف الناس عنه ، لأن هذه المطاعن بعيدة عن المعقول ، فكل العرب يعرف الشعر ، ويعرف ان القرآن ليس من الشعر فى قليل ولا كثير ، وكل العرب يعرف سجع الكهان ويعرف ان القرآن أبعد ما يكون عن سجع الكهان ، وكل الناس يعرف الجنون ، ويعلم ان مثل القرآن بعيد عن هذيان الجنون بعد الأرض عن السماء ، كل من يستمع الى القرآن من العرب يعرف أنه كلام خاص لا يشبه أى كلام آخر ، ويشعر أنه من مصدر خاص غير كل المصادر التى يؤلف منها الكلام ، لأنه يؤثر فى النفوس تأثيرا لا يجدونه لكلام آخر قط ، فماذا يفعل الوليد ليصد الناس ، أو يصد عنهم هذا التيار الجارف ، الذى ينذر بانه سيطوى أمامه كل شىء ، وهو هذا القرآن الذى جاء به محمد ؟ أيعترف بما يحس به هو ، وما يحس به كل من يسمعه ، انه حقيقة كلام الله ؟ ويبدو أن هذه الفكرة جالت فى نفس الوليد بقوة وحرارة ، وانه فكر فيها تفكيرا غير عابر ، ويدل على ذلك قوله تعالى « ثم أدبروا ستكبر » بعد قوله « انه فكر وقدر » والتعبير بلفظ « ثم » يوحى بانه فكر تفكيرا طويلا عميقا فى أن يعترف بالحقيقة ، وهى أن القرآن كلام الله ، وليس من كلام البشر ، وانه مضى فى هذا التفكير شوطا غير قصير ، ولكنه (أدبر) فالادبار يدل على انه كان ماضيا فى طريق ولكنه ارتد عنه ، أى كان ماضيا فى التفكير فى طريق الهداية ثم نكص عنه ، وارتد الى وراء مدبرا ، ولفظ (استكبر) واضح أنه لبيان السبب فى ادباره ، وهو تعاليه واستكباره عن أن يكون تابعا لأى شخص مهما يكن شأنه ، ولو كان هذا الشخص محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم · وعن أن يدخل واحدا من أتباع محمد ، هؤلاء الذين لا يراهم الا مجرد غوغاء من الناس ، ودهماء من سفلة الناس ، لا تسيغ نفسه قط أن يدنو منهم ، فضلا عن أن يكون واحدا فيهم ، وقد سبق انه من أسباب نزول قوله تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » ان الوليد بن المغيرة طلب الى النبى أن يبعد عنه هؤلاء الدهماء حتى يمكن أن يجلس اليه ·

واذن فقد فكر الوليد فى طريق الهداية والاعتراف بالحق ، ولكنه نكص وارتد على عقبيه ، وقرر أن يبقى على شركه متمسكا بكفره وزعامته ، ولكن زعامته التى كفر من أجلها فى خطر ، وقد رأى الناس يتسللون من تبعيته ليدخلوا فى تبعية محمد ، ويوشك هذا التسلل أن يكون اندفاعا علنيا ، ثم يصبح ذات يوم وقد انفض الأتباع من حوله ، فلم يجد من حوله أحـــــدا ، فلا هو أدرك الخير الذى رفضه فى الدين الجديد ، ولا بقيت له زعامته التى كفر

من أجلها ، فماذا يفعل ليبقى على زعامته حيث قرر البقاء على كفره ؟ ثم ان الناس يسالونه : ماذا يقول فى هذا الكلام الذى جاء به محمد ؟ أيقول لهم قولا بعيدا عن العقول ، كما قال غيره انه شعر أو كهانة أو غير ذلك ؟ ان ذلك لا يصدهم عن الدين الجديد ، لأنه لا يقنعهم ، واذن فماذا يفعل ؟ وماذا يقول ؟ وقد وصل الوليد الى فكرة خطيرة تدل على عمق تفكيره ، وعلى عقلية جبارة شهد القرآن نفسه بخطورتها فى قوله تعالى « فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر » (١) اهتدى الى فكرته من واقع القرآن نفسه وتأثيره ، فقد أحس ان أبرز ما يميز القرآن ويجذب الناس اليه هو تأثيره غير العادى فى النفوس ، فقد كان الرجل من المشركين يأتى الى النبى صلى الله عليه وسلم أو الى أحد أصحابه ، وقد امتلأ قلبه غضبا وحقدا وعداء ، ولكنه ما ان يستمع الى القرآن حين يلين قلبه ، وتضطرب نفسه ، ويشعر بقوة تجذبه جذبا قويا الى هذا القرآن ، فيسلم أو يعود بنفسية غير التى كان بها قبل أن يستمع الى القرآن ، ولكنه فى كلا الحالين يشعر بأن فى هذا القرآن شيئا غير عادى ، هذه النقطة جعل منها الوليد خيطا ينسج منه فكرته ، فالقرآن اذن له تأثير غير عادى فى النفوس ، وهذا التأثير الذى لا يدرك مصدره ، لم يعرفه الناس الا فى السحر ، فالقرآن اذن نوع من السحر ، ومحمد اذن طراز خاص من السحرة ، لا هو شاعر ، ولا هو كاهن ، ولا هو مجنون ، وانما هو فى فكرة الوليد شخص بارع ماهر فى السحر « فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر » ويبدو حتى من حديث القرآن عن هذه الفكرة أنها كانت أخطر فكرة حورب بها القرآن ، لأنها تقوم على مقدمتين منطقيتين مسلم بهما عند الناس حينذاك ، أولاهما ان للقرآن تأثيرا فى النفوس غير عادى ، وغير مألوف فى كلام العرب قاطبة ، وثانيتهما ان الشىء الذى يحدث تأثيرا لا يعرف مصدره انما هو السحر ، ويترتب على ذلك ان القرآن نوع من السحر ، وهذا بالطبع ليس منطقا عقليا ، وانما هو منطق السفسطة والمغالطات العقلية ، ولكنه منطق يروج فى مجتمع معاد للاسلام ، يلتمس كل وسيلة تدنو أى دنو من العقل ليجنو بها عن الاسلام ، ويصد بها الناس عنه ، والا فليس كل ما يؤثر فى النفوس سحرا مهما جهل مصدره ، وذلك أمر لا يخفى على العقول التى تنشد الحقيقة ، ولكن العقول التى تنشد الضلال ، وتلتمس المطاعن قد يقنعها ما هو أيسر من ذلك منطقا .

وأما وعيد الله سبحانه لهذا الزعيم العنيد ، فيتمثل فى مجالين ، فى الدنيا وفى الآخرة ، أما الدنيا فاننا نلاحظ ان القرآن لا يركز على شأنها من حيث انها وعيد ، لأنها وان اهتم بها الناس وشغلوا بها عقولهم وآمالهم ، فانها عند الله غير ذات شأن ، انها مرحلة قصيرة يسيرة عابرة فى الحياة ، حياة كله

---

(١) مما يقوله الزمخشرى فى الكشاف عن تفسيرها « فقتل كيف قدر ، تعجيب من تقديره واصابته فيه المحز ورميه الغرض الذى كان تنتحيه قريش ٤/١٦٩ » .

فرد ، أما الحياة الحقيقية الكاملة الحياة ، والدائمة الحياة فهى الحياة الآخرة « وان الدار الآخرة لهى الحيوان ·· » ولذلك يكتفى القرآن فى وعيده الدنيوى لهذا الزعيم الخطير ، بكسر امانيه وآماله التى تسيطر على نفسه ، والتى يتخـذها أساسا من أسس زعامته ، فيقول القرآن بعد عرض ما لهذا الزعيم من مال ممدود ، وبنين شهود ، « ثم يطمع أن ازيد ، كلا ·· » فلفظ (كلا) رغم بساطة ظاهره ، الا أنه يحمل وعيدا وتهديدا دنيويا يثير الرعب والفزع فى نفس من تسيطر عليه آمال الحياة ، وتشغله مآربها ·

أما الوعيد الرهيب فهو فى الآخرة ، وكما سبق القول بان وعيد القرآن للزعماء يبرز فيه طابع السخرية ، فكذلك نلاحظ فى الوعيد لهذا الزعيم ، فوعيده يتمثل فى سقر ، ونجد أن التهويل الشديد لسقر ينتهى بالنسبة اليه الى مجرد السخرية من مظهره فى جهنم ، فالوليد بن المغيرة الذى يعرفه الناس جسيما وسيما ، يرونه فى سقر وقد ذهب عنه كل ذلك ، وتحول الى شخص مغبر ملوح البشرة « لواحة للبشر » ، وتبدو هذه السخرية مقصودة بالنسبة لهذا الذى تعنيه الآيات ، من حيث الأوصاف التى ساقتها الآيات لسقر انها « لا تبقى ولا تذر » وصريح ذلك انها لا تبقى شيئا ، ولكن الآية التى بعدها « لواحة للبشر » والبشر سطح الجلود وظاهرها ، وتلويحه ذهاب نصاعته حتى يعود كأنه مغبر ، ومعنى الآيتين أن سقر اذا كانت لا تبقى شيئا ، فانها أبقت هذا الزعيم ، لأن عذابه ليس فى أن تأكله النار ، ولا أن تأكل شيئا منه ، وانمـا عذابه فى تشويه مظهره الذى يختال به فى الناس ، والذى يتخذه سـلاحا من أسلحة جبروته وارهابه للاتباع ، فيكفى أن تلوحه سقر ، وأن يتمثله الاتباع بشخصه ، ولكن فى صورة غير صورته التى يمشى بها بينهم ، ولو قد تمثلوا شخصا محته النار وأفنته لما كان لهيبته أن تسقط من نفوسهم كما تسقط حين يتمثلوا شخصه قائما ماثلا ولكنه مشوه · واشارة أخرى الى سخرية من هذا الزعيم ، وهو أن سقر التى سيصلاها عليها تسعة عشر خازنا من الزبانية ، ولنفوس الاتباع أن تذهب فى تصور ذلك بالنسبة لزعيمهم كيف تشاء ، لها أن تتمثلهم يبطشون بزعيمهم هذا الذى يرونه اليوم ولا قوة تخفيفه أو تدنو منه ، ولها أن تتصورهم يغللونه أو يسوقونه ، ولها أن تتصور غير ذلك مما ينزل بجلال هذا الزعيم الكبير من نفوسهم ، يقول الله تبارك وتعالى « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ·· » (١) ·

---

(١) الآيات ١١ ــ ٣٠ سورة المدثر ·

وفي موضع آخر من سخرية القرآن الكريم ، يتكرر هذا الأسلوب البالغ الوعيد ، والذى يتحدث فيه القرآن الكريم عن الزعماء ، فيبرز عداءهم وجزاءهم ، ليجعله في موضع خاص ظاهر تراه عيون الأتباع ، ليتمثلوا فيه زعماءهم وهم يتلقون الجزاء ، حيث يجعلهم الله سبحانه وكأنهم في عداء شخصي معه ، فيتوعدهم بأبلغ ما يألفه الناس من أسلوب القوى المتوعد ، الواثق من قدرته ومن تنفيذ وعيده « ذرني والمكذبين أولى النعمة » وهذا الأسلوب في تنزله الى مستوى العرف ، انما ليصل الى أبلغ الوقع في النفوس ، كما يقول الزمخشري عن العرف وأثره بالنسبة لهذا الأسلوب « اذا عرف الرجل من صاحبه أنه مهتم بخطب يريد أن يكفاه ، أو بعدو يشتهى أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه قال : ذرني واياه ، ... وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه » (١) ، ويقول عن أولى النعمة « النعمة بالفتح التنعم ، وبالكسر الانعام ، والضم المسرة ، ... وهم صناديد قريش » ، فالمعنى بالآيات هم الزعماء صناديد قريش وقادتها ، ووعيد الله سبحانه لهم ، من طراز خاص يناسب مكانهم في نفوس الاتباع ، لا لذات هذا ، وانما ليفكر الأتباع في مصير زعمائهم ، فيفكروا في مصيرهم هم حين يصرون على الانقياد لهم ، وأما الوعيد فتبدأ فيه لهجة التنفيذ من قوله تعالى « ومهلهم قليلا » وهو أسلوب متداول في العرف أيضا ، يقصد به أيضا تقريب صورة الوعيد الى الأذهان ، وابراز مبلغ ما يكنه الله سبحانه لهم من غضب شديد ، وانتقام عظيم ، فان هذه اللهجة انما يألفها الناس من القادر الواثق من قدرته ، ومن الغاضب الشديد الغضب ، المصر أشد الاصرار على تنفيذ ما يضمره لخصمه ، ثم يأتي بيان العذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة ، وهو كما سبق لا يعتمد على بيان شدة العذاب أو فظاعته ، كما يؤلف في حديث القرآن عن عذاب الكافرين ، فقد ذكر الجحيم في عذاب أولى النعمة هؤلاء ، ولكن هذا الجحيم لم يذكر فيه انضاج الجلود ، ولم يذكر فيه تقطيع الأمعاء ، ولم يذكر فيه نحو ذلك مما يذكر في عذاب سائر الكافرين ، وانما ذكرت في تفصيل عذابهم صورتان ، لم يظهر فيهما القصد الى توضيح شدة العذاب ، وانما ظهر فيهما القصد الى الاهانة والسخرية ، احداهما صورة الانكال والقيود ، حيث يتاح للنفوس حينئذ أن تتصور هؤلاء المتعالين المتغطرسين الذين تمتلئ أثوابهم تعاليا وكبرا وغرورا ، وقد كبلوا بالأغلال والقيود ، كما يفعل بسجين ذليل مهين ، والأخرى طعام لم يصرح فيه بأنه من (غسلين) أو أنه من (شجرة الزقوم) ، ولم يصرح فيه بأنه مؤلم أو مثير لأى شيء الا أنه (ذا غصة) ويكفى بالنسبة لهؤلاء الزعماء بالذات أن يتصورهم الأتباع في جهنم يأكلون طعاما كلما ازدردوا منه مضغة غصت بها حلوقهم ، ثم يكفى تصورهم وهم يعانون هذه الغصص وليست لديهم وسيلة للتخلص منها ، على أن القرآن لا يسوق هذه الأنواع

(١) تفسير الكشاف ٤/٥١٢

من العذاب المعنوى او الحسى فى سياق تصويرهم معذبين بها ، وانما فى سياق فيه الوعيد المتهكم الساخر ، حيث يصور القرآن هذا بمجرد قوله « ان لدينا أنكالا ... » فيكتفى بقوله (لدينا) دون ان يذكر انهم سيعذبون بهـا ، أو ان يصورهم معذبين بها فعلا كما جاء فى مواضع أخرى · يقول سبحانه « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدينا انكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصـة وعذابا أليما » (١) ·

وهناك زعيم آخر خلا له وجه الزعامة والعزة المطلقة ، التى لا ينافسـه فيها انسان آخر ، يصرح القرآن فى حديثه عنه بالعذاب الشديد ، ولكن تصوير هذا الزعيم نفسه لا نراه فى العذاب الشديد ، وانما نراه فى التهوين من شأنه والسخرية من قوته وعزته التى كان يتيه بهما فى حياته على الناس ، يقـول سبحانه « ان شجرة الزقوم ، طعام الاثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسـه من عذاب الحميم ، ذق انك أنت العزيز الكريم ، ان هذا ما كنتم به تمترون » (٢) ، ويرون أن هذه الآيات نزلت فى شأن أبى جهل ، وأنه قد جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم يقول له : ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا (٣) ·

ونلاحظ ان سخرية القرآن تسلم له بأنه ليس مجرد عزيز كريم بين قومه وأتباعه ، وانما هو صاحب العزة التى تنفرد بذاتها لا تساويها ولا تنافسها عزة أخرى ، فان قوله تعالى « انك أنت العزيز الكريم » فيه تأكيد بلفظ (ان) وفيه قصران ، أحدهما يبدأ بلفظ (أنت) والآخـــر هو الألف واللام ، وكلا القصرين يفيد انه منفرد فى المجتمع بالعزة والكرم ، وانه لا منازع له فيهما ، وانه وان كان القرآن لم يصدر هذا الحكم ، وانما يحكيه عنه ، من باب السخرية والتهكم ، الا ان القرآن لم ينكر مكانه فيهما ، ولم يكذبه فى دعواهما ، وانما سخر من عاقبة هذه الزعامة ، وهذه العزة المطلقة ، التى استغلها صاحبها فى حرب الله سبحانه ، وحرب دينه ، حتى كانت نتيجتها حاله التى هو فيها فى جهنم ، وأما حاله التى انتهت اليه زعامته وعزته ، فنلاحظ ان التركيز فيها على السخرية منه والتهوين من شأنه أكثر من التركيز على شدة تعذيبه ، فالآيات ذكرت شجرة الزقوم ، ووصفت بشاعة العذاب بها وفظاعته « ان شجرة الزقوم طعام الاثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحيم » ولكنها لم تصرح بأن هذا الزعيم العزيز الكريم يأكل منها ، أو يعذب بها ، وان كان هذا مفهوما ضمنا ، وانما صرحت بالنسبة له بعذاب نفسى واهانة معنوية واضحة « خذوه فاعتلوه

---

(١) الآيات ١١ ــ ١٣ سورة المزمل ·

(٢) الآيات ٤٣ ــ ٥٠ سورة الدخان ·

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري ٤/٢٢٣ ·

الى سواء الجحيم » حيث ترى هذا الزعيم ضعيفا بين جمع قوى يجره ويجذبه في قوة واهانة ، وهو ذليل مستكين خاضع ، وفى هذه الصورة يمكن الموازنة بين وضعه هذا الذليل ، ووضعه فى زعامته وعزته المطلقة ، وحتى حينما تتحدث الآيات عن عذابه البدنى ، فانها لا تعنى كثيرا بشدة العذاب بالنسبة له ، وانما تكتفى بتصويره واقفا خانعا ذليلا ، والجمع القوى يصبون فوق رأسه العزيز الكريم من عذاب الحميم ، ولو قصد الى توضيح شدة تعذيبه ، لصــــور فى طعام شجرة الزقوم الذى يشبه المهل يغلى فى البطون ، ولكن الزعماء الأعزة ، يؤلمهم ويسىء الى عزتهم الهوان أكثر من العذاب البدنى ، وهذا هو السر فى الآيات التى تتوعد الزعماء والقادة بالذات ، تعتمد على السخرية والتهكم بهم ، والتهوين من شأنهم ، أكثر مما تعتمد على الحديث عن تعذيبهم البدنى ، وتبلغ سخرية القرآن أقصاها من هذا الزعيم البالغ العزة والكرم ، حين يقال له وهو فى هذا الهوان الشديد والذل العميق « ذق انك أنت العزيز الكريم » ·

وتجيب سخرية القرآن عن سؤال ذى أهمية فيما يتعلق بالقادة والزعماء وهو : فكيف بأعمال الخير التى يعملها هؤلاء الزعماء ؟ فقد كان من تقاليد العرب تنافس السادة الزعماء فى كثير من الصفات التى تعتبر فى ذاتها فضائل مع صرف النظر عن القصد والاتجاه بها ، وأهم هذه الصفات الجود ، الذى كان يبرز التنافس فيه بين السادة فى عدة نواح ، منها اكرام الضيف ، حتى ان بعضهم كان يصل فى ذلك الى صور من التبذير والافراط الشديد ، كتصص حاتم الطائى الشهيرة فى الكرم ، وكانوا يتنافسون فى ايقاد النيران فى الليل ، ليراها العابرون والضالون فى الصحراء ، والجائعون وذوو الحاجة ليأووا الى أصحابها فيجدوا عندهم ما يريدون ، ومن ذلك أيضا التنافس فى نحر الابل للأتباع ، كمـــا يروون عن غالب بن صعصعة أبى الفرزدق ــ وكان معـــاصرا لنزول القرآن ــ فقــد أصابت قومه مجـاعة ، فكان ينحر لهم كل يوم من ابله الكثير ليطعمهم ، حتى انه نحر لهم ذات يوم مائة ناقة مرة واحدة (١) ، وفى رواية أخرى انه نحر لهم ذات يوم مائتين (٢) ، ومن ذلك ما يروى أن سحيم بن وثيل ابن حنظلة الذى نافس غالب بن صعصعة فى نحو الابل ، فنحر لقومه ذات يوم ثلاثمائة ناقة (٣) ، ومن مجالات التنافس بين السادة والزعماء تحمـــل الديات عن العاجزين عن الوفاء بها ، كما تحمل حاتم الطائى ثلاثمائة بعير عن قيس بن خفاف (٤) ، وكما فعل الحارث بن أبى سفيان حين تحمل دية قدرها ألف بعير (٥) ، ومن ذلك تنافسهم فى حفظ الذمة والجوار ، ومنها الروايات

---

(١) انظر خزانة الأدب للبغدادى ٢/٣٤٩ ·
(٢) انظر الأمالى لأبى على القالى ٢/٥٣ ·
(٣) انظر خزانة الأدب للبغدادى ٢/٣٤٩ ·
(٤) الأمالى لأبى على القالى ٣/٣١ ·
(٥) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ٢/١٧٤ ·

الكثيرة المشهورة فى ذلك ، كقصة السموأل بن عادياء ودروع امرىء القيس الكندى الشاعر المعروف .

فهذه الأعمال التى كان يتنافس فيها السادة ، كان لها دوى ورنين فى طول القبائل وعرضها ، وكانت موضع الاعجاب والاكبار الشديدين لدى كل الناس ، وخاصة اتباع كل زعيم من هؤلاء الزعماء ، حيث يرون فيما يصدر عن زعيمهم فى هذا التنافس موضعا للاعجاب والفخر ، وذكرا مقترنا بمجده ترويه الأجيال ، وتتناقله الرويات ، وينعكس هذا المجد وهذا الفخر على قبيلة الزعيم وأتباعه ، حيث يرون فى هذه الأعمال رفعا لذكرهم بين القبائل ، وعزة لهم على المنافسين .

واذا كان القرآن يهدف الى تحطيم هالة هؤلاء الزعماء وجلالهم فى نفوس الأتباع ، ليحطم وقوفهم امام دعوته ، وكونهم عقبة أمام الاسلام ، فان القرآن يصطدم حينئذ بعقبة اخرى ، هى ان هذه الأعمال التى كان يتنافس فيها الزعماء كانت تملأ نفوس الاتباع تعلقا واعجابا بهم ، فى الوقت الذى يهدف فيه القرآن الى محو كل تعلق واعجاب فى نفوسهم بالزعماء ، فماذا يفعل القرآن لتلافى هذه العقبة الصعبة ليصل الى هدفه ؟ .

والواقع ان موقف الاسلام فى هذه النقطة لا ينظر اليه من هذه الزاوية ، وانما من زاوية أوسع ، فالاسلام لا يقف فى خصومة ولا فى موضع موقفا ارتجاليا او وقتيا ، ولا ينظر الى موقف من المواقف نظرة المتطلع الى حل فردى لا يرتبط بأساس ثابت ولا تحدد له طريق وضحة ، وانما ينظر لى كل شىء ، ويعالج كل شىء على أساس مبادىء ثابتة محددة ، تخضع لها الأحداث ، وتوجه على ضوئها الحلول ، ولا تخضع هى قط للاحداث والحلول ، وفى مسألة كالمسألة السابقة يبرز الاسلام مبادئه الواضحة المحددة ، التى يخضع كل الأحداث والأعمال مهما يكن نوعها ، ومهما يكن شأن صاحبها لهذه المبادىء ، دون أن تتغير المبادىء نفسها تحت أى ظرف من الظروف ، ومبادىء الاسلام بالنسـبة للأعمال التى كان يتنافس فيها الزعماء ، ان الأعمال لا تقاس قط بمظهرهـا أو شكلها أو أثرها ، وانما تقاس بنوع الدافع النفسى للقيام بها ، فان كان الدافع النفسى شرا أو غير خير ، فالأعمال كذلك ، وهذا مبدأ واضح فى الاسلام كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امراة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » (١) ، فعمل الخير اذن هو ما قصد به الخير قصدا ، والشر ما قصد به خلاف لك ، فمدار الحكم على القصد وحده ، حتى ان الامام الغزالى يؤكد ان العمل نفسـه لا عبرة بنوعه سواء أكان خيرا أم شرا ، وانما العبرة بالنية والقصد ، فالعمل

(١) أنظر صحيح البخاري .

الذى يكون خيرا فى ذاته يتحول الى شر اذا قصد به صاحبه الشر ، ويحاسب عليه على أساس انه شر ، وعمل الشر فى ذاته يتحول الى خير اذا قصد صاحبه به الخير ويثاب عليه (١) ، ولكن هناك نقطة حساسة شديدة الحساسية فى تقويم الدافع النفسى والحكم عليه ، من حيث أنه قد يلتبس تحديد الدافع النفسى على صاحبه ، متى يكون خيرا ، ومتى يكون غير ذلك ، وذلك على الأخص حين تتعدد الدوافع فى النفس ، فيختلط ، الخير بغيره من الدوافع ، كالذى يحسن الى فقير يشعر بالعطف عليه ، ولكنه مع الشعور بالعطف الذى هو دافع خير ، يشعر أيضا بانه يريد أن يحمل هذا الفقير يدا ومعروفا يمكن أن يستخدمه أو يسخره به فى وقت ما ، أو على الأقل يجبره بهذا المعروف على الخضوع له ، ولاشك أن هذا الدافع الأخير ليس من الخير ، بل هو شر واضح ، واختلاطه بالدافع الاول الذى هو خير بحت ، قد يحدث لبسا حتى على فاعل هذا المعروف ، حين يغالط نفسه عن المعنى الثانى ، معتقدا انه لم يفعل الا خيرا مطلقا ، ولذلك يضع الاسلام مقياسا واضحا وثابتا لتمييز دافع الخير عن غيره ، هذا المقياس هو القصد الى الله وحده بأى عمل يراد به الخير ، بحيث لا يشوب هذا القصد أى قصد آخر ، فمهما تكن مناسبة أى عمل ، ومهما تكن ملابساته من اشفاق على محتاج ، أو رغبة فى اسداء عون ، أو ذود عن مبدأ أو عقيدة ، أو غير ذلك فلا يكون العمل خيرا الا اذا شعر صاحبه بأنه يقصد به وجه الله وحده ، دون أى جزاء عليه ، أو حتى صدى له من أحد غير الله ، بهذا يكون العمل مهما يكن نوعه أو مظهره ، حتى لو بدا شرا كما يقول الغزالى يكون خيرا ، وبغير هذا لا يكون العمل مهما يكن نوعه خيرا .

وبهذا نرى انه من الواضح ان الاسلام لا يرى فى أعمال الزعماء التى كانوا يتنافسون فيها أى خير ، لأنهم يفقدون مبدأ الدافع والقصد الذى يعترف به الاسلام ، وهو الاتجاه بالعمل الى الله ، لأنهم لا يعترفون بالله سبحانه أصلا ولا يؤمنون به ، ويترتب على ذلك بداهة انهم لا يتجهون اليه بأى عمل .

على اننا حتى لو نظرنا الى أعمال الزعماء من زاوية قصد الخير لذاته ، نجدها لا تستقيم مع وصف الخير أيضا ، لانه من الواضح فى ملابسات كل أعمالهم هذه انهم لم يقصدوا بها جانب الخير وحده ، بل لم يكن جانب الخير فيها أبرز الجوانب ، وانما كان أبرزها كما تؤكد الظروف والملابسات المحيطة بها ، وكما تؤكد الروايات أيضا جانب حب الظهور ومنافسة الآخرين ، وتثبيت أركان الرياسة والزعامه فى نفوس الاتباع ، وقد رأينا أن سحيم بن وثيل نحر ثلاثمائة ناقة لقومه ، لا ليرفع عنهم ضرا ، ولا ليسدى اليهم عونا ، وانما خشية أن يقول قومه وأتباعه ان غالب بن صعصعة ينحر لقومه بالمئات ، وزعيمنا يكبل الشح يديه مع بسطة ماله وابله ، فابرز الدوافع النفسية فى أعمال الزعماء

---

(١) انظر احياء علوم الدين لابى حامد الغزالى .

دافعان ، منافسة الزعماء الآخرين حتى يحتفظ الزعيم بذكره لا يخبيه ولا يخفته ذكر زعيم آخر ، وتثبيت الزعامة وسلطانها فى نفوس الأتباع .

فالاسلام اذن لا يرى فى أعمال الزعماء هذه اى خير ، ولا يجعل ذلك حكما خاصا بالزعماء ، ولا بأشخاص أو أنواع معينين ، وانما هو مبدأ عام يسرى على كل عباد الله ، لأنه تشريع الله ، وقصرنا حديثنا هنا على الزعماء ، لأنها أوضح فى الزعماء من غيرهم .

ومن هنا يمكن أن نعود الى النقطة الأولى ، وهى ماذا يفعل القرآن ليمحو هذا البريق الكاذب الخادع الذى تثيره أعمال الزعماء فى نفوس الأتباع فتملأها اعجابا واكبارا ؟ لأنهم لا يدركون الدوافع الحقيقية لهذه الأعمال فى نفوس الزعماء ، وانما يدركون بريقها الظاهر ، ورنينها المحسوس ، وكما يعترف علماء النفس فان السخرية هى أمضى سلاح فى التأثير على نفوس أفراد المجتمع .

وهكذا يلجأ القرآن الى التصوير الساخر ليمحو به من نفوسهم هذا الوهم الخادع ، فلا يقول لهم هنا ان هذه الأعمال ليست من الخير ، ولم يقصد بها وجه الله ، فلن يجد أصحابها لها ثوابا عند الله قط ، وانما يرسم لهم صورة يدعوهم الى تأملها ليعرفوا منها مصير هذه الأعمال التى يتبارى فيها الزعماء ، فيضرب لهم فيها مثلا بكومة من رماد خلفته النار ، واذا رياح عنيفة عاتية هوجاء ، تهب عليها فى يوم عاصف مكفهر ، فتذروها فى الفضاء ، وهذه الصورة ليست غريبة على العرب ، بل هى من واقع البيئة كما سبق ، ومألوفة لهم جميعا كل الالف ، فهم لا يحتاجون بعد هذه الصورة أن يسألوا عن مصير الرماد بعد ذلك ، وهل يبقى منه شىء ؟ فانهم يعلمون ان الريح حينئذ لن تبقى من هذا الرماد قليلا أو كثيرا ، ولن يعرف بعد هذه الرياح أين مكان الرماد ، ولا أين وجهه الذى دفع اليه ، وكذلك مكرمات الزعماء لا يبقى منها فى ميزان الخير شىء ، ولا يجد أصحابها منها ذرة « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد » (١) .

ويؤكد القرآن هذا المعنى فى نفوس الأتباع بصورة أخرى مستخدما مشاهدات البيئة ، وخبرة العرب بها كما سبق ، فيضرب لهم مثلا بشخص مسافر فى الصحراء ، نفد ماؤه وقد اشتد عليه العطش ، وزاد من شدة عطشه وهج الشمس فى رابعة النهار (٢) ، واذا هو ينظر فيرى سرابا أمامه يظنه بحرا ،

---

(١) الآية ١٨ سورة ابراهيم وانظر فى تفسيرها النكت فى اعجاز القرآن للرمانى ص ٧٦ (ثلاث رسائل) .

(٢) لان السراب لا يكون الا وقت الظهيرة حين تحدث اشعة الشمس انكسارا كليا على الرمال .

فيسعى اليه ليطفىء ظمأه وينقذ حياته ، ويظل يسعى دون أن يصل الى الماء او يجد شيئا ، وهكذا مكرمات الزعماء وأعمالهم ، مجرد سراب خادع « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » (١) ٠

على أن سخرية القرآن لا تقف من بيان مصير الزعماء وتوعد الله سبحانه لهم عند هذا الحد من الوعيد بعذاب الآخرة ، بل تشير لهم الى وعيد بعذاب الدنيا ، ليكون لك أعمق وقعا فى النفوس ، ومع ان السخرية والوعيد هنا لم يصرح بالاتجاه الى الزعماء ، أعنى ان القرآن لم يصرح هنا بتوعد الزعماء فى الدنيا ، ولكن ما يضربه من مثال يشير الى شىء من وعيد ، أو على الاقل يشير الى استحقاقهم لعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ويجعل النفوس مترقبة لهذا العذاب بالنسبة للزعماء ، أو متوجسة منه ، فيضرب لهم القرآن مثلا بمن كانوا أشد من الزعماء قوة ، وأوسع جاها وملكا ، وأنفذ منهم سلطانا وحكما ، ثم يبين لهم كيف فعل الله بهم فى الدنيا ، زيادة على ما ينتظرهم فى الآخرة ، فهذا فرعون الذى بلغ من القوة والجبروت ، ومن تمكنه فى الملك والسلطان ما لم يتح لملك غيره فضلا عن زعيم ، والذى بلغ من جبروته وسلطانه ان أدعى لنفسه الألوهية من دون الله ، بل ادعى الانفراد بالألوهية لا يرضى حتى بأن يكون الله سبحانه مجرد شريك فى الألوهية « ماعلمت لكم من اله غيرى » ، والذى بلغ من قوته وقدرته انه حاول أن يبنى صرحا يبلغ به السماء ، والذى بلغ من غروره أن يعتقد فى نفسه القدرة على محاربة الله سبحانه والثقة من النصر عليه ، والذى بلغ من جهله أن يعتقد ان ذلك كله ليس محالا ، ولا بعيدا ، وانما هو شىء قريب ميسور ، فيعبر عنه بقوله (لعلى) دون أن يجعل ذلك أمنية يتمناها فيقول « ليتنى » ، فرعون الذى بلغ من هذا كله أن يحاول السخرية من موسى ومن الله سبحانه « لعلى أطلع الى اله موسى » ، والذى أشاع غروره الكبرياء فى نفوس قواده وأتباعه ، فظنوا أنه لا توجد قوة تستطيع أن تقهرهم ولا أن تتصدى لهم ، ولكن الله القوى القدير ، يعلم فرعون هذا ، ويعلم جنوده ، انهم أيسر شأنا مما يظنون ، وان هناك قوة لا تراهم أمامها خصوما ولا أقوياء ، ولا مجرد شىء ذى قيمة ، هى قوة الله القدير الأعلى ، فتنتقم منهم هذه القوة بما يلائم تفاهة شأنهم ، وهوان أمرهم فتلقيهم فى البحر القــــاء ، وتنبذهم فى اليم نبذا ، كما ينبذ المرء نواة من يده ، أو يلقى بحصيات الى الأرض « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم » ، ثم ينتظرهم يوم القيامة من العذاب ما هو أشد وأنكى ، وقد جعلهم الله مثلا يضربهم لغاية الطغيان والكفر والجحود ، وعبرة للقوة الشريرة ، التى تخدع أصحابها حتى ترديهم « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار » فلا نفعتهم قوتهم فى الدنيا ، ولا أغنت عنهم يوم القيامة ، وقال فرعون

---

(١) الآية ٣٩ النور ٠

يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فاوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين ، واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا انهم الينا لا يرجعون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم ائمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » (١) أفلا تكون للزعماء عبرة فى فرعون وجنوده ؟ وألا يقارن الأتباع بين فرعون وبين زعمائهم ؟ أم يظنـون ان زعماءهم أقوى من فرعون ؟ او يحسـبون ان ما نزل بفرعون وجنوده لا ينزل بزعمائهم وأتباعهم ؟ أفلا يتفكرون ؟

ويضرب لهم القرآن مثلا آخر ، ليس بعيدا عنهم ، وانما هو من واقع أرضهم التى يعيشون فيها ، وبيئتهم التى يقطنونها ، يضرب لهم مثلا بعاد وثمود ، الذين يعرفون من أخبارهم ما تناقلته أجيالهم ، وما هو حديث أنديتهم وأسمارهم ، فقد اجتمع فى عاد وثمود القوة والكفر ، وبلغوا منهما مالم يبلغوه هم ولا زعماؤهم ، ثم كان انتقام الله منهم سهلا يسيرا ، فقد بلغت عاد من القوة والجبروت والطغيان مالم تبلغه قبيلة قط ، ومالم تبلغه قوة زعيم يعرفونه قط أيضا ، حتى انهم تحدوا بقوتهم الناس فلم يقف أمامهم احد ، ولم يجب على تحديهم أحد ، ددفعهم هذا الى الغرور والطغيان ، ونسوا ، ان الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وقد أراهم الله صورة عجيبة من قوته ، مثلها لهم فى أضعف مخلوقاته المادية وأرقها والطفها وهو الهواء ، فأرسله عليهم « ريحا صرصرا فى أيام نحسات » فاذا هم هالكون ، وكأنهم حينئذ أعجاز نخل خاوية ، وأما ثمود فقد تباروا فى الضلال والكفر وتكذيب الرسول ، فكان هلاكهم فى مجرد صاعقة أموت عليهم ، فعلى الأتباع أن يفكروا وأن يقدروا انهم وزعماءهم لن يكونوا أشد من عاد قوة وعتوا ، ولا أشد من ثمود كفرا وجحودا ، وعليهم أن يستمعوا الى هذا الانذار « فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون ، فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا ان الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » (٢) .

---

(١) الآيات ٣٨ ــ ٤٢ سورة القصص .
(٢) الآيات ١٣ ــ ١٧ سورة فصلت .

٥ ـ موقف الأتبـــاع :

وحيث عرف الأتباع كل هذه المراحل والصـــور ، من موقف الزعمـــاء من الاسلام ، وجهودهم الدائبة المتنوعة لصد الناس عنه ، وحيث عرفوا حقيقة هؤلاء الزعماء وخبايا نفوسهم ، وطبيعة أخلاقهم ، ودوافع سلوكهم ، ثم عرفوا حكم الله فى هؤلاء السادة وما يعده لهم من خزى فى الدنيا وعذاب فى الآخرة ، فعليهم أن يحددوا موقفهم من هؤلاء الزعماء ، وأن ينظروا أين يضـــــعون أقدامهم ؟ وما الطريق التى يسيرهم فيها الزعماء وهم مغمضون ؟

ليس للاتباع مفر اذن من أن ينجوا بأنفسهم من أوزار هؤلاء السادة ، وأن يتركوهم ليتحملوا وحدهم مغبة حربهم لله ورسوله ، وصدهم عن سبيل الله ٠

فالقرآن يطالبهم هنا بالنتيجة المنطقية ، وهى انفصالهم عن الزعماء ، حيث تبين لهم انهم لن يجنوا من هذه التبعية الا كل شر وخسران ، ولكن القرآن يعلم ان الصلة بين الأتباع والزعماء ليست من الوهن بالدرجة التى يسهل على الأتباع فيها التخلى عن تبعيتهم لسادتهم ، فكما يقول علماء الاجتماع فيما سبق « ولا يسعنا والامر كذلك أن ندهش كثيرا لما ذهب اليه عالم الاجتماع زيل من اعتبار العلاقة بين الزعماء وأتباعهم أهم العلاقات الاجتماعية قاطبة » (١) ، وذلك بعد قولهم « ان الشخص المحكوم يتخذ دائما موقف المتهيء لتلقى الأوامر ووضع الخاضع الذى يقبل أن يكون تابعا لصاحب السلطة » (٢) ٠

لذلك نجد ان القرآن الكريم يراعى دائما هذه الرابطة القوية التى تشد الأتباع الى الزعماء ، فلا يكتفى بمجرد لفت أنظار الأتباع الى الحقيقة ، ولا بمجرد توضيحها ، ولا يكتفى بالأسلوب العادى فى بيان هذا كله للاتباع ، وانما يسلك كل وسيلة لتحطيم هذه الصخرة الصلبة التى تتمثل فى الارتباط الشديد بين الأتباع والزعماء ، ومن هذه الوسائل أسلوب السخرية الذى يعرف علماء النفس قوة تأثيره فى مختلف المجالات الاجتماعية والنفسية كما لا يؤثر شىء آخـــر ٠

وسخرية القرآن تعرض للاتباع ظروف تبعيتهم للزعماء ، ونتيجة هذه التبعية ، فى صور كأنها محسوسة مرئية ، يشاهدها الأتباع فيرون أنفسهم فيها وقد اتخذوا وضعا مهينا من ناحيتين ، احداهما العذاب الذى يصطلونه فى جهنم ، والأخرى عذاب نفسى يتمثل فى ندمهم الشديد على انسياقهم وراء الزعماء وتضليلهم اياهم ، واغترارهم بما كان يموهه عليهم زعماؤهم من مظاهر البطش والسلطان حينا ، ومن ضروب الكيد والمكر حينا آخر ٠

---

(١) المجتمع ج١ م ماكيفر وشارلز هـ بيدج ترجمة د٠ على أحمد عيسى ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ٠
(٢) المصدر السابق ٢٩١ ٠

فهذه صورة ساخرة بالغة السخرية ، تمثل منظرا كأنه مشاهد مرئي ، نرى فيه الأتباع مع زعمائهم يوم القيامة ، وقد وقفوا ينتظرون الحساب والجزاء ، فتدور بينهم خصومة طريفة في صورة حوار شديد الحرارة والعنف والانفعال ، فقد احسوا جميعا ببشاعة ما ينتظرهم من عذاب ، وأدرك الأتباع لأول مرة مدى جناية زعمائهم عليهم ، ومدى الخطأ الكبير في انسياقهم وراء ضلال سادتهم وكفرهم ، فأخذوا تحت وطأة الندم المر الأليم ، يلقون اللوم على زعمائهم قائلين « لولا أنتم لكنا مؤمنين » ولكن زعماءهم يجيبونهم ساخرين منهم متهكمين بهم قائلين « أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين » فيكاد الأتباع يصرخون فيهم مذكرين اياهم بما سلكوه معهم من ضروب الارهاب والكيد والتمويه قائلين « بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا » ومهما يحتدم الخصام ، ومهما يطل الحوار ، فان شيئا من ذلك لن ينفعهم اليوم شيئا ، فقد فات أوان النفع ، ولن يملكوا اليوم الا الندم المر المعذب على انهم اطاعوا هؤلاء السادة وخدعوا عن حقيقتهم « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » فليندموا ما وسعهم الندم ، وليلوموا أنفسهم أو سادتهم ما شاء لهم اللوم ، فقد حل أوان الجزاء « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى اذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون » (١) ، ويمكن أن نتصور وقع صورة حية متحركة كهذه فى نفوس الأتباع ، حين يرون أنفسهم فى مشهد حقيقى يمثل حياتهم الحاضرة مع زعمائهم ، وما يكيدونه لهم من مكر الليل والنهار ، ويمثل حياتهم فى الآخرة تلك التى كانت أثرا من آثار جناية الزعماء عليهم ، يمكن لصورة كهذه أن تشغل نفوس الأتباع ، وأن تشغل أحاديثهم أيضا شغلا غير يسير ، ففى الصورة محاورة تضمنت خصومة لم يقض بعد فيها ، الأتباع يتهمون الزعماء بأنهم هم السبب فى كفرهم وفيما حل بهم ، وانهم لولا الزعماء ومكرهم بهم لكانوا مؤمنين ، والزعماء ينفون عن أنفسهم هذه التهمة مؤكدين ان الأتباع هم الذين كانوا مجرمين ، فأيهما على حق ؟ ذلك مالم يصدر فيه حكم ، ومن أبلغ ما يتضمنه عدم صدور حكم فى هذه الخصومة ان تترك للأفكار تشغل بها وتفكر فيها ، وأن تترك على الأخص لنفوس الأتباع وأفكارهم ، تقدرها وتتدبر فيها ، عسى أن يكون فى ذلك انقاذ لها من هذه الخصومة نفسها .

---

(١) الآيات ٣١ ـ ٣٣ سورة سبأ .

وفي صورة أخرى يرى الاتباع انفسهم مع الزعماء أيضا في موقف واحد ، وامامهم العذاب البشع الرهيب ، فتثور في نفوسهم ثائرة الندم الشديد على اتباعهم للسادة ، ويحسون حينئذ بما جره عليهم هذا الاتباع ، فيلقون اللوم والجرم على سادتهم ، متهمين اياهم بانهم سلطوا عليهم بطشهم وسلطانهم فصدوهم عن الايمان قائلين لهم « انكم كنتم تاتوننا عن اليمين » واليمين كناية عن القوة ، لان اليد اليمنى أقوى من اليسرى (١) ، يعنون انكم كنتم تاتوننا من جانب القوة والاستعلاء والبطش فتحملوننا بذلك على اتباعكم في الكفر ، ولكن الزعماء يتنكرون ذلك متهمين الاتباع في ردهم عليهم بانهم هم الذين اختاروا الكفر ، بل يزيدونهم نكاية فيقولون لهم انكم لم تكونوا من الضعف كما تصـــورون « بل كنتم قوما طاغين » والنتيجة بالنسبة لاولئك وهؤلاء هي العذاب الشديد ، فلن ينفعهم من ذلك كله شيء « احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم ، وقفوهم انهم مســـئولون ، مالكم لا تناصرون ؟ ، بل هم اليوم مستسلمون ، واقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا انكم كنتم تاتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا انا لذائقون ، فاغويناكم انا كنا غاوين ، فانهم يومئذ في العذاب مشتركون » (٢) ، ومع اعتراف الزعماء بانهم أغووا الأتباع ، الا انهم مصرون على أن هذه الغواية كان يمكن الا تؤثر في الاتباع لولا انهم كانوا راغبين في الكفر مختارين له ، لانه لم يكن لهم على الاتباع في عقيدتهم من السلطة ما يحملونهم به على الكفر ، وهذه حجة أحد الطرفين في الخصومة ، أما حجة الاتباع فهي اصرارهم على ان بطش الزعماء وسلطانهم هو الذي حملهم على الكفر ، وتبقى الخصومة أيضا بدون فصل فيها ، لانها ليست مسوقة للقضاء والفصل ، وانما للتدبر والتفكير ، ولو قد صدر فيها قضاء لذهب اهم ما تهدف اليه ، وهو تركها معلقة ، لتشغل النفوس ، وخاصة نفوس الأتباع بالتفكير والتامل .

وفي صورة أخرى يبدأ الرؤساء بعرض الخصومة ممثلين ذلك في تبرؤهم من الجناية على الاتباع ، ولكن الصورة في جملتها معروضة لتمثل موقف الاتباع في الدنيا من حيث اعتمادهم على زعمائهم ، وانقيادهم لهم ، وتعليقهم عليهم الآمال ، حتى كأنهم يعبدونهم من دون الله ، حيث يعلقون عليهم كل آمالهم ، ويوجهون اليهم عواطفهم ، « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » والمفسرون يرون مدلول الأنداد محتملا لأن يراد به الأصنام ، وان يراد به السادة والزعماء (٣) ، ويمكن القول بأن السياق يرجح ارادة الزعماء ، حيث ان الصورة كلها تمثل موقفا بين السادة والأتباع ، بالاضافة الى انه في

---

(١) أنظر تفسير الكشاف للزمخشري ٣٦/٤ .
(٢) الآيات ٢٢ ـ ٣٣ سورة الصافات .
(٣) انظر الكشاف للزمخشري ١٥٨/١ .

الآية السابقة نفسها ومن تكملة المعنى بالمقابلة قوله تعالى « ان القوة لله جميعا » في مقام الرد على اتخاذ الاتباع زعماءهم أندادا من دون الله ، والاتباع لا يعتقدون في الأصنام القوة التي يعتمدون عليها في الحياة اعتمادا مباشرا ، وانما يعتقدون ذلك في الزعماء ، فكأن الله سبحانه يقول لهم حين يرون العذاب ها قد علمتم اليوم أنه لا قوة غير قوة الله ، والصورة تبرز نوعين من العذاب المر الأليم يتجرعهما الأتباع يوم القيامة نتيجة انقيادهم لضلال الزعماء ، أحدهما مشاعر عامة طاغية من الخوف والرهبة ومن الشعور بالضيعة والهوان وعدم النصير ، حين يرون العذاب فيحسون بمدى بشاعته ورهبته ، ويحسون بمدى ضيعتهم ، فلا ربهم سبحانه نالوا رضاه ، ولا زعماؤهم بمغنين عنهم في هذه الحالة شيئا « ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا ! » والنوع الآخر هو العذاب النفسي الشديد الذي يعانونه حين يفاجأون بزعمائهم الذين أفنوا حياتهم في طاعتهم والتقرب اليهم ، والذين آثروا الكفر على الهداية من أجل ارضائهم ، يتبرأون منهم ، وينكرون أي سبب يربطهم بهم « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » ولكنهم مع النوعين ، وفي كلا الحالين انما يجنون ثمار خطئهم الشديد في ايثارهم الانقياد لضلال الزعماء على اتباع الهدى « كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم » وما أحرى الاتباع أن يتدبروا ذلك اليوم ، قبل أن يتورطوا فيما لا منجاة منه ، ولا شفيع فيه « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا وان الله شديد العذاب ، اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » (١) ·

وهكذا نجد سخرية القرآن تتناول تبعية الأتباع لسادتهم من جوانبها المختلفة ، لتذكرهم وتبصرهم بكل ما هم فيه من ضلال وغي في انسياقهم وراء زعم باطل لا ينفعهم ولا يغني عنهم عند الجد شيئا ، وليس ذلك فحسب ·

فهناك صور أيضا تعيد الى الأتباع يوم القيامة صورة الخضوع والتبعية التي كانوا عليها في الدنيا مع الزعماء ، فنراهم يوم القيامة أيضا يستعيدون تملقهم بزعمائهم وعقدهم الرجاء عليهم والتماسهم الحماية عندهم ، فيلجأون اليهم هناك كما كانوا يلجأون اليهم في الدنيا ، فيتوسلون اليهم ملتمسين منهم أن يدفعوا عنهم شيئا من هذا العذاب الشديد الذي يرونه أمامهم ، ولكننا نحس نغمة من السخرية والتهكم في توسل الأتباع بالزعماء ، فمما لاشك فيه انهم يعلمون ان الزعماء لن يغنوا عنهم يومئذ شيئا ، وكأنهم يجعلون استحضارهم لتبعيتهم للزعماء في الدنيا نوعا من عقاب أنفسهم وتوبيخها والسخرية منها

---

(١) الآيات ١٦٥ ــ ١٦٧ سورة البقرة ·

على هذه التبعية التى جرت عليهم ما هم فيه اليوم ، ومن العجيب اننا نجد الزعماء فى هذا الموقف لا يخاصمون الاتباع ، وانما يظهرون لهم شيئا من عطف واعتذار بانهم فى الضلال وفى العذاب مستويان ، وذلك ليكتمل استحضار صورة الدنيا ، وليكون وقعها أكثر ايلاما لنفوس الأتباع « وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » (١) ، ومن الواضح ان الصورة تؤكد للاتباع ان اتباعهم لزعمائهم فى الكفر ضلال كبير ، وان هؤلاء الزعماء لن يغنوا عنهم من الله شـــيئا ، بل سيكونون مثلهم يوم القيامة ضعفا وهوانا ، ولكن القرآن يشير لهم الى ان كل ما يدور فى نفوسهم من حيث تبعيتهم للزعماء فى الكفر ، ومـا يدور فى نفوس زعمائهم من حيث قيادتهم للاتباع الى الكفر ، كل ذلك ليس الا وهما ووساوس ، ستنقشع عنهم ، وتتكشف لهم الحقائق كاملة حينما يقضى الله قضاءه فيهم ، فحينئذ لا تنفع الزعماء زعامتهم ، ولا تنفع الاتباع تبعيتهم ، ولن يجدوا من ذلك شيئا مغنيا عنهم ، وانما يجدون الشيطان الذى ملأ نفوسهم جميعا بهذه الوساوس والأوهام يسخر منهم ، ويتبرأ من انقيادهم لوساوسه ، وتأثرهم بأوهامه ، فالآية التالية للآية الـسابقة تقول « وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما انتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم » .

واذا كان الأتباع قد استحضروا صـــورة تبعيتهم للزعماء فى موقف الحساب ، وقبل أن يمسهم عذاب جهنم ، فانهم يستحضرونها وهم يصطلون فى النار أشد العذاب ، ويتوسل الأتباع أيضا فى لهجة متهكمة ساخرة من أنفسهم قبل أن تسخر من الزعماء ، طالبين منهم أن يرفعوا عنهم بعض هـــذه النار الشديدة العذاب ، بما أوتوا من قوة وسلطان ، جزاء اتباعهم لهم ، وانقيادهم لرياستهم وسلطانهم ، ولكن الزعماء أيضا يعتذرون اليهم فى لطف وشىء من اشفاق ، لا يراد به الرحمة للاتباع ، وانما يراد به زيادة الايلام للأتباع باكتمال صورة تبعيتهم للسادة كما كانوا عليها فى الدنيا ، ثم تكتمل سخرية القرآن منهم جميعا ، ومن ضعف الأتباع والزعماء حينئذ على السواء ، حيث يتوسلون جميعا الى خزنة جهنم أن يدعوا لهم الله أن يخفف عنهم ولو يوما من هذا العذاب وتدور بينهم وبين الخزنة محاورة يسخر فيها الزبانية منهم سخرية مرة تزيدهم ألما وعذابا ، فيذكرونهم بكفرهم وتكذيبهم الرسل قائلين « أو لم تك تأتيكم رسلكم البينات ؟ » ويحس المعذبون بما تثيره هذه الذكرى من آلام فى نفوسهم ،

---

(١) الآية ٢١ سورة ابراهيم وانظر تفسير القاضى البيضاوى وفيه (الضعفاء يريد به ضعاف الرأى) وهو تأكيد لمعنى أن المراد بالضعفاء الأتباع عامة لا المستضعفون .

ومن ندم شديد يمزق قلوبهم ، فيكادون يندمون على مجرد حديثهم الى الزبانية ، هذا الحديث الذى أثار لهم هذه الآلام والذكريات المريرة ، ويغلقون باب الحوار مع الزبانية باجابة سريعة مقتضبة قائلين : بلى . ولكن الزبانية لا يتركونهم يغلقون الحديث ، وانما يواصلون سخريتهم ، ويزيدون من لهجة هذه السخرية حدة وايلاما ، فيطلبون منهم أن يدعواهم ليخفف عنهم العذاب ، ولنا أن نتصور مدى ما يحمله كلام الزبانية بعد الحوار السابق ، حين يقولون لأهل النـــار هؤلاء « فادعوا » وهكذا يعودون من حوارهم مع الزبانية بآلام نفسية بالغة ، فوق آلامهم الجسدية التى يرزحون تحتها « واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنـــون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ، قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » (١) .

ويبلغ بالاتباع الندم أقصاه ، حين يبلغ بهم العذاب والهوان أقصاه ، فيجدون وجوههم تقلب فى النار ، هذه الوجوه التى يعرفونها أكرم ما فيهم ، وأقل أعضائهم احتمالا للعذاب ، وأشدها تأثرا بالألم ، ومع ذلك يجدونها تقلب فى النار كأنها اللحم حين يشوى ، فتمتلىء نفوسهم حسرة وألما ، ثم تفيض على ألسنتهم قائلة « يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » وحينئذ يصبون أقصى ما يملكون من نقمة وسخط وحقد على زعمائهم ، هؤلاء الذين زينوا لهم الكفر والضلال ، حتى حسبوا أنهم سيغنون عنهم ، وأن اتباعهم لهم سيكفيهم كل شىء ، وتفيض ألسنتهم بالسخط على زعمائهم ، فى هذه الكلمات التى تصور أبلغ الحقد ، وأعمق السخط « ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » ، ولكنهم يعلمون أن ذلك لن ينفعهم بشىء ، ولن يرد عنهم شيئا من العذاب ، أما الذى ينفعهم كل النفع ، ويرد عنهم كل العذاب ، فهو لو تفكروا اليوم فى حياتهم ، وقبل أن تفلت منهم الفرصة ، وأن يتدبروا أمرهم ، وأمر الزعماء معهم ، قبل أن يكونوا فى هذه الصورة « يوم تقلب وجوههم فى النـــار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرســـولا ، وقالوا ربنـــا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » (٢) .

---

(١) الآيات ٤٧ ــ ٥٠ سورة المؤمن (غافر) .
(٢) الآيات ٦٦ ــ ٦٨ سورة الأحزاب .

السخرية واليهود

« لعن الذين كفـــــروا من بنى اسرائيل
عــلى لســـان داود وعيسى بن مـــريم »
« ذلك بما عصـــــوا وكانوا يعتدون »

ما أكثر العقبات التى تصدت للاسلام

ولكننا حين نستعرض هذه العقبات ، نجد ان اليهود يمثلون أشـــد عقبة حاولت الوقوف فى طريق الاسلام ، فلم يعرف الاسلام أعداء كانوا أشـــد حقدا عليه ، ونقمة على أبنائه ، ومحاولة لتحطيمه والقضاء عليه ، من اليهود ؛ والقرآن الكريم يبين وضعهم وترتيبهم بين أعداء الاسلام ، وهو المقدمة ، فهم أشد عدو للاسلام والله ، كما يصرح القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا .. » (١) ، وكل ما فى تاريخ موقفهم من الاسلام يؤيد ذلك . فلم يتركوا لحظة واحـــدة منذ احتكوا بالاسلام دون أن يبذلوا كل ما فى قلوبهم من حقد وكل ما فى طبيعتهم من خبث ، ليصوغوه فى حرب ضد الاسلام ، مع ان النبى صلى الله عليه وسلم ما ان استقر به المقام فى المدينة ، حتى كان من أول ما قام به اعلان الموادعة لليهود (٢) ، والرغبة فى أن يعيشوا مع الاسلام فى سلام ان لم ينضموا الى لوائه ، ثم جاءت كل مبادىء القرآن وتشريعه مؤيدة لذلك ، فالقرآن وهو دستور الاسلام يؤكد فى أكثر من موضع ، وخاصة بالنسبة لأهل الكتاب اليهـــود والنصارى ، ان المسلمين لا ينبغى قط أن يبدأوهم بعدوان ؛ أو أن يكرهوهم على الدين « لا اكراه فى الدين » (٣) ، بل يشير القرآن الى المسلمين أن يبذلوا لهم الود والمعروف ، طالما كانوا فى سلم معهم ، ولم يظهروا لهم عداء صريحا ، وحربا واضحة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » ويحاول القرآن دائما أن يجعل لأهل الكتاب فى نفوس المسلمين وضعا خاصا ممتازا عن سائر الناس ممن لا يدينون بالاسلام ، ويحاول أن يمحو من نفوس المسلمين بالنسبة لأهل

(١) من الآية ٨٢ سورة المائدة .
(٢) انظر جوامع السيرة لابن حزم ٩٥ وسيرة ابن هشام ١٧٩/٢ .
(٣) من الآية ٢٥٦ سورة البقرة .

الكتاب ما قد يجدونه من غضاضة أو توجس فى مخالطتهم لغير المسلمين ، ويكاد يحرضهم على ايجاد صلة ودية مع أهل الكتاب ، كقوله تعالى « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » (١) ، والقرآن الكريم كله يؤيد هذا الاتجاه بالنسبة لأهل الكتاب ، وقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الروح وأصحابه فى معاملتهم لأهل الكتاب أكمل تطبيق ، ومن ذلك موادعة النبى لليهود كأول عمل اجتماعى أو سياسى قام به فى المدينة ، ولكن اليهود مع موادعة النبى لهم ، ومع علمهم بهذه الروح السلمية الودية التى يبسط الاسلام يده بها اليهم طالبا سلمهم ان لم يكن ودهم ، مع ذلك كله لم يسالموا ولم يهادنوا ولم يستكينوا يوما الى الاسلام ولا الى المسلمين ، وانما واجهوا الاسلام ، وواجهوا الرسول وأصحابه من أول يوم بكل ما فى قلوبهم من حقد حاد عميق ، وبكل ما فى طبيعتهم من خبث متمكن دفين ، وقد سبقت الاشارة الى شىء من حربهم للاسلام فى موضع سابق ، ويمكن تلخيص أبرز ما قام به اليهود من جهود فى حربهم للاسلام ، وصدهم الناس عن سبيله فيما يأتى :

١ ــ كانوا أول من أعلن رفض الاسلام فى المدينة بصورة جماعية وعلنية ، حيث لم يسلم منهم حينئذ الا واحد ، وأعلن باقيهم بصفتهم طائفة وجماعة ــ لا بصفة فردية كغيرهم من الناس ــ رفضهم للاسلام ووقوفهم فى طريقه (٢) ، فاذا كان غير اليهود من الناس ، حين رأوا الاسلام يهبط عليهم ، ويحل بينهم بالمدينة ، قد آمن به منهم من آمن ، وكفر من كفر ، ولكن الذين كفروا لم يرفعوا صوتا بكفرهم ، ولم يحزبوا حزبا ليوحدوا به صفوفهم ، أو يقاوموا به الدين الذى حل بينهم ، وانما ظلوا فرادى ، يؤمن من يؤمن بشخصه ، ويرفض من يرفض بشخصه ، ولكن اليهود لم يفعلوا ذلك ، وانما كونوا من أنفسهم أولا جبهة متضامنة متعاونة على الكفر بالاسلام ، وعلى مقاومته وتحديه وحربه أيضا .. ووجود جبهة بارزة كهذه ، من شأنه أن يجمع حولها ويضم اليها من يشاركها الاتجاه والهدف الذى يوحد بينهم .

٢ ــ كان اليهود أول من سن خلق النفاق فى الدين ، كما تؤكد كل مصادر التاريخ الاسلامى ، فحين أحسوا بأن المسلمين أصبحوا قوة ذات كيان وشوكة ، فكروا فى هذا الخلق الذى تأباه طبيعة العرب ، ولذلك لم يعرف قط فى الجزيرة العربية هذا النفاق الجماعى ، أو حتى الفردى ، الا فى موطن اليهود ومن تأثر بخلقهم من المدينة وما حولها ، حيث جعلوا شعارهم ما حكاه عنهم القــرآن بأسلوب حقيقى الموضوع ، ساخر التصوير ، حيث يقول « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخـــره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم .. » (٣) ، ووجه السخرية فى

(١) من الآية ٥ سورة المائدة .

(٢) أنظر جوامع السيرة لابن حزم .

(٣) من الآيتين ٧٢ ، ٧٣ سورة آل عمران .

التصوير انه ليس المقصود التقسيم الزمنى حقيقة ، بأن يؤمنوا في وقت من النهار ، ويكفروا في وقت آخر ، وانما المقصود أن يظهروا الايمان حيث يخالطون الناس ، ليظهروا لهم انهم مسلمون معهم ، وأن يظهروا على حقيقة كفرهم حين يخلون الى أنفسهم ، أو يخلو بعضهم الى بعض ، وهذا التناقض بين ما يبدو كأنه ايمان حقيقى ، ثم ينقلب الى كفر حقيقي في يوم بل في نهار واحد ، شيء مثير للعجب ، ولكثير من المشاعر ، ومما يرويه المفسرون في ذلك أنه « تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر ، وقال بعضهم لبعض ، ادخلوا في دين محمد أول النهار من غير اعتقاد ، واكفروا به آخر النهار ، وقولوا انا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه ، وبطلان دينه ، فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم » (١) ، وكل روايات التاريخ تؤكد ان الذين نافقوا من العرب انما التفوا حول نفاق اليهود وظاهروه ، كقول ابن حزم « وكفر جمهور اليهود وظاهرهم قوم من الأوس والخزرج منافقـــون يظهرون الاسلام مداراة لجمهور قومهم » (٢) ، ويؤكد نفاق اليهـود في أكثر من موضع (٣) ، وابن هشام يروى ان كل من نافق من الأوس والخزرج انما كان نفاقه انحيازا الى اليهود ومظاهرة لهم والتفافا حولهم (٤) ، وقد كان النفاق الذى اخترعه اليهود ونشروه في المدينة وما حولها من أخبث الوســـائل التى حورب بها الاسلام وأخطرها ، حيث كانوا يندسون بين المسلمين ، على انهم مؤمنون كغيرهم من المؤمنين حقا ، وكانوا تحت هذا الستار الخطير ، ينخرون في صرح الاسلام والمجتمع الاسلامى ، وينفثون سموما خطيرة ، في كل اتجاه ، وفي كل مجال يمكن أن يحارب فيه الاسلام ، فأحيانا يروجون الاشاعات والدعايات الكاذبة ضد الاسلام والمسلمين محاولين أن يستميلوا ذوى العقول الساذجة أو الايمان غير المتين ، ومن أبرز هذه الدعايات اشاعة الافك التى زلزلت كيان المسلمين ، وكادت تحدث بينهم فجوات خطيرة لولا أن حسمها القرآن ببيان الحقيقة ووصم الذين سولت لهم نفوسهم أن يخترعوها أو يعملوا على نشرها ، وكانوا ينتهزون الأوقات العصيبة التى تمر بالمسلمين كالحروب ، فينفثون سمومهم ، ويحاولون التفريق بين الصفوف ، وتحطيم معنويات المسلمين ، بما يثيرونه من فتن أو يطلقونه من اشاعات ، أو يدسونه من دسائس بين الجماعات والقبائل ، وكتب التاريخ ورواياته حافلة بأخبار المنافقين في هذه الدسائس التى كثيرا ما كبدت المسلمين تضحيات وجهودا فادحة ، وكذلك القرآن الكريم ، حفلت آياته بالاشارة وبالتصريح في آيات كثيرة ، تبين للمسلمين خطورة المنافقين بينهم ، وتلفت نظرهم الى أن يتدبروا كل شيء ، وأن يتيقظوا لكل شيء ، وخاصة

---

(١) الكشاف للزمخشرى ٣٨٦/١ .
(٢) جوامع السيرة ٩٧ .
(٣) جوامع السيرة ٩٩ .
(٤) سيرة ابن هشام ١٤١/٢ .

في هذه الأوقات العصيبة التي يمرون بها كالحروب ، حتى لا يستطيع المنافقون ان يجدوا أو يوجدوا بينهم ثغرة يؤتون منها ، كما سيأتي في شيء من تفصيل لهذا الحديث ·

٣ ـ شنوا حربا عاتية على الاسلام في كل مجال ، وكانت حربا مخططة بحيث تستهدف كل مقومات الاسلام وأركانه التي يقوم عليها باعتباره دينا ، ومجتمعا يمثل هذا الدين ، وكانت لهم قيادات تخطط وتنظم لليهود ومن شايعهم وسائل حربهم للاسلام ، وقد حفظ التاريخ أسماء كثير من هؤلاء الأحبار القادة ، ومنهم سعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، ونعمان بن أوفى ، وأخوه عثمان ، وأبو ياسر بن أخطب ، ومالك بن الضيف ، وابن صلوبا الفطيوني ، ورافع بن حريملة ، وحيي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وأبو رافع والربيـــع ابن الربيع بن أبي الحقيق ، وابو عمار ووحوح بن عامر وهوذة بن قيس (١) ·

وكان أول ما استهدفته حربهم هو شخص الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد سلكوا كل وسيلة لمحاولة القضاء على شخصه بالموت ، كما فعلوا في محاولتهم القاء صخرة عليه وهو في ديارهم يفاوضهم ، فقد انتدبوا لهذا العمل الغادر الحقير شخصا منهم هو عمرو بن جحاش بن كعب ليلقى عليه الصخرة (٢) ، ولكن الله نجى رسوله الذى تاذن أن يعصمه من الناس ، وحاولت امرأة منهم أن تقتله بأن دست له السم في لحم شاة مطهية أهدتها اليه ، ولكن الله نجاه أيضا (٣) ، وحين لم يوفقوا في النيل من حياته عمدوا الى النيل من شخصه المعنوى بوصفه نبيا ، فاخذوا ينتهزون كل فرصة ، ويخلقون كل سبب ليشككوا الناس فى رسالته صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ان ناقة النبى ضلت ذات يوم ، فاخذ بعض اليهود وعلى رأسهم زيد بن اللصيت يذهبون ويجيئون في الناس ، مستنكرين ان يجهل النبي موضع ناقته قائلين : يزعم محمد انه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال النبى حين بلغه « ·· وانى والله ما أعلم الا ما علمنى الله ، وقد دلنى عليها ، فهى فى هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها » (٤) ، فوجدوها حيث وصفها ودل عليها ، وهم بالطبع ينتهزون فرصة حادث عابر عادى كهذا ، من أحداث الحياة التى لا تدخـل فى خصائص النبوة ورسالتها ، لا ليسيئوا به الى شخص النبى فحسب ، وانما ليتخذوا منه دعاية يرجون من ورائها تشكيك الناس فى نبوته ، ومحاولة صرفهم عن اتباعه ، أو الانحياز الى دينه ، وبعض الباحثين يستنتج ان بعض التهم التى

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢ج١٤٩ ـ ١٦١ وجوامع السيرة لابن حزم ٩٩ ·
(٢) انظر جوامع السيرة لابن حزم ١٨١ وسيرة ابن هشام ١٩١/٣ وفيه اعتراف النبى قبل القائها ·
(٣) انظر صحيح البخارى ·
(٤) سيرة ابن هشام ١٤٩/٢ ·

رمى بها النبى صلى الله عليه وسلم لتشكيك الناس فى رسالته كاتهامه بانه شاعر انما كان مصدرها اليهود أولا ثم شاعت فى العرب ، بناء على ان العرب لا يختلط عليهم الشعر بغيره ، ولا يخلطون بين النثر والشعر حتى يتهموا القرآن بادىء ذى بدء بأنه شعر ، وانما هى تهمة وصلت اليهم فراقهم منها انها مجرد تهمة لايذاء محمد ومحاولة التشكيك فى دعوته (١) ، وقد بلغ من حرص اليهود على أن يخلقوا أى شىء يشوهون به رسالة النبى ، ويشككون الناس فى نبوته ، ان تآمر قادتهم وأحبارهم على أن يخلقوا خصومة بينهم ، ثم يذهبوا بها فى فريق من المتخاصمين الى النبى صلى الله عليه وسلم طالبين منه أن يقضى بينهم قضاء باطلا لمصلحة أحد الطرفين ، مقابل ان يؤمن به الفريق الذى يقضى له ومن يشايعه ، وقد قدروا فى أنفسهم انه لو حقق لهم ما يريدون لكان خير سلاح يحاربونه به بوصفه نبيا ، ومن البدهى المتوقع ان النبى رفض ذلك وأباه (٢) .

هذا مع ان النبى صلى الله عليه وسلم سعى جهده لمسالمتهم ، ولم يزد على ان دعاهم الى دين الله بالحسنى والمنطق المسالم الوادع ، ومن ذلك انه جمعهم فى سوق بنى قينقاع وأخذ يدعوهم الى الاسلام كما يدعو غيرهم من الناس (٣) ، وقد بلغ من حرص الرسول على اقناعهم بالحسنى ، ودعوتهم الى الله بالحجة التى لا ترد أنه كان يحاكمهم الى كتابهم التوراة ، راضيا بما تحكمه التوراة بينهم وبين الاسلام ، وقد دخل اليهم بيت المدراس وحاكمهم الى التوراة (٤) ، ولكن ذلك كله لم يدفعهم الى الاسلام ، ولا حتى الى موادعة الاسلام ، وانما زادهم حقدا على الاسلام ، وضراوة فى حربه وصد الناس عنه (٥) .

وقد كان أول من تصدى لحرب القرآن فى المدينة هم اليهود ، فقد شعروا ان القرآن أقوى سلاح يملكه المسلمون ، ويقوم عليه الاسلام كله بوصفه دينا ، وأحسوا أثره فى نفوس العرب ، وسلطانه على قلوبهم ، مع سرعة تنقله بين القبائل ، فقد أصبح حديث الناس فى حلهم وترحالهم ، وكان أكبر حدث يطرق الأسماع العربية ، فاتخذوا يديرون بينهم كل فكر وتدبير للنيل من القرآن ، ومحاولة ايجاد أى مطعن فيه ، ومن ذلك انهم طعنوا فى ضرب القرآن الأمثال بالأشياء المستصغرة فى أعين الناس ، كضربة المثل بالنحل ، وبالذباب ، وبالعنكبوت ، ومع ان هذه الأمثال فى موقعها الذى سيقت فيه تبلغ قمة البلاغة ، وقمة الهدف الذى ترمى الى اصابته ، كما سبق فى تشبيه الاعتماد على الأصنام فى عبادتها

---

(١) أنظر اعجاز القرآن للرافعى ٢٢٢ .
(٢) أنظر سيرة ابن هشام ١٩٦/٢ .
(٣) انظر سيرة ابن هشام ١٧٩/٢ .
(٤) أنظر سيرة ابن هشام ١٧٩/٢ .
(٥) أنظر الاسلام نظام انسانى د. مصطفى الرافعى ٣٠ .

والاحتماء بها بالاحتماء ببيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، الا أن اليهود يريدون أن يخلقوا أى شيء ولو كان كاذبا ليثيروا غبارا حول الاسلام يحجب رؤيته عن بسطاء الناس والسذج منهم ، وقد رد عليهم القرآن مطاعنهم ، ودحضها بالحجة (١) ، وقد ناقش الامام الرازى هذا الطعن الذى وجه الى القرآن ، على ضوء البلاغة العربية ، مبينا أن ضرب مثل هذه الأمثال ورد كثيرا فى الكتب السماوية الأخرى غير القرآن ، واستشهد بنصوص من الانجيل (٢) ، وهذا مجرد مثل لحرب اليهود للقرآن ، ومحاولتهم المستميتة بكل وسيلة أن يحطوا من شأنه وتأثيره ، ومن الغريب أنهم ظلوا على مدى العصور لم يتخلوا عن بذل كل جهد لحرب القرآن حتى اليوم ، وأخبار محاولاتهم ومؤامراتهم لتحريف القرآن ونشره محرفا فى شعوب كثيرة من قارتى آسيا وافريقيا مشهورة معروفة ولا تزال الصحف تتحدث عن أخبارها بين الحين والحين (٣) .

ومن وسائل حربهم للاسلام انهم كانوا أنشط أعداء الاسلام وأكثرهم حرصا على أن يجمعوا صفوف أعداء الاسلام جميعا فى صعيد واحد ليكونوا جبهة قوية غالبة أمام المسلمين ، واذا نظرنا الى أعداء للاسلام كقريش قبل أن تسلم ، فقد كان يبدو ان قريشا كانت أشد أعداء المسلمين ، وقريش كانت لها على العرب سيادة غير منازعة ، وكلمة غير مردودة ، وكانوا يستطيعون أن يؤلبوا العرب جميعا او أكثرية على المسلمين ، وأن يجمعوا منهم جيشا جرارا يواجهونهم به ، وقد اشتركوا ضد المسلمين فى أكثر من حرب ، وهزموا أمام المسلمين هزائم مرة فادحة فى أكثر من حرب ، ولكنهم لم يلجأوا الى تأليب القبائل أو الاستعانة بأحد قط من غيرهم ليحارب معهم المسلمين ، قد كانوا ولاشك يستطيعون ذلك فى غير مشقة كبيرة ، ولكنهم لم يفعلوا اما انفة وكبرياء أن يظن بهم الضعف فى الاستعانة بغيرهم ، واما لأنهم لم تسيطر عليهم فكرة القضاء على الاسلام والمسلمين سيطرة تجعلهم يلتمسون الوسائل غير المألوفة لتحقيقها ، ولذلك لم يجدوا فى الاستعانة بالقبائل ، لأنهم كانوا كما يبدو من روح التاريخ كلها انهم كانوا ينظرون الى حروبهم مع المسلمين على انها مجرد ثارات تحتاج الى انتقام ، أو مجرد اظهار للباس ورهبة الجانب ، أما اليهود فان سيطرة فكرة القضاء على الاسلام من أساسه كانت ولاشك أمنية متغلغلة فى كيانهم كأقصى ما تسيطر أمنية على انسان أو جماعة ، ولم يكن لديهم شيء من خلق الانفة والعزة الذى منع قريشا من الاستعانة بأحد فى حربهم مع المسلمين ، ولكن اليهود بتفكير قادتهم وأحبارهم كانوا أول من فكر فى تجميع الأعداء وتوحيد صفوفهم ضد الاسلام ، وبدأوا بالأوس والخزرج فى المدينة ، فبذلوا كل جهودهم للتوفيق بين الأوس والخزرج حينما كان أغلبهم لم يزالوا على الكفر ،

---

(١) انظر التفسير الكبير للامام الرازى ٢٣٥/١ — ٢٣٦ .
(٢) المصدر السابق ٢٣٧/١ ، ٢٣٨ .
(٣) انظر للمثال صحيفة أخبار اليوم عدد ١٩٦٨/٦/٢٩ وعدد ١٩٦٨/٧/١٣ .

جمع ما بين الحيين من عداوات وحروب قديمة ليكونوا جبهة واحدة أمام المسلمين (١) ، ولما أصبح اغلب الاوس والخزرج مسلمين ، وجمعت بينهم كلمة الاسلام وجعلتهم اخوة ، حاولوا التفريق بينهم ، ليوهنوا اقوى موطن وجبهة فى الاسلام حينئذ ، وهى جبهة المركز والقيادة فى المدينة ، كما فعلوا حين امروا شابا من اليهود أن يذهب بين الأوس والخزرج ويذكر يوم بعاث وما كان فيه من انتصار الأوس على الخزرج ، وقد فعل الشاب ، وبدأت ذكريات الجاهلية تراود بعض النفوس ، فبدأ التفاخر والتخاصم بين الأوس والخزرج وهم مسلمون ، حتى قال بعضهم لبعض : ان شئتم عدنا الى مثله ، وبلغ الأمر النبى صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم وذكرهم بما ألف الاسلام بين قلوبهم وجعلهم اخوانا ، وما زال بهم حتى بكى القوم ، وعادوا الى الفهم وودهم (٢) ، ومن أشهر مواقف اليهود فى تأليبهم وتجميعهم الأعداء ضد المسلمين موقفهم فى الأحزاب التى جمعوها ، وبذلوا كل جهودهم فيها ليجمعوا أكبر عدد من القبائل ، ويهاجموا المسلمين فى المدينة فى محاولة للقضاء على الاسلام قضاء كاملا ، وكان أبرز هذه القبائل التى تجمعت من الأحزاب قريش وغطفان وبنو النضير ، فقد اجتمع زعماء اليهود وأحبارهم وانتهوا الى فكرة أن يجمعوا أكبر عدد من القبائل المعادية للمسلمين ليهاجموا المدينة على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وانتدب اليهود لتنفيذ هذه الفكرة ، والتنقل بها بين القبائل عددا من زعمائهم ، هم حيى ابن اخطب ، وسلام بى أبى الحقيق ، وابو رافع ، والربيع بن الربيع ابن أبى الحقيق ، وابو عمار ، ووحوح بن عامر ، وهوذة بن قيس (٣) ، وقد استطاعوا أن ينجحوا فى تجميع القبائل وتأليبها ، وقد هاجموا المدينة فى الموقف المشهور بالأحزاب ، ولم يكن للمسلمين حينئذ قبل بهذه الجموع الهائلة من الأعداء ، والمسلمون حينذاك لا يتعدون بضع مئات من المهاجرين والأنصار ، وقد خشى المسلمون مهاجمة هذه الجموع للمدينة ، فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى ذلك الموقف ، وكيف يتقون خطره ، فاشار سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة ، يصعب على الأعداء معه مهاجمة المسلمين ، وان حاولوا فلن يستطيعوا الهجوم دفعة واحدة ، وانما يقتحمون تباعا ، فيسهل على المسلمين المقاومة ، وقد استصوب النبى هذه الفكرة ، وأمر بتنفيذها ، وأخذ المسلمون يحفرون فى الخندق ، والنبى يحفر معهم كواحد منهم (٤) ، وقد حقق الخندق ما اريد به حين قدمت جموع الأحزاب ، فوجدوه حائلا صعبا بينهم وبين المسلمين ، وبينما هم متريثون يفكرون فيما يفعلون ،

---

(١) انظر جوامع السيرة لابن حزم ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) انظر العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول عقيد محمد فرج ٤٢ وسيرة ابن هشام ١٨٣/٢ .

(٣) سيرة ابن هشام ١٨٦/٢ .

(٤) انظر صحيح البخارى .

شاء الله ان يوقع بينهم الفتن والخلاف ، فاصبحت كل قبيلة سيئة الظن بالاخرى وسيطر على كل قبيلة الخوف من ان تغدر بها القبيلة الاخرى ، وكان لنعيم بن مسعود فضل كبير فى هذا الموقف ، حيث كان قد أسلم فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت ، فقال له النبى « انما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا ان استطعت ، فان الحرب خدعة » فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة ، فاحتال حتى اقنعهم بالا يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا رهائن منهم ، ثم خرج الى قريش فاقنعهم بان بنى قريظة متواطئون مع محمد ، وان الدليل على ذلك انهم لن يشتركوا معهم فى القتال حتى يطلبوا منهم رهائن ، وانه يخشى على مصير الرهائن ، ثم ذهب الى غطفان بمثل ذلك ، وحين بدأ الجميع يستعدون للقتال ، طلبت بنو قريظة من قريش ومن غطفان رهائن كشرط لاشتراكهم معهم فى حرب محمد وأصحابه ، فايقنت قريش وغطفان بصدق حديث نعيم بن مسعود (١) ٠

وهكذا كان اليهود دائما لا يفتأون يثيرون الحرب من كل لون ضد الاسلام ، ولا يدخرون جهدا فى صد الناس عنه ، حتى برز من بينهم حينذاك من كاد يصرف كل همه وجهده فى التفرغ لصد الناس عن الاسلام بأى وسيلة من الوسائل ، ومن هؤلاء حيى بن أخطب وأخوه أبو ياسر (٢) ، وحين قدم وفد نصارى نجران الى المدينة وافدين على النبى صلى الله عليه وسلم ، يعلمون علمه ، ويستمعون منه الى الدين الجديد ، أسرع أحبار اليهود الى لقائهم ، وحاولوا صرفهم عن وجهتهم ، فلما يئسوا منهم تحاملوا عليهم وعلى دينهم ، يسبون عيسى عليه السلام ، ويتهمون دينهم بالضلال ، وقد نزل فى ذلك بعض القـــرآن الكريم (٣) ولم يتركوا وسيلة للتفريق بين اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فرادى أو جماعات الا سلكوها ، فقد آلمتهم هذه الوحدة الباهرة التى جمعت بين قلوب كانت متنافرة متباغضة أشد التباغض ، فاذا هى اليوم يد واحدة وقلب واحد ، تحت قيادة وراية واحدة ، فاخذوا يوقعون بين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (٤) ٠

ومع ذلك فهذا كله لا يعدو ان يكون أمثلة لبعض نماذج من وسائل حربهم المسعورة للاسلام فى كل ميدان ، فى فترة قصيرة لا تعدو بضع سنوات من حياة النبى فى المدينة ، وقبل أن يجليهم عنها ٠

ومعنى ذلك ان الاسلام لم يبدأ اليهود بعدوان ، ولم يدفعهم الى حرب ، وانما بسط لهم يد المسالمة والأمن كاحسن ما يكون البسط ، ولكنهم حاولوا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٤٧/٣ ــ ٢٤٨ ٠
(٢) المصدر السابق ١٧٤/٢ ٠
(٣) المصدر السابق ١٧٥/٢ ٠
(٤) انظر سيرة ابن هشام ١٨٣/٢ ٠

بكل جهد ووسيلة أن يبتروا هذه اليد التى مدت اليهم الخير والمعروف ، فلم يكن بد للاسلام من أن يتقي شرهم ، وأن يتخذ من الوسائل ما يزيل كيدهم وحقدهم وتصديهم عن طريقه ، وقد تكفل القرآن بتنظيم هذه الوسائل التى ترد عن الاسلام والمسلمين كيدهم وحربهم ، واذا كان اليهود معروفين بين الشعوب والأمم ، بصفات خاصة تميزهم عن غيرهم من الناس ، وخلق معين يدور حوله كل سلوكهم ، فان القرآن الكريم ، كان دون شك أول من حدد صفات اليهود وأخلاقهم ، وأول من بين للناس طبيعتهم التى تملى عليهم سلوكهم الغريب الذى يتميزون به عن بقية السلالات ، وما زال كل ما توصل اليه الباحثون من تحديد لصفات معينة يشترك فيها اليهود انما يعتبر لاحقا لما حدده القرآن من طبيعتهم وأخلاقهم التى ينبع منها كل ما يتعلق بسلوكهم ، ويمكن أن نجمل أهم مقومات اليهود التى تحدد سلوكهم على ضوء حديث القرآن الكريم عنهم فيما يأتى :

١ ـ العقيدة :

يتضح من تاريخ اليهود كله ضعف نزعة الاعتقاد الدينى فيهم بصفة عامة الى درجة عدم الثبات والاستقرار ، ومعنى ذلك ان ننتهى منطقيا الى الحكم عليهم بفقدان مبدأ الاعتقاد الدينى ، لأن الاعتقاد شىء غير السلوك من حيث الثبوت وعدمه ، فالسلوك قابل للتغير والتقلب ، بمعنى أن نتصور شخصا يسلك اليوم سلوكا معينا ، ثم يسلك سلوكا مناقضا له فى فترة ما ، ولكن الايمان أو الاعتقاد لا يحتمل هذا التغيير ، لأن الايمان أو الاعتقاد معناه اليقين الثابت الذى لا يقبل شكا ولا ترددا ولا تغييرا ، فاذا كان الانسان على عقيدة ثم غيرها الى اعتقاد مخالف لها ، كان معنى ذلك ان وضعه الأول لم يكن فى الحقيقة اعتقادا ولم يصل الى درجة اليقين ، فحين نحكم على اليهود بفقدانهم مبدأ الاعتقاد ، يكون معناه أن نقصد اليقين الثابت الذى لا يقبل التغيير عن اختيار الى أى عقيدة أخرى ، ومن الواضح أن الحكم على المجموع لا يستلزم استقصاء الأفراد فردا فردا ، وانما يعنى الحكم على الأغلبية الكبرى التى تصبح ممثلة لهذا المجموع ، بصرف النظر عن الشذوذ الفردى ، أو الأقلية الضئيلة ، وقد يبدو هذا الحكم على اليهود غير موافق لما عرف عنهم من انطوائهم على دينهم ، وتشبثهم بهذه الانطوائية ، وتشبثهم أيضا بأن يجعلوا كل سلوكهم تابعا من انتمائهم لليهودية وانطوائهم عليها ، فهم مهما تفرقوا فى أنحاء الأرض ، ومهما باعدت بينهم الأماكن لا يلتفون الا حول بعضهم كيهود ، نافرين من أى عنصر أو دين آخر ، مهما يكن نوعه ، قد يبدو هذا متعارضا مع الحكم عليهم بفقدان مبدأ الاعتقاد ، من حيث انهم يظهرون للناس وكأن تشبثهم بالدين هو الذى يملى عليهم كل سلوكهم ومظاهر حياتهم ، ولكن الحقيقة ان انطواءهم على الانتماء لدينهم ، ونفورهم من كل ما عدا ذلك ، ليس مصدره الاعتقاد والايمان بالدين ، وانما مصدره أنانية

متغلغلة فى أعماقهم لكونها نابعة من طبيعة معينة مشتركة بينهم ، وصفات مشتركة يحسون بها فى سلالتهم فيانسون اليها ويلتفون حولها ، فترابطهم وانطواؤهم ليس اعتقادا في الدين ، وانما هو عنصرية بحتة لا تكاد تتصل بالدين بمعناه العقدى ، كما يتضح من مناقشة موقفهم من العقيدة .

وكون تاريخهم كله يؤيد فقدانهم لمبدأ الاعتقاد الدينى بمعناه الحقيقى ، يؤكده كثرة من أرسل اليهم من الأنبياء ، فمن المعروف ان جميع من ارسل من الرسل باستثناء بضعة منهم كانوا من بنى اسرائيل ، وتكرار ارسال رسل فى شعب واحد ، معناه ان أحدا من هؤلاء الرسل لم ينجح فى أن يغرس فى هذا الشعب الايمان والاعتقاد ، فانه لو نجح لما كان هناك داع لرسول آخر ، فان الرسل كلهم من مصدر واحد هو الله سبحانه ، والايمان ، بل والشرائع ليست وقتية تنتهى بموت حاملها او القائم على تنفيذها والدعوة اليها ، وانما هى شىء ثابت ، وخاصة اذا رسخت فى شعب ، فانها تاخذ حكم العادات والتقاليد ذات السلطان القوى المتوارث فى المجتمعات ، هذا على فرض ان دينا من الأديان لم يكن مكتوبا بصورة تحدده وتحفظه من الانمحاء ، فيكفى حينئذ أن يؤمن به المجتمع لينقل هذا الايمان الى الجيل الذى يليه ثم يتقله الجيل الآخر وهكذا ، واذا طرأ تغيير أو تبديل فى مظاهر هذا الدين ، بتوالى الأجيال والعصور ، فانه حينئذ سيكون التغيير بطيئا ، لا يظهر واضحا فى جيل او أجيال محدودة ، وحينما يظهر هذا التغيير فى تطبيق الدين سيحتاجون الى رسول آخر ، ولكن يكون قد مضت على الرسول السابق فترة طويلة ، لا يقال معها ان هذا الشعب كثر فيه ارسال الرسل أو تعددهم ، على ان المحور الذى دار حوله ارسال الرسل ليس التغيير او التبديل فى تطبيق الدين أو الشريعة ، وانما هو مبدأ الاعتقاد فى وحدانية الله سبحانه ، الذى هو صلب الايمان ، فهذا المبدأ هو الذى استنفد جهود الرسل ، وهو أيضا كان موضوع الصراع بينهم وبين من أرسلوا اليهم ، لأن العقبة الوحيدة بين الرسل وبين الكافرين بهم هى الايمان بوحدانية الله ، فمن يؤمن بهذا المبدأ يكون من الواضح انه مستعد لتنفيذ ما يأمره به ربه الذى آمن به .

فالصراع اذن كان بين الرسل وبين بنى اسرائيل على مبدأ الايمان بالله ، ومجرد الايمان بالله ليس من المعقول أن يغيره توالى الأجيال الا بعد فترات بعيدة المدى ، ولكن بنى اسرائيل لم ينجح رسول فى أن يغرس فيهم الايمان بالله ، ولذلك كان تعدد الرسل وكثرتهم فيهم ، ولذلك أيضا كان موقفهم من الرسل ، هذا الموقف الذى لم يعرف فى التاريخ عن عنصر آخر غير بنى اسرائيل ، وهو عمدهم المباشر الى قتل الأنبياء والرسل ، فلم يعرف عن مجتمع آخـــــر غير بنى اسرائيل انه جعل وسيلته للرد على الأنبياء أن يقتلهم ، ومعنى ذلك انه لم يكن هناك اى تقارب او تجاوب ولو نفسيا مع الرسل عند بنى اسرائيل ، فقد يكون غيرهم من الكافرين بالرسل يعلم أو حتى يظن ان هذا رسول حقيقة ،

وقد يكون كلامه عن الله حقا ، ولكن ظروفا معينة كالحرص على مظاهر مادية او معنوية تحول بين هذا الكافر وبين الايمـــان ، فيكتفي برفض الاعتراف بالرسل ، أو بتكذيبه أمام الناس ، مبقيا على كفره ، ليبقى على الأمور التى يخشى أن يسلبه الايمان اياها ، ولكن بنى اسرائيل بحكم موقفهم من الأنبياء ، يؤكدون انهم لم يؤمنوا ولم يظنوا حتى مجرد ظن فى صدق الأنبياء ، فلم تكن بينهم وبين الأنبياء أى درجة من درجات التقارب الاعتقادى أو النفسى ، فكان من الطبيعى الا يكتفوا بمجرد رفض رسالتهم ، وانما يلجأون الى قتلهم .

والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فى كثير من مواضعه ، ومن ذلك قوله تعالى « .. وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصـــــوا وكانوا يعتدون » (١) ، والتعبير بلفظ المضارع فى (يكفرون) وفى (يقتلون) يدل على استمرار كفرهم وقتلهم الأنبياء وتكرر ذلك كثيرا ، وكذلك قوله تعـــالى « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ؟ ، ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » (٢) ، فحين رفضوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم لهم الى الايمان ، محتجين بأن لهم دينا يكفيهم الايمان به ، يرد عليهم القرآن بالمنطق ، وهو انهم لم يؤمنوا بأنبيائهم أنفسهم بل قتلوهم ، وحتى موسى عليه السلام الذى يدعون انهم يؤمنون اليوم به وبدينه ، لم يؤمنوا به أيضا ، بل أظهروا له الايمان ، وما ان غاب عنهم فترة قصيرة حتى كفروا ، وعبدوا العجل متخذين منه الها ، فهم اذن لم يؤمنوا بالدين قط ، لأنهم لم يؤمنوا بأنبيائهم ، ولو كانوا آمنوا بهم لآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الأنبياء جميعا من عند الله ، ويدعون الى دين واحد ، واذا كانت هذه الحجة تنطبق على أسلافهم ، لأنهم هم الذين قتلوا الأنبياء وكفروا بموسى ، فانها تقرر الوراثة العنصرية التى يتشبث بها اليهود ، حيث تتضمن الآيات ان خلقهم هو خلق أسلافهم ، وما يلزم أسلافهم يلزمهم ، والمفسرون يوضحون ذلك ، كما يقول البيضاوى فى تفسيره للآيتين السابقتين « تنبيه على أن طريقتهم مع الرسول طريقة أسلافهم .. » (٣) .

ولئن كان القرآن قد قرر ان نزعة الكفر ، وفقدان مبدأ الاعتقاد الدينى عند اليهود صفة أصيلة متوارثة فيهم عبر القرون والاجيال ، اى منذ وجدوا على الأرض ، فان بعض الباحثين الغربيين المعاصرين ، فى بحث خاص عن اليهود

---

(١) من الآية ٦١ سورة البقرة ، وانظر الآية ١٨١ سورة آل عمران والآية ١٥٥ سورة النساء .

(٢) الآيتان ٩٢ ، ٩٣ سورة البقرة .

(٣) تفسير القاضى البيضاوى ٦٩/١ .

من حيث طبيعتهم وأخلاقهم التى تميزهم من الناس ، يقرر هذه الحقيقة التى توصل اليها فى بحثه ، والتى قررها القرآن الكريم منذ أمد بعيد ، والتى تدل على انها طبيعة ملازمة لليهود منذ كانوا ، قبل نزول القرآن ، وبعده حتى اليوم ، يقول (ريك) فى بحثه هذا عن اليهود « ان وراء المظهر السطحي للنقد الذاتي — عند اليهود — .. تكمن نزعة شكية عدائية تتجه نحو الدين ، بل نحو الله نفسه ، باعتباره المخادع الاكبر ، الذى يضلل عباده بالوعود المعسولة ، التى لن تتحقق يوما » (١) ويقول هذا البحث أيضا فى حديثه عن طبيعة العدوان فى اليهود ، « وقد لا يقف العدوان .. عند حدود الخصوم البشريين ، بل هو قد يمتد أيضا نحو قوة أخرى غير بشرية ، تتخذ فى نظر اليهودة صورة الطاغية الأكبر ، ونعنى بهذه القوة الله نفسه » (٢) .

فاليهود اذن كما يقرر القرآن الكريم ، وكما يؤكد تاريخهم كله ، وكما يؤكد الباحثون ليس فى طبيعتهم الاستعداد للايمان ومبدأ الاعتقاد ، وهو أوضح تعليل للنفاق كما سيأتى فى موضعه ، فان النفاق يقوم اساسا على فقدان الاعتقاد فى أى شيء خارج ذات صاحبه ومصلحتها ، ولذلك كان من أبرز صفات المنافقين فى القرآن الكريم « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » فهم لا يعتقدون فى الاسلام ، ولا يعتقدون فى الدين الذى يظن الناس انهم ينتمون اليه فى الخفاء ، ولا يعتقدون فى شيء الا فى ذواتهم ، وهذه الطبيعة ، وهى فقدان مبدأ الاعتقاد ، طبيعة عامة فى اليهود ، وحيث كانت هذه الطبيعة هى دعامة النفاق ، فمن أجل ذلك نفهم السر فى ان النفاق لم يعرفه الاسلام الا فى المدينة وما حولها ، لأنها موطن اليهود ، فلم يظهر النفاق قط فى العرب لأنه لا يتفق وطبيعتهم المهيأة للايمان كما أثبت الواقع حين اعتنقوا الاسلام ، وانما ظهر فى عرب المدينة وما حولها فى نطاقين ، أحدهما مجاورة اليهود منبع النفاق والتأثر بخلقهم لدى بعض الأفراد ، والآخر هو الشذوذ الفردى ، بمعنى شذوذ أفراد المنافقين من العرب ، عن الطبيعة الغالبة على العرب ، والشذوذ أمر مسلم به فى كل قاعدة ، كما شذ بعض اليهود فكانوا مؤمنين ايمانا حقيقيا صادقا .

وانتقال الطبيعة أو الصفة الخاصة المميزة من جيل الى جيل بطريق الوراثة كما فى حالة اليهود ، أمر لا ينازع فيه الباحثون وعلماء النفس ، وهم يقررون ان الوراثة تأخذ طابعا جماعيا فى السلالات ، حيث تجد كل سلالة تتوارث صفاتها ومميزاتها الذاتية ، بحيث تنتقل هذه الصفات من جيل الى جيل بالوراثة مميزة كل سلالة عن الأخرى ، كما يتضح فى ملاحظة الفروق بين الأجناس البشرية المختلفة ، فمن ذلك قولهم عن وراثة التقاليد ، ووراثة الخصائص السلالية « انعقد الاجماع بين الباحثين على عامل واحد عد ذا أهمية جوهرية للقومية ،

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق .

الا وهو التقاليد والعادات الجماعية ، وذكريات الماضى المشترك ، والطموح والتطلع نحو مستقبل مشترك » (١) ، ويقولون « ومع ذلك فمن خطل الرأى ان ننكر وجود الخصائص القوميه ، وكما قال يستينمتز اذا افترضنا وجود الاستعدادات الفطرية السلالية ، صار لزاما علينا أن نسلم بأن تباين الطرق التى تمتزج بها الأجناس البشرية فى مختلف الشعوب يجب ان تؤدى الى خصائص قومية متباينة ، وان هـذه الخصـائص القومية تنتقل الى الأجيـال التالية بطريق الوراثة » (٢) ·

فعدم استعداد طبيعة اليهود اذن للايمان صفة أصيلة متوارثة كاحدى الصفات التى تميز سلالتهم عن السلالات الأخرى ·

وانما كان عدم استعداد طبيعة اليهود للايمان صفة مميزة لسلالتهم عن غيرها لأنه من المعروف لدى علماء النفس والاجتماع ان التدين من الغرائز الأولية والأصيلة لدى البشر فى كل المجتمعات ، وان مبدأ الشعور بالاله ، فى أى صورة ولو كانت خاطئة ، يعتبر أول عامل تبنى عليه المجتمعات ، ويصاغ على ضوئه السلوك ، فالشخص البدائى حينما يعبد صنما او شجرة أو كوكبا فهو انما يعبر بذلك عن انه مؤمن بوجود الاله من حيث المبدأ ، وان اخطأ فى تصور حقيقة الاله ، وعلماء النفس والاجتماع لا يكتفون بتقرير ان التدين غريزة ، وانما يذهبون بناء على بحوثهم وتجاربهم الى أبعد من ذلك ، فيرون ان غريزة التدين كانت الأصل والمنبع لكل العلوم والمعارف الانسانية ، كما يقرر دوركايم ، فى بحوثه (٣) ، وكما يقرر تارد ان كل المقولات والعلوم آتية الينا من الدين(٤) ، بل ان تارد يستنتج ان كل المقومات الاجتماعية انما قامت وصيغت أساسا من الدين ، فيقول « ان فكرة الآله :ذا نجت من الخطأ تلعب فى أول تشكل للمجتمع الدور الذى تلعبه المادة فى أول تشكل للأنا » (٥) ، ومن أيسر ما يؤكده علماء الاجتماع فى حديثهم عن أصالة غريزة التدين ، ان الدين ملازم لكل المجتمعات منذ البداوة ، وان كل النشاط الاجتماعى ، والتقدم الحضارى الذى تدرجت فيه المجتمعات القديمة انما كان مصدره والدافع اليه الشعور والاعتقاد الدينى ، ويستشهدون بما ذكره (هيرودوت) عن الدرجات والمراتب بين الآلهة عنـد الفراعنة ، وبما يقرره علماء الآثار من ان نشاط الفراعنة الفنى والصـناعى انما كان منبعثا عن العقائد الدينية الشائعة لديهم ، ومن ان علم اللاهوت الهندى يكشف عن ان الأوضاع الاجتماعية فى المجتمعات الهندية القديمة كانت قائمة على العقائد الدينية المنتشرة بينهم (٦) ·

(١) نفسية المجتمع موريس جينزبرج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص ١٥٥ ·
(٢) المصدر السابق ١٥٧ ·
(٣) أنظر المدخل الى علم النفس الجماعى دكتور شارل بلوندل ترجمة د· حكمة هاشم ٩٦ ·
(٤) المصدر السابق ٨١ ·
(٥) المصدر السابق ·
(٦) أنظر مدخل الى علم الاجتماع دكتور عفيفى عبد الفتاح ص ٥ ·

وحيث كان اليهود بتلك الدرجة من فقدان الاستعداد للايمان الروحى ، بينما الايمان والتدين بهذه الدرجة من القوة والاصالة فى الغرائز والطبيعة البشرية عامة ، فهم اذن شاذون على الطبيعة البشرية فى أهم مقوماتها ، وليس ذلك بالغريب ، فالحقيقة ان اليهود لم يشذوا عن البشرية فى هذه الطبيعة وحدها وانما شذوا فى نواح أخرى غير قليلة ، سيأتى الحديث عن بعضها ، وهـــذا الشذوذ هو الذى حملهم على الانطوائية ، وعلى الظهور بين شعوب العالم بصفات خاصة تميزهم عن غيرهم .

واما حين نتساءل عن موقف اليهود من الدين ونظرتهم اليه على مر العصور فاننا نجد ان نظرة اليهود الى الدين نظرة مادية بحتة ، لا تتصل بالروحية من قريب أو بعيد ، كنظرتهم الى كل شيء ، فلا يؤمنون الا بالمادة والمحسوسات أما الروحانيات أو الغيبيات فلا تصل من نفوسهم الى أى درجة من درجات الاعتقاد ، ان كان للاعتقاد درجات ، فالشيء الذى يؤمنون به هو الشيء المادى المحسوس فقط ، وهذا نتيجة مباشرة لفقدانهم الاستعداد للايمان الروحى ، والباحثون يقررون هذه الحقيقة فى بحوثهم عن الطبيعة والخصائص اليهودية ، ومن ذلك ما يضربه (ريك) مثـــالا لفقـــدان اليهود الايمان الروحى ، ونظرتهم المادية الى الدين ، بقصة عجوز يهودى ، جمع أبناءه حين أحس الموت فى لحظات احتضاره ، وقال لهم « انصتوا يا ابنائى : لقد ظللت طوال حياتى أعمل وأكد وأقتر على نفسى وأحرمها شتى الملذات ، مؤملا أن أجد يوما فى الحياة الاخرى شيئا أفضل يعوضنى عن كل ما افتقدت ، والآن لن أتردد فى أن أضحك طويلا لو اننى وجدت انه ليس ثمة شيء هناك أيضا » (١) ، فهذه القصة يضربها هذا الباحث مثالا لنظرة اليهود الى الدين ، ومنها نستشف ان نظرة اليهودى ، الى الحياة الآخرة تنحصر فى أمله أن يجد فيها ما يعوضه عما فقده فى دنياه ، وانه غير مؤمن بالحياة الأخرى ايمانا ، وانما هى نظرة مادية ، وأمل مادى ، يسيطر عليه الشك ، وتغلفه الريبة ، لانه غير محسوس ، وغير مادى ، واليهودى لا يؤمن بغير المادة ، وقيمة هذه القصة فى انها من الأدب الشعبى اليهودى وفكاهاتهم الشائعة بينهم . والقرآن الكريم يوضح نظرتهم المادية الى الدين ، وكثيرا ما يصوغ ذلك فى أسلوب السخرية منهم ، ومن نظرتهم الى الدين ، فالنبى محمد صلى الله عليه وسلم حينما دعاهم الى الاسلام ، وتلا عليهم القرآن على انه كلام الله ، كذبوا انه رسول ، وكذبوا ان القرآن من عند الله ، وطلبوا منه لكى يصدقوه ان يريهم شيئا محسوسا تراه أعينهم أو تلمسه أيديهم ، لانهم لا يؤمنون بالروحانيات والغيبيات ، طلبوا منه أن ينزل عليهم كتابا من السماء يرونه وهو نازل ، ويهون القرآن الأمر على النبى ، بأن لا يعجب من هذا الطلب الغريب ، فان هذا الطلب ليس حادثا جديدا أو فرديا ، وانما هو تابع من طبيعتهم الخاصة المتاصلة فيهم ، وهى عدم الايمان قط الا بالماديات ، والدليل

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ١٣٦ .

على ذلك أنهم سألوا موسى عليه السلام ، وطلبوا منه ما هو أعجب وأكبر من طلبهم كتابا من السماء ، فقد طلبوا من موسى أن يريهم الله سبحانه نفسه ، لتنظر اليه عيونهم جهرة ، والمفارقة الساخرة فى نقل القرآن لهذا الحديث عنهم تتمثل فى ناحيتين ، احداهما تصورهم مقدرة موسى على التصرف فى ذات الله جل جلاله بحيث يملك أن يعرضه عليهم كما يعرض الانسان أى شىء مملوك له ، والاخرى ان القرآن يشير لمحمد صلى الله عليه وسلم الى انه اذا كان يعجب من تكذيبهم ان القرآن من عند الله ، فى صورة طلبهم كتابا من السماء ، فانهم غير مؤمنين بوجود الله نفسه سبحانه ، وقد عبروا عن ذلك فى صورة طلبهم من موسى ان يريهم الله باعينهم « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا » (١) .

وحتى حينما تغلبهم حجة الرسل فى وجود الله ، ويضطرون الى التسليم جدلا بوجود الله سبحانه فانهم ينظرون الى علاقتهم به سبحانه نظرة مادية بحتة لا كما ينتظر مخلوق فضل خالقه ونعمه ، وانما كما يحاول شخص استغلال شخص آخر ، واستنزاف ما عنده ، فحين افترضوا وجود الله ، أصبح كل نظرتهم اليه ، وعلاقتهم به انتظار الرزق المبسوط ، والمال الذى لا حد له ، فان حقق لهم ذلك فهو اله حقيقة ، والا فهو غير اله ، أو اله بغيض اليهم ، ممقوت عندهم ، سىء الصفات فى نظرهم ، ويروى القرآن عنهم هذا المعنى فى قوله تبارك وتعالى « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .. » (٢) والمفسرون يروون ان قول اليهود هذا كان فى فترة نزول القرآن ، وصدر من بعض معين منهم (٣) ، وان قوله تعالى « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » جاء فى صورة الدعاء عليهم ، وان كان المقصود به قضاء الله فيهم بهذا (٤) ومع ذلك يمكن النظر الى هذا المعنى من زاوية أخرى ، هى ان قول اليهود هذا الذى يطعنون به فى ذات الله العلى العظيم لا يمثل حدثا فى سلوك اليهود حتى نعتبره شيئا جديدا لم يقع ولم يصدر الا فى الفترة المعاصرة لبدء الاسلام ، وانما يمثل خلقا أصيلا ، وطبيعة فيهم باعتبارهم عنصرا وسلالة خاصة ، هى طبيعة النظرة المادية البحتة الى الدين وكل ما يتعلق به ، وحيث كانت هذه طبيعة فيهم ، فهى موجودة فيهم قبل الاسلام ، ومنذ وجدوا ، وحتى مع فرض صحة صدور ذلك منهم فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان سببا فى نزول الآية ، فان ذلك لا ينفى صدوره منهم قبل ذلك،

---

(١) الآية ١٥٣ سورة النساء وانظر تفسير البيضاوى .
(٢) من الآية ٦٤ سورة المائدة .
(٣) أنظر تفسير القاضى البيضاوى .
(٤) أنظر تفسيرى الكشاف للزمخشرى والقاضى البيضاوى .

لان هذا التعبير الذى ينقله عنهم القرآن « يد الله مغلولة » ليس مقصودا لذاته كقول صدر منهم ، أو جرما ارتكبوه فى حق الله سبحانه ، وانما هو اشارة الى طبيعتهم ، ونظرتهم الدائمة الى علاقتهم بالله ، وحيث كان هـذا التعبير بيانا لطبيعتهم ، فيمكن أن نفهم ان قوله تعالى « غلت أيديهم » ليس فى صورة الدعاء عليهم ، وليس قضاء من الله عليهم بسبب اتهامهم اياه بالبخل ، وانما هو سبب لاتهامهم لله سبحانه بالبخل ، ويكون المعنى انهم لسيطرة البخل والشح عليهم ، واستحكام طبيعة الحرص على النفع من كل شيء فى نفوسهم ، اتهموا الله سبحانه بالبخل حين لم تتحقق لهم أمانيهم فى أن تكون كل صلة الله بهم هى النفع المادى الدائم المستفيض لهم ، وتكون الباء المفيدة للسببية فى قوله تعـــالى (بما قالوا) منصبة على لعنهم ، أى لعنوا بسبب بخلهم وحرصهم الذى دفعهم الى اتهام الله بالبخل .

فهذا المعنى الذى يسوقه القرآن عنهم ، لا يرد به على كلام قالوه ، أو على حادثة صدرت منهم ، بقدر ما يبين طبيعة من طبائعهم المميزة لهم عن غيرهم ، والدليل على ذلك ان القرآن تحدث عن كثير من الأمم والشعوب ، وعن كثير من أنواع الكفر ، ولكنه لم يتحدث بهذا الاتجاه المادى النفعى عن أحد غير اليهود ، وهذا الاتجاه اليهودى الذى يوضحه القرآن ، هو الاتجاه الذى يوضحه البحث المشار اليه آنفا عن اليهود ، والذى يضرب له مثالا بقصة اليهودى العجوز فى وصيته لأبنائه عند موته .

ويؤكد القرآن الكريم هذه النزعة اليهودية فى موضع آخر ، بصورة أخرى ، فاليهود حين يفترضون وجود الله ، يحصرون صلتهم به فى انتظار النفع المادى منه ، وحين يطول انتظارهم ، أو يتسرب اليأس الى نفوسهم ، يتهمون الله سبحانه باتهام آخر ، هو انه فقير ، والا لأفاض عليهم المال من كل وجه ، وحيث لم يفعل فهو اذن فقير ، بل يسيئون اليه اساءة أخرى ، هى انهم اغنى منه حيث يطلب منهم أن ينفقوا فى سبيله ، وينقل القرآن عنهم هذا المعنى ، بأسلوب تشع منه السخرية بهم حيث يقول « لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (١) والمفسرون ينقلون ان قائل هذا نيابة عن اليهود فنحاص بن عازوراء ، حين أرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتابا مع أبى بكر الى يهود بنى قينقاع ، يدعوهم الى الاسلام ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وأن يقرضوا الله قرضا حسنا ، فقال فنحاص ان الله فقير حتى سأل القرض ، فلطمه أبو بكر على وجهه ، وقال لولا مابيننا من العهد لضربت عنقك (٢) ، ولكننا مع افتراضنا ذلك ، لا نستطيع أن نغفل

---

(١) الآيتان ١٨١ ، ١٨٢ سورة آل عمران .

(٢) انظر تفسيرى البيضاوى والزمخشرى للآيتين السابقتين .

الدقة البالغة التي يحملها كل لفظ من ألفاظ القرآن في اداثه لمدلوله ومعناه ، وليس من المعقول أن ينسب القرآن كلام فرد الى جماعة ، ويحكم به على هذه الجماعة ، وتعبير الآيتين كله عن جماعة وليس عن فرد ، وانما المعقول المتفق مع الواقع ، ومع حديث القرآن عن طبيعة اليهود بصفة عامة ، ان هذا المعنى وان كان صدر حقا من بعضهم في مناسبة معينة كالحادثة التي يرويها المفسرون ، الا انه لا يمثل نفسية فرد أو نظرته الى الله ، ولا حتى نفسية جماعة أو جيل معين من اليهود ، وانما يمثل طبيعتهم جميعا في كل جماعاتهم ، وكل عصورهم ، ومما يدل على ان المقصود به ليس فردا او جماعة معينة ، وانما بيان طبيعة اليهود عامة ، أن القرآن قرن تعبيرهم هذا (ان الله فقير) بقتلهم الأنبياء ، وهذا له دلالتان ، احداهما أنه لو كان المقصود مؤاخذة المعاصرين للنبي وحدهم بقولهم (ان الله فقير) ، لأنهم هم الذين ينطبق عليهم أو الذين صدر منهم هذا القول ، فكيف يؤاخذهم الله بقتل الأنبياء مع أنهم لم يصدر منهم القتل ، وانما صدر من أجيال سابقة لهم ؟ والآية تقرن الذنبين معا ، (سنكتب ما قالو وقتلهم الأنبياء) ، والدلالة الثانية ، ان سياق الآية في البدء منصب على قولهم (ان الله فقير) ثم قرنت الآية هذا الذنب بذنب آخر ، فلماذا اختارت الآية قتلهم الأنبياء من بين ذنوبهم الكثيرة لتقرنه بقولهم ان الله فقير ؟

والواقع ان مؤدى الدلالتين يتضح حينما نفهم ان حديث القرآن عنهم باتهامهم لله سبحانه بالفقر ، لا يقصد به فرد أو جماعة أو جيل معين منهم ، وانما يقصد به بيان طبيعة عامة يخضع لها أفرادهم في كل أجيالهم وجماعاتهم، هي عدم استعداد نفوسهم أصلا للايمان بالله ايمان الروح واليقين ، وهذه الطبيعة نفسها هي التي دفعتهم الى قتل الأنبياء ، لعدم وجود أي درجة من التقارب الروحي بينهم وبين الأنبياء كما سبق ، ولهذا اختارت الآية قتلهم للأنبياء دون غيره ، لتقرنه بالذنب السابق ، لأنه مترتب عليه ، وتابع منه .

ويبين القرآن أن سلوك اليهود حتى في الدين يدور حول هذه المادية النفعية ، التي لا تنظر الا الى الكسب المادي ، وابتغاء الربح العاجل ، فهم في الدين كذلك ، يتخذون منه شيئا تجاريا كأي سلعة ، ومن هنا يسخر القرآن الكريم من اختيارهم الضلال ، وايثاره على الهداية ، فلا يسمي ذلك اختيارا أو ايثارا ، وانما يسميه تجارة وشراء ، ليكون هذا التعبير على مافيه من سخرية مناسبا ومطابقا لما في نفوسهم وطبيعتهم من مادية نفعية ، فيقول سبحانه « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ؟ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا » (١) .

بل أكثر من ذلك تبين سخرية القرآن أن صلتهم بالله سبحانه ، وعهودهم معه ، وأخلاقهم ، وتقديرهم لذواتهم ومروءتهم بين الناس ، كل ذلك يضعونه

---

(١) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ سورة النساء .

فى ميزان التجارة والنفع ، ويستعدون لبيعه والتجارة فيه ، ولكن الطريف الساخر أن الدين والقيم والمروءة ، لا يساوى عند اليهود شيئا كبيرا أو ذا قيمة ، ولا يزن عندهم مقدارا ، بل كل ذلك فى نظرهم شىء تافه ، وهم مستعدون لبيعه بأبخس ثمن ، لأنهم لا يعتدون بدين ، ولا بميثاق أو عهد ، ولا بشرف أو مروءة ، وانما يعتدون بالثمن مهما يكن تافها أو قليلا ، ونجد القرآن لا يسوق ذلك للاخبار به ، وكأنه شىء بدهى مسلم به بالنسبة لليهود ، فلا يحتاج الى تقريره ، أو الاخبار به ، وانما يسوقه فى مقام أن الله سبحانه سيجازيهم ويحاسبهم على كل ما تمليه عليه طبيعتهم واخلاقهم من هذه المادية الوضيعة « ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » (١) ومهما يكن أيضا من شأن نزولها فى أحبار اليهود ، أو فى جماعة من اليهود كما يروى المفسرون ، فانها تعنى استهانة اليهود بالقيم الدينية التى تعبر الآية عنها بعهد الله ، وبالقيم الخلقية والذاتية ، التى تعبر عنها الآية باستهانتهم بالأيمان التى يحلفونها ، مع أن الوفاء بها عنوان للشرف النفسى والشرف الاجماعى .

ولفقدان اليهود الاستعداد للايمان الروحى ، وعدم اعتدادهم الابكل ماهو مادى حسى ، يلاحظ العلماء ان المعجزات التى جاء بها الأنبياء الى بنى اسرائيل يغلب عليها طابع الحس والمادة ، بمعنى أنها معجزات مادية حسية (٢) ، وهذا بناء على ملاحظتهم أن معجزة كل نبى كانت من نوع ما اشتهر فى قومه المرسل اليهم، ومن نوع ما تميزوا به وبرعوا فيه ، ولما كان بنو اسرائيل يتميزون بعدم ايمانهم بالروحانيات والغيبيات ، أو حتى العقليات ، وانما يقصرون كل ايمانهم وأفكارهم على الماديات المحسوسة ، قد كانت معجزات أنبيائهم اليهم من هذا الطراز .

ويصور القرآن الكريم طبيعة اليهود الدينية ، وهى خلوهم من الايمان فى كل أحوالهم ، فهم غير مستعدين للايمان ، وانما يستعدون للنفاق والتمثيل ، حيث يرون فيه نفعا وكسبا ، ولا يهمهم الكذب ، ولا يسوء نفوسهم النفاق ، لانهم يفقدون المقومات التى تثير الحياء ، وتثير الاشفاق على النفس من السوء والمهانة ، ويصوغ القرآن هذه الصورة فى أسلوب لا يخلو من سخرية وتهكم حيث يقول عن محاولتهم خديعة المسلمين بنفاقهم « واذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفروهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون » (٣) ، وليس كفرهم بالاسلام وحده ، بل بمطلق الدين ، لأنهم لو آمنوا بالتوراة ما كفروا بالاسلام ثم تصمهم سخرية القرآن بهذه الصورة البالغة التهكم ، حين يسر الله لهم الهدى، وجعل لم كتابا سماويا هو التوراة ، كان يمكن أن يهتدوا به وأن يتذوقوا الدين

---

(١) الآية ٧٧ سورة آل عمران .

(٢) انظر اعجاز القرآن عبد الكريم الخطيب ٧٤/١ نقلا من الاتقان للسيوطى ١١٦/٢ .

(٣) الآية ٦١ سورة المائدة .

فى أعماقهم ، ولكنهم جعلوا الدين ، وجعلوا التوارة مجرد مظهر يعلنونه للناس ، على أنه دين لهم ، وعلى انه شريعة يتمسكون بها ، ولكنهم فى واقعهم لم يتاثروا قط بالدين ، ولا بما فى التوارة ، ولم يفقهوا من ذلك شيئا ، لأن نفوسهم غير مهيأة لذلك ، فأصبح مثلهم كما توضحه سخرية القرآن « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » (١) .

٢ – الخلق :

من الواضح ان اليهود يتميزون بأخلاق خاصة تحددهم عن غيرهم من الجماعات والسلالات ، وقد يختلف بعض الناس فى تفاصيل ذلك ، ولكنهم لا يختلفون فى مبدئه ، من حيث انهم ينفردون عن سائر الناس بخلق معين متوارث فيهم ، واليهود أنفسهم لا ينكرون هذه الحقيقة ، ولو بطريق غير مباشر فيما يصدر عنهم من سلوك ، وفيما يتشبثون به من نظرة خاصة لأنفسهم ، على أنهم طراز خاص من البشر ، وان سائر الناس طراز آخر غير طرازهم ، وهم بطبيعة الحال يدعون انهم الطراز الأفضل ، وانهم السلالة الأسمى ، ومن المشهور ادعاؤهم انهم شعب الله المختار ، وان الناس جميعا على اختلاف ألوانهم واجناسهم دونهم منزلة ومكانا وصفات ، ولكن الباحثين فى النتاج والأدب اليهودى ، وفى ملاحظاتهم عن الخلق اليهودى عامة يقررون ان هذه الدعاوى التى يدعيها اليهود عن تفوقهم على البشر ، وسموهم على سائر الناس ، تخالف نظرتهم الحقيقية الى أنفسهم ، حيث انهم فى أعماقهم يعتقدون فى أنفسهم عكس ما يدعونه أمام الناس ، وانهم يعرفون ويعتقدون اعتقادا عميقا بأنهم دون الناس جميعا ، وانهم يحملون صفات سيئة منكرة ، ويسلكون سلوكا شاذا ، ونجد (ريك) فى بحثه الذى خصصه عن اليهود ، يلخص فى بعض مواضعه نظرة اليهود الى انفسهم ، والى ظلم الشعوب لهم ، فى ان لسان حال اليهود يقول للناس جميعا على اختلاف شعوبهم « انظروا كيف خلقتم منا موجودات تعسة ، ضعيفة شاذة ، ضيقة الأفق ، غليظة القلب ، مقترة على نفسها ، وعلى الآخرين » (٢) فهم يعرفون فى قرارة نفوسهم ، ويعتقدون انهم تعساء ، وانهم ضعفاء وانهم شاذون ، وانهم ضيقو الأفق ، وانهم بخلاء على أنفسهم وعلى الناس ، ولكنهم أمام الناس يعلنون انهم شعب الله المختار ، وانهم وهبوا صفات هم أنفسهم قبل غيرهم يعرفون انهم كاذبون فى دعواها ، وانهم انما وهبوا عكس هذه الصفات التى يدعونها .

ولكننا حين نراجع كل ما كتبه الباحثون عن اليهود ، وكل ما يقرره

---

(١) الآية ٥ سورة الجمعة .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ص ١٣٥ .

المتحدثون عنهم ، لو اتيح لباحث ذلك ، ثم رجع الى القرآن الكريم ، فلا أظن انه سيجد جديدا لم يأت به القرآن عن اليهود تصريحا او تضمينا ، ومن العجب ان القرآن الكريم من شأنه ان تغلب عليه العناية بالكليـــات ، دون التفاصيل ، ولكنه بالنسبة لليهود عني بالكليات وبالتفاصيل ، فتناول اليهود من كل جوانبهم ، وحلل نفسياتهم وطبائعهم ، وابرزهم في صورة جلية واضحة لا تحتاج الى تحليل أو تفصيل ، بقدر ما تحتاج الى تأمل وتدبر ، وكل ما يحتاج اليه ابراز صورة اليهود في القرآن الكريم ، هو تجميع الآيات التي تحدثت عنهم ، ثم دراستها ، وليس شأن هذا البحث ان يعنى بذلك ، وانما يعنيه استعراض نماذج من سخرية القرآن فيما يتعلق باليهود ، مع التمهيد لهذه السخرية بما يبرز اصابتها الهدف ، وانطباقها على واقع اليهود .

ويمكن أن نجمل أهم ما يعني الموضوع من خلق اليهود ، في حديث القرآن الكريم فيما يأتي :

١ ــ حب الذات :

والمعنى بحب الذات في اليهود ، انهم يقصرون تفكيرهم ، ومشاعرهم ، وعواطفهم ، على أنفسهم ، واذا كان من المبادىء الانسانية التي يعتنقها ويطبقها أصحاب الدين ، وغير أصحاب الدين من الناس ، ان الانسان بالضرورة عضو في مجتمع ، أيا كان المجتمع الذي يعيش فيه ، ولو كان مجتمعا من غير السلالة التي أنجبته ، وان هذه العضوية تفرض عليه واجبات انسانية تلقائية ، يجد نفسه مرتبطا بها نفسيا وعمليا نحو الآخرين ، ويجد نفسه لا يستطيع أن يفكر في ذاته وحدها ، ولا في مصلحته فحسب ، وانما يفـــكر في ذاته مرتبطة بالآخرين ، وفي مصلحته مشتركة مع مصالح غيره ، فان اليهود يفقدون هذا الشعور ، بمعنى اننا نستطيع أن نتصور تفكير اليهودي ومشاعره محصورة في دائرتين ، دائرة شخصه بوصفه فردا ، ودائرة مجتمعه اليهودي ، ففي دائرة شخصه يرى نفسه عالما مستقلا منفصلا عن غيره ، وعن كل انسان آخر ، بحيث لا يفكر الا في ذاته ، ولا يشعر الا بمصلحته الشخصية المباشرة ، بصرف النظر عن أي مصلحة للآخرين ، وعن أي ضرر يلحق الآخرين ، وفي دائرة مجتمعه اليهودي ، يرى نفسه مرتبطا برابطة واحدة ، هي الصلة الوحيدة بينه وبين سائر البشر ، هذه الرابطة هي رابطته بمجتمعه اليهودي ، وهو لا يحس بهذه الرابطة لانها صلة اجتماعية أو انسانية ، وانما يحس انها مكملة لدائرته الشخصية ، ومتممة لمصلحته الذاتية أما خارج هاتين الدائرتين ، فلا يحس اليهودي بأي رابطة أو صلة تربطه بانسان أو بشر على وجه الأرض ، بل الحقيقة ان مشاعرهم واحساسهم نحو غيرهم لا يقف عند مرحلة السلبية ، وانما يتعدى ذلك الى الشعور العدائي الحاد العميق ، نحو البشر جميعا ، ولا يستثنون في

شعورهم هذا دينا من لاديان ، ولا شعبا من الشعوب ، ولا أحدا قط ، وانما تمتلىء نفوسهم وقلوبهم بهذا العداء الصارخ لجميع الناس بدون استثناء ، لأن نفوسهم مشبعة الى اعماقها بحب الذات وحدها ، ونتيجة لذلك كانت نفوسهم مشبعة الى اعماقها أيضا بالنفور من الآخرين ، والحقد عليهم ، والعداء لهم ، ونجد (ريك) في البحث المشار اليه ، يقرر هذه الحقيقة ، حيث يلاحظ في دراساته عن اليهود من خلال فكاهاتهم انها « تكشف عن ميول عدائية قوية ضد الشعوب الأخرى » (١) ، فليس مجرد عداء ، وانما « عداء قوى » .

والذى ينبغى أن يلفت النظر ان هذه النزعة التى تحملها نفوس اليهود ، نزعة الانطواء على حب الذات ، من شأنها ان تؤثر فى السلوك ، ولذلك نجد سلوك اليهود مؤيدا لسيطرة هذه النزعة على نفوسهم .

ويتحدث القرآن الكريم مشيرا الى هذه النزعة المسيطرة على اليهود ، والتى تجعل الواحد منهم يجعل ذاته والحرص على نفعها محورا لكل شىء ، ومنظارا يرى به كل شىء ، ولا يرى بدونه شيئا ، ونتيجة لذلك يعض على الحياة بنواجذه ، ولا يجزع من شىء جزعه من مجرد تصور الموت ، لأنه لا يرى فى الحياة شيئا غير ذاته ، ولا يحس بشىء غير المادة والنفع ، والموت سيمحق بالنسبة اليه كل شىء ، وهو لا ينظر بعد الموت شيئا ، ولا يوقن بعده بشىء ، لأن ما بعد الموت غير مادى ولا محسوس للناس فى الحياة ، واليهودى لا يؤمن بغير المادة المحسوسة ، فاذن ليس بعد الموت شىء تطمئن اليه نفسه ، فالموت عنده سيذهب بكل شىء ، ولا يحقق شيئا ، ومع ذلك فان اليهود يزعمون ان الجنة فى الآخرة مقصورة عليهم ، ولا ينبغى أن يدخلها احد سواهم ، وهنا يسخر منهم القرآن الكريم ، ومن دعواهم ، معرضا اياهم لاختيار يسير ، يتبين عنده صدقهم من كذبهم ، وهو ان الشأن فى المؤمنين الذين ينتظرون الجنة ، ان تتعلق نفوسهم وآمالهم بالجنة تعلقا يجعلهم يستهينون بالموت ، بل يجدون فيه تحقيقا لآمال حلوة فى نفوسهم ، فان كان اليهود صادقين فى دعواهم ان الجنة لهم وحدهم ، وان كان هذا عقيدة فى نفوسهم حقا ، فليتمنوا الموت ، ليتحقق لهم هذا الشرف العظيم الذى يدعونه ، والقرآن يريح الذى يودون ان يعرفوا موقف اليهود من هذا الاختيار ، فيؤكد لهم ان اليهود لن يتمنوا الموت ابدا ، بل هم أحرص الناس على الحياة ، وعلى التشبث بها فى أى صورة ، وان الواحد منهم لا تكفيه الحياة العادية ، أو حتى أضعافها ، وانما يبلغ من نهمه فى الحرص على الحياة أن يتمنى لو عاش الف سنة « قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب

---

(١) سكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ١٣٤ .

ان يعمر والله بصير بما يعملون » (١) وتنكير الحياة فى قوله تعالى « أحرص الناس على حياة » للتخصيص كما يراه المفسرون ، أى على حياة طويلة (٢) وليس هنـاك ما يمنع من ان يـكون التنكير للعموم ، اى هم أحرص الناس على أى نوع او صورة من صور الحياة ، فهم حريصون على الحياة لذاتها ، سواء كانت حياة كريمة مريحة ، أو حياة مهينة مشقية ، وأكثر آراء المفسرين على ان المراد بالذين أشركوا اليهود ، على اعتبار ان قولهم « عزيرا بن الله » شرك بالله (٣) ، أو على تقدير انهم ــ اليهود ــ أحرص على الحياة من الذين أشركوا (٤) ٠

على ان من أوضح آثار انطواء اليهود على حب الذات ، انهم دون أصحاب الأديان جميعا ، صحيحها وباطلها ، انفردوا بحرصهم على أن يكون دينهم لهم وحدهم ، لا يرضون أن يشركهم فيه أحد ، مع ان المنطق والمألوف فى كل دين أو دعوة ، أن يحاول أصحابها نشرها ، وضم أكبر عدد من الناس اليها ، أو على الأقل لا يذودون عنها احدا ، ولكن اليهود يعتبرون دينهم شيئا خاصا بهم ، ومقصورا عليهم ، لا ينبغى لأحد أن يدخل فيه أو يعتنقه غيرهم ، يعتبرونه ملكية خاصة ، كملكية أى شىء مادى ، وهذا بالطبع ليس مذهبا أو تدينا ، فان الأديان انما أنزلت لهداية البشر ، ومن عند الله سبحانه الذى لا يفرق بين عباده فى دعوتهم اليه ، وانما هو أثر من آثار حب الذات ، وما ينبع عنه من الرغبة الجامحة فى تملك كل شىء ، وحيازته عن الغير ، ويقول القرآن الكريم مشيرا الى هذا الخلق فى اليهود ، ولا يسوقه بأسلوب الاخبار ، كأنه شىء معلوم لا يحتاج الى أخبار أو بيان « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » (٥) واذا قيل ان المراد بكتمانهم هو كتمانهم صفات النبى صلى الله عليه وسلم كما جاءت فى التوراة ، فان ذلك لا ينفى ان الآية تبين النزعة العامة فيهم ، والمعـروفة عنهم ، وهى انطواؤهم على دينهم ، وكتمانه عن الناس ، على أسـاس أنه خاص بهم ، على ان كلمة (الهدى) فى الآية تشير الى ارادة المعنى العام ، وهو بيان أثر من آثار طبيعة اليهود فى كتمانهم دينهم وقصره على أنفسهم ، فاذا كانت كلمة (البينات) تشير الى كتمانهم صـفات النبى فى التوراة ، فان كلمة (الهدى) تشير الى كتمانهم الدين نفسه ، وخاصة مع لفظ (أنزلنا) فان الهدى الذى أنزل فى التوراة ، هو الدين نفسه ، كما ان كلمة (اللاعنون) وان احتملت فى مدلولها الملائكة كما يقول المفسرون ، فانها قد تحتمل العموم ، أعنى عموم

---

(١) الآيات ٩٥ ــ ٩٧ سورة البقرة ٠
(٢) انظر تفسيرى البيضاوى والزمخشرى ٠
(٣) انظر تفسير البيضاوى ٠
(٤) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٠
(٥) الآيتان ١٥٩ ، ١٦٠ سورة البقرة ٠

اللاعنين من الملائكة ومن الناس ، ممن يعرف عنهم هذا الخلق ، ويعرف الدافع اليه في نفوسهم .

٢ ـ البخـــــل :

اذا كان البخل صفة غير غريبة على الناس ، بل موجود في كل عصر ، وفي كل مجتمع ، فان بخل اليهود يتميز عن البخل العادى من ناحيتين ، أنه ليس مجرد حرص عادى على ما في اليد ، أو منع له عن الناس ، وانما سيطرة متغلغلة في النفس لاقصى ما يتصور من حرص وشح نابعين من الخلق السابق ، وهو سيطرة حب الذات وما يتبعه من خلق وسلوك ، والناحية الثانية ان البخل في الناس ينظر اليه على انه مظهر فردى ، فيقال فلان بخيل ، أو فلان وفلان بخيلان ، أما في اليهود فانه خلق جماعى يسيطر عليهم جميعا كعنصر وسلالة ، وهذا لا يمنع من الشذوذ الفردى الذى لا يؤثر على الحكم العام ، وسيطرة البخل على اليهود أمر معروف في كل العصور لكل الشعوب ، حتى أصبحوا مضرب المثل فيه ، وعنوانا له . وحتى ان بخلهم وشحهم لا يقف عند منع ما في أيديهم عن الناس ، وانما يضنون به على أنفسهم أيضا ، فبخلهم يمتاز عن غيرهم بأنه لا يقف عند حد ، ولا يلين امام شيء ، حتى أمام حاجة صاحبه ورغبته ، فاليهودى شحيح على نفسه شحه على الآخرين ، ونجد (ريك) في بحثه المشار اليه ، يقرر هذه الحقيقة من واقع اليهود انفسهم واعترافهم بها ، ولو في صـــورة غير مباشرة أحيانا ، كما يقول ذلك العجوز اليهودى المحتضر في وصيته لابنائه « لقد ظللت طوال حياتي أعمل واكد ، واقتر على نفسى واحرمها شتى الملذات .. » (١) وهذه القصة ليست حادثا فرديا ، وانما نقلها الباحث على انها فكاهة يهودية عامة ، يتداولها اليهود على أنها ممثلة لروحهم ونفسيتهم ، ونظرتهم الى أنفسهم والى موقفهم من الدنيا والدين ، ونجده يقرر أيضا اعتراف لســان حالهم بالبخل والتقتير على أنفسهم وعلى الناس في مخاطبتهم للشعوب الأخرى بقولهم « انظروا كيف خلقتم منا موجودات تعسة ضعيفة شاذة ، ضيقة الأفق ، غليظة القلب ، مقترة على نفسها وعلى الآخرين » (٢) :

واستحكام هذه الطبيعة في اليهود نتيجة مباشرة للانانية المتطرفة فيهم ، والتى تتمثل في سيطرة حب الذات ، وجموح الرغبة في تملك كل شيء والحرص عليه ، دون التفريط في أى شيء ، ولذلك كان للمال عندهم بريق واغراء لا يتمثل في مجرد حبه أو الرغبة فيه ، كما يتمثل في سائر الناس ، وانما يتمثل في خضوعهم له خضوعا لا يقف في طريقه شيء ، ولا يصدهم عنه أى اعتبار آخر ، نهم يضحون في سبيله بكل ما يعتز به الناس ، بل بكل ما يضحى من أجله بالمال

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ١٣٥ .

وبما هو اثمن من المال ، كالحياة ، فالناس يعتزون بخلقهم ، وكرامتهم ، وشرفهم في نظر انفسهم ، وفي أعين الناس ، ويعتزون بعقيدتهم ، ويضحون من أجل ذلك بكل شيء ، بالمال ، وبالجهد ، وبالحياة ، في كثير من الاحيان ، ولكن اليهود يعكسون ذلك ، فالمال عندهم فوق كل شيء ، وهذه المعاني التي يعتز بها الناس ، لا تساوى بجوار المال عندهم شيئا ، ولذلك يبيعون دينهم وشرفهم بين الناس بأى ثمن مهما كان بخسا، كما صورتهم الآية الكريمة السابقة « يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » ، ولامر ما يتفق وطبيعة اليهود في سيطرة حب المال عـــلى نفوسهم والتضحية في سبيله بكل شيء ، اختار السامرى مادة العجل الذى عبـــده بنو اسرائيل من الذهب والفضة ، وذلك في قصة كفرهم المعروفة ، حينما كانوا يبدون وكأنهم في أعمق ساعات الايمان ، فبعد أن نجاهم الله من طغيان فرعون ، وسومه اياهم سوء العذاب ، وأغرق فرعون وجنوده اكراما ومواساة لهم ، وبداوا يحسون الأمن ، ويذوقون طعم الراحة والهدوء النفسى ، ظهروا حينئذ وكأنهم اقوى الناس ايمانا بالله الذى أفاض عليهم هذه النعم ، وأشـــدهم شكرا له وعرفانا ، وازداد مظهر ايمانهم وتعلقهم بموسى عليه السلام ودينه حينما أخبرهم انه على موعد مع ربه لينزل عليه كتابا يكون شرفا لهم ، وهداية لنفوسهم ، وودعهم موسى ليذهب الى موعده مع ربه ، وليحضر لهم الكتاب السماوى العظيم الذى يشرفون ويهتدون به ، وتركهم وهم يبدون أقوى ما يكونون ايمانا وانتظارا لكتاب الله ، ولم يغب عنهم موسى دهرا ولا سنوات ولا شهورا ، وانما غاب عنهم اربعين يوما ، جاء بعدها يحمل في يديه الشرف العظيم له ولقومه ممثــلا في الواح التوراة ، ولنا ان نتصور مدى ما كان يشعر به موسى من السرور والسعادة بهذا الشرف الذى يحمله لقومه ، ولنا أن نتصور مدى ما كان يقدره في نفسه من اعتزازه بقومه وبايمانهم ، وبحبهم لله وشكرهم له على أن أتاح لهم هذا الشرف العظيم ، ولنا أن نتصور مدى ما كان يقدر موسى في نفسه من فرح قومه بهذا الشرف ، بعد تلهفهم في انتظاره ، وشوقهم الى عودته ، واذا هو يفاجأ بما لم يكن له في حسبان ، يفاجأ بقومه يعبدون عجلا متخذين منه الههم ، وكان ساحر شرير من اليهود ، هو موسى السامرى ، قد سولت له نفسه حين ذهب موسى الى موعده مع ربه ، أن يضل بنى اسرائيل ، وهو واحد منهم ، يعلم طبيعتهم ، ويعلم ما يسيطر على نفوسهم ، يعلم طبيعتهم من حيث انهم لا يعرفون الايمان الروحى ، ولا العقيدة الثابتة ، وانما يأخذون الدين مظهرا شكليا عنصريا ولا ينظرون اليه الا من زاوية المادة المحسوسة ، ويعلم ما يسيطر على نفوسهم من حب المال الى درجة العبادة الحقيقية ، والتضحية في سبيله بكل شيء ، وأيسر ما يبذلونه من تضحية هو الدين الذى لا يبلغ قط منهم مبلغ الايمان ، فاختار منهم جانب الاغراء الذى يسيطر على نفوسهم ، وهو الذهب والفضة اللذان يمثلان المال ، وصنع لهم منهما عجلا ، وأراد أن يلبسه ثوب الحقيقة من حيث انه عجل ، فاخذ قبضة كما يروى المفسرون ـ من اثر فرس جبريل الذى اغرق لهم فرعون

وجنوده ، وعمد الى العجل ، فقذفها في فيه ، فاذا العجل حي له خوار كخوار أي ثور ، واليهود يتابعون السامرى فى صنيعه منذ راوا بريق الذهب ورنين الفضة ، فاذا هم ينسون ربهم ، وينسون كل ما انعمه عليهم ، وينسون موسى ، وينسون انتظارهم للشرف العظيم الذي وعدهم باحضاره ، ويخرون ساجدين للعجل ، متخذين اياه الها ، واذا موسى يجدهم كذلك ، فتثور ثائرته ، ويفقد كل هدوء وثبات ، فيلقى الواح التوراة الى الأرض ، ويأخذ بناصية أخيه هارون يريد ان يبطش به لسكوته على هذا الكفر الذى يمثل غاية الاستهانة بالله وبالدين وغاية الغدر والكفران للنعم التي افاضها الله عليهم ، وهم بعد لا يزالون فى السفر الذى نجاهم الله به من عذاب فرعون لهم ، وبطشه بهم ، وغاية السفاهة وتفاهة التفكير ، حيث يعبدون مجرد حيوان تمتلىء بمثله شعاب الأرض ، ولا يعدو أن يكون طعاما لكل آكل ، ويصور القرآن الكريم هذه المفارقات العجيبة منهم فى قوله تعالى « واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين ، قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ، سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وأن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون الا ما كانوا يعملون واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ، قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين ، ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين » (١) .

وتبلغ سخرية القرآن الكريم من بخل اليهود أقصى ما يتصور من تصوير لبخل بخيل ، وذلك حين تجعلهم فى وضعين متباينين متباعدين ، أحدهما أن

---

(١) الآيات ١٤١ — ١٥٢ سورة الأعراف .

السخرية تفترض انهم لو كانوا يملكون جانبا من ملك عظيم ، فانهم مع ملكهم الكبير حينئذ ، ومع ما يؤلف في خلق الملوك والأمراء من سخاء وبسطة في العطاء ، ومع ما يوجبه وضع الملك أو من يحتل مكانته من رعاية لشعبه وعناية بأمره ، لو كان اليهود في هذا الوضع يملكون هذا الملك ، لما أعطوا أحدا نقيرا ، والنقير النقرة في ظهر النواة (١) ، وفي هذه المبالغة غاية السخرية ، حيث لم يقف التصوير عند حد انهم يمنعون العطاء حينئذ ، أو لا يبذلون أدنى عطاء ، أو شيء من ذلك ، وانما عمد الى هذه الصورة التي لا يراد بها حقيقتها ، فان طالب العطاء لا يطلب نقرة من ظهر نواة ، ولا يطلب النواة نفسها ، والمعطى لا يفكر أن يعطى ذلك ، وانما المراد بها التعبير عن أقصى مايتصوره العقل من الشح لوصف اليهود به تعبيرا عن طبيعتهم ، والاشارة الى انهم في حرصهم وبخلهم الجامح الشديد لا ينظرون الى قيمة ما قد يعطى ، اى ليس المانع لهم من البذل والعطاء قيمة الشيء الذى يضنون ويبخلون به ، فسواء في بخلهم الشيء الكبير والشيء الصغير ، والثمين والتافه ، وانما المانع لهم من البذل هو شعور نفسي مسيطر بالحرص على كل شيء والضن به ، ســـواء أكان ذا قيمة أم لم يكن ، وبالاضافة الى ما تحمله هذه المبالغة من سخرية ، فهناك سخرية أخرى ، هي المفارقة الكبيرة بين ما يملكونه مفترضا ، وهو نصيب من ملك عظيم ، وبين ما يضنون ويبخلون به وهو نقرة في ظهر نواة ، وهناك مفارقة ثالثة ساخرة ، وهي انهم لا يكتفون بهذا البخل الذى لا تحمل الأرض شرا منه ، ولا يقفون عند حد أن يقصروا الخير على أنفسهم ، وانما يؤلمهم أن يروا خيرا عند أحـــد ، ويتمنون حينئذ أن يحاز لهم هذا الخير أيضـــا ، ومن أمثلة ذلك حســـدهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله ، حسدوهم على نبوة محمد ، وعلى ما آتاهم الله من ذكر ومجد ، مع ان الله آتاهم قبـــل ذلك من هذا الخير شيئا كثيرا ، ولكنهم يحسدون محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويحسدون العرب على نبوة أشرقت فيهم ، فيقول القرآن الكريم « أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا ، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » (٢) .

والآيات السابقة التى يتطاول اليهود فيها الى الطعن في ذات الله سبحانه مما لم يلجأ اليه أحد غيرهم من الكافرين ، تبدو فيها روح النهم الشديد الى المال والحرص عليه ، وهو أبرز مظاهر البخل والشح ، فهم يتهمون الله سبحانه بالبخل ، مع انه أعطاهم من كل أنواع الخير والنعم مالم يعطه أحدا غيرهم ، ولكن نهمهم وحرصهم لا يقف عند حد ، ويسخر القرآن الكريم من نهمهم هذا الشديد ، وطلبهم الزيادة التى لا غاية لها ، فيؤكد انه سيزيدهم ، ولكن ليس

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى ٤٠٣/١ .
(٢) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ سورة النساء .

مالا ، وانما يزيدهم طغيانا ويزيدهم كفرا » وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشـــاء وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفاها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين » (١) ٠

وكذلك حين يصل بهم اليأس من تحقيق نهمهم وطمعهم الذى لا حد له الى الطعن فى ذات الله سبحانه بأنه فقير وهم أغنياء ، فى قوله تعالى « لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (٢) ٠

٣ ـ الغـــــدر :

حين نريد محاولة فهم الدافع الى الغدر ، ينبغى أن نفهم الدافع الى مقابله وهو الوفاء ، فالوفاء خلق صعب لأنه مقترن دائما بتضحية ومشقة ، أيا كان نوع هذه المشقة ، وأيا كان مقدار التضحية ، فالذى يتحمل هذه التضحية للحفاظ على خلق الوفاء ، لا يتحملها جزافا ، ولا اعتباطا ، وانما يتحملها للحفاظ على شيء أثمن منها ، وهذا أمر منطقى فى كل تضحية ، فالانسان لا يضحى بشيء الا اذا كان يطلب شيئا خيرا منه ، او يحافظ بهذه التضحية على شيء أثمن مما ضحى به ، فقد يلتزم المرء الوفاء ، حفظا لكرامته ومروءته ومنزلته بين الناس ، كالقصص المشهورة عن وفاء بعض زعماء العرب وسادتهم ، حين كان يصل الوفاء بهم احيانا الى حد التضحية بالمال الكثير ، وبالولد ، وبالنفس ، ومن الواضح انهم لا يتحملون هذه التضحية لمجرد انها تضحية ، وانما للمحافظة على ما هو أثمن منها ، وهو منزلة هذا السيد ، وذكره بين الناس ، وهو يرى ان كل ما يبذله من تضحية مهما تكن ثمينة أهون من أن ينحط قدره بين الناس بما يؤثر عنه من غدر ، بل كثيرا ماكان بعض المضحين بأثمن ما يملكون من أجل الوفاء يصرح بانه انما ضحى بما ضحى مخافة أن يؤثر أو يروى عنه الغدر أى ولو بعد موته ، فمحافظته على ذكره بعد موته تدفعه الى التضحية بكل شيء ، وقد يكون الدافع الى الوفاء ، والتضحية من أجل العقيدة ، حين يحس أن اخلاله بالوفاء اخلال بعقيدته ودينه ، وهكذا نجد التمسك بخلق الوفاء انما ينبع من اعتزاز بالذات ، أو بالعقيدة ، وما يتعلق بهما ، والتضحية فى سبيله تضحية فى سبيل الاعتزاز بهما ٠

واليهود كما سبق لايحملون اعتزازا بالعقيدة ولا حتى شعورا بها ، ولا

---

(١) الآية ٦٤ سورة المائدة ٠
(٢) يتان ١٨١ ، ١٨٢ سورة آل عمران ٠

يحملون اعتزازا بالذات ، ولا حتى احتراما لها ، وقد رأينا فيما ساقه بحث (ريك)عن اليهود أنهم لا يعتقدون في أنفسهم الا التعاسة والضعف والشذوذ وضيق الأفق وصفات اخرى مما لايتفق قط وأى شعور باحترام الذات أو الاعتزاز بها أو الحفاظ على كيان ادبي معنوى لها ، واذا كان اليهود يفقدون كل ما يدفع الناس الى الوفاء والتضحية من أجله ، فهم اذن من البدهى المتوقع الا يحملوا خلق الوفاء ، بل نتوقع ان يحملوا مقابله وهو الغدر .

ولكننا حين نلجا الى شيء من تحليل لطبيعة اليهود نجد أنهم ليسوا فحسب فاقدين لدوافع الوفاء ، بل نجدهم حاملين لدوافع الغدر كأشد ما تكون الدوافع أيضا ، ومن ذلك سيطرة حب الذات ، وصفات أخرى منها طبيعة العدوان ، وكل ذلك اذا أضيف الى فقد مقومات الوفاء ودوافعه انتج الغدر .

فالغدر في خلق اليهود ليس مجرد عجز او عدم استعداد للوفاء ، وليس مجرد سلوك تدفع اليه الظروف ، أعنى ليس مجرد استعداد للغدر اذا أتاحت له الظروف أن يبرز ، وانما هو خلق أساسي ايجابى متحرك فى نفوسهم ، فهم لاينتظرون أن تسنح الفرصـــة للغدر ، وانما يخلقون الفرصة ليزاولوا فيها خلقا مسيطرا على نفوسهم هو الغدر ، والفرق غير هين بين الاستعداد لسلوك معين ، وبين مزاولة هذا السلوك ، رغم أنهما من مجال واحد ، كالفرق مثلا بين شخص لديه استعداد للانحراف الجنسى أو للسرقة اذا أتاحت له الظروف ذلك ، وبين شخص يزاولهما فعلا وتعودا ، أو يخلق الظروف لمزاولتهما،فرغم ان الشخصين يعتبران من الشريرين ، الا أن شرهما يتفاوت فى الدرجة ، والقرآن الكريم نفسه يشير الى هذه التفرقة فى خلق اليهود ، والى التفاوت الكبير بين شرهم ، وشر غيرهم من الشريرين ، فيقـــول « وترى كثيرا منهم يسارعون فى الاثـــم والعدوان وأكلهـــم السحت لبئس ما كانـــوا يعملون ، لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون » (١) ويعلق المفسرون على مايفيده لفظ (يصنعون) فى خلق اليهود ، ووجود الدافع القوى الى الاثم فى نفوسهم مما يتميزون به عن سائر مرتكبى الآثام ، فيقول الزمخشرى مثلا فى شرح « لبئس ما كانوا يصنعون » (كأنهم جعلوا آثم من مرتكبى المناكير، لأن كل عامل لايسمى صانعا ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب، وينسب اليه ، وكأن المعنى فى ذلك أن مواقع المعصية معه الشهوة التى تدعوه اليها وتحمله على ارتكابها » (٢) .

وشهرة اليهود بالغدر واضحة فى كل العصور ، حتى أصبحوا مضرب المثل فيه ، كما يضرب على بن أبى طالب رضى الله عنه المثل بغدرهم ، فى حديثه

---

(١)الآيتان ٦٢ ، ٦٣ سورة المائدة .
(٢) الكشاف ٥٠٩/١ .

عن مروان بن الحكم وخوفه من غدره الذى جربه « لا حاجة لى فى بيعته ، أنها كف يهودية ، لو بايعني بكفه ، لغدر بسبته » (١) ٠

ومن أوضح أسباب الغدر فى نفوس اليهود نظرتهم العدائية الشديدة الى سائر الشعوب ممن هم سواهم ، فهم يرون كل الناس اعداء ، ولايرون فى أحد صديقا أو مسالما ، يستحق الحرص معه على عهد أو ذمة ، كما يقول (ريك) عن شعور اليهود نحو الناس جميعا ، متحدثا عن بعض ما يكمن فى نفوسهم « تكمن ميول عدوانية حادة ضد الشعوب الأخرى أو ضد الكفار على حد تعبير اليهود أنفسهم » (٢) ٠

والقرآن الكريم يشير كثيرا الى الروح العدائية العنيفة التى يحملها اليهود للناس جميعا ، من خلال حديثه عن طبيعة العدوان كما سيأتى ، ويتحدث القرآن عن مثل شعورهم هذا ، وهو شعورهم نحو العرب ، فيصور القرآن أهل الكتاب فريقين ، فريقا فيه وفاء كامل ، وفريقا تنصب عليه سخرية القرآن وهو الفاقد للوفاء ، الحريص على الغدر ، وهم اليهود فتصور السخرية الواحد منهم ، وقد أؤتمن على دينار واحد ، ثم يجيئه صاحب الدينار الذى وثق فيه وجعله عنده امانة ، يطالبه الوفاء به ، فاذا هو يجحد أو يلتوى ، ولن يؤدى الى صاحبه الدينار الا حينما تسد فى وجهه كل سبل الهروب بالدينار ، حين يخشى ان يوقع به صاحب الدينار ، أو يجبهه بالغدر أمام الناس ، مما يفقدهم ثقتهم فيه ، فتكسد تجارته ، أو يشل تعامله معهم ، والصورة البالغة التهكم من غدر اليهودى فى سخرية القرآن ، ان نرى اليهودى لا يخرج الدينار قط ، ولا يرده الى صاحبه ، الا فى حالة معينة ، هى أن يدوم وقوف صاحب الدينار على اليهودى الى أمد لاحد له، قيام غير موقوت بزمن وكأنه الدهر وكأن من يأتمن يهوديا على دينار واحد ، يستعد للتفرغ لليهودى ، والقيام عليه دهرا أو زمنا غير قصير ، ثم يبين القرآن السبب فى هذا الجحود والغدر وهو امتلاء نفوس اليهود بالعداء والنفور من غيرهم ، وبهذا الشعور الذى يسيطر على نفوسهم ، لا يرون لأحد ذمة ، ولا رابطة ولا أى نوع منأنواع الأسباب التى تربط انسانا بآخر ، بل هم يستحلون لأنفسهم كل شىء لغيرهم ، ولا يرون فى ذلك جورا عن الخلق ، ولا مجافاة لأى معنى كريم ، ويجعلون شعارهم « ليس علينا فى الأميين سبيل » ويتخذون من هذه الفرية تضليلا لأنفسهم « ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين » (٣) وابن عباس يرى أن المراد بالأمين على القنطار أحد اليهود وهو عبد الله بن سلام ، فى قصة وفاء له ، ولكن بعض

(١) نهج البلاغة للشريف الرضى (من كلام الامام على) ص ٦٢ ، ٨٣ والسبة الاست ٠

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ١٣٤ ٠

(٣) الآيتان ٧٥ ، ٧٦ سورة آل عمران ٠

المفسرين يرون أن المراد بمن يشملهم الوفاء بالقنطار هم النصارى ، لغلبة الأمانة عليهم ، وان المراد بمن يشملهم جحود الدينار اليهود ، لغلبة الخيانة عليهم ، كما أن بعض المفسرين يرون المراد بالأميين العرب ، وأن اليهود يستحلون أموال العرب وحقوقهم ولا يرون في الاستحواذ عليها بأى صورة لوما او مذمة عليهم ، ولكن أكثر المفسرين يرون ان المراد بالأميين كل من هم سوى اليهود ، على أساس ان اليهود لا يعترفون بغير دينهم وعنصرهم ، ويرون كل من عداهم كافرا وعدوا، فهم يستحلون كل شيء ، لكل من سواهم ، ويرون هذا شريعة لهم أنزلها الله وأباحها لهم ، ولذلك يكذبهم الله سبحانه في قوله « ويقولون على الله الكذب » ويسجل عليهم أنهم يعلمون أن هذا كذب بقوله سبحانه « وهم يعلمون » (١) .

ويحدثنا القرآن الكريم بصـــورة تحمل غاية العجب من عدة جوانب في اليهود ، من خلو قلوبهم من كل شعور بالايمان والعقيدة ، ومن الغدر المستحكم في طبيعتهم ، والذى لا يفارقهم حتى مع الله سبحانه ، وحتى وهم في حال كان ينبغى أن يصطنعوا فيه الوفاء اصطناعا ، ومن تفاهة تفكيرهم ، وضيق افقهم الذى يتحدث عنه (ريك) فيما سبق ، وذلك في قصة تنجية الله سبحانه لهم من عذاب فرعون ، ومن الذل والخسف الشديد الذى كان يخيم على ليلهم ونهارهم، ولا ينجو منه رجالهم ولانساؤهم ولا أطفالهم ، ثم زادهم الله تعالى فوق ذلك من نعمه ما لم يكونوا يحلمون به ولا يدور لهم قط في خيال ، وكان معهم نبى من أعظم الأنبياء هو موسى عليه السلام ، وأحدث الله لهم معجزة ينجون بها من عذاب فرعون قلما يحدث مثلها لقوم على يد نبى من الأنبياء ، حيث شق الله سبحانه لموسى البحر ليجوز فيه قومه بنو اسرائيل ، وكان المنتظر من قوم يسبغ الله عليهم نعمة النجاة من مثل ماكانوا يذوقون من عذاب وهوان ، أن تمتلىء نفوسهم شكرا لله وايمانا به ، وكان المنتظر أن تظل صورة هذه المعجزة الكبرى في انشقاق البحر لهم ، ماثلة في ذهن كل فرد منهم لا تبرحه حتى يموت ، ولا يبرحه معها شكر وايمان بالله لاحد لهما ، ولكن ذلك كله لم يصل الى نفوسهم ، ولم يؤثر قط في قلوبهم ، لأن نفوسهم غير مستعدة للايمان مهما تهيأ لها من دواعى الايمان ، ولأن نفوســهم أيضا غير مستعدة للشكر والوفاء ، مهما يسبغ عليها من دواعى الشكر والوفاء ، بل هى متحفزة دائما لكل ما يناقض الخير في نفوس الناس ، فاذا هم فور خروجهم من البحر ، ولم تجف اقدامهم بعد ، ومعهم موسى عليه السلام ، يرون قوما يعبدون الأصنام ، فينسون الله ، وينسون فضله عليهم ، وينسون معجزته التى أجراها لينجيهم بها ، ويقولون لموسى اجعل لنا صنما نعبده كمـا يعبد هؤلاء آلهتهم ، ويصور القرآن هذه القصة مبتدئا اياها بذكر فضله العظيم الذى نسيه اليهود ومختتما اياها بذكر فضله أيضا وبين هذه الأفضال جميع يقبع غــدر اليهود وكفرهم وجحودهم لكل نعمة « وأورثنا القوم الذين كانــوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٢٨٧/١ .

على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون، وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير الله ابغيكم الها وهو فضلكم على العالمين ؟ ، واذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم ســـوء العذاب يقتلون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (١) ويشير علي بن أبي طالب الى هذه القصة حينما قال له يهودي : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه ، فيقول له علي : قلتم اجعل لنا الها قبل ان تجف أقدامكم (٢) .

ويتحدث القرآن الكريم أيضا عن غدرهم بمواثيق مؤكدة محددة عقدوها مع الله سبحانه ، وعدهم الله على الوفاء بها خيرا كثيرا ، ولكنهم نقضوا مواثيقهم مع الله وخانوها ، فحلت عليهم لعنة الله ، ولكن القرآن يؤكد أن غدرهم هذا أو ذاك ، ليس مجرد حوادث عارضة أو سلوكية ، وانما هو طبع غالب مســـيطر عليهم ، يدفعهم دائما الى الغدر ، ويملي عليهم الخيانة » ولا تزال تطلع على خائنة منهم » وفي التعبير بالمضارع في (تزال) وفي (لاتزال) أقصى ما يتصور من التعبير بغلبة الخيانة وتكرر حدوثها ، وكأن كل افعالهم خيانات ، بحيث لايفعلون الا الخيانة ، ولا يصدر عنهم غيرها ، وقد استثنى القرآن بعضا منهم لا يسري عليه هذا الحكم في الخيانة ، « الا قليلا منهم » ولكن التعبير يوحي بأن هذه القلة لا تعدو حالات فردية في نطاق الشذوذ عن الحكم السابق ، كالشذوذ في أي حكم أو قاعدة ، ومن الطبيعي الا يغفل القرآن الاشارة الى هذه القلة مهما قلت بحكم التزامه للدقة البالغة في كل أحكامه ، وكل تعبيره ، فيقول القرآن الكريم « ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » (٣) ويقول المفسرون عن معنى (خائنة) ، (على خائنة : على خيانة ، أو على فعلة ذات خيانة ، أو على نفس ، أو فرقة خائنة ، ويقال رجل خائنة كقولهم رجل راوية ، وقرئ على خيانة) (٤) .

ويوضح القرآن الكريم غلبة طبع الغدر والخيانة عليهم ، بأن هذا الطبع فيهم أقوى من كل حافز الى الوفاء ، فلا يمكن لشيء قط أن يصد اليهود عن الغدر ونقض الميثاق ، والدليل على ذلك أن الله سبحانه أخذ عليهم مواثيق أقروها

---

(١) الآيات ١٣٧ – ١٤١ سورة الأعراف .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ١١٨/٢ .

(٣) الآيتان ١٢ ، ١٣ سورة المائدة .

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري ٤٧٨/١ ، ٤٧٩ .

وأكدوها ، وزيادة فى حمل الله سبحانه لهم على الوفاء رفع الله فوقهم الطور ، وجعله مظلا عليهم « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم » ليخافوا فلا ينقضوا الميثاق (١) الغليظ الذى وثقته أيديهم كما يقول سبحانه « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » ولكن غلظ الميثاق ، ورفع الطور فوقهم ، لم يؤثر فى طبيعة الغدر المسيطرة على نفوسهم» ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدو فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنـــون الا قليلا (٢) وكيف لايكون اليهود كذلك فى عقيدتهم ، وفى خلقهم ، وهم أنفسهم يعترفون بأن قلوبهم وطبيعتهم لا يؤثر فيها شىء « وقولهم قلوبنا غلف » ويرد عليهم الله سبحانه ، بأنه لاينفعهم أن يتخذوا من طبيعتهم حجة يبرئون بها أنفسهم من مسئوليتهم عن كفرهم وغدرهم وسائر خلالهم الذميمة ، فمهما يكن استعداد الانسان ، ومهما يكن نوع نزعته أو طبيعته ، فلديه عقل أعطاه الله اياه ، ولديه ارادة توجه سلوكه كله ، فهو يستطيع أن يميز الخير من الشر ، وهو يستطيع أن يحدد لنفسه اى الطريقين يختار ، ولكن اليهود اختاروا الكفر فى العقيدة ، وما يلائم الكفر فى الخلق ، فختم الله على قلوبهم « وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم » وقولهم قلوبنا غلف » معناه أن الله خلق قلوبنا غلفا فى أكنة لا يتوصل اليها شىء من الذكر والموعظة (٣) ٠

٤ ــ العدوان :

قد يخالط النفوس شىء من عجب ، لسيطرة نزعة العدوان على سلالة عاشت تاريخها كله باستثناء فترات قليلة قصيرة ، ذليلة مهينة مستضعفة ، وقد يزداد العجب حينما نعلم أن هذه السلالة هى ذاتها لاتعتقد فى نفسها الا الضعف والهوان ومع ذلك تمتلىء نفوسها حبا ونزوعا الى العدوان ، وقد يقال ان هذا الشعور بالهوان الذى يملأ على اليهود نفوسهم ، هو الذى ولد فيهم نزعة العدوان ، من باب التعويض النفسى الذى يقرر حقيقته علماء النفس حيث يقولون « ان للناس ميلا غريبا لأن يعوضوا أوجه نقصهم الحقيقية أو المتخيلة بالسعى للحصول على التفوق فى نفس الميدان الذى يظهر فيه نقصهم » (٤) واليهود عاشوا مستذلين مستضعفين ، ويسيطر على نفوسهم الشعور بالضعف والذل ، فيمكن أن يقال أن نزوعهم الى العدوان تعويض لشعورهم بالضعف والذل والاضطهاد كما سبقت الاشارة الى ذلك فى بحث (ريك) ، ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها أن نزعة العدوان فى نفوس اليهود أقوى من أى صورة من صور التعويض النفسى ، ولئن كان علماء النفس يعرفون أن التعويض النفسى يكون قوة وضعفا بمقدار الشعور

---

(١) انظر الكشاف ٤٥٣/١ ٠

(٢) الآيتان ١٥٤ ، ١٥٥ سورة النساء ٠

(٣) الكشاف للزمخشرى ٤٥٤/١ ٠

(٤) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة ١ براون ترجمة مجموعة ص ٣٦٤ ٠

بنقيضه في النفس ، كما يقولون « عندما يحس الفرد بالنقص احساسا عميقا فانه يميل لأن يعوض تعويضا زائدا » (١) مما يمكن ان يقال معه ان قوة نزعة العدوان في اليهود انما هي اثر لقوة شعورهم بالضعف والاضطهاد ، ولكن مع ذلك أيضا نجد أن نزعة العدوان في نفوس اليهود تتخذ أكثر من شكل وطابع ، وأعمق من الصور المألوفة في التعويض النفسي ، فالباحثون يلاحظون أن نزعة العدوان في اليهود تبلغ من عمقها وتغلغلها أنها تنبع أولا من عداء الذات ، بمعنى ان نزعة العدوان في اليهود تتجه أولا اليهم هم ، فهم يضمرون لأنفسهم ميلا عدوانيا حادا. كما يقول (ريك) في معرض حديثه عن الفكاهة اليهودية « ان الفكاهة اليهودية تنطوي على شعور بنقائص الذات ، وعيوب النفس ، ويتمثل هذا في روح نقدية عند اليهود ، ولكن وراء هذه الروح النقدية التي تعبر عنها الفكاهة اليهودية تكمن ميول عدوانية حادة ضد النفس وهذه بدورها تكشف عن ميول عدائية قوية ضد الشعوب الأخرى » (٢) ، وحيث كانت نزعة العدوان اليهودية تبلغ من عمقها وتغلغلها هذه الدرجة ، فانها تبلغ من جموحها وتطرفها الى درجة أنها تتجه نحو الله سبحانه ، بمعنى أن عدوانهم لا يقف عند حد البشر ، وانما يوجهونه نحو الله ، وتبدو آثار نزعة العدوان فيهم ، في مظاهر عديدة ، حتى في فكاهاتهم ، ومن ذلك قول (ريك) في بحثه عن الفكاهة اليهودية « وقد لا يقف العدوان في أمثال هذه النكات عند حدود الخصوم البشريين ، بل هو قد يمتد أيضا نحو قوة تتخذ في نظر اليهود صورة الطاغية الاكبر ونعني بهذه القوة (الله) نفسه » (٣) ويقول باحث آخر هو (فلوجل) أيضا « ان وراء النقد الذاتي — في الفكاهة اليهودية — تكمن نزعة شكية عدائية تتجه نحو الدين بل نحو الله نفسه باعتباره — عند اليهود — المخادع الأكبر الذي يضلل عباده بالوعود المعسولة التي لن تتحقق يوما » ويواصل فلوجل حديثه عن غريزة العدوان في اليهود معلقا على قصة العجوز اليهودي الذي جمع أولاده عند موته موصيا اياهم بعدم الثقة في الله وفي الدين عامة ، في صورة سخريته من وعود الله للناس بالنعيم في الآخرة ، يقول فلوجل « نجد في مثال اليهودي المحتضر ان ثمة عناصر عدوانية تمردية تظهر لديه للمرة الأولى فتكشف بذلك عن انفجار مفاجيء لطاقاته العدوانية التي ظلت حبيسة طوال حياته » (٤) فالباحثون اذن يلاحظون أن النفس اليهودية تتغلغل فيها (طاقات عدوانية) وأن هذه الطاقات المتغلغلة العميقة لاتقف عند شيء ، ولا تستثني أحدا ، بل تمتد من حامل هذه الطاقات الى الله سبحانه ، فاليهودي يحمل العدوان لنفسه ، ويصوبه نحو الناس جميعا ، بل يرتفع به نحو الله تعالى ، ومعنى ذلك أن طاقات العدوان في النفس اليهودية مسيطرة عليها سيطرة غالبة قاهرة ، واذا بلغت سيطرة نزعة

---

(١) المصدر السابق ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٢٣٤ .

(٣) المصدر السابق ١٣٦ .

(٤) المصدر السابق .

العدوان هذه الدرجة لم يكن غريبا أن تشمل صاحبها نفسه ، وأن تمتد نحو الله ، ولنضرب مثالا بشخص قد يكون معروفا عند كثير من الناس ، وقد يكون فهم شخصيته على ضـــوء هذه المعرفة ســـهلا ميسورا ، هـــذا الشخص ليس يهوديا ، وانما هو عربى معدود فى المسلمين ، هو الحطيئة ، فقد سيطرت على نفسه نزعة عدوانية تمثلت فى الهجاء ، فلم يكد يسلم من هجائه أحد ممن عرفوه واتصلوا به ، حتى أصبح الناس يتحاشونه ويتوجسون منه ، او يتلمســـون الوسيلة الى اتقاء شر لسانه ان لم يجدوا الى تحاشيه ســـبيلا ، ولكن نزعته العدائية لم يسلم منها حتى أقرب الناس اليه ، حتى زوجه هجاها بمثل قوله :

اطوف ما اطوف ثم آوى　　الى بيت قعيـــدته لـــكاع

ولتغلغل نزعة العدوان فى نفسه ، لم يسلم هو من لسانه ، فهجا وجهه حين رآه فى المرآة بمثل قوله « فقبح من وجه وقبح حامله » ومعنى ذلك ان نزعته العدوانية كانت متجهة حتى الى نفسه ، وامتدت هذه النزعة أيضا الى الدين ، فمع أنه كان معاصرا للنبى صلى الله عليه وسلم ، الا أن بعض الرواة يؤكدون انه لم يســـلم وانما ظـــل على الشرك والجاهلية ، ثم انضم الى المرتدين يحارب الاسلام بلسانه ، ومن ذلك ما يرويه الرواة من شعره :

اطعنا رســـول الله اذ كان بيننـــا
فيـــا لهفتى ما بـــال دين ابى بـــكر
أيورثها بكرا اذا مات بعـــده
فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

وحتى بعـــد أن أســـلم مع المرتدين كان كما يقول الدكتور طه حســـين « ولكنه اضطر حين انهزم المرتدون الى أن يذعن لما اذعنت له العرب ، ويدخل فيما دخل فيه الناس ، فاتخذ لنفسه من الاسلام رداء ، لم يشك الرواة فى أنه كان رقيقا جدا يشف عما تحته من حب الجاهلية وايثارها والحزن الشديد عليها » (١) ، فقد كان من سيطرة نزعة العدوان فى نفس الحطيئة أن تغلغلت حتى شملت شخصه هو ، وانبسطت حتى شملت كل الناس ممن أتيح له أن يبرز لهم هذه النزعة ، ثم امتدت حتى شملت الدين ويتبع ذلك أنها اتجهت نحو الله سبحانه .

ويشير الباحثون فى تحليلهم لشخصية الحطيئة ، وتعليل هذا السخط الشديد الذى صبه على كل شىء ، وفرقه فى كل وجه ، حتى شمل شخصه ، وامتد نحو الدين ، ونحو ذات الله . بأن الحطيئة كان يعيش حياة مهينة أقرب الى البؤس والذل ، فقد عاش أغلب حياته بائسا محروما مجهدا مرهقـــا من السعى وراء أيسر ضرورات العيش والحياة ، وكان مجهول النسب ، فى بيئة

---

(١) حديث الأربعاء ١٥٧/١ وانظر ترجمته فى مراجع الأدب .

يتحدد فيها وضع كل فرد في المجتمع ، بموضعه من النسب ، وكان فوق ذلك يحمل جسما وشكلا غير مقبولين ، ولا مرضيا عنهما من العيون ، فقد كان الحطيئة قصيرا جدا ولهذا سمى الحطيئة ، وكان دميما قبيح المنظر ، مشوه الخلق ، بشع الصورة ، وكل ذلك يرى فيه الباحثون سببا لسيطرة نزعة العدوان والهجاء على الحطيئة (١) ٠

واذن فليس غريبا أن تكون نزعة العدوان في اليهود من السيطرة على النفس بحيث تشمل ذات صاحبها ، وبحيث توجه الى كل من يمكن أن يعادى ، او حتى تتخيل عداوته خيالا ، كما في عداء اليهود لله سبحانه ، فمما لا شك فيه أن عداء اليهود أو غيرهم لله ليس ذا قيمة ولا أثر ، بل لايسمى فى حقيقته عدوانا ، وان سمي كراهة أو بغضا ٠

ويعلل القرآن الكريم كل ما صبه الله سبحانه على اليهود من غضب ، وما وصمهم به من لعنة وخزى بسببين مستحكمين في طبيعة اليهود ، وغالبين على سلوكهم ، أحدهما يتعلق بالعقيدة والصلة بالله ٠ والآخر هو طبيعة العدوان المسيطرة على نفوسهم ، فيقول القرآن الكريم « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٢) فانبياؤهم أول من صب اللعنات عليهم ، لأنهم أكثر الناس ابتلاء بهاتين الصفتين فيهم ، الكفر ، والعدوان ، فقد كانوا ينتظرون من الرسل أن يؤيدوهم فيما يفعلون ، وان يسيروا على هواهم ، ولكن الرسل بالطبع انما جاءوا ليغيروا هوى اليهود ، ويقربوهم من الهدى ، لا ليشاركوهم أو يؤيدوهم في هواهم ، وحينئذ لايكون مصير النبي الا أحد أمرين ، ان يكذب ويعادى ويؤذى ، أو يقتل فيقول القرآن « لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وارسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بمالا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » (٣) فلا يملك الرسل الا ان يصبوا لعناتهم على هؤلاء الذين سيطرت عليهم أهواؤهم ونزعاتهم وسدروا فى غيهم وضلالهم ، وبعض هؤلاء الرسل كان لعن اليهود عندهما مسجلا فى كتب ، وهما داود الذى سجل لعن اليهود في زبوره ، وعيسى الذى سجل لعنهم فى انجيله ، ونلاحظ أن الآية فى حديثها عما أخذه الله على اليهود ، قد جمعت صفات اليهود وخلقهم مجملا فى كلمتين (عصوا) والأخرى (كانوا يعتدون) فكل ما عرف عن اليهود من عدم استعداد نفوسهم للدين والايمان وما يتبع ذلك ، قد جمع فى قوله تعالى « عصوا » وكل ما يبدو للناس من خلق اليهود يمكن أن يجمل ، وأن يكون عنوانه « كانوا يعتدون » فالوصف الأول يبين صلتهم بالله ، والوصف الثانى

---

(١) انظر حديث الأربعاء للدكتور طه حسين ١/١٥٣ – ١٦٠ ٠

(٢) الآية ٧٨ سورة المائدة ٠

(٣) الآية ٧٠ سورة المائدة ٠

يبين نوع صلتهم بالناس ، وحصر هذه الصلة فى العدوان يوحى بأن اليهود ، كأنهم لاتربطهم بالناس أى رابطة الا العدوان ، ان كان يصح للعدوان أن يسمى رابطة ، وكأن الناس لا يحسون ولا يرون من اليهود أى صفة أو عمل أو سلوك الا العدوان .

وتلاحظ أيضا أن الوصف الأول لما كان متعلقا بعقيدة اليهود وايمانهم ، عبر عنه بلفظ الماضى ، وهو (عصوا) لأن وجود العقيدة فى شخص ، أو انتفاءها عنه ، شيء ثابت ، غير قابل للتغيير أو التجديد ، من حيث استعداد النفس للايمان ، أو عدم استعدادها ، ولكن الصفة الثانية فى اليهود ، وهى العدوان ، لما كانت أمرا متجددا ، متكررا فى حدوثه ووقوعه ، فقد عبر عنه بالمضارع الذى يفيد التجدد والحدوث بلفظ (يعتدون) ولكن اقتران لفظ (كان) به يضفى عليه صفة القوة البالغة ، وثبات النزعة التى يصدر عنها العدوان ، وكأن التعبير فى قوله تعالى (كانوا يعتدون) يفيد ان عدوان اليهود دائم ومتجدد ومتنوع ، وذلك بما يفيده المضارع ، ويفيد التعبير أيضا أن هذا العدوان ليس مجرد حوادث سلوكية أو فردية ، وانما هو شيء متمكن من الطبع ، نابع من استعداد قوى فى النفس ، وطبيعة مسيطرة عليها ، فى معنى الكون والوجود الذى يستفاد من لفظ (كانوا) ، ولذلك تجد ما بعد هذه الآية يؤكد الصفتين السابقتين فى الآية ، فالعدوان من حيث انه سلوك يدعمه قوله تعالى بعد الآية السابقة « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وناحية صلتهم بالله المشار اليها بقوله تعالى « بما عصوا » يؤكدها قوله تعالى بعد الآية السابقة « ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون » ثم يبرز القرآن نوعا معينا من العداوة التى تمليها عليهم نزعة العدوان ، وهو عداؤهم للمؤمنين ، فى قوله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا » (١) ، ومع أن المفسرين يحملون (الذين آمنوا) على أن المراد بهم المسلمون ، الا أن التعبير فى الواقع أوسع من ذلك مدلولا ، ويمكن أن تفهم (الذين آمنوا) على أن المراد بهم كل من اتصف بالايمان ، سواء كان من المسلمين أو غيرهم ، ويكون المسلمون حينئذ مجرد بعض من المؤمنين ، وتكون نزعة العدوان اليهودى لا تستهدف المسلمين كأفراد أو كجماعة ، بقدر ما تستهدف حرب الايمان فيهم ، فهم يحاربون الايمان نفسه قبل أن يحاربوا المتصفين به ، ويمكن ان يقال أيضا انه انما كانت عداوة اليهود للمسلمين أشد من عداتهم لغير المسلمين ، لانهم رأوا المسلمين أقوى ايمانا من غيرهم ، حتى كانوا كما وصفهم الله بقوله « كنتم خير أمة أخرجت

---

(١) من الآية ٨٢ سورة المائدة .

للناس » . وهذا المعنى العام الذى يمكن أن نحمل عليه المراد من (الذين آمنوا) اقرب الى طبيعة اليهود وواقعهم ، اقرب الى طبيعتهم لأن نزعة العدوان فيهم اصيلة متمكنة ، ومتجهة الى كل الناس ، وكل الطوائف وكل الأديان على وجه الخصوص ، واقرب الى واقعهم لأن اليهود فى تاريخهم كله اثبتوا انهم أشد الناس عداوة لأصحاب الأديان والمؤمنين ، ولم يلق المسيح عليه السلام واتباعه مثلا من أحد عداوة واضطهادا كما لقوا من اليهود ، وليس عداؤهم للايمان لذاته غريبا ونفوسهم على ما هى عليه من خلوها من الاستعداد للايمان، ونفورها من الايمان كما سبق .

والله سبحانه بعدله وحكمته ، يجعل جزاء اليهود مناسبا لجرائمهم ، فكفرهم بالله ، جزاؤه غضب الله عليهم ، وكفى به جزاء رادعا رهيبا ، وعدوانهم الدائم جزاؤه ان كتب الله عليهم الذلة والمسكنة وكفى به نتيجة للبغى والعدوان ، ففى موضع آخر من القرآن الكريم تجد الصفتين السابقتين وهما « عصوا وكانوا يعتدون » نجدهما أيضا يحصران طبيعة اليهود الدينية ، ونظرتهم الى غيرهم من الناس ، وهما أيضا مصدر غضب الله وغضب الناس عليهم ، فيقول القرآن الكريم « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (١) ، ونلاحظ أن هذه المعانى تتدرج فى تسلسل منطقى ينتهى الى تحليل لنفوس اليهود وطبيعتهم ، فالله سبحانه حكم عليهم بالذل والمسكنة وأحل عليهم غضبه « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » وهذا الجزاء استحقوه لما صدر منهم من كبريات الجرائم والذنوب ، وهذه الجرائم ممثلة فى ناحيتين ، احداهما كفرهم بالله وآياته « ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله » والأخرى عدوانهم على الأنبياء فى أقصى صور العدوان وهو القتل ، مع انهم ليسوا أشخاصا عاديين ، وانما هم رسل من عند الله ، فليس فى قتلهم أى حجة او شبهة حجة لدى اليهود فى قتلهم « وقتلهم النبيين بغير الحق » وتواصل الآية الكريمة تسلسلها المنطقى الذى ينتهى الى تحليل طبيعة اليهود ، فتبين أن الناحيتين السابقتين وان كانا فى مظهرهما سلوكا وعملا محسوسا يتمثل فى التكذيب بآيات الله وقتل الأنبياء ، الا انهما لم يصدرا من اليهود عن انفعال أو شعور طارىء أو وقتى ، وانما صدرا عن طبيعتين ملازمتين لليهود ، ومسيطرتين على نفوسهم ، وهما خلو نفوسهم من العقيدة الدينية بمعناها الصحيح ، ونزعة العدوان التى تلازم نفوسهم دائما ، وتدفعهم الى مزاولة ما يشبع هذه النزعة ، فى أى صورة ، وفى كل اتجاه ، وحيث كانتا طبيعتين فى اليهود ، فهما صفتان ملازمتان لهم ، كما يقول الامام الغزالى عن لزوم الطبع للانسان « والطبع عبارة عن صفة

---

(١) من الآية ٦١ سورة البقرة

مركوزة فى الأجسام حالة فيها » (١) ، وقد بينت الآية الطبعين المركوزين فى اليهود ، واللذين نبعت منهما جرائمهم السابقة التى استحقوا من أجلها الجزاء الذى بدئت به المعانى ، وهما ما ذكر فى الآية السابقة من قوله تعالى « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ·

ومن صور عدوان اليهود مما ينبىء عن نفسيتهم ما سبق الحديث عنه من الآية الكريمة « ومنهم من ان تأمنه بدينار لايؤده اليك الا مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » فهم يعتدون بدافع النزعة الطبيعية فيهم ، ولكنهم يفترون على الله ، فيدعون انه رخص لهم فى العدوان على كل من سواهم (٢) ·

وليس مما يتبادر الى ذهن عاقل ان نزعة العدوان وسيطرتها تدل على قوة ، أو شىء من شجاعة ، فنزعة العدوان رذيلة ولا شك ، وأما الشجاعة ففضيلة واضحة ، وهما عكسان لايجتمعان فى شىء واحد ، كما أن مصدريهما متباينان أيضا ، فالشجاعة مصدرها شعور بالقوة فى النفس ، ونزعة العدوان مصدرها الشعور بالضعف ، والقرآن الكريم يظهرنا على مدى شعور اليهود بالضعف مع ما فيهم من حب للعدوان ، فيروى القرآن عنهم حادثا لايخلو أسلوب صياغته من سخرية باليهود ، وهو حادثهم مع الجبابرة ، حينما أراد الله سبحانه أن يزيدهم فضلا ونعمة فوق اخراجهم من سلطان فرعون وتعذيبه، فوعدهم دخول الأرض المقدسة ، على أن يجاهدوا من فيها من أعداء الله ، وأكد الله سبحانه لهم على لسان موسى النصر والغلبة ودخول الأرض ان قاتلوا من فيها ، وأخذ موسى يذكرهم بوعد الله الذى لايخيب ، وأخذ يبعث فى نفوسهم القوة ، ويبث فيها الحمية مذكرا اياهم بمجد أعطاه الله لهم وملك وفضل عظيم ، ميسرا لهم الأمر ، بأن الله سيتولى عنهم كل جهد فى القتال ، وأنهم لا محالة منتصرون داخلون ، وانما هو أداء سنة الله فى الأمور ، أن يقاتلوا ليبدوا للناس أنهم جاهدوا وانتصروا ، وانتظر موسى منهم الجواب بعد هذه الموعظة ، واذا جوابهم يثير السخرية والضحك ، حيث رفضوا مؤكدين فى رفضهم حتى مجرد الدخول ، الا بشرط فى غاية العجب ، وهو ان يخرج الجبابرة الذين يسكنون هذه الأرض منها بدون قتال ، ويتركوها لهم طواعية ، أو يحدث الله لهم معجزة أخرى ينتج عنها أن ينظروا فاذا الجبابرة خارج هذه الأرض ، وفى كل الاحوال لن يقاتلوا ، ولن يواجهوا أحدا فى القتال ، ولكن اذا خرج الجبابرة فانهم سيدخلون ، ثم جاءهم رجلان اثنان ألقى الله فى قلبيهما شجاعة وقوة ، أخذا يبثان فيهما القوة والحماس ، ويؤكدان لهم أنهم لن يبذلوا جهدا ولا قتالا ، وانهم لن يفعلوا أكثر من اقتحام الباب على الجبابرة ، وان

---

(١) مشكاة الأنوار لأبى حامد الغزالى ص ٨٥ ·

(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى فى الآية ٧٥ سورة آل عمران ·

مجرد هذا الاقتحام ضامن لهم النصر والغلبة ، فاعرضوا عن هذين المؤمنين : وعادوا الى موسى بقول يثير السخرية والضحك أكثر مما يثيره قولهم الأول ، حيث أكدوا لموسى مرة أخرى أنه لاينبغي أن يتعب هو أو غيره نفسه في اقناعهم أو تشجيعهم « انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها » ولكنهم زادوا طلبا أكثر غرابة وعجبا ، حيث صوروا الله سبحانه في صورة شخص مقاتل ، وطلبوا من موسى أن يذهب هو وربه لقتال هؤلاء القوم ، والا فلا ينبغي أن يطلب منهم قتالا « اذهب أنت وربك فقاتلا » ويجوز أن يقصدوا بهذا الأسلوب الاستهزاء والسخرية من موسى وربه ، والمفسرون يرون التعبير محتملا للمعنيين (١) ، ولكن المعنى الأول على غرابته في العقول ، يتفق مع نظرتهم وتصورهم لذات الله سبحانه ، كما صوروه سبحانه في تحريفهم للتوراة ، حيث صوروه شخصا عاديا يفعل ما يفعله الأشخاص ، ومن ذلك تصويرهم له سبحانه مختبئا وراء شجرة في قصة خروج آدم من الجنة ، ثم يختمون حديثهم الى موسى بأقصى ما يصور التعبير من عجز في قولهم « انا ها هنا قاعدون » والقصة في قوله تعالى « واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ، ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » (٢)

وأوضح ما يكون دليلا على أن نزعة العدوان في اليهود أبعد ما تكون عن الشعور بالقوة ، هذا الحرص الشديد على الحياة ، كما يصوره القرآن الكريم في قوله تعالى « قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون » (٣) ٠

٥ ــ نواح عامة :

سبق القول بأنه ليس في هذا الحديث استقصاء لخلق اليهود ، أو توفية لحديث القرآن عنهم ، وانما هو بمقدار ما يتعلق بالموضوع من النواحي البارزة

---

(١) انظر الكشاف للزمخشري ٤٨٢/١ ٠
(٢) الآيتان ٢٠ ــ ٢٤ سورة المائدة ٠
(٣) الآيات ٩٤ ــ ٩٦ سورة البقرة ٠

التى تعرضت لهاســــخرية القرآن فى عقيدة اليهود وخلقهم ، مع التمهيد للسخرية بما يبرز اصابتها للهدف ، واستحقاق اليهود لها .

وهناك نواح متفرقة فى عقيدة اليهود وخلقهم تدخل فى نطاق الموضوع ، ومن ذلك تجسيد القرآن لخلق اليهود فى صورة محسوسة مألوفة فى قبحها والنفور منها مما لم يؤلف تصــوير القرآن له بالنســبة لأحد غير اليهود ، ففى صــورة من هذه الصور ، يتحدث عن عدائهــم للمسلمين ، فيأمر بتوجيه سؤال محدد الى اليهود ، وهذا السؤال يضعهم فى مأزق شديد الحرج والصعوبة ، لأن الاجابة عنه دائنة لهم ، هذا السؤال هو أن يقال لليهود : هل أنكرتم من المسلمين شيئا قط فى خلق أو سلوك أو صلة بكم غير أنهم آمنوا بالله وبكتابه ، وآمنوا بما أنزل اليكم أنتم ؟ فهل تجدون سببا قط تعادون به المسلمين غير هذا السبب وسبب آخر ، هو أنكم لم توفقوا الى الايمان كما وفقوا هم ؟ وبالطبع لن يجيب اليهود ، لأن أى اجابة عادلة ستكون اعترافا بالحق ورجوعا الى الايمان ، وهم غير مستعدين لشىء من ذلك ، ولكن الحقيقة التى تبرز من خلال السؤال والعجز عن الجواب أن اليهود يعادون — كما سبق — الايمان لذاته لعــدم استعداد نفوسهم له ونفورها منه ، وهم لا يعادون المسلمين لأشخاصهم بقدر ما يعادونهم لكونهــم مؤمنين ، وتقوى هذا العــداء نزعة الحسد للمسلمين على ان أرســل الله اليهم نبيا عظيما ، واعطاهم مجدا عظيما ، وهدى مشرقا ، بينما يجد اليهود أنفسهم منبوذين فاســقين بكل ما يحمله المعنى اللغوى لكلمة (الفســق) من الخروج ، أعنى خروج اليهود عن كل خير ، وحيث كان وضــع اليهــود كذلك فلينظر الى الجزاء ، والجزاء يســوقه القرآن فى أسلوب ساخر متهكم ، فيجعل كل هذا الشذوذ ، وكل هذه الجرائم من اليهود كأنها أفعال حسنة تستحق الثواب ، فيعبر عن العقاب بالثواب تهكما واستهزاء باليهود « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ » وهذا الجزاء يتصب عليهم من كل جانب ، مصورا فى لعنة الله لهم ، وغضبه عليهم « من لعنه الله وغضب عليه » ، ثم تصور سخرية القرآن خلق اليهود المقترن بلعنة الله وغضبه ، فتجسمه تجسيما فى صورة أقبح حيوانين يضرب بهما المثل فى القبح الجسمى والخلقى ، وهما القــرد والخنزير « وجعل منهم القردة والخنازير » ومع اختلاف المفسرين فى المراد بذلك ، الا أنه انه من الواضح أن هذا مجرد تمثيل لخلق اليهود ، على أســـــاس أن القرد والخنزير من المعروف أنهما مضرب المثل فى قبح الشكل والخلق ، فخلق اليهود بتعدد نواحى السوء فيه ، وبلوغه من القبح مبلغا ينفردون به عن الناس جميعا أقرب فى التصوير والتجسيد الى هذين الحيوانين المعروفين بغاية القبح ، ولذلك اضافت الآية اليهما ما يتعلق بالعقيدة « وجعل منهم القردة والخنازير وعبــد الطاغوت » ليشمل فى اليهود الناحيتين ، الخلق ، والعقيدة ، ثم تواصــــل سخرية القرآن تعبيرها عن اليهود وشرهم ، فتقول ان اليهود شر كلهم ، حتى ان المكان الذى يحملهم نفسه شر ، وهذا غاية المبالغة فى وصف انسان أو شىء

بالشر « أولئك شر مكانا » ولئن كان يشارك اليهود آخرون في الكفر والضلال، فان اليهود أضل الناس قاطبة عن طريق الخير « وأضل عن سواء السبيل » ، ومع ذلك كله يحاول اليهود أن يخدعوا المسلمين وينافقوهم · يقول القرآن الكريم عما سبق من التمهيد « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ، قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القـــردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا واضل عن سواء الســـبيل ، واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون » (١) ·

ولكن اليهود مع كل ما فيهم من نقائص ، بل مع تجردهم من كل خير ، يصطنعون الهداية للناس ، ويزعمون أنهم يريدون أن يرشدوا الناس الى الخير، دون أن يفكروا قط في هداية أنفسهم ، أو حتى مجرد التفكير فيما هم فيه من ضلال ورذائل ، والقرآن يسخر من ذلك في قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟ » والهمزتان في (أتأمرون) ، (أفلا تعقلون ؟) يحملان أقصى التوبيخ والتعجب المشربين بالسخرية والتهكم من هذه المفارقة الكبيرة في قوم جمعوا كل الكفر والرذيلة ، ثم يدعون أنهم هداة ، ويلبسون أثواب الواعظين المرشدين ، وكما يقول الزمخشري عما توحيه الهمزتان (أتأمرون ، الهمز للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم) وكذلك (أفلا تعقلون ، توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه ، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول) (٢) ·

ونختم هذا الحديث عن اليهود بمثل ضربه الله سبحانه في رجل منهم ، ولكن المثل منطبق كل الانطباق على حال اليهود جميعا ، ولذلك وجه القرآن هذا المثل ليخاطب به اليهود كلهم « واتل عليهم » ، ضرب الله مثلا برجل آتاه من علمه وحكمته ما يشاء ، وكان يمكن أن يتخذ هذا الرجل من عظيم ما آتاه الله نورا يهتدي ويهدي به ، وكان يمكن أن يتخذ من ذلك لنفسه رفعة في الدنيا والآخرة ، ولكنه بدل أن يهتدي أمعن في الضلال ، وبدل أن يتجه الى الله اندفع الى الشيطان ، وبدل أن يسلك سبيل الله آثر الهوى وشهوة النفس وعكف عليها ، وبدل أن يرتفع الى صفوف الأخيار الأطهار انحط الى أدنى مرحلة والى أسوأ منزلة ، حتى انسلخ من الخلق الانساني ليصبح أشبه بالكلب في دناءته وخسته ، وتمعن سخرية القرآن في تصوير مآل هذا الشخص ، والحالة التي ألجأ نفسه اليها ، فلا تكتفي بتشبيهه بالكلب ، وانما تختار حالة معينة يتميز بها الكلب ، ولا تجد العقول لها تفسيرا ، وهي أنه يلهث دائما ، سواء تحمل جهدا أو لم يتحمل ، وهو منظر قبيح في الكلب ، ومصدر قبحه أنه لا تعليل

---

(١) الآيات ٥٩ ـ ٦١ سورة المائدة ·
(٢) الكشاف ٩٩/١ ، ١٠٠ ·

له ، الا أنها طبيعة فيه ، كذلك هذا اليهودى فى كل أحواله وقبحها لا تعليل لكل ما يصدر عنه الا أنه طبع فيه « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » (١) ، ويروى المفسرون أن المقصـود بهذا المثل رجـل من علماء بنى اسرائيل أو الكنعانيين ، اسـمه بلعم ابن باعوراء ، آتاه الله علمـا فكفر ، وأعان اليهود على موسى (٢) ولكن الآيات صريحة فى أن هذا المثل يمثل حال اليهود فى كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ، وأن الله جعله مثلا منطبقا عليهم « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » وهم اليهود، ولذلك أمر الله محمدا صلى الله عليـه وسلم أن يتلو عليهم مثلهـم هذا « واتل عليهم ... » ولا شك أن هذا المثل واضح الانطباق على اليهود ، لا فى تكذيبهم بالاسلام فحسب ، بل فى أمرهم كله ، فقد آتاهم الله كتابا سماويا ، وأرسل اليهم من الأنبياء ما لم يرسل الى غيرهم ، وآتاهم من فضله ونعمه الشىء الكثير العظيم ، وكان المتوقع ممن تهيأ له ذلك كله أن يرتفع فى دينه ودنياه ، ولكنهم آثروا الانحطاط الى أسفل على الارتفاع والعلو ، واختاروا دواعى الذلة والحطة على أسباب المروءة والفضل ، فكانوا حقا كهذا المثل الذى يعبر أبلغ تعبير عن اليهود ، والذى يغنى عن أى وصف أو اطناب عنهم ، « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ... » .

ولئن كان هذا مثلا لواحد منهم يعبر عن طبيعتهم وخلقهم ، فان هناك مثلا لهم جميعا ، يصور موقفهم من الدين ، ومن نعم الهداية التى يسرها الله لهم ، وأدناها منهم ، فلم يستفيدوا منها ، ولم يتأثروا بها ، فكان مثلهم فى ذلك هذه الصورة البالغة التعبير والتصوير والسخرية فى قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ... » .

---

(١) الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧ سورة الأعراف .
(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٢/١٣٩ .

السخرية والمنافقون

يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا

عرف الاسلام اليهود والنفاق مقترنين . ولم يعرف الاسلام المنافقين الا منذ احتك باليهود ، وأول ما يتبادر الى الذهن فى حديث النفاق سؤال ذو أهمية وهو : لماذا ظهر النفاق فى المدينة ، ولم يظهر فى مكة ؟ وقد يجاب عن ذلك بأن ميزان التفاوت فى القوة بين المسلمين وأهل مكة لم يكن يستدعى ظهور النفاق ، بمعنى أن أهل مكة فى فترة الصراع بينهم وبين المسلمين كانوا هم أصحاب الشوكة والقوة ، ولم تكن أمام الأفراد قوة يخشونها حتى ينافقوها . وحين هاجر المسلمون الى المدينة ، أصبح الشرك فى مكة معسكرا مستقلا بعيدا عن قوة المسلمين ، كانوا فى مكة جميعا على الفكر ، ولم يكن الأفراد يواجهون القوة المعادية ، أو يحتكون بها ، فلم تكن بأهل مكة حاجة الى النفاق ، بخلاف أهل المدينة الذين نظروا فوجدوا المسلمين قوة كبيرة بين ظهرانيهم ، فكان بعض الأفراد يحرصون على كفرهم ولكنهم يخشون قوة المسلمين . فيضطرون الى النفاق معهم ، يظهرون لهم الاسلام ليأمنوا قوتهم ، ويكشفون للكافرين حقيقتهم لئلا تنقطع بينهم المنفعة والأواصر ، وقد تبدو هذه الاجابة مقبولة فى ظاهرها ، ولكن الواقع لا يسلم بها من جهتين ، احداهما ان النفاق كما يؤكد التاريخ الاسلامى ظهر فى المدينة منذ وصل اليها المسلمون ، وقبل أن يصبح الاسلام فيها قوة مخيفة أو قوة غالبة ، ظهر النفاق ومازال الكافرون هم القوة الكبرى التى لا تخشى المسلمين ، ولا تضطر الى منافقتهم ، وظهر فى أشخاص كانوا من القوة والسيادة فى أقوامهم بحيث يملكون اظهار كفرهم وعدائهم للاسلام دون أن يضطروا الى النفاق ولو فى بعض فترات نفاقهم ، كعبد الله بن أبى بن سلول الذى يقول عنه الرواة « قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبى لا يختلف عليه فى شرفه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل .. كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه

ثم يملكوه عليهم ٠٠ » (١) ومع هذا السلطان وهذه السيادة التى قلما حظى بها سيد فى العرب لم يقاوم عبد الله بن أبى الاسلام كما قاومه سادة مكة ، ولا بعض مقاومة سادة مكة ، بل لم يحاول أن يجرب صدى مقاومته ، وانما استكان فى كفره مليا ، ثم لجأ الى النفاق غير ملجأ ولا مضطر اليه ، والجهة الأخرى التى تجعل الواقع لا يسلم بالاجابة السابقة ، هى أن ميزان القوة بين قريش والمسلمين قد انقلب منذ فتح المسلمين مكة ، وأصبح المسلمون هم القوة الوحيدة ، وأصبح أهل مكة جميعا فى قبضتهم ، ومع ذلك لم ينافقوا ، مع أن الاسلام لم يفرض عليهم حينئذ طفرة واحدة ، بل ظلوا فترة معينة ، وكل ما يطلب منهم هو عدم مقاومة المسلمين ، دون أن يجبر أحد منهم على الاسلام ، ومع هذا لم يحدثنا التاريخ عن ظهور نفاق قط بينهم ، بل أسلم من أسلم منهم غير ملتو باسلامه ، وظل من ظل منهم على كفره لا يستخفى به ، ولا يتلون فيه ٠

وهذه الصراحة التى اتصف بها أهل مكة فى عقيدتهم ايمانا أو كفرا ، لم تقتصر عليهم وحدهم ، بل أثبت العرب جميعا أن هذه الصراحة هى خلقهم ، فى كل مراحل صراعهم مع الاسلام ، وقد يكون هناك من دخل الاسلام من القبائل بقوة الاسلام ، وعدم القدرة على مقاومته ، ولكنهم لم يلتووا فى اسلامهم ، وانما أسلموا اسلام المؤمن المعتقد ، وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ثارت فى النفوس عصبيات جاهلية ، وتنافس قبلى ، حين ظنت بعض القبائل فى جهلها وبعدها عن الاحساس بروح الاسلام من موطن علمائه ، أن الاسلام يحقق لقريش مجدا تتعالى به على القبائل ، وحين ظن بعض القبائل أن الزكاة مغرم مالى يجبى منهم لمصلحة قريش وبعض الناس ، ونحو ذلك من الجهالات التى أدت الى ردة العرب عن الاسلام بعد وفاة النبى ، بحيث لم يبق على الاسلام الا مكة والمدينة، وليس يعنينا من هذه الأحداث الا أنها مظهر لصراحة العرب فى عقيدتهم ، فقد أسلموا حين أسلموا مصارحين ، وارتدوا حين ارتدوا بوجه واحد أيضـــا ، ثم عادوا للاسلام مصارحين غير منافقين ، وقد كان يمكن لهم فى بعض هذه الاحوال أن ينافقوا ، ولكنهم يؤثرون الصراحة سواء فى الكفر أو الايمان ٠

ولكن النفاق نبع من المدينة وما حولها من الأعراب ، كما يقول سبحانه « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ٠٠ » وهذا لا ينفى وجوده فى أماكن أخرى سواء من العرب أو غيرهم ، بل لابد أن يكون ، ولكن فى نطاق الشذوذ الفردى الذى لا يخلو منه مجتمع ، ولا تشذ عنه قاعدة ، أما فى المدينة وما حولها فكان النفاق ظاهرة اجتماعية واضحة الكيان ، وواضحة الأثر أيضا ٠

ولما كان النفاق يقوم أساسا على فقدان الفرد الاستعداد للعقيدة فى طبعه

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢١٦ ٠

كما سيأتي ولما كان اليهود تنطبق عليهم هذه الصفة بصورة عامة ، ولما كانت المدينة وما حولها هي الموطن الوحيد لتجمع اليهود في الجزيرة العربية ، لذلك يمكن أن نفهم لماذا كانت المدينة وما حولها موطن النفـــاق ومنبعه في الجزيرة العربية ؟ فالحقيقة كما يؤكدها التاريخ أن أول من سن خلق النفاق في علاقتـــه بالاسلام هم اليهود ، وقد راق هذا الخلق لبعض العرب من الأوس والخزرج ، والأعراب القريبين من المدينة ، فالتفوا حول اليهود ، وتكونت منهم جبهة النفاق ضد الاسلام •

وقد سبق أن اليهود اتخذوا من النفاق شريعة ومذهبا ، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك في قوله « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » (١) ، والرواة يؤكدون تضمينا وتصريحا أن المنافقين من العرب كانوا يلتفون حول اليهود ، ويتخذون منهم معلما للنفاق ، وركنا يأوون اليه ، ومن ذلك أن ابن هشام يحاول أن يحصر أسماء الذين عرف نفاقهم من الأوس والخزرج ، ولكنه يجعل أساس نفاقهم جميعا انحيازا الى اليهود ، حيث يقول « وكان ممن أضاف الى يهود ممن سمي لنا من المنافقين من الأوس والخزرج •• » (٢) ثم يسوق الاسماء بعد ذلك، وكأنهم كانوا يعرفون أن مجرد ألف شخص لليهود يوحي بالشك في عقيدته ، واتهامه بالنفاق ، فيتحدث ابن هشام عن شخص من بني عبد الأشهل فيقول « ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم ، الا أن الضحاك بن ثابت أحد بني كعب رهط سعد بن زيد قد كان يتهم بالنفاق وحب يهود » (٣) ، وهذا حسان بن ثابت يجعل كل جريمة الضـــحاك بن ثابت حبه لليهود ، ويتهمه في دينه لذلك ، حيث كان اليهود – فضلا عن عدائهم للاسلام – قرناء للنفاق ، ومعلمين للناس اياه ، فيقول حسان عن الضحاك :

من مبلغ الضـــحاك أن عروقـــه أعيت عـــلى الاســـلام أن تتمجدا
أتحب يهدان الحجـــاز ودينهـــم كبـــد الحمار ولا تحب محمدا
دينا لعمرى لا يوافـــق ديننـــا ما استن آل في الفضاء وخودا (٤)

وفي اقتران اليهود بالنفاق أيضـــا كانوا يفهمون أن الآيات القرآنيـــة تستهدف هذا الاقتران ، كما يروي ابن هشام أيضا بعد حديثه عن جماعة من المنافقين « ففي هؤلاء من احبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صـــدر صورة البقرة الى المائة منها » (٥) وصدر سورة البقرة صريح في الحديث عن

---

(١) الآية ٧٢ سورة آل عمران وانظر تفسير الحافظ بن كثير ٢/١٦٦ •
(٢) سيرة ابن هشام ٢/١٤١ •
(٣) المصدر السابق ٢/١٤٧ •
(٤) المصدر السابق ٢/١٤٨ •
(٥) المصدر السابق ٢/١٥٣ •

النفاق ، وصريح في الاشارة الى أن معلمي النفاق ، وشياطين التلون ، الذين يلجأ اليهم المنافقون ، يتعلمون منهم ، ويتعاضدون بهم هم اليهود ، ومن ذلك تصوير صدر صورة البقرة للقاء المنافقين للمسلمين بوجه ، ثم رجوعهم الى (شياطينهم) معلمي النفاق ، يطمئنونهم الى البقاء في صفهم « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنـا واذا خلوا الى شـياطينهم قالوا انا معـكم انما نحن مسـتهزئون » (١) فالشياطين هم اليهود ، والقائلون لهم هم سائر المنافقين ، كما يقول الزمخشري « انا معكم معناه الثبوت على اليهودية » (٢) . ويروي ابن حزم عن موقف اليهود من النفاق فيقول « وكان قوم من اليهـود قد تعوذوا بالاسـلام وهم يبطنون الكفر .. » (٣) ثم عن صلة المنافقين من العرب باليهود يقول « وكفر جمهـور اليهود وظاهرهم قوم من الأوس والخزرج منافقون يظهرون الاسـلام مداراة لجمهور قومهم من الأنصار ويسرون ما يسخط الله تعالى من الكفر » (٤) .

ومعنى هذا كله أن اليهود أول من تلقى الاسلام بخلق النفاق ، وأن المنافقين العرب انما كانوا متأثرين بخلق اليهود في طول عشرتهم ، ومتخذين منهم معلمين للنفاق ، وملجأ يأوون اليه ، ويدرسون فيه خططهم ومكايدهم ضد الاسلام ، وهذا لا ينفي وجود الاستعداد الطبيعي للنفاق عند بعضهم ، ولكننا لو افترضنا عدم وجود اليهود في بيئتهم ، لكان من المنطقي أن نقيسهم على غيرهم من العرب ، والعرب كما هو واضح لم يتضح النفاق فيهم كظاهرة اجتماعية ، فكان من المسلم به منطقيا أن يأخذ عرب المدينة وما حولها حكم سائر العرب ، لأنهم جميعا عنصر واحد ، والعنصر الواحد يلاحظ فيه اشتراكه في الخصائص العامة ، كما سبق فيما يقرره علماء النفس والاجتماع ، وحيث اشترك العرب في صفة الصراحة في العقيدة . فليس من المعقول أن تشذ جماعة منهم عن هذه الصفة ـــ كعرب المدينة ـــ الا بسبب خارجي أو محدد ، ولسنا نجد سببا لشذوذ عرب المدينة وما حولها عن خلق العرب الا مجاورتهم لليهود وتأثرهم بهم ، ونكرر أن اليهود ليسوا في حاجة الى اثبات استعدادهم الفطري بصفة عامة للنفـاق ، لأن الدعامة الأساسية التي يقوم عليهـا النفـاق وهي فقدان الاستعداد للاعتقاد متحققة في اليهود كما سبق .

ولا شك أن المنافقين كانوا من أخطر أعداء الاسلام ، وأن المسلمين قد لاقوا منهم متاعب كثيرة ، وقتنا كانت تصل من خطورتها أن تزلزل كيـان المسلمين في كثير من الأحيان ، وتتركز خطورة المنافقين في أنهم كانوا مندسين بين صفوف المسلمين على أنهم مؤمنون ، ولئن كان النبي صلى الله عليه وسـلم

---

(١) الآية ١٤ سورة البقرة .
(٢) الكشاف ١/٥٠ .
(٣) جوامع السيرة ٩٩ .
(٤) جوامع السيرة ٩٧ .

وصفوة أصحابه كانوا يستطيعون بذكائهم وقوة حسهم الدينى وفراستهم يستطيعون ان يدركوا نفاق المنافق ، وأن يستشفوا حقيقة الأفراد ، الا أن عامة المسلمين لم يكن من السهل عليهم أن يستشفوا ذلك أو يدركوه ، والعامة هم المجال الخصب للمنافقين ، حيث ينفثون بينهم ما يشاءون من سموم الكيد ، وينشرون ما يستطيعون من الأراجيف ، وحتى الذين كان يكشفهم النبى صلى الله عليه وسلم أو أحد أصحابه ، لم يكونوا يستطيعون فى أغلب الأحيان أن ينالوه بالجزاء ، لأنه فى نظر الناس معدود من المسلمين ، فان قتلوه كان قتله دعاية ضارة بالاسلام ، وان تركوه لن يسلموا من سمومه ، ولذلك نجد فى الروايات كثيرا ما يرد ان أحد أصحاب النبى حين يظهر نفاق منافق يستأذن النبى فى أن يضرب عنقه ، فيأبى النبى صلى الله عليه وسلم خشية أن يقال ان محمدا يقتل أصحابه •

وقد سبقت الاشارة الى بعض خطورة المنافقين فيما كانوا يدبرون ضد الاسلام . ومن ذلك أنهم كانوا حريصين على الوقيعة بين المسلمين أفرادا وجماعات (١) ، ومحاولتهم اثارة الحروب والعصبيات بين الأوس والخزرج ، حتى كادت الحرب تشتعل بينهم مرة أخرى ، لولا أن ردهم النبى صلى الله عليه وسلم الى خلق الاسلام وأخوته ، ومن ذلك فتنة الافك التى اتخذ منها المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبى (٢) عاصفة هزت كيان المسلمين بما فيهم بيت النبى نفسه هزا عنيفا لولا أن تدارك الله المسلمين ببيان الحقيقة فى القرآن الكريم، فانطفأت هذه النار المتأججة ، وخرست الألسن المنافقة ، وكان المنافقون يعقدون مؤتمرات سرية يدبرون فيها الكيد للاسلام . ومن الأماكن التى عرف اجتماعهم فيها بيت سويلم اليهودى ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتحريقه (٣) وكان المنافقون ينتهزون الأوقات العصيبة فى حياة المسلمين ليضربوا بكيدهم وسهامهم بين صفوف المسلمين ، كأوقات الحروب والاستعداد لها ، ومن ذلك ما جهد فيه المنافقون من تثبيط المسلمين عن قتال الروم حين تجهزوا لغزوة تبوك ، قائلين : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال (٤) ، وقد أثرت دعاية المنافقين فى عدد غير قليل من المسلمين تخلفوا عن السفر مع الرسول والمسلمين فى غزوة تبوك وان كان معظمهم من المنافقين ، وتذكر الروايات أنهم كانوا بضعا وثمانين رجلا (٥) . ومنهم الثلاثة الذين تخلفوا ثم تابوا فقبل الله توبتهم ونزل القرآن فى قصتهم •

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٨٣/٢ •
(٢) المصدر السابق ٣٤٥/٣ وما بعدها •
(٣) المصدر السابق ١٧١/٤ •
(٤) المصدر السابق ١٨٠/٤ •
(٥) انظر فى ظلال القرآن سيد قطب ٦٣/١١ •

وفيما نزل اشارة واضحة الى اثر دعايات المنافقين وتثبيطهم للمسلمين حتى « كاد يزيغ قلوب فريق منهم » من فرط تأثرهم بارجاف المنافقين « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا الا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » (١) والثلاثة الذين خلفوا هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أميـــة الواقفى .

وموقف تثبيط المنافقين للمسلمين فى الحـرب واثارة الفتن والوقيعـــة أو محاولتهما معروفة فى التاريخ الاسلامى ، وقد سجلها عليهم القرآن وكشف خباياها للمسلمين فى كثير من الآيات ، وهناك مواقف من الفتن فى هذه الأوقات العصيبة لم يصرح الرواة بأشخاص المنافقين الذين دبروها ، ولكن كل الظروف تؤكد ان أصابع النفاق وراء هذه الفتن . ومن ذلك هذه الفتنة الكبيرة التى حدثت فى صفوف الأنصار بعد انتصارهم مع الرسول والمسلمين على هوازن بعد فتح مكة ، حيث قسم النبى صلى الله عليه وسلم الغنائم فأفاض العطاء على نفر ليسوا بذوى شـــأن فى الاســلام ، وضيق فى عطائه للأنصار ، وكانت تلك حكمة عميقة فى خلق الرســـول أن يتألف ضعاف الايمان بالعطاء ، ويكل أقوياء الايمان الى ايمانهم وثقتهم فى الله ، كما يقول صلى الله عليه وسلم « انى لأعطى الرجل وغيره أحب الى منه خشــــية أن يكبه الله فى النار » (٢) ولكن بعض الأنصار وخاصة الشباب منهم لم يفهموا هذه الحكمة حق فهمها ، وما من شك فى أن السنة منافقة قد تنقلت بين الانصار بتشويه هذه الحكمة أو تجاهلها لتثير الفتنة فى صفوف المسلمين ، ولم يخل الأوس والخزرج من المنافقين ، حتى انه كان مثيرا للانتباه وجود بيت من بيوتهم خلا تقريبا من النفاق هو بيت بنى عبد الأشهل ، وحيث كان المنافقون من كل بيت فى الأنصار مندسين بينهم، فلن يترك المنافقون منهم هذه الفرصة دون أن ينفثوا فيها سما ، وقد أثمر سمهم ، فسرت بين الأنصار موجة من التذمر ، زادها اشتعالا انتشار اشاعة أخرى بين الانصار وبالطبع مصدرها المنافقون . بأن النبى صلى الله عليه وسلم بعد تحقيق آماله فى تحطيم آخر حصن للشرك سيعود الى مسقط رأسه مكة ليعيش فيها ، ولن يرجع مع الأنصار الى المدينة ، وهنا تتجلى قمة من قمم البلاغة النبوية التى لا أعرف أبلغ ولا أنفذ منها فى الاقناع وكسب القلوب ، والسيطرة على العواطف ، فى خطبة موجزة يلقيها النبى على أسماع الانصار ، فيطفىء كل ما فى قلوبهم من غضب وثورة ، ويستل كل ما فيها من موجدة وعتب ، واذا

---

(١) الآيتان ١١٧ ، ١١٨ سورة التوبة .

(٢) انظر صحيح البخارى .

في أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم » ، وما فرغ الرسول من هذه الكلمات حتى كانت الدموع قد انهمرت من عيون الأنصار تفيض حتى تخضل بدموعها اللحى ومن هذه الخطبة قوله صلى الله عليه وسلم ، يا معشر الأنصار : ما قالة بلغتني عنكم ؟ وجدة وجدتموها على قلوبكم ؟ قالوا بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل ، ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل ، قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة (١) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا » (٢) ويؤخذ من كلام النبى صلى الله عليه وسلم أن الفتنة كانت على جانب من الخطورة من ناحيتين ، احداهما المساس بشخص النبى فى اتهام المنافقين له بعدم العدل فى قسمة الغنائم ، وقد تكرر منهم ذلك فى أكثر من موقف ، ليشيعوا ذلك بين المسلمين مؤملين أن يؤثر هذا فى عقيدتهم وتعلقهم بالنبى ، والناحية الأخرى الفجوة التى كانت تهدف اليها هذه الفتنة بين المهاجرين والأنصار ، ولكن بلاغة النبى استطاعت بهذه الكلمات أن تطفىء جذوة الفتنة ، وأن تذكى الحب الحقيقى الذى يكنه له المسلمون ، ولذلك كانت فرحة الأنصار حينما طمأنهم النبى بأنه سيعود معهم الى المدينة تمحو كل غضاضة فى النفوس ، وتربو على كل أمل يراود قلوب الأنصار .

ومما لا شك فيه أن المنافقين كانوا من أخطر الأعداء الذين بلى بهم الاسلام والمسلمون ، ولا تكاد تجد موقفا معاديا للاسلام منذ حل المسلمون المدينة ، الا وجهود المنافقين هى الشرايين الحية النابضة التى تشعل هذا الموقف ، ولا تكف عن دفعه ليبلغ أقصى مداه ضد المسلمين ، ومع كل ما أصاب المسلمين من كيد المنافقين فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، فان كيدهم لم تنضج ثمراته الا بعد وفاة النبى ، فقد كان وجود النبى معرقلا لجهود المنافقين عرقلة شديدة من جهتين ، أولاهما أن النبى كان أقدر الناس بما يوحى اليه ربه ، وبذكائه على كشف المنافقين ومكايدهم ، والاشارة اليهم فى كل موطن يتحركون اليه ، والأخرى أن حب المسلمين للنبى والتفافهم حوله وطاعتهم اياه كانت تفسد على المنافقين كل أسلحتهم التى يستخدمونها فى التفريق بين المسلمين ومحاولة

---

(١) اللعاعة بقلة خضراء ناعمة شبه النبى بها متاع الدنيا .
(٢) سيرة ابن هشام ١٤٧/٤ — ١٤٨ .

أمالة نفوسهم نحو ما يزينه لهم المنافقون ، ولكن بعد وفاة النبى خلا الجــو للمنافقين أو كاد ، ولذلك بدأت تتوالى الفتن بين المسلمين وخاصة بعد عمــر رضى الله عنه ، وكانت دائما جهود المنافقين وراء كل فتنة ، كما أشرنا الى ذلك فيما سبق ·

وأما الاسباب الظاهرة للنفاق فقد تبدو يسيرة الفهم ، واضحة المرأى ، تتمثل في وقوف الاسلام عقبة أمام آمال شخص أو قوم لا يستطيعون تحطيم هذه العقبة علانية ، فيحاولون أن ينخروا فيها خفية لتنهار من حيث لا يظهرون، ثم تخلو لهم الطريق ليصلوا الى آمالهم ·

فمثلا كان اليهود كما هو معروف يستفتحون على جيرانهم العــرب من الأوس والخزرج مفاخرين اياهم بأنه سيظهر منهم نبى ، يجعل لهم الغلبة والسلطان والمجد على العرب ، واذ النبى يظهر من العرب لا من اليهود واذا الأوس والخزرج والعرب هم أصــحاب المجــد والغلبــة والســلطان لا اليهود ، وماذا يفعل اليهود وليس في استطاعتهم تحطيم الاســلام الذى خيب آمالهــم ، وعكس أمانيهم ، ماذا يفعلون وليس فى مقــدورهم تحطيمــه علانية أو مواجهــة ؟ ليس أمامهم الا النفاق، يستطيعون من خلف أستاره أن يحققوا ما يريدون ، وان يدبروا فى ظلماته أكثر مما يدبرون فى وضح النهار ، فلينافقوا ، يظهرون للمسلمين أنهم مسلمون مثلهم ، ثم يستديرون فيطعنونهم في الظهور ويكتسبون من مظاهر النفاق سلاحا آخر ، حين يختلطون بالمســلمين ، فيعــرفون من أمورهم ما يشاءون ، ويروجون بينهم من الفتن ما يستطيعون ، وكذلك الأمر بالنسبة للأفراد ، فقد كان هناك من لهم آمال ومنافع ، رأوا الاسلام حائلا بينهم وبينها ، مثل عبد الله بن أبى بن سلول الذى أوشك ان يكون ملكا على الأوس والخزرج ، فجاء الاسلام فبدد آماله ، بعد أن كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه (١) ، ولم تطب نفسه عن الاسلام الذى رأى فيه خيبة لآماله ، ولم يستطع أيضا أن يقاومه علانية لأنه لم يجرؤ على ذلك ، فتسلل الى كهوف النفاق عند اليهود ، وكان أول ما بدر من نفوره من الاسلام ليكون امارة على نفاقه ما ورد من أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب وأردف أسامة بن زيد ليعود سعد بن عبادة فى مرضــــه ، فمر بمجلس عبد الله بن أبى ، واذا فى مجلس عبد الله بن أبى أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود ، فلما ثار غبار دابة النبى صلى الله عليه وسلم عند المجلس قال عبد الله بن أبى : لا تغبروا علينا ، فسلم النبى على المجلس ، ونزل عن دابته ، ودعاهم الى الاســلام — وكان عبد الله ابن أبى لا زال على كفره الصريــح — فقال عبد الله بن أبى : أيها المرء لا أحسن مما تقول ان كان حقا ، فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع الى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه ، ثم واصل النبى صلى الله عليه وسلم قصده الى عيادة سعد بن

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/٢١٦ ·

عبادة ، وهناك شكا النبى الى سعد ما رآه من عبد الله بن ابى ، فقال سعد معللا سلوك ابن ابى : لقد جاءك الله بالحق ، وقد اصطلح أهل هذه البحيرة ـ المدينة ـ على أن يتوجوه ، فلما ابى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت (١) ، ثم كان عبد الله بن ابى بعد ذلك زعيم المنافقين العرب ، وحلقة الاتصال بينهم وبين اليهود ، ومن الرؤوس البارزة فى كل فتنة ضد المسلمين ، كما كان فى فتنة الافك الذى رميت به زوج النبى عائشة ، وكان هو الذى تولى كبر الافك : والذى توعده القرآن الكريم فى قوله تعالى « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »(٢) كما يروى عن عائشة نفسها فىقولها « وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول فى رجال من الخزرج ٠٠ » (٣) فأهم الأسباب الظاهرة التى تدفعهم الى النفاق اذن ، خيبة أمل مصدرها الاسلام فى رأيهم ، مع عدم القدرة على مقاومة الاسلام بالمواجهة ، ولا يلزم فى عـــدم القدرة أن يكون عجزا أو ضعفا حقيقيا ، بل هو عدم القدرة النفسية ، بمعنى فقدان الجرأة على المواجهة بالعداء ، وعدم الجرأة لا يلزم فيه الضعف المادى أو الكمى ، فقد يكون أحد الخصمين أكثر عددا أو اقوى عتـــادا ، ولكنه يفتقد الشجاعة والجرأة ، ويكون خصمه أقل منه عددا وعتادا ، ولكنه يتمتع بالشجاعة والاقدام ، فيكون هو صاحب القوة الحقيقية ، وهكذا كان الوضع بين المسلمين واعدائهم من المنافقين بالمدينة فى أول عهدهم ، فقد كان المسلمون قلة فى العدد والعتاد والمال اول أمرهم ، بينما كان المنافقون على اختلافهم من اليهود والعرب فيهم كثرة العدد ، وفيهم السلطة التقليدية كما كان عبد الله بن أبى ، وفيهم الثراء من مثل أموال اليهود ، ولكنهم جميعا جبنوا عن مواجهة هذه القلة القليلة من المسلمين ، ولم يواجهوهم بمقاومة صريحة ، أو عداء مكشوف كخصومة ، ولذلك لم يحدثنا التاريخ بأن احتكاكا أو اشتباكا وقع من قبل هؤلاء ضد الاسلام كحرب أو مقاومة جماعية علنية ، حتى بدأ المسلمون حروبهم مع اليهود اتقاء لفتنهم ، وتطهيرا للأرض العربية من دســائس نفاقهم ، ومؤامرات كهوفهم ، مما تفيض به الروايات ٠ فقد كانوا يستطيعون اذن أن يقاوموا المسلمين علانية كما فعل أهل مكة ، وسواء أكانوا ســينتصرون أم يهزمون ، فانهم يكونون حينئذ قد سلكوا طريقا شريفا لذاته فى الخصومة ، ولكنهم جبنوا ، فلجأوا الى النفاق ، كما يقول الرازى فى ســياق تقريره ان النفاق أقبح من الكفر الصريح « الكافر على طبع الرجال والمنافق على طبع الخنوثة » (٤) ٠

ولكن هذه الأسباب الظاهرة مهما تبلغ من العمق ، ومهما تتعدد جوانبها فلن تصلح أن تكون علة مقبولة مقنعة للنفاق ، فان هذه الاسباب وما يشابهها

---

(١) انظر تفسير الحافظ بن كثير ٣١٤/٢ ٠
(٢) من الآية ١١ سورة النور ٠
(٣) سيرة ابن هشام ٣٤٥/٣ ٠
(٤) تفسير الرازى ١٩٠/١ ٠

لم يقتصر الشعور بها على الذين نافقوا وحدهم ، وانما شاركهم فيهـــا اعداء آخرون للاسلام ، ومع ذلك لم ينافقوا ، فان كثيرا من أهل مكة مثلا كان يراودهم الشعور بأن الاسلام عقبة أمام آمالهم الشخصية ، وخاصة الزعماء والسادة ، وأتت على كثير منهم الظروف التى لم يكونوا يستطيعون فيها مقاومة الاســلام أو التصدى له ، حينما أصبح الاسلام ظاهرا عليهم ، مقتحما عليهم عقر دارهم ، ومع ذلك لم ينافقوا ، وكذلك الأمر بالنسبة لكثير من العرب وخاصة بعد حروب الردة ، فقد تبين من ردة العرب أن كثيرا منهم كان يرى فى الاسلام حربا على آماله ومنافعه الشخصية ، ولذلك ارتدوا ، ولكنهم أجبروا على الاعتراف بالحق، والرضوخ له ، فرضخوا ، ولم ينافقوا .

واذن فهناك أسباب أعمق من هذه الأسباب الظاهرة ، تدفع المنافق الى النفاق ، وتجعل من النفاق خلقا ملازما له مسيطرا عليه . فما هذه الأســـباب العميقة المسيطرة ؟ وحين نرجع الى ما كتبه المفسرون والعلماء السابقون عـن النفاق ، نكاد لا نجد فى حديثهم هذا الاقناع الذى يريح النفس ، ويطمئن اليه القلب عن طبيعة النفاق ، وقد يكون الرازى أكثرهم محاولة لتحليل النفاق ، ولكنه مع ذلك لم يكن تحليلا بالمعنى الدقيق ، ولا تعمقا بالدرجة التى تبعث الطمأنينة ، وانما كان حديثه عن النفاق فى سياق حديثه عن خلاف العلماء فى موازنتهم بين كفر الكافر الصريـــح ، وكفر المنافق ، ثم انحيازه الى القائلين بأن كفر المنافقين أقبح من الكفر الصريح ، محاولا أن يدعم تأييده لهذا الرأى ، وبعد حديثهم جميعا عن النفاق يبقى التســـاؤل عن قوله تعالى « ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار » ، لماذا كان المنافقون فى أسفل درك من النار ، دون سائر أعداء الاسلام ؟ مع أنه من الواضح أن مجرد النفاق هو الذى وضعهم فى هذا الدرك ، بصرف النظر عن عدائهم للاســـــلام ، وما الطبيعة التى دفعتهم الى النفاق ؟ وفى محاولة الاجابة عن ذلك يمكن القول بأننـــا حين نرجع الى علم النفس وننظر الى النفاق على ضوئه ، نرى الأمر أكثر وضوحا ، وأقرب الى فهم النفاق على حقيقته العميقة ، ويمـــــكن أن ننظر الى النفاق من هذه الزاوية كما يلى :

١ ـــ العقيدة :

حين ننظر الى موقف الاسلام من النفاق ، نرى من ظاهر هذا الموقف أن الاسلام يقسم النفاق الى نوعين ، نفاق عقيدة ، ونفاق سلوك ، فأما نفاق العقيدة فلا شك أنه نوع من الكفر ، مهما اختلفت الآراء فى المقارنة بينه وبين الكفـــر الصريح ، وأما نفاق السلوك فنجد بعض الأحاديث النبوية تتحدث عنه ، من مثل ما يروى البخارى من قول النبى صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منها ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى

يدعها ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا خاصم فجر » (١) وفى رواية أخرى نجد الخصال أربعا ، مضيفة الى الخصال السابقة « واذا عاهد غدر » ، ونرى من ظاهر الحديث أن هناك نفاقا فى السلوك ، يتمثل فى الخصال التى عددها الحديث الشريف ، وأن المتخلق بهذه الخصال يمكن أن ينسلخ منها ، فينسلخ من النفاق ويعود الى الايمان الخالص ، ولكننا حين نتأمل الحديث فيما هو أبعد من ظاهره ، نجد أنه لا يعنى اثبات أن هناك نفاقا فى السلوك منفصلا عن نفاق العقيدة ، وانما يعنى أن هذه الصفات من أخلاق المنافقين فى عقيدتهم ، وأنها دليل على نفاق العقيدة ، وأن من اكتملت فيه هذه الخلال بحيث تكون خلقا ملازما له ، فلا شك أن قلبه لا يحمل عقيدة ولا ايمانا ، وحين يدعى الاسلام مع هذه الصفات يكون منافقا كافرا فى حقيقته ، غير مصدق فى دعواه الايمان ، لأن الايمان لا يتفق مع هذا الخلق ، وأما من كانت فيه احدى هذه الخصال فهو مع كونه غير كامل ولا متهم فى عقيدته بالنفاق ، الا أنه شبيه بالمنافقين فى أخلاقهم ، فعليه أن يقاوم هذه الخصلة فى نفسه حتى يتخلى عنها ، ليبعد عن شبهة النفاق ، والتشبه بالمنافقين ، فقرن المتخلق باحدى هذه الخصال بالمنافقين ليس لاتهامه فى عقيدته ، وانما لتنفيره من هذه الخصلة بأقبح ما ينفر به وهو النفاق ، وهذا لا ينفى أن التخلق باحدى تلك الخصال وهن فى الايمان ، وضعف فى التدين ، ولكنه لا يبلغ اتهام العقيدة بالنفاق ، كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر عن دلالة الكذب على وهن الايمان ، لأنه لا يتفق مع الايمان الكامل ، حين سأله بعض أصـــــحابه : أيكون المؤمن بخيلا يا رسول الله ؟ قال نعم ، قالوا : ويكون جبانا ؟ قال : نعم ، قالوا ويكون كذابا ؟ قال : لا وليس المراد مجرد صدور الكذب من الشخص ، وانما المراد أن يكون الكذب صفة ملازمة وخلقا ثابتا ، وحين يبلغ الكذب من شخص هـــذا المبلغ ، فقد لا يكون دليلا على وهن الايمان فحسب ، بل قد يكون دليلا على نفاق العقيدة أيضا ، فان الاعتماد على الكذب أبرز صفات المنافقين كما سيأتى :

واذن فليس هناك نفاق فى السلوك مستقلا عن نفاق العقيدة ، وانمـــا النفاق كله فى العقيدة ، والسلوك دليـــل عليــه ، لأنه تابع منه ، وحين يوصف سلوك شخص غير منافق فى عقيدته بشىء من النفاق ، فانما للتنفير من هـــذا السلوك .

وحين نعود الى محاولة الاجابة عن طبيعة النفاق فى العقيدة نقول :

على ضـــوء ما سبق ايراده من حديث علماء النفس والاجتماع عن ملازمة الدين للمجتمعات (٢) ومن أنه ليس ســـــمة بارزة فحسب ، وانما يعتبرونه

---

(١) انظر الكشاف للزمخشرى ١/٤٥٠ وفيه « واذا اؤتمن خان » .

(٢) انظر المدخل الى علم الاجتماع دكتور عفيفى عبد الفتاح ص .

الاساس الذى يشكل المجتمع كما تشكل المادة الجسم الذى يمثلها (١) الى آخر ما يقررونه من ملاحظاتهم ونتائجهم عن سيطرة نزعة التدين وعمقها وأصالتها حتى انهم يجعلونها أصلا لكل المعارف الانسانية ، ومنبعا لكل شعب السلوك ومظاهره ، مما يتضح منه أن أقل ما توصف به نزعة التدين والاعتقاد أنها غريزة اساسية فى الأفراد ، وحيث كانت نزعة الاعتقاد والتدين غريزة ، فهى اذن أمر فطرى فى طبيعة الأفراد ، يولدون وينشأون به ، وهذه النزعة تتمثل فى شعور الفرد شعورا نفسيا تلقائيا بالاله وسلطاته وهيمنته ، دون أن يحتاج الى مرشد الى ذلك ، لأنه شعور مستقر فى النفس ونابع منها ، وتبعا لذلك فانه يكيف سلوكه ويصوغه على ضوء احساسه بالاله ، والذى يعنى علماء الاجتماع من غريزة التدين ، هو تأثيرها فى السلوك ، وفى تكوين الظواهر الاجتماعية ، من حيث أنهما مجال الدراسة الاجتماعية ، أما الذى يعنى علماء النفس فهـــو وجود غريزة التدين والاعتقاد من حيث هى فى النفس ، ومن حيث تأثيرها فى نفسية الفرد ومشاعره وعواطفه ، والذى يعنى موضوعنا من ذلك مجرد اتفاق علماء النفس والاجتماع على أن الاعتقاد الدينى غريزة أصلية فى الانسان ، وهذا يؤيده الحديث الشريف « ما من مولود الا ويولد على الفطرة » فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (٢) ، واذا كان الشراح يفسرون الفطرة بالاسلام ، فليس المقصود بالاسلام الدين الاسلامى من حيث هو شريعة مفصلة ، وانما المقصود أن الاسلام هو الدين المشهور بأنه ينادى بعقيدة الوحدانية لله سبحانه حيث لم يحرف ، وهذا المعنى وهو الشعور بذات الله الواحد والاعتقاد فى ذلك هو غريزة فطرية يولد بهـا كل انســان ، وهذا صريح ما يقرروه علماء النفس والاجتماع ، فالشعور بوجود الاله والاعتقاد فى ذلك غريزة أصلية فى الانسان، ولكن المجتمع الذى ينشأ فيه الفرد ، هو الذى يشوه هذه الغريزة فى بروزها الى التفكير وينحرف بها ، كما ينحرف بها اليهود فى تجســـــيدهم لذات الله سبحانه ، وتصويرهم اياه فى صور وصفات قبيحة كالبخل والفقر والطغيان ، ونسبة الولد اليه ، من مثل قولهم « عزيرا بن الله » ، وكما ينحرف بها النصارى فى عقيدة التثليث ، أو نسبة الولد الى الله سبحانه ، وهكذا ، ولعل فى قول المعتزلة ان معرفة الله واجبة بالعقل ، ودون حاجة الى أنبياء أو رسل اشارة واضحة الى ذات المعنى الذى يقرره علماء النفس والاجتماع ، والذى سبق اليه الحديث الشريف ٠

ولكننا بالنسبة للنفاق ينبغى أن نزيد الأمر ايضاحا ، فنقول ان الانحراف بغريزة التدين والاعتقاد ، لا يخل بوجودها فى النفس عند المنحرفين بها ،

---

(١) أنظر المدخل الى علم النفس الجماعى دكتور شارل بلوندل ترجمة د٠ حكمة هاشـــم ص ٨٠ ، ٨١ ٠

(٢) انظر صحيح البخارى والنقل بالمضمون ٠

بمعنى أن الشخص الذى يعتقد نسبة الولد لله سبحانه ، رغم كفره بهذا الاعتقاد ، وانحرافه بالنزعة الفطرية التى تتضمن الشعور الفطرى بوجود اله مسيطر مهيمن ، الا أن ذلك لا ينفى وجود أصل الغريزة الدينية فيه ، بل ان هذا الدليل على وجود مبدأ الاعتقاد الدينى فى طبعه ، بصرف النظر عن انحرافه به عن طريق الصواب ، وكذلك الذى يعبد شيئا معينا يرمز به الى القوة الالهية كالذى يعبد صنما ، أو يعبد الشمس مثلا ، فرغم أن هذا كفر صريح من الوجهة التشريعية ، الا أنه فى الوقت نفسه دليل على أن هذا الشخص لديه نزعة التدين ، ومبدأ الاعتقاد ، الا أنه ضل الطريق الى الله ، ولذلك يمكن لهذا الشخص أن يعود الى طريق الحق ، ويحول عقيدته الى الوجهة الصحيحة ، حيث يكمن فى طبعه الاستعداد للاعتقاد من حيث المبدأ ، ويحمل فى نفسه أصل الغريزة الدينية، ولذلك ينقل القرآن الكريم عن عبدة الأصنام قوله ، «وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

ومن هنا يمكن أن نتحدث عن النفاق بأنه فقدان هذه الغريزة الفطرية من باب الشذوذ عن التكوين الطبيعى فى الانسان ، بمعنى أنه بينما يحمل الناس فى طبعهم وبفطرتهم غريزة الشعور بالاله واعتقاد وجوده ، نجد المنافق فاقدا لهذه الغريزة أصلا وتكوينا ، وهو حينئذ شاذ عن الفطرة السوية للبشر ، ومبدأ الشذوذ غير منازع فيه ، فى كل قاعدة ، وفى كل أمر ، فقد شاءت سنة الله فى خلقه ألا يخلو أمر من الشذوذ ، واذا كان الشأن فى الناس أن يكونوا عقلاء ولكن منهم من يشذون فيولدون مجانين ، وأن يكونوا ذوى حواس سليمة ، ولكن منهم من يشذون فيولودون فاقدين لبعض هذه الحواس ، كالسمع أو البصر ، فكذلك الأمر فى العقيدة ، فحيث كان الشأن فى الناس أن تكون لديهم غريزة التدين والاعتقاد ، فان منهم من يشذون فيولدون فاقدين لهذه الغريزة ، والشذوذ ليست له قاعدة ثابتة ، اللهم الا ما يقرره علماء النفس عن الوراثة ، من حيث ان الشخص الذى يحمل صفة من الصفات ، تكون عادة ميراثا فى ولده ، والشذوذ نفسه صفة ، فيسرى عليه حكم التوارث ، وكذلك اذا كانت الصفة جماعية ، أو الشذوذ جماعيا ، فانه يخضع لقانون التوارث ، فيما يسميه علماء النفس « الخصائص السلالية والقومية » (١) ، ومن أمثلة ذلك توارث السلالة اليهودية الصفات وللشذوذ معا .

وحين ننظر الى هذا المقياس ، تأخذ درجة المنافقين فى الوضوح ، عند المقارنة بينهم وبين سائر الكافرين ، الذين يدينون بأى عقيدة مهما تكن خاطئة، فالكافر الذى يعبد صنما مثلا ، توجد فى طبعه نزعة الاعتقاد ، ومبدأ الايمان ، ولكنه حول ايمانه الى وجهة خاطئة ، فبدل أن يعبد الله ، عبد شيئا آخر ،

---

(١) انظر نفسية المجتمع موريس جينزبرج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ١٥٠ ــ ١٦١ .

أو اشرك مع الله معبودا سواه ، ففي قلبه غريزة الايمان ، ولديه الاستعداد لان يتجه بايمانه الوجهة الصحيحة اذا تهيأت الوسيلة لذلك ، ولكن المنافق ليس لديه الاستعداد أصلا لأى نوع من أنواع الاعتقاد ، لأنه فاقد لغريزة الايمان ، فلن يؤمن باى دين ، ولن يعبد اى معبود ، وبناء على ذلك فليس صحيحا ان نعتقد ان المنافق يدين بدين آخر غير الاسلام ، ولكنه يظهر اسلامه اتقاء لضرر أو لأى غرض ، وانما الواقع الذى يؤيده القرآن الكريم أنهم لا يدينون قط بأى دين ، ولا يعتقدون أى عقيدة ، وليس في نفوسهم قط الا طلب المنفعة المادية المباشرة لأشخاصهم ، فيميلون حيث تبرق لهم منفعة ، ولو كانت اتقاء لضرر ، فاذا رأوا نفعا فى صحبة الكافرين فهم معهم ، واذا رأوا نفعا مع المسلمين فهم معهم ، ولكن عقيدتهم ليست مع أحد ، لأنهم لا يحملون عقيدة ، حيث كانوا فاقدين لها طبعا وتكوينا ، كما يصور القرآن حرصهم على المنفعة القريبة المنال، وحماستهم حينئذ فى طلبها ، ثم نكوصهم فيما عدا ذلك . « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » (١) وسعيهم وراء المنفعة الشخصية وحدها يجعلهم غير متفقين فى السلوك . فمنهم من لا يغامر بنفسه فى أى تضحية ، وانما يتربص المنفعة السهلة القريبة لينقض عليها ، فهو رغم ادعائه الاسلام ، وظهوره بمظهر المؤمن الخالص الايمان ، الا أنه يأبى أن يشارك المسلمين مواقفهم الخطرة كالحروب ، وينتظر النتائج ، وحين تبدو النتائج لا يهمه منها الا شخصه ، وآماله الفردية ، كما يصور القرآن الكريم موقف بعضهم من المشاركة فى القتال مع المسلمين ، أو حتى السفر للقتال ، فيقول « وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » (٢) فهو يأبى المشاركة فى جيش المسلمين ، ثم ينتظر النتائج ، لأنه لا يعنيه الاسلام ، ولا تعنيه المصلحة العامة ، وانما يعنيه شخصه هو ، ولكن بعضا آخر من المنافقين قد يشارك المسلمين فى بعض مواقفهم ، لا حبا فى المشاركة أو التضحية ، وانما لكونه يرى المشاركة وسيلة أقرب الى نفعه ، وأدنى الى مصلحته ، من باب قوله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » (٣) .

فالمنافقون وان جمعتهم صفة واحدة هى فقدانهم لغريزة الايمان ، وشذوذهم فى ذلك عن الفطرة السوية للبشر ، الا أن سلوكهم ومظهر توجيههم

---

(١) الآية ٤٢ سورة التوبة .

(٢) الآيتان ٧٢ ، ٧٣ سورة النساء .

(٣) الآية ١١ سورة الحج .

لهذه النقطة في نفوسهم مختلف ، وهذا الاختلاف نابع من مبلغ سيطرة حب الذات في نفوسهم ، هذا الحب الذي يوجه طلبهم للمنفعة الشخصية ويتحكم فيه ، ومن أسباب اختلافهم في السلوك . وفي طريقة التلون والتقلب ، مدى قدرة كل فرد على التلون ، ومدى مهارته في اخفاء حقيقته ، وحين تستعرض حديث القرآن الكريم عن المنافقين نجد فيه ألوانا وضروبا من سلوك المنافقين تمثل اختلافهم في السلوك ، وفي وسائل التخفي ومحاولة التمويه على الناس .

وفي آيات من سورة النساء نجد صورة كاملة عن المنافقين ، في سلوكهم ، وفي عقيدتهم ، وفي الحكم عليهم أيضا ، وتبدأ الآيات بالسخرية من النفاق الذي يعرفه العلماء بأنه اظهار الايمان وابطان الكفر (١) ، وهم بهذا يحاولون مخادعة المسلمين بأن يظهروا لهم أنهم مؤمنون مثلهم ، في حين يضمرون لهم كل عداء ، ولكن القرآن بسخريته منهم يجعلهم لا يخادعون المسلمين ، ولا يخادعون أحدا من الناس ، وانما يخادعون الله ، وكأنه يقول لهم : اذا كنتم تستطيعون أن تخدعوا الناس وتضللوهم ، فهل تستطيعون أن تخدعوا الله سبحانه ؟ وكان الأجدر بكم ألا تصرفوا همكم الى الناس ، وانما الى الله لأنه هو الرقيب عليكم ، والمحاسب لكم ، ويمعن القرآن في السخرية منهم ومن خداعهم ، فيصور لهم انهم اذا كانوا يعتقدون في أنفسهم المهارة في الخداع فان الله سبحانه أقدر على أن ينتقم منهم بذات الوسيلة التي يسلكونها في مخادعة الناس ، فيخدعهم عن أنفسهم وعن حالهم ، حتى يظنوا انهم قد نجحوا في خداعهم ، وحققوا آمالهم ، واذا عقاب الله ينصب عليهم من كل وجه ، واذا كل وسائلهم وأقنعة نفاقهم هباء منثور ، وحينئذ يعلمون ان الله سبحانه أعظم منهم مكرا ، وأقدر منهم على انفاذ ما يريد « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » ، ثم يبين القرآن مصدر هذا التلون الذي يلقون به الناس ، وأساس هذا النفاق الذي يجعلهم يظهرون لبعض الناس بوجه غير الذي يظهرون به للآخرين ، وهنا تبدو طبيعة النفاق كما سبقت الاشارة اليها ، وهي انها ليس اخفاء عقيدة كافرة يعتقدونها ، ثم الظهور للمسلمين بأنهم يدينون بالاسلام ، وانما طبيعة النفاق انتفاء غريزة التدين ، وعدم وجود الاستعداد لمبدأ الاعتقاد في النفس ، ولذلك كان من الخطأ الاعتقاد بأنهم يدينون بدين الكافرين الآخرين ويعتقدون عقيدتهم ، لأن الحقيقة انهم لا دين ولا عقيدة لهم ، وانما هم أعداء للمؤمنين ، وأعداء للكافرين الآخرين أيضا لأنهم يحملون مبدأ الاعتقاد ، ولذلك كان واقعهم انهم لا مع المؤمنين ، ولا مع المشركين ، وانما يصانعون الطرفين ، وينافقونهم لينتفعوا من كلا الوجهين «مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء» ويقول الزمخشري عن تفسير ذبذبة المنافقين « وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين ، أي يذاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد » . الا أن الذبذبة

(١) انظر الكشاف للزمخشري ١/٤٥٠ .

فيها تكرير ليس في الذب ، كان المعنى كلما مال الى جانب ذب عنه » ثم عن بقية المعنى يقول » ذلك : اشارة الى الكفر والايمان (لا الى هؤلاء) لا منسوبين الى هؤلاء فيكونون مؤمنين (ولا الى هؤلاء) ولا منسوبين الى هؤلاء فيسمون مشركين » (١) وفي هـــذا تصريح بالمعنى الذى نقرره هو فقـــدان المنافقين لمبدأ الاعتقاد ، ســـواء أكان اعتقادا صحيحا وهو الايمان ، أم خاطئا وهـــو الشرك ، ويؤكد هذا اختيار القرآن الكريم للفظ (مذبذبين) كما فسره الزمخشرى من واقع اللغة ، فان اللفظ يقضى بأنه ليس المنافقون هم الذين ينفرون من الايمان والشرك واهلهما ، وانما الايمان والشرك هما اللذان ينبذان المنافقين ويرفضان قبولهم ، وذلك لأن الايمان والشرك كلاهما عقيدة وايمان ، بصرف النظر عن الصحة والخطأ في الاتجاه بالعقيدة ، وأما النفاق فهو شذوذ على الطبع السوى ، لأنه فقدان نزعة الاعتقاد في النفس كما سبق ، وحيث كان الايمان والشرك يجمعهما مبدأ الاعتقاد ، كان من شأنهما أن يرفضا ما يشذ عنهما ويأبياه وهو النفاق ، ولذلك اختار القرآن لفظ (مذبذبين) المشتق من الذب بمعنى الذود والدفع ، وحيث كان المنافقون في صيغة اسم المفعول (مذبذبين) فهم الذين وقع عليهم الذود والدفع من جانب المؤمنين والمشركين كليهما .

ثم تحدد الآيات منزلة المنافقين بين الناس ، مقارنة بينهم وبين غيرهم من الكافرين ، وتبدو هذه المقارنة من خلال درجة كل طائفة في جهنم ، وموضع كل نوع من الكافرين في العقاب ، ومن البدهى ان العقاب على قدر الجرم ، ودرجة العقاب حكم على الجريمة ، وتحديد لمقدارها المعنوى ، والآيات تحكم على المنافقين بأن عقابهم أشد العقاب ، وانهم في أسفل درك من النار « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار » ولست أدرى كيف يختلفون مع هذه الآية في ان النفاق أقبح أنواع الكفر ، مما يسوقه الرازى عن هذا الخلاف مبينا رأيه فيه بقوله « اختلفوا في ان كفر الكافر الأصلى أقبح أم كفر المنافق ؟ قال قوم كفر الكافر الأصلى أقبح لأنه جاهل بالقلب كاذب باللسان ، والمنافق جاهل بالقلب صادق باللسان ، وقال آخرون بل المنافق أيضا كاذب باللسان فانه يخبر عن كونه على ذلك الاعتقاد مع انه ليس عليه ، ولذلك قال تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا .. ثم ان المنافق اختص بمزيد أمور منكرة ، أحدها انه قصد التلبيس بخلاف الكافر الأصلى ، وثانيها ان الكافر على طبع الرجال والمنافق على طبع الخنوثة ، وثالثها ان الكافر ما رضى لنفسه بالكذب بل استنكف منه ، والمنافق رضى به ، ورابعها ان المنافق ضم الى كفره الاستهزاء بخلاف الكافر ، وخامسها قال مجاهد انه تعالى ابتدأ بذكر المؤمنين في اربع آيات ثم ثنى بالكافرين في آيتين ، ثم ثلث بذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية وذلك يدل على ان المنافق أعظم جرما ، وهذا بعيد لأن كثرة الاقتصاص بخبرهم لا توجب كون جرمهم أعظم » (١) . فالذين يقولون بأن النفاق أخف قبحا من الكفر

(١) التفسير الكبير للامام الرازى ١/١٩٠ .

الصريح يتغافلون عن صريح الآية التى تجعل النفاق أحط أنواع الكفر ببيان درجته من العقاب ، ولئن كان الرازى لم يورد الآية فى سياق تدعيمه للرأى الآخر ، الا انه حاول أن يعلل مضمونها ببيان بعض الأسباب التى جعلت النفاق اقبح من اى كفر آخر ، وفى بعض هذه الأسباب ما يمكن أن يكون ذا قيمة أكبر اذا فهمناه على وجه أعمق من ظاهره ، وهو قوله « ان المنافق ضم الى كفره الاستهزاء بخلاف الكافر » فهو معنى عادى بسيط اذا فهم من الاستهزاء السخرية التى تصدر من بعضهم ضد الاسلام والمسلمين ، بل يمكن أن يعترض عليه بأن الكافرين الآخرين صدر منهم أيضا الاستهزاء والسخرية بالاسلام والمسلمين ، كما يقرر القرآن الكريم ذلك فى كثير من الأيات كما سبق ، وهذا المعنى الذى يسوقه الامام الرازى يسوقه مفسرون آخرون ، كما يقول الزمخشرى « فان قلت لم كان المنافق اشد عذابا من الكافر ؟ قلت : لأنه مثله فى الكفر ، وضم الى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهله ومداجاتهم » (١) والمداجاة المداراة ، ولكن هذا المعنى يكون ذا قيمة أكبر اذا فهمناه على أن المراد بالاستهزاء الاستهانة وعدم التقدير والاهتمام ، على انه شعور نفسى ، بمعنى ان المنافق يشعر نحو الاسلام بالاستهانة وعدم التقدير فى نفسه ، وينظر اليه على انه أمر لا يعنيه كثيرا ، ولا يتعارض مع مصلحته أو اتجاهه الحقيقى ، بخلاف الكافر الآخر ، فانه ينظر الى الاسلام رغم كراهيته له نظرة اهتمام ومبالاة ، والاهتمام والمبالاة يدلان على التقدير ، وعلى نوع من الاكبار ، فالمنافق والكافر رغم اشتراكهما فى كراهية الاسلام ، الا أن المنافق يستهين بالاسلام ولا يعنى به ، مما يسهل عليه مصانعته والتودد اليه ، أما الكافر فانه يهتم بالاسلام ويعنى بأمره ، مما يدل على انه يحمل له فى نفسه نوعا من الاكبار الذى يتمثل فى أى معنى من الخوف منه ، أو الشعور بخطره ، أو نحو ذلك ، والفرق كبير بين الاستهانة والاهتمام ، فاننا حين نعادى شخصا فنظهر له الخصومة ، ونعلن له العداء والتحدى ، نكون قد وضعناه فى منزلة من التقدير والاهتمام ، أما حين نتجاهله أو نتجاهل عداوته ، فاننا نكون قد وضعناه فى منزلة الاحتقار والازدراء .

والآيات التى تجمع أسس النفاق ، فى السلوك ، وفى العقيدة ، وفى الحكم عليه ، فى قوله تعالى « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ، يايها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ ، ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » (٢) .

---

(١) تفسير الكشاف ١/٤٥٠ .
(٢) الآيات ١٤٢ ـ ١٤٥ سورة النساء .

فالأساس الذى يقوم عليه النفاق اذن هو عدم الاستعداد النفسى للاعتقاد والايمان أصلا ، كما يدل عليه قوله تعالى فى الآيات السابقة « ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » على ان كثيرا من آيات القرآن الكريم تؤكد نتيجة هـذا المعنى ، من حيث انهم لا يرجى منهم قط أن يؤمنوا ، مهما وجه اليهم من تذكير ومهما بذلت معهم المحاولات فى هدايتهم الى الايمان ، فهذه المحاولات كلها فى غير طائل ، لأن طبعهم وتكوينهم غير مستعد لقبول الايمان ، ومن ذلك تأكيد القرآن الكريم ان النفاق ليس فى السلوك ، ولا فى مجرد المظهر ، بحيث يمكن التحكم فيه ، وانما هو متغلغل فى القلب والطبع ، ملازم لصاحبه ملازمة كاملة حتى الموت ، كما فى قوله تعالى « فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقـــونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » (١) ، فالنفاق اذن (فى قلوبهم) وحينئذ فهو طبع ملازم لهم ، ولذلك لا يرجى ولا ينتظر أن ينفك عنهم ، بل هو مستمر (الى يوم يلقونه) ، ولئن كان المفسرون يثيرون احتمال أن تكون الآية فى شأن شخص معين هو ثعلبة بن حاطب ، الذى يروى أنه طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم وألح عليه فى أن يدعو له بسعة الرزق فدعا له فلما كثر ماله ضن بالزكاة ووصفها بأنها جزية (٢) مستأنسين فى ذلك بسياق الآيات السابقة التى يبدو من ظاهرها انها تشير الى شخص أو أشخاص معينين ، فى قوله تعالى قبل الآية السابقة « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون » ، الا أن الشراح يذكرون ان حديث ثعلبة هذا اسناده (ضعيف جدا) (٣) ، واذن فليس هناك فيما يرجع سبب مباشر لنزول الآية ، أعنى ليس المقصود بها شخصا معينا ، على انه حتى مع فرض اشارة الآية الى حادث معين فان المدلول فى القرآن دائما عام ، يسرى على كل من يشارك المعنى به فى صفته ، واذا كان المعنى ثعلبة أو غيره ، فهو ولاشك منافق كما يصرح بذلك سياق الآيات وصريح ألفاظها (فأعقبهم نفاقا) واذن فالحكم يسرى على الصفة وهى النفاق ، وليس المقصود المعين — ان صح — الا فردا ممن تجمعهم صـــفة النفاق ، على ان لفظ الجمع الذى تعبر به الآيات مثل (فأعقبهم) يدل على ان القصد عام ، وكل ما يمكن ان يؤخذ من الآيات ان هذا الحكم يعنى فريقا من المنافقين ، وليس كل المنافقين كما يفهم من قوله تعالى فى سياق الآية السابقة (ومنهم من عاهد الله ..) على اعتبار أن النفاق وان كانت تجمعه صفة واحدة هى فقدان الاستعداد للايمان ، الا أن هذه الصفة ليست بدرجة واحدة فى كل المنافقين ، وانما يتفاوتون فيها ، كما يحدث التفاوت فى كل صفة من الصفات ، وهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآيات هم الذين اكتمل فيهم النفاق ، وتحققت فيهم

---

(١) الآية ٧٧ سورة التوبة .

(٢) انظر الكشاف للزمخشرى ٢/٢٢٩ .

(٣) انظر الانتصاف لابن المنير الاسكندرى هامش الكشاف ٢/٢٢٩ .

صفاته كاملة ، ولذلك كان نفاقهم مستحكما في طبعهم لا ينفك عنهم أبدا حتى الموت ، كما يفسر الزمخشري العبارة السابقة فى الآية الكريمة (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم) بقوله (نفاقا ــ متمكنا ــ فى قلوبهم ــ .. وتمكن فى قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها الى ان يموتوا ..) ، والقرآن الكريم نفسه يؤكد ان المنافقين مهما اختلف سلوكهم ، ومهما تفاوتت درجة نفاقهم ، فهم جميعا مشتركون فى الصفة الاساسية التى يدور حولها النفاق وينبع منها ، فى قوله تعالى «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون » (١) .

بل يؤكد القرآن ان عدم استعداد طبعهم للايمان يجعل كل حواسهم مغلقة عن تقبل أى توجيه الى الايمان ، او تذوق أى موعظة تهدى الى العقيدة ، فيقول سبحانه فى سياق الحديث عن المنافقين « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » (٢) ، والتعبير فى قوله تعالى (فهم لا يرجعون) صريح فى فقدان اى أمل فى ايمان المنافقين أو اهتدائهم .

وحيث كان النفاق نابعا من طبع ملازم هو فقدان الاستعداد لمبدأ الاعتقاد ، فسيظل صاحبه منافقا كافرا حتى يموت ، ومن ثم فلن ترجى له مغفرة قط من قبل الله سبحانه ، ولن تنفعه شفاعة أى شفيع ، ولو كانت شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تأذن الا يغفر الكفر والشرك ، كما يقول سبحانه « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » (٣) ، ولذلك يؤكد الله سبحانه لنبيه أنه مهما استغفر للمنافقين ، ومهما جامل فيهم ذويهم من المؤمنين فلن يقبل الله منه فيهم شفاعة أو استغفارا ، فيقول سبحانه « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين » (٤) ، ويروى ان هذه الآية نزلت فى شأن عبد الله بن أبى المنافق ، حين كان مريضا أو بعد موته على اختلاف الرواية ، فجاء ابنه عبد الله وكان من المؤمنين الصالحين فسأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لأبيه ففعل ، وصلى عليه عند موته ، فأنزل الله سبحانه « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » (٥) ، ولكنه أيضا مهما يكن من سبب النزول فان الحكم عام يشمل كل منافق ، كما يفيده عموم الألفاظ ، فلن يرجى منهم ايمان فى الحياة ، وبالتالى لا ترجى لهم

---

(١) الآية ٦٧ سورة التوبة .
(٢) الآية ١٨ سورة البقرة .
(٣) الآية ١١٦ سورة النساء .
(٤) الآية ٨٠ سورة التوبة .
(٥) الآية ٨٤ سورة التوبة .

مغفرة من الله بعد الموت ، بل هم كما قال سبحانه « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار » هم في الدرك الأسفل من العقاب ، لأنهم كانوا في خيانتهم في الدرك الأسفل بين الناس ، سواء في عقيدتهم أو سلوكهم ، فهم في العقيدة شاذون عن الفطرة السوية التي يولد بها الناس وهي غريزة التدين والايمان ، حيث كانوا فاقدين لهذه الغريزة من حيث الطبع والتكوين ، وبهذا يكون كل الناس مؤمنهم وكافرهم خيرا من المنافقين ، لأنهم جميعا لديهم مبدأ التدين والاعتقاد ، وان كان الكافرون قد وجهوا عقيدتهم وجهة خاطئة فعبدوا غير الله واعتقدوه ، وكذلك في السلوك نجد المنافقين في الدرك الأسفل منه بين الناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، لأن كلا من المؤمن والكافر لديه من الشجاعة والصراحة ما يعلن به عما في نفسه ، ولديه من القوة ما يواجه الناس بما يعتقده ، وهذا الخلق فضيلة في ذاته ، أما المنافق فهو جبان متلون ، وكما يقول الامام الرازي في تفضيله الكافر الصريح على المنافق « ان الكافر على طبع الرجال والمنافق على طبع الخنوثة » (١) .

وهناك مسألة شغلت المفسرين وعلماء الكلام واستفاض الحديث فيها والخلاف من حولها ، وهي كيف يحاسب الله من حكم عليه بالكفر ، أو جعل طبيعته غير مستعدة للايمان على كفره ؟ ويشعبون المسألة فيصلون منها الى البحث في جواز خلق الله سبحانه للشر وارادته اياه ، وعدم جواز ذلك عليه سبحانه ، والخلاف بين المعتزلة وأهل السنة في ذلك مشهور ، حيث يرى المعتزلة عدم جواز ذلك على الله سبحانه ، ويرى أهل السنة جواز أن يخلق الله الشر ويريده ، وانه كان لا يأمر به (٢) ، ومن ذلك ما سبق تقريره من فقدان المنافقين بطبعهم للاعتقاد ، فان طبعهم هذا تكوين فطري ، وخالق هذا التكوين هو الله سبحانه ، فكيف يخلق فيهم هذه النقيصة وهذا الشر ؟ ثم كيف يحاسبهم على شيء خلقوا به ، وليس لهم خيار فيه ؟ أعني في خلقه ، ومع أنني لا أحب الخوض فيما يخوض فيه علماء الكلام ، وأرى مجرد البحث في مثل هذه المسائل جورا على الايمان ، ومحاولة من الانسان للدخول فيما ليس من شأنه ، وانما هو من شأن الله وحده سبحانه ، فان الدين سهل بسيط ، ينحصر في كلمتين ، العقيدة والعمل ، فأما العقيدة فهي الايمان بوحدانية الله وبرسوله ، وأما العمل فقد أوجز النبي صلى الله عليه وسلم أيضا طريقه في قوله فيما رواه البخاري « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ... » وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأخذون الدين ، ومن المشهور تكرار زجر عمر رضي الله عنه لمن كانوا يسألون أسئلة تخرج عن نطاق الواقع ،

---

(١) التفسير الكبير للامام الرازي ١/١٩٠ .

(٢) انظر تفسير الامام الرازي ١/١٨٣ وتفسير الكشاف ١/٣٨ والانتصاف لابن المنير هامش الكشاف ١/٣٩ .

وعن بساطة الايمان ، أما الذين يبحثون في مثل المسائل المشار اليها بين علماء الكلام ، فانهم يكلفون أنفسهم شططا فيما لا يملكونه ، ولا يملكه أحد من الناس ، ومتى كان لأحد من الناس أن يتحدث عن الله سبحانه بأنه يجوز عليه أو لا يجوز ، ان الجواز وعدمه نتحدث به الى الناس ليسلكوه أو يجتنبوه ، أما بالنسبة لله فما معنى أن نقول انه يجوز عليه كذا أو لا يجوز ، ان الانسان لا يملك الا أن يتبين ما أمره به ربه فيؤديه ، وما نهاه عنه فيجتنبه ، أما ماوراء ذلك فليس مما يملكه ، وليس من مبلغ علمه أن يدخل فيه ، ومتى كان من حق الناس أن يخبرهم الله بخصائص علمه ، أو تنظيمه لكونه وملكه ، أو بقدره الذي تسير عليه كل مخلوقاته ، جماعاتهم وافرادهم ؟ وكيف يكون من حق الفرد أن يسأل الله : هل قضيت على هذا الأمر أم تركتني مختارا فيه ؟ مع انه يعلم ان الاجابة عن ذلك واضحة من ناحيتين ، احداهما انه لن يوجد من يجيبه عن هذا السؤال ، لأنه لا يوجد من يستطيع الدخول في علم الله وقدره ، والأخرى ان السبيل أمامه واضحة ، وهذه السبيل ليست ان الله قضى عليه أو لم يقض ، وانما هي هل هذا الأمر أوجبه الله عليه أم نهاه عنه ، أم خيره فيه ، فليس يملك وراء ذلك شيئا .

فهذه المسائل الفلسفية التي خاض فيها علماء الكلام ليست من صلب الايمان ، بل ليست مما يتفق مع جلال الايمان ، ولئن كان معظم هؤلاء العلماء قد دفعوا الى هذه المسائل وخلافاتها دفعا ، وجرتهم ظروف الالحاد والنفاق المحيطة بهم اليها جرا ، فلم يكن ذلك فيما أعتقد ليبرر لهم أن يشغلوا انفسهم بها الى هذه الدرجة ، ولا أن يستنفدوا فيها كل هذا الجهد الذي كان يمكن أن يستغل فيما هو أجدى على الاسلام والمسلمين ، لأن كل بحوثهم وخلافاتهم حول الغيبيات تكاد تكون حلقة مفرغة لا تنتهي الى غاية ، ولا تستقر في نهاية ، لأن الغاية خارجة عن نطاق العلم البشري ، بل والعقل البشري أيضا ، ولو من حيث التفاصيل ، حيث كانت هذه الغاية في علم الله وغيبه الذي حجبه عن البشر ، ويقول الرازي (وهذه المسألة من أعظم المسائل الاسلامية وأكثرها شعبا وأشدها شغبا) (١) أقول مع كراهتي للخوض في هذه المسائل فيما يتعلق بالتساؤل عن حساب الله سبحانه للمنافقين على النفاق مع انه طبع خلقه فيهم ، الا انه يمكن القول في مجال التعليم الديني بأن هذه شريعة الله في عباده ، وقد أرادها لحكمة يعلمها سبحانه ، وليس من حقهم أن ينكروا شريعة الله أو ارادته ، ولا أن يعترضوا على ذلك ، وقد أعطاهم الله عقولا يميزون بها الخير من الشر ، وأعطاهم ارادة يستطيعون بها أن يفعلوا الخير ، ويستطيعون بها أن يجتنبوا الشر ، وليس لهم بعد ذلك أن يحاولوا التدخل في علم الله وحكمته ، وفي مجال البحث من الزاوية الدينية يمكن أيضا القول بأن كون النفاق طبعا في

---

(١) تفسير الرازي ١٨٥/٦ .

المنافقين لا يعفيهم من الحساب على التخلق به في السلوك ، وفي اقرار عقولهم له من حيث العقيدة ، لأن الله سبحانه خلق في الانسان كثيرا من النزعات والغرائز التي يمكن أن تكون شرا في توجيهها ، كغريزة الشهوة ، وغريزة حب التملك ، التابعة من غريزة (الأنا) وغير ذلك مما يمكن ان يكون سبيلا الى الشر ، ولكنه خلق في الانسان ضوابط يمكن أن تتحكم في هذه الغرائز فتوجهها الى الخير او تكفها عن الشر وهذه الضوابط تتمثل في العقل والارادة ، فيعرف الانسان بعقله الخير من الشر ، ثم تحدد ارادته سلوكه ، وفي الانسان كثير من نوازع الشر ، كما يقول سبحانه « ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم » (١) ، وهذه النوازع يمكن أن يسري عليها شيء من التساؤل الذي قد يثار عن حساب الله سبحانه للمنافقين على نفاقهم مع ان الله هو الذي خلق فيهم طبع النفاق ، فكما ان النفاق يدعو صاحبه الى سلوك معين هو سلوك المنافقين ، فكذلك نوازع الشر في الانسان تدعوه الى أن يسلك سلوكا ملائما لها وهو الشر ، ولكن الضوابط التي خلقها الله في الانسان لتكبح جموح هذه النوازع ، وتقودها الى الخير ، او تكفها عن الشر ، هي موضع الحساب ، فما دام الانسان يملك معرفة الخير من الشر ، ويملك عمل الخير واجتناب الشر ، فلا حجة له ولا عذر بعد ذلك ، وكذلك أيضا نزعة النفاق ، مع انها في طبع المنافق ، الا انه يستطيع بعقله أن يعلم انها خير أو شر ، ويستطيع بارادته أن يتحكم في سلوكه ، فلا يسلك سبيل النفاق ، مهما كلفه ذلك من جهد في النفس ، أو قوة مقاومة للطبع ، ولكنه يكفي انه يستطيع .

وحين يقاوم المنافق نزعة النفاق فيه ، فانه يكف عن الناس شرا كبيرا ، ويمنع عنهم أذى خبيثا ينبع من نفاقه ، ومجرد هذا الكف يعتبر خيرا من جانبه ، وحسنا قدمه اليهم ، ومن هذه الزاوية او نحوها لم يغلق القرآن امام المنافقين باب التوبة والرجوع الى الله ، بل جعله مفتوحا امامهـــم ، كما يقول سبحانه « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير » (٢) ، ولكننا نلاحظ ان التعبير في الآية عن توبتهم جاء بلفظ (ان يتوبوا ..) وأن تفيد الشك وهذا يعني ان الأمـــل في توبتهم ورجوعهم الى الله في غاية الضعف ، ولكنه على أي حال يترك ولو بصيصا من أمل أمام بعض المنافقين في أن يتوبوا الى الله ، ويقلعوا عن سبيل النفاق ، ويقاوموا هذا الطبع الخبيث في نفوسهم ، فعند ذلك يرجى لهم خير عند الله ، ولذلك يقول ابن كثير « أخبر — سبحانه — ان من تاب منهم في الدنيا تاب عليه وقبل ندمه

---

(١) من الآية ٥٣ سورة يوسف .
(٢) الآية ٧٤ سورة التوبة .

اذا اخلص في توبته وأصلح عمله ٠٠ » (١) ، ولذلك أيضا يروى عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قوله « ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين » (٢) ٠

وكما ان الآية السابعة في تعبيرها بلفظ (ان) جعلت توبتهم موضع الشك والضعف ، كذلك نجد آية أخرى تتحدث عن توبة المنافقين ، فتجعل الأمل في توبتهم اشد ضعفا ، وتجعل مقدرتهم على التخلي عن النفاق اشد وهنا ، وتبلغ دقة التعبير في الآية أقصى مدى حين تتحدث عن جزائهم عند الله مع التوبة ، فلا يرتبط القرآن بوعد صريح لهم بالثواب ، لأن توبتهم مشكوك فيها ، وحتى ان تابوا فستكون توبتهم توبة نفاق أيضا ، وكما انهم يحاولون خداع الناس بالتظاهر بانهم معهم ، فقد يحاولون مخادعة الله بانهم تابوا اليه ، واعرضوا عن النفاق ، وقد يبدون أمام الناس تائبين منيبين ، وقد يظهرون بمظهر لا يشك فيه الناس ولا يرتابون ، فينتظرون لهم من الله الجزاء الحسن ، ولكن الله يعلم انهم بعيدون عن التوبة ، لأنهم بعيدون عن كل صدق أو اخلاص ، ولذلك يقيد توبتهم بما لا أعرف ان القرآن قد قيدها به بالنسبة لأى نوع من أنواع الكافرين ، فيقول سبحانه « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين اجرا عظيما » (٣) ، فتوبتهم مقيدة بقيود شديدة كثيرة ، غير مألوفة في حديث القرآن الكريم عن توبة أى طائفة أخرى ، فلا تقبل توبتهم الا اذا كانت مصحوبة بالاصلاح ، والاعتصام بالله ، واخلاص الدين والعقيدة ، والغريب ان هذه القيود هي التي يفتقدها المنافقون ، وهم أبعد الناس عنها ، لعدم تهيؤ طبعهم لها ، وكأن القرآن بهذه القيود ينبه المسلمين الى انهم لا ينبغي أن يغتروا بأى شيء يصدر من المنافقين ولو كان توبة الى الله ، فقد تكون التوبة بالنسبة لأى شخص من غير المنافقين بسيطة واضحة ، يكفي لقبولها عند الناس مجرد صدورها من صاحبها ووجودها يدل عليها في عمله ، ولكنها بالنسبة للمنافقين شيء آخر ، انهم يخادعون في كل شيء ، وفي كل ما يصدر عنهم حتى التوبة ، وكأن القرآن يقول اذا استطاع المنافقون ان يصلحوا وان يعتصموا بالله وأن يخلصوا دينهم لله ، مع بعد ذلك وعدم استعداد طبعهم له فهم تائبون ، والأكثر غرابة وعمقا في دقة التعبير في الآية ، انها نتيجة لهذه القيود السابقة ، التي تجعل توبة المنافقين معلقة على شيء بعيد لم تعدهم وعدا صريحا مباشرا بقبول التوبة ، لأنهم لن يكونوا قط مؤمنين ، وانما (مع المؤمنين) كما تنص الآية ، ونتيجة لذلك أيضا تأبى الآية الكريمة أن تعدهم بالثواب ، فالثواب ليس لهم ، وانما هو

(١) عمدة التفسير ٣/٣٢ ٠
(٢) تفسير الطبرى ٩/٣٤٢ ٠
(٣) الآيتان ١٤٥ ، ١٤٦ سورة النساء ٠

للمؤمنين » وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما » وعليهم هم أن يلحقوا بالمؤمنين ليكونوا معهم ان استطاعوا ، ولكنهم فى أغلب الأحوال لن يستطيعوا حتى أن يكونوا مع المؤمنين ، لا لاستحالة ذلك ، بل لأنهم لا يحاولون مقاومة طبع النفاق فى نفوسهم ، ومع ان هذه الاشارة تبدو واضحة فى الآية الا ان المفسرين لم يقفوا عندها ، ولم يحاولوا ابرازها ، بل أجروها مجرى التوبة العادية التى تصدر من المؤمنين (١) ، وتجاهلها بعضهم كما فعل ابن كثير حيث لم يعلق على لفظ (مع) فى قوله تعالى (مع المؤمنين) (٢) .

٢ – المنافقون والسخرية :

تحدث القرآن الكريم عن ان هناك كافرين غير المنافقين سخروا واستهزأوا بالاسلام والمسلمين ، ولكن يبدو من هذا الحديث ، انه كان يصدر من أفراد مخصوصين ، وتؤيد ذلك روايات أسباب النزول ، فالسخرية من الكافرين الآخرين بالاسلام والمسلمين لم تنسب الى الكافرين عامة ، وانما الى نفر أو الى جماعات منهم يمثلون جبهة الكفر ، ويتحدثون بلسانها ، أما المنافقون فيبدو من حديث القرآن عن سخريتهم انها جزء من طبيعتهم جميعا ، وصفة من صفاتهم ، وهذا توضيح للواقع الذى سبقت الاشارة اليه ، من أن سخرية المنافقين بالاسلام ليس المقصود بها صدور كلام ساخر أو مستهزىء فحسب ، وانما هى سخرية نابعة من فقدانهم العقيدة ، فهم لا يرون فى أى دين أو عقيدة شيئا يستحق الاهتمام ، وانما يرونه تفاهة أو عبثا أو أى شىء من قبيل الاستهانة وعدم الاهتمام ، فنفوسهم ذاتها تحمل السخرية والاستهزاء بالعقيدة ، سواء صدر من ألفاظهم ما يدل على ذلك أو لم يصدر ، وهذا يختلف اختلافا شديدا مع سخرية الكافرين الآخرين ، فان هذه لا تنبع من نفوس مستهينة غير مبالية وخاصة بالاسلام بوصفه عقيدة ، وانما تمثل مجرد سلاح عدائى يراد به الضرب فى الاسلام والمسلمين ، بخلاف المنافقين الذين لا يحملون فى نفوسهم الا الاستهزاء النابع من الاستهانة ، ولذلك يجعل العلماء صفة الاستهزاء فارقا بين المنافق والكافر الصريح ، حيث يرون التصريح بالكفر تحديا وعداء يدلان على الاهتمام ، كما يقول الرازى فى سياق تقرير أن النفاق أقبح من الكفر الصريح « ان المنافق ضم الى كفره الاستهزاء بخلاف الكافر » (٣) ومعنى ذلك أن استهزاء المنافق ليس شيئا عارضا ، أو حدثا ظاهرا مؤقتا ، وانما هو قرين النفاق ملازم له ملازمة الصفة الثابتة ، بحيث لايكون نفاق بدون استهزاء وكما يقول الزمخشرى

---

(١) انظر للمثال تفسيرى الطبرى والزمخشرى للآيتين السابقتين .
(٢) انظر عمدة التفسير لابن كثير .
(٣) انظر التفسير الكبير للامام الرازى ١/١٩٠ .

« فان قلت لم كان المنافق اشد عذابا من الكافر ؟ قلت لانه مثله في الكفر ، وضم الى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهليه ومداجاتهم » (١) .

والقرآن الكريم يؤكد في كثير من مواضعه هذه الصفة في المنافقين ، مبينا انه يبادلهم سخرية بسخرية ، وان كانت سخرية القرآن اشد وقعا ، واوقع اصابة ، فمن ذلك ما يكشفه القرآن من اسرارهم التي يظنونها مطوية لا يظهر عليها المسلمون ، ولا يمكن لأى وسيلة أن تظهرهم عليها ، حين يخلون الى شياطينهم وقادتهم من اليهود الذين تزعموا النفاق وأداروا دفته ، فيقولون لهؤلاء الشياطين ، مهمـــا يكن من مخادعتنا للمسلمين ، ومهما يبـــد من مخالطتنا لهم ومشاركتنا اياهم فيما يعملون من أمور دينهم فاننا ثابتون على عدائهم ومخادعتهم ، وانما نفعل ما نفعل معهم لعبا بهم وسخرية منهم ، ولكن القرآن يكشف ذلك ، مبينا لهم انهم ان يكونوا ساخرين مستهزئين فان الله سبحانه أشد منهم سخرية وأقدر على أن يحول استهزاءهم بالمسلمين الى حفرة يترددون فيها من حيث لا يشعرون « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » (٢) ثم يزيد القرآن كشفا لما في نفوسهم ، فمن حيث انهم لا يســـتهدفون من مخادعتهم للمسلمين ، ومن تذبذبهم بين الكافرين والمسلمين الا طلب المنفعة الشخصية ، والمصلحة المادية المباشرة ، فان القرآن يقطع عليهم هذا الطريق ، فيبين لهم انهم حين يتاجرون بالدين ، ويضللون في العقيدة ابتغاء الكسب ، فانهم خاسرون ، ولذلك يكلمهم القرآن حينئذ بلغة التجارة ، لأنها مطابقة لما في نفوسهم ولما يستهدفونه في كل ما يسلكون ، فيقول سبحانه بعد الآيتين السابقتين « أولئك الذين اشتروا الضـــلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ويؤكد القرآن الكريم ان سخرية المنافقين مهما صيغت في كلام أو صورت في شيء محسوس ، فانها متعمقة في قلوبهم ، نابعة من أعماق نفوسهم ، ولذلك كانوا يتوجسون دائما ويخافون من نزول القرآن ، لأن الله سبحانه يكشف فيه عن أسرارهم ، ويفضح مكنوناتهم ، بل يفضح مشاعرهم وخبايا نفوسهم ، وهو أخطر ما يخشاه المنافقون ، لأنهم يفعلون كل ما يفعـــلون ، ويكبدون انفســهم كل جهــد ، في سبيل ان تظل أسرارهم ونفوسهم مغلقــة معماة على المسلمين ، ولكن القرآن يذهب جهودهم هباء حين يكشف للمسلمين ما جهد المنافقون في اخفــائه ، فيقول سبحانه « يحــذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا ان الله مخرج ما تحذرون ، ولئن سألتهم

---

(١) تفسير الكشاف للآية ١٤٥ سورة النساء .
(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ سورة البقرة .

ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل اباللہ وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ » (١) فالآية الأولى تحدد ان السر الذى يحذر المنافقون كشف القرآن اياه (فى قلوبهم) وليس عملا ظاهرا يسرونه فيما بينهم ، وهذا السر هو الاستهزاء (قل استهزئوا ان الله مخرج ما تحذرون) ، وليس استهزاؤهم موجها ضد المسلمين بوصفهم أعداء لهم كما يغلب على استهزاء المشركين ، وانما هو استهزاء بالدين نفسه فى صورة كل من يمثلونه (قل اباللہ وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟) ، فالآية الأولى تحدد صفة الاستهزاء فى دخيلة نفوسهم ، اما الآية الثانية فيروى انها نزلت فى جماعة من المنافقين ، مر بهم النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى سيره الى غزوة تبوك ، فقالوا : انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه ، هيهات هيهات ، فاطلع الله نبيه على ذلك فقال : احبسوا على هذا الركب ، فاتاهم فقال : قلتم كذا وكذا ، قالوا يا نبى الله لا ، والله ما كنا فى شىء من أمرك ، ولا من أمر أصحابك ، ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر .

ولئن كانت سخرية المنافقين أصيلة عميقة فى نفوسهم ، فانها بطبيعة الحال تظهر فى كلامهم وسلوكهم ، ولذلك كان أبرز ما يظهر منهم نحو المسلمين هو الاستهزاء ، ولو كان فى صورة مديح أو تودد ، كما يروى أن منافقا جاء الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فاخذ يثنى عليه ويطريه اطراء فياضا ، فتركه على حتى فرغ من كلامه ، ثم قال له : يا هذا ، أنا دون ما تقول ، وفوق ما تعتقد يعنى بالشق الأخير من كلامه انه أعقل من أن ينخدع بنفاق هذا المنافق ، وهكذا دائما ، كانوا يتخذون من كل شىء فى الاسلام ، ومن كل موقف يمر بالمسلمين مجالا لسخريتهم واستهزائهم ، ومن ذلك ما يروى (ان النبى صلى الله عليه وسلم حث المسلمين على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف باربعين أوقية من ذهب ، أو بأربعة آلاف درهم ، وقال : كان لى ثمانية آلاف فاقرضت ربى اربعة وأمسكت اربعة لعيالى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما امسكت ، فبارك الله له حتى صولحت تماضر امراته عن ربع الثمن على ثمانين الفا ، وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الانصارى رضى الله عنه بصاع من تمر ، فقال : بت ليلتى أجر بالجرير (٢) على صاعين ، فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع ، فامره الرسول أن ينثره على الصدقات ، فلمزهم المنافقون ، وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم الا رياء ، وان كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ولكنه احب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات » (٣) فانزل الله سبحانه فى شان هؤلاء المنافقين

(١) الآيتان ٦٤ ، ٦٥ سورة التوبة .
(٢) الجرير حبل البعير .
(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى للآية ٧٩ سورة التوبة .

قوله « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصـدقات والذين لا يجـدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم » (١) ٠

ولكن القرآن الكريم يجمع سخريتهم كلها ، واستهزاءهم كله ، ليضعه في موضع بالغ التهوين من شأن المنافقين في استهزائهم وتهكمهم بالمسلمين ، ويصوغ ذلك في صيغة السخرية من سوء تقديرهم وتفكيرهم ، حيث يفرحون بأحداث عارضة ، واوقات عابرة ، ناسين ان الله سبحانه لهم بالمرصاد ، وان سخريتهم كلها ، وضحكهم كله ، سيتحول الى آلام طويلة عميقة يتجرعونها في غير نهاية ، فيتحول ضحكهم الى بكاء ، وليقارنوا بين هذا الضحك العاجل القصير الذى يفرحون به ، وبين البكاء الطويل الذى لا آخر له ، والذى هو في انتظارهم « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جـزاء بما كانوا يكسبون » (٢) وموضـع السخرية في الآية بالاضافة الى المقارنة بين الضحك والبكاء ، أن الآية لا تتحدث عن ضحكهم واستهزائهم بالمسلمين في صيغة الخبر ، كما هو المتوقع ، وانما تخرجه في اسلوب الأمر (فليضحكوا) وليس المراد بداهة ان الله يأمرهم بالضحك ، وانما هو لجوء الى الأسلوب الشعبى المتـداول في سخرية الناس بعضهم ببعض للدلالة على الاستهانة وعدم المبالاة من حيث أن ضحك المنافقين في عدم جدواه عليهم ، وعدم تفكيرهم في عاقبته بالنسبة لهم شيء يثير السخرية والضحك من المنافقين ٠

٣ ـ صفات المنافقين :

من اهم مواضع الخطر في المنافقين انهم غير ظاهرين ، وانما يحاولون دائما أن يقنعوا انفسهم باقنعة كثيفة ليبدو للمسلمين انهم منهم ، بل قد يغبطهم بعض المسلمين على قوة تدينهـم ، وعلى قوة اسـتعدادهم لعمل كل ما هو خير ، نتيجة لمبالغة المنافقين في اخفاء أمرهم ، وهذه المبالغة في الاخفاء تعتمد على قوة محاولتهم التشبه بالمسلمين في أعمالهم وعباداتهم ، وكل ما يبعد عنهم شبهة النفاق ، ومن هـذا الموضع الذى يندسـون فيه بين المسلمين يديرون فتنهم ودسائسهم ، وينفثون سمومهم ، وقد كان يمكن في حياة النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلع الله نبيه عليهم عن طريق الوحى ، فيحدد له اشخاصهم ، وبذلك يمكن ان يؤخذ كل منافق ليلقى جزاءه ، ويتقى شره ، ولكن الاسلام دين خالد ، ليس موقوتا بحياة النبى ، ولا بعصر معين ، ولذلك لم يكن كشف الوحى للمنافقين لو حدث مفيدا الا في حياة النبى ، أما والاسلام قائم مستمر فان القرآن آثر أن يضع قائمة بصفات المنافقين في كل عصر ، وفي كل مكان ، ليمكن كشفهم على ضوء هذه الصفات ، وهذه الصفات اغنت النبى صلى الله

---

(١) الآية ٧٩ سورة التوبة ٠
(٢) الآية ٨٢ سورة التوبة ٠

عليه وسلم وأصحابه عن الحاجة الى الوحي في تحديد أشخاص المنافقين ، كما يقول سبحانه « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم » (١) ، وهذه الصفات التي حددها القرآن الكريم ، لا تختص بمعين من المنافقين ولا بنوع خاص ، وانما هي أعراض عامة تلازم النفاق حيث يوجد ، وفي القرآن الكريم سورة سميت باسمهم ، وهي سورة « المنافقون » وقد جمعت هذه السورة أهم صفات النفاق وأعراضه ، كما بينت الأساس الذي يرتكز عليه النفاق في النفس ، وينبع منه ، وتدور حوله الصفات .

فأما أساس النفاق فهو ما سبق حديثه من فقدان نفوسهم الاستعداد للايمان ، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بالطبع على قلوبهم ، بحيث تكون قلوبهم مغلقة عن الايمان ، فاقدة أى استعداد له ، مما لا يرجى معه أى أمل في استضاءة هذه القلوب ، أو شعورها بالايمان الحقيقي ، ولذلك يستوى عندها الايمان والكفر ، ولا ترى بأسا بالتردد بينهما ، ولا يعلق بها شيء منهما مهما طال ترددها ، ولذلك يقول القرآن بعد ذكر بعض صفاتهم ، مبينا منشأ هذه الصفات وسببها « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » (٢) وكثير من المفسرين يجهدون انفسهم في فهم نسبة الايمان الى المنافقين في الآية السابقة ، على أساس ان الايمان لا يطلق الا على الاعتقاد الحقيقي الصادق ، فيرون في وصف المنافقين به لبسا يحتاج الى كثير من البيان والتعليل لرفعه وابعاد ما يوحى به ظاهره ، ولكن الواقع ان القرآن لا يعنى وصفهم بالايمان ، ولا نسبة الايمان اليهم من قريب أو بعيد ، فليس المراد انهم آمنوا ثم ارتدوا عن ايمانهم ، وانما المراد الذي تؤيده بوضوح معاني أخرى في القرآن الكريم انهم لم يدينوا قط بعقيدة ولو كانت شركا ، وكل ما يظهرونه ويتمثلون فيه من الايمان والكفر انما هو تلون يكتسونه ليبلغوا به أهدافهم ، فليس لديهم بأس في أن يتلونوا كل يوم أو كل ساعة بلون من ألوان الايمان أو الكفر على السواء ، ولذلك كانت آية أخرى في القرآن أكثر توضيحا لهذا المعنى ، في قوله تعالى « ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا » (٣) فواضح في هذه الآية انه ليس المقصود وصفهم بالايمان أو الكفر ، وانما المقصود انهم لا يحملون أى عقيدة ، لا الايمان ولا حتى الكفر الذي هو نوع من الاعتقاد رغم انه خاطىء ، فهم يترددون بين الايمان والكفر ، لا اعتقادا فيهما ، ولا اعتناقا لهما ، وانما تخفيا فيهما عن أعين الناس وعقولهم ، كما يقول سبحانه « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى

---

(١) الآية ٣٠ سورة محمد .
(٢) الآية ٣ سورة المنافقون .
(٣) الآية ١٣٧ سورة النساء .

هؤلاء » ، فقلوبهم مطبوع عليها لانها شاذة فى تكوينها ، فلن يصل اليها ايمان أو اعتقاد ، ولذلك اختير بعد ذلك من الألفاظ « لا يفقهون » وحذف المفعول به يفيد اطلاق عدم الفقه ، فهم لا يفقهون أى شىء قط فيما طبع على قلوبهم فيه ، وهو الايمان ، ويؤكد ذلك ما فى الآية السابقة من قوله تعالى (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) وقوله سبحانه فى سورة (المنافقون) تأكيدا لدوام نفاقهم وعدم مغفرة الله لهم ، أو هدايته اياهم « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدى القوم الفاسقين » ، ولذلك اختير لفظ (الفاسقين) الذى يدور استعماله فى العربية حول الخروج ، كما يقولون فى فسق الرطبة حين تخرج عن قشرها ،وكما يسمون الفأرة الفويسقة مراعين خروجها من جحرها (١) ، وحذف المتعلق حيث لم يحدد الفسق عن أى شىء فى الآية يفهم منه أيضا الاطلاق وهو خروج المنافقين عن كل ما يتعلق بالسياق ، وهو الايمان والعقيدة .

وأما الصـــفات المميزة للمنافقين ، والتى يستطيع أولو الألباب ودقة الملاحظة أن يكتشفوا أى منافق على ضوئها ، والتى قال عنها بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لم يخف علينا بعدها منافق ، فيمكن استعراض أبرزها فيما يأتى :

١ ـ استشعار الريبة :

من حكم العرب قولهم (يكاد المريب يقول خذونى) وهـذا الوصف أكثر ما يكون انطباقا على المنافقين ، لأن نفوس المنافقين أكثر النفوس شعورا بالريبة ، فهم أعلم الناس بدخيلة نفوسهم ، ودخيلة نفوسهم تناقض ما يظهرونه كل المناقضة ، فهم مثلا حينما يلقون المسلمين يظهرون لهم الاســـلام ، ولكنهم يعلمون ان نفوسهم لا تؤمن بشىء مما يظهرون ، وانها لا تحمل للاســـلام والمسلمين الا كل بغض وحقد وعداء ، ولذلك حينما يظهرون الاسلام والتدين ، لا يطمئنون بهذا المظهر ، ولا يحسون السكينة فى تمثيله ، لسبب واحد ، هو خشيتهم من أن يطلع الناس على ما فى قلوبهم ، فكأنهم يشعرون أو يخشون أن يحس النـــاس بما فى أعماقهم ، فيحاولون أن يضيفوا الى تكلفهم الظهـور بالاســلام شيئا آخر ، هو أن يؤكدوا للمسلمين أنهم صادقون فى اسلامهم وانه لا ينبغى لأحد أن يشك فيهم أو يرتاب فى أمرهم ، وهذه المرحلة هى التى تميز المنافقين عن غيرهم فى هذا الموقف ، فلو فرضنا مجىء شخصين ، أحدهما صادق الاسلام ، والآخر منافق يظهر الاسلام ويخفى الكفر ، ثم تحدثنا الى الناس باسلامهما ، فان المسلم الصادق ، يكفيه أن يخبر بأنه مسلم ، ولا يحتاج فوق ذلك الى تأكيد لاسلامه ، لأنه واثق مما يقول ، ولا يدور فى خلده ان الناس

---

(١) انظر اساس البلاغة للزمخشرى مادة فسق .

سيكذبونه ، فما دام صادقا ، وليس هناك ما يحمل الناس او يدعوهم الى تكذيبه ، فليس هناك داع لان يؤكد لهم ما يقول ، بل يكفيه مجرد الاخبار ، اما المنافق ، فهو يعلم انه كاذب فى دعواه الاسلام ، ويتوجس أن يشعر الناس بكذبه حينما يخبرهم باسلامه ، فلا يكفيه مجرد الاخبار ، وانما يلجأ الى محاولات أخرى يحاول بها ابعاد الريبة عنه ، والشك فيه ، فيؤكد لسامعيه ، ويحلف لهم انه مسلم ، وقد يحـاول اقامة البينات على ذلك ، ونحو هــذا مما يظن فيه اقناع سامعيه بصدق ما يقول ، قد جعل القرآن الكريم هذا المعنى علامة من علامات النفاق ، ومن ذلك قوله سبحانه « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ٠٠ » (١) فلكونهم يعلمون انهم كاذبون ويخشون أن يكتشف الرسول كذبهم لجأوا الى الحلف والى التاكيد ، فقولهم (نشهد) فيه معنى اليمين ، وقولهم (انك لرســول الله) يحمل تاكيدين ، أحدهما بلفظ (ان) والآخر بلفظ (اللام) فى قوله تعالى (لرسول الله) وهذا لا ينتظر من شخص صادق الدعوى فى اسلامه ، والذين يأتون الى النبى صلى الله عليه وسلم من الكافرين طالبين الدخول فى الاسلام ، لا يزيدون على اعلان اسلامهم ، لأنهم لا يرتابون فى ذلك ، ولا يتوقعون من أحد ريبة فيهم ، فتوقع الريبة والشك من السامع هو سبب لجوء المتكلم الى الحلف أو التاكيد ، وعلماء البلاغة يدركون هذا المعنى ولا يختلفون فيه ، من حيث ان التاكيد لا يكون الا عند احساس المتكلم بشك السامع فى كلامه ، ولما كان المنافقون واثقين من كذبهم ، ويسيطر عليهم الشعور بشك الناس فيهم ، لذلك كان كلامهم دائما يعتمد على الحلف والتاكيد ، والقرآن يؤكد هذا فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله تعالى « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » (٢) ، وقوله تعالى « ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون » (٣) ، فهم دائما يحلفون على كلامهم ويؤكدونه ، لســيطرة التوجس على نفوسهم ، والخوف من ان يكتشف أمرهم ، فيجعلون من ايمانهم وتاكيداتهم محاولة أخرى لتضليل السامع ، وصرفه عن الشك فى أمرهم ، ولكن القرآن يرد هذا السهم الى نحورهم ، ويجعل الوسيلة التى أرادوا أن يغطوا بها نفاقهم هى نفسها وسيلة لكشف نفاقهم ، ويسخر القرآن من الأيمان التى يحلفها المنافقون ، ويجهدون أنفسهم بها ليرضوا المسلمين عنهم ، وليحاولوا رفع الشك من نفوسهم ، فيبين لهم ان رضى الناس ليس غاية المؤمنين ، وانما غاية المؤمنين رضى الله ، فلو كانوا مؤمنين كما يزعمون لما نافقوا ، بل لحرصوا على ارضاء الله بالتزام الايمان وصدق العقيدة ، وحينئذ يكونون قد حققوا بالاضافة الى رضى الله ، الغاية التى ينشدونها

(١) الآية الأولى من سورة (المنافقون) ٠
(٣) الآية ٥٦ سورة التوبة ٠
(٢) الآية ٤٢ من سورة التوبة ٠

بالحلف ، فحين يرضى عنهم الله ، سيرضى عنهم الرسول ، ومن البدهي انه حين يرضى عنهم الرسول سيرضى عنهم المسلمون ، الذين يبذل المنافقون أيمانهم لينالوا رضاهم « يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله احق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين » (١) ، وكذلك في قوله تعالى « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير » (٢) وقوله تعالى « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون » (٣) ، وفي الآيتين السابقتين تهكم واحتقار شديد للمنافقين ، أما الآية الأولى فتتهكم بهم موبخة اياهم على سوء الخلق ، وانكار الجميل ، وجزاؤهم للمعروف بالسيء ، فان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن اليهم ، وغض الطرف عن نفاقهم رجاء أن يتوبوا الى الله ، فاعطاهم ويسر لهم من الرزق مالم يكونوا ليصلوا اليه لولاه ، فكان المتوقع ان يثمر هذا في قلوبهم خيرا ، ولكنهم ردوا هذا الاحسان نفاقا وكفرا وعداء للرسول والمسلمين ، فيؤنبهم القرآن على هذا الخلق تأنيبا ساخرا موجعا بقوله « وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » كان احسان الرسول اليهم كان هو مصدر نقمتهم عليه ، ومن بابه قول الشاعر في عكس هذا المعنى :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وسواء كان سبب نزول الآية أحد المنافقين وهو الجلاس بن سويد كما ينقل المفسرون أو غيره ، فان المعنى لا يخلو من عموم يشير الى خلق المنافقين ·

واما الآية الأخيرة ، فانها تصب على المنافقين احتقارا شديدا ، وتأمر المسلمين بأن يعاملوهم بهذا الاحتقار ، فهم يحلفون للمسلمين كل هذه الأيمان حين يتخلفون عن الجهاد مع المسلمين ، مدعين ان لهم أعذارا لم يستطيعوا معها ان يشاركوا في الجهاد ، ليصدق المسلمون هذه الأيمان فلا يؤاخذونهم ولا يعاتبونهم ، فالقرآن يقول للمسلمين ان هؤلاء المنافقين أهون واحقر من أن ترفعوهم الى مرتبة العتاب « فاعرضوا عنهم انهم رجس » ·

ولئن كان القرآن يأمر المسلمين بالاعراض عن عتاب المنافقين أو توبيخهم احتقارا لهم ، فانه يحذر المسلمين من أن تطمئن نفوسهم الى المنافقين ، أو أن يشعروا نحوهم بالرضى ، فان الله ساخط عليهم ، ولا ينبغي للمسلمين أن يرضوا عمن سخط الله عليه ، وفرق بين الاعراض والرضى ، ولذلك تجيء الآية التالية

---

(١) الآية ٦٢ سورة التوبة ·
(٢) الآية ٧٤ سورة التوبة ·
(٣) الآية ٩٥ سورة التوبة ·

للآية السابقة بقولها « يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

وحتى المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار لينافسوا به مسجد الرسول ، ويصرفوا اليه فريقا من المسلمين فيمحاولة لتضليلهم وغوايتهم يحلفون أيضا ، مؤكدين انهم لم يقصدوا ببناء هذا المسجد الا الخير ، ولكن القرآن يكذبهم ويكشف نفاقهم « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفروا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » (١) .

فالمنافقون اذن يعتمدون فى كلامهم على التاكيد والحلف ، وهو كما يقول علماء البلاغة عن أسلوب التأكيد ، تابع من شعورهم بشك السامعين فيهم ، وارتيابهم بهم ، فيجعل المنافقون من ايمانهم التى يحلفونها ستارا يحاولون به ستر نفاقهم .

ولكن القرآن الكريم يسخر من اعتمادهم على الحلف ، واستتارهم به ، فيصوغ من ذلك تشبيها رائعا يحمل جانبين ذوى أهمية كبيرة فى بيان أمر المنافقين ، أحدهما عن شعور المنافقين نحو المسلمين أثناء حلفهم هذه الأيمان الكثيرة ، والآخر سخرية منهم فى استتارهم خلف الأيمان ، فيشبه اعتمادهم على الحلف بلبس الجنة ، وهى الدرع التى يلبسها المقاتل فى الحرب ليتقى بها طعنات الأعداء ، فيقول سبحانه « اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون » (٢) ، فالتعبير بلفظ (جنة) واختياره فى هذا المقام يوحى بأن المنافقين فيما بينهم وبين أنفسهم يعتبرون أنفسهم فى حالة حرب مع المسلمين ، مهما يكن مظهر توددهم أو تقربهم الى المسلمين ، وهم بشعور الحرب يتخذون أسلحة لها ، وقد اختاروا الحلف ليكون سلاح وقاية لهم من المسلمين ، كما يلبس المقاتل جنته ليتقى بها سلاح الأعداء ، والعلم الحديث فى الحرب والصراع الدولى ، يجعل من هذا المعنى حقيقة لا تجوز فيها ، فان الحرب النفسية أصبحت ميدانا مستقلا عن الحرب العسكرية ، ولها أسلحة كثيرة تعتمد على النفسية والمعنويات ، وتستهدفها فى هذه الحرب (٣) ، والمنافقون كانوا يمثلون أخطر من يحاربون المسلمين بالحرب النفسية ، حيث كانت حربهم كلها للاسلام والمسلمين حربا نفسية ، والأيمان التى يحلفونها ليخدعوا بها المسلمين ويكسبوا ثقتهم ويأمنوا بها بطشهم هى فى عرف الحرب

---

(١) الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ سورة التوبة .
(٢) الآية الثانية من سورة (المنافقون) .
(٣) انظر الحرب النفسية صلاح نصر .

النفسية سلاح حقيقي لا مجازي ، وهي تشبيه الدرع للمقاتل في الحرب العسكرية شبها حقيقيا لا مجازيا .

وأما زاوية السخرية في الآية ، فهي ناحية التصور والخيال ، فمهما يكن من شأن أيمانهم وحربهم النفسية ، فان تصورهم في الخيال يلبسون دروعا من الايمان يحتمون بها من غضب المسلمين ، تصور طريف يثير السخرية والضحك ، وهو في التصور قريب من تشبيه المشركين في اعتمادهم على آلهتهم واحتمائهم بها بمن يحتمي ببيت العنكبوت الواهن في قوله تعالى « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (١) .

٢ ـ الكذب :

وليس المراد مجرد صدور الكذب من المنافقين ، فهذا القدر ليس قاصرا على المنافقين ، بل هو واقع أو جائز على كل الناس الا من عصم الله ، وانما المراد ان الكذب صفة ملازمة لهم ، وهم بطبعهم مهيئون له ، فان النفاق نفسه كذب صريح ، حيث يعتمد على تكلفهم شيئا ليس فيهم ، وادعائهم أمرا هو منهم بريء ، وهو الايمان ، وبما ان النفاق ملازم لهم ، فالكذب اذن ملازم لهم أيضا ، ولكننا لا نقصد بصفة الكذب النفاق ، أو حصرها في النفاق من حيث العقيدة وانما نقصد الكذب في الحديث ، وكونه صفة مميزة للمنافقين ، والنفاق بطبيعه يهيىء صاحبه لهذه الصفة ، ذلك لأن المنافق يعلم انه يخفي أمره عن الناس ، وانه مخالف للناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، فهو ليس مع المؤمنين ، ولكنه يكذب عليهم ويدعي انه منهم ، وليس مع الكافرين ، ولكنه أيضا يكذب عليهم ويدعي انه منهم ، والحقيقة انه ليس مع أحد قط ، وليس مع شيء قط ، الا نفسه ومصلحته الشخصية ، كما يقول سبحانه « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » ، وشعور المنافق بانه يخفي حقيقته عن الناس ، وتغلغل هذا الشعور في نفسه ، يجعله يلتمس دائما أغطية وحجبا يزيد بها من اخفاء نفسه وحقيقته ، والوسيلة المباشرة في صلته بالناس الكلام ، فيضع في ذهنه دائما ان كلامه يجب ان يكون هذا الستار الذي يحجب حقيقته عن الناس ، بان يصور لهم الصورة التي يريدها المنافق ، وهي اصطناع مظهر يخالف حقيقته ، وكون المنافق يبني نظرته الى كلامه على هذا الأساس ، يجعل كلامه نفسه متجها الى مخالفة الواقع ، سواء أكان فيما يتعلق بالعقيدة أم بغيرها ، أعني ان الأصل في كذب المنافق ، هو التماسه وسائل لاخفاء حقيقته ، وأهم هذه الوسائل الكلام ، واذا كانت الحقيقة المهمة التي يحرص على اخفائها تتعلق بالعقيدة ، ويتركز الكذب حولها ، فان الكذب عند المنافق لا يقتصر على جانب العقيدة

---

(١) الآية ٤١ سورة العنكبوت .

بل يصبح خلقا له سواء في العقيدة وغيرها ، لانه يعتبر كلامه من حيث المبدأ غطاء له ، فاذا كلامه كله يصطبغ بهذه الصيغة ، فيصبح الكذب صفة له ، ومن الغريب وما ينقله الرازى عن بعض المختلفين حول النفاق والكفر الصريح ، من قولهم ان ادعاء المنافق للايمان يعتبر صدقا وليس كذبا ، حيث يقولون في هذه المقارنة « الكافر الأصلى اقبح لانه جاهل بالقلب كاذب باللسان ، والمنافق جاهل بالقلب صادق باللسان » (١) ، وكأنهم يريدون أن يدخلوا المسألة في فلسفة سفسطية ، هل الصدق مطابقة الحقيقة ، أم مطابقة ما فى نفس المتكلم ؟ ولكن الواقع أن مقياس الصدق والكذب هو مطابقة ما فى نفس المتكلم أو عدم مطابقته ، وبهذا يكون الكافر الصريح صادقا ، لأنه أخبر عما فى نفسه بصدق ويكون المنافق هو الكاذب ، لأن كلامه يخالف ما فى نفسه وبنحو هذا يرد الامام الرازى على القائلين بصدق المنافقين فى ادعائهم الاسلام ، مقررا ان المنافقين كاذبون وليسوا صادقين فى هذا ·

وحين ننظر الى الكذب من الناحية الخلقية نجد انه من أسوأ الصفات الخلقية ، ان لم يكن أسوأها على الاطلاق ، لأنه بالاضافة الى كونه من أبرز الرذائل الخلقية ، والى كونه يمحو ثقة الناس فى صاحبه ، فانه لا ينبع من نفس كريمة ، ولا من نفس يعتز بها صاحبها ، فحتى مع صرف النظر عن الناحية الدينية ، فان الكذب من الناحية الشخصية الذاتية ، يمثل فقدان الثقة بالنفس ، وفقـــدان الشعور بالكرامة والعزة ، لأن الذى يعتز بنفسه ، لا يرى غضاضة فى أن يظهر مافيها للناس ، حتى ولو كان يعلم ان ما يقوله لا يرضى الناس ، وكل الناس يعلم ان الكذب رذيلة ومنقصة لصاحبه بين الناس ، والذى يعتز بنفسه يأبى أن يأثر الناس عنه كذبا ، ولذلك كثيرا ما نجد فى أخبار سادة العرب فى الجاهلية ، ايثارهم الصدق ولو كان فيه أضرار أو حتى مهلكة ، وحين يسألون عما الجأهم الى هذا الصدق الذى يجنى عليهم ، أو يفوت عليهم نفعا كبيرا ، يكون جوابهم المألوف (خشيت أن يأثر الناس عنى كذبا) ومن ذلك قصة أبى سفيان ابن حرب ، حينما كان زعيم الشرك فى مكة ، وقد استدعاه هرقل ملك الروم فى نفر من مشركى قريش ، وظل يسأله عن محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وخلقه ، وقد كان أبو سفيان حينئذ يتمنى أن يقدم الى هرقل وقومه صورة سيئة عن محمد ودينه ، ولكن اعتزازه بنفسه حال بينه وبين الكذب ، وحين سئل عما منعه من أن يقول أمام هرقل عن محمد ما يشاء ، قال قولة سادة العرب المشهورة : خشيت أن يؤثر عنى الكذب (٢) ·

وهذا المدلول للكذب ، وهو فقدان الثقـة بالنفس أكثر ما يكون انطباقا على النفاق ، فان المنافق أعلم الناس بدخيلة نفسه ، ومن هذه الدخيلة يعلم أنه شخص مذبذب لا قرار له ولا ثبات ، ويعلم انه شخص وحيـــد منبوذ ،

(١) تفسير الامام الرازى ١/١٩٠ ·
(٢) انظر القصة فى صحيح البخارى ·

لا صديق له ولا نصير ، لأنه عدو لكل الناس ، ويعلم انه شخص أجوف لا يحمل أى مبدأ أو عقيدة ، فليس لنفسه فى نظره قيمة يحرص أو يحافظ عليها ، مما يمنعه من الاساءة اليها بالكذب ، وليس فى نفسه عقيدة أو مبادىء أو خلق معين يمنعه من مزاولة الكذب ٠

ولذلك استثنى النبى صلى الله عليه وسلم صفة الكذب من بين صفات أخرى ، مبينا ان هذه الصفة لا تناسب الايمان ولا تتفق معه ، وذلك حين سئل : أيكون المؤمن جبانا ، فقال نعم ، وسئل : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم ، وسئل : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال لا ، مع مراعاة الفارق بين كاذب وكذاب فان لفظ (كاذب) يفيد مجرد صدور الكذب ، وهذا لا يتعارض مع الايمان ، وانما يتعارض معه أن يكون الكذب صفة وخلقا لصاحبه ، ولهذا عبروا عن ذلك بلفظ (كذاب) الذى هو من صيغ المبالغة ٠

وقد سجل القرآن الكريم الكذب على المنافقين فى كثير من مواضعه ، ومن ذلك قوله تعالى « والله يعلم انهم لكاذبون » (١) وقوله تعالى « والله يشهد انهم لكاذبون » (٢) ٠ وفى الآية السابقة أيضـــا قوله تعالى « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » ، والألفاظ المعبر بها عن كذبهم فى القرآن توحى بأن الكذب فى المنافقين ليس عارضا أو وليد أحداث معينة ، وانما هو صفة ملازمة لهم ، وانه متوقع دائما منهم ، ولذلك نلمس من الأخبار التى تتحدث عن مواقف انكشف فيها كذبهم ، انهم لا يخجلون من الكذب ، ولا من نســبته اليهم ، واقصى ما يفعلون حينئذ أن يحاولوا نفى تهمة الكذب عنهم بكذب آخر ، دون أن يبدو خجلا أو تحرجا ، لأن الحياء كما يقول الرازى تغير وانكســار يعترى الانسان من خوف ما يعاب به ويذم (٣) ، والمنافقون بطبعهم فى التلون والنفاق ، لا يخافون عيبا ولا ذما ، فلا يخافون الكذب ولا يستحيون منه ٠

٣ ــ الاعتماد على المظهر :

وليس المقصود بذلك مجرد العناية بالمظهر ، فذلك القدر غير معيب ، بل هو أقرب الى الحسنة منه الى السيئة ، ولكن المنافقين لا يقفون بمظهرهم عند هذا الحد ، ولا يكتفون منه بالقدر الذى يدعو الى الرغبة ، ولا يحمل على النفور ، وانما يصرفون اليه كل همهم ، ويفرغون فيه كل طاقتهم ، لأنه أيضا من أهم الستائر التى يسدلونها على حقيقتهم محاولين اخفاء هذه الحقيقة ، فلشعورهم بالريبة فى نفوسهم ، ولخوفهم من أن يكشف الناس أمرهم يلتمسون كل وسيلة لزيادة تضليل الناس عن حقيقتهم ، وصرفهم عن الشك فى أمرهم ، ومن ذلك

---

(١) من الآية ٤٢ سورة التوبة ٠

(٢) من الآية ١٠٧ سورة التوبة ٠

(٣) تفسير الامام الرازى ٢٣٦/١ ٠

المظهر ، الذى يفرغون فيه همهم لتشغل به عيون الناس وافكارهم عن التفكير فى امرهم ، وكأنهم يجعلون هذا المظهر حاجزا وحجابا بين ما تنطوى عليه نفوسهم وبين الناس .

ويتمثل اعتماد المنافقين على المظهر فى ناحيتين ، احداهما الملبس وسائر ما يتعلق بالمظهر الجسمى ، والآخر الكلام ، ففيما يتعلق بالمظهر الجسمى نجد من حديث القرآن عنهم انهم يحاولون أن يجعلوه مثيراً للاعجاب والاهتمام بكل وسيلة ، وليس هذا بالغريب بالنسبة لما فى نفوسهم ، ومحاولتهم اخفاءه وصرف الأنظار عنه بأى شىء ، بل اننا لنلاحظ ان العناية بالمظهر مرتبطة بمعنى نفسى قد يشارك المنافقين فيه غيرهم ، وهو الحرص الشديد على ارضاء الناس ، واكتساب اعجابهم ، فنجد اصحاب المهن التى تعتمد على هذا المعنى يحرصون الى درجة المبالغة والافراط على مظهرهم ، كالمغنين والممثلين ونحو ذلك من المهن التى يقوم نجاحها أو فشلها على راى الناس ، فالممثل والمغنى مثلا تعتمد مهنتهما اعتمادا كليا على راى الناس فيهما ، فان حسن رأى الناس فيهما نجحا ، وان ساء انهارت حياتهما ، واغلق مورد رزقهما ، وتبخرت آمالهما ، واظلم مستقبلهما ، وهذه الاعتبارات كلها قائمة فى نفسيهما ، لذلك نجدهما يلتمسان كل وسيلة تكسبهما رضى الناس ، ويفرغان فى هذه الوسيلة كل جهدهما ، ومن هذه الوسائل المظهر ، وليس الكلام عن قيمة المظهر فى حقيقته ، وانما عن نظرة هذا النوع من الناس اليه ، وشعوره بالاعتماد عليه ، فأصحاب هذه المهن يحرصون كل هذا الحرص على المظهر لأنهم يشعرون انه وسيلة الى رضى الناس ، وعيشهم يقوم على رضى الناس ، واذا كان أصحاب هذه المهن بهذا الوضع لأن عيشهم أو آمالهم مرتبطة برضى الناس عنهم ، فكيف بالمنافقين الذين لا يرتبط عيشهم أو آمالهم فحسب برضى الناس ، وانما قد ترتبط حياتهم نفسها برضى الناس ، فمثلا المنافقون الذين يعيشون بين المسلمين يحاولون خداعهم ، ويضربون بمعاولهم فى أساس بنيانهم ، وينفثون بينهم كل ما تحمل نفوسهم من سموم يشعرون شعورا مسيطرا بأن حياتهم مهددة ، وان أرواحهم فى خطر ، لو اكتشف المسلمون حقيقتهم ، فهم يبذلون أقصى ما فى نفوسهم من جهد لالتماس كل وسيلة ، ولو كان فيها بصيص ضعيف من أمل فى أن ينالوا رضى المسلمين ، ويصرفوهم عن الشك فيهم أو التفكير فى أمرهم . ومن هذه الوسائل التى فيها أمل أقوى من البصيص المظهر الجسمى .

وكذلك الأمر بالنسبة للكلام ، فانه وسيلة الاتصال بالناس ، وهو الخيط الذى يربط بينهم ، وهو أيضا طريق مهم الى قلوبهم ، وبعض الناس أوتوا موهبة من الكلام الحسن الذى ينفذ الى القلوب ، ويأخذ بالأسماع ، ويجذب نفوس الناس الى صاحبه ، وليس هذا النوع موضوعا للحديث ، وانما الموضوع هو التكلف فى الحديث ، ليتخذ منه صاحبه وسيلة الى اللعب بعقول الناس

وقلوبهم ، ونحن نلاحظ ان بعض الناس الذين يحسون فى نفوسهم نقصا يحاولون دائما أن ينتهزوا كل فرصة تجمعهم بالناس ، ليجعلوا من أنفسهم محورا للحديث ، وليحاولوا أن يستولوا على آذان الناس ومشـــاعرهم ، ليوهموهم بأنهم ذوو شأن ، ويحسون ان اجتذابهم لاهتمام الناس بحديثهم يرضى غـرورهم ، ويواسى النقص الذى يشـعرون به فى نفوسـهم ، ولكن المنافقين فوق ذلك يهمهم ان يكسبوا بحديثهـم رضى الناس ، وأن يجعلوا مـن حديثهم ستارا يخفى ما فى قلوبهم من مرض ، ويشغل السامعين عن التفكير فى هذا المرض الذى يحملونه ، والمنافقون بحكم نفاقهم ومقدرتهم على خداع الناس وتضليلهم يملكون المقدرة على تنميق الحديث ، وجعله رنانا جذابا يصل الى النفوس ويصدح فى الآذان ، فان السعى بالنفاق بين الناس ، والقدرة على الظهور بينهم ومعاملتهم بوجهين مختلفين ، درجة لا يستطيعها كل انسان ، ولا يجيدهم الا شخص أوتى جوانب من الذكاء ومن التحـكم فى انفعالات النفس ومشاعرها ، ومن المقدرة على سرعة التلون والتقلب ، ونواحى أخرى مما يسميه علماء النفس بالقـدرات الخاصـة ، واذن فالمنافق لا يكون سطحيا ولا بسيطا ولا غبيا ، والا لما استطاع أن يسعى بنفاقه بين الناس ، ولا أن يخدعهم ، وما دام المنافق بهذه الدرجة من الذكاء والمقدرة على الخداع ، فهو اذن قدير غالبا على أن يضفى على كلامه بريقا جذابا ، ورنينا أخاذا ، ولهذه الخطورة فى مقـــدرة المنافق على صوغ كلامه فى هذا النسج ، يحذر النبى صلى الله عليه وسلم من هذه الخطورة فى قوله « ان أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » .

والقرآن الكريم يرسم صورة لاعتماد المنافقين على مظهرهم الجسمى ، وعلى تنميق كلامهم حتى يصبح حديثهم رنانا يجذب الأسماع ، فيقول « واذا رأيتهم تعجبك اجســامهم وأن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسـندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » (١) ، ويروى أن هذه الآية نزلت فى شأن عبد الله بن أبى وجماعة معينين ممن كانوا يحضرون مجلس الرسول من المنافقين ، وان هذا الوصف صفة واقعة من صفاتهم ، ومع افتراض صحة ذلك من حيث كونه سببا للنزول ، فان ذلك لا يعنى ان الآية تشير الى العموم ، وان التكلف فى المظهر الجسمى وفى الحديث من علامات النفاق ، كما يؤيد ذلك الواقع كما سبق الاشارة اليه ، على ان هذا التكلف اذا كان قد استطاع أن يثير اعجاب النبى صلى الله عليه وسلم واهتمامه من أفراد معينين بلغوا من المهارة فى اجادة التكلف الى درجة كهذه ، فان من هم دون أولئك النفر من المنافقين يمكن أن يثيروا اعجـــاب من هم دون النبى من ســـائر المسلمين ، ولكن القـرآن يســخر من اعتمادهم على المظهـر ، ومن هذا التكلف الذى يسيطر عليهم ، فيمحو من نفس الرسول ومن نفوس

(١) الآية ٤ سورة (المنافقون) .

المسلمين كل اعجاب بهم او استماع الى وقع حديثهم ، بأن يصورهم بأجسامهم المهيبة ، ومظهرهم الأنيق في صورة مضحكة ، هي انهم مجرد ألواح من الخشب لا نفع فيها ، ولا فائدة منها سوى انها مسندة متراصة تشغل حيزا من الفراغ كان اخلاؤه من هذه الأنواح أجدى وأنفع ، ويبين للرسول وللمسلمين حقيقة ما خدعوا فيه من كلامهم ، فهم بطبيعة الحال يتحدثون الى الرسول والمسلمين بأنهم نعم الأنصار للاسلام ، وأنهم المرجون للشدائد والملمات ، وانهم الذين يعتمد عليهم حينما يجد الجد ، ويدعو داعي التضحيات ، ولكن القرآن يكشف لهم الحقيقة ، وهي ان كل كلامهم كذب أجوف ، وان هذا المظهر الذى يبديه كلامهم يخالف حقيقة نفوسهم ويناقضها ، فهم ليسوا شجعانا كما يدعون ، وليسوا من الاعتماد عليهم في قليل أو كثير ، بل هم أجبن الناس وأشدهم رعبا وهلعا ، حتى ان سيطرة الرعب والفزع عليهم تخرجهم عن الرشد الى توهم الخطر في كل شيء ، والخوف من كل شيء وحتى انهم حينما يسمعون اى صيحة يظنونها عدوا مهاجما لهم ، وقد أصبح هذا المعنى موردا لكثير من الشعراء يقتبسونه في أساليب مختلفة ، ومن ذلك قول الأخطل :

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكر عليهم ورجالا (١)

ثم يبين القرآن للرسول حقيقة مشاعرهم نحوه ونحو دينه ، في أن هؤلاء الذين يتوددون اليك ويظهرون الحب والمودة هم أعدى الأعداء ، بل لخطورتهم فانه اذا قيست كل عداوة للاسلام بعداوتهم فكأنها ليست عداوة ، وكأن المنافقين وحدهم هم الأعداء (هم العدو فاحذرهم) وفي هذا التعبير بيان لمبلغ خطورة المنافقين ، ويؤكد هذه الخطورة ذلك التعجب الذى لا يخلو من اشارة الى مهارة المنافقين ومقدرتهم على الخداع والتضليل (قاتلهم الله أنى يؤفكون) ، وحين نستعرض الآيات التي تحدثت عن المنافقين في القرآن الكريم وهي كثيرة نجد حديث المنافقين فيها ، وحججهم التي يأتون بها الى النبي ليتخلصوا من الاشتراك في تضحية أو جهد ، أو لينفوا بها عن أنفسهم شكا أو ريبة ، نجد حديثهم وحججهم فيه طابع المقدرة الكلامية ، والجدل القوى ، الذى يحمل خطورة الاقتناع به وتصديقه .

٤ ـ الجبن الشديد :

اذا كان الجبن من الصفات البشرية التي يتصف بها كثير من الأفراد في كل مجتمع ، فان جبن المنافقين يختلف عن الصفة العامة للجبن من ناحيتين ، احداهما ان الجبن في الناس فردى ، بمعنى انه يوصف به عادة الأفراد وليس الجماعات ، فهو يتمثل في حالات فردية ، ومهما كثرت حالاته فانها لا تخرج

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤٣٣/٤ والأخطل يهجو به جريرا يعني لازلت تحسب كل شيء من وراء قومك عدوا مهاجما لهم .

عن وصفها بانها حالات فردية ، اما فى المنافقين ، فانه صفة عامة فيهم ، وهى بالنسبة لهم صفة جماعية وليست فردية ، والناحية الأخرى ان الجبن الذى يوصف به بعض الناس يتمثل في خوف يعترى الشخص فيحمله على الهروب من موقف مخيف ، أو يعجزه عن مواجهة موقف فيه خطورة أو خـــوف ؛ أما جبن المنافقين فليس وليد موقف معين ، أو مثير مفاجيء ، وانما هو شعور دائم ملازم بالخوف من كل شيء ، وتوجس الخطر من كل شيء ، والفارق فى هذا بين المنافق وغيره كبير جدا ، فالجبان العادى ، لا يشعر بالخوف ، ولا يعتريه الجبن الا حينما يتعرض لموقف يخيفه ، وفيما عدا ذلك فنفسه مطمئنة ساكنة ، لا يحس فيها بخوف ، ولا يعتريه شـــعور الجبن ، أما المنافق فالخوف ملازم لنفسه بصرف النظر عن أى موقف مفاجيء ، أو حدث معين .

وحين نقارن بين نفسية الجبان العادى ، ونفسية المنافق نجد ان هذا الفارق بينهما ليس بغريب ، ذلك لأن الجبان العادى نفسه سليمة مطمئنة لأن شعوره عادى نحو نفسه ونحو الناس ، فليس هناك ما يدعوه الى خوف دائم ، ولكن الجبن يعتريه حينما يتعرض لموقف يشعر بانه لا يستطيع مواجهته فيحس بالخوف ، وتعتريه حالة الجبن ، واذا لم يتعرض لهذا الموقف ، فانه يظل بنفسيته العادية كغيره من الناس ، أما المنافق فخوفه ليس مصدره موقفا خارجيا كالجبان العادى ، وانما مصدره من دخيلة نفسه ، ومنبعه نفسه ذاتها ، لأنه فى دخيلة نفسه يشعر بانه يطوى فى أعماقه شيئا لا يرضاه الناس ، يشعر بانه يحمل جريمة منكرة ، لو انكشفت للناس لعاقبوه عليها ، فهو يخاف بسبب النفاق الذى يحمله ، وحيث كان النفاق ملازما له ، فان الخوف ملازم له ايضا ، ولنا أن نتصور شخصا يخفى جريمة تستحق العقاب ، ونتصور مدى الخوف الذى يسيطر عليه ، فى ليله ونهاره ، وفى حركاته وتصرفاته ونظراته ، وحتى فى خلوته الى نفسه ، انه يتصور كل الناس يتعقبونه ، ويتجسسون عليه ، ويبحثون عنه ، ويراقبونه ، فيرى فى كل انسان عدوا ، وفى كل شيء خطرا ، ويرى من الأشياء العادية أشياء تثير خوفه وفزعه ، فالنظرة العادية من اى شخص يرى هو فيها اكتشافا لجريمته ، والحركة العابرة التى لا تثير انتباه أحد ، يضطرب لها هو اضطرابا ، ويرى فيها هجوما عليه ، والصوت العادى الذى لا يحمل أى دلالة خاصة ، يحس هو فيه خطرا متحدرا عليه ، فكل شيء عنده مصدر للخوف ، وكل حركة تثير فيه ما لا يثور فى نفس غيره ، لأن مصدر الخوف ليس فى الناس ، ولا فى الحركات ، بالنسبة اليه ، وانما فى دخيلة نفسه ، وفى شعوره هو وتصوره ، وكذلك الأمر بالنسبة للمنافق ، فان الخوف ملازم له ، ومسيطر عليه فى كل أوقاته وكل حالاته ، لأن الخوف لا يأتيه من الناس ، ولا من مصادر الخوف العادية ، ولا من أى شيء خارج نفسه ، وانما من أعماقه ، أعنى من شعوره بمطاردة الناس له ، وتوهمه تعقب الناس اياه ،

وهذا المعنى يصرح به قوله تعالى فى الآية السابقة (يحسبون كل صيحة عليهم) .

وهذا الرعب الشديد الذى يلازم المنافقين يعتبر نوعا من عقاب الله لهم ، وتعذيبه اياهم فى الدنيا ، فان سيطرة الشعور بالمطاردة عذاب نفسى ، مهما يكن وصفه او تحليله ، فلن يحس بفظاعته وقسوته الا من يعانيه ، وبمقدار الشعور بالجريمة التى يخفيها الشاعر بالمطاردة ، وبمقدار الشعور بقوة المطاردة يكون العذاب النفسى لدى المطارد ، والمنافقون المعاصرون لبدء الاسلام اكتملت فى نفوسهم الناحيتان بأقصى ما يتصور من قوة شعور وسيطرة ، ففى وقت كان الدين بجلاله ونورانيته مسيطرا على النفوس ، لا حديث الا فيه أو عنه ، ولا سلوك الا له أو عليه ، ولا تضحية الا لرفعه أو خفضه ، أعنى ان الدين كان شغل المجتمع الذى لا شغل غيره ، فريق مستميت فى سبيل نصره ورفع شأنه وفريق مستميت فى سبيل مقاومته وتحطيمه ، وبين الفريقين يتذبذب المنافقون ولكنهم يظهرون انهم مسلمون ، لان كفة الاسلام راجحة فهى أنفع لهم ، والمهم انهم أصبحوا مرتبطين بالمسلمين ، ويعاملونهم ويعاشرونهم على انهم منهم ، والدين عند المسلمين حينئذ كل شىء ، على أمله يحيون ، وفى سبيله يموتون ومن اجله يضحون بأعز ما يملكون ، من مال أو ولد أو أهل ، والمنافقون يعلمون هذا ويرونه ، ويرون المسلمين يقتل الواحد منهم أباه أو أخاه ، حين يتعرض لدينه ، كما رأوا ذلك فى موقعة بدر ، واذن فلو اكتشف المسلمون أمرهم ، وعرفوا انهم كافرون ، وانهم يكيدون لهم ويحاربونهم من وراء أغطية النفاق ، فسيكون جزاؤهم الموت ، ولن يكونوا أعز على المسلمين من آبائهم واخوانهم وذويهم ، فالكفر الذى يحمله المنافقون بين ظهرانى المسلمين ، كان حينئذ اكبر جريمة على الاطلاق ، ومطاردة المسلمين لمن يحمل هذه الجريمة كانت حينئذ أقوى من مطاردة أى جريمة على الاطلاق أيضا ، وهذان المعنيان يحس بهما المنافقون احساسا متجددا مسيطرا ، يجعلهم يعيشون فى رعب وفزع دائمين ويجعلهم (يحسبون كل صيحة عليهم) ، ولعل فى هذا المعنى تفسيرا لقوله تعالى « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » (١) ، فبالاضافة الى بعض ما يقوله المفسرون من ان تعذيبهم فى الدنيا بأموالهم وأولادهم مرده الى ابتلاء الله لهم فيه بالنكبات والى تكليفهم الانفاق منه على كره منهم ، والى متاعب الكسب والاعالة ، يمكن ان نقول ان التعذيب الأشد لنفوسهم هو شعورهم بالمطاردة ، ورعبهم الشديد من توقع انكشاف أمرهم ، ثم ما يصيرون اليه بعد ذلك وهو الموت فى توقعهم ، واذا كان خوفهم ورعبهم ينصب على حرصهم على الحياة ، وخوفهم من الموت ، فان شعورهم بأن لهم مالا وولدا مما يزيد فى خوفهم من المطاردة ، ورعبهم من

---

(١) الآية ٥٥ سورة التوبة .

الموت ، حيث يرتسم في أذهانهم دائما الخوف على الشيء الوحيد الذي يهمهم من الحياة ومن كل ما يدور فيها ، وهو منفعتهم الشخصية التي تتمثل في المال والولد ، فخوفهم من انكشاف أمرهم ، ورعبهم من نتيجة ذلك مقترن دائما بتذكر أموالهم وأولادهم ، وخشيتهم عليهما تمثل الخشية على الأمل الوحيد الذي يعيشون عليه ، ويحصرون فيه كل همهم ، وهذه الخشية نوع من العذاب الأليم الذي يجازيهم به الله على نفاقهم بأن يتجرعوه قطرة قطرة حتى يدركهم الموت .

واذن فجبن المنافقين وخوفهم يختلف من حيث الكيف ومن حيث المصدر عن الجبن العادي في الناس اختلافا شديدا ، ويبدو هذا الفارق الكبير واضحا حينما يتعرض المنافق لموقف مخيف كالذي يتعرض له الجبان العادي ، فعند ذلك نرى خوف المنافق شيئا آخر مختلفا عن الخوف المألوف في الجبناء ، لأن خوف المنافق حينئذ مركب من أكثر من شعور وعامل ، فالموقف المخيف الطارىء داهم مشاعر عنيفة من الخوف الدائم المسيطر على نفسه ، وحين يجتمع شعور الموقف الطارىء ، ومشاعر الخوف اللازم في نفس المنافق لا يستطيع تصوير ذلك الا القرآن الكريم كما صوره ، وعلى الأخص في عيونهم ونظراتهم كما سيأتي .

ويصور القرآن طبيعة الخوف الشديد الذي يميز المنافقين عن غيرهم في صور كثيرة لم يتحدث بها عن أحد من الناس ، ولا من أعداء الاسلام غير المنافقين ، مع ان أعداء الاسلام الآخرين كانوا يشاركون المنافقين موقف الخوف من المسلمين ، ولكن المنافقين هم الذين تميزوا بهذا الرعب الشديد الذي يصوره القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى « ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون » (١) فيصفهم بالفرق وهو شدة الخوف ، وانهم يسيطر على نفوسهم دائما شعور الهرب والاختفاء ، ولو بدون التعرض لما يخيف ، فان هذا المعنى من الآية لم يات في سياق حديث عن حرب أو مصدر معين للخوف ، وكأنه حديث عن طبيعتهم الدائمة في الشعور بالخوف والتماس المهرب والاختفاء ، لأنها كما سبق مشاعر نابعة من دخيلة نفوسهم ، وتدور هذه المشاعر حول شعورهم بالمطاردة شعورا دائما لاحساسهم بأنهم يخفون جريمة كبرى أجرموها وهي النفاق ، ولذلك يدور في نفوسهم دائما البحث عن ملجأ أو مغـارة أو نفق ، أو أي شيء يحتمون به ويستترون فيه ، وحين يجدون هذا الملجأ يسرعون اليه جامحين في اسراعهم (لو يجدون ملجأ و مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون) ولفظ (يفرقون) في الآية السابقة يوحي بأن خوف المنافقين من طراز خاص غير خوف سـائر النـاس ، كما ان لفظ (يجمحون) في هذه الآية يوحي بأن رغبـة المنافقين

---

(١) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ سورة التوبة .

فى الهرب من الشعور بالمطـــاردة تملك عليهم كل حواســـهم ، وتسيطر عليهم سيطرة تفقدهم الاتزان وهدوء المسلك .

ومن مصادر سيطرة الخوف الدائم عليهم خشيتهم من ان يكشف القرآن امرهم ، فهم فى رعب دائم من نزول القرآن ، ولكن القرآن يسخر منهم وكأنه يقول لهم ساخرا : استمروا فى نفاقكم ، وبالغوا فى اخفاء حقيقتكم فان الله سيظهر من امركم كل شىء ، على الرغم من كل ما تحاولون « يحـذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا ان الله مخـــرج ما تحذرون » (١) .

ويصور القرآن الكريم اثر الخوف الشديد الذى يعتريهم حينما يتعرضون لموقف مخيف ، فيلفت النظر الى عضو معين فيهم حينئذ ، هذا العضو تتمثل فيه كل مشاعرهم وانفعالاتهم ، وهو العين ، ويضرب القرآن مثلا من أمثـلة مواقف الخوف بالنسبة للمنافقين وهو ان يتنزل من القرآن ما فيه أمر بالقتال ، حينئذ يشعر المنافقون بحكم ادعائهم الاسلام أنهم مضطرون لمشاركة المسلمين فى القتال ، والمشاركة فى القتال تعرض حياتهم للخطر ، وحينئذ ترتسم فى عيونهم كل مشاعر الرعب والفزع ، ويبحثون عن أى أمل يتعلقون به للنجاة ، او للتخلص من هذا الموقف الذى يواجههم ، فلا يجدون أملا الا فى شخص الرسول ، فتتعلق نظراتهم الفزعة الجازعة به كأنها نظرات من يعالج سكرات الموت ضارعة الى الرسول أن يغيثها من هذا الخطر الذى يواجهونه « ويقـــول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من المـــوت فأولى لهم » (٢) وتعبير (أولى لهم) فى صيغة الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، ويلاحظ فى تعبير الآية أن كل هذا الرعب الذى اعتراهم ، والذى بدا فى عيونهم ونظراتهم ليس لأنهم أمروا بالقتال ، وانما لمجرد ان الســـورة التى نزلت (ذكر فيهـا القتـــال) .

وفى صورة أخرى من القرآن الكريم نجد أثر الرعب أكثر وضوحا ، ونرى الصورة أشد ابرازا لما يعترى المنافقين من الخوف الشديد حينما يتعرضون لموقف مخيف ، فالصورة السابقة تبرز لنا النظرة الجازعة الضارعة التى ترتسم فى عيون المنافقين حين الخوف ، ولكن هذه الصورة تزيد عليها أن تصور لنا محاجر عيون المنافقين ، وهى تدور من فرط ما يضطرب فى نفوسهم وقلوبهم من الرعب والفزع ، وكأنها عيون محتضر يعانى سكرات الموت ، فيجزع من سكراته ، ويدور بعينيه ضارعا الى من حوله ، وكأنه يستغيث بهم ،وهو فى غمرة

---

(١) الآيه ٦٤ سورة التوبة .
(٢) الآية ٢٠ سورة محمد .

الموت وسكراته ، لا يملك من القوة أو القدرة على الحركة فى أى عضو من أعضائه غير حركة عينيه ، فيقول سبحانه « أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ·· » (١) ·

ووصف القرآن الكريم لما يعترى المنافقين من هذا الرعب الذى يشل حركتهم ، ويفكك أجسامهم ، ويحل عزائمهم بحيث لا يبقى من قدرتهم على الحركة والتعبير الا ما يبقى لدى المحتضر الذى يعانى الموت ، هذا الوصف قد يبدو لبعض الناس تصويرا أدبيا ، أو مبالغة لاظهار ما يعتمل فى نفوسهم من خوف القتال وآثاره ، ولكننا حين نرجع الى ما يقرره علماء النفس نجد ان هذا التصوير حقيقة محضة لا أثر فيها للمبالغة أو تخييل ، فعلماء النفس يقررون ان مواجهة الفرد لموقف يشعر فيه بالفشل أو خيبة الأمل أو العجز عن مواجهة الموقف مما يسمونه بالتعويق ، قد يحدث فى نفسه انفعالات واضطرابات لا حدود لتاثيرها ، فهى تختلف باختلاف قدرة الفرد على مواجهة المواقف الصعبة أو المؤلمة ، ومن ذلك قولهم « فى كل مواقف التعويق تقريبا تستصحب التجربة الانفعالية درجات مختلفة من الاضطراب الجسمى ، فقد يشعر الشخص بالخوف أو العجز أو الغضب أو الخور ، واذا حدث التعويق فى موقف يشعر بعجزه فيه — كموت عزيز أو اخفاق مخز — فيغلب أن يعقبه حزن طويل أو يأس ملح ·· وقد يبلغ التعويق من القسوة فى بعض الظروف كما هى الحال فى ميدان القتال أن يعقب تفككا كاملا فى الوظائف الجسمية والعقلية » (٢) ، ومضمون ذلك ان التعويق لا حدود لتاثيره الذى قد يشل حركة الجسم والعقل معا ، وان هذه الآثار تشتد حينما تزداد خطورة الموقف ، وحينما يكون الفرد ضعيف الاحتمال ، ومن الملاحظ ان هذا الوصف الذى صوره القرآن الكريم للمنافقين ، مقترن بأخطر المواقف التى يخشاها المنافقون ، وهى الحرب ، كما فى الآيتين السابقتين من قوله تعالى (فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت) وقوله تعالى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) والمراد بالخوف فى الآية خوف القتال ، حيث ان الآية مما نزل فى موقف غزو الأحزاب للمدينة كما يصرح بذلك السياق ، فالموقف الذى يصور فيه القرآن هذه الآثار البادية على المنافقين أخطر موقف ، وهو موقف القتال ، كما ان المنافقين — على ضوء ما يقرره علماء النفس عن التعويق — أضعف الناس احتمالا لمواجهة المواقف الصعبة او الخطرة ، بحكم انهم أضعف الناس ثباتا على أى شىء ، وأشدهم خوفا وجبنا كما سلف ·

---

(١) من الآية ١٩ سورة الأحزاب ·

(٢) علم النفس التربوى آرثر جيتس ، ت·د· ماكونل وجماعة ترجمة القوصى وجماعة ص ٣٦ ، ٣٧ ·

ولكن القرآن يسخر من جبنهم الشديد ، وفرارهم الجامح من كل ما فيه خطر ، مبينا لهم ان فرارهم لن يعصمهم من الله ، ولن ينجيهم من القدر ، فيقول سبحانه « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » (١) ·

وبينما نرى المنافقين في هذا الرعب الشديد حين يواجهون الخطر أو الموقف الصعب ، نجدهم ينقلبون الى عكس ذلك حينما يحسون الأمن ، ففى مواقف الأمن لا يكتفون بأن يكونوا او ان يظهروا كغيرهم من الأشخاص العاديين ، وانما يحاولون جهدهم أن يظهروا بمظهر القوة والشجاعة بل والبطولة ، وعلى ضوء ما يقرره علماء النفس عن ميل الناقصين الى التعويض من الناحية النفسية نجد هذا طبعيا متوقعا من المنافقين ، فشعور المنافقين بالجبن الشديد ، والفزع المخجل ، في مواقف الخوف ، يدفعهم الى أن يعوضوا هذا الشعور حينما يحسون الأمن ، فيظهرون بمظهر القوة والشجاعة ، كما يقول علماء النفس عن التعويض « ان للناس ميلا غريبا لأن يعوضوا أوجه نقصهم الحقيقية أو المتخيلة بالسعى للحصول على التفوق في نفس الميدان الذى ظهر فيه نقصهم ·· » (٢) والقرآن الكريم يبين جنوح المنافقين دائما الى التعويض النفسى ، ومن صريح ذلك هذه المقارنة بين حالين متعاقبين للمنافقين ، يظهرون فى احدهما أقصى ما يتصور من الجبن وآثاره ، واذا هم فجاة حينما يحسون ذهاب الخطر يظهرون عكس ذلك ، وذلك فى موقف الأحزاب ، ولكن القرآن يسخر منهم ، مبينا ان مشاعر القوة التى يظهرونها انما هى نتيجة لاحساسهم بذهاب مصدر الخطر وهو الأحزاب ولو انهم شعروا ان الأحزاب عادوا لما اكتفوا بالاختفاء فى المدينة ، وانما يتمنون ان يهربوا فى الصحراوات والجبال ، يحتمون بالأعراب ، ثم يتسقطون أنباء المسلمين فى القتال « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا ، أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فاحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا » (٣) ·

وفى مقارنة أخرى بين مشاعر المنافقين عند الخوف ، ومشاعرهم فى الأمن ، يبين القرآن نزوعهم الى التعويض النفسى لما يحسونه من نقص ، فبينما

---

(١) الآيات ١٥ ــ ١٧ سورة الأحزاب ·

(٢) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة ·١ براون وجماعة ترجمة مجموعة ص ٣٦٤ ·

(٣) الآيات ١٨ ــ ٢٠ سورة الأحزاب ·

حالهم في هذا الرعب الذى يصوره القرآن الكريم فى قوله « يحسبون كل صيحة عليهم » (١) اذا هم يحاولون أمام الناس اظهار العزة والقوة والقدرة على الغلبة فيقولون ما نقله عنهم القرآن « يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (٢) ويعنون بالأعز أنفسهم ، وبالأذل المسلمين ممثلين في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، على ان مما يروى فى أسباب النزول ان الآيتين نزلتا فى شأن عبد الله بن أبى زعيم المنافقين من عرب المدينة ، فيروى ان قوله تعالى « واذا رأيتم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » نزل فى شأن عبد الله بن أبى ، ويرون ان هذه الأوصاف تنطبق عليه هو وجماعة معينين من المنافقين ، كما ان الآية السابقة يروى انها نزلت أيضا فى شأنه حين قال عن الرسول هذا القول أثناء موقعة بنى المصطلق زاعما انه الأعز ، وان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأذل ، ولم يكن قوله هذا من الحق فى شيء ، ولذلك حينما سأله النبى بعد أن بلغه هذا هل قال ذلك حقا ؟ ذهب يتنصل من هذا القول ويقسم انه لم يقل منه شيئا ، لأنه يعلم انه كاذب فى مضمون هذا الكلام ، وانه لا يمثل الحقيقة ، وانما هو التعويض النفسى الذى يقرره علماء النفس ، يعوض بهذا القول أمام بعض الناس شعوره بالجبن والخوف الشديد الذى يسيطر على نفسه ، ويملك عليه مشاعره ، والدليل على كذبه فى وعيده ، انه مما يروى ان أقرب الناس اليه وهو ابنه عبد الله وكان مسلما صادقا أمسك به عند دخولهم المدينة وأقسم ألا يفلته حتى يشهد انه الأذل ، وان رسول الله هو الأعز ، والا ضرب عنقه ، فحين أحس الجد من ابنه قال : أشهد ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

٥ ـ السلوك النفعى :

يتبين مما سبق من نفسيات المنافقين وخلقهم ، ان سلوكهم كله يستهدف غاية واحدة ، هى المنفعة الشخصية ، فهم لا يحملون عقيدة أى عقيدة ، يقدمون لها من سلوكهم أو تضحياتهم أى شيء « ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » ، وهم لا يرون فى الناس قط صديقا أو حزبا يشاركونه أى جهد ، أو يتحملون من أجله أى عبء . « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » ، وليس فى خلقهم فضيلة يحرصون عليها فيؤدون لها ما يؤديه الناس للفضائل من أعباء ومشقات ، هم مجردون من كل الحوافز والدوافع الدينية أو الانسانية الخلقية الا دافعا واحدا بعيدا عن هذه الاعتبارات ، هو

---

(١) من الآية ٤ سورة (المنافقون) .
(٢) الآية ٨ سورة (المنافقون) .

دافع المصلحة الشخصية ، أما البذل والتضحية من أجل أى شيء ، فذلك ما ليس في نفوسهم استعداد قط له ، لأن نفوسهم لا تحمل معنى يدعو الى بذل أو تضحية ، ويعبر القرآن عن كراهيتهم لأى تضحية حتى ولو كانت مجرد احتمال الحر فى قوله « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » (١) ومن الواضح ان حديثهم عن الحر يريدون أن يثبطوا به المسلمين عن الجهاد ، ولكنه يدل على نفورهم من كل ما فيه جهد أو تضحية فى سبيل أى شيء غير مصلحتهم الذاتية ، ولذلك نجد القرآن يرد عليهم بمعنيين ساخرين ، أحدهما مقارنة بين الحر الذى ينفرون منه ويدعون انه المثبط لهم عن الجهاد ، وبين حر جهنم التى تنتظرهم (قل نار جهنم أشد حرا) والآخر انهم اذا كانوا يقصدون من هذه الدعاوى التى يتملصون بها من الجهاد سخرية بالمسلمين ، وتسلية لهم فيما بينهم حين يقول بعضهم لبعض ضاحكين مستهزئين : لقد خدعنا المسلمين واستطعنا أن نقنعهم بأعذارنا فى التخلف عن الجهاد ، فان القرآن يمل لهم ساخرا منهم ، مستزيدا اياهم فيما هم فيه ، لأن جزاءهم قريب ، ولذلك تقول الآية التالية للآية السابقة « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » .

ويبين القرآن ان الامساك عن كل خير ، وعدم الاستعداد لأى تضحية طبيعية فى المنافقين ، حيث يقول سبحانه « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون » (٢) فقبض اليد كناية عن الشح بشكل معروف ، ونسيانهم لله يتضمن أيضا كناية عن انهم لا يفكرون قط فى الاتجاه الى أى خير ، ولذلك كان وصفهم بعد ذلك مطابقا لهذه الطبيعة فيهم ، فى قوله تعالى (هم الفاسقون) واطلاق الفسق عن التقييد يفيد كما يقول الزمخشرى (التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير) (٣) مراعاة لما تدور حوله مادة الفسق فى اللغة وهو الخروج .

ويستغل المنافقون طبيعة الشح عن الخير فيهم لمحاربة الاسلام حربا اقتصادية ، فيتخذون من نزعتهم هذه دعاية وحصارا حول المسلمين الذين كانوا حينئذ فقراء ، وكان كثير منهم فى حاجة الى العون ، فيتزعمون حملة تدعو الى عدم مساعدة الفقراء المسلمين حتى يقسو عليهم الحرمان فينفضوا من حول الرسول يائسين من الاسلام ، ولكن القرآن يسخر منهم أيضا ، مبينا لهم ان هذا الخير الذى يريدون أن يكفوه عن المسلمين يسير وتافه ، وان الله عنده

---

(١) الآية ٨١ سورة التوبة .
(٢) الآية ٦٧ سورة التوبة .
(٣) تفسير الكشاف ٢/٢٢٥ .

خزائن السموات والأرض ، وهو قادر على أن يفيض على المؤمنين بحورا من النعمة والرزق ، ولكنه سبحانه له فى تعريضهم للشدائد حكمة لا يفقهها المنافقون ، فهؤلاء المؤمنون الذين يراهم المنافقون بؤساء ضعفاء ، يهيئهم الله لقيادة امة عظيمة ضخمة ، ويهيئهم لما هو أعظم وهو القيادة والقدوة التاريخية ، فكل واحد منهم سيصبح قدوة ومرجعا لكل ما يأتى من أجيال المسلمين وعصورهم بوصف انه (صاحب رسول الله) ، فلابد أن تصقله الشدائد ، ولابد أن تطهره المحن ، حتى يكون مهيئا صالحا لحمل هذه الأمانة الثقيلة ، فان المحن خير صيقل للرجال ، والذين لا يتعرضون للشدائد يظل عودهم رخوا لا يقوى على حمل شيء ، فضلا عن العبء العظيم الذى ينتظر هؤلاء المسلمين من حول الرسول ، كما يقول علماء النفس « امتناع التعويق لا يعين على تطور شخصية متميزة ، فالفرد اذا لم تعترضه عقبة يظل شيئا تافها غبيا مجردا عن الخيال ، مطمئنا كاطمئنان البقر .. ان خبرة ملاقاة المشكلات والملاءمة الكافية معها تجربة لازمة لتطور الفرد المستقل المكتفى بذاته ، ومع أن تنازل الفرد عن كثير من رغباته الأنانية ينطوى على عملية تعويق أكثر من أى شيء آخر فلابد للفرد من هذا التنازل حتى يتقدم ليشغل مكانه الكامل كعضو مسئول فى المجتمع » (١) .
فالله سبحانه عنده (خزائن السموات والأرض) ويستطيع أن يفيض على هؤلاء المسلمين ما يشاء ، دون حاجة الى عون الناس لهم ، ولكن له حكمة بعيدة فى تعريضهم للشدائد وقسوة الحياة ، حكمة لا يعلمها المنافقون لأنهم لا يفكرون (ولكن المنافقين لا يفقهون) .

فالمنافقون ليس لديهم استعداد للبذل من أجل أى شيء ، الا من أجل مصلحتهم التى تتمثل فى أموالهم وأولادهم ، وفى هذه الآية من سورة (المنافقون) نجد القرآن لا يوجه نهيه عن التكالب على المصلحة الشخصية والانشغال بها الى المنافقين ، لأنهم لن يتخلوا عن طبعهم مهما وجه اليهم من نهى أو موعظة ، وانما يوجهه الى المؤمنين ، مذكرا اياهم بأن هذا السلوك هو نزعة المنافقين فلا ينبغى للمؤمنين أن يشبهوهم « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » والتعبير بلفظ (الخاسرون) يشير الى سلوك المنافقين النفعى ، ونظرتهم التجارية البحتة الى كل شيء ، وكأن القرآن يسخر منهم بهذا التعبير ، مبينا لهم أنهم مهما حاولوا من التجارة بنفاقهم ، وضللوا فى الدين متاجرين فيه ، فهم أيضا (الخاسرون) .

وأما المسلك العملى للمنافقين فى ترصدهم المنفعة ، وتربصهم المصلحة الذاتية ، فهى انهم وجدوا الاسلام أرجح كفة فى خصومته مع الشرك ، وان المستقبل أدنى منه منالا ، فآثروا الظهور فى ثوبه مدعين أنهم مسلمون ، وقلوبهم تغلى ضد الاسلام والمسلمين بغضا وحقدا وعداء ، ولكن فى تقمصهم ثوب الاسلام

---

(١) علم النفس التربوى آرثر جيتس وجماعة ترجمة مجموعة باشراف القوصى ص ٢٨ .

نفعا يرجونه ، أدناه اتقاء الضرر من المسلمين ، ثم الاستفادة من التعامل معهم ، وتيسر حربهم من داخل صفوفهم ، ثم ما قد يستفيدونه من غنائم كثيرة يجنونها في حروبهم مع أعدائهم ، ونحو ذلك ، ولكنهم مع ذلك لا يحكمون ثوب الاسلام على أجســـــادهم الا حينما يرون المسلمين في عزة ومنعة ودنــو من المستقبل الحسن ، فحينئذ يظهر المنافقون أقصى ما يملكون من قدرة على اصطناع التدين بالاسلام ، أما حين يرون المسلمين في موقف قاس ، أو معرضين لهزيمة تبعدهم عن أملهم المشرق ، فان ثوب الاسلام يكاد ينسلخ عن أجسادهم فتبدو عورات نفاقهم مكشوفة ، ولذلك كان أشد ما يظهر نفاق كثير من المنافقين أن يروا المسلمين في موقف ضعيف ، وأحداثهم في هذا المجال مشهورة ، ويصور القرآن الكريم تربص المنافقين بالمنفعة ، ونكوصهم عندما يحسون اليأس منها ، في قوله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » (١) والآية وان كان يروى أنها نزلت في شأن أعراب نزلوا المدينة وكانت هذه صفتهم في صلتهم بالاسلام الا أنها تبين أن النفاق مهما اختلفت صوره فهو هادف دائما الى التماس النفع العاجل والمصلحة الشخصية ، فالمنافق يظهر الاسلام طلبـا للنفع ، وهو باظهاره الاسلام معدود في حياته من المسلمين ، ولكنه حينما ييأس من النفع المادي يكشف نفاقه فيخرج من بين صفوف المسلمين ، وحينئذ يخسر ثوبه الدنيوي الذي كان يندس به بين المسلمين ، بالاضافة الى خسرانه الآخرة ، وحين تجتمع الخسارتان على المنافق يكون (ذلك هو الخسران المبين) ٠

ومن هذا القبيل في موقف المنافقين من ترصدهم للمنفعة المادية قوله تعالى « وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » (٢) ٠

والمنافقون يحاولون بسلوكهم النفعي أن يستفيدوا من كل أطراف الخصومة ، لأنه لايعنيهم منها الا منفعتهم ، فحين يكون المسلمون في الموضع الأقوى فهم معهم ، ويحاولون أن يثبتوا لهم انهم أبلوا معهم البلاء الحسن ، فاذا انقلب الوضع وكان أعداء المسلمين في الموضع الأقوى أسرعوا اليهم محاولين أيضا أن يثبتوا لهم أنهم كانوا نعم النصير لهم ، وبئس العدو للمسلمين ، فهم كما يبين القرآن حقيقة سلوكهم « الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيـامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، ان المنافقين

---

(١) الآية ١١ سورة الحج ٠

(٢) الآيتان ٧٢ ، ٧٣ سورة النساء ٠

يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » (١) ٠

ولا بأس عند المنافقين أن يبذلوا جهدا يرجون من ورائه نفعا أكبر منه ، كثمن يدفعونه لصفقة يرونها رابحة ، فيشتركون في القتال أو بمعنى ادق في السفر للقتال ، بشرط أن يكون السفر قاصدا قريبا ، وأن تكون الغنيمة فيه في موضع الأمل القوى ، أما بدون ذلك فليس لديهم استعداد لبذل أى جهد أو مشاركة في تضحية ، وحينئذ يختلقون المعاذير ليتخلفوا عن مشاركة الرسول والمسلمين في الجهاد ، وبعض أعذارهم تبدو منطقية معقولة يصدقها المسلمون ، وحين يرجون الاذن من الرسول لهم في التخلف يأذن لهم ، لكن القرآن يبين في تعبير لا يخلو من تهكم بالمنافقين وأعذارهم ، انهم كاذبون ، ويقول للرسول انك لو رفضت الاذن لهم لوضح لك نفاقهم ، فانهم سيتخلفون سواء أذنت لهم أم لم تأذن ، فيقول سبحانه عن ذلك « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون ، عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٢) ، ويتركز اهتمام المنافقين حين يشاركون المسلمين مواقعهم في الحرص على الغنائم ، وينكشف نفاقهم لدرجة السخط حينما لايحظون منها بما يريدون ، حتى انهم يصلون الى الطعن في شخص النبى ، « ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون » (٣) ٠

---

(١) الآيات ١٤٠ ــ ١٤٣ سورة النساء ٠
(٢) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ سورة التوبة ٠
(٣) الآية ٥٨ سورة التوبة ٠

السخرية والمشركون

« ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون »

ومع أن خصومة الشرك كانت إشرف خصومة واجهها الاسلام ، حيث أعلن المشركون ما في قلوبهم للمسلمين ، فواجهوهم من أمام ، ولم يحاولوا ان ياتوهم من ظهورهم أو من تحت أقدامهم كما فعل خصوم آخرون ، ولعله لهذا الشرف في الخصومة قدر الله لهم أن يدخلوا رحاب الايمان بعد خصومتهم العاتية العنيفة للاسلام ، ولم يقض عليهم أن يموتوا مختوما على قلوبهم كما كان المنافقون ، ولم يقدر عليهم أن يشردوا من أرض المنبع الاسلامي مصحوبين بلعنة الله والملائكة والناس كما قضى على اليهود ، أقول مع ذلك الشرف في خصومة الشرك للاسلام ، الا أنها كانت أعنف خصومة واجهت الاسلام في عصره الأول وأكثرها شراسة وضراوة ، ولقد تعرض الاسلام المخطر في أكثر من موقف وهو يصارع الشرك صراعه العاتي المستميت ، سواء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته في موقف الردة ، ولولا أن الله سبحانه قدر لهذا الدين أن يبقى وأن تعلو رايته ، لما استطاع الاسلام أن يقاوم عتو الشرك وحملته الجبارة عليه ، ولكان معرضا لأشد الخطر في مواطن كثيرة ، وفترات غير قصيرة ، ومن هذه المواطن التي قدر النبي صلى الله عليه وسلم فيها هذا الخطر موقعة بدر ، حيث كان من دعاء النبي حينئذ « اللهم ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض » وقد استجاب الله لدعاء نبيه فجعل موقف بدر الذى كان من أشد المواقف خطورة على الاسلام ، غرة في مواقف النصر للاسلام .

وكما سبق القول فان أعداء الاسلام من المشركين لم يكونوا من السذاجة التي يوحيها لفظ الجاهلية التي كانوا يعيشون فيها ، فوصف الجاهلية لا يقصد به الا ناحية العقيدة ، إما فيما عداها فقد أثبت هؤلاء الجاهليون أنهم على درجة عالية من الذكاء والخبرة بالحياة ، ومن فنون الصراع والخصومة ، ومن حسن التقدير والتوقع للأمور من زاويتهم كأعداء للاسلام ، ومن حيث حربهم للاسلام

والمسلمين ، بلغوا بهذه الحرب درجة لا ينقصها شيء من مهارة أو خبرة أو حسن تقدير وتنظيم ، واذا كان خبراء الحرب اليوم ، بعد أن بلغ العلم ما بلغه يقولون ان الحرب الشاملة تعتمد على ثلاث شعب ، الحرب العسكرية ، والحرب الاقتصادية ، والحرب النفسية (١) فان الجاهليين العرب قد نظموا هذه الشعب الثلاث ضد الاسلام ، تنظيما متعمدا مخططا ، بمعنى أن هذه الشعب فى حربهم للاسلام لم تأت عفوا ، ولم يأت بعضها تبعا لبعض أو متداخلا فى بعض ، وانما أدركوا هذه الشعب مستقلة ، وأدركوا أثر كل منها مستقلا عن الآخر ، هادفين الى النتيجة التى تستهدفها الحرب الشاملة ، وقد سبق الكلام وخاصة فى حديث القيادات عن هذه الجوانب ·

والذى يعنينا هنا من حديث الشرك هو موقف الجبهة العامة أو الشعبية من الاسلام ، ورد الاسلام عليها ، لنصل من ذلك الى قيمة السخرية وأثرها كسلاح فعال فى الحرب المتبادلة بين الجبهتين ·

ولتحاشى تكرار ما سبق الحديث عنه ، نقول ان جوانب الصراع بين الاسلام والشرك فيما يتعلق بالموضوع ، أهمها ما يأتى :

١ ــ التقاليد :

تتميز المجتمعات وخاصة المحافظ منها بسيطرة التقاليد عليها سيطرة تطغى على كل شيء ، ولا تقف أمامها أى قوة أو عقبة أو حتى سلطة ، والمجتمع العربى القديم مجتمع محافظ شديد التمسك بتقاليده ، والتقاليد فيه كانت هى الحاكم الوحيد المسيطر والموجه لسلوك المجتمع جماعاته وأفراده ، فلم يكن هناك قانون محدد ، ولا سلطة تنفيذية تحدد السلوك ، أو تهيمن على المجتمع ، ولذلك كان سلطان التقاليد حينئذ كاملا مطلقا ، وسلطان التقاليد كما يعرفه علماء الاجتماع «بعد وأعمق مما توحيه النظرة العابرة اليه ، انهم يرون التقاليد « تشكل أفعال الأفراد وتحدد سلوكهم » (٢) ، وحين تتحدد التقاليد فى صورة عادة جماعية ، فان علماء الاجتماع يصفونها بأنها « العادة الجماعية الطاغية » وبأنها « الحاكم الرئيسى فى حياة الانسان » وبأن لها من القوة «مايفوق قوة الطبيعة» (٣) وحتى حينما تصطدم العادات بقوة تعاكسها ، فان علماء الاجتماع يقررون أنها أقوى وأنفذ من أى قوة ، ومن ذلك قوة القانون فان العادات أقوى سيطرة على النفوس وانقيادا لها من القانون ، فيقول علماء الاجتماع عن مظاهر الاصطدام بين القانون والعادة الجمعية « حينما يهاجم قانون خاص أية عادة اجتماعية شائعة فى أية جماعة محلية يضطر اضطرارا كبيرا الى أن يعتمد على الجزاء الخطر كما نعلم وهو استخدام القوة الا أن لدى العادة الجمعية موضع المهاجمة تفوقا يرجع الى أنها

---

(١) انظر الحرب النفسية صلاح نصر ١٠٧/١ .

(٢) نفسية المجتمع موريس جينزبرج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص ١٦٢ ·

(٣) المصدر السابق ١٧٠ ــ ١٧٢ ·

تطاع بطريقـة أكثر تلقائيـة » ويقولون أيضا « ومن المناسبات التي يؤسف لها وجود تعارض بين العادة الجمعية والقانون ، وذلك لأن الناس يفضلون دائمـا أن يسلكوا طريق العادة مفضلين اياها على طاعة القانون » (١) .

ومن هنا نعلم خطورة مهمة الاسـلام ، الذى بدافيه للعرب منذ بزوغه أنه يريد أن يطوى كل مظاهر حياتهم ، ليبسط لهم حياة جديدة لم يألفوها ، ولم يروضوا عليها نفوسهم ، وكل شيء في المجتمع حينذاك كان يأخذ طابع التقليد الموروث ، والعادة الجماعية المسيطرة ، فالدين عندهم ليس عقيدة فردية ، أو روحانية ذاتية ، وانما هو طقوس وعادات موروثة ، تؤدى شعائرها فى صـور تقليدية لايجوز لأحد من الأفراد قط أن يخالفها أو يخرج عليها ، وقد استقر بهم الوضع الدينى على أن يكون لكل قبيلة صنم خاص بها ، يعتبرونه الاله أو الممثل للاله ، يؤدون عبادته وشعائر التدين له في عرف محدد ، وسلوك خاص يلتزم كل فرد أن يسلكه كما حددته التقاليد .

والصلات الاجتماعية ، والخلق الاجتماعى ، بكافة مناحيهما ووجوههما كانا يأخذان طابع التقليد اللازم ، والعادة المسيطرة ، سواء فى ذلك الخير من هذه الوجوه أو الشر ولكن الاسلام جاء ليهاجم هذه التقاليد ، ويمحوها محوا لا رفق فيه ، وبالطبع فان الاسلام فيما يتعلق بالنواحى الاجتماعية ، لم يهاجم الجانب الخير منها ، ولكن نظرة المجتمع لم تكن موجهة الى التفاصيل ، وانما الى المجموع، بمعنى أن الفرد كان ينظر الى أن هذا الدين يريد أن ينتزعه من حياته التى ألفها كلها ، لينقله الى حياة أخرى مهما تكن خيرا فهى غير مألوفة لديه ، فحين يعرض عليه الاسلام يجد فى نفسه صراعا ذا جانبين وان لم يتكافآ فى القوة ، أقواهما انتزاعه من عادات وتقاليد سيطرت على نفسه ، وأصبحت ليست جزءا فحسب من حياته ، وانما هى كل حياته ، فأفكاره وسلوكه وآماله ، كل ذلك مصوغ من هذه العادات والتقاليد ، والجانب الآخر من الصراع ، هو الدخول الى حياة جديدة قد يراها خيرا ، ولكن هل يعزيه خيرها عن سلب عادات وتقاليد أصبحت أجزاء من حياته وآماله ؟ ثم كيف يكون حاله فى هذه الحياة الجديدة ؟ أيسـعد بها أم يشقى ، والمتنبى يصـور نوعا من صراع النفس ومقاومتها لفـراق العادة والألف فى قوله :

خلقت أليفا لو رددت الى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

وعلى ضوء ما يقرره علماء الاجتماع عن قوة العادات والتقاليد ، يمكن أن نفهم مدى النفور الشديد الذى يتلقى به مجتمع كالمجتمع العربى دينا جديدا كالاسلام يظهر فى غير التواء أو مواربة أنه يهدف الى هدم التقاليد الجاهلية من أساسها ، وأبرز ما يهدف الى هدمه وأخطره معا ، هدم الدين المسيطر على المجتمع كتقليد مقدس ، لا يقبل المجتمع مساسا به أو تغييرا فيه ، فضلا عن هدمه من أساسه ، ونفهم أيضا الصعوبة التى تعترض الاسلام فى تحقيق غايته من سلخ مجتمع

---

(١) المجتمع روبرت ماكيفر وشارلز بدج ترجمة د. احمد على عيسى ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

كامل عن كل تقاليده وعاداته وأفكاره ، ليحل محلها حياة جديدة لا تبقى من القديم شيئا ، فالذى لا يتغير فى مظهره ، تتغير النظرة اليه ، والفكرة التى ينبع عنها ، كالفضائل الجاهلية فى الخلق والعادات مثلا ، فهذه وان لم يغيرها الاسلام الا أنه غير النظرة اليها تغييرا كاملا ، فبعد أن كانت الفضائل محصورة فى المفاخرة والتباهى والتعالى ، أصبحت فيما يدعو اليه الاسلام شبه واجبات دينية لا ينبغى أن يقصد بها شىء قط الا وجه الله ، ولا ينبغى لصاحبها أن ينتظر من ورائها اجرا ماديا أو أدبيا من أحد من الناس .

وهكذا هب الشرك بكل قوته وعنفوانه وشراسته يقاوم الاسلام ، ويحاول سد كل طريق يسلكه ، مستهدفا القضاء عليه وعلى أبنائه ، ومما لا شك فيه أنه لو لم تكن فى الاسلام حيوية دافقة ، وقوة عظمى ، ولو لم تكن فى أبنائه صلابة شديدة ، وصمود قاهر استمدوهما من حيوية الاسلام وقوته لما استطاع الاسلام أن يقاوم الشراسة والعنف الذى واجهه بهما المشركون .

وقد كان من وسائل القرآن الكريم لزعزعة سيطرة التقاليد على نفوس المشركين السخرية من هذه السيطرة القاهرة ، والانقياد الأعمى لكل ماهو موروث، وقد سبق القول عن تأكيد علماء النفس والاجتماع لأثر السخرية الفعال فى تغيير العادات ، حتى انهم لا يرون وسيلة أنفذ منها ولا أنجح فى محاولة تغيير العادات والتقاليد السيئة ، وقد سبق أيضا ضرب الأمثلة لسخرية القرآن من تقليد المشركين لآبائهم فى غير محاولة للنقد أو التفكير ، وفى اصرار على هذا التقليد حتى ولو أيقنوا بضلاله ، من مثل قوله تعالى « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وقوله تعالى « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » وقوله تعالى « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » (١) ، واذا كان علماء النفس والاجتماع يؤكدون أنه لا يتهيأ لمجتمع أن يتخلص من طابعه المتخلف أو عاداته السيئة الا اذا هيىء فكريا واستثيرت فيه نزعة الميل الى البحث والمناقشة (٢) ، فاننا حينئذ نفهم لماذا حرص القرآن على الدعوة الملحة الى التفكير واستعمال العقول فى كل شىء ، ونفهم نعيه الشديد على الذين لا يحاولون استعمال عقولهم التى منحهم الله اياها ، وسخريته البالغة من أولئك المشركين الذين يرضون لأنفسهم أن يعيشوا كالأنعام مقودين لسلطان تقليد جاهل .

وحيث كانت جبهة الشرك أقوى وأعرض جبهة واجهت الاسلام أول عهده ووقفت فى طريق تقدمه وانتشاره بكل ما تملك من قوة واصرار على مقاومته ، فان القرآن أولى هذه الجبهة أكبر اهتمامه ، وأشد تركيزه ، وقد كانت النقطة

---

(١) انظر فصل السخرية الاجتماعية .

(٢) نفسية المجتمع موريس جينزبرج ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص ٥٤ .

البارزة في الخلاف بين الاسلام والشرك نقطة العقيدة ، فشعار الاسلام الذى لا لين فيه ولا نقاش هو وحده الاله الذى لا شريك له ، ودين المشركين المقدس لديهم عبادة الأصنام التي ورثوها عن آبائهم ، والتي صيغت حولها افكارهم ومشاعرهم ، وهم لا يصرون على وحدتها في العقيدة والايمان بها • وانما يرضون ان يكون لها شريك هو الله سبحانه ، بل لا يمانعون في ان يصفوها بانها الوسيلة الى الله ، كما يقول القرآن عنهم حينما تعجزهم الحجة ، ويعييهم المنطق « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ويقولون ما نقله القرآن الكريم عنهم في عبادتهم الاصنام « وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » فهم لا يهمهم الجوهر ، وانما يهمهم الشكل والمظهر ، كما يقرر علماء الاجتماع في كل ما يسيطر على المجتمعات من مظاهر التقليد والعادات ، والمظهر الذى يعني المشركين هو ان تظل طقوسهم وعبادتهم للاصنام بمظهرها الموروث كما هي ، ولا يهمهم بعد ذلك ان يكون وراء هذه الأصنام اله أو لا يكون ، ولكن الاسلام لا يرضى من ذلك شيئا ، ولا يقبل المساومة أو التدرج في العقيدة ، فاما ايمان بانه لا اله الا الله ، وأما كفر ، ولا وسط بينهما ، ومن هنا يقوم الصراع العنيف بين الاسلام والشرك ، فالاسلام يدعوهم الى الايمان الصحيح بالله الذى لا شريك له ، وهم يصدون وينفرون ، ثم يهاجمون هذا الدين الذى يهاجم آلهتهم ويدعوهم الى نبذها ، وقد هاجموا كل ما يرتبط بالعقيدة الاسلامية ، سواء بالكلام والعمل أو بالسخرية والاستهزاء ، هاجموا ذات الله سبحانه ، وهاجموا شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهاجموا القرآن الكريم ، وهاجموا مضمون الدين وما دعا اليه ، وقد رد عليهم القرآن الكريم هجومهم في كل ما استهدفوه ، ورد عليهم في صور مختلفة ، بالحجة والمنطق أحيانا ، وبالتذكير والموعظة أحيانا ، وبالسخرية والتهكم أحيانا أخرى ، وكثيرا ما تتداخل هذه الصور في صورة واحدة •

وفيما يتعلق بموقف المشركين من ذات الله سبحانه ، يسخر القرآن من اشراكهم الشياطين في العبادة مع الله ، وفي خلال السخرية ينير عقولهم ، ويدعوهم الى التفكير مذكرا اياهم بان الشياطين سلالة عداء قديم عميق لبني آدم ، منذ الصراع الذى كان بين ابليس وآدم ، والذى انتهى بتسبب ابليس في اخراج آدم من الجنة ، فكأن القرآن يقول لهم ان الشياطين أبناء من أجرم في حق أبيكم ، وأنتم تعرفون أن العداوة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، كما قال احد سادة العرب ينافر سيدا آخر •

أبادلك العداوة ما حيينا •

فرد عليه السيد الآخر مكملا هذه الشطرة لتصبح بيتا من الشعر :

ونحن اذا متنا نورثها البنينا •

فالشياطين الذين تعبدونهم شركاء لله ، اعداء وسلالة عدو لكم ، ثم كيف تسيغ عقولكم عبادتهم ؟ الله سبحانه خلق السموات والأرض ، فهل أحضرهم

معه ليشاركوه خلقهن ؟ وهبوا أن الله أراد جل جلاله أن يتخذ عضدا وعونا له . فهل يتخذ المضلين كالشياطين عضدا وعونا ؟ ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ، ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » (١) وموضع التهكم في الآيتين المفارقتان الساخرتان في قوله تعالى (ما أشهدتهم ٠٠) وقوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين عضدا) فأما عن الأولى ، فمن البدهي أن كل من يؤمن بالله ، لا يخطر بباله قط أن الله سبحانه يحضر الشياطين ليشهدهم أو ليشركهم أو ليستعين بهم في خلقه أي شيء ، وحتى المشركين حين يسلمون بأن الله خلق السموات والأرض ، فانهم لا يتصورون أنه استعان بالشياطين في خلقهن ، فهذا الاسلوب لا يراد منه حقيقته وهو نفي استعانة الله بالشياطين لأنها حقيقة بدهية لا تحتاج الى نفي ، وانما يراد به التهكم والسخرية من استساغة المشركين أن يعبدوا غير الله ، مع علمهم بأنه لا شريك له في خلق كل شيء ، وانما يعبد الخالق . وأما عن الثانية ، فان منطوق قوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين عضدا) لا يراد مفهومه ، لأن مفهومه إن الله سبحانه يمكن أن يستعين بغير المضلين ، ومن البدهي أنه سبحانه لا يستعين بأحد سواء من المضلين أو غير المضلين ، فهذا الأسلوب أيضا لا تراد منه حقيقته لانها واضحة ، وانما تراد به السخرية من عقول المشركين التي لا تفكر في جهالتها وضلالها حين تشرك بالله غيره في العبادة ٠

ومن السخرية التي تتعلق بموقف المشركين من ذات الله سبحانه ، حين يبيحون لأنفسهم أو يتصورون انهم أعداء حقيقيون لله ، مع انهم لا يفكرون في خلقهم وضعفهم ، وهوان نشأتهم التي يذكرهم بها القرآن الكريم ساخرا منهم « خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين » (٢) فالله سبحانه هو الخالق للانسان ، والخالق له من شيء مهين ، ومع ذلك يصبح هذا المخلوق المهين المنشأ خصما لخالقه ، ومع ان هذه المقارنة تتضمن تعجبا عميق المدلول ، الا ان السخرية الدقيقة العميقة تتركز في لفظ (فاذا) وما يفيده من معنى المفاجأة ، مع اقتران معنى المفاجأة بالفاء ، فاجتماع الفاء التي تفيد الفورية ، واذا التي تفيد المفاجأة يثير في النفس احساسا بالمفارقة والطرافة ، ويثير مشاعر وأحاسيس لا تعبر عنها ولا تبرزها الألفاظ ، وانما يدركها التذوق البياني ، فخلق الانسان من النطفة يكون عند تكونه في الرحم قبل الولادة ، ثم يولد ، ثم يكون طفلا ، ثم شابا ، ثم رجلا ، ولكن موضع التهكم في الآية انها تحجب هذه المراحل عن الذهن ، ثم تنقلنا فجأة من الجنين في الرحم ، الى الخصومة مع الله ، وبهذا الانتقال المفاجيء تصف الآية المشركين ، فالآية تذكر المشرك بأنه خلق في رحم أمه من ماء مهين ، وفجأة انتقل من هذه الحال الى خصم وعدو ، وهو لا يخاصم شخصا

(١) الآيتان ٥٠ ، ٥١ سورة الكهف ٠

(٢) الآية ٤ سورة النحل ٠

عاديا ، وانما يخاصم الله ، وكأنه لم يصبح شابا ولا رجلا ، وانما يخاصم الله وهو ما زال جنينا فى مرحلة تكوينه من النطفة •

ويوضح القرآن ان الصراع الشديد بين المشركين والاسلام انما يتركز فى وحدة الاله ، فالمشركون ينفرون أشد النفور من محو كيان آلهتهم ، متخذين من يدعو الى ذلك عدوا يهدد عقيدتهم وتقاليدهم ، ففى موضع من القرآن الكريم نرى هذه الحقيقة فى صراع المشركين حول وحدة الله سبحانه ، على انها أهم ما يثير نفور المشركين ، لا لانكارهم وجود الله ، فذلك مالم يبد فى القرآن اصرار المشركين عليه ، وانما اصرارهم يتركز فى التمسك بآلهتهم كتراث عزيز ، وتقاليـد اصبحت جزءا أساسـيا من أفكارهم وحياتهم ، ومن خلال ذلك نلمس مواضع نفورهم من ترك الشرك ، والانقياد الى دين جديد ، فهم يرون من العزيز على نفوسهم وخاصة السادة أن ينقادوا لشخص منهم هناك من هو أولى منه بالزعامة فى عرف تقاليدهم ، وهم لا يخفون تشبثهم بالتراث التقليدى ، ويرون من الواجب عليهم أن يدافعوا عنه ، وأن يصمدوا فى وجه من يريد المساس به « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشـوا واصـبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخـرة ، ان هذا الا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب » (١) ويؤيد ان وحـدة الاله هى نقطـة الصراع الأساسى بين المشركين والاسلام ، انه يروى فى سبب نزول هذه الآيات ان النبى صلى الله عليه وسلم حين جهـر بالاسلام فى مكة ، وبدأ بعض الناس يدخلون فى دينه ، وبعضهم الآخر يشغلون بحديث هذا الدين وخبره ، فزع سادة مكة ، فمشى خمسة وعشرون منهم الى ابى طالب عم الرسول يناشدونه أن يكف ابن أخيه عنهم وعن آلهتهم وعن اتباعهـم ، وبعـد ان استمع اليهم النبى قال لهم « ارأيتم ان اعطيتكم ما سألتم أمعطى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ » قالوا : نعم وعشرا ، أى نعطيكها وعشر كلمات معها ، قال « قولوا لا اله الا الله » فقاموا عنه ساخطين ، يديرون بينهم ما نقله عنهم القرآن الكريم من الكلام السابق (٢) وشدة تعجبهم من وحدة الاله فى لفظ (عجاب) تنبىء عن نفورهم الشديد من التفريط فى آلهتهم ، وكون القرآن ينقل عنهم تعجبهم فى هذا اللفظ ، وفى قولهم (ما سمعنا بهذا) وقولهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) هذا النقل يوحى بالاستخفاف بعقولهم ، ويتضمن تهكما وسخرية من تعجبهم من حق واضح ، وأمر لا تنازع فيه العقول السليمة •

ويقرنون سبهم للرسول صلى الله عليه وسلم بتمسكهم بآلهتهم ، فى

---

(١) الآيات ٤ ـ ٨ سورة ص •

(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى للآيات السابقة •

قوله تعالى « ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ، (١) وكأنهم يجعلون دعوة الرسول اياهم الى ترك آلهتهم سببا فى سبه واتهامه بالشعر والجنون ، ومعنى ذلك ان دعوتهم الى ترك آلهتهم تثير فيهم أقصى الغضب والحفيظة ، وتدفعهم الى الخروج عن جادة الصواب والاتزان ، فالمألوف فى خلق العرب الجاهليين ، أن يغلب عليهم ، عفة الخصومة ، والتزام الصدق فى الهجاء ، وخاصة بين السادة والزعماء ، فكل ما روى لنا من خصوماتهم ، ومنافراتهم ، وهجائهم ، يغلب عليه الصدق ، حيث لا يبيح أحدهم لنفسه ، ولا يبيح له المجتمع أن يرمى خصمه بما ليس فيه ، وسادة مكة يعلمون حق العلم ان محمدا ليس بشاعر ، وليس بمجنون ، وكونهم يرمونه بما ليس فيه ، وكون هذا ليس من خلقهم ، معناه ان دعوته الى ترك آلهتهم قد أخرجتهم عن صوابهم ، وافقدتهم طبيعتهم ، لأنها مست أقدس موضع فى تقاليدهم ، وأصلب موضع فى نفوسهم .

وخوف المشركين على آلهتهم يثير فى نفوسهم كثيرا من المشاعر ، ولكنها مشاعر الحرص عليها ، والدفاع عنها ، لأنها جزء من تقاليدهم ، وبالتالى جزء من أشخاصهم ، فيرون التفريط فيها يمس كبرياءهم ، ويحطم اعتزازهم بأشخاصهم وتراثهم ، ولذلك تتجمع كبرياؤهم حينما يدعون الى ترك آلهتهم الى الايمان بالله وحده ، كما يقول سبحانه « انهم كانوا اذا قيـــل لهم لا اله الا الله يستكبرون » (٢) .

وحيث كان حرصهم على آلهتهم بهذه الدرجة من القوة والعنف ، فهم اذن يسلكون كل سبيل للدفاع عنها ، ومما سلكوه المحاجة والمجادلة ، ومن ذلك ما يروى من ان النبى صلى الله عليه وسلم حين تلا على قريش (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) آلمهم ذلك وأغضبهم ، « فقال عبد الله بن الزبعرى : يا محمد ، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم ان عيسى ابن مريم نبى وتثنى عليـه خيرا وعلى أمه ؟ وقد علمت ان النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد ، والملائكة يعبدون ، فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا ان نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا وضحكوا ، وسكت النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) ونزلت هذه الآية (٣) والآية التى نزلت « ولما ضرب ابن مريم مثـلا اذا قومك منه يصـدون ، وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ، ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل » (٤) .

---

(١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ سورة الصافات .

(٢) الآية ٣٥ سورة الصافات .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى ٢٠٥/٤ .

(٤) الآيات ٥٧ ــ ٥٩ سورة الزخرف .

ثم يسخر القرآن الكريم من عقيدتهم ، فى عبادتهم الأصنام واشراكهم بالله ، فهم يؤذون الرسول ويستهزئون به لدعوته اياهم الى نبذ هذه الآلهة وعبادة الله وحده ، مدعين ان سخطهم على الاسلام وعلى الرسول من أجل هذه الآلهه ، مع انهم فى الحقيقة لا يعبدون هذه الآلهة ، وانما يعبدون هواهم وميولهم (أفرأيت من اتخذ الهه هواه) وفى هذا اشارة الى سلطان التقاليد عليهم ، وارتباطها بحياتهم وآمالهم وأفكارهم كما سبقت الاشارة آنفا الى ذلك ، فهم لا يركزون حرصهم على الأصنام لذاتها ، ولا يمانعون فى الاعتراف بوجود الله ، وانما يركزون كل همهم فى المحافظة على التقاليد ، وأبرز ما تتمثل فيه التقاليد واضحة فى نفوسهم هو مظاهر عبادتهم للأصنام ، ولذلك يواصل القرآن حملته وسخريته منهم فى هذه الزاوية ، زاوية الانقياد الأعمى للتقاليد والتراث ، أيا كان هذا التراث ، فهم كالأنعام الأليفة التى تسلم قيادها لأى قائد ، دون أن تدرك المصير الذى يقودها اليه ، أو تفكر فى حالها من هذا الانقياد ، على أن شبههم بالأنعام لايعدو هذا الوجه من الانقياد بدون تفكير ، أما لو قورنوا بالأنعام فى جملتهم ، فان الأنعام خير منهم ، لأنها من انقيادها تؤدى وظيفتها التى خلقت من أجلها ، أما هم فيخالفون ما خلقوا من أجله ، وهو استعمال عقولهم التى ميزهم الله بها ، وجعلها هاديا ومرشدا لهم ، فحين تعاب الأنعام بهذه الصفة ، فهم أشد عيبا وأكبر ضلالا « واذا رأوك أن يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ، ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ، أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب ان أكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (١) .

ويسخر القرآن أيضا من استساغة عقولهم أن تعبد هذه الأحجار ، وأن تعتقد فيها الضر والنفع ، وأن ترجو منها الحماية والخير ، فمثلهم حينئذ كمثل العنكبوت فى بيتها الواهن الضعيف « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (٢) .

وفى اهتمام واضح يدعو القرآن المشركين كثيرا الى استعمال عقولهم ، والى التفكير فى أمور بدهية لو انهم فكروا فيها ، ومن ذلك انه يضرب لهم مثلا ليقارنوا بين قدرة الله وهذه الأحجار التى يعكفون عليها ، فيضرب لهم مثلا من أنفسهم ، بأن يتصوروا ان الله سلب عنهم بعض نعمه عليهم ، فهل تستطيع آلهتهم أن تعوضهم عنها ، أو تردها اليهم « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم

---

(١) الآيات ٤١ ــ ٤٤ سورة الفرقان .

(٢) آية ٤١ سورة العنكبوت .

وابصاركم وختم على قلوبكم من آله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف لهم الآيات ثم هم يصدفون » (١) .

وقد وجه المشركون حربا مركزة على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بصفته الممثل الأول للاسلام ، وعنوان المسلمين ، وقد تصوروا انه بالقضاء على شخص النبي و على كيانه المعنوي بالطعن فيه ، يطمئنون الى القضاء على هذا الدين الجديد من أساسه ، ولهذا ركزوا حربهم على شخصه ، ولكن الله سبحانه تأذن ان يحمي شخص نبيه وكيانه الأدبي من أعدائه ، فكان النبي أقوى منهم جميعا ، فأما شخصه فقد تكفل الله بحمايته حيث يقول تعالى (والله يعصمك من الناس) وأما كيانه الأدبي ، فقد تكفل القرآن بالدفاع عنه ، ورد كل سهم يوجه اليه الى صدر صاحبه ، ويبين القرآن حرص المشركين على انزال أى مكروه بالرسول يحقق لهم ما يهدفون اليه من القضاء على دينه ، حيث يقول « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (٢) والمراد بالكافرين فى الآية مشركو مكة (٣) وتشير الآية الى مؤامرة أبي جهل وقومه حين اجتمعوا يتشاورون فى أمر محمد ، وانتهى رايهم الى أن يأخذوا من كل بطن من قريش فتى ليقتلوا النبي فيتفرق دمه فى قريش ، ولا يقوى بنو هاشم على الثأر له ، ولكن الله نجى نبيه فى قصة الهجرة المعروفة .

وقد سخروا واستهزءوا بالرسول ، والقرآن ينقل عنهم كثيرا من ذلك ، مدافعا عن النبي ، مهونا من شأنهم وشأن سخريتهم ، مذكرا الرسول بأن هذه سنة الله فى الذين اختارهم لحمل أمانته الكبرى ، أن يتحملوا وأن يصبروا ، لأنهم يتعاملون مع جهلة ضلال ، ولو كانوا خيرين لما كانوا فى حاجة الى أنبياء ، فمن ذلك ان المشركين يتهكمون بحديث النبي عن البعث والحساب ، موجهين سخريتهم اليه هو ، محملين كلامهم كل ما يمكن أن يحمل من تعجب متهكم ساخر ، ولكن القرآن يلفت نظرهم الى ملك الله الكبير ، الذى يصغر بجواره أمر البعث ، ويلفت نظرهم الى هوان أمرهم هم ، والى أن الله قادر على أن ينزل بهم عقابا شديدا على قولهم ، ولكنهم لا يفكرون « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ، أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ، أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب » (٤)

---

(١) الآية ٤٦ سورة الانعام .
(٢) الآية ٣٠ سورة الانفال .
(٣) انظر تفسير الطبرى ١٣/٥٠٣ .
(٤) الآيات ٧ ـ ٩ سورة سبأ .

وفيما سبق من الآيات اتهامهم اياه صلى الله عليه وسلم بالشعر والسحر والكهانة والجنون ·

والقرآن يواسى رسول الله ، مذكرا اياه بمهمته العظمى التى ينبغى ان يتحمل فى سبيلها كل شىء ، وبسنة الله فى الأنبياء ، ومن ذلك هذه المواساة التى لا ينكر القرآن فيها ان النبى يضيق ويحزن مما يؤذيه به المشركون ، ولكن ربه سبحانه ، يبرز له أعظم معنى يواسى به ، وهو أن تكذيب المشركين للرسول ، ليس فى الحقيقة تكذيب له ، لأنه مجرد رسول مبلغ ، وانما هو تكذيب لله ، وهذه سنة الكافرين مع رسول الله « قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ، وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ، انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون » (١) · ويعرض القرآن بعض تعللات المشركين ومطالبهم التى يدعون ان النبى لو حققها لهم فسيؤمنون ، مبينا أنها مجرد حجج يغطون بها جهلهم وكفرهم ، وانهم مهما رأوا من آيات فسيختلقون ما يدعون به بطلانها ، فلو أنزل الله عليهم كتابا من السماء أمام أعينهم ثم لمسوه بأيديهم لقالوا هذا سحر وليس كتابا من السماء ، وهذه سبيل الكافرين مع رسل الله ، فكثير من الأنبياء لاقوا من أقوامهم سخرية واستهزاء ، ولكن الله كان لهم دائما بالمرصاد ، وهذه آثار عقاب الله لهم ما زالت قائمة ، ولمشركى مكة أن يسيروا فى الأرض ليروا ما حل باخوانهم السابقين « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ، ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ، قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (٢) ·

ويؤكد القرآن للنبى صلى الله عليه وسلم وللناس ان الله سبحانه يتولى الدفاع عن نبيه ، وتأييده ضد أعدائه فى كل ما يمكرون ، سواء أكان مكرهم محاولة للنيل من شخصه أم من دعوته ، فمما صب عليه المشركون كيدهم من قواعد الاسلام القرآن ، حيث حاولوا بكل جهد ووسيلة ان يشوهوه فى أعين الناس ، بادعاء أنه سحر من عمل محمد ، أو كهانة يجذب اليه الناس بها ، أو أساطير اكتتبها من السابقين ، وحتى حين لا تجدى عليهم كل هذه الدعاوى ،

---

(١) الآيات ٣٣ ــ ٣٦ سورة الأنعام ·
(٢) الآيات ٨ ــ ١١ سورة الأنعام ·

يلجأون الى دعوى ساذجة ، وهي ان القرآن لو كان من عند الله لانزله جملة واحدة ، ولكن القرآن يبين لهم بعض حكمته في تنزيل القرآن منجما على فترات ثم يزيد الرسول ثقة واطمئنانا الى تاييد ربه له ، ودفاعه عنه في كل ما يوجه اليه ، حتى الدعاوى والحجج التي يواجهه بها قومه ، فان الله كفيل بان يرد له عليها . ثم يصب القرآن سخرية بالغة بهؤلاء الذين يكيدون لرسول الله ولكلام الله ، فيتناول أبرز موضع في أشخاصهم ، واكرم عضو يعتز به الانسان وهو الوجه ، فيرسم لهم صورة من الهوان الشديد الذي يلقونه يوم القيامة ، والذي يبلغ اقصاه في هذه الوجوه التي يعتزون بها ، والتي تمثل اشخاصهم كلها ويعرض القرآن في هذا الموضع ضيق الرسول بتكذيب المشركين للقرآن ، ولجوء الرسول الى ربه شاكيا ذلك « وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » وفي هذا تخويف للمشركين ، وشبه انذار لهم ، بأن لجوء الرســـول الى ربه خطر عليهم ، فان الأنبياء حين ييأسون من أقوامهم يحكمون الله بينهم داعين عليهم ، فيحل على الكافرين العذاب ، وما بين الكافرين بالقرآن وبين العذاب الا أن يدعو عليهم النبي ، ولكن الله يعلم ان شكاية نبيه لا تهدف الى الدعاء على أعدائه ، ولا تتضمن رغبته في الانتقام منهم ، وانما هي شكوى الحبيب الى الحبيب مما يعانيه ، لذلك يعزيه ربه ، مواسيا له ، مقويا من عزمه وصبره ، بأن ما يلاقيه من قومه ، لاقاه الأنبياء من قبله ، وان أمامه نور الله وهداه ، ووراءه نصر الله وتأييده ، ثم يسوق القرآن بعض ما ضاق به الرسول من مهاجمة المشركين للقرآن « وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ، وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ، الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا واضــل سبيلا » (١) ولكن القرآن يبين للمشركين مغبة ايذائهم للرســـــول ، وانهم سيندمون على ذلك ندما شديدا ، ويتمنون حينئذ لو أنهــم كانوا في صف الرسول ، ولم يستمعوا الى أولئك الذين كادوا للرسول وصدوهم عن اتباعه ، فليفكروا في ذلك اليوم قبل أن يفوت الأوان ولا ينفعهم يومذاك ندم « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا » (٢) ويروى ان هذه الآيات نزلت في شأن عقبــة بن أبي معيط الذي كاد أن يسلم لولا أن

---

(١) الآيات ٣٠ – ٣٤ سورة الفرقان .
(٢) الآيات ٢٧ – ٢٩ سورة الفرقان .

صده صديقه أبي بن خلف ، وحمله على أن يؤذى النبي ويهينه ففعل ، ثم قتل في بدر (١) ·

والقرآن الكريم معجزة الاسلام ولسانه المبين ، وقد أحس المشركون خطره على شركهم منذ أول آية نزلت ، حيث رأوا فيه طرازا عجيبا أخاذا من الكلام · فمع انه عربي لا يختلف في ألفاظه عن شيء من ألفاظهم ونظمهم ، الا أن فيه جاذبية تملك القلوب وتأسر النفوس ، وفيه احساس يملأ نفس سامعه بأن هذا الكلام آت من مصدر غير المصـــــادر المألوفة في أي كلام ، احساس يسيطر على نفس السامع بأن صاحب هذا الكلام ليس شخصا عاديا مهما تكن له من مزايا ، وانما هو مختلف عن كل مصادر الكلام ، وحين يقول محمد أن الله سبحانه هو صاحب هذا الكلام ، فان النفوس تجد ميلا تلقائيـا الى تصديقه ، لأنها أحست حتى قبل أن يخبرها محمد احساسا واضحا بأن صاحب هذا الكلام لا ينبغي أن يكون عاديا ، ومن هنا فان القرآن الكريم كان من أهم عوامل انتشار الاسلام في الجزيرة العربية ، فما سمعه شخص الا كان بين أمرين ، اما أن يسلم ، واما أن تمتلىء نفسه انفعالا به ، سواء أكان انفعال رضى أم انفعالا سخط ، وفي كلا الحالين يجد نفسه مدفوعا الى الحديث عن هذا الكلام الذي جاء به محمد ليعبر عن رضاه أو سخطه ، فيصبح داعية للقرآن وناشرا لذكره من حيث لا يقصد · وقد كان سادة قريش أول من أدرك خطر القرآن وأثره : وبصرف النظر عن موقفهم العدائي من الاسلام ، فان ادراكهم لخطر الاسلام ممثلا في القرآن منذ أول وهلة ، وقبل أن يصبح المسلمون قوة تخيف أو يحسب لها حساب ، يدل على بعد النظر ، والذكاء النافذ الذي يحسن تقدير الأمور ، وحساب عواقبها ، فان سادة قريش فزعوا وجزعوا من الاسلام وخاصـــــة القرآن ، والمسلمون لايكادون يتجاوزون أصابع اليدين عددا ، فلم يكن اهتمامهم وفزعهم لأن أعداءهم من المسلمين أصبحوا قوة أو حزبا ، ولا لأن هناك مصدرا ماديا أخافهم على آلهتهم وعلى سيادتهم ، فلم يكن في المسلمين حينئذ ما يخيف ، أو يوحي في النظرة السطحية بخوف قريب أو متوقع ولكن النظرة العميقة كانت توحي بأن هذا القرآن وما دعا اليه سيكون له شأن كبير وقريب معا ، وهكذا أدرك سادة قريش في تقديرهم للاسلام ممثلا في القرآن ، وقد أثبتت الأيام والأحداث صدق نظرتهم ، وبعد أنظارهم ، فما أن سمع سادة قريش القرآن حتى فزعوا من خطره على الشرك ، وقدروا تأثيره في النفوس ، وجذبه للقلوب ، فثاروا ثورتهم العنيفة العارمة ، يريدون أن يقضوا عليه في مهده ، وروايات التاريخ تؤكد أن القرآن كان أهم ما يثير سادة قريش ، ويملأهم غضبا عـــلى الرسول والمسلمين ، والقرآن الكريم نفسه يؤيد ذلك ، ومن هذا قوله تعالى « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون

---

(١) أنظر الكشاف للزمخشري ٣/٢١٨ ·

يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » (١) ٠

وحين نتأمل مضمون الآية السابقة على ضوء علم النفس نجد ان احساس قريش بخطر القرآن على دينهم ومقوماتهم كان قويا ، وان ادراكهم لقوة تأثير القرآن ، وتوقعهم لانتشاره وسيطرته وانتصاره كان واضحا في نفوسهم ومتمكنا منها ، ذلك انهم يعتبرون أنفسهم فى خصومة مع الاسلام منذ ظهوره ، وكون القرآن هو الذى يثير انفعالهم وغضبهم الشديد ، معناه ادراكهم لخطـــورة القرآن وتوقعهم انتصاره عليهم ، وتخييبه لآمالهم فى القضاء على الاســـلام أو الانتصار عليه ، فان هذه الآثار التى وضحتها الآية فى ظهورها عليهم ، من وضوح الغضب الشديد فى وجوههم (تعرف في وجوههم المنكر) وثورة الغضب التي تجعلهم يكادون يفتكون بالذين يتلون القرآن (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) هذه الآثار التى تبدو على المشركين حين يتلى عليهم القرآن ، يعرفها علماء النفس بأنها من أعراض الاحباط ، ويشرح علماء النفس الاحباط فى مثل قولهم « يواجه كل فرد مواقف تفشل فيها معرفته وذكاؤه الفطرى وخبرته فى احداث النتائج التى يبغيها وحينما يدفع الفرد تجاه هدف ثم يتعرض شيء ما ليعوق تقدمه نحوه يقال انه قد لاقى احباطا » (٢) فالاحباط اذن هو الاحساس باعتراض عائق قوى يحول بين الشخص ووصوله الى ما يريد تحقيقه ، ويؤكد علماء النفس ان الاحباط لابد أن تعقبه انفعالات مختلفة ، تختلف باختلاف طبيعة الأفراد واستعدادهم ، وأهم الآثار التى تبدو عـــلى الأفراد ، وتظهر فى سلوكهم حينما يشعرون بالاحباط هى :

١ ــ العدوان ، ويتمثل في الرغبة فى القسوة ، أو توقيع عقاب ، أو محاولة تحطيم مصدر الاحباط أو ما يرتبط به ، ويفشو فى المجتمع الذى يلاقى هذا النوع من الاحباط القيل والقال وانتشار الاشاعات والتشاحن والتخريب ٠

٢ ــ النكوص ، ويتمثل في التخاذل وظهور تصرفات اقل من المستوى العقلي العادى لصاحبها ، ويظهر المجتمع الذى يلاقى هذا النوع قابلية للايحاء وقدرة ضعيفة على النقد ، فهم على استعداد لتصديق ما يقال لهم ، تاركين التفكير واستعمال العقول ٠

٣ ــ التثبيت ، ويتمثل في الاستمرار في العمل المحبط الذى أيقن صاحبه بفشله ، وتكراره المرة بعد المرة على الرغم من وضوح عدم جدواه ٠

٤ ــ الاذعان : ويتمثل فى الاستسلام (٣) ٠

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الحج ٠

(٢) علم النفس الاجتماعي فى الصناعة ١ ٠ براون ترجمة مجموعة ص ٢٧٦ ٠

(٣) علم النفس الاجتماعي فى الصناعة ا ٠ براون ترجمة جماعة ٢٧٢ ــ ٢٨١ ٠

وعلى ضوء ذلك نزداد فهما لموقف المشركين من الاسلام ، ويمكن ان يقال ان تصرفات المشركين كلها ازاء الاسلام تعتبر على اختلافها آثارا للاحباط لدى المشركين بمعنى انهم شعروا منذ بدء الاسلام وخاصة عند استماعهم الى القرآن ، انه قطع عليهم الطريق الى آمالهم وخيب أماني نفوسهم ، سواء أكانت أماني شخصية ، تتمثل فى آمال كل سيد منهم فى حياته ومستقبله ، أم أماني اجتماعية في أن يقضوا على هذا الدين الذي يرون فيه تهديدا لمنافعهم أو ينتصروا عليه ، ويبدو تقديرهم وتوقعهم لمستقبل القرآن منذ أول عهده ، فى قول زعيم قريش حينئذ الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم حين ذهب مندوبا عن قومه الى الرسول يساومه على التخلي عن دعوته ، فتلا عليه النبي بعض ما نزل عليه من القرآن ، حتى بلغ قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .. » فاذا الوليد يمتلىء اضطرابا وانفعالا ، ويناشد النبي أن يكف ، ثم يعود الى قومه بهـذا الاضطراب ، فيخشون اسـلامه ، وخاصة حينما قال لهم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ، ولا من كلام الجن ، ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى ، ولكن الوليد طمأنهم بعد ذلك ، بأنه يرى ان هذا الكلام نوع من السحر (١) ، فالوليد اذن يتوقع انتصار القرآن عليهم ، وانه (يعلو وما يعلى) وسواء وصفه الأول له ، ووصفه الأخير ، فكلاهما يدل على ان القرآن طراز غير مألوف فى كلامهم ، وانهم يشعرون عنـد استماعه بما لا يشعرون به نحو كلام آخر ، والذي يعنينا هو ادراك المشركين لقـوة القرآن ، وتوقعهم لانتصاره وهزيمتهم أمامه ، وهنا يأتي موقف الاحباط الذي يحدده علماء النفس بأنه اعتراض عقبة قوية أمام آمال الفرد واتجاهه اعتراضا يشعره بالفشل ، فقد أحس المشركون بأن القرآن ودعوته ، عقبة قوية تعترض آمالهم وحياتهم المألوفة ، وتشعرهم بالخيبة والهزيمة حيث يتوقعون انتصاره وعلوه ، وهنا أيضا تختلف انفعالاتهم أمام هذا الاحباط حسب اختلاف طبائعهم واستعدادهم ، ولكننا نستطيع من خلال الروايات التي نقلت الينـا موقف المشركين من الاسلام ، ومن خلال ما نقله القرآن الكريم من موقفهم أن نتبين جميع آثار الاحباط التي ذكرها علماء النفس متحققة في موقف المشركين ، وليس معنى ذلك انها متحققة في سلوك كل فرد منهم ، وانما معناه ان كل أثر من هذه الآثار ظهر فى فريق منهم يهيئه طبعه واستعداده له أو فى مرحلة زمنية . فالآية السابقة (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) تراها تمثل سلوك النوع الأول من آثار الاحباط الذي يتميز بالانفعال والغضب الشديد ، الذي يدفع صاحبه

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ٤/٥١٦ .

الى الفتك والتحطيم ، ونلاحظ انه لما كان مصدر الاحباط هو الشعور باليأس والفشل أمام قوة العقبة المعترضة ، فان القرآن يزيدهم يأسا من موقفهم واشعارا بالفشل فيما يؤملونه من هزيمة الاسلام ، فيقول لهم اذا كان سماعكم للقرآن يثير فى نفوسكم كل هذه الانفعالات ، فان هناك ما هو شر من ذلك بالنسبة لكم وهو العذاب الشديد الذى ينتظركم عند الله (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) وذلك لينتقل بهم الاحباط من هذه المرحلة الى مرحلة أخرى تدنيهم من الاسلام .

ومظهر التثبيت الذى يتحدث عنه علماء النفس على انه اثر من آثار الاحباط ، والذى يتمثل فى الاستمرار فى العمل المحبط مع يقين صـــاحبه بفشله فيه ، تدل عليه كثير من الآيات ، كقوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » (١) فهم رغم يقينهم من صدق دعوة النبى ، وتأكدهم مما لمسوه بأيديهم من الكتاب النازل من السماء أمام أعينهم ، ورغم يقينهم حينئذ من ان هذا دين الله ، وان دينهم باطل الا انهم مصرون على كفرهم ، وعلى اتهام النبى بانه يأتيهم بسحر مبين .

وأما مظهر النكوص الذى يتمثل فى التخاذل وظهور تصرفات اقل من المستوى العادى لأصحابها من الناحية العقلية ، فيتمثل فى موقف الأتبـاع والعامة من المشركين ، حيث أظهروا انقيادا أعمى للسادة ، وأبدوا فى تصرفاتهم كأنهم يفعلون ما يفعلون وراء الزعماء والسادة وهم مسلوبو العقول والتفكير . وقد ركز القرآن حديثه على هؤلاء الأتباع ، لأنهم عامة النـاس الذين تحرص الأديان دائما على كسبهم ، فهم أصفى المجتمع نفوسا ، وأبعدهم عن الأغراض الخاصة ، والآمال الشخصية التى تحول غالبا بين السادة والأغنياء وبين اتباع الأديان ، لأنهم يرون فيها حائلا بينهم وبين أغراضهم وآمالهم ، وقد سبق التمثيل لموقف الأتباع ، وحديث القرآن اليهم ، ومن زاوية حديث النكوص الذى يزيدنا فهما لكثير من الآيات المتعلقة بموقف عامة المشركين ، نرى ان موقف عامة المشركين يتمثل فيه طابع النكوص كما يصفه علماء النفس ، فهم منقادون دون تفكير أو تقدير للأمور وراء سادتهم ، وكل ما يملكونه من حجة ما يصوره القرآن على ألسنتهم « ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (٢) ، ويصور القرآن حالهم فى انقيادهم من عدم التفكير أو القدرة على النقد والتمييز ، ويجعل هذه الحقيقة منطوقة بألسنتهم ، ويوضح القرآن ان حديثه هـذا عن الأكثرية ، وهم عامة المشركين الذين يعنيهم هذا الحديث ، فيقول « كتاب فصلت

---

(١) الآية ٧ سورة الأنعام .

(٢) من الآية ٦٦ سورة الأحزاب .

آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا حجاب فاعمل اننا عاملون » (١) فقلوبهم في أكنة لا تفكر ولا تميز ، وآذانهم لا تعي مما تسمع شيئا ، حتى عيونهم ادراكها كأنه غير سليم ، فهم يحسون أن النبي ودينه محجوبان عنهم ، وقد يبدو تكرار وصف القرآن للمشركين بعدم التفكير أو السمع والبصر غير واضح لدى بعض العقول ، مما يحملها على كثير من التأويل والحمل على التجوز في هذه الآيات ، ولكننا حين نستعرض الأحاديث الكثيرة المفصلة لعلماء النفس عن آثار الاحباط ، وخاصة النكوص الذي نتحدث عنه ، نجد ان هذه الأوصاف التي يصف القرآن بها المشركين ، ليست مجازا أو رمزا وانما هي تحليل حقيقي دقيق لنفسيات المشركين ومشاعرهم ، ونجد ان القرآن كان أسبق من علم النفس الى التحليل والعمق النفسي ، فهذا المعنى من وصف القرآن للمشركين بعدم التفكير أو السمع السليمين ، هو ما يقرره علماء النفس من أن آثار النكوص هي التخاذل وظهور الانخفاض العقلي والانقياد بدون تفكير أو نقد ، وهذا المعنى الذي يقرره علماء النفس هو مضمون الآية السابقة ، ومضمون مثل قوله تعالى « .. والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »(٢)فمضمون الآية منصب على وصفهم بالانقياد دون أي تفكير ، وهو ذات المعنى الذي يقرره علماء النفس عن النكوص ، وكذلك قوله تعالى « أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين » وقوله تعالى « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » (٣) وقوله تعالى « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (٤) ، فما يقرره علماء النفس عن النكوص لا يعدو مضمون هذه الآيات وما يشابهها من القرآن الكريم ، والنكوص عندهم كما سبق آنفا نوع من آثار الاحباط التي تتمثل في الاحساس بالفشل لوجود عقبة قوية أمام اتجاه الشخص ، وحالة النكوص كما يقررها علماء النفس تغلب على عامة الناس من الأشخاص العاديين ، الذين لا يحملون مواهب أو مقومات خاصة تجعل فيهم صلابة وعنادا في المضي في اتجاههم وتحدي العقبة التي اعترضتهم ، أو تحدي الآثار النفسية التي تنتج عن الفشل ، وهكذا يحدد القرآن الكريم فعلا ، من حيث أن هذه الآثار التي وصف القرآن بها المشركين ، يشير الى انها تغلب على عامتهم لا الخاصة منهم ، وبعض الآيات تصرح باستثناء هؤلاء الخاصة ، كقوله تعالى « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ .. » أما الخاصة ،

---

(١) الآيات ٣ ــ ٥ سورة فصلت .
(٢) من الآية ١٢ سورة محمد .
(٣) الآية ٢٣ سورة الجاثية .
(٤) الآية ٤٤ سورة الفرقان .

وأصحاب المقومات القوية التي لا تلين بسهولة ، ولا تضعف أمام العقبات والاحساس بالفشل من أول وهلة ، فهؤلاء لا يركنون غالبا الى حالة النكوص والتخاذل كما يفعل عامة الناس ، وانما تثور فى نفوسهم رغبة المقاومة والتحدى وتظهر عليهم آثار نوع معين من الاحباط ، هو ما يعبر عنه علماء النفس بالعدوان . وهذا النوع أيضا أبرز القرآن الكريم وضعه محددا الآثار المعينة التى تبدو عليه ، وهى آثار الرغبة في العدوان كما قرر علماء النفس ، ومن ذلك الآية السابقة فى قوله تعالى « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا .. » .

وفى الحديث عن موقف المشركين من الاسلام يهمنا حديث علماء النفس عن آثار الاحباط لنفهم على ضوئه كثيرا من المواقف التى تبـــدو غير منطقية ولا معقولة من جانب المشركين ، هذه المواقف والتصرفات التى أفاضت فيها روايات التاريخ ، والتى أيدها القرآن الكريم في أكثر من موضع ، ومن ذلك الاتهامات الكثيرة التى رموا بها النبى صلى الله عليه وسلم ، والتى راجت بينهم بوصفها اشاعات ، ولكنهم لا يؤيدونها حين يسألون عنها فرادى ، كاتهام النبى صلى الله عليه وسلم بالجنون أو الكذب أو السحر أو الشاعرية ، فقد روج بعض أعداء النبى من الزعماء الحاسدين الحاقدين هذه الاشاعات عنه ، ورددها مجتمع المشركين ، وحديث القرآن عنها فى أكثر من موضع يدل على انها لاقت رواجا فى مجتمع المشركين ، ولكن الحقيقة التى يؤكدها التاريخ ان أحدا من المشركين — خارج نطاق الاشاعات — لم يتهم محمدا بشىء من ذلك ، بل لم يرد قط ان أحدا منهم بوصفه فردا وخارج نطاق الاشاعة قد صدق شيئا من ذلك ، بل كانوا يؤكدون أوصافا ثابتة فى خلقه لم يختلفوا عليها ، ولم ينكرها عليه أشدهم عداء له ، ومنها لقب (الصادق) ولقب (الأمين » ، ويؤيد ذلك حديث أبى سفيان الى هرقل عن النبى ، وكان مع أبى سفيان ركب من قريش ، وهم حينئذ فى اقصى فترات عدائهم مع النبى ، ومع ذلك لم يذكروا عن محمد عدوهم الا كل خير وفضيلة فى خلقه ، وكذلك حديث الوليد بن المغيرة السابق عن القرآن ، فكيف تفهم التوفيق بين اجلالهم لمحمد وخلقه فرادى ، ثم رواج هذه الاشاعات البالغة النكر عنه بينهم ؟

وعلى ضوء ما يقرره علماء النفس عن آثار الاحباط يبدو التوفيق بين الأمرين شيئا غير بعيد ولا ملتو ، فالمشركون من مكة بصفتهم أفرادا يعرفون محمدا الذى نشأ بينهم حق المعرفة ، ويعرفون خلقه الذى عاش به بينهم حتى بلغ الأربعين قبل أن يصبح نبيا ، لا يرتابون فى ذلك ولا يتشككون فيه ، وحين يسأل الواحد منهم عن محمد ، يجيب بما يعرفه ويعرفه الناس ، ولكن هؤلاء المشركين أنفسهم بوصفهم مجتمعا معاديا لمحمد ودينه ، ولاحساسهم بخطره وخطر دينه على تقاليدهم وآمالهم وطابع حياتهم ، ولاحساسهم بان هذا الدين

وخاصة القرآن فوق طاقتهم ، وان فيه من الحيوية والجاذبية والامل الكبير في المستقبل ، ونحو ذلك من القوميات البادية بوضوح في الاسلام منذ بدأ ، كل ذلك جعلهم يشعرون بالخطر ، وان الاسلام عقبة أكبر من مقاومتهم ، وان طريقهم في حربه يبدو فيه الفشل والمستقبل المظلم ، أعني جعلهم في الحالة التي يصفها علماء النفس بالاحباط ، وحيث أصبحوا في حالة الاحباط ، فلننظر الى ما يلاحظه علماء النفس من الآثار التي تشيع في المجتمع الذي يعاني حالة الاحباط ، فنجد من أبرز هذه الآثار التي تشيع في المجتمع قابلية الايحاء ، واستعداد أفراد المجتمع لتصديق أي شيء مهما يكن منافيا للعقل ، لان الأفراد حينئذ يكونون في المستوى الجماعي غير قادرين على الفهم أو النقد الصحيحين ، فهم مستعدون على الأخص لتصديق كل ما يوافق ميولهم ، وان أنكرته عقولهم ، ومن ذلك قول علماء النفس « تظهر المجموعة المحبطة قدرا غير عادي من القيل والقال » (١) وقولهم « ويظهر الناس الذين لاقوا احباطا نكوصا بأن يصبحوا أكثر قابلية للايحـاء ، وأقل قدرة على النقـد ، فهم على استعداد لتصديق ما يقال لهم حين يوافق ميولهم ، ويذرون العقل أدراج الرياح » (٢) ويضربون لذلك مثلا بانتشار اشاعة بجنون شخص مشهور ، مع عدم وجود قرائن تدل على ذلك ، فالمفروض ان العقول تنكر ذلك ، ولكن حالة الاحباط الممثلة في النكوص الدافع الى التخاذل تجعلهم يصدقون ذلك ويعملون على رواجه حتى وان ثبت لديهم كذب هذه الاشاعة ، فيقولون « ان انتشار اشاعة بأن شخصا شهيرا قد أصيب بالجنون انما هو فعل عدواني ، وتصديقها يدل على قابلية للايحـاء ، وافتقار للاتجاه النقدي ، متضمنا ميولا نكوصية ، والاصرار على هذا الرأي رغما عن اثبات العكس انما يدل على التثبيت » (٣) .

واذن فهذه الاشاعات التي تناقلها مجتمع الشرك عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن ، كاشاعة جنون النبي أو انه ساحر أو كذاب ، أو ان القرآن سحر أو أساطير الأولين ، كل ذلك لا يحمل أي دليل على اعتقادهم ان لهذه الاشاعات نصيبا من الصحة ، بل ولا تناقش هذه الاشاعات قط من زاوية التصديق أو التكذيب ، لأن تناقلها أو رواجها مهما يبلغ من القوة والانتشار ، لا علاقة له باعتقادهم صدقها أو كذبها ، لانها لم تنبع من تصديقهم اياها ، وانما نبعت من احساسهم بقوة محمد ودينه ، ومن احساسهم وتوقعهم للفشل اي مقاومة يبذلونها لهدمه وهدم دينه مما يعبر عنه علماء النفس بالاحباط ، فلا تعارض اذن بين احترامهم لشخص محمد صلى الله عليه وسلم بوصفهم أفرادا ، وبين أن تروج بينهم اشاعات عنه هم موقنون بكذبها .

---

(١) علم النفس الاجتماعي في الصناعة ١ . براون ترجمة جماعة ص ٢٧٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٨٠ .

فالمظاهر الثلاثة التي يتحدث عنها علماء النفس على أنها من آثار الاحباط وهي العدوان ، والنكوص ، والتثبيت ، يمكن رد جميع ســـلوك المشركين العدواني ضد الاسلام اليها ، والمرحلة الرابعة وهي الاذعان ، يمكن أن ترد اليها حالة من يعلن اسلامه من المشركين ، فالاذعان فى عرف علماء النفس يتمثل فى شعور الفرد باليأس الشديد من بذل أى محاولة للتغلب على العقبة المعترضة ، ومن وجود اى أمل فى نجاح الاتجاه الذى يسير فيه ، فتستولى عليه حالة من التبلد أو الاستسلام ، كما يقولون عن الاذعان « وأخيرا فقد يؤدى الاحباط المستديم فى ظروف معينة الى التبلد أو الاستسلام ·· بيد أنه يبدو أن هناك عملية منفصلة تماما نجد فيها التبلد الحقيقي وهي (ترك) كل المحاولات للتكيف دون أن يحدث الانعكاس » (١) فالشق الأول من هذا الكلام يعنى الحديث عن بعض حالات الاحباط ، ومنها الشعور باليأس من محاولة المقاومة ، أو اليأس من نجاح الاتجاه ، وهم وان كان تعبيرهم لا يصرح بلجوء الفرد حينئذ الى سلوك عكسى ، الا أن حالة التبلد والاستسلام أمام العقبة المعترضة معناه الانقياد لها أو على الأقل الاستعداد للانقياد لها ، وحين ننظر الى حالة الذين يعلنون اسلامهم من المشركين نجد أن هذا الوضع ينطبق عليها ، فان المشرك الذى يقاوم الاسلام بأى صورة من صور المقاومة يكون فى أحدى مظاهر أو مراحل الاحباط السابقة ، ولكن بعضهم كان لديه من صدق الحس ما يجعل الشعور بصدق الاسلام يسيطر عليه ، ومعنى ذلك يقينه حينئذ من بطلان الشرك وفشل السير فى طريقه ، وهذا اليقين هو الذى تنبنى عليه مرحلة الاذعان ، فان يقينه من بطلان الطريق الذى يسير فيه ، ومن فشله فى مقاومة الاسلام ، يجعله ييأس من موقفه فى صف الشرك ، ثم هناك مرحلة التفكير فى التماس الطريق الصحيح ، وهى مرحلة الاتجاه الى الاسلام · ولذلك نلاحظ ان القرآن الكريم يهدف دائما الى الوصول بالمشركين الى هذه المرحلة ، مرحلة اليأس فى مقاومتهم للاسلام ، واليأس من نجاح أى محاولة يبذلونها فى هذه السبيل ، حيث يبرز لهم دائما انهم بحربهم النبى أو الاسلام ، انما يحاربون الله ، وليس بعد اليأس فى حرب الله يأس ، وفيما يلى من الحديث عن الحرب المعنوية بين الاســـلام والمشركين نشعر بتركيز القرآن الكريم على أن يلجىء المشركين الى اليأس من كل أمل فى نصرهم على الاسلام ، ومن كل أمل فى أن يتحقق لهم خير فى الدنيـــا او الآخرة ·

وفى هذا المقام نجد سخرية القرآن تتتبع مواضع حرب المشركين للاسلام ثم تصب عليهم أقصى الدوافع الى اليأس وأقساها ، ففى موضع من القرآن الكريم مثلا ، تهاجم السخرية حربهم للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن ، بالأسلوب المنطقى الوادع الداعى الى التفكير والتدبر ، فيبدأ القرآن بما يتضمن

---

(١) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة أ · براون ترجمة جماعة ص ٢٨١ ·

ان هؤلاء المشركين بكفرهم وعنادهم وحربهم لله يستحقون العذاب حتى من غير أن يرسل الله اليهم رسولا ، فان في عقولهم التي منحهم الله اياها ، وفي آيات الكون ، وفي كل شيء من حولهم ما يدعوهم الى الايمان بالله ، ومعرفة انه الاله الواحد ، ولكن الله سبحانه زيادة في الزام عباده الحجة ، وحتى لا يكون لهم وجه قط يدافعون به عن أنفسهم أرسل اليهم الرسول ، تحاشيا لادعائهم الجهل ، وادعائهم انهم لو وجدوا رسولا يهديهم ويخرجهم من جهلهم لآمنوا به ، فابطالا لما قد يتعللون به من هذه الحجة ارسل الله اليهم الرسول ، واذا هم بعد أن جاءهم الرسول وعرفوه يتعللون بحجة أخرى ، هي طلبهم ان يأتيهم بما أتى به موسى قومه من المعجزات ، وهنا يكون موقفهم في حاجة الى التهكم بهم ، حيث انهم تركوا حجة الجهل لاجئين الى حجة أخرى مصطنعة ، فيتهكم القرآن بهم قائلا (أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) والسخرية في هذا التعبير مركزة في الاستفهام ، ويحمل المفسرون كفرهم بما جاء به موسى على وجهين ، اما بطريق القياس على قوم موسى ، أى أن قوم موسى طلبوا الآيات والمعجزات ، فلما جاءتهم كفروا بها ، فكذلك هؤلاء لو جاءهم الرسول بمثل ما جاء به موسى لكفروا أيضا ، وأما على أن المشركين كافرون بما جاء به موسى أيضا ، لانهم لو كانوا مؤمنين بموسى وبما جاء به حقا لآمنوا بمحمد ، ثم يطلب القرآن منهم طلبا يحمل غاية التهكم والسخرية منهم ، وهو أن يأتوا هم من عند الله بكتاب أهدى مما جاء به موسى ومحمد ، والسخرية تجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلب منهم هذا الطلب ليهتدى ويتبع كتابهم ، وكون الطلب يخصص الاتيان بالكتاب بانه من عند الله سخرية شديدة بهم ، بخلاف ما لو طلب منهم أن يأتوا بكتاب من عند أنفسهم ، وكون الرسول الذى أرسله الله ليهتدى به الناس ويتبعوه ، يلتمس من المشركين الهداية سخرية بالمشركين أشد ، رغم ان هذه الهداية معلقة على مستحيل ، وهو اتيانهم بكتاب من عند الله « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ، فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا اوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون ، قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين » (١) ويشير الزمخشرى الى التهكم الذى يحمله حرف الشك ــ ان ــ في آخر الآيات ..

٣ ــ الناحية المعنوية :

كانت الحرب المعنوية أو النفسية ميدانا بارزا بين الاسلام والمشركين ، وقد بذل المشركون في وسائل مختلفة كل جهد وكيد للتأثير على نفوس المسلمين

---

(١) الآيات ٤٧ ــ ٤٩ سورة القصص .

حتى يشككوهم فى تشبثهم بالاسلام ، لعلهم ينصرفون عنه ، ولعل غيرهم ممن يرنون الى اعتناق الاسلام تصرفهم هذه الوسائل عن وجهتهم نحو الاسلام ، وقد تنوعت وسائل المشركين فى هذا الميدان ، فحاربوا الاسلام والمسلمين بنشر الاشاعات والارهاب البدنى والنفسى ، وبالمحاصرة الاقتصادية ، وبالتشكيك فى شخص الرسول ، وفى القرآن ، وفى كل ما دعا اليه الاسلام ، وكان من أسلحتهم فى ذلك السخرية التى صبوها على كل جوانب الاسلام وقواعده ، حتى ان نفرا من ذوى المكانة فيهم وقفوا أنفسهم على السخرية من الاسلام فى جميع جوانبه ، وقد التف حولهم المشركون ، وأخذوا يتلقفون كل ما تجود به أفكار هؤلاء الساخرين والسنتهم ضد الاسلام ، ليروجوه وينشروه فى كل وجه ، وقد أشار القرآن الكريم الى أن هذه الحملة النفسية التى هاجم المشركون بها الاسلام كانت ذات أثر وأهمية ، ولولا ان الاسلام كان أقوى منها ، ولولا أن الله سبحانه هيأ للمسلمين اسلحة أقوى منها لكانت هذه الحملة خطرا كبيرا على الاسلام ، وقد صرح القرآن بان الرسول نفسه كان يضيق ضيقا عميقا بهذه الحملة ، ومن الواضح أن أشد ما يضيق به الرسول ما يرى فيه خطرا على دينه ودعوته ، ومن الواضح أيضا ان الرسول اذا كان وهو هو فى يقينه وعزمه وثباته ، فاولى ان يكون غيره من المسلمين أشد ضيقا بحملة المشركين النفسية عليهم ، فيقول سبحانه مبتدئا فى هذا المعنى بذكر نعمته على الرسول فى أن صرف عنه أذى هؤلاء الساخرين فيقول « انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (١) . ويروون أن هؤلاء المستهزئين كانوا خمسة من سادة قريش ، هم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن طلاطلة ، وينقل عن ابن عباس انهم ماتوا جميعا قبل بدر ، وان موتهم لم يكن عاديا . وانما كان بأسباب يبدو فيها ان الله سبحانه يريد أن يكفى رسوله ودينه شر هؤلاء الساخرين (٢) ، فماتوا بأسباب فيها آثار الانتقام من جانب الله .

ومع كل ما بذله المشركون من جهود ضد الاسلام ، فان القرآن كان أقوى من هذه الجهود جميعا ، ففضلا عن تحطيمه لقيادات الشرك ، وقصم الصلة بينهم وبين الأتباع من الناحية النفسية ، بحيث جعل الأتباع ينظرون الى هؤلاء السادة نظرة نقد وتحليل بعد ان كانوا مجرد قطيع من الناس يسوقه السادة والزعماء ، كما سبق فى حديث القيادات ، فضلا عن ذلك عمد القرآن الى عامة المشركين الذين يمثلون بأكثريتهم سواد الناس ، وأخذ ينير لهم حياة الظلام التى يتخبطون فيها ، ويأخذ بيدهم الى حياة النور والسكينة ، والى حياة العز التى يشعر فيها كل فرد بأنه انسان له نوع من الاستقلال فى شخصه ، وفى

---

(١) الآيات ٩٥ – ٩٩ سورة الحجر .

(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى فى تفسير الآيات السابقة .

نظرته الى الحياة ، انسان لا ينقص في حقوقه عن أحد قط ، ولا تزيد واجباته عن أحد قط ، بعد أن كان مجرد فرد يزحف في القطيع ، وخلفه صوت الزعيم وعصاه ، واشارة الى ما سبق من تقرير علماء النفس ، ان الاحباط حينما يسيطر شعوره على الفرد فانه يلجأ الى حالة الاستسلام ، فان القرآن قد جسم هذا المعنى في نفوس المشركين ، حتى يقربهم من مرحلة الاستسلام ، والاذعان لله ، فبينما يبذل قادة الشرك كل جهدهم ليقنعوا عامة الناس من المشركين بهوان أمر الاسلام وامر محمد وأصحابه ، ويقنعوهم بأن الأمر في يد السادة والقادة ، وأنه سيظل في يدهم ، نجد القرآن ينسف هذه المحاولات التى يبذلها القادة نسفا ، فيؤكد لهم بوسائل وأساليب مختلفة ان دعوى قادتهم باطله ، وان الاسلام هو دين الحق ، وأن المستقبل للاسلام ، وليس للقادة والزعماء ، وهذا المعنى ذو أهمية كبيرة في الصراع بين الشرك والاسلام ، ولو من الناحية العامة ، فان الأمل في المستقبل أو عدمه ، هو المحور الأساسى الذى يرجح كفة أحد الحزبين في أى صراع ، بمعنى ان الناس بطبعهم يميلون الى جانب المنتصر ، أو الذى يتوقعون انتصاره ، وحتى في مقام الصراع الدينى ، لا يبعد الأمر كثيرا عن هذا المحور ، فقد كانت بين الشرك والاسلام حرب عاتية ، وصراع عنيف ، وفى هذا الصراع ، كأى صراع آخر ، نجد عامة الناس ينحازون دائما الى الجانب الذى يتوقعون له المستقبل ، ولا يؤثر على هذا الحكم وجود أفراد أو نسبة قليلة مهيأة بطبعها لقوة الايمان وصلابة العزيمة ، تقتنع بأن الدين حق ، فتؤمن به ، وتثبت عليه حتى وان ايقنت بانتصار أعدائه عليه ، لأنها حينئذ تضع نفسها موضع الاستعداد للتضحية والفداء ، أما عامة الناس فان عيونهم لا تغمض عن التطلع الى الكفة الراجحة لتنحاز اليها ، ولعله من قبيل هذا المعنى ان القرآن الكريم يقرن اندفاع أفواج الناس وعامتهم الى الاسلام بظهور انتصار الاسلام وعلوه على حزب الشرك في قوله تعالى « اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » (١)، فلم يقرن سبحانه دخول الناس في الدين أفواجا بظهور الحق لهم ، أو بدخول الايمان في قلوبهم ، وانما قرنه بانتصار المسلمين وفتحهم مكة معقل الشرك ، وحصن الأعداء الذين كانت القبائل تراقب صراعهم مع الاسلام ، فلما هوى ركنهم ، وعلت راية الاسلام ، ودوى صوت انتصاره ، دخلوا في دين الله أفواجا ولفظ الأفواج يشير الى عامة الناس ٠

واذن فالأمل في المستقبل محور أساسى في تحديد اتجاه سواد الناس الى أحد طرفى الصراع ، وحيث كان أمل المستقبل بهذه الدرجة من الأهمية ، فان القرآن يغلق باب الأمل في المستقبل أمام المشركين سواء في الدنيا والآخرة اغلاقا كاملا ، بينما يفتحه أمام الاسلام على مصراعيه ، فيؤكد للمشركين ليدفعهم

---

(١) سورة النصر ٠

الى اليأس ، وللمسلمين ليزيدهم ثباتا وصمودا ، ان المستقبل دائما للمؤمنين ، كقوله تعالى « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون » وقوله تعالى « كتب الله لاغلبن أنا ورسلى » وقوله تعالى « ولينصرن الله من ينصره » وقوله سبحانه « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ويوضح النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بالنسبة للاسلام ، فيقول منذ فجر الاسلام فى مكة ، وقبل أن يتجاوز عدد المسلمين بضع عشرات من الضعفاء والعبيد « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب على غنمه » (١) .

والقرآن يجعل أعداءه يفقدون كل أمل فى الاستقرار والطمأنينة ، لأنهم يفقدون كل أمل فى موادعة المسلمين لهم ، فانه يأمر الرسول ومعه المسلمون أن يكون شعارهم الجهاد ضد أعداء الله ، وليس جهادهم مجرد حرب أو صد عدوان أو طلب ثأر ، وانما هى الحرب العاتية الطاحنة ، التى تمثل أقصى القوة والعنف والغلظة « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » (٢) ، فليس أمام أعداء الاسلام أمل قط فى هدوء أو استقرار ما دام المسلمون يتعقبونهم ، ويكتمل اليأس حينما يتأكدون أيضا أنهم ، مع خسرانهم الدنيا خاسرون للآخرة ، واذا كانت غلظة المسلمين تبرق أمامهم فى الدنيا ، فان جهنم تتوهج أمامهم فى الآخرة أيضا ، فلا أمل فى الدنيا ولا أمل فى الآخرة ، وما أسوأ مستقبلا تظلم دنياه وآخرته (وبئس المصير) .

ولا يقف القرآن بالمشركين عند اظلام المستقبل أمامهم من جانب أو مصدر واحد ، بل يشعب لهم مصادر الخطر التى تكمن فى طريق الشرك الذى يدفعهم فيه القادة ، ويسوقهم اليه جهلهم وعدم تفكيرهم ، فيشير لهم الى انهم لا ينبغى أن يقصروا خوفهم من المستقبل على قوة المسلمين أو توقع انتصار سيوف الاسلام فحسب ، بل يجب أن يضعوا فى اذهانهم مصدرا كبيرا للخطر عليهم حين يصرون على الشرك ، وهو عذاب السماء ، فى الدنيا قبل الآخرة ، فيمكن أن ينزل عليهم عذابا من السماء أقوى وأنفذ من سيوف المسلمين ، ولديهم عبر كثيرة فى الأمم السابقة التى يعلمون من أخبارها كيف صب الله عليهم النكال فى الدنيا ، فهذه آيات تخاطب النبى صلى الله عليه وسلم مواسية له فى أسفه وحزنه على اصرار قومه على الشرك بالله ، مبينة له ، ومشيرة الى المشركين ان الله قادر على أن يفاجئهم من السماء بما يحملهم على الايمان والخضوع (ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) ثم تصرح الآيات بالوعيد الدنيوى لهم ، وانهم وان كانوا قد اتخذوا من الاسلام والقرآن

---

(١) أنظر لفظ الحديث وبقيته فى صحيح البخارى .
(٢) الآية ٧٣ سورة التوبة .

سخرية واستهزاء ، فستأتيهم الأنباء التي يعلمون منها أيكون الاسلام والقرآن موضع سخرية أم لا يكونان ؟ (فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) ولفظ (أنباء) يوحي بأن الوعيد الموجه الى المشركين دنيوي وليس في الآخرة ، والآيات في قوله تعالى « لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين ، ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين ، فقد كذبوا فسيأتيهم أنبـــاء ما كانوا به يستهزئون » (١) • على ان الآيات تتضمن سخريتين بالمشركين ، أولاهما سخرية مصورة ، تتمثل في تصويرهم وأعناقهم في هذا الوضع الذي يمثل أقصى حالات الخضوع والذلة والاستسلام (فظلت أعناقهم لها خاضعين) ، والتعبير وان كان كناية عن الاستسلام الا أن التصوير يتضح فيه الاتجاه الى الاهانة والتهكم ، والسخرية الأخرى مستوحاة من أسلوب (فسيأتيهم أنبـــاء ما كانوا به يستهزئون) ، فلم يقل لهم ما هذه الأنباء ، وما نوعها ؟ ومن أى جهة ستأتيهم ؟ وما مبلغ وقعها عليهم أو تأثيرها فيهم ؟ ولا متى ستأتيهم ؟ وانما اكتفت الآيات بأنه ستأتيهم أنباء ، والأكثر اثارة للسخرية هو المفارقة التي يتضمنها ربط هذه الأنباء بشيء كانوا يستهزئون به ، فهذه الأنباء التي يوحي غموضـــها بهولها وعظمها أنباء شيء كانوا يتخذون منه سخرية ومجالا للاستهزاء •

ومن قبيل هذا الاطلاق والابهام الموحي بشدة الوعيد ، ما يؤكده القرآن من مستقبل للظالمين ، في قوله تعالى « وسيعلم الذين ظلمـــوا أى منقلب ينقلبون » (٢) ، فلم يبين لهم ما نوع هذا المنقلب ، وما مصدره ؟ ولا متى يحل ؟ ولكن لفظ (سيعلم) وما يفيده من اليقين يؤكد لهم السوء الشديد الذي يكمن لهم في هذا المنقلب ، ولفظ الظلم وان كان عاما ، الا أن القرآن كثيرا ما يستعمله مرادا به الشرك •

ويبدو في مثل هذا الوعيد أمران ، أحدهما زيادة فقدان الأمل في المستقبل بالنسبة للمشركين ، والجاؤهم الى اليأس الكامل من نجاح طريق الشرك ، مما يقربهم من مرحلة الاذعان التي يتحدث عنها علماء النفس ، والأمر الآخر مرتبط بهذا المعنى أيضا ، ولكن من زاوية أخـــرى ، هي زاوية الصراع بين المشركين والمسلمين ، فمن مثل هذا الوعيد يمكن للمشركين أن يستشعروا عدة معان تزيد من يأسهم وشعورهم بالفشل ، منها ان خصومهم في الصراع مؤيدون من جانب هذه القوة العظمى ، قوة الاله القادر ، الذي يتوعدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فحين يسمع المشركون من القرآن أو من محمد ان الله مؤيد للمؤمنين وعدو للمشركين ، ثم يسمعون هذا الوعيد لهم من الله ، فمهما يكن في نفوسهم من كفر أو شرك أو شك في الله ، فلاشك ان هذا الوعيد سيترك

---

(١) الآيات ٣ ـ ٦ سورة الشعراء •

(٢) من الآية ٢٢٧ سورة الشعراء •

فى نفوسهم أثرا من الرهبة ، وضعف الثقة بموقفهم ، وزيادة الرهبة من موقف أعدائهم المسلمين ، وهذا الأثر مهما يكن شأنه او مقداره فهو كسب للمسلمين كبير ، حين ننظر اليه من زاوية الحرب النفسية ، التى تنبنى عليها ، وتتقرر على أساسها نتيجة أى حرب عسكرية .

وتتناول سخرية القرآن هذا المعنى فتحمل على آمال المشركين حملة عنيفة تسد عليهم كل منفذ ، وتجعلهم يشعرون بالخجل الشديد ، من موقفهم فى الاشراك بالله ، ومن موقفهم فى تكذيب الرسول ، ومن نظرتهم الى قوتهم وغرورهم بهذه القوة ، فهذه آيات من القرآن الكريم ، تبدأ بسخرية شديدة من اشراك المشركين بالله ، مصورة لهم أنه سيأتى وقت وموقف ينادى فيه الله سبحانه عليكم سائلا عن هؤلاء الآلهة الذين تشركونهم مع الله فى الالوهية ، واذا اجابة هؤلاء الشركاء تتضمن اعترافين فيهما هوان شديد لهم وللمشركين الذين كانوا يعبدونهم ، أو ينقادون لهم فى صدهم اياهم عن سبيل الله ، معترفين بأنهم اغووا هؤلاء المشركين حقا لأنهم هم كانوا غاوين وضالين ، ولكن غوايتهم لا تبرر ضلال أتباعهم ، لأن الحق كان واضحا أمامهم ، ولئن كانوا قد استطاعوا المحاورة فى هذا السؤال ، فان سؤالا آخر يخرس ألسنتهم فلا يحيرون جوابا ، هو (ماذا أجبتم المرسلين ؟) ، ثم تتركز حملة القرآن على معنويات المشركين ، بحيث تسد عليهم كل المسالك ، وتجعلهم فى قلق واضطراب من كل شئ ، حتى من الأفكار والمشاعر التى تجول فى أعماق نفوسهم ، لأن هناك من يعلم هذه الأفكار والمشاعر ، والذى يعلم هذه الافكار والمشاعر عدو لهم ، بل هم أعداؤه (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) ، ومن تكرار القول ان يقال انه حتى لو فرضنا ان المشركين ينكرون وجود الله ، فان مثل هذه المعانى التى يؤكدها لهم القرآن ، تلقى فى نفوسهم شكا فى موقفهم ، واحتمال أن تكون صادقة ، ومجرد هذا الشك يضعف ثقتهم بأنفسهم وبموقفهم فى خصومتهم مع المسلمين ، وهذا هدف فى غاية الأهمية ، من حيث انه كسب للمسلمين فى صراعهم مع المشركين ، ثم يزداد تركيز القرآن على اضعاف معنويات المشركين بأن يشعرهم بعظم قدرة الله المؤيد للمسلمين أعدائهم ، فقدرة الله تستطيع أن تحول نهارهم الى ليل دائم سرمدى ، بحيث لا يرون نهارا قط ، وتستطيع أن تحول ليلهم الى نهار دائم ، بحيث لا يشعرون بليل أبدا ، وحينئذ يسخر منهم القرآن الكريم طالبا منهم أن يلتمسوا الها غير الله ، يأتيهم بليل يستريحون فيه ، ونهار يتعيشون فى ضوئه ، فيقول سبحانه ، ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ، قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ، ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين ، وربك يخلق

ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله تعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (١) ، وأسلوب الآيات يتضمن عدة مواضع للسخرية من المشركين ، منها قوله تعالى « (أين شركائى ؟) فمن البدهى انه ليس لله شركاء ، وكون الله سبحانه هو الذى يسالهم عن شركائه الذين لا وجود لهم سخرية واضحة بالمشركين ، ويبرز الزمخشرى هذه السخرية بقوله (شركائى ، مبنى عـلى زعمهم ، وفيه تهكم ..) (٢) ، وكذلك قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ؟) فالله سبحانه يعلم اجابتهم للمرسلين ، وهم أيضا يعلمون بماذا أجابوا المرسلين ؟ فكون الله هو الذى يسـألهم مع علمه ، وكون المسئولين أعرف الناس باجابة السؤال لأنهم هم الذين أجابوا ، ولكن الموقف المخجل انهم لن يستطيعوا الاجابة على سؤال الله سبحانه ، لأن اجابتهم ستملؤهم حسرة وندما وخزيا ، ولذلك لم يستطيعوا الاجابة ، وخرست ألسنتهم (فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون) وكذلك ما يفيده الاستفهامان فى قوله تعـالى بعـد ذكر نعمة الليل (أفلا تسمعون ؟) وبعـد ذكر نعـمـة النهار (أفلا تبصرون ؟) مراعى فيهما مناسبة السمع لليل ، والابصار للنهار .

ولما كانت العقيدة هى نقطة الصراع بين الاسلام والمشركين ، فقد كان تركيز القرآن الكريم على هذه النقطة واضحا متعدد الأسلوب ، بحيث يجعل الشعور بالجهل والسفاهة يتحدر على المشركين من كل وجه ، ويأخذ عليهم كل أقطار تفكيرهم ومشاعرهم ، ولا يبقى لهم بصيص قط من أمـل يتعلقون به بالنسبة لموقفهم فى الشرك ، ومن ذلك هذا التصوير للمشركين فى هذا العذاب المهين فى الآخـرة نتيجة لتكذيبهم بما أنزل الله وبرسـله ، وأول ما يدعون اليه بطبيعة الحال الايمان بالله ، ومحاربة الاشراك به ، ثم يوضح لهم القرآن هذه النقطة على انها هى جريمتهم ومصدر تعذيبهم هذا العذاب الشديد « ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم به تشركون ، من دون الله قالوا ضلوا عنـا بل لم نكن ندعـوا من قبـل شـيئا كذلك يضـل الله

---

(١) الآيات ٦٢ ـ ٧٣ سورة القصص .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى ٣/٣٣٥ .

الكافرين » (١) ، وتسوق الآيات حديث الشركاء لله فى سخرية شـــديدة بالمشركين ، فليس لله شركاء ، ولكنهم يسالون عمن اتخـذوا منهم فى الحيـاة شركاء لله ، وكان المشركين حين يسالون ينظرون حولهم باحثين عن هؤلاء الشركاء فلا يجدون لهم أثرا ، فيجيبون بانهم اختفوا عن اعينهم ، ولكن القرآن يختار بدل الاختفاء لفظا أعمق مدلولا ، وأكثر ايحاء ومناسبة للمقام وهو لفظ (ضلوا عنا) فالضلال هنا وان كان مقصودا به الاختفاء الا أنه ملابس لضلالهم فى العقيدة ومشير اليه ، ثم تشـتد السخرية بالمشركين ، حينما يعبر القرآن عن اعترافهم بالوهم الأجوف الذى كانوا يعيشون به فى الدنيا ، ويعتنقونه دينا لهم ، فى قولهم (بل لم نكن ندعو من قبل شيئا) ·

وفى موضع آخر نجد تسفيه المشركين يأتى على السنة من اتخذهم المشركون آلهة وشركاء لله ، مقرين بأنهم مجرد مخلوقات لله كغيرهم من خلقه ، وانهم هم أنفسهم لم يعبدوا غير الله فكيف يرضون بأن يعبدهم أحد ، أو يتخـذ منهم آلهة ؟ « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » (٢) ، ولفظ (هؤلاء) يوحى بأكثر من معنى ، ففيه اشارة الى تحقيرهم ، وفيه تجسيد وابراز لوضعهم من غضب الله عليهم ، كما ان فى المعنى الأخير من الآية الثانية توبيخ عميق للمشركين على كفرانهم نعم الله ، واتخاذهم اياها وسيلة لعداوته والكفر به (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسـوا الذكر وكانـوا قوما بورا) ، ويشـير الزمخشرى الى ما فى مضمون الآيتين من سخرية وتبكيت للمشركين فيقول « فان قلت : فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسئول عنه ، فما فائدة هـذا السؤال ؟ قلت فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم اياهم فيبهتوا » (٣) ·

ولكن موقفا آخر يسلب فيه من المشركين كل ثبات ، ويندفعون الى تخبط يجعل من كلامهم نفسه سخرية بهم ، واهانة لمكانهم فى الدنيا وفى الآخرة ، حيث يسالهم الله سبحانه عن شركائه الذين كانوا يعبدونهم ، ويبـــدو أنهم استبشعوا حينئذ مجرد تصورهم انهم كانوا يشركون بالله معبودا آخر ، ورأوا فى هذا التصور أمرا منكرا بحيث لا يقوى حتى خيالهم على مجرد تصور انهم كانوا فيه يوما من الأيام ، فاسرعوا ينفون هذه الصورة عن خيالهم منكرين صدورها منهم ناسين أو متناسين تحت وطأة استبشاع الصورة انهم أشركوا

---

(١) الآيات ٦٩ ــ ٧٤ سورة غافر (المؤمن) ·
(٢) الآيتان ١٧ ، ١٨ سورة الفرقان ·
(٣) تفسير الكشاف للآيتين ·

بالله في حياتهم قائلين (والله ربنا ما كنا مشركين) ويشير القرآن الى حيرتهم واضطرابهم حينئذ بأنهم في هذه الاجابة لا يكذبون على الله ، وانما يكذبون على أنفسهم ويضللونها (انظر كيف كذبوا على أنفسهم ؟) يقول سبحانه « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقــول للذين أشركوا اين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (١) ، وفي انكارهم الشرك وحلفهم على ذلك مع انه جريمتهم الواضحة التي يصارعون الاسلام بها ، ثم وصفهم بأنهم يكذبون على أنفسهم ، ثم ضلال آلهتهم واختفائهم عن أعينهم ، كل ذلك تسفيه وتقريع وتهكم .

ويبين القرآن للمشركين تفاهة تفكيرهم حين يظنون ان هذه المخلوقات التي يعبدونها تنفعهم في شيء ، أو تحميهم من ضر ، ويضرب لهم هذا المثل في قوله تعالى « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (٢) .

ويضرب القرآن للمشركين مثلا لا يرتاب فيه أصغر العقول تفكيرا ، وهو أن الشأن في الاله أن يخلق ، فاذا كانت آلهتهم التي يعبدون من دون الله آلهة حقا فليخلقوا . وتيسيرا لامتحان هؤلاء الآلهة ، يضع لهم القرآن أمام المشركين تحديا يسيرا في الخلق ، وهو أن يخلقوا أتفه المخلوقات وهو الذباب ، فانهم لا محالة يعجزون ، وحينئذ يسخر القرآن منهم بتحد أكثر يسرا ، وهو أن يستنقذوا من الذباب شيئا سلبهم اياه ، فانهم أيضــــا سيعجزون « يأيها الناس ضرب مثل فاســـتمعوا له ان الذين تدعون من الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره أن الله لقوى عزيز » (٣) ، وفي الآية الأخيرة تقريع شديد العمق ، في صورة عتاب للمشركين على أنهم لم يقدروا الله حق قدره ، حين أشركوا به غيره .

فالقرآن اذن يهدف الى هدم موقف المشركين في أصعب نقطة يدور حولهـا الصراع بين الاسلام والمشركين ، وهي نقطة العقيدة ، منيرا للمشركين كل وجهة ينظرون اليها ، مبصرا اياهم بالضلال الكبير ، والسفاهة الشديدة في اعتقادهم أن هناك الها غير الله يعبدونه ويشركونه مع الله ســبحانه في الألوهية ، والقرآن بذلك يهدم الاساس الذي يقوم عليه الشرك ، فتصبح حربهم مع الاســـلام غير ذات هدف ، ولا تقوم على اساس ، بخلاف المسلمين الذين تقوم حربهم على أساس

---

(١) الآيات ٢٢ ـ ٢٤ سورة الأنعام .
(٢) الآية ٤١ سورة العنكبوت .
(٣) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ سورة الحج .

الدفاع عن العقيدة المؤمنين بهـا ، ولهدف محدد ، هو رفع شأن هذه العقيدة ، وإخراس الألسنة التي تحاربها ، وشتان بين الحربين في ميزان الحرب النفسية .

ويعد أن يهدم القرآن أخطر نقطة في موقف المشركين حين يفقدهم كل إيمان بالمبدأ الذي يحاربون من أجله وهو العقيدة ، يواصـــل اغلاق باب الامل في وجوههم من كل طريق ، فيضرب لهم الأمثال بالأمم السابقة التي دمرها عذاب الله في الدنيا تدميرا ، مبينا لهم أن موقفهم من رسول الله ودينه كموقف هؤلاء ، وأنهم يستحقون من العذاب ما استحقه أســـلافهم السابقون ، وأن عليهم أن يتدبروا أمرهم ، قبل أن يحل بساحتهم ما حل بالسابقين ، وهذا المعنى يساهم بقدر كبير في أضعاف معنويات المشركين ، ويجعلهم في قلق وتوجس دائمين ، فهم يعرفون أن هلاك الامم التي يحدثهم عنها القرآن حقيقة ، وبالتالي يدور في نفوسهم على الأقل احتمال أن يكون محمد صادقا في أنه رســـول من عند الله ، وحينئذ فسينزل بهـم ما نزل بالسابقين ، وهـذا التوقع كفيل بأن يهز معنوياتهـم هزا شديدا ، ســـواء في الحرب وفي السلم ، ولذلك ورد أن الوليد بن المغيرة حين ذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم مفوضـا عن قومه في مساومة النبي على ترك دعوته ، تلا عليه النبي بعض القرآن الكريم ، وظل الوليد يسمع ، حتى اذا بلغ النبي في التلاوة الى قوله تعالى (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ......) أسرع الوليد قائلا : ناشدتك الله أن تـــكف ، ويروى أن عتبه بن ربيعة هو صاحب هذه القصة ، وأنه حينما بلغ النبي من التلاوة هذه الآية عن ثمود « أمسك عتبه على فيه وناشده بالرحم » (١) .

فالقرآن يضع أمام عيونهم أمثلة الأمم السابقة ، ليعتبروا بها ، وليضاعف من عوامل تحطيم معنوياتهـم في تمسكهم بالشرك ، واتخاذهم منـــه قاعدة لحرب الاسلام ، ومن ذلك ما ضربه القرآن لهم من مثل عاد وثمود ، وقد يكون عاد وثمود ألصق الناس بهؤلاء المشركين الذين يوجه اليهم القرآن انذاره ، وأكثرهم شبها لهم ، فعاد وثمود من العرب مثل هؤلاء ، وكانوا فوق هذه الأرض التي يسعى فوقها هؤلاء ، والمســافة بينهما ليست شاســعة ، وكذلك كانـوا أقرب شبها بهم في خلقهـم وعنادهم لله ، حيث جمعوا بين صفتين تبرزان في خلق مشركي العـرب ودينهم ، هما الاعتزاز بالقوة والتباهي بها ، كمـا كانت عاد ، والاســـتهانة بدعـوة الدين ، والتمادي في الضـــلال كما كانت ثمود ، ولذلك يبـــدو في سياق المثل أن القرآن يشير للمشركين الى هذا الشبه ، محذرا لهم من أن ينالوا ما نالته عاد وثمود « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون ، فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير

---

(١) انظر الكشاف للزمخشري ٤/١٥٠ .

الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » (١) . وكذلك فى قوله تعالى «كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية . وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » (٢) .

ويزيدهم القرآن تفصيلا فى عذاب عاد وثمود ،وفى طريقة كفرهم أيضا ليكون ذلك أدنى الى عقول المشركين . وأقرب الى أن يقارنوا بين موقفهم وموقف أولئك . ثم يحذروا ما حل بالسابقين الذين يشبهونهم فى الكفر . ولئن كان القرآن الكريم يبين لهم قدرة الله على انزال العقاب من حيث لا يحتسبون . وفى صورة خاطفة كصيحة ثمود . فانه يبرز لهم صورة من البيئة كانت مصدرا لتدمير قوم امتلأت نفوسهم قوة وعتوا وجبروتا . هم عاد الذين أهلكهم الله بشىء يراه المشركون . ولا يفتأون يشعرون به . وهو مجرد ريح . حولها الله الى أداة هلاك وتدمير . ويمكن أن نتصور المشركين وهم فى شغلهم الشاغل بعداوة النبى ودينه بحيث لا يغيب عن أذهانهم التفكير فى هذا الصراع لحظة . ومع ذلك يراودهم على أيسر الفروض احتمال صدق محمد . فان مجرد هذا الاحتمال يجعلهم أن لم يعيشوا فى رعب . فسيعيشون فى توجس وتوقع للمكروه . وحين يسمعون من القرآن صورة الريح التى دمرت عادا . فلا شك أن كل ريح تهب عليهم تعيد الى أذهانهم عذاب عاد . وتثير فى نفوسهم خوفا من أن تكون هذه الريح كريح عاد وهذا كله وهن فى موقف الشرك . واضعاف لمعنوياتهم . وهو فى الوقت نفسه كسب للاسلام من ناحيتين . أحداهما اضعاف الجبهة المعادية للاسلام فى حربها وصراعها ضده . والأخرى اظلام الأمل فى المستقبل أمام سواد المشركين . مما يدفعهم الى حالة الاذعان التى يقررها علماء النفس . فيعجل بانحيازهم الى الاسلام والمسلمين . فيقول لهم القرآن الكريم مفصلا كفر عاد وثمود . ومفصلا أيضا أسلوب العذاب الذى حل بهم « كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفى ضلال وسعر . أألقى عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر

(١) الآيات ١٣ ـ ١٨ سورة فصلت .
(٢) الآيات ٤ ـ ١٠ سورة الحاقة .

فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » (١) .

ويرسم القرآن الكريم صورة بالغة السخرية والتهكم بالمشركين ، مصورة أعراضهم عن الحق وانطوائهم على ضلالهم وباطلهم ، لا يحاولون أن يبصروا ما هم فيه ، ولا أن ينظروا الى النــور الذى يدعوهم اليــه ، فتصورهم كأنهم غللوا فى أعناقهم بأطواق من الحديد ، تجعلهم لا يستطيعون أن يلتفتوا يمنة ولا يسرة ، ولا يستطيعون أن يومئوا الى أسفل ، وانما تظل أذقانهم ووجوههم مرفوعة الى أعلى ، لا يتحرك منها الا عيونهم التى ترنوا الى أسفل ، والطريف البالغ السخرية بالاضافة الى هذه الصورة تشبيههم بالابل حين تروى من الماء فترفع أعناقهــا ورءوسها الى أعلى ، ولذلك اختار القرآن لهذه الصــورة لفظ (مقمحون) الذى يستعمل عادة فى البعير « يقال : قمح البعير فهو قامح اذا روى فرفع رأســـه . ومنه شهرا قماح، لأن الابل ترفع رءوسها عن الماء لبرده فيهما ، وهما الكانونان»(٢) وتكتمل الصورة بأن تجعلهم بين سدين من أمام ومن خلف ، فهم لا يستطيعون حركة بسبب الأغلال ، ولا يبصرون شيئا بسبب السدود « انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهــم ســدا ومن خلفهــم سدا فأغشيناهم فهــم لا يبصرون » (٣) . ويروى أنهــا نزلت فى أبى جهــل وآخرين من بنى مخزوم .

وفى مقام اظـلام المستقبل الدنيوى أمام المشركين حتى يفقــدوا كل أمل فى الانتصار على الاسلام ، أو توقع نجاح فى الدنيا ، يأخذ القرآن على آمالهم كل طريق ، فبعض المشركين قد يبدو شأنهم فى الحياة عظيما ، وقد أتيحت لهم نعم كثيرة لا يخشى معها عادة ظلام المستقبل ، أو خوف العثرات ، فمثل هؤلاء أيضا يوقع القرآن فى قلوبهم رعبا غير يسير ، حيث يجعلهم يشعرون أن هذه النعم نفسها قد تكون سبيلا الى هلاكهم ، حينما يؤكد لهم القرآن أن الله سبحانه قد يعطيهم ما يشاءون ، وأحيانا فوق ما يطلبون ، لا اكراما لهم ولا تأمينا لمستقبلهم ، ولا رضى عنهم ، وانما اســـتدراجا لهم ، ومكرا بهم ، فهذه النعم نفسها هى الشباك المنصوبة لهم ، ثم يعلمون يوما ما أنهم أصبحوا صيدا سهلا داخل هذه الشباك ، وأن وسائل النعمة والأمن فى نظرهم ، هى الحفرة التى ترديوا فيها من حيث لا يشعرون « والذين كذبــوا بآياتنــا سنستدرجهــم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم أن كيدى متين ، أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة أن هو الا نذير مبين ، أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء

---

(١) الآيات ١٨ ــ ٣١ سورة القمر .
(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى ٤/٤ .
(٣) الآيتان ٨ ، ٩ سورة يس .

وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » (١) •
ويقول الزمخشري في تفسير الاستدراج « وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي ، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطرا وجددوا معصية ، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ، ظانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتقريب ، وانما هي خذلان منه وتبعيد ، فهو استدراج الله تعالى » ، ومهما يكن من فهم للاستدراج فان الهدف بالنسبة للمشركين، أن يشعروا بالقلق وعدم الاطمئنان، حتى وهم في أوج الاحساس بالنعمة ومظاهر الأمن الدنيوى ، بل كلما اقترن هذا الشعور بالخوف من استدراج الله لهم بهذه النعم •

وحيث كانت الآيات السابقة تشير الى تخويف المشركين وانذارهم بعذاب الدنيا ، وفشلهم فيها ، فان الآيات التي تنذرهم بعذاب الآخرة أشد عليهم وأقسى ، وبذلك تكتمل حلقات اليأس حول أعناقهم وأمام أعينهم ، فليس ثمة بريق ولو يسير من نور الأمل أمامهم • المستقبل في الدنيا مخيف أو مشكوك في استقامته على أهون الفروض ، والآخرة أكثر خوفا وأملها أشد التواء ، والأمل أو اليأس من الآخرة لم يكن حينذاك أمرا يسيرا بالنسبة للمشركين كما يفهم من ظاهر كفرهم ، فقد يوحى ظاهر النظرة الى كفرهم بأن مثلهم لا تعنيه الآخرة ، ولا يعتبر التخويف بها فلا لعزائمهم ، أو وهنا في معنوياتهم ، ولكننا حين نتأمل وضعهم في صراعهم العنيف مع الاسلام ، لا نستطيع أن نطمئن الى ما توحيه هذه النظرة ، فان حربهم مع الاسلام محورها الدين والعقيدة ، وحيث كان الطرفان من المسلمين والمشركين مشتركين في حرب عاتية محورها الدين ، فلا شك أن الدين وما يتعلق به سيكون هو الشغل الشاغل للطرفين ، والشعور المسيطر على نفوس الأفراد في كلا الحزبين ، وحيث كان أحد الطرفين وهم المسلمون يحاربون عن دين من صلبه الايمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، فلا بد للطرف الآخر وهم المشركون أن يكون لهم دين مع صرف النظر عن صحته أو بطلانه ، ولو تمثل هذا الدين في عادات وتقاليد ، والا لكان من غير المعقول أن يحاربوا أحدا من أجل الدين ، وحتى مع التسليم الجدلى بأنه لا يلزم أن يكون لهم دين ، فلا شك على الأقل في أن يكون حديث دين أعدائهم موضع شغلهم وتفكيرهم وتساؤلهم ، وفي كلا الحالين ، سواء كان لهم دين ، أو كانوا مشغولين بدين أعدائهم وهو الاسلام ، سيتردد في نفوسهم وعلى ألسنتهم حديث الآخرة ، حينما يثيره الاسلام ، لأنهم ان كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب دين ، ثم يسمعون الاسلام يتحدث عن الآخرة ، سيتساءلون عن موقف دينهم من هذه الآخرة التي يتحدث عنها الاسلام ، وان كانت الأخرى فسيتردد في نفوسهم التساؤل عن موقفهم لو كان الاسلام صادقا في حديثه عن الآخرة ، وما يلقونه

---

(١) الآيات ١٨٢ ــ ١٨٥ سورة الأعراف •
(٢) تفسير الكشاف للآيات السابقة •

هم فيها من عذاب ، ومجرد هذا التساؤل كاف فى أداء النتيجة المستهدفة ، وهى أضعاف معنوياتهم والمساهمة بهذا الجانب فى اغلاق أبواب الأمل فى وجوههم من كل جانب .

ويمكن القول بان ما كان يبديه المشركون من انكار للآخرة وللبعث ، ليس دليلا على عدم اعتقادهم فى الآخرة ، بل على العكس ، يعتبر دليلا على احساسهم بالآخرة ، وفزعهم من توعد القرآن لهم بالعذاب فيها ، لذلك آثروا محاولة التكذيب بالآخرة ، ليحاولوا أن يغلقوا دون نفوسهم بابا يأتيها منه شعور بالخوف والفزع ، وخاصة من هذه الصور الرهيبة التي يصور القرآن بها عذابهم فى هذه الآخرة .

والقرآن الكريم يصور عذاب المشركين فى الآخرة بصور مختلفة ، وألوان متعددة ، وأساليب متنوعة ، حتى يشعر المشركون بأنها حياة كاملة حقيقة بأن تشغل نفوسهم ، وتثير مشاعرهم ، والا يقتصر تصورهم على صورة واحدة قد تذهب حدة تأثيرها الأيام ، وانما هى صور كثيرة ، ان خف تأثير احداها فى النفس ، أذكته صورة أخرى ، وهكذا . فحتى السخرية جعلها القرآن نوعا من الأنواع التى يعذب بها المشركون عذابا نفسيا فى الآخرة ، ومن ذلك هذه الآيات التى تستعرض صورة تكاد تكون كاملة لأسلوب سخرية المشركين من نقل الواقع والتفاصيل ، فتبين الآيات الطريقة التى يسخر بها المشركون من المسلمين ، وخاصة فقراء المسلمين وضعافهم . وهى أن المشركين يتخذون من شأن هؤلاء المسلمين الفقراء الضعاف تسلية لمجالسهم ، وترفيها عن نفوسهم ، فيتناولون الحديث عنهم بالضحك والاستهزاء والتندر ، ويترقبون مرور أحدهم لينظر بعضهم الى بعض مطبقين عليه ما كانوا يتندرون به من شأنه ، وهكذا يكون مرور أحد فقراء المسلمين على مجلس المشركين مكملا لمرحهم ، فاتحا شهيتهم للسرور بالتغامز عليه ، والضحك منه ، وبذلك يقضون مجلسا ممتعا ، يملأ نفوسهم بهجة وسرورا ، حتى ان هذا السرور الذى غمر نفوسهم لا ينتهى بارفضاض المجلس ، أو هم من تمتعهم به لا يتركونه ينتهى ، وانما ينقلونه معهم الى بيوتهم ليكملوا المتعة به عند أهليهم ، مستعيدين حينئذ أحاديث سخرياتهم بهؤلاء المسلمين ، ومن وراء هذه السخريات يريدون أن يقولوا لعامة الناس وسوادهم من المشركين ، ان هؤلاء المسلمين ضالون حيث يدعون ما يدعونه من دينهم . وفضلا عن أن مجرد نقل القرآن الكريم هذه السخرية عن المشركين يعتبر فى ذاته استهانة بهم وبسخريتهم واستخفافا بأثرها ، فان القرآن يسخر من هؤلاء المشركين من ناحيتين ، من سلوكهم فى الدنيا نحو المسلمين ، ومن وضعهم فى الآخرة وتنصب سخرية القرآن من سلوكهم فى الدنيا على وصفهم المسلمين بالضلال ، فالمشركون لم يكتفوا بتجاهل ضلالهم هم ، وتجاهل الدعوة التى تريد أن تنقذهم من الضلال ، بل جعلوا من أنفسهم

حكما في الهداية والضلال ، ومن هذا المنصب الذى وضعوا أنفسهم فيه حكموا على المسلمين بانهم ضالون (واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون) وهو وضع يثير العجب ويدعو الى التهكم بهم ، ولذلك يرد عليهم القرآن ساخرا متهكما بقوله (وما أرسلوا عليهم حافظين) ومن تفسير الزمخشرى لهذا المعنى قوله (وهذا تهكم بهم) ، والناحية الثانية ان القرآن يحفظ حق الرد على سخرية المشركين بالمسلمين ، ويدخره للمسلمين فى الآخرة ، بحيث تكون المقارنة بين وضع المشركين والمسلمين فى الآخرة مثيرة للسخرية بالمشركين ، ويستعمل المسلمون حينئذ هذا الحق ، ردا وجزاء على سخرية المشركين بهم فى الدنيا (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) ، وهذه السخرية نوع من العذاب النفسى والبدنى الذى ينتظر المشركين فى الآخرة ، والذى يبينه لهم القرآن فى حياتهم ليعلموا كم مصدر يأتيهم منه ظلام المستقبل سواء فى الدنيا أو فى الآخرة « ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون ، واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الارائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » (١) ، والسؤال الذى تتضمنه الآية الأخيرة يحمل سخرية شديدة بالمشركين وهم يعذبون ، ولعل هذا السؤال مما يديره المسلمون حينئذ فى سخريتهم بالمشركين ، أو مما يوجهونه الى المشركين أنفسهم ، قائلين لهم : هل لقيتم جزاء سخريتكم بنا فى الدنيا وجزاء شرككم بالله ؟ ومن الواضح أن السؤال لا تراد به حقيقته وهى الاستفهام عن شىء مجهول ، فعذاب المشركين حينذاك ، وكونه جزاء لهم ، كل ذلك حقيقة واضحة للمشركين وللمسلمين معا ، وانما هى السخرية بهم .

والقرآن الكريم يصور كثيرا من مواقف التعذيب النفسى للمشركين فى الآخرة ، ومن ذلك هذه الأسئلة التى توجه اليهم من باب السخرية بهم ، وتذكيرهم بما كانوا يعتقدونه وما كانوا يفعلونه فى الحياة الدنيا ، ولا شك أن هذه الأسئلة ، وهذه السخرية انما يراد بها لفت أنظارهم فى حياتهم وتبصيرهم بشرر ما هم فيه قبل أن يفوتهم أوان التبصر والرجوع الى الحق ، وسواء أنظروا وتبصروا أم لم يكن ذلك ، فلا شك أن توجيه هذه الصور ، وهذه الأسئلة ، وهذه السخرية الى أذهانهم ، ستجعلهم يفكرون بأى درجة من درجات التفكير ، ويتشككون بأى درجة أيضا من درجات الشك فى صحة موقفهم فى الشرك ، وهذه الدرجة من الشك وهن فى معنوياتهم وثقتهم بموقفهم ضد الاسلام ، وهذه النتيجة كسب للاسلام من وجهين ، أحدهما تقريب هؤلاء المشركين من الاسلام ، فان مجرد تشكيكهم فى عقيدتهم ان كانت لهم عقيدة شىء كبير من وجهة الاسلام ، لأن العقيدة لا تحتمل تعدد الدرجات ، ولا المراحل ، بل الشأن فيها

---

(١) الآيات ٢٩ ـ ٣٦ سورة المطففين .

ان تكون أولا تكون ، بمعنى ان الاعتقاد في أمر هو الايمان به ، فــان انتفى الايمان بهذا الامر انتفي الاعتقاد ، وأوضح ما يكون ذلك في العقيدة الدينيه ، فالايمان بالله مثلا ، لا يحتمل أن يكون درجات يتفاوت فيها ايمان المؤمنين ، وكذلك الكفر بالله لا يحتمل أن يكون درجات يتفاوت فيها كفر الكافرين ، ولا أعتقد أن خلاف علماء الكلام حول زيادة الايمان ونقصانه أو عدم قبوله للزيادة والنقصان يرتبط بهذه النقطة ، أعني من وجهـــة نظر القائلين بزيادة الايمان ونقصانه ، فلا أظن أنهم يعنون بهذا مبدأ الاعتقاد والايمان ، وانما يعنون اعتبارات أخرى تترتب على الايمان ، وليس الايمان نفسه ، وكذلك ما يبدو مشيرا الى درجات في الكفر ، فهو لاعتبارات أخرى غير عدم الاعتقاد في الدين ، ويغلب على هذه الاعتبارات تعلقها بالسلوك ، وقد سبق القول بان التفاوت بين المنافقين وغيرهم من الكافرين يتعلق بالعقيدة ، من حيث فقدان المنافقين لمبدأ الاعتقاد أو الاستعداد للاعتقاد بخلاف الكافرين الآخرين حيث يحملون مبدأ الاعتقاد ، ولكنهم حولوا عقيدتهم الى شيء باطل . وكل ما يمكن أن نتصوره من درجات أو مراحل حول الاعتقاد ، هو أن الانسان أما أن يكون معتقدا أو منكرا ، وبينهما مرحلة وسط ، هي الشـــك ، ولكن الشـــك لا يعتبر من درجات الايمان والعقيدة ، بل يعتبر انتفاء للاعتقاد ، ولذلك لم يكن هناك خلاف في أن الشك في الله سبحانه كفر ، وكثير من آيات القرآن الكريم يصف النفاق والكفر بأنه شك .

واذن فهذه الحملة التي يركزها القرآن على عقول المشركين ونفوسهم بشتى الصور والأساليب يكفي في أدائها للهدف منها أن تزعزع عقيدة المشركين ان كانت لهم عقيدة ، لتنقلهم ولو الى مرحلة الشك ، فحين يصلون الى التشكك بين عقيدتهم وعقيدة الاسلام ، فسينظرون ، باحدى عينيهم الى الشرك ، وبالاخرى الى الاسلام ثم يصبحون في شبه موازنة بين الشرك والاسلام ، وحينئذ فلا بد أن ينتصر الاسلام في هذه المقارنة ، بل ان هذه المقارنة لن تدوم طويلا ، لأن الفرق بين الاسلام والشرك من الكبر بحيث يفسد المقارنة نفسها ، ويبدو قصر مدة المقارنة في حالة كثير ممن انتقلوا من الشرك الى الاسلام ، كحالة عمر بن الخطاب الذى بلغ من اعتقاده وثقته من موقفه في الشرك أنه ذهب ليقتل النبى صلى الله عليه وسلم أو يسيء اليه باقصى ما يمكن أن يساء به اليه ، واذا هو يسمع أثناء ذلك آيات من القرآن الكريم ، ويمكن أن نتصور المراحل التي مرت بعمر حينئذ ، وهي الشك أولا في عقيدته وموقفه المشرك ، ثم المقارنة بين الشرك والإسلام ، ولكن هذه المقارنة لم تطل ، وانما هي لحظـات تتمثل في تفكير ثم وجـوم خيم على وجهه ، وسيطرا على شخصه ، ثم صحوة عنيفة ثائرة ، تتمثل في شبه فزع ينتابه حين يلمس الفارق الكبير بين الشرك والاسلام ، بل حين يلمس أنه لا وجه للمقارنة بينهما ، واذا هو مندفع الى النبي يعلن اسلامه ، وعمر كان واحدا من المشركين ، كل امتيازه عنهم فيما نعتيه أنه ذو عقل راجح يجعل مدة المقارنة في نفسه أقصر منها في نفس غيره ، وذو عزم قوي يجعله أسرع من غيره في

اعلان ما آمن به واقدر على السعي اليه ، ولكن غيره أيضا مهما يبلغ من ضيق الأفق ، فلن تكون مدة مقارنتـــه مسرفة في الطول ، لأن الفـــرق بين الاســــلام والشرك لا لبس فيه ولا خفاء ، ومهما يبلغ من ضعف العزيمة فان جذوة العقيدة الاسلامية وقوتها وسلطانهـــا على النفوس ستحول هذا الضعف الى قوة ، وهذا الوهن الى شجاعة ان لم تكن بطولة .

واذن فالنقطة المهمة هي زعزعة عقيدة الشرك في نفس المشرك ، وما بعدها من مراحل حتى يدخل الاسلام ، أمره غير ذي شأن كبير ، ومن هنا قد ندرك السر الذي يبدو غريبا في أن الاسلام دون سائر الأديان قد استطاع في فترة وجيزة ان يكون امة كبيرة ضخمة من الاتباع المؤمنين به ، وهذا السر يكمن في القرآن الكريم ، ويمكن القول بأن أبرز موضع في هذا السر ، هو أن القرآن غزا العقول والنفوس بالمعنى الذي نتكلم فيه ، وهو زعزعة عقيدة أعدائه أولا ، ثم دعوتهم الى المقارنة بينه وبين الكفر ، وخاصة الشرك ، وخطورة القرآن أنه يلاحق أعداءه ملاحقة أقوى من أي ملاحقة أخرى ، بل أقوى من أي محـــاولة للكافر ضـــد الاسلام ، أو للتمسك بعقيدته ، فقد يبدو في ظاهر الأمر أن الكافر يسمع آيات القرآن ، فيكذبها ، أو يسخر منها ، أو يؤذي من تلاها ، أو غير ذلك ، ثم ينصرف المشرك الى شأنه ، والى التشبث بعقيدته وبعدائه للاســـلام وللقرآن ، ولكن الحقيقة في أغلب الأحيان غير ذلك ، فان الكافر حين ينصرف الى شأنه لا ينصرف وحده ، وانما ينصرف ومعه هذه الآيات التي حاول أن يكذبها أو يسخر منها ، ومهما يحاول فلن يستطيع أن يبعد مضمونها عن نفسه ، ولا أن يصرف نفسه عن التفكير فيها ، فهي معه في دخيلة نفسه ، وفي أعماق تفكيره ، تصحبه أنى ذهب ، وتلح عليه مهما حاول تناسيها ، ويكفي أن تصحبه فكرة الله الواحد الذي خلق السموات والأرض ، وخلقه هو ، وبيده ضره ونفعه ، وحياته وموته ، ثم حسابه في الآخرة ويكفي أيضا أن تدفعه هذه الفكرة الى المقارنة بين الله سبحانه ، وبين هذه الأصنام التي يعبدها ، وأول ما نتوقعه من سيطرة الفكرة عليه تشكيكه في عقديته التي يعبد بها غير الله ، ولو مجرد شك ، فان مجرد الشك يجعله غير معتقد ، وحيث انتفت عنه عقيدة الشرك ، فسيندفع تلقائيا الى مرحلة المقارنة ، فيكون بذلك في أول طريقه الى الاسلام .

ولذلك نجد الآيات المتعلقة بالمشركين ، تركز على العقيدة كما سبق ، فتبرز الوهية الله ســـبحانه ووحدانيته في ملكوت السموات والأرض ، وتبرز تفاهة شركاء الله في زعم المشركين ، وسفاهة المشركين في عبادتهم غير الله ، ساخرة في أغلب الأحيان من المشركين ، وممن اتخذوهم شركاء لله ، وحيث كانت مهمة هذا الطراز من الآيات أن يزعزع عقيدة المشركين لينقلهم الى الشك الذي يدفعهم الى المقارنة ، فيمكن القول بأن آيات الانذار والتخويف بعقاب الدنيا والآخرة ، مهمتها تقصير مدة المقارنة ، ففي المقارنة التي تدور في نفس

المشرك بين عقيدته والاسلام ، سترجح كفة الاسلام من غير شك ، وهنا قد تتدخل عوامل شخصية أو اجتماعية تطيل من مدة المقارنة ، أو تؤخر اعلان المشرك اسلامه حين يقتنع بصدق الاسلام ، أو تدفعه الى المكابرة محاولا التمسك بشركه رغم اقتناعه بصدق الاسلام ، كهذه الظروف التى حالت بين أبى طالب عم الرسول وبين اعلان اسلامه رغم اعترافه بأن الاسلام حق ، ففى مثل هذه الظروف يأتى أثر آيات النذر والتخويف بعذاب الدنيا والآخرة ، ويكون أثرها حينئذ شديد الوقع فى النفس ، حيث ان المفروض أن النفس أخذت تقتنع بصدق الاسلام ، وتتجه الى التفكير فى وحدانية الله ، والنفس التى تعانى أى مرحلة من مراحل هذا الشعور تكون مهيأة للتأثر بانذارها وتهديدها ، حيث انها بدأت تعرف أن مصدر هذا الانذار حق ، وهو الله سبحانه ، وأنه قادر على تنفيذ ما أنذر به ، على أن هذا الخوف تساعده عوامل أخرى كما سبق ، من شأنها أن تغلق باب الأمل فى وجه المشرك ، سواء فى الدنيا أو فى الآخرة ، مما يقصر مدة مقارنته ، ويسرع به الى حالة الاذعان التى يقررها علماء النفس ، والتى يقترن بها بالنسبة للمشرك لجوؤه الى الله .

ولئن كان ما سبق من آيات النذر للمشركين يغلب عليها التلويح بعذاب الدنيا واغلاق أملها فى وجوههم ، فان آيات النذر التى تركز على جزاء الشرك فى الآخرة أشد وقعا ، وأكثر تخويفا ، ومن أنواع هذا الجزاء العذاب النفسى الذى تفرع عنه هذا الحديث ، ومنه الأسئلة الساخرة التى توجه الى المشركين يومئذ ، وكذلك التساؤل الذى يديرونه بينهم حينذاك ، كالسؤال الذى يوجه اليهم حينما يحشرون مع آلهتهم الذين عبدوهم من دون الله ، فيقال لهم : (ما لكم لا تناصرون ؟ بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ... » (١) ومثل) أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا » (٢) ، ومثل (هل ثوب الكفار ما كانوا يعملون ؟) ومثل (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟) . ومن العذاب النفسى الندم الشديد الذى يرزحون تحته فى الآخرة ، والذى يصوره كثير من الآيات ، كقوله تعالى (ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ..)

وهذه آيات تصور ما يشبه السيل من الندم القوى المتحدر على نفوس المشركين فى الآخرة من كل وجه ، والذى يجعلهم معذبين بأمنيات فات أوانها . ثم تحولت الى ندم عنيف على أنهم لم يسلكوا شيئا منها ، فيأسون على تفريطهم فى ذات الله ، وعدم الايمان به ، ويأسون على أن فاتتهم فرصة الايمان والهداية ، ويتمنون لو أتيح لهم أن يعودوا الى الدنيا ولو مرة يتلافون فيها

---

(١) الآيات ٢٥ وما بعدها سورة الصافات .
(٢) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ سورة غافر .

اخطائهم ، وهكذا يظلون في هذا العذاب النفسي ، بين الالم والحسرة ، والندم والاسى ، ولكن الآيات توضح الحكمة من تصوير ندمهم وحسرتهم في الآخرة ، وذكرها لهم اليوم في القرآن ، هذه الحكمة هي أن يتدبروا في الفرصة اليوم وينتهزوها ، قبل أن يفوت الأوان ، وقبل أن يتمنوها فلا يجدوها ، ولذلك نلاحظ أن هذا المعنى تكرر في آيتين متواليتين بلفظ واحد (من قبل أن يأتيكم العذاب) ، ثم تختم الآيات بالمعنى نفسه ، وهو لفت نظر المشرك الى ضلاله الشديد ، قبل أن يندم بعد فوات الأوان ، ولذلك كان الرد عليه حينما تمنى العودة الى الدنيا (قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين). فالآيات تصور الندم والحسرة والعذاب النفسي الذي يصطليه المشرك في الآخرة ، وتبين مع ذلك الحكمة في تذكيره بذلك اليوم في القرآن ، والآيات في قوله تعالى « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ، وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون ، أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، او تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ، بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ، ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » (١). ومن الواضح أن الآيات قد بدأت قبل الانذار ، وقبل تصوير العذاب بفتح باب الله على مصراعيه لكل راغب في الرجوع أو اللجوء اليه ، وأن الله سبحانه قد تعهد لهم بأن يغفر لهم حينئذ كل ما أسلفوه (ان الله يغفر الذنوب جميعا) فمهما يكن من اسرافهم السابق في الذنوب والكفر ، فان رحمة الله ستمحو عنهم كل ذلك ، فلا يضيرهم منه شيء ، وتسير الآيات في تسلسل بالغ الحكمة في الدعوة الى الله ، فالرحمة والاغراء أولا ، بأقصى ما ينتظر من رحمة وتسامح ، فمن أعرض بعد ذلك فهو غير كريم النفس حيث يرفض دعوة الود والخير والتسامح ، وهو اذن معاند متحد لربه ، ومع ذلك فان القرآن لا يقسو عليه فجأة ، وانما يدعوه في شيء من عتاب ، وشيء من تبصير وتذكير وشيء من انذار ، مركزا على تنبيههم الى أنهم اليوم في فرصة لن يدركوها مرة أخرى حين يحل بهم الموت أو يدركهم العذاب ، وزيادة في توصيل هذا المعنى الى اذهانهم واقراره فيها ، فقد كرره مرتين بلفظ واحد (من قبل أن يأتيكم العذاب) ، فان ظلوا في أعراضهم أيضا فليروا العذاب والندم بمقولهم اليوم ، قبل أن يصطلوه حقيقة غدا ، وفي هذا تبصير لهم أيضا ، ونلاحظ فيما يتعلق

---

(١) الآيات ٥٣ — ٦٠ سورة الزمر .

بالموضوع أن الآيات توضح سبب الندم والحسرة الشديدة التى تعتريهم فى فى الآخرة ، ويشـمل هذا جانبين ، العقيدة من حيث كفرهم بالله مشـيرة الى ذلك بتعبير (فرطت فى جنب الله) والسـلوك من حيث عداوتهم للذين يدعونهم الى الله وحربهم اياهم ، وقد أجملت الآيات كل عداوتهم وحربهم للدعاة الى الله فى السـخرية (وان كنت لمن الساخرين) ثم فصلت الآيات ذلك فى قوله تعالى (قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) .

والآيات التى تصور عذاب المشركين فى الآخرة كثيرة ، واغلبها يقترن فيه العذاب البدنى بالعذاب النفسى ، وبعضها يبدو فيه القصد الى ابراز العذاب النفسى ، وحتى اذا ذكر معه العذاب البدنى ، فيكون واضحا أنه اثارة لآلامهم النفسية ، وندمهم الشديد ، لأن المعنى النفسى هو هدف الدعوة الاسلامية التى تصب كل همها فى جذبهم الى الدين ، فالعذاب ليس مقصودا لذاته ، كما يقول سبحانه « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ؟ » (١) ، وانما القصد به الجزاء بين الصالح وغير الصالح ، حتى يجد كل جزاء ما قدم ، وذكر العذاب فى القرآن يراد به جذب الكافرين الى الله وتبصيرهم بمصير الكفر ، حتى لايؤخذوا عن جهل أو غرة ، ولذلك كان ابراز الندم كعذاب نفسى مهما فى وسائل دعوتهم الى الدين ، ومن ذلك تصوير القرآن لندمهم الشديد ، وخجلهم العميق من اشراكهم بالله ، هذا الخجل الذى تتنكس منه رءوسهم حين يواجهون الجزاء عند الله ، فيضرعون اليه بكل ما فى نفوسهم من ندم وخجل أن يعيدهم الى الحياة مرة أخرى ليتلافوا ما أجرموه ، ولكنهم لا يجدون حينئذ الا السخرية منهم حين يقال لهم فذوقوا بما نسيتم ··) يقول سبحانه « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون ، ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون ، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين، فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » (٢) .

وفى موضع آخر يبين لهم القرآن صورة عجيبة من العذاب الذى ينتظر المشركين فى الآخرة ، وتركيز التبيين ليس على العذاب نفسه ، وانما على أثره فى النفس ، فهم لشدة العذاب يتمنون أحد أمرين ، اما أن يقضى عليهم العذاب فيهلكوا ويستريحوا ، واما أن يخفف الله عنهم وطأة هذا العذاب الشنيع ، ولكن شيئا من الأمنيتين لا يتحقق ، ثم يسخر منهم القرآن سخرية شديدة ، مصورا صراخهم وصياحهم الشديد ضارعين الى الله أن يعيدهم الى الحياة ليؤمنوا ويعملوا صالحا ، وموضع السخرية فى ذلك التعبير بلفظ (يصطرخون فيها) مع ضراعتهم الى الله أن يعيدهم ، فالضراعة من شأنها التزام الخشوع

---

(١) من الآية ١٤٧ سورة النساء .
(٢) الآيات ١٢ ـ ١٤ سورة السجدة .

والاستكانة ، ولكن حالتهم حينئذ حالة غير عادية تلجئهم الى ما لا يسلكه الناس عادة ، ولا ينظرون ان كانت هذه الحالة ملائمة لما ينبغي ، أم كانت تثير السخرية والتهكم ، يواصل القرآن سخريته وتقريعه لهم ، مذكرا اياهم بأنه كانت لديهم فرصة كافية للتعقل والتذكر ، ولكنهم تمادوا في الكفر والعناد ، فيقال لهم حينئذ « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ » ثم يصب عليهم اقصى السخرية حين يقال لهم (فذوقوا) ، يقول سبحانه « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (١) ، وقد اشار المفسرون الى ما في قوله تعالى (أو لم نعمركم ؟ من توبيخ (٢)

واحيانا يصرح القرآن بالهدف من ذكر هذا العذاب في القرآن ، وهو انذار المشركين ، وتيسير سبيل التبصر والتفكير امامهم ، حتى يتداركوا أنفسهم قبل فوات الاوان ، فهذه صورة عجيبة ، من عذاب المشركين ، وتصويرها بالغ السخرية بهم ، وابراز السخرية في التصوير أوضح من ابراز العذاب نفسه ، فالآيات تصرح بأنهم في النار حينئذ ، ومع ذلك فالحديث غير مركز على أثر النار ، وانما على تصويرهم في صورة مضحكة ، وهي أنهم مقرونون بعضهم الى بعض في قيود واصفاد ، وكلهم يلبس قميصا ، ولكنه ليس كقميص الناس ، وانما هو قميص من شيء لا يستعمل عادة الا لمداواة الأبل الجربى ، فالبعير الأجرب يدهن موضع الجرب منه بالقطران ، وكذلك المشركون ، ولكن القطران لا يكون على اجسادهم دهانا فقط ، وانما يكسوهم حتى يصبح كالقميص ، وحيث برزت هذه الصورة المضحكة من المشركين في عذابهم وهوانهم ، فيأتي حديث العذاب بالنار حينئذ لا نرى أثرها في أجسامهم ، وانما نرى أثرها في اكرم موضع من الانسان وهو الوجه ، والنار بالطبع لا تقتصر على وجوههم ، ولكن المراد في سياق الآيات كله ليس بيان العذاب البدني ، وانما السخرية بهم والاهانة لهم « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب » (٣) .

واحيانا نجد القرآن الكريم يصور عذاب الكافرين في الآخرة ، ويصفه بأنه عذاب شديد ومع ذلك لا يبدو في هذا التصوير عذاب جهنم ، ولا وصفا مباشرا لشدة العذاب البدني ، كقوله تعالى « ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا

---

(١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ سورة فاطر .
(٢) انظر تفسير الكشاف للآية .
(٣) الآيات ٤٩ – ٥١ سورة ابراهيم .

الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (١) ، فهذا العذاب من ضرب الملائكة ، ليس عذاب النار ، وانما هو مجرد ضرب ، وليس الضرب موصوفا بالشدة أو الايلام ، ومع ذلك وصفه القرآن بانه (عذاب الحريق) ويقول المفسرون ان معناه ذوقوا مقدمة عذاب الحريق ، أى أن ضرب الملائكة تمهيد لعذابهم بالنار ، ولكن الأوضح فى الآية ارادة التشبيه ، أى ذوقوا عذابا يشبه عذاب النار ، فكيف يقرن الضرب بعذاب النار ، مع أن الاسلوب لا يفيد شدة الضرب ؟ ، والواقع أن التصوير فى جملته لا يهدف الى بيان شدة العذاب البدنى ، وانما يهدف الى الاهانة لهم والسخرية منهم ، ولذلك اختير مكانان منهما للضرب فيهما ، وهما الوجه الذى يعتبر الضرب عليه من أقسى وسائل الاهانة والاذلال ، والدبر الذى لا يلجأ الى الضرب عليه الا فى الحالات النادرة التى يكون المضروب فيها فى أقصى حالات الهوان والاحتقار ، فهذه المعانى من تحقير الشرك واهانته هى الهدف البارز فى الآية. ولذلك أردف هذا النوع من العذاب بالسخرية فى قوله تعالى (وذوقوا) ويشير الزمخشرى الى ما يفيده هذا اللفظ من سخرية بقوله (وذوقوا عذاب الحريق أى مقدمة عذاب النار . أو وذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به) (٢) .

والتركيز على عوامل الاهانة والسخرية بالنسبة للمشركين ، من آثاره تحطيم معنوياتهم ، لتقصير فترة التردد والمقارنة فى نفوسهم بين الشرك والاسلام ، وللمساهمة فى أحكام اليأس من المستقبل أمامهم ، وفى تحقيق كسب للاسلام وللمسلمين ، من حيث تقريبهم الى الاسلام ، واضعاف معنوياتهم فى صراعهم وحربهم مع المسلمين ، ولذلك لا تكاد تخلو آية من آيات عذابهم من المساس بمعنوياتهم ، ولو فى تصوير العذاب والتعبير عنه ، كهذه الآية الكريمة التى تصف عذابهم فى جنهم ، هذا العذاب الذى يأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، ولكن الآية تجعل بأسلوب السخرية من العذاب الذى تحتهم مهادا ، وكأنه فراش لين رقيق يناسب جسما رقيقا ، لأن المهاد يستعمل عادة فى فراش الطفل ، وتجعل العذاب الذى يأتيهم من فوقهم غطاء كأنهم يستدفئون به من برد ، وكأنهم لا يصطلون من جميع جوانبهم وجهاتهم نارا شديدة ، وانما ينامون فى فراش وثير ، ويتغطون بغطاء يناسب هذا الفراش الرقيق اللين ، فيقول سبحانه « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين » (٣) .

على أن من وسائل التعذيب النفسى الذى ينذر به القرآن المشركين ، ويبصرهم به المقارنات الكثيرة التى يعقدها بين عذاب الكافرين ، ونعيم المؤمنين ، فمعظم آيات عذاب الكافرين مقرونة ببيان ما فيه المؤمنون من نعيم وأحيانا يجعل

---

(١) الآيتان ٥٠ ، ٥١ سورة الأنفال .
(٢) تفسير الكشاف للآية السابقة .
(٣) الآية ٤١ سورة الأعراف .

المؤمنين يسخرون من الكافرين وهم يصطلون العذاب ، مذكرين آياهم بما كانوا يفعلونه من حرب وايذاء للايمان والمؤمنين ، وكل ذلك من عوامل التأثير على معنويات المشركين ، لينتهى بهم الأمر الى النتيجة المستهدفة من القرآن كله ، وهى الايمان بالله والرجوع الى طريقه ودينه ، ومن ذلك هذه المقارنة التى يدور فيها التساؤل بين المؤمنين فى جناتهم ، والمشركين فى مقرهم ، من قوله تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة ، الا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فمالهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » (١) ، وفى تشبيههم بالحمر الوحشية النافرة من أسد أو من الصائدين سخرية بالغة بهم كما سبق ·

ومن هذه المقارنة قوله تعالى « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » (٢) وأصحاب الجنة يعلمون أن أهل النار وجدوا ما وعدهم ربهم حقا ، ولكنهم يسخرون منهم ويزيدونهم ألما وعذابا ، وكذلك من هذه المقارنات هذه المقارنة التى تصور ضراعة أهل النار الى أهل الجنة أن يمنوا عليهم بشئ من النعم التى يتمتعون بها ، فى قوله تعالى « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ، ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٣) ·

---

(١) الآيات ٣٨ — ٥١ سورة المدثر ·
(٢) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ سورة الأعراف ·
(٣) الآيات ٤٩ — ٥٢ سورة الأعراف ·

السخرية والهجاء

« ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون »

يكاد الشعر يكون وسيلة الاعلام الوحيدة فى المجتمع العربى القديم ، فكل وسائل نقل الأفكار ، وتبادل المشاعر والعواطف تتركز فى الشعر ، وحتى فى وسائل اتصالهم المعيشى او التقليدى كالأسواق ومواسم الحج ، كان اهم ماتمخض عنه هذه الوسائل من سبل الاتصال الاجتماعى هو الشعر ، فهو الحصيلة العامة التى يعود بها الأفراد ليتحدثوا بها عن أنفسهم ، وعن غيرهم ، وهو أيضا الحصيلة العامة التى يتنقلها الذين لم تتح لهم المشاركة فى هذه الأسواق والمواسم ، ليتذوقوها ويتبادلوها ، فيرضوا عنها ان كان فيها خير لهم ورفع من شأنهم ، ويسخطوا عليها ان كانت من عدو يريد المساس بهم والنيل منهم ، ويتسلوا بها ان كان موضوعها لا يعنيهم ، وقد أولع العرب لذلك بالشعر ولعا لم يعرف فى أمة أخرى ، حتى أصبح الناطق بلسانهم ، والمعبر عن عواطفهم ومشاعرهم ، والمصور لحياتهم وصلاتهم ، ولذلك كان فى الشعر العربى ما يصلح أن يكون تاريخا لحياة العرب بكل جوانبها .

ومن هذه الأهمية الكبيرة للشعر فى المجتمع العربى القديم كانت اهمية الشعراء أنفسهم ، فالقبيلة تهنأ حينما يظهر فيها شاعر ، والشاعر يكتسب فى المجتمع مكانة بارزة مرموقة لمجرد أنه شاعر ، ومهما تكن فيه من صفات من شأنها أن تحط من قدر غيره ، فانها لا تحط من قدره مادام شاعرا ، لأن الناس يبتون صلاتهم به ، اما على الحب والاعجاب ، وإما على الخوف والحذر ، وفى كليهما يكون الشاعر محط الأنظار ، وموضع الود والتقدير ، لأنه يستطيع بقصيدة ، بل ببيت واحد فى بعض الأحيان أن يرفع شأن من يريد ، وأن يخفض من شأن من يريد ، والاخبار فى ذلك كثيرة مشهورة .

وقد ظهر الاسلام فى المجتمع العربى المشرك ، فواجهه العرب أول أمره بموجة عاتية من النفور والسخط والعداء ، والعرب من شأنهم أن يصوغوا كل

مشاعرهم واحداث حياتهم في الشعر ، ولذلك كان من البديهى أن نتوقع أنهم صاغوا مشاعر عدائهم للاسلام في الشعر ، وأنهم عبروا عن ذلك فى كثير جدا من القصائد التى تصور نفورهم من الاسلام ، وسخطهم على المسلمين ، وصراعهم معهم ، ولئن كان رواة السير قد نقلوا أطرافا من هذا الشعر فى كتب السيرة والتاريخ ، فلنا ان نعتقد أن ما نقلوه لا يمثل كل ما قاله العرب من شعر ضد الاسلام ، ولا كل الموضوعات التى تناولها شعرهم فى عدائه للاسلام والمسلمين ، ذلك لأن المجتمع العـربى كله اعتنق الاسلام ، شعراءه ورواة شعره ، ومتداولو هذا الشعر وفى فورة الايمان الحار الدافق فى القلوب لم يكن متوقعا أن يتداول الناس هذا الشعر الذى يسىء الى الاسلام والمسلمين ، ولم يكن متوقعـا أن يستبيح مسـلم رواية شىء من هذا الشعر ، لأن ايمـانه ينفر منه ، ولأنه لن يجد أذنا تصغى الى سماعه ، فكان من الطبيعى أن يهمل هذا الشعر فى زوايا النسيان ، وألا يصل الى الرواة والمؤرخين الا ما يرتبط ارتباطا وثيقا بحادث معين ، كسبب مباشر له ، كبعض الشعر الذى كان سببا فى أن يأمر الرسـول بقتل قائله لخطورته على انتشار الاسلام وتقبل الناس له ، كما سيأتى ، أو يرتبط بحادث بارز فى حياة الاسلام ، كالأشعار التى نقلها المؤرخون عما تبادله المشركون والمسلمون فى موقعتى بدر وأحد ، على أن كثيرا من هذا الشعر يشك الرواة أنفسهم فى صحة نسبته الى أصحابه حتى أن ابن هشـام يورد أبياتا من شعر معاوية بن زهير فى يوم بدر ، ويصف هذه الأبيات ، بقوله « وهذه أصح أشعار أهل بدر » (١) ، وذلك مع كثرة ما ساقه من شعر فى يوم بدر .

واذن فلنا أن نتصور أن هناك شعرا كثيرا قاله أعداء الاسلام وتناقلوه ضد الاسلام والمسلمين ، وهذا الشعر الذى يظهر الرواة شكهم فى نسبته لأصحابه يدل على أنه كان هناك شعر كثير ضد لاسلام ، ومحته الأيام والاحداث ، وأن هذا الشعر المنحول بديل له ، وكأن الرواة الذين نقلوا هذا الشعر يعلمون أنه قيل فى هذه المناسبة شعر ، ولكنه لم يصل اليهم ، فاستعاضوا عنه بشـعر قالوه هم ليملأوا به هذا الفراغ فى روايتهم ، والذى يرجح ذلك أن أغلب شعر حسان بن ثابت الذى كان يمثل وجهة نظر المسلمين لا يشك الرواة فى صحة نسبته اليه ، وكثير من هذا الشعر مناقرات وردود على أشعار معادية للاسلام ، وفى مثل هذا يلجأ الرواة الى نحل الشعر ، فحين يروون شعرا لحسان مثلا يبدو فيه انه رد على شعر معاد ، وينظر الرواة فلا يجدون لديهم هذا الشعر المعادى فيلجأون الى تكلف شعر مكان هذا الشعر المفقود .

والقليل الذى وصل الينا من الشعر المعادى للاسلام ، والذى لم يظهر الرواة شكا فى نسبته لأصحابه يدل على خطورة الشعر حينذاك على الاسلام ، فمهما يكن من اعتماد المسلمين على السيف والقوة العسكرية فى حماية الاسلام ، فلا شك أن الاقناع والترغيب كانا أبرز من السيف والقوة فى نشر الاسلام ودعوة الناس اليه ، ولو قد أتيح للاسلام أن يتقبله المجتمع بالرضى لما كان هناك ما يدعو

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤٠٨ ـ ٤١٢ .

المسلمين الى رفع السيف أو اللجؤ الى القوة ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبذل قصارى جهده فى نشر الدين بالسلم ، وفى صورة الاقناع وهو مطمئن الى ان كل عقل تصل اليه هذه الدعوة بصورتها التى خرجت بها من منبعها سيقتنع بها ، وكل قلب تمسه هذه الدعوة بنقائها سيطمئن اليها ، ولكن فى الطريق بين منبع الدعوة وبين الموجهة اليهم توجد كمائن وحصون كثيرة من الأعداء لا يتركون هذه الدعوة تصل الى غايتها نقية ، انما يصحبونها بافتراءات عليها وعلى الداعى اليها وعلى المؤمنين بها ، وتصبح هذه الافتراءات كالغبار الذى يلقى على هذه الدعوة ، فيذهب بقليل أو كثير من نصاعتها ونقائها ، فلا تبلغ الدعوة وجهتها بالنقاء الذى خرجت به من منبعها ، وكذلك لا يترك الأعداء الراصدون نفوس الناس بفطرتها المهيأة لقبول دعوة الله ، وانما يحاولون جهدهم أن يلقوا فيها ما ينفرها ويصدها عن هذه الدعوة ·

ومن أخطر الوسائل التى يمكن أن يلجأ اليها هؤلاء الأعداء الراصدون الشعر ، فانهم يستطيعون بهجاء الاسلام ، أو الرسول الداعى الى الاسلام ، أو المسلمين ، أن يؤثروا فى نقاء الاسلام بالنسبة لقوم لم يعرفوا عنه بعد شيئا ، وأن يلقوا بهذا الهجاء فى نفوس الناس ما يؤثر فى درجة تقبلها للاسلام على الأقل ·

ومن هذه الزاوية يمكن أن نفهم سر الاهتمام الذى كان يبديه النبى صلى الله عليه وسلم بالشعر ، سواء من أعدائه أو من أتباعه ، فقد كان يحرص حرصا واضحا على أن يخرس كل لسان يقول شعرا ضد الاسلام ، ويحرص حرصا واضحا على أن تكون فى أتباعه ألسنة شاعرة تصد عن الاسلام شعر الأعداء ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك « أهجهم فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل » (١) ويروى أن كعب بن مالك حين نزل من القرآن « والشعراء يتبعهم الغاوون » جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ماذا ترى فى الشعراء ؟ فقال « ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفس محمد بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل » (٢) ، وقال النبى لحسان بن ثابت « قل وروح القدس معك » (٣) وكان يستمع الى شعر شعراء المسلمين ، ويبدى ارتياحا اليه ، وسرورا به ، واغراء للناس باستماعه ، كما ورد فى قصة قصيدة كعب بن زهير « بانت سعاد » ، ويروى أن النبى قال يوم الأحزاب (من يحمى أعراض المسلمين ؟) فقال حسان بن ثابت : أنا ، قال النبى « قم فاهجهم فان روح القدس سيعينك » (٤) ، ومعنى ذلك أنه كان هناك شعر مضاد يريد

---

(١) الزمخشرى فى الكشاف ٢٧١/٣ ·

(٢) الانتصاف لابن المنير الاسكندرى (هامش الكشاف) ٢٧١/٣ ·

(٣) الكشاف ٢٧١/٣ ، ٢٧٢ ·

(٤) الانتصاف لابن المنير (هامش الكشاف) ٢٧٢/٣ ·

النبى ان يصده ويبطل أثره ، ويحمى أعراض المسلمين منه ، ويؤكد القرآن تأكيدا شديدا ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يضيق صدره بكلام أعدائه ، فى قوله سبحانه « ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (١) ، فالذى يضيق به النبى فيما تحدده الآية ليس الحرب أو مجرد العداء ، وانما كلام والفاظ ، ومن الطبيعى ان من هذا الكلام ما كانوا يروجونه ضده وضد الدين نفسه من افتراءات واشاعات ، ولكن من الطبعى أيضا أن يكون هجاء أعدائه له ولدينه ولأتباعه بالشعر مما يضيق به صدره هذا الضيق الذى تؤكده الآية بأكثر من وسيلة من وسائل التأكيد ، ويدل على ذلك ، وعلى خطورة الشعر ضد الاسلام أنه صلى الله عليه وسلم لجأ مع بعض الشعراء الى سلوك يخالف المألوف فى تصرفه، ومن ذلك أنه كما سبق حين فتح مكة عفا عن جميع أعدائه الذين ناصبوه كل نوع من العداء والايذاء الا بضعة نفر أمر أن يقتلوا ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، وذلك لخطورتهم على انتشار الاسلام ، وبعضهم كان مصدر خطره الشعر ، وفى هذا الحادث أيضا أمر بقتل جاريتين ضمن هذا الأمر ، وذلك لأنهما كانتا تغنيان شعرا فى هجاء الاسلام والمسلمين ، فمع التزامه دائما العفو عن أعدائه عند القدرة عليهم الا أنه أمر بقتل هؤلاء . ومع التزامه عدم قتل النساء وأمره قواد جيوشه دائما بذلك ، الا أنه أمر بقتل هاتين الجاريتين . ومن ذلك أنه أمر بقتل أبى عفك وهو شاعر من بنى عمرو بن عوف بالمدينة ، وكان أبو عفك من المنافقين الذين قنعوا نفاقهم برداء الاسلام ، ولكن موقفا يقتل فيه شخص عزيز عليه يجعل رداء الاسلام يسقط عنه ، فيبدو نفاقه ممثلا فى شعر يهجو به الرسول نفسه ، ومن هذا الشعر قوله :

لقد عشت دهرا وما ان ارى ... من الناس دارا ولا مجمعا
ابر عهودا واوفى لمن ... يعاقد فيهم اذا ما دعا
من أولاد قيلة فى جمعهم ... يهد الجبال ولن يخضعا (٢)
فصدعهم راكب جاءهم ... حلال حرام لشتى معا

فقال النبى « من لى بهذا الخبيث ؟ » فخرج سالم بن عمير فقتله (٣) ، والنبى صلى الله عليه وسلم ليس من عاداته أن يقتل المنافقين مع يقينه من

---

(١) الآيات ٩٧ ــ ٩٩ من سورة الحجر .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٣٦٢ ــ ٣٦٣ .

(٣) أولاد قيلة يعنى بهم الأوس والخزرج ، ويعنى بالراكب فى البيت الأخير النبى

نفاقهم ، وكثيرا ما سأله بعض أصحابه أن يأذن له فى قتل منافق ظهر نفاقه ، فيكون جوابه « فكيف اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ » ولكن مثل حالة أبى عفك تضطره الى قتله لا لنفاقه وانما لحماية الاسلام من شعره ، فهذه الأبيات تمثل دعاية خطيرة ضد الاســلام ، حيث يوحى ظاهرها بمنطق معقول لدى السذج أو الذين لا يعلمون عن الاسلام الا ما يبلغهم عنه من أنباء ، فهو يدعى أن الاوس والخزرج ابنى قيلة كانا قبـل قدوم النبى المدينة جمعا واحدا يهد الجبال صلابة وقوة اتحـاد ، فلما قدم عليهم النبى الجديد صـدع جمعهـم وقسمهم الى فريقين ، فريق مسلم ، وفريق لازال على دين آبائه ، وهى دعوى وان كان ظاهرها يحاول أن يكون منطقا الا أنها فى حقيقتها باطلة ، لأن الأوس والخزرج كانا قبل الاسلام فى أشد التنافر والخلاف والحروب ، والاسلام يدعوهم الى التآلف والوحدة ، والتاريخ لا يرتاب فى أن الاسلام وحده هو الذى يرأب صدعهم ، وأن يؤلف قلوبهم ، لا أن يصدع جمعهم كما يدعى أبو عفك ويحاول أبو عفك فى شعره هذا ان يحقر من شخص النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « راكب » ثم يسخر من الاسلام نفسه زاعما أنه يصف الشىء الواحد بأنه حلال وحرام معا ، وهذا الشعر سيسير كشأن الشعر كله عند العرب ، فينتشر فى طول القبائل وعرضها ، ويبلغ أناسا لم يعلموا بعد عن الاسلام الا ما يصلهم من مثل هذه الأخبار ، فيعلمون من شعر أبى عفك أن محمدا يفرق بين الجماعة ، وأن دينه من التناقض بحيث يحـل الشىء الواحد ويحرمه فى وقت واحد . ولا شك حينئذ أنه سيتردد المقدم على الاسلام أو يتريث ، وأن يزداد المعرض عنه أعراضا ، واذن فلا مفر من اخراس لسان كلسان أبى عفك الذى قد يكون أخطر على الاسلام من جيش جرار .

وكذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم مع تحاشيه دائما قتل النساء يأمر بقتل عصماء بنت مروان التى أحزنها قتل أبى عفك ، وكانت منافقة من حزب أبى عفك ، فقالت تهجو الاسلام والمسلمين ، وتحرض على اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم :

باسـت بنى مـالك والنبيت
وعوف وباسـت بنى الخـزرج
اطعتم أتـاوى من غـيركم
فـلا من مـراد ولا مذحج (١)
ترجونه بعـد قتـل الرءوس
كمـا يرتجى مـرق المنضـج
الا أنـف يبتغى غـرة
فيقطـع من أمـل المرتجى ؟

(١) الأتاوى : الغريب ، ومراد ومذحج . قبيلتان من اليمن .

فهي تسب الأوس والخزرج لطاعتهم النبي ، وتصفه بأنه دخيل عليهم . وتحاول أن تثير حفيظة الأوس والخزرج مذكرة اياهم بقتلاهم الذين قتلوا بسبب المسلمين ، وتسوغ هذا المعنى في سخرية مثيرة ، حيث تشبه رجاءهم خير النبي بعد قتلاهم ، وانتظارهم الخير من الالآم بانتظار المرق من اللحم بعد وضعه على النار لطبخه ، ثم تلجأ عصماء الى دعوة خطيرة ، حيث تحرض على اغتيال النبي بيد شخص ذي أنفة ينتهز غرة وغفلة من النبي فيقطع أمله في رفعة دينه وعلو شأنه ، ومن حق مثل هذا اللسان أيضا أن يخرس ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغه هذا الشعر « ألا آخذ لي من ابنة مروان ؟ » فسرى اليها عمير بن عدى الخطمي فقتلها ، فقال النبي « نصرت الله ورسوله يا عمير » (١) ومما يدل على أثر هجاء المشركين في نفوس المسلمين ، أن هندا بنت عتبة قالت أبياتا من الشعر بعد انتصارهم في أحد تهجو المسلمين وتتباهى بالنصر عليهم ، فجاء عمر بن الخطاب الى حسان بن ثابت يقول له : لو سمعت ما تقول هند ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بحمزة ! قال حسان : ولكن اسمعني بعض قولها أكفيكموها ، فأنشده عمر بعض ما قالت ، فرد عليها حسان هجاء بهجاء (٢) .

ولهذا الأثر الخطير الذي كان يتركه شعر الاعداء في نفوس المسلمين ، ويضعه في طريق انتشار الاسلام ، كان النبي يشجع شعراء المسلمين على أن يردوا عن الاسلام والمسلمين هذا السلاح الخطير ، وقد أبلى بعض شعراء المسلمين وعلى رأسهم حسان بن ثابت بلاء عظيما في الدفاع عن المسلمين بشعره ، وفي صد شعر الاعداء ، ويبدو من روايات التاريخ أن شعر حسان كان ذا أثر عميق في الذود عن المسلمين ، وفي مهاجمة المعتدين بشعرهم من أعداء الاسلام عامة ، ومن ذلك قصته مع سلافه بنت سعد ، التي آوت بشير بن أبيرق ، وكان بشير قد لزمه حد السرقة، فهرب من الحد الى مكة ، ونزل على سلافة فآوته ، وحينما سمع حسان بايوائها اياه هجاها بأبيات ما ان بلغتها حتى أخذت رحل بشير وطرحته خارج الدار ، وقالت لبشير : حلقت وسلقت وخرقت ان بت في منزلى ليلة (٣) ومن ذلك أيضا أن الحارث بن عوف المرى نزل في جواره داع من دعاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقتل في جواره هذا الداعي ، ولم يقم هو ولا عشيرته بواجب ملتزم عند العرب وهو حفظ الجوار وحمايته ، فهجاه حسان هو وعشيرته بأبيات منها :

ان تغدروا فالغدر منكم شيمة   والغدر ينبت في أصول السخبر (٤)

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/٤ — ٣١٥ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٤٣/٣ .

(٣) المصدر السابق ١٤٦/٢ ، ١٤٧ .

(٤) تاريخ الأدب العربي دكتور شوقي ضيف ٧٩/٢ والسخبر شجر يضرب به المثل يقال ركب فلان السخبر اذا غدر .

وبلغ من أثر هذا الشعر في الحارث وعشيرته أن الحارث جاء الى النبي صلى الله عليه وسم وهو يبكي بدموع غزار ، واستجار به متوسلا اليه أن يكف حسانا عنه ٠

ولكن هناك نقطة مهمة ينبغي أن نراعيها ، وهي أن شعر حسان أو غيره من شعراء المسمين لم يكن كافيا لأن يصد عن الاسلام والمسلمين كل ما يوجه اليهم من قول ، فان الهجاء كما هو مالوف يكاد يكون محصورا في ذم شخص أو عشيرة بأوصاف تكاد تكون موقوفة على حدود عرف وتقاليد معينة يسير عليها المجتمع ، واذا كان شعر شعراء المسلمين يصد جانبا معينا فان هناك جوانب تستعصى على الشعر والشعراء أن يصدوها ، ومن هذه الجوانب ما يوجه الى الدين نفسه ، من طعن في القرآن ، أو فيما دعا اليه من الايمان بالملائكة والبعث وغير ذلك ، أو ما يوجه الى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم مرتبطا بالدين ، كوصف المشركين اياه بانه ساحر وصفا للقرآن بانه سحر ، فمثل هذه الطعنات التي توجه الى الاسلام لم يكن في استطاعة الشعر أن يرد عليها ، لأنها فوق مستوى الشعر والشعراء ، وحتى لو حاول الشعراء أن يتصدوا للرد عليها ، فاغلب الظن أنهم لن ينجحوا في ردودهم ، لأن المجتمع يتقبل من الشعر طرازه المالوف ، وموضوعاته التي تالفها الآذان والمشاعر ، ولو تصورنا قصيدة تتصدى لمناقشة موضوع ديني أو فلسفي ، فانها لن تجد الى المشاعر طريقا ممهدا ، بل اغلب الظن أنها كانت لن تخرج من محيطها الذي قيلت فيه ، حيث لا تجد الى الرواية والانتشار سبيلا ، وما أكثر الأوجه التي وجه المشركون طعناتهم اليها ، فلم يتركوا جانبا من جوانب الاسلام ، ولا قاعدة من قواعده الا هاجموها ، فلم يكن الشعر قادرا على أن يرد كل هذه الجوانب ، ولم يكن المجتمع ليتقبل منه الا طرازه المالوف ، وطرازه المالوف في هذا المقام ، هو الهجاء الذي يتناول فردا أو جماعة فيحاول أن يحط من شأنهم ٠ على انه كان في مجتمع الشرك أفراد بلغوا من الشهرة والنفوذ ، ومن سيطرتهم على المشاعر والقلوب ولو في نطاق أتباعهم ما يجعل أي هجاء يوجه اليهم ضعيف الأثر ، قاصر المفعول ٠ لهذا ونحوه لم يكن هجاء شعراء المسلمين لأعداء الاسلام كافيا للدفاع عن الاسلام ، وصد هجوم أعداء الاسلام ، ومن هنا ندرك اهمية أسلوب السخرية في القرآن ٠

على انه بصرف النظر عما سبق ، فان أسلوب السخرية في القرآن يعتبر من جوانب التكامل فيه ، فالقرآن جوهره الدعوة الى الله ، فهو يدعو الى الله ، وهو في الوقت نفسه يحمل الدفاع عن هذه الدعوة ، دون حاجة الى عون أو مساعدة ، ولذلك نجد في عرض موضوعه كل التكامل ، يعرض الحقيقة في وضوح ، وهي الايمان بالله ورسوله ، والتزام طريق الدين في السلوك ، ويدعو الى هذه الحقيقة كل الناس ، بالحكمة ، وبالمنطق ، وبالمناقشة العقلية الهادئة ، ويبين جزاء من اهتدى ، وجزاء من أعرض ، ثم يقدم النذر والتخويف مصحوبة

أيضا بالدعوة الى الفكر والعقل ، وبذلك تكتمل الحجة على كل من تبلغه هذه الدعوة فمن أصر على العناد والاعراض ، فله العقاب الشديد فى الدنيا والآخرة ، ومن تمادى فى العناد والاعراض ليناصب الله ودينه الحرب ، فله فوق هذا العقاب جزاء معنوى يصبه عليه القرآن فى أساليب مختلفة من أبرزها السخرية ، هذه السخرية التى تبلغ منه ما لا يبلغه هجاء شاعر ، فتهدم كيانه هدما ، وتسلخ عنه أهم ما يحرص عليه ، وما لا يحرص عليه ، وما يحارب الله ورسوله من أجله ، وهو مكانه من الحياة والمجتمع .

فسخرية القرآن اذن يتركز اتجاهها الى طائفة معينة ، هى طائفة الذين امتلأت نفوسهم حقدا وبغضا للاسلام ، وظنوا أن لديهم من المقدرة والقوة ما يستطيعون به أن يحاربوا الاسلام ، وأن يحققوا أملهم فى القضاء عليه أو شل حركته على أقل تقدير ، ومعظم هؤلاء من السادة وقادة المجتمع ، أو الجماعات التى تضع نفسها أو يضعها المجتمع فى مركز القيادة والتوجيه كقريش ، ولذلك يلاحظ أن أغلب آيات السخرية لا تخلو من وصف المقصودين بها بالتكبر أو العناد أو العتو ، كما مر فى الصور السابقة .

واذن أيضا حين نقارن بين السخرية والهجاء ، نجد ان من الجوانب البارزة فى المقارنة كون الهجاء يغلب عليه اقتصاره على طابع تقليدى يتمثل فى الذم الموجه الى شخص أو جماعة أما السخرية فى القرآن فقد كانت سلاحا ذاتيا فيه ، يدافع عنه كل وجه ، ويصد عن الاسلام كل أنواع الهجوم الذى وجهه اليه الأعداء، سواء أكان هجوما على الدين وما دعا اليه ، أم كان هجوما على شخص الرسول ، أم كان هجوما على المسلمين ، أما الهجاء فقد عبر النبى صلى الله عليه وسلم عن الحاجة اليه فى قوله السابق « من يحمى أعراض المسلمين ؟ » ومعنى ذلك أن المجتمع قد تعود النيل حين يريده من شخص أو جماعة بالهجاء ، وتعود أن يسمع دفاعا يرد على هذا الهجاء ، وعدم وجود هذا الدفاع بهجاء مماثل يعتبر قصورا فى مركز الشخص أو الجماعة المهجوة ، فكان لابد للمسلمين فى نظر المجتمع العربى كله ان تكون لهم ألسنة هاجية ترد على هجاء أعدائهم لهم .

وكون سخرية القرآن قد تناولت كثيرا جدا من الموضوعات والأغراض التى لم يكن الشعر ليستطيع خوضها ، ولم يكن الناس ليتذوقوها منه لو خاضها أمر واضح فيما سبق من الموضوعات التى يتبين منها أن القرآن فى سخريته لم يترك جانبا أتاه منه الأعداء الا وصب عليهم منه سخريته ، فقد نالت سخريته الذين حاولوا المساس بالقرآن ، والذين حاولوا المساس بشخص الرسول ، والذين حاولوا ايذاء المسلمين أو تنفيرهم من الاسلام ، كما نالت سخريته الذين حاولوا أن يشوهوا أو يشككوا فى أى شىء مما دعا اليه الاسلام ، ونالت سخريته الطوائف الخاصة كاليهود والمنافقين ، ففى هذه الموضوعات ليس هناك مجال

للمقارنة بين سخرية القرآن والهجاء ، لان الهجاء لم يطرقها ، أو كان طرقه لها جانبيا لا يعتد به كثيرا ·

فلم يبق اذن الا المقارنة بين سخرية القرآن والهجاء ، فى موضوع الهجاء ، وهو النيل من شخص او جماعة ، ومع ان المقارنة بين اسلوب القرآن عامة ، وبين أى كلام آخر من الدقة والصعوبة بحيث يكون من العسير وضعهما فى المقارنة ، لا لتقاربهما ، فذلك ما لم يقل به ناقد سليم الذوق قط ، ولا لتباعدهما رغم ان ذلك حق ، ولا لان الحكم على أى كلام ، والمقارنة بين كلامين انما تعتمد قبل كل القواعد البلاغية وبعدها على الذوق ، كما يقرر عبد القاهر وعلماء البلاغة ، فتذوق السامع للكلام ، وانفعاله به ، هو المرجع الأخير فى كل نقد ، وهو اهم من كل القواعد التى وضعت للنقد ، وفى أغلب الاحيان لا يستطيع حتى الناقد أن يعبر عن هذا التذوق الذى يحسه نحو الكلام الذى ينقده تعبيرا كاملا أو دقيقا ، ولا يستطيع أن يبرز تذوقه فى صورة كاملة تجعل شخصا آخر يحسه كما هو · أقول مع كل ذلك ومع ان معظمه حق ، ليس هو الذى يجعل المقارنة بين أسلوب القرآن وأى كلام آخر أمرا عسيرا ، وانما أعتقد أن المصدر الأول للعسر فى المقارنة هو كون القرآن كلام الله ، وهذا يجعله ذا طابع خاص سواء فى ذاته ، أو فى تلقى السامع له حين يعلم أنه كلام الله ، وذلك أن الملاحظ فى كل كلام انه يحمل شخصية صاحبه وعقليته ، بحيث يشعر السامع بصدى شخصية الشخص فى كلامه ، ويحس أى نوع من الاحساس بمقومات شخصية صاحب الكلام الذى يسمعه ، ولعل هذا الجانب أهم ما يمس الذوق أو ما يعبر عن ادراكه بانه خاضع للذوق ، وكون الكلام يحمل صدى شخصية صاحبه أمر يدركه ذوو التذوق للكلام، وللعرب أمثال وحكم كثيرة تؤدى هذا المعنى ، ومن آثار عمر بن الخطاب فى ذلك أنه جاءه سيد من كبار سادات العرب ، فأثنى عليه الناس وعلى زعامته ثناء كبيرا، فاراد عمر أن يستوثق من أحقيته لهذه السيادة ، وأن يختبر عقليته وشخصيته، فطلب منه أن يتكلم فى صورة سؤال وجهه اليه ، قائلا : لو احتكم اليك عامر ابن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، فلأيهما كنت تحكم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة ، يعنى الحرب بين حييهما ، وكانت بين عامر وعلقمة خلافات وتنافس على الزعامة ، ويعنى مسئول عمر أنه لو حكم لاحدهما لعادت الحرب بين حييهما قوية ، فقال له : بهذا سدت قومك ، وحيث كان كل كلام يحمل شخصية صاحبه وعقليته ، والقرآن كلام وهو كلام الله ، لذلك كان المتوقع أن يحمل القرآن آثارا من جلال الله سبحانه وعظمته وتعاليه ، ولعل هذا هو السر فى أن أصحاب التذوق السليم للكلام العربى ، وهم العرب الأولون كانوا يشعرون بما أوردته الروايات من تأثر وخشوع واستكانة ، تدفعهم فى أغلب الأحيان الى انقلاب كامل فى أفكارهم ومواقفهم ، فاذا هم ، وهم فى أقصى حالات العداء للاسلام ، يضربون بكل شىء عرض الحائط ، ويندفعون تحت سلطان القرآن على نفوسهم الى الاسلام ، ولعل هذا نتيجة لذلك هو السر

فى أن القرآن كان معجزة الله الكبرى وأعظم وسيلة فى نشر الاسلام ، ولعل هذا هو السر أيضا فى آن الباحثين فى اعجاز القرآن مع كل ما بذلوه من جهود لم يوفقوا كل التوفيق فى الوصول الى اجابة عن سؤال لا زال يعتريه كثير من الحيرة ، وهو السر فى اعجاز القرآن ؟ ذلك لأنهم ركزوا جهودهم فى ابراز اعجاز القرآن على اخضاعه للقواعد البلاغية ، ولقواعد النقد العادى فى المقارنة بينه وبين غيره من الكلام ، فى حين أن الناحية البلاغية وان أبرزت جانبا من جوانب اعجاز القرآن ، فلن تبرز كل الجوانب ، ولا تجيب اجابة كاملة عن ذلك السؤال الذى لا زال يعتريه كثير من الحيرة ·

وهذا الطابع الخاص الذى يحمله القرآن يعتبر ذاتيا فيه ، يمكن ان يدركه كل ذى ذوق واحساس ، بحيث يميز بين القرآن وغيره من الكلام حتى بدون أن يعلم أنه قرآن ، على أن لهذا الطابع وجها آخر ، وهو أن السامع حين يعلم أن هذا الكلام كلام الله ، ويؤمن بذلك ، أو حتى حينما يقال له ان هذا كلام الله وهو لا يؤمن بذلك ، فان هذا الشعور سيجعل لدى المؤمن قداسة واكبارا لهذا الكلام، يزيد من قوة الطابع الذاتى فيه ، ويجعل لدى غير المؤمن شعورا ولو خفيا ، او حتى مجرد شك بأن هذا الكلام قد يكون حقا كلام الله ، وهذا الشعور أيضا مهما ضعف · فانه يزيد فى قوة تأثير الطابع الذاتى فى القرآن الكريم ·

ونخلص من هذا الى أن أبرز موضع فى عسر المقارنة بين سخرية القرآن والهجاء ، كون القرآن كلام الله ، والهجاء كلام غيره ، ومجرد الشعور بأن هذه السخرية صادرة من جانب الله يعتبر زيادة فى التقدير الموضوعى للسخرية ، بمعنى أنه قد تمكن المقارنة بين السخرية فى القرآن ، وبين الهجاء ، من حيث الأسلوب والمعانى ، وما يحتويان عليه من أوجه البلاغة والدقة ، ولكن ما يحمله القرآن من آثار ذات الله سبحانه ، والشعور بأنه كلامه ، كل ذلك لا يخضع للنقد ولا للمقارنة بالمعنى العلمى الأدبى لهما ، وحين نقارن بين السخرية والهجاء من الجوانب التقليدية فى الأدب ، تكون هذه المقارنة قاصرة ، لأن هناك جانبا فى سخرية القرآن لم يدخل فى هذه المقارنة · وقبل ايراد أمثلة للمقارنة ينبغى الاشارة الى آثار سخرية القرآن ·

واذا اردنا أن نضرب مثالا لأثر سخرية القرآن فيمن عنتهم سخريته كافراد ، فهذه أم جميل بنت حرب زوج أبى لهب ، حين سمعت ما نزل فيها من القرآن من سورة المسد ، فى قوله تعالى « وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » جن جنونها ، وطاش صوابها فأخذت حجرا وذهبت تلتمس النبى صلى الله عليه وسلم لتضربه به ، وهى تقول : والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه ، أما والله انى لشاعرة ، ولأهجونه كما هجانى ، ثم قالت :

مذممـــا عصينا   وأمره أبينا
ودينه قلينا (١)

ورد أم جميل هذا قد يثير سؤالا ، وهو اذا كان المشركون يعتقدون أن القرآن من كلام محمد ، وأن مافيه من سخرية بهم ، واهانة لهم هو بالتالى من كلامه وهجائه اياهم كما زعمت أم جميل ، فلماذا لم يردوا على هجـاء القـرآن لهم بهجاء كما فعلت أم جميل ؟ ، ولا شك أن القرآن قد سـخر منهم سخرية أبلغ وأوجع من الهجاء ، سخر منهم بوصفهم جماعات ، وسخر من بعضهم أفرادا ، وهو وان لم يصرح باسماء الافراد الذين سخر منهم الا قليلا ، فانه أشار اليهم اشارات واضحة ، وحدد لهم أوصافا غالبا ما تكاد تنطق باسم من تعنيه ، وكان المفروض فى تقاليدهم أن يردوا على هذه السخرية بهجاء ، باعتبار السخرية فى زعمهم هجاء من محمد لهم ، ولكنهم رغم هجائهم بالشـــعر للنبى ودعوته واتباعه ، الا أنه لم يبلغنا أن شيئا من هجائهم كان ردا على القرآن كما ردت أم جميل ، وقد يقال فى الاجابة عن ذلك أن عدم تحديد القرآن لاسماء الذين عنتهم سخريته كفيل بأن يجعل من أصابته هذه السخرية يغمض عينيه عنها ، ويتجاهل أنه هو المعنى بها ، فان وقع الهجاء كان عندهم ثقيلا ، والذين أصابتهم سخرية القرآن كافراد كلهم من سادة القوم الذين لا يجرؤ أحد عادة على أن يهجوهم لأن هجاءهم مساس شديد بسيادتهم ، بل وبعشائرهم واتباعهم ، فتجاهل كونهم هم المعنيين بها أسلم لهم وأحفظ لمروءتهم وسيادتهم ، وقد يكون فى هذا شىء من الصدق ، وقد يقال غير ذلك ، ولكنه مهما يكن من اجابة فلا نستطيع أن نغفل احتمالا راجحا وقويا ، وهو أن المشركين رغم عنادهم وعدائهم للاسلام ، كانوا يحسون فيما بينهم وبين أنفسهم بأن الاسلام حق ، وخاصة القرآن الذى كانوا يشعرون بسلامة ذوقهم العربى أنه كلام غير عادى ، وأنه ينبىء عن أن قائله ليس بشرا ، وليس مصدره كما ألفوا من أى كلام ، فيراودهم شـــعور ولو خفى بأنه ما دام ليس ككلام الناس ، فهو اذن كما يقول محمد كلام الله ، واذا كان كلام الله ، فلن يستطيعوا أن يردوا على اهانته لهم أو سخريته بهم ، لأنهم حينئذ يردون على الله ، وذلك ما لم يفكروا فيه حتى ولو اعتبروا أنفســـهم أعداء له ، وكل الشواهد والدلائل تشير الى أن المشركين فى كل مراحل عداوتهم للاسلام كانوا يحسون فى دخائلهم بصدق الاسلام والقرآن ، ومن هذه الدلائل دخولهم فى الاسلام أفواجا ، وعدم اصرارهم على شركهم امدا طويلا ، ومنها ما كان يصدر عنهم من مشاعر غير عادية نحو القرآن ، سواء أكانت مشاعر رضى أم مشاعر غضب ، فالروايات تجمع على أن استماعهم للقرآن بالذات كان يثـــير فيهم انفعالات غير عادية ، تدفع بعضهم الى اعتناق الاسلام دفعا عاجلا قويا ، وتدفع بعضهم الى ثورة عارمة من الغضب الشديد ضد الاسلام وأهله وهذه الانفعالات سواء كانت راضية أو ساخطة تدل على أنهم كانوا يشعرون بأن القرآن شىء

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣٧٨/١ .

غير عادي ، وأنه حقا كلام الله ، وكلا الحالين من الرضى والسخط انما هو نتيجة لهذا الاحساس ، غير أنه اختلاف في استعداد النفوس وتصرفها في مواقف الشعور بالفشل مما يسميه علماء النفس بالاحباط ، كما مر في الفصل السابق ، ونقطة الاحساس بالفشل مصدرها الشعور بأن القرآن كلام الله ، وينتج عن ذلك الشعور بأن الاسلام حق ، ويترتب عليه أن ما يقوله القرآن والاسلام من انتصار دين الله وظهور الحق أمر لا مفر منه ، فموقف الشرك والكفر اذن فاشل ، واذن فهذا شعور المشرك حين يسمع القرآن ، شعور بالفشل يتمثل في حالة احباط تدفعه الى انفعالات مختلفة حسب استعداده النفسي والعصبي ، وحينئذ يمكن ان نقول ان عدم رد المشركين على سخرية القرآن التي وجهت اليهم جماعات أو أفرادا يرجع في أوضح أسبابه الى شعورهم الخفي بأن هذه السخرية من الله وليست من محمد كما يبديه ظاهر طعنهم في القرآن ٠

ومما لا شك فيه أن سخرية القرآن نماذج رفيعة سامية للهجاء ، لم يستطع الهجاء الشعري أن يساميها ، ولا أن يدنو من مستواها ، بل ولم يستطع في أغلب احواله أن يستفيد منها ، ومن النواحي البارزة في سمو سخرية القرآن ناحيتان، احداهما ان سخرية القرآن مهما قست أو اشتدت ، فهي هادفة الى التقويم والاصلاح ، ولو من باب اتخاذ من تعنيه السخرية عبرة لغيره من الناس ، والدقيق الواضح معا في سخرية القرآن أنها دائما تعالج نواحي واضح فيها الاتجاه بالناس الى المثل والسمو الروحي والخلقي ، والبعد بهم عما يحط من شأن الروح والخلق ، فالسخرية في القرآن لا تعيب قط ما قد تلجأ اليه بعض السخريات البشرية من مظهر أو سلوك عادي ، فقد يسخر بعض الناس من بعض ، ويصوغون ذلك أحيانا في أساليب وصور يعتبرونها من أعمال الفن ، وفي بعض الأحيان يحكمون عليها بأنها من الفن الرفيع ، ومع ذلك لا تدعو الى مثل ، ولا تحارب رذيلة ، وانما تصور وتمثل طبقية تفرق بين الناس في أمور معظمها ليس مما تملكه أيديهم ، ولا يخضع لارادتهم ، كسخريتهم من بعض المهن مع أنها مهن شريفة ، وكسخريتهم من نواح تتصل بالفقر ولو بطريق غير مباشر ، أو بمظهر شكلي جسمي لبعض الناس ، أو نحو ذلك مما نراه غير قليل ولا محدود في أساليب الهجاء الشعري ، وفي المسرحيات الساخرة ، وفي الصور اليدوية التي تهدف الى السخرية ، أما سخرية القرآن فانها تعالج الأمراض الروحية ، والأمراض الخلقية ، سواء عنت نماذج فردية ، أو صورا جماعية ، فمن النماذج الفردية مثلا قوله تعالى « ولا تصعر خدك للناس » فهذه السخرية مع بلوغها أقصى الاهانة للمعنى بها ، والتنفير من وضعه ، ولكنها لا تهدف الى هدم شخص أو جماعة ، وانما تدعو الى تحاشي خلق ذميم يمس حياة الناس الاجتماعية ، وهو تعالي بعض الناس على بعض ، وتنفر من هذا الخلق بأن تصوره للناس حتى يتمثلوا كل من يرونه في هذا المظهر في صورة جمل مريض لوى الداء عنقه ، ويترتب على هذا أن المجتمع الاسلامي المؤمن بالقرآن وبهذا التنفير لن يرضى عن شخص يتزيى بهذا المظهر ، ويتخلق

بهذا الخلق ، كما لا يستطيع شخص أن يتخلق بهذا الخلق وهو يشعر أنه بين هذا المجتمع الذى ينظر اليه نظرة السخرية والتهكم ، ومن الصور الجماعية مثلا تصوير النفور الجماعى من الدين ، وأعراض هؤلاء عمن يدعونهم الى الخير بصورة حمر وحشية أحست مطاردة أسد لها ، فى قوله تعالى « كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » فهذه سخرية مع بلوغها أعمق التنفير من الأعراض عن دعوة الدين ، الا أنها لا يشتم منها غير التنفير من الاعراض عن دعوة الله ، ولذلك نلاحظ دائما كما سبق فى أمثلة سخرية القرآن أنها مقرونة بالدعوة الى التفكير واستعمال العقول والمحاجة المنطقية .

والناحية الأخرى البارزة فى سمو سخرية القرآن بعدها الكامل عن الألفاظ النابية ، أو الاعتماد على المهاجمة بالمدلول اللفظى . فبينما نجد الهجاء الشعرى يعتمد اعتمادا أساسيا على المهاجمة بمدلول اللفظ الجارح ، نجد سخرية القرآن تتحاشى ذلك ، لتعتمد على التصوير الموضوعى ، ولذلك نرى سخرية القرآن حينما تعمد الى شدة النيل من المعنى بها تعمد الى التصوير كالمثالين السابقين . أما الهجاء فكلما عمد الى القسوة فانه يلجأ الى الألفاظ النابية ، والمعانى الجارحة التى تنفر منها سلامة الحس والذوق ، ومن أمثلة ذلك هجاء يحيى بن نوفل لخالد بن عبد الله القسرى حين علم بخروج المغيرة بن سعيد علمه فى عشرين رجلا بالكوفة ، فحصر خالد وهو على المنبر وارتج عليه ، ثم ارتبك فقال : أطعمونى ماء ، فهجاه يحيى قائلا :

لاعلاج ثمانية وعبد لئيم الأصل فى عدد يسير
هتفت بكل صوتك أطعمونى شرابا ثم بلت عى السرير(١)

فقوله (بلت على السرير) وان كان يؤدى ما يهدف اليه الشاعر من اهانة المهجو وسبه وتحقيره ، الا أنه تعبير غير كريم ، ولا يتفق مع الذوق والأدب فى معناه الرفيع ، وكذلك قول النميرى يهجو جريرا وقومه :

ولولا ان يقال هجا نميرا ولم تسمع لشاعرها جوابا
رغبنا عن هجاء بنى كليب وكيف يشاتم الناس الكلابا(٢)

فوصف النميرى لأعدائه بالكلاب ، وسبه اياهم بهذا اللفظ ، فحش فى الهجاء ، ونزول بالأدب الشعرى عما ينبغى أن يكون عليه من سمو اللفظ وكرم المعنى ، وفى مثل هذا الجانب قد تبدو مقدرة الشاعر ، ويمتاز شاعر عن شاعر ، فان الشاعر القدير ، يستطيع أن يبلغ من مهجوه كل مبلغ ، دون أن يضطر الى اسفاف اللفظ ، أو جارح المعنى ، فقد يقسو ما شاءت له القسوة ، بل قد يستطيع أن يهدم مهجوه هدما ، دون اضطرار الى هذه الألفاظ التى

---

(١) الكامل للمبرد ٢٠/١ .
(٢) المصدر السابق ٢٧٧/١ ، ٢٧٨ .

لا يسيغها حس مرهف ، ولا تعتادها نفس كريمة ، ولكن الشعراء يغلب عليهم الميل دائما في هجائهم الى هذا الاسفاف ، حتى كبارهم لا يخلون من هذا ، ومن ذلك قول جرير يهجو الأخطل وقومه :

والتغلبي اذا تنحنح للقـــرى حك استه وتمثل الأمثالا

ورد عليه الأخطل بما هو أشد فحشا وبذاءة ومنه :

قوم اذا استنبح الاضياف كلبهم قالوا لامهم بولي على النار (١)

ويروى تكملة لبيت الأخطل قوله بعده :

فضيقت فرجهـا بخلا ببولتها فلا تبول لهـــم الا بمقـــدار

وحتى شعراء الاسلام الذين عرفوا بأنهم من الألسنة الذائدة عنه وعلى رأسهم حسان بن ثابت تكرر في شعره الفحش والاقذاع كثيرا ، حتى ان الرواة تحرجوا من رواية هذا الشعر المقذع ، ويشير ابن هشام كثيرا الى تحاشي رواية هذا الفحش ، ومن ذلك قوله « تركنا من قصيدة حسان ثلاثة أبيات من آخرها لانه اقذع فيها » وقوله عن قصـيدة أخـرى « تركنـا منها بيتا واحدا أقذع فيه » (٢) ، ويقول ابن هشام أيضا في روايته لشعر حسان الذى هجا به هندا بنت عتبة حين طلب منه عمر بن الخطاب أن يرد على رجزها الذى شمتت فيه بهزيمة المسلمين ومقتل حمزة يوم أحد ، قال حسان :

أشرت لكاع وكان عـــادتها لؤما اذا أشرت مـــع الكفر

قال ابن هشام « وهذا البيت في أبيـات له تركناها وأبياتا أيضا له على الدال وأبياتا أخرى على الذال لأنه أقذع فيها » (٣) .

ومن هذا ندرك مدى سمو سخرية القرآن ، فانها مع بلوغها فيمن عنتهم مبلغا لم يبلغه هجاء الا انها نماذج سامية رفيعة للتحقير أو الهجاء الموضوعي ، الذى لا يجعل كل هدفه الهـدم والتدمير ، وانما يجعل غايتـه ووسيلتـه معا التوجيه ، وذلك التنفير الشـديد من موضـوع السخرية ، والاشارة تعريضـا أو تصريحا الى الطريق السليم الذى يستبدل بموضوع السخرية .

وقد يقال ان لفظ (زنيم) في قوله تعالى « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، ان كان ذا مال وبنين » (٤) قد يقـال أن هذا اللفظ من الكلم الجارح ، ومن المهاجمـة بمدلول

---

(١) الانتصاف لابن المنير الاسكندرى (حاشى الكشاف) ١/١٦٦ .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ٢/٣٨٥ ، ٣٨٨ .
(٣) المصدر السابق ٣/٤٣ ، ٤٤ .
(٤) الآيات ١٠ ـ ١٥ سورة القلم (ق) .

للالفاظ المباشر ، ولكننا حين نستعرض السياق كله ، ومجمـــوع الآيات ، ثم الهدف منها نرى ان الأمر على غير ذلك ، فمما لاشك فيه ان لفظ (زنيم) ومعناه الدعى ليس مقصودا به الطعن في النسب ، أو ليس مقصودا به مجرد ذلك ، فالآيات تعنى بوصوح سيدا عظيم الشان في المجتمع ، ويقال انه الوليد ابن المغيرة ، أو الأخنس بن شريق الثقفي (١) وكلاهما تنطبق عليـه الصـفة السابقة في السيادة ، والقرآن الكريم حين يهاجم شخصا بهذه الصفة لا يهتم به لذاته ، وانما يهتم به لكونه عقبة في طريق نشر الاسلام ، وذلك بسيطرته على عدد عظيم من سواد الناس زعيما لهم ، يحول بينهم وبين الاســلام ، وهؤلاء الاتباع يرون فيه شيئا كبيرا محاطا بهالة كبيرة من الجلال والمهابة بحيث يرون فيه كل ما هو عظيم ، ولا يرون فيه عادة شيئا غير ذلك أو نقيض ذلك ، ومن هذه الزاوية يكون انقيادهم له ، وعدم تفكيرهم في نقده ، أو تفكيرهم في نقد تبعيتهم له ، ولكن القرآن يهمه أن يبصر هؤلاء الأتباع بحقيقة هـذا الزعيم لينتقلوا من غفلتهم الى مرحلة النقد والتفكير ، وحينئذ تنقشع عن عقولهم هذه السـحابة التي تحول بين أبصارهم ورؤية الاسلام ، هذه السحابة التي تتمثل في شخصية الزعيم ، فالقرآن حين يحدثهم عنه لا يهدف الى هجائه أو سبه ، وانما يهدف الى مجرد بيان حقيقته التي خدعوا عنها ، ولذلك كان بدء الحديث عن هذا الزعيم « ولا تطع » توضيحا للغرض من سرد صفاته ، وهو بيان حقيقته حتى ينفض عنه المخدوعون فيه ، المضللون به عن طريق الله ، فوصف (زنيم) لا يبين قط عن سب أو هجاء ، وانما مجرد بيان صفة حقيقية ، وكل ما قد يراعى في فهم سرد القرآن لهذا الوصف ، ان النسب ذو أهمية كبيرة في مجتمع هذا الزعيم ، بحيث تتوقف عليـه توقفا أساسيا نظرة المجتمع الى كل شخص ، علوا وانخفاضا بمعنى ان نظرة المجتمع الى الشخص تعظم كلما علا نسبه ، وتنخفض كلما دنا ، وبالتـالي تنطفيء اذا انعـدم نسب الشخص بأن كان دعيا دخيلا على قوم ، وهذه النقطة هي موضع الكسب للقرآن حين يستفيد من وضع اجتماعي لصالح الاسلام ، فيستفيد من اعتداد المجتمع بالنسب ، ولو قد كان هذا الزعيم في مجتمع لا يولى النسب هذه الأهمية ، لما ساق القرآن هذه الصفة رغم انها حقيقية ، ومن ذلك يتبين فارق كبير بين الهجاء وسخرية القرآن في مثل هذا المجال ، فالهجاء حين يرمي شخصا بمثل هذه الصفة لا يهدف الا الى مجرد السب والقذف للحط من شأن المهجو ، ولكن القرآن لا يهدف الى شيء من ذلك ، وانما يهدف الى ازالة هذا الشخص من وقوفه في طريق انتشار الدين ، داعيا الى الاعراض عنه (ولا تطع كل حلاف مهين ..) .

وكان المأمول أن يستفيد الشعراء من هذا السمو الذي يعلمهم القرآن اياه في الهجاء وأن يتأسوا به حينما يلجأون الى الهجاء ، ولكنهم لم يستفيدوا ،

---

(١) أنظر الكشاف للزمخشري في تفسير الآيات السابقة وسيرة ابن هشام ١/٣٨٤ .

ولم يتأسوا ، بل لعلهم ازدادوا اسفافا في الهجاء حين انتقلوا من الحياة العربية الخالصة في الجاهلية ليحتكوا بحياة أمم وشعوب أخرى ، ويختلط الشعراء العرب بالشعراء من غير العرب ، فمن المعروف عند النقاد أن الهجاء في الشعر الجاهلي اعف الهجاء واقربه اعتمادا على الصدق ، وبعدا عن الفحش ، وان العصور المتأخرة هي التي شاع فيها انطلاق ألسنة الشعراء بالصدق وغير الصدق ، وبكريم اللفظ وبذيئه ، اما الجاهليون فكان عصامهم من ذلك نفور العرب من الكذب ، وخوف البارزين منهم خوفا شديدا أن يؤثر عنهم شيء من الكذب ، فيسقطهم في أعين المجتمع ، ويحط من شأنهم سواء أكانوا أحياء أم من أهل القبور .

على ان الشعراء حين لجأوا الى الفحش والاقذاع ، لم يبلغوا بفحشهم واقذاعهم ما بلغته سخرية القرآن من النيل ممن عنتهم ، فكما ان الشعراء باقذاعهم نزلوا عن السمو الذي ينبغي ان يكون عليه الأدب بصفة عامة ، فكذلك نزلوا عن الدرجة التي ينبغي أن يبلغها الهجاء من النيل من العدو ، لأن الاقذاع في حقيقته لا يحط من شأن المهجو ، بقدر ما يحط من شأن الهاجي ، وحين يحط فانه يحط من شأن الاثنين معا ، وبما ان المهجو والهاجي خصمان ، فانه مما يخفف عن المهجو وقع السباب أن يكون خصمه صاحب هذه السباب مشتركا معه في نيلها منه .

وحين نذهب الى المقارنة الموضوعية بين سخرية القرآن والهجاء ، نرى بوضوح ان سخرية القرآن قمة لم يستطع الهجاء ان يساميها أو يدنو منها في بلوغها هدفها ، بل ان معظم سخرية القرآن نماذج فريدة لم يطرقها أحد من الشعراء أو غير الشعراء ، وحتى المعاني التي حاول الشعراء أن يقتبسوها من سخرية القرآن لم يبلغوا فيها درجة ذات قيمة حين تقارن بسخرية القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى في بيان مدى الخوف المتأصل في نفوس المنافقين الى درجة الرعب الشديد الذي يجعلهم يفزعون من كل شيء ، حتى انهم من شدة سيطرة الخوف على نفوسهم يتوهمون كل صوت يسمعونه خطرا محدقا بهم ومتجها اليهم ، « يحسبون كل صيحة عليهم » فقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء في عصور مختلفة ، ومنهم الأخطل الذي يخاطب جريرا بقوله :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم   خيلا تكر عليهم ورجالا (١)

ومضمون البيت وان كان يصور مبالغة في شدة الخوف الذي يبلغ بصاحبه درجة الوهم ، الا انه ينقصه الصدق الفني في التصوير ومراعاة الواقع ، فصورة

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/٤٣٣ يعني انه من شدة الخوف على قومه يظن كل شيء وراء ديارهم عدوا مهاجما لهم .

خيل ورجال مهاجمين لا تتمثل فى كل شىء كما يزعم الشاعر ، فان المهاجمين عادة يكونون جمعا غير قليل ، وصورة رجال كثيرين على خيل فى حالة هجوم مفاجىء ، لا ترد على خيال انسان مهما يبلغ به الخوف أو الوهم الا اذا رأى شيئا مشابها أو قريبا من هذه الصورة ، كأن يرى شجرا بعيدا ، أو قافلة مارة على بعد ، أو أى شىء يقرب من هذا المنظر ، وليس بمعقول ان يرى مثلا جبلا فيظنه رجالا على خيل ، أو يرى شيئا عاديا فيظنه كذلك ، فاطلاق الشاعر فى قوله (كل شىء) افسد ما يريده من البيت ، وجعل السامع لا يحس بصدق التصوير ، وبالتالى لا يحس بتأثر لهذا التصوير ، على ان الشاعر حصر مصدر الخوف فى شىء واحد ، هو الخيل الكارة المهاجمة ، وهو مصدر خوف حقيقى ، يخشاه المهجو وغيره ، ويعذر كل انسان اذا شعر بالقلق أو الخوف من احساسه بأن خيلا قادمة لمهاجمته ، وانما كانت صورة الشاعر تكون أبلغ فى الهجاء لو جعل المهجو يفزع من شىء لا يفزع منه الناس عادة ، أو لا يخافه أقوياء الناس فى المألوف . وكذلك أخذ المتنبى هذا المعنى فقال :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم   اذا رأى غير شىء ظنه رجلا (١)

وقد وقع المتنبى فى القصورين اللذين بديا فى بيت الأخطل ، غير ان المتنبى كان أشد قصورا فكما ان الأخطل جعل الواهم يحسب كل شىء يراه خيلا ورجالا ، كذلك المتنبى بالغ فى هذا ، وزاد فى مبالغته فجعل (غير الشىء) مصدرا للوهم ، وهذا الخيال بعيد عن التصور ، فان السامع يعييه أن يتخيل واهما من الناس مهما يبلغ به الوهم يرى فى العدم وجودا ، وفى غير الشىء شيئا ، ومما يزيد فى النفور من هذه المبالغة ان المتنبى يعبر عن توهم العدم بالرؤية البصرية ، فيقول (اذا رأى غير شىء) وغير الشىء وهو عدم قد يتخيل خيالا ، ولكنه لا يرى رؤية كما يعبر المتنبى ، والقصور الآخر فى بيت المتنبى أنه لم يجعل للخطر أو الخوف الذى يفر منه الهارب مصدرا واضحا ، فالمفروض ان هذا الهارب الذى ضاقت به الأرض يخشى شيئا معينا هو الذى ضيق عليه الأرض وجعله يهرب ، وكان ينبغى على المتنبى أن يشير الى هذا الشىء المعين ولو اشارة ، ولكنه لم يفعل ، وانما عبر عنه بقوله (رجلا) ، وليس مما يستسيغه السامع ان يكون مطلق رجل مصدرا لخوف يضيق الأرض ويدعو الى الهرب ، وانما كان يستساغ لو انه قال شيئا فى معنى (ظنه خطرا) بدل قوله (ظنه رجلا) مع مراعاة القافية .

أما تعبير القرآن الكريم فقد جمع كل مقومات الصدق والاثارة معا ، أما الصدق فلأنه ذكر مصدرا حقيقيا ينبنى عليه الوهم ، وهو الصيحة فى قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) فان الصيحة بما فيها من ازعاج ومفاجأة

---

(١) الانصاف لابن المنير (هامش الكشاف) ٤/٤٣٢ .

مصدر خوف ، وهي وان كانت لا تفزع كل الناس فيكفي انها مصــــدر مألوف للازعاج ، بل ان كونها مصدرا مألوفا للازعاج ولكنها لا تصل الى مجرد الفزع، هذا ن جوانب السخرية التي يحملها التعبير للمنافقين ، واذن فالقرآن جعل أساسا معقولا ومألوفا يبنى عليـه الوهم ، ولم يجعله اطلاقا كمـا أطلقه الأخطل فى (كل شيء) ولا نفيا كما نفاه المتنبي فى (غير شيء) ، ومن جوانب الصدق في تعبير القرآن انه ينطوى على تحليل دقيق وعميق لنفسية المنافقين ، فان مصدر الخوف فى نفوس المنافقين كما سبق ليس الجبن العادى ، وانما هــو استشعار الريبـة ، والاحســاس بأنهم يخفون جريمة في قلوبهم هي النفاق ، وهذا الاحساس يجعلهم دائما في اقصى الخوف واقصى الحذر من أن تكتشف هذه الجريمة فيؤخذون بها ، فكل شيء يشتم منه انه مصدر خوف ، ولو كان مصدرا عاديا لا يفزع غيرهم يفزعهم هم ، فالجانب الأول فى تعبير القرآن مستوفى غاية الوفاء ، وهو اقامة سبب معقول يبنى عليه الوهم فى نفس المتوهم ،

والجانب الثاني أيضا كذلك ، فلم يجعل تعبير القرآن مصدر الخوف خطيرا يبرر الفزع كمـا فعـل الأخطل فى جعله مصــــدر الخوف خيلا مغيرة ، ولم يجعله شيئا عاديا لا يثير خوفا ولا فزعا كما فعل المتنبى فى جعله مصدر الخوف مجرد رجل لم يشر الى انه عدو أو متربص أو شيء من ذلك ، فلم يجعل القرآن مصدر الخوف من هذا ولا ذاك ، وانما جعل أساسه معقولا ، ثم ترك تفصيله أو تحديده للخيال يتصور فيه كيف شاء ، فجعل هذا المصدر عدوا ، والمنافقون من سيطرة الخوف والوهم عليهم يحسبون كل صـيحة عدوا ، أما نوع هذا العدو ، أهو شخص مفاجيء ، أو جماعة مداهمة ، أو جيش مغير ، أو غير ذلك ، هذا ما تركه القرآن مطلقـا لتجد فيـه النفوس مجالا للتخيل ، كشأن القرآن فى كثير من تعبيره ، وأسمى الأدب درجة ما يترك للخيال مجالا ، ويعبرون عن هذا بانفعال السامع ، فان انفعال السامع معناه أن يندمج مع ما يســمع بخياله ومشاعره . فجعل القرآن مصدر الخوف عاديا ومثيرا للتخيل معا ، وقد يكون أكثر ما فى التعبير القرآني من سخرية بالمنافقين لفظ (كل) فى قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) فان الصيحة التى تثير الخوف أو القلق عادة صيحة خاصة معينة ، ولكن المنافقين لشدة سيطرة الخــــوف عليهم لا يميزون بين الصيحات ، بل كل صيحة يظنونها موجهة اليهم ، وخطرا مداهما لهم .

وحيث كان المعنى السابق فى المقارنة بين سخرية القـــرآن والهجــاء موضوعه الخوف من شيء غير موجود ، بل يتوهم توهما ، فهناك معنى آخــر نسوقه أيضـــا كمثل ورد فى سخرية القرآن وتعرض له كثير من الشعراء ، وهو تصوير الخوف الحقيقى ، من حيث ظهور آثار الخوف على الخائف ، من أنواع الفزع والحيرة والارتباك ونحوهن ، فيقول عنترة فى هذا المعنى :

تركت بنى الجهيم لهم دوار　　　اذا تمضى جماعتهم تعود (١)

فقد صور عنترة ما اعترى بنى الجهيم من آثار الدهشة التى حلت بهم فى خوفهم وشعورهم بالنكبة . صور ذلك فى مظهرين ، أحدهما دوار باد عليهم ، والآخر اثر من آثار هذا الدوار ، وهو الارتباك والحيرة التى جعلتهم لا يهتدون فى سيرهم ، ولا يبصرون سبيلهم ، بل يمضون ويعودون وكانهم تائهون .

وهذا شاعر يتحدث عن هذا المعنى من ظهور آثار الخوف والفزع ، ويقدم له المبرد بقوله « وقال رجل من الخوارج يصف خطيبا منهم بالجبن وانه مجيد لولا ان الرعب أذهله :

تحنح زيد وسعل　　　لما راى وقع الأسل
ويل امه اذا ارتجل　　　ثم أطال واحتفل (٢)

فقد رأى هذا الشاعر ان كل ما بدا على المهجو من آثار الرعب هو النحنحة والسعال ، ولئن كان عنترة قد أبرز آثرا يعتبر من الآثار الحقيقية الدالة على سيطرة الذهول على المهجوين ، فان شاعر الخوارج لم يبلغ بشعره هذه الدرجة ، ولم يجعل السامع يحس ان المهجو يعانى رعبا حقا ، ولئن كان تعبيره فى البيت الأول ينبىء عن سخرية واضحة بالخطيب ، الا أنها سخرية لا تفيد ما عناه الشاعر وهو رعب الخطيب من وقع الأسل ، فان نحنحة الخطيب وسعاله لا يلزم ان تكون من الرعب والخوف ، ولا توحى للسامع بذلك ، بل يجوز أن يتنحنح الخطيب ويسعل حين يعتريه العى ، أو يرتج عليه فى الكلام ، بل قد يعترى الخطيب ذلك لمرض أو عجز صحى فيه ، ولو قد قيل هذا البيت فى وصف العى واللعثمة لكان أبلغ واكثر ايحاء للسامع بغرض الشاعر .

وكذلك وصف بعض الشعراء ما عرا خالد بن عبد الله القسرى وهو على المنبر حين علم بخروج المغيرة بن سعيد عليه فى عشرين رجلا بالكوفة ، فتلعثم خالد واضطرب فقال (أطعمونى ماء) ، فقال يحيى بن نوفل فى ذلك معيرا خالدا :

لأعلاج ثمانية وعبد　　　لئيسم الأصل فى عدد يسير
هتفت بكل صوتك أطعمونى　　　شرابا ثم بلت على السرير (٣)

فلم يزد الشاعر فى هجائه وتصويره لما اعترى خالدا من الخوف والاضطراب على مجرد رواية ما قاله خالد بلفظه ، وزاد عليه تعبيرا سوقيا لا يمت الى الشاعرية بصلة ، وهو قوله (ثم بلت على السرير) .

---

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام شرح التبريزى ١/١٦١ .
(٢) الكامل للمبرد ٦/٣٠ .
(٣) المصدر السابق ٦/٣٠ .

وقال شاعر آخر يصف خالدا فى هذا الموقف :

بل المنابر من خوف ومن وهـــــل ... واستطعم الماء لما جـــد فى الهــرب
والحن الناس كل الناس قاطبـــة ... وكان يولع بالتشديق فى الخطب (١)

فلم يزد الشاعر أيضا على أن روى ما حدث بمعناه لا بلفظه ، وزاد أيضا ما زاده الشاعر السابق ، غير أنه كان أكثر تهذيبا للفظه ، فاستبدل بل المنابر بالبول عليها ، وزاد أيضا مقارنة سطحية بين بلاغة خالد وقوة عارضته قبل هذا الحادث ، وما خيم عليه من لحن وعى فى هذا الموقف ، وقد ساق هـــذا المعنى بألفاظ وتعبير عادى لا يحمل طابع التعبير والتصوير الشعرى ·

ولكننا حين ننظر الى تصدير القرآن الكريم نرى فيه شيئا آخر يوحى الى السامع من أول وهلة بصورة حسية تكاد تنطق بالمراد ، وتجعل السامع كأنه مشاهد للصورة يعيش معها بكل خياله ومشاعره ، ويصور القرآن آثار الرعب فى أكثر من صورة ، وبعض ذلك يمكن وصفه بأنه صورة ثابتة ، ولو من حيث الموضع ، وبعضه متحرك الصورة ·

ومن النـــوع الأول وصف القرآن لما يعترى المنافقين من رعب شـــديد تبدو آثاره فى أعينهم فيأخذ القرآن هذه الصورة للعينين وحدهما ، ليبرز فيها كل ما يمكن أن يتخيله الخيال من رعب واستكانة وضعف واستغاثة ، فيقول « فاذا جاء الخـــوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ·· » (٢) فهذه صورة مجسمة توحى للسامع بكل ما يهدف اليه التعبير · ونزيد على ذلك انهـــا تترك لخياله مجـــالا فسيحا ليتصور مدى الرعب الشديد الذى جعل أبصارهم تستجير بشخص الرســـول ، وجعل محاجـــرهم تدور فى أعينهم هذا الدوران ، فيتصور من هذا الرعب ما يشاء ، ويتصور من مشاعرهم وانفعالاتهم التى تجول فى نفوسهم حينئذ ما يشاء ، وذلك بخلاف تصوير بيت عنترة الذى يحصر الخيال ويحده ، لأنه وضح كل الآثار وحصرها فى دوار يجعلهم يعودون حين يمضون ، فالخيال لا يستطيع أن يتجاوز هذا النطاق ، ولم يشر الى نفسياتهم او مشاعرهم ليتخذ منها الخيال سبيله ، وبخلاف تعبيرى الشاعرين اللذين هجيا خالد بن عبد الله ، حيث حصرا آثار رعبـــــه فى بوله على المنبر وأشياء أخرى غير ذات بال ، على أن من أبرز ما يمتاز به تصوير سخرية القرآن فى هذا المجال الصدق الفنى والواقعى ، فان أدق ما يميز الخائف وأبرزه معا حركات عينيه ، وقد يستطيع الخائف أن يتحكم فى كل عضو من أعضائه ، وكل حركة من حركات جســـمه ، بحيث لا يظهر على خـــوفه أحد قط ، ولكن شيئا معينا لا يستطيع مهما تبلغ به قوة الأعصـــاب أن يتحكم فيه وهو حركة عينيه ،

---

(١) المصدر السابق ٢٠/١ ·
(٢) من الآية ١٩ سورة الأحزاب ·

فلابد أن تظهر فيهما انفعالات خوفه ورعبه ، وهذا الصدق في التصوير من أهم ما يؤثر في السامع ويجعله يعيش مع الصورة بمشاعره وانفعاله ، لأنه بمجرد سماعه التعبير يتمثل شيئا حقيقيا واقعيا ، وحتى وان لم يكن يدركه قبل ذلك فان مجرد سماعه اياه يذكره به ويوجهه اليه ، وبهذا يكون القرآن قد وضع قاعدة عامة ثابتة لآثار الخوف الشـديد الذي يعتري الخائف ، ولابد أن تنطبق على كل منافق ، لأن القرآن من شأنه أنه حتى اذا كان حديثه في مناسـبة شخص أو جماعة معينة ، فان مضمون هذا الحديث يكون عاما ينطبق عليهم وعلى كل من يشاركهم في موضوع الحديث ، ومن أبلغ التعبير وأروع التصوير أن يجعلنا القرآن من مجرد نظرة الى عيني شخص نستشعر عديدا من المعـاني والمشاعر ، وتجعلنا هذه النظرة في غنى عن السؤال عن شيء من حال صاحب هاتين العينين ، لأن النظـرة جعلتنا نرى أعماق هذا الشخص وتنفـذ الى دخلة نفسه فنرى كل ما فيها من آثار اضطراب محجريهما ويسبق تصوير العينين ويعقبه تعبيران يكملان الصورة بحيث تبرز أقصى ما يتصور من شخص سيطر عليه الرعب واليأس معا ، فالتعبير الأول « رأيتهم ينظرون اليك » يفيد مدى شعورهم بالهلع العظيم الذي جعلهم يتلمسون مغيثا ومجيرا يحميهم من مصـدر الخوف الذي يداهمهم ، ولم يكن هناك حينئذ من يستطيع أن يتقدمهم غـير الرسول صـلى الله عليه وسلم فركزوا أبصارهم عليه مستجيرين مستغيثين . والتعبير الآخر وهو (كالذي يغشى عليه من الموت) يفيد احساسهم باليأس حتى من انقاذ الرسول لهم ، لأنهم يعلمون أن القتال الذي يهلعون منه واجب على كل مسلم أن يسـاهم فيه ، ولا عذر في التخلف عنه لقادر ، فلن يعفيهم الرسول ، ولن يجيرهم من أداء واجب ، وحينئذ يتملكهم اليأس ، ويبـدو عليهم الاستسلام ، كاستسلام المحتضر الذي يعاني أشد الآلام في سكرات الموت والفزع منه ، ولكنه لا يجد مغيثا ولا منقذا ، فلا مفـر من الاستكانة والتسليم ، ومن جوانب الصدق الفني والواقعي أن الصورة كلها مبنية على موقف خـوف حقيقي مؤكد الوقوع ، فأما الخوف فمذكور بلفظـه ، وأما تأكد وقوعه فيستفاد من لفظين ، من (اذا) التي تفيد التحقق ، ومن (جاء) بلفظ الماضي الواقع فعلا (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت) ، فمصدر الخوف قائم فعلا ، وليس مجرد الخوف هو موضـوع السخرية بالمنافقين ، وانما موضـوعه درجة الخوف الذي بلغ بهم حد الرعب المصـور في أعينهم ، والتماسـهم الهروب بتعلق أبصارهم بشخص الرسول ، ثم سيطرة اليأس والاستكانة عليهم ، وهذا كله يمتازون به عن غيرهم ، فالمفروض أن المسلمين جميعا مشتركون في التعرض لهـذا الموقف والمساهمة فيه ، ولكن المنافقين وحدهم هم الذين جزعوا هذا الجزع العجيب الذي يدعو الى السخرية والتهكم .

ومن الصور التي يمكن وصفها بأنها متحركة في تصوير القرآن الكريم

لموقف الخوف والآثار التى تعترى الخائف الشديد الفزع ، قوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) (١) ، وحقيقة الموقف ليست خوفا ، وانما هو اعراض عن دعوة الله اياهم الى الايمان ، وكان ينبغى أن يستجيبوا لمن يدعوهم الى الخير ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل ولم يكتفوا بمجرد رفض الدعوة ، وانما نفروا منها نفورا شديدا ، وكان هذه الدعوة خطر شـــديد فاجأهم فانتابهـم الفزع والرعب فولوا هاربين بأقصى ما يملكون من سرعة ، كما تذعـر حمر الوحش فتنطلق فى كل وجـه حين يفجؤها أســـد أو جماعة من الصائدين ، فالموقف اذن فى أصله لم يكن خوفا ، ولكنه تحول فى السخرية بهم وتصوير شدة نفورهم من الاسلام الى موقف هلع وفزع ، وهذه الصورة مع بساطتها وكونها من واقع البيئة المشاهد المألوف ، الا أنها تلقى فى نفس السامع تصويرا عميقا واضحا لأقصى حالات الفزع والهلع حين يتصور حمرا وحشية مذعورة منطلقة فى غير نظـام الى كل وجه هربا من خطر أحست به ، ومثل هـــذا التصوير لم يبلغه ولم يدن منه شىء من الأمثلة التى تعرضت لتصوير آثار الخوف فى الهجاء .

وكذلك حين نستعرض بعض الأمثلة للمقارنة الموضوعية بين الهجـــاء وسخرية القرآن نرى الفارق الكبير فى هذه المقارنة ، فمثلا يصور امرؤ القيس معاناة الموت البطىء الذى يكون فيه الشخص ، لا هو حى مستمتع بالحياة ، ولا هو ميت مستريح بالموت ، ولكنه يشعر بالموت دائما ، ويحس انه يموت ، ومع ذلك لا نهاية لهذا الموت ، فكأن روحه لا تخرج دفعة واحدة ، وانما تتساقط شيئا فشيئا تساقطا بطيئا شديد البطء ، وفى هذا غاية الايلام لهذا الشخص الذى لا هو حى ولا هو ميت ، فيقول :

وما خفت تبريح الحيـــاة كما ارى ... تضيق ذراعى ان اقوم فالبسا (٢)
فلو انهـــا نفس تموت جميعـــة ... ولكنها نفس تساقط انفســـا

والقرآن الكريم يعبر عن هذا المعنى بأكثر من أسلوب ، ومن ذلك قوله تعالى عن حال الكافرين فى عذاب جهنم « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) (٣) ، فهم فى هذه الحال البالغـــة الايلام ، التى يتمنون فيها الموت الكامل فلا يجدونه ، ويتمنون فيها الخروج من هذا العذاب او حتى تخفيفه فلا يجدونه أيضا ، وانما يظلون لا هم أحياء كما يريدون ، ولا هم موتى كما يطلبون ، وكذلك قوله تعالى عن هذه الحال

---

(١) الآيات ٤٩ ــ ٥١ سورة المدثر .
(٢) ديوان امرىء القيس ص ١٠٧ ومعنى البيت الأول لا يخيفنى المرض او الهرم ، ومعنى البيت الثانى يخيفنى أن اموت موتا بطيئا .
(٣) من الآية ٣٦ سورة فاطر .

« ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » . فبيت امرىء القيس لم يزد على تمنى الموتة الواحدة ، ويقابل ذلك توقعه أو خوفه من الموت البطيء ، ولم يتحدث عن جوهر المعنى كله ، وهو ما يصاحب الموت البطيء من آلام ، وقد يفهم ذلك ضمنا . ولكن التعبير الأدبي لا يقتصر على المفهوم ، وانما ينبغى أن يجعل للمعنى أساسا تتذوقه النفس ويجول معه الخيال ، وخاصة اذا كان هذا المعنى صلبا وأساسا فى الغرض المسوق من أجله الكلام ، والآلام والمتاعب التى تصاحب الموت البطيء هى الغرض الرئيسى من الكلام كله ، فهو لا يخشى الموت لذاته ، بدليل انه يتمنى الموتة الواحدة ، وانما يخشى آلام الموت المتفرق ، وهذا الغرض المسوق من أجله الكلام كله لم يتعرض له الحديث فى بيتى امرىء القيس ولكن القرآن الكريم يجعل هذا الغرض المسوق من أجله الكلام محورا أساسيا يدور حوله الحديث ، ففى الآية الأولى يتضح هذا المعنى فى قوله تعالى « ولا يخفف عنهم من عذابها » حيث كان هذا مقابلا للموت الكامل ، فهم لا يموتون موتا كاملا ، وانما يعانون عذابا يعتبر موتا متواصلا متجددا ، ويدل على شدة هذا العذاب نفى الخفة عنه « ولا يخفف عنهم » ، وأما فى الآية الثانية فيوضح هذا المعنى قوله تعالى « ويأتيه الموت من كل مكان » فحيث كان الموت أقصى ما تخافه النفوس عادة وتخشاه ، فقد جعل هنا رمزا للعذاب الشديد الذى يتدفق على أهل جهنم من كل وجه ، والآلام التى تنصب عليهم من كل مكان ، وروعة التعبير فى انه مع كون الموت يأتيه من كل مكان الا انه غير ميت . ولست أقصد بمثال امرىء القيس الهجاء بالمعنى العرفى له ، وانما أقصد مدلوله النفسى العام ، وهو روح السخط التى ينبع منها الهجاء ، ولاشك ان امرأ القيس فى هذا المعنى يصور سخطا شديدا فى نظرته الى الحياة ، وتشاؤما من مستقبل الأيام .

ومن هجاء الشعراء قول النميرى يهجو بنى كليب مصورا تفاهة شأنهم ، وانهم لا يستحقون الهجاء ، بل لا يستحقون مجرد تبادل الخصومة والعداء :

ولولا أن يقال هجا نميرا ولم نسمع لشاعرها جوابا
رغبنا عن هجاء بنى كليب وكيف يشاتم الناس الكلابا ؟ (١)

ويعنى بالشطر الأول من البيت الأول ردا على جرير الكلبى ، وقد ركز هجاءه لبنى كليب فى قوله « وكيف يشاتم الناس الكلابا ؟ » معبرا عن تفاهة أمرهم ، محاولا سلخهم من مجرد الآدمية ، مما لا يستحقون معه مجرد تبادل العداوة والهجاء .

والقرآن الكريم يصور هذا المعنى أيضا بأكثر من أسلوب ، ومن ذلك قوله تعالى « مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن الكافرين الذين

---

(١) الكامل للمبرد ٣٧٧/١ ، ٣٧٨ .

لا يرجى منهم ايمان قط مهما حاول النبي وأجهد نفسه في هدايتهم « فانك لا تسمع الموتى ٠٠ » (١) ، ويقول سبحانه أيضا « وما أنت بمسمع من في القبور ٠٠ » ٠

فالنميري سلخ بني كليب من الآدمية وجعلهم كلابا ، وهذا التعبير وان كان يشفي غيظ الشاعر وحقده على بني كليب ، الا أنه لا يشفي نفس السامع ، لأن نفس السامع لا تحمل مرضا ولا حقدا على بني كليب ، وهي ان لم تضمر لهم حبا فليس هناك ما يدعوها لأن تضمر لهم بغضا ، فضلا عن أن تراهم كلابا ، ومن هنا لا يعتبر مثل كلام النميري هجاء بالمعنى الادبي ، لأن الهجاء بالمعنى الأدبي الذي يراد منه اشراك السامع مع الشاعر في التهوين من شأن المهجو ، انما يكون هجاء اذا اعتمد على صدق المعنى وصدق التصوير ، فأما صدق المعنى فان يذكر الشاعر سببا وموضوعا للهجاء يقتنع به السامع ، وأما صدق التصوير فان يكون حكم الشاعر على المهجو صادقا مقبولا لدى السامع ، ومتناسبا للسبب الذي دعاه الى الهجاء ، وقد تباح للشاعر حينئذ المبالغة والتصوير الشاعري لحكمه ، ولكن المبالغة لابد لقبولها ان تكون مبنية على أساس مقبول ، كقول المتنبي يهجو كافورا الاخشيدي ٠

لا تشترى العبد الا والعصا معه   ان العبيد لأنجاس مناكيد

فمما لاشك فيه ان كافورا وهو ملك عظيم الشأن والقوة لا يضرب بالعصا أو غيرها ، ولا تستطاع ولا تتصور ملازمة العصا اياه لضربه بها كما يطلب المتنبي ، فهذه مبالغة وتصوير شاعري ، ولكنها مبالغة مقبولة في خيال السامع ، لأنها مبنية على أساس مقبول ، وهو كون كافور أصله عبد رقيق ، والعبد من شأنه أن يضرب بالعصا ٠ ولكن النميري لم يجعل أساسا لتشبيهه بني كليب بالكلاب ، ولم يذكر سببا مقبولا لهجائه ، على أن ذلك كله فضلا عن انه غير مقبول من النميري لدى السامع ، فان مجرد تشبيهه المهجوين بالكلاب أمر تنفر منه نفس السامع ، لا لأنها لا تضمر لبني كليب من السخط ما يضمره النميري فحسب ، ولكن لأن التشبيه لا يقوم على أساس ، ولا يعلم السامع صفة قط يشترك فيها بنو كليب مع الكلاب ، ولم يذكر الشاعر هذه الشركة أو الصفة المشتركة ، اللهم الا اذا كان الشاعر قد أخذ هذا التشبيه من اسمهم وهو (بنو كليب) تصغير كلب ، وليس هذا بالطبع مبررا قط لدى السامع ، فان اسم كليب شائع في المجتمع العربي ، ويحمله كثير من سادة العرب دون أن يكون فيه غضاضة عليهم ، ومن هذا كله لا يشعر ازاء هذا الهجاء الا بقبحه والنفور منه ، وقد يسيء هذا الهجاء الى الشاعر أكثر مما يسيء الى المهجو به ٠

ولكن القرآن في الآيتين السابقتين يذكر سبب السخرية ، وهو أغلاق

---

(١) من الآية ٥٢ سورة الروم ٠

الكافرين المعتبين عقولهم وكل حواسهم عن شخص يدعوهم الى الحق والخير ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فالاعراض عن الخير بهذه الصورة داع الى السب والسخرية ، ثم تأتى السخرية فلا تخرجهم من آدميتهم ولو من الناحية الجسمية. ولا تخلق لهم تشبيها غريبا أو خارجا عن حالهم ، وانما تبنى التشبيه على حالهم نفسه ، فهم حين يغلقون عقولهم ، ويغلقون كل حواسهم المدركة ، معرضين عن الداعى الى الحق يصبحون كأنهم موتى ، والموتى والأحياء جميعا آدميون ، والفارق بينهم هو العقول والحواس لدى الأحياء ، وانعدامها لدى الأموات ، فكان تعبير القرآن وتشبيهه حقيقة ، وجانب السخرية هو تجاهل ما بقى من المشركين بعد عقولهم وحواسهم المدركة ، من أجسام وحركة وأكل وكلام وغير ذلك ، فهذا كله تتجاهله سخرية القرآن ، وكأنه لا وجود له ، وبذلك يصبحون موتى ، ويزيد هذا المعنى تأكيدا وصفهم بأنهم فى القبور ، وهذا المعنى ولاشك أبلغ ما ينتظر فى التعبير عن تفاهة انسان وعدم ادراكه ، ولاشك أيضا ان السامع ينتقل معه بخياله ، ورغم شدة المبالغة التى نقلتهم من أحياء متحركين مشاهدين الى موتى فى صميم القبور ، الا ان المبالغة غير غريبة على ذهن السامع لأنها مبنية على أساس معقول ومقبول وهو ان تعطيل العقل والحواس تتوارد معه فى الذهن صورة الميت .

فالقرآن لم ينقلهم من جنس الى جنس كما فى بيت النميرى ، مما لا تجد له نفس السامع مبررا قط ، وانما أبقاهم فى جنس الآدمية ، ثم نقلهم من حال الى حال ، وهذا أمر مستساغ فى النفوس ، لأنه واقع فى حياتهم وخاصة اذا ذكر السبب الذى دعا الى نقلهم من حال الى حال كما فعل القرآن الكريم .

ومن هذه الأمثلة نحس الدور الكبير العميق الذى تؤديه السخرية للدفاع عن الاسلام ، ضد الحملة العاتية المسعورة التى واجهه بها أعداؤه ، والتى حشدوا فيها كل جهودهم للنيل منه ، ولتحطيم معنويات أتباعه ، ومن هذه الحملة الهجاء الذى حشده أعداء المسلمين ضد الاسلام ، وضد شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضد المسلمين ، مما جعل الرسول يلتمس الشعراء ويحفزهم للذود عن أعراض المسلمين بردهم هجاء الأعداء ، ولكن سخرية القرآن محقت كل هجاء ، فقد كان كل تعبير ساخر فى القرآن ، كافيا لأن يخبى كل هجاء ، ويرد سهم كل شاعر من الأعداء الى نحره ونحر حزبه .

ومع القول بأن الفارق بين القرآن والهجاء كبير الى الحد الذى لا تتضح منه المقارنة فان من أهم جوانب هذا الفارق الأثر النفسى ، فان الهجاء لا يترتب عليه عادة من الناحية النفسية غير التهوين من شأن المهجو ، وأقصى ما ينتظر منه هو أن يتحقق هذا الشعور لدى المهجو ، فيستخزى ويشعر بالهوان ، ولدى

الهاجى ومن يمثلهم حين يشعرون بانهم آذوا المهجوين ونالوا منهم ، أما السخرية فانها تحقق وخاصة فى الصراعات الجماعيـــة معنى ذا أهميـــة كبيرة هو شعور الساخر ومن يمثلهم بالتعالى والتفوق والانتصار على الجانب المضـــاد لهم والذى وجهت اليه السخرية ، حيث يجمع علماء النفس على ان هذا الشعور من أبرز آثار السخرية ، ومن أهمها أيضا فى تثبيت نفوس الجماعة ، والرفع من معنوياتها كما سبق فى الفصل الأول .

الشعبية في سخرية القرآن

« سنفرغ لكم ايها الثقلان »

والمقصود من الشعبية ان من جوانب اعجاز القرآن الكريم تنزل اسلوبه أحيانا الى معان وتعبيرات دارجة يتداولها عامة الناس فيما بينهم ، ويستخدمون مضمونها أو أسلوبها في حياتهم العادية ، واذا القرآن يوردها في تعبيره ، وفي كثير من آياته .

وقد يبدو من ظاهر هذا التمهيد ان العبارات المتداولة ضعيفة التاثير ، ولو من الناحية الأدبية التي ينتظر منها في ظاهر الأمر أيضا ان تاتي بجديد يثير انفعال السامع ويهز مشاعره ، ويطرق خياله ، أما العبارات المتداولة فان تداولها نفسه يفقدها الجدة والتاثير ، ولكن الواقع غير ذلك ، فحتى بالنسبة لغير القرآن يمكن القول بانه مع كل ما قرره علماء البلاغة في بحوث التشبيه والكناية والمجاز بانواعه ، من تفضيلها على أسلوب الحقيقة ، مع كل ذلك فان بعض أسلوب الحقيقة يبلغ من التاثير في النفس ما لا يبلغه قط نوع من هذه الأساليب البلاغية ، فان الواقع نفسه ذو سلطان على النفس حيث يشدها اليه بالفها له ، وحيث يسيطر على مشاعرها بقوة وضوحه فيها ، وكل ما تتطلبه الحقيقة لبلوغها هذه الدرجة مقدرة الأديب على صوغها وعلى اختيار مناسبتها ، فاذا أحسن الأديب ذلك ، فانه من الصدق حينئذ أن يقال ان بعض الحقيقة قد يبلغ من التاثير ما لا يبلغه أسلوب آخر ، ومن أمثلة ذلك في الشعر ، هذه الصورة الواقعية التي لا تحمل شيئا من تشبيه أو مجاز أو كناية ، وانما تسرد منظرا بسيطا مالوفا كل الالف ، لصورة شخص رحل عنه الأحبة ، فمع كل ما يحمله قلبه ، وما تجيش به نفسه ، لم يملك الا أن يجلس بين أطلال الديار بعد رحيلهم مطرقا الى الأرض يخط بكفه خطوطا في التراب ثم يمحوها ثم يعيدها وهكذا ، وليس حوله من أحد الا غربان تنعق في ديار مهجورة من أهلها فيقول :

عشية مــــال حيــــلة غير انني يلقط الحصى والخط في الترب مولع
اخط وامحو الخط ثم اعيـــــده بكفي والغربان في الدار وقـــع

فلم يذكر الشاعر غير صورة المنظر الذى تراه العين ، والذى يألفه الناس من أى شخص حزين مهموم ، ولم يحدثنا قط عما فى نفسه ، ولا عن شىء من مشاعره وانفعالاته ، ولم يلجأ قط الى شىء من أساليب البلاغة المشار اليها ، ومع ذلك نشعر بأن هذه الصورة على بساطتها لها فى النفس انطباع وتأثير قد لا يستطيع أسلوب آخر أن يؤديه ، وذلك لأن الواقع اذا أحسن التعبير عنه ، له سلطان على النفس بالالف ، وبقوة وضوحه فيها ٠

واذا كان الواقع له فى النفس هذا الاثر حين يصدر من بشر ، فان أثره حين نعلم انه صادر من الله سبحانه يكون أشد وقعا فى النفس ، وأعمق أثرا فيها ، لأن الواقع انما هو واقع بالنسبة لحياة الناس فيما بينهم ، أما أن يتحدث الله سبحانه بهذا الواقع وخاصة حين ينسبه الى نفســـه ، فهذا شىء آخر يثير فى النفس مشـــاعر غير عادية ، ويجعل لهذا الواقع حينئذ وقعا خاصا فى النفس قد لا تبرزه الكلمات ، ولا تعبر عنه الألفاظ ٠

واذا أضيف هذا كله الى الســـخرية ، بمعنى انه اذا صيغت الســـخرية بأسلوب الواقع وصورته ، وكانت مع ذلك من كلام الله ، فان السخرية نفسها لها وقع خاص فى النفس ، والواقع من حيث هو له وقع خاص ، والشعور بأن هذا كلام الله يجعل له وقعا خاصا ، وكل ذلك حين يجتمع يبلغ بالسخرية أقصى ما يراد لها ، وما ينتظر منها من تأثير ٠

والقرآن يهدف دائما الى الوصول الى القلوب من أقصر طريق ، وبأقوى طاقة ، حتى يجذبها الى الاحساس بالدين ، وتذوق الايمان ، ومن هذه الطرق القصيرة أن يخاطب الناس أحيانا بأسلوب ومعانى متداولة بينهم حتى لا تحتاج الى كد فكر فى تذوقها ، وحتى يتاح لكل مستويات العقول والمدارك أن تتذوقها وتحس بمدلولها وهدفها ، والعلماء والمفسرون يدركون لجوء القرآن الى هذا الطريق الشعبى المتداول بين سواد الناس ، ومن ذلك ما يقرره الامام الرازى فى تفسيره لقوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ٠٠ » (١) حيث يستشهد فى تفسيره بالكلام المتداول بين عامة الناس فيقول (٠٠ كما يقول الرجل لصاحبه أريد أن تختم على ما يقوله فلان أى تصدقه وتشهد بأنه حق ٠٠) (٢) ، وكذلك يستأنس الرمانى بكلام العامة وذوقهم فى تفسيره لقوله تعالى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » حيث يقول (والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ولكن هذا

---

(١) الآية ٧ سورة البقرة ٠
(٢) تفسير الامام الرازى ١٨٣/١ ٠

أبلغ فى الوعيـد وحقيقته ستعمد الا أنه لما كان الذى يعمـد الى شىء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ فى الغالب مما يجسرى به التعارف دللنا بذلك على المبالغة من الجهة التى هى أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ليقع الزجر بالمبالغة التى هى اعرف عنـد العـامة والخاصة موقع الحكمة » (١) ، فهو يرى أن كون هذا الاسلوب أعرف من غيره عند العامة وغيرهم وأكثر شيوعا من أسباب ايثار القرآن له ، وكذلك يستشهد الامام محمد عبده بكلام العامة وعرفهم فى تفسيره لقوله تعالى (قتل الانسان ما أكفره) حيث يقول (دعاء على الانسان بأشنع دعواتهم على ما هو المعروف فى لسانهم) (٢) ، وكثير من المفسرين والباحثين يتحدثون عن هذا المعنى فى القرآن الكريم فى كثير من مواضعه وآياته (٣) .

ويلاحظ فى هذا الجانب الشعبى من أسلوب القرآن الكريم انه يكاد يمثل الحياة العربية تمثيلا كاملا بما فيها من وسائل العيش ، ومناهج الحيـاة والتعامل ، وبما فيها من عادات وتقاليد ، والقرآن بطبيعة الحال لا يهـدف الى تصوير الحياة العربية أو غيرها لذات ذلك ، وانما ليتخذ منها وسيلة فى تقريب دعوته الى أذهان العامة ، والوصول الى نفوسهم وعواطفهم وعقولهم من أقرب طريق ، وهو طريق الحياة المألوفة لهم ، والتى يتصورونها تصورا كاملا بمجرد الاشارة اليها والتلميح بها ، وقد لاحظ بعض الباحثين هذا الجانب من القرآن الكريم حيث يقول « ان الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن لا فى الأدب الجاهلى » (٤) ، فالأدب الجاهلى النابع من البيئة وحياتها لم يستطع ان يصور الحياة العربية مع ان هذا شأن الأدب والمنتظر منه فى كل بيئة ، ولكن القرآن صور هذه الحياة تصويرا يكاد يكون كاملا وافيا ، مع ان هذا ليس غرضـا ولا غاية للقرآن ، وانما هو وسيلة للوصول الى النفوس من الجانب الذى تألفه ويسهل عليها تذوقه وادراكه والتأثر به ، ومن أمثلة ذلك ان القرآن فى تعريفه عامة المشركين بذات الله سبحانه ، قد يبين لهم قـدرة الله وعظمته فى خلقه السموات والأرض وما بينهما ، وقد يفصل لهم ذلك ، ويسوقه فى أغلب الأحيان بالمنطق والدعوة الى الفكر ، ولكنه مع ذلك يتنزل أحيـانا ليخاطبهم بعاداتهم وتقاليدهم التى يقدسونها وتمتلىء نفوسهم اكبارا وتقديرا لها ، فمما يملأ نفوسهم اكبارا واعجابا هؤلاء النفر من بعض السـادة الذين بلغوا من القوة حدا يجعلهم يجيرون شخصا او جماعة فلا نستطيع يد أن تمتد اليهم أو لسان ان يمسهم ، ويبلغون أيضا من القوة حدا يجعل الناس يخشون أن يجيروا أحدا

---

(١) النكت فى اعجـاز القرآن للرمانى (مجموعة ثلاث رسـائل فى الاعجاز) ص ٧٦ .
(٢) تفسير جزء عم للامام محمد عبده ص ١٧ .
(٣) انظر للمثال من هدى القرآن رقم ١ محمد عبد الرحمن البجديل ص ٥٣ .
(٤) فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين ص ٣٣٢ .

منهم لأنهم لا يملكون حماية أحد من قوة هؤلاء الاقوياء ، فالجوار عادة عربية مألوفة ، وهو أن يقول شخص فلان أو بنو فلان في جوارى ، فيصبح المجارون جزءا من حمى المجير وعرضه ، ومن يتعرض لهم فانما يتعرض لمن أجارهم ، وكون الشخص أو القبيلة من القوة بحيث لا يستطيع المجتمع أن يجير عليهم أحدا أمر غير غريب فى الحياة العربية أيضا رغم قلة حالاته وندرتها ، وهذه الظاهرة أو العادة يستفيد بها القرآن فى دعوة عامة المجتمع الى الدين وفى تعريفهم بذات الله ، فيقول القرآن عن ذات الله سبحانه (.. يجير ولا يجار عليه) ، وهذا المعنى فى صورته غير حقيقى ، فليس المقصود ان الله يجير كما يجير الناس فى عرفهم ، ولكن الهدف التماس كل الوسائل ، وكل السبل المنطقية والاجتماعية لتوصيل الدين الى نفوسهم .

ومثل ذلك قوله تعالى « وهو يطعم ولا يطعم » (١) ، فليس المعنى بصورته أيضا مقصودا ، فان الله سبحانه يرزق ولا يطعم كما يطعم الناس بعضهم بعضا وكذلك من البدهى أن أحدا لا يطعم الله سبحانه ، وانما المقصود الواضح من مثل هذه المعانى ان القرآن يحاول بكل الأساليب ان يخاطب كل العقول على اختلاف مستوياتها ، فأصحاب العقول النيرة يمكن أن يرتفعوا بتفكيرهم الى المنطق العقلى ، والجدل الفكرى فيخاطبهم القرآن به ، ومن هم دون ذلك من الذين يفهمون بالتوضيح يوضح لهم القرآن ويفصل ما يريد توضيحه ، ولكن بعضا غير قليل من عامة الناس ودهمائهم قد لا يصلون الى هذا المستوى او الى ذاك ، وهؤلاء بحكم وضعهم الاجتماعى تسيطر عليهم عادة أفكار معينة يغلب عليها طابع التشبث الحرفى الشديد بالعادات والتقاليد ، والانسياق الأعمى وراء سادتهم وزعمائهم ، فيخاطبهم القرآن أيضا من الزاوية التى تسيطر على عقولهم ، فاذا كانوا لا يستطيعون أن يرتفعوا بتفكيرهم لادراك قدرة الله وعظمته فى خلق كل شىء ، فلا أقل من أن يدركوا حياتهم وطابعها الذى يسيطر على عقولهم ، ومنها أولئك الزعماء الذين يملكون عليهم عقولهم وتفكيرهم ومشاعرهم فيشير لهم القرآن الى أن الله سبحانه أعظم من أولئك الزعماء الذين يتيهون كبرا واختيالا ويملأون عليهم نفوسهم ، فالله سبحانه أعظم من هؤلاء الزعماء ، لأنه يجير ولا يملك أحد أن يجير عليه ، ولأنه يطعم ولا يحتاج الى من يطعمه ، ولغير ذلك مما كان به سبحانه أعظم من كل زعيم ، وفوق كل سيد ، وهكذا يخاطب القرآن الناس على قدر عقولهم ، وعلى قدر اختلافها وتفاوتها .

وليس معنى ذلك ان كل ما كان فيه الطابع الشعبى من أسلوب القرآن لا يخاطب الا دهماء الناس أو سذج التفكير أو نحو ذلك ، بل على العكس من ذلك يمكن أن يقال ان هذا اللون فى أسلوب القرآن من اروع أساليب القرآن وأمثلها

---

(١) من الآية ١٤ سورة الأنعام .

للنفوس على اختلاف مستوياتها روعة وتأثيرا وانجذابا ، فان هذا اللون يحمل أكثر من وجه ، منها هذا الوجه السطحى الظاهر الذى يبدو بسيطا مؤثرا حتى فى أقل النفوس تذوقا وأدناها معرفة ، ومنها ما هو أعمق من ذلك تحسه العقول المدركة ، والنفوس العميقة فتجد فيه مفارقة كبيرة ، وطرافة أخاذة حين ترى الشىء البسيط الدارج المألوف منسوبا الى الله سبحانه ، وكأنه يتكلم بلغة البشر ، وينسب الى نفسه ما يتخاطب به الناس بعضهم الى بعض أو يتعاملون به ويتعودونه ، مما نحس فى بعضه نغمة السخرية ، ولهجة التهكم المتعالى المترفع من جانب الله جل جلاله ، ففى المثالين السابقين مثلا يمكن أن نتصور ان بعض العقول تبلغ من الصغر بحيث تكتفى بادراك ان الله سبحانه يبلغ من العظمة والجلال والقوة بحيث يملك أن يجير كل أحد وكل شىء ، ولا يملك أحد أن يجير عليه ، وكذلك يبلغ من الغنى والكرم بحيث يطعم كل حى ولا يحتاج الى طعام من أحد ، وهو بهذا أقوى من كل الأقوياء ، وأغنى من كل الأغنياء والكرماء ، وهو اذن أعلى شأنا من كل السادة والزعماء ، ومن الآلهة والأصنام ، ولكن العقول المدركة لا تكتفى بهذا القدر من الادراك فى الآيتين ، بل قد ترى هذا الادراك أيسر ما فيهما من مدلول ، فان هذا المعنى السطحى من البداهة بالنسبة للعقول المفكرة بحيث لا تقف عنده ، وانما ترى بعده مدلولا أعمق ، أدناه هذه المفارقة التى تحمل شيئا من سخرية بالذين يقارنون بين الله سبحانه وشىء آخر مهما يكن هذا الشىء ، وبالذين يشركون معه شيئا آخر مهما يكن هذا الشىء . وهذا اللون الذى يبدو فيه الطابع الشعبى نجده فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ويتمثل فى أوجه كثيرة يغلب عليها اختيار القرآن أساليب يتخاطب بها الناس عادة فيصوغ فيها المعنى الذى يريد سوقه .

ويعنى هذا الحديث من هذا اللون ما فيه روح السخرية ، ومن الحق ان يقال ان الاحساس بالسخرية فى أى كلام أو أسلوب ، ليس فى درجة واحدة لدى الناس ، كما ان السخرية نفسها ليست فى كثير من الأحيان مجسمة أو محددة فى الكلام ، وانما يرجع تذوقها والاحساس بها الى الذوق والحس ، والناس بطبيعة الحال متفاوتون فى تذوق الأساليب ، وفى تذوق الفكاهة والسخرية التى هى نوع من الفكاهة ، وعلماء النفس يجمعون على هذه الحقيقة التى تتضمن تفاوت الناس فى الاحساس بالفكاهة عامة ، والتى تصرح بان الاحساس بالفكاهة من مقومات الشخصية المتكاملة حيث يقولون « اجتمعت كلمة الباحثين على ان الحس الفكاهى سمة عامة قيمة من سمات الشخصية » (١) بل لا يجعلون الاحساس بالفكاهة أو القدرة عليها مجرد احساس وذوق ، وانما هو مرتبط بالادراك العقلى حيث يؤكدون أن جانبا مهما من الفكاهة يوصف

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٢٠٠ .

بانه « عملية عقلية تقترن بالكثير من مظاهر النشاط الذهني كالفطنة وسرعة البديهة والسخرية والتهكم والقدرة على التلميح والبراعة في الرد .. » (١) .

ومن هذا القبيل ما في هذا البحث كله من أمثلة للسخرية ، وما في هذا الفصل خاصة ، فليس غريبا ألا يحس بعض الناس في بعض هذه الأمثلة سخرية ولا ما هو قريب من السخرية ، لأنه ليس غريبا أن يختلف الناس ويتفاوتوا في الاحساس بالسخرية ، بل ان من طبيعتهم هذا الاختلاف وهذا التفاوت كما يؤكد علماء النفس .

ونعود الى القول بأن هذا اللون في القرآن الكريم مع تمدد مدلوله يغلب عليه اختيار أساليب التخاطب الدارج وخاصة في مواقف معينة ليصوغ فيها المعنى الذى يهدف الى تقريره وتوصيله الى النفوس ، ومن أنواع المدلول في هذا اللون ما يتعلق بالدعوة الى الايمان ، وصوغ المناقشة والمحاجة فيه في هذا اللون من أسلوب القرآن .

وفي هذا المقام يسوق القرآن نماذج من سخرية أعدائه ، ومن ذلك سخريتهم بالبعث ، منكرين أن تكون للميت حياة أخرى ، فيقول قائلهم ما نقله عنهم القرآن في قوله « فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم انى كان لى قرين ، يقول أانك لمن المصدقين ، أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمدينون ؟ » (٢) فالقرين بهذا الأسلوب يسخر من قرينه في تصديقه بالبعث ، ولو كان يقصد مجرد الانكار عليه ، أو نهيه عن التصديق بالآخرة ، لقال له لا تصدق هذا . ولكنه يتهكم به تهكما شديدا واضحا في الاستفهام الذى تكرر في قوله (أانك لمن المصدقين) وقوله (أانا لمدينون) ، وهذا الأسلوب مما يتداوله الناس فيما بينهم ، حين ينكر بعضهم على بعض شيئا انكارا شديدا ساخرا او متعجبا ، فيقول شخص لآخر مثلا (أأنت تصدق هذا ؟) .

ويرد القرآن الكريم على أسلوبهم في انكار البعث بأسلوب مثله ، ومن ذلك قوله تعالى « أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » (٣) والعى هو العجز والتخبط ، واللبس هو التشابه واختلاط الأمور بعضها ببعض والمعنى اننا لم نعجز عن خلق الناس بادىء ذى بدء ، فأولى ألا نعجز عن بعثهم بعد الموت ، والكافرون لا ينكرون قدرة الله وانشاءه الخلق الأول ، ومع ذلك يلتبس عليهم الأمر في اعادة الخلق بالبعث ، ولكن اختيار القرآن للفظ العى وادخال الاستفهام الانكارى عليه مما يتداوله الناس في تخاطبهم ، حين يريد شخص أن يحمل على آخر أقصى اللوم والعتاب في موضوع مشابه لموضوع

---

(١) المصدر السابق ١٨١ ، ١٨٢ .
(٢) الآيات ٥٠ — ٥٣ سورة الصافات .
(٣) الآية ١٥ سورة ق .

الآية فى الانكار على ظن المخاطب بالمتكلم ظنا معينا ، فيقول له (أوجدتنى عاجزا او أرايتنى سفيها ؟) ، وتسبة العى الى الله سبحانه مع انها منفية منكرة تحمل نغمة من التهكم والســـخرية بظن الكافرين الذى بلغ حدا كبيرا من الســـوء والسفاهة والجهل ، حين يظنون أو يشكون مجرد شك فى قدرة الله على البعث ، فان الشخص لا يقول لصاحبـه (أوجدتنى عاجزا أو سفيها) الا اذا كان ظن صاحبه به قد بلغ من السوء مبلغا كبيرا •

ومن ذلك رد القرآن على الكافرين فى اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله حيث يقول سبحانه « واذ قلنا للملائكة اســجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته اولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ، ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » (١) فاستفهام الانكار ثم تقرير العداوة فى قوله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟) مما يشيع فى تخاطب الناس حين يلوم شخص صاحبه على الثقة فى عدو خبيث لا أمان له ، فيقول له (اتصاحب فلانا وهو عدوك ؟) ، وفى هذا السياق حين نتأمـــل قوله تعالى (من دونى) نجـده يحمـل أقصى العتاب البليغ المؤثر حيث يقـول لعبـاده (أتركنون الى الشياطين من دونى ؟) كما يقول شخص لصاحبه (أتثق فى فلان وتؤثره على وهو عدوك ؟) ، وتأتى فى السياق سخرية أخرى ليست غريبة على أسلوب التخاطب الشعبى ، وهى نفى الله سبحانه كونه أشهد الشياطين خلق السموات والأرض أو خلق أنفسهم ، وكذلك نفيه اتخاذ الأعوان من المضلين (ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا) ومن الواضح ان الله سبحانه لا يشهد أحدا خلقه لما يخلق ، وأشد منه وضوحا انه لم يشهدهم خلق أنفسهم ، لأن العقل لا يتصور أن يشهد المخلوق خلق نفسه ، لأنه حين يبتدأ فى خلقه لا يكون حينئذ موجودا فضلا عن أن يكون شاهدا ، وانما يكون موجودا بعد أن يتم خلقه ، وكذلك من الواضح انه سبحانه لا يستعين بأحد قط ، فضلا عن أن يستعين بالمضلين ، ففى ذلك كله لا يراد به الاخبار وهو حقيقة ظاهر التعبير ، وانما يراد به السخرية والتهكم من الذين يتخذون الشيطان وليا من دون الله ، فيستمعون اليه ، ويتبعونه معرضين عن الله الخالق لهم ولكل شىء ، وانما يصح اتخاذه وليا لو كان له قسط فى الخلق ، فيكون له حينئذ قسط فى الألوهية ، وهذا مالم يكن ، وما لا يتصوره عقل صحيح •

ويأتى القرآن بهذا المعنى فى أسلوب آخر أشد سخرية ، وأكثر شيوعا فى التخاطب بين الناس ، وذلك فى سياق الرد على المشركين فى وصفهم الملائكة

---

(١) الآيتان ٥٠ ، ٥١ سورة الكهف •

بانهم بنات الله ، فيقول سبحانه « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشـهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون » (١) فالقرآن يسوق دعواهم كمـا حدثت منهم ، ثم يناقشها ، ولكن في غير الأسلوب الحقيقى العادى ، وانما فى أسلوب السخرية والتهكم ، فقد كان يمكن أن يكتفى رد القرآن عليهم بتكذيبهم أو بيان جهلهم في هذا ، ولكن القرآن يذهب في السخرية منهم الى اقصى مدى ، فلا ينفى صراحة كون الملائكة بنات أو بنات لله ، وان كان هذا مفهوما ضمنا ، وانما يسأل مجرد سؤال يحمل غاية التهكم وهو (اشهدوا خلقهم ؟) ويزيد القرآن السخرية وقعا واحكاما ، فلا ينفى ان المشركين شهدوا خلق الملائكة ، بل يشير أو يصرح بانهم شهدوا حقا خلق الملائكة ، وان شهادتهم هذه ستكتب وتسجل ليسألوا عنها ، وظاهر التعبير مع ذلك كله لا يفيد نفيا أو انكارا ، فان كتابة الشهادة والسؤال عنها لا يفيد الكذب فيها ، بل يحتمل — في ظاهـر التعبير — ان يكونوا صادقين ، وأن يقرروا حين يسألون انهم شاهدوا خلق الملائكة حقا ، وهذا كله امعـان فى التهكم بهم والسـخرية منهـم ، والمفسرون يحملون الشهادة على ان المراد بها ادعاء المشركين ان الملائكة بنات الله (٢) وهو احتمال صحيح ، ولكنه لا يمنع من أن يكون المراد بالشهادة مشاهدتهم خلق الملائكة ، فان لفظي شهد وشاهد يؤدى كل منهما معنى المشاهدة ، بل ان حمل (ستكتب شهادتهم) على ان المراد بها مشاهدتهم خلق الملائكة أنسب للمعنى والسياق ، فان السياق يهدف الى السخرية كما يقرر المفسرون أنفسهم حيث يقولون : (وهذا تهكم بهم) (٣) في تفسير (اشهدوا خلقهم) فالسياق اذن يهدف الى السخرية ، ولا تتضح السخرية فى التعبير التالى وهو (ستكتب شهادتهم) الا بحمله على المشاهدة ، وهذا الأسلوب وخاصة (أشهدوا خلقهم ؟) مما يتداوله الناس فى التهكم والتكذيب الشـديد ، حين يقول شخص لآخر منكرا عليه ادعاءه أو اخباره بشيء لم يكن (أشاهدته بعينك ؟) او نحو ذلك ،

وفى محاورة حول مطاعن المشركين فى الاسلام ، يورد القـرآن بعض سخريتهم ، ثم يرد عليهم باسلوب الحقيقة حينا ، وبالسخرية حينا ، وكلتا السخريتين من جانب المشركين ، ومن جانب القرآن مصوغة فى أسلوب شعبى متداول بين الناس ، فيقول سـبحانه « ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ، ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه الا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (٤) ثم يقول سبحانه « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور

---

(١) الآية ١٩ سورة الزخرف ٠

(٢) انظر تفسير الكشاف للآية ٠

(٣) انظر المصدر السابق ٠

(٤) الآيتان ٧ ، ٨ سورة هود ٠

مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (١) ، فقول المشركين عن العذاب (ما يحبسه ؟) من الأساليب المتداولة ، كأن يتوعد شخص آخر وهو لا يستطيع تنفيذ وعيده ، فيقال له تهكما (فما يمنعك من تنفيذ وعيدك ؟) والتهكم واضح فى الأسلوب ، وقد قرر القرآن نفسه ان كلامهم هذا استهزاء بالاسلام ، حيث يقول عقبه مباشرة (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) فاستهزاؤهم هو قولهم (ما يحبسه؟) (٢) وفى الآية الأخيرة يحكى القرآن طعنهم فى القرآن بأنه من افتراء محمد ، فهو من كلام البشر ، وليس من كلام الله ، والقرآن يسخر من طعنهم هـذا ، فلا ينفيه ، ولا يصرح بانكاره ، وانما يسلم معهم جدلا بأن القرآن مفترى ، وحيث كان مفترى ومن كلام البشر ، فيسهل حينئذ ان يأتى البشر بمثله ، وحين يصل بهم الى هذا الاستنتاج يضعهم فى المأزق الحرج ، فيطلب منهم وهم اتراب مفترى القرآن وناطقون بلسانه ان يأتوا لا بمثل القرآن كله ، وانما بمثل عشر سور منه ، ويزيد القرآن امعانا فى التهكم والتحدى فيبيح لهم أن يستعينوا بكل من يستطيعون دعوته الى العون ، وتتركز السـخرية فى قوله تعـالى (مفتريات) وهو من التعبير المتداول بين الناس ، كأن يقرأ شخص كتابا قيما ، ولكنه لجهله أو لحسده يعيب هذا الكتاب ، فيقال له (فهلا ألفت لنا كتابا فارغا مثله ؟) أو ان يلقى خطيب خطبة جيدة ، فيقول شخص حاقد : انه كلام تافه ، فيقال له (فهل تستطيع أن تسمعنا كلاما تافهاً مثله ؟) ·

والله سبحانه وعد رسوله بالنصر فى الدنيا والآخرة ، ولكن أعداءه يغيظهم هذا ، فينكرونه ويكذبون فيه ، ويرد عليهم القرآن ، فلا يناقش موضوع نصر الله لرسوله لأنه امر مقضى لا يحتاج الى جدال أو تأكيد ، وانما يرد عليهم بصورة بالغة السخرية ، قائلا لهم : من كان يشك فى نصر الله لرسوله ، ويغيظه ذلك ، فليرفع حبلا يعلقه فى مكان عال ، ثم ليخنق نفسه بهذا الحبل ليموت فيذهب عنه الغيظ ، أو لينظر بعد موته أذهب عنه الغيظ أم لم يذهب « من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟ » (٣) وفى الآية أكثر من سخرية بالكافرين ، منها صورة قتل النفس بهذه الطريقة ، فان التصوير نفسه سخرية بهم ، ومنها ان الموت ليس مذهبا للغيظ كالغاية التى تنشد فى اذهاب الغيظ ، ومنها وصف قتلهم انفسهم بأنه كيد ، والكيد ما يعمله المرء ضد غيره ، وقتلهم أنفسهم ليس كيدا ضد الرسول ، وانما هو كيد ضد أنفسهم ، ولكن ذلك كله امعان فى

---

(١) الآية ١٣ سورة هود ·

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٥٤/١٥ ·

(٣) الآية ١٥ سورة الحج وانظر تفسيرها فى الكشـاف للزمخشرى ومعانى القرآن للفراء ٢١٨/٢ ·

السخرية والتوبيخ في صورها ووجوهها ، والمعنى في جملته مما يتداوله الناس بينهم ، فمضمون الآية : من غاظه نصر الله لرسوله فليقتل نفسه ، ومن هذا الباب نجد أمثالا عامية ، منها ما مضمونه (من لايعجبه هذا فليشرب من البحر) ومنها ما مضمونه (من لا يعجبه هذا فلينفلق) ومنها ما مضمونه (من لا يعجبه هذا فليضرب رأسه في الحائط) ٠

وهذه محاورة حافلة بالسخرية على الرغم من قصرها ، والمحاورة حول البعث ، فالمشركون ينكرون أن يحيا الميت مرة أخرى بعد أن يصبح عظاما بالية ، ساخرين ممن يقول هذا وينادى به أو يصدقه ، ولكن القرآن الكريم لا يسلك فى الرد عليهم الطريق المنتظر بالمجادلة والمحاجة والمنطق ، وانما يلجأ الى أسلوب التهكم ، فيقول لهم اذا كنتم ترون العظام الجافة اليابسة لا تتصور معها الحياة ، فكونوا شيئا أصلب واقسى من العظام ، كالحجارة والحديد ، أو شيئا آخر تعرفونه أشد واصلب من العظام ، وهنا يتوقف القرآن ، ولا يتابع الحديث وانما ينتظر جوابهم ، واذا هم يقولون (من يعيدنا ؟) فيرد عليهم القرآن بالمنطق العقلى (الذى فطركم أول مرة) وحينئذ ينقل القرآن عنهم سخريتهم بهذا الرد سخرية بالاشارة ، وسخرية بالكلام ، أما سخرية الاشارة فتتمثل فى قوله تعالى (فسينغضون اليك رءوسهم) ومعنى (فسينغضون) كما يفسره الزمخشرى (فسيحركونها نحوك تعجبا واستهزاء) وأما سخرية الكلام فتتمثل فى قوله تعالى (ويقولون متى هو ؟ ، يعنون البعث ، ويرد عليهم القرآن مجيبا عن سؤالهم (قال عسى أن يكون قريبا) وهذه المحاورة هى « وقالوا أاذا كنا عظاما ورفاتا أانا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ ، قل كونوا حجارة أو حديدا ، أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا » (١) ، ومواضع السخرية فى هذه المحاورة مما يتداول فى لغة التخاطب ، وخاصة سخرية المشركين فى انكار البعث ، وكذلك قولهم (متى هو ؟) وقوله تعالى متوعدا (عسى أن يكون قريبا) ، ومن ابرزها أمر الله اياهم بأن يكونوا حجارة أو حديدا فان الأمر سخرية لا حقيقة ، وكذلك يصوغ القرآن الوعيد للكافرين فى أسلوبهم الشعبى، حتى يكون قريبا من نفوسهم ، وحتى تزداد قلوبهم تأثرا به واحساسا بخطره وحتى يصل هذا التأثير الى كل نفس ، على اختلاف مستويات النفوس وأوضاعها ٠

ولكننا حين نستعرض بعض الآيات التى صيغت فى هذا اللون ، نجد فيها ما يشبه التدرج فى الوعيد ، فالله سبحانه يبين لعباده حتى الجائرين والكافرين منهم أنه غير راغب فى تعذيبهم ، وانما يريد لهم الهداية وسلوك سبيل الخير ،

---

(١) الآيات ٤٩ ــ ٥١ سورة الاسراء ٠

فلا يعمد الى العذاب الا بعد استنفاد كل وسائل الاعذار ، ويصوغ القرآن هذا المعنى في أسلوب يتداول الناس كثيرا مضمونه فى عتاب بعضهم بعضا ، وفى انذار بعضهم بعضا أيضا ، حيث يقول سبحانه مخاطبا الناس بهذه اللهجة التى تفيض ايحاء بعديد من مختلف المشاعر والأحاسيس ، والتى تبلغ من التأثير فى النفوس مبلغا عميقا « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » (١) فالاسلوب العادى لهذا المعنى هو مثل : لا يريد الله لعباده العذاب أو نحو ذلك ، ولكن صياغته فى (ما يفعل الله بعذابكم ؟) فيه طرافة رائعة التأثير فى النفس ، وأحد جوانب هذه الطرافة كون الاسلوب فى مضمونه مما يتداوله الناس فيما بينهم ، وفوق ذلك فان صياغة المعنى فى قالب الاستفهام فيه حفز للعقول الى التفكير ، لأن هذا الاستفهام سؤال يحتاج الى جواب ، ولو فى صورة أن يجيب عليه السامع فيما بينه وبين نفسه ، فهو اذن عملية عقلية فوق الجانب التأثيرى ، والجانب العقلى دائما من أهم ما يهدف اليه القرآن ، لان الاسلام واثق من مطابقته للعقول السليمة ، بل هو دعوة العقل الصحيح ، حتى اننا نستشف من تركيز القرآن فى دعوته الى استعمال العقول ان القرآن يرى الحائل الاكبر بين الكافرين والاسلام هو تعطيلهم لعقولهم فيما يتعلق بالتفكير الدينى ، وأنهم حين يستخدمون عقولهم يحل كل اشكال ، ويرتفع كل حاجز بينهم وبين الاسلام .

ولكن الذين يصرون على اغلاق عيونهم وعقولهم يستحقون ولا شك العذاب، وعند الله سبحانه من العذاب ما يكفى وما يلائم كل كفر وعناد ، ولكن الله سبحانه مبالغة فى الرحمة أيضا يلوح لهم بكثير من النذر لعلهم يفوقون من سكرتهم ، وحتى الوعيد يسوقه أحيانا فى قالب التلويح والانذار ، ومن ذلك قوله تعالى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » (٢) فالله سبحانه كما يقول الرماة يفيما سبق لا يشغله شأن عن شأن ، ولكنه يسوق الوعيد لهم بما يألفونه من وعيد بينهم ليكون أقرب الى نفوسهم وأوقع فيها ، فان الرجل لا يقول لآخر سأفرغ لك الا حينما يبلغ به الغضب والسخط أقصاه ، والا حينما تبلغ به القدرة على تنفيذ وعيده أقصاها ، والتعميم فى الوعيد بالنسبة للموجه اليهم يجعله نوعا من التلويح والانذار ، لا الوعيد المحدد المقرر ، فليس كل الثقلين من الانس والجن متوعدا ، وانما يتوعد منهم الكافرون ، ولكن التعميم فيه زيادة ارهاب وتخويف، لأنه يتضمن اظهار قدرة الله التى لا تجارى ولا تقاوم ، ولئن كان تعبير (سنفرغ) مما يتداوله الناس ، فان لفظ الثقلين يبعد عنه هذا الطابع البشرى ، فقد يتوعد الانسان مهما تبلغ به القوة فردا أو بعضا من الناس ، ولكن الذى يستطيع أن يتوعد الانس والجن جميعا هو الله وحده .

---

(١) الآية ١٤٧ سورة النساء .

(٢) الآية ٣١ سورة الرحمن

وهذا وعيدا أقرب الى التحديد ، لأنه مقرر الوقوع والتنفيذ ، ولكن تعميمه يأتي من جهة أن نوع الوعيد الذي ينفذ غير محدد ، وانما هو عام للنفوس تسبح فيه وتتخيل كيف تشاء ، كقوله تعالى « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » (١) فالعقاب هنا غير محدد ، هل هو في الدنيا أو في الآخرة ؟ واذا كان في الدنيا فما نوعه ؟ واذا كان في الآخرة فما نوعه أو صورته أيضا ؟ واذا كان فيهما معا فمتى يكون العاجل منهما ؟ وهكذا تترك النفس في حيرة وتوجس من هذا الوعيد الواسع الحدود ، وهذا النوع من الوعيد من أشــــقه على النفس وأقساه ، لأنه يبعث في النفس خوفا ورهبة دائمين ، ويجعل المعنى به في قلق وتوقع للمكروه في كل حين ، والتعبير الأخير في الآية وهو (فسوف يعلمون) مما يتردد على الألسنة في الوعيد الشديد بين الناس ، حين يقول القوى للضعيف متوعدا : سوف ترى ، والسخرية في الآية في موضعين ، أحدهما في لفــــظ (ذرهم) فليس مقصودا به حقيقته وهو أمر الرسول بتركهم ، والآخر في لفظي (يأكلوا ويتمتعوا) فقد جعلهم القرآن بذلك مجرد حيوانات لا هم لها الا الأكل والمتعة الجسدية ، دون أن يشغلها تفكير أو عمل أو سعى لهدف يستهدفه العاقل من حياته ٠

ومن هذا الاسلوب قوله تعالى « ٠٠ اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » (٢) فانه مما يتخاطب به الناس في الانكار والوعيد ، حين يقول الرئيس مثلا لمرءوس سيء الفعل وهو يظن أنه في خفية لا يعلم رئيسه بما يصنع ، افعل ما بدا لك فاني على علم بكل شيء ، فليس المراد من التعبير ظاهره ، لأن الله سبحانه لا يأمرهم بالكفر ولا يرضاه لهم ، وانما هو أسلوب السخرية من عدم مراعاتهم لله ، حتى كأنهم يظنون أنه لا يرى ما يفعلون ، والتعبير مع هذه السخرية يتضمن استهانة شديدة بكفرهم وعداوتهم ، فان كل ما يفعلون ضد الله ورســــوله هين يسير عند الله ، لأنه يملك الجزاء عليه ، وكأن الله يتحداهم بأن يزيدوا ويفعلوا كل ما يستطيعون من أوجه الكفر والعــــداء ، فلن يحققوا من أوهامهم وآمالهم شيئا ، ولكن عقاب الله لهم بالمرصاد ٠

ومن هذا الأسلوب أيضا قوله تعالى « ٠٠ ومهلهم قليلا » (٣) فان الوعيد فيه غير محدد النوع ، وانما فيه هذا العموم المخيف ، ومما يزيده اخافة أنه يوحي بالقرب الشديد ، فان التمهيل محدود الزمان قريبه عادة ، ويؤكد لفظ القليل ، وهو مما يتداوله الناس ، كأن يقول شخص لآخر : لا تقلق نفسك مما يفعله فلان ، انتظر عليه قليلا ، وهذا بالطبع في مقام الوعيد الشديد ٠

---

(١) الآية ٣ سورة الحجر ٠
(٢) من الآية ٤٠ سورة فصلت ٠
(٣) من الآية ١١ سورة المزمل ٠

وهناك أسلوب آخر من هذا اللون يصوغ فيه القرآن وعيده ، ويبرز فيه طابع تخصيص المعنيين بالوعيد وتحديدهم ، بمعنى أنه لا يوجه فيه الوعيد الى طائفة عامة ، او نوع شائع ، وانما يبدو فيه القصد الى فرد معين ، او جماعة خاصة ، وذلك حينما يظهر أسلوب القرآن ان الله سبحانه لا يتصدى بصفة خاصة لعدو الا اذا كان هذا العدو من طراز خاص شديد العداء له ولدينه ، وبالتالى يكون عقابه لهذا العدو من طراز خاص شديد عنيف ، ومن ذلك قوله تعالى « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ٠٠ » (١) وواضح أن المعنى بهذا الوعيد شخص معين ، وانه من طراز خاص ذى مكانة خاصة فى المجتمع ، ويروى ان المقصود بهذا الوعيد الوليد بن المغيرة ، والآيات التالية لذلك تبين خطورة هذا الشخص على الاسلام ، وانه صاحب عقلية فذة استخدمها فى حرب دين الله وكتابه ، وأن حربه هذه كانت ذات خطورة ، ولذلك استحق أن يخصص الله له نوعا معينا من العقاب الذى لا مثيل له ، وهو أن يتصدى له الله سبحانه بذاته فيما يوحى ظاهر التعبير الذى يراد منه بيان أقصى الوعيد ، ويتركز هذا فى لفظ (ذرنى) ثم الواو التالية له ، وهذا التعبير مما يتداول فى الوعيد الشديد ، وليس ظاهر التعبير مرادا بداهة ، فليس هناك من يحول بين الله سبحانه وبين أحد حتى يأمره الله بأن يخلى بينه وبينه ، وانما هو استخدام الاسلوب الشعبى البليغ الوقع فى النفوس لالفها اياه ، ويبين الزمخشرى الطابع الشعبى فى هذا التعبير فى تفسيره اياه فى آية أخرى فيقول « اذا عرف الرجل من صاحبه أنه مهتم بخطب يريد أن يكفاه ، أو بعدو يشتهى أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه قال : ذرنى واياه ، أى لا تحتاج فى الظفر بمرادك ومشتهاك الا أن تخلى بينى وبينه ، بأن تكل أمره الى وتستكفينيه فان فى ما يفرغ بالك ويجلى همك ، وليس ثم منع حتى تطلب اليه أن يذره واياه الا ترك الاستكفاء والتفويض ، كأنه اذا لم يكل أمره اليه فكأنه منعه منه ، فاذا وكله اليه فقد ازال المنع وتركه اياه ، وفيه دليل على الوثوق بانه يتمكن من الوفاء باقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه » (٢) ٠

وكما خوطب بهذا الاسلوب شخص خاص ذو صفات خاصة ، فكذلك خوطب به جماعة خاصة ذات وضع خاص فى المجتمع ، حيث يقول سبحانه « وذرنى والمكذبين اولى النعمة ٠٠ » فان المعنيين بهذا الوعيد ليسوا كل المكذبين، وانما أولو النعمة منهم ، والنعمة على اختلاف استعمالها تعنى التنعم بمزايا ليست متاحة لكل الناس ، ويقول الزمخشرى فى تفسيرها وتفسير المعنيين بها ، « النعمة بالفتح التنعم ، وبالكسر الانعام ، وبالضم المسرة ، ٠٠ وهم صناديد

---

(١) الآيات ١١ ــ ٣٠ سورة المدثر ٠

(٢) الكشاف ٥١٢/٤ تفسير الآية ١١ سورة المزمل ٠

قريش » (١) ووعيد الله لهم ليس من قبيل النعمة ، وانما من قبل التكذيب ، وتخصيصهم بهذا الوعيد الخاص لأن النعمة التي اتيحت لهم جعلتهم في وضع خاص يستطيعون به ان يحاربوا الاسلام ، وان يكون لحربهم أثر ، حيث ينقاد لهم الأتباع ، وتسمع كلمتهم في أرجاء القبائل ٠

وأحيانا يأخذ القرآن ألفاظا معينة يتداولها الناس في ظروف خاصة ، أو تحت انفعالات خاصة ، ليصوغ فيها المعنى الذي يريده ، ومن ذلك لفظ الحسرة في ندائها ، فان الناس يستعملون هذا التعبير كثيرا في مواقف معينة يسيطر عليهم فيها الشعور بالحسرة ، فيقول الرجل أو المرأة (يا حسرة ، أو يا حسرتى ٠٠) والقرآن قد استعمل هذا التعبير في أكثر من موضع ، ولكنه يبلغ أقصى تأثيره ووقعه في النفس حينما يصدر من جانب الله ، وكأنه هو سبحانه الذي يتحسر على حال عباده ، فيقول سبحانه « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون » (٢) ، ومن البداهة ان هذا التعبير ليس مقصودا في ظاهره بالنسبة لله سبحانه ، وليس في حاجة الى أن يحمل على أن المتحسرين على العباد هم الملائكة أو المؤمنون أو غير ذلك كما يرى بعض المفسرين ، وانما المراد اظهار سؤ حال المكذبين بالرسل المستهزئين بهم ، وأن هذا السؤ ليس عاديا أو هين الشأن ، وانما هو في درجة تستدعي التحسر على جهلهم وضلالهم وجرمهم العظيم ، حيث يؤذون داعيا يدعوهم الى خيرهم ، وهذا الداعي مرسل من قبل الله ، وقد اختار لهم القرآن هذا الاسلوب الشائع بينهم ليكون أكثر تأثيرا في نفوسهم على اختلاف طبقاتها ومداركها ٠

وأما السخرية التي صيغت في هذا اللون مصورة عذاب الكافرين في الآخرة ، فهي كثيرة المواضع ، متعددة التعبير والمواقف ، ومن ذلك هذه السخرية التي تصور عذاب المشركين في الآخرة ، وفي هذا العذاب بانكارهم وتكذيبهم وسخريتهم من دين الله وآياته في الدنيا ، وتحتشد في هذه المعاني سخريات عديدة متوالية يصبها القرآن عليهم في قوله تعالى « يوم يدعون الى نار جهنم دعا ، هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم انتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون » (٣) والدع هو الدفع الشديد ، فبعد أن يصور القرآن منظرا من عذابهم المهين في الآخرة يذكرهم بموقفهم من الاسلام في حياتهم الدنيا حين كانوا يكذبون بالبعث والعقاب ، ويسخرون من القرآن ويصفونه بأنه سحر ، فيسألهم السائل حينئذ بعض الأسئلة التي تحار عقولهم في الاجابة عنها ، والتي يعتبر توجيهها لذاته عذابا مستقلا يملأ نفوسهم حسرة وندما وشعورا بالخزى والجور

---

(١) المصدر السابق ٠

(٢) الآية ٣٠ سورة يس ٠

(٣) الآيات ١١ ــ ١٦ سورة الطور ٠

عن الصواب ، ويمهد لذلك بقوله (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) ثم يسألهم هذا السؤال البالغ في السخرية والتقريع ، والذى يؤلف استعماله بين الناس ، حين يتهكم شخص بآخر في شيء كان يستبعد حدوثه أو يكذب فيه ، فيقول له مثل هذا التعبير حين يتحقق ما كان يكذبه أو يستبعد حدوثه مذكرا اياه بلفظه الذى كذب به أو استبعد حدوث الشيء والسؤال البالغ السخرية والتقريع قوله تعالى (أفسحر هذا ؟) ، ثم يعقبه سؤال آخر مما يتداوله الناس في تخاطبهم لا يقل عن سابقه أثرا ، وهو (أم أنتم لا تبصرون ؟) وأدنى تصور للموقف الذى يوجه فيه السؤالان يبرز مدى ما فيهما من تهكم شنيع ، فالمفروض انهم يسألون وهم في جهنم حقيقة ، يصطلون ممد فيها من شديد العذاب ، ويتألمون بما لا يوصف من الألم ، فلا يتصور قط أن يخطر ببال أحد منهم أن هذا العذاب الذى يعانونه فعلا سحر ، ولا يتصور قط أن يتوهم أحد منهم أنه لا يبصر هذا العذاب ، ولو قد سئلوا هذا قبل أن يدخلوا جهنم فعلا حتى ولو كانوا مبصرين لها بأعينهم لكان يمكن أن تكون السخرية أخف لاحتمال ولو كان خاطئا أن يقولوا أو يظنوا أنه سحر ، كما قالوا في حياتهم عن الحق الواضح أنه سحر ، ويأتى بعد ذلك تهكم آخر بهم ، يخيرهم بين الصبر على هذا العذاب وعدم الصبر في قوله تعالى (اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم) ثم يواجههم القرآن بالحقيقة التي تقال لهم في العذاب ولا سخرية فيها ولا تهكم ، وهى أنهم انما يتلقون جزاء ما قدمت أيديهم (انما تجزون ما كنتم تعملون) ، ومن الواضح أن مثل هذه الصور بالاضافة الى أنها تصوير لعذابهم في الآخرة ، فان الهدف من ايراد القرآن لها هو تذكيرهم وتخويفهم من نتيجة الكفر ، وذلك في اطار حشد القرآن كل الوسائل والأساليب لدعوة الناس الى الايمان ، وتجنيبهم مغبة الكفر والشرك بالله .

ومن الاسلوب الشعبى الذى صيغت به السخرية من المشركين في عذابهم الأخروى قوله تعالى « بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، واذا القوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ، لا تدعو اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » (١) وبالاضافة الى ما يوحى تصوير عذابهم من سخرية وتهوين شأن في ضيق المكان وقرن بعضهم الى بعض في السلاسل، بالاضافة الى ذلك فان السخرية الشديدة التى يشيع استعمال مضمونها في تخاطب الناس قوله تعالى (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) وذلك بعد قوله سبحانه (دعوا هنالك ثبورا) والثبور الهلاك ، حيث يتمنون الهلاك ويدعونه اليهم ، ولكنه يقال لهم : لا تكتفوا بدعاء هلاك واحد ، ولكن ادعوا هلاكا كثيرا ، كما يقول جلاد مثلا

---

(١) الآيات ١١ ــ ١٤ سورة الفرقان .

لشخص تاوه من ضربه اياه بالسوط : تاوه كثيرا ، يعني انك ستنال جلدا كثيرا شديدا ، فلا تقتصر على آهة واحدة ، لأن كثرة الجلد وشدته ستجعلك تتاوه كثيرا ، فليس لهذا التعبير فى القرآن الكريم هدف الا السخرية منهم ، والا فان دعوتهم ثبورا واحدا أو ثبورا كثيرا لن تنفعهم فى شيء ، ولن تغنى عنهم من شدة العذاب شيئا .

وحيث كان القرآن انما يهدف من صور عذاب الآخرة الى ايقاظ الغافلين ، ودعوتهم الى الدين بمختلف الوسائل والاساليب ، ومنها أسلوب التخويف بعذاب الآخرة ، فان التخويف بعذاب الدنيا اشد وقعا فى النفوس ، لانه اقرب اليها من عذاب الآخرة ، ولذلك نجد القرآن يضرب للكافرين كثيرا من الأمثال التى دمر الله فيها على أقوام كانوا مثلهم فى الكفر والعناد ، ومن هذه الأمثال التى صيغت فى هذا اللون الذى هو موضوع الحديث قوله تعالى « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وانشانا بعدها قوما آخرين ، فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ، قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين ، فمازالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » (١) وبالاضافة الى ما فى الآيات أيضا من سخرية بهم فى صورة عذابهم كقوله تعالى (اذا هم منها يركضون) فان فى الآيات أكثر من تعبير صيغ فى اللون الشعبى الساخر ، ومن ذلك قوله تعالى (لا تركضوا) والركض فى الأصل ضرب الدابة بالرجل لتسرع (٢) ، وبهذا الأصل يشير الأسلوب الى سخرية منهم بتشبيههم فى الهروب الشديد من العذاب بالدواب الراكضة ، ثم تأتى سخرية الأسلوب المتداول المضمون (لا تركضوا) كمثل أن يعتد انسان بنفسه ، ويتحدى فى المقدرة على عمل ما ، ثم يعجز عنه فيتهرب منه ، فيقال له : لا تهرب ، هذا هو ما كنت تتحدى به ، ثم يأتى لفظ آخر مألوف التداول فى الأزمات الشديدة ، حين يشتد على الانسان الاحساس بالخطر أو الضيق من ملمة ، فيقول : يا ويلى ، وهكذا قال الذين اشتد عليهم البلاء (يا ويلنا انا كنا ظالمين) ، وكذلك من هذا الأسلوب (وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) فان الآيات تروى قصة أهل قرية أو قريتين ، عن ابن عباس انهما (حضور) والأخرى (سحول) من قرى اليمن ، أرسل الله اليهم نبيا فقتلوه ، فسلط عليهم بختنصر فاستأصلهم بالسيف ، وكان ركضهم أثناء اشتداد وطأة السيف عليهم ، فقيل لهم حينئذ لا تركضوا ، وارجعوا الى النعيم الذى متعكم الله به فكفرتم بالله وبنعيمه ، ارجعوا الى مساكنكم وما فيها من نعيم ، لتحكوا قصة هذا العذاب الذى تلاقونه الآن (٣)

---

(١) الآيات ١١ ــ ١٥ سورة الأنبياء .
(٢) انظر الكشاف للزمخشرى ٣/٨٣ .
(٣) هذا وجه مما ساقه الكشاف فى تفسير الآية .

ومن الواضح أن الله سبحانه لا يريد لهم الرجوع الى النعيم ولا الى مساكنهم ، وانما يريد الهلاك ، ولكنه تعبير السخرية بهم ، كما أنهم لن يجيبوا على شيء يسألهم فيه سائل ، لأنهم هالكون ، فلن يعيشوا ليجيبوا سائلا ، فقوله تعالى (لعلكم تسألون) لا يراد منه ظاهره وحقيقته ، وانما تراد به السخرية منهم .

ومن معاني السخرية في الآيات قوله تعالى (فمازالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) فتصويرهم في أنهم منذ أحسوا بالعذاب حتى هلكوا لم يفعلوا شيئا ولم يصدر منهم شيء غير قولهم : يا ويلنا ، ولم يكفوا عن هذا الدعاء ، وانما ظلوا يرددونه ويعيدونه حتى تم هلاكهم ، هذه الصورة توحي بتهكم شديد من ضعفهم وهوانهم في حال العذاب ، بعد كفرهم وطغيانهم وجبروتهم قبل العذاب .

وفي التهديد والانذار بعذاب عام يدخل فيه عذاب الدنيا ، نرى هذا الموضع من القرآن يسوق بعض سخرية المشركين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالوعيد الذي يخوفهم به ، ولكن القرآن يكتفي في الرد على كل ذلك بعبارة يتداولون مضمونها في الوعيد ، ومع هدوئها فانها تحمل أبلغ الوعيد ، وهذا الموضع في قوله تعالى « واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ، خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون ، ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين .... » (١) فقولهم (أهذا الذي يذكر آلهتكم ؟) استهزاء وتهوين من شأن النبي ، وقد جعل القرآن قولهم هذا بيانا لاتخاذهم الرسول هزوا ، ويسخرون أيضا من الوعيد في قولهم (متى هذا الوعد ؟) ولكن القرآن قبل أن يسوق سخريتهم من الوعيد ، أرسل هذا الوعيد الشديد الذي يتداول الناس مؤداه ، حين يبلغ بشخص الغضب أقصاه من شخص آخر ، وتبلغ به الرغبة في الانتقام منه وهو قادر عليه ، فيقول له : سترى ، وكذلك القرآن يرسل عليهم وعيد الله سبحانه في هذا الأسلوب (سأريكم آياتي) ويعلل القرآن طلبهم الوعيد ، ويوحي هذا التعليل بسخرية منهم ، فكأنهم يطلبون العذاب حقيقة مع كونه مقررا لا مفر منه ، في حين أنهم في واقع الامر لا يعقل أنهم راغبون في العذاب طالبون ، وانما يطلبونه من باب التكذيب به ، وثقتهم من عدم وقوعه ، ولكن القرآن يتجاهل ذلك ساخرا بهم ، ويجعلهم كأنهم يتمنون شيئا طيبا مرغوبا فيه ، فيستمهلهم مشيرا الى شيء من عذر لهم في استعجالهم ، حيث ان الانسان في طبعه العجلة قائلا (خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون) .

ومن هذا الأسلوب أيضا قوله تعالى « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا » (٢) ، فليس ظاهر المعنى مرادا لأن الحق واضح لا لبس

---

(١) الآيات ٣٦ ـ ٣٨ سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤٢ سورة الفرقان .

فيه ، ولكنه صيغ فى هذا الأسلوب المألوف بين الناس ، كان يقول الواثق من صدقه وكذب خصمه ، ستعلم أينا الكاذب ردا على اتهام خصمه له بالكذب .

ويجيء هذا الأسلوب أحيانا فى سياق الارشاد العام ، أو التذكير الخلقى والدينى ، ومن ذلك قوله تعالى « قتل الانسان ما أكفره ؟ » (١) ، فالجملة الاولى دعاء على الانسان بالقتل ، والثانية تعجب شديد من كفره بنعم الله ، وليس الدعاء هنا مقصودا حقيقة ، فانه لا يتصور أن يدعو الله على أحد ، لأنه هو سبحانه موضع الاتجاه فى الدعاء ، خاصة وأن الدعاء ليس على فرد أو جماعة ، وانما على جنس الانسان ، ولكن المراد التعبير عن شدة غضب الله سبحانه على الكافرين بنعمه عليهم ، وقد صيغ المعنى فى أسلوب التخاطب بين الناس ليكون أقرب الى نفوسهم ، كما يعبر شخص عن أقصى سخطه وانكاره على شخص آخر ، فيقول مثلا : قاتله الله ، وانما كان هذا التعبير مصاغا بما يتضمن هذه الشدة فى السخط والغضب ، لأن السبب الذى استوجبه يتضمن منكرا خلقيا شديد النكر وهو تجاهل الانسان للنعم التى لا تعد ولا تحصى من قبل ربه ، وكأنه لا يرى منها شيئا ، ولا يحس بشيء .

---

(١) الآية ١٧ سورة عبس .

سخرية القرآن والتحليل النفسى

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »

لست من الذين يتحمسون للربط بين القرآن الكريم والعلوم الحديثة ، والذين يهمهم أن يوجدوا صلة بين القرآن وكل ما يجد من بحوث العلماء فى كل ميدان ، لا لأن القرآن بعيد عن هذه العلوم ، ولا لعدم وجود صلة بينه وبينها ، ولا لأن القرآن انما يستهدف هداية البشر ، وانارة الطريق أمامهم الى خيرى الحياتين الدنيا والآخرة ، دون استهداف غايات علمية مجردة ، ولا لشىء من نحو ذلك ، ولكنى لست من المتحمسين للربط بين القرآن والعلوم الحديثة لأن القرآن منارة ثابتة الأساس والكيان ، وكل ما فى الحياة مناظر عابرة أمامها يمكن أن نراها على ضوء المنارة ونحكم عليها ونعى فى هذا الضوء ، ومهما يكن فهى عابرة عارضة ، اما المنارة فقائمة ثابتة ، وليس هناك تكافؤ فى الكيان أو فى الثبات بين القرآن وهذه المناظر العابرة أمامه حتى تقارن بينهما ، ولا أعنى بثبات القرآن ثبات ألفاظه ونصه ، وانما أعنى فوق ذلك ثبات حقائقه وموضوعه من حيث العلم والمعرفة ، فالقرآن ليس بضع آيات أو عدة أسطر ، وانما هو كتاب كبير كما وكيفا ، وقد عرض لكثير من المعلومات الكونية والطبعية والنفسية والعضوية وغير ذلك ، وعرض هذه المعلومات على الناس جميعا — بحكم عموم دعوته — بل وتحداهم ، ومع أن القرآن لم يخل ميدانه من أعداء لدد ، مختلفين فى الثقافة والمستوى العقلى وفى البيئة ، ولم يخل عصر ولا زمن قط من هؤلاء الأعداء منذ أول آية نزلت من القرآن حتى اليوم ، ومع أن أعداء القرآن على اختلافهم لم يدخروا جهدا فى حرب القرآن بأى صورة من صور الحرب ، وأيسر هذه الصور وأهونها أثراً وشأنا تكذيب أنه من كلام الله ، صورة يسيرة لأن صاحبها لا يبذل فيها جهدا ، وهينة الأثر والشأن لأنها لم تصمد ولن تصمد أمام شىء من مقومات القرآن الذى ينطق كل ما فيه بأنه ليس من كلام البشر ، أما ما هو أصعب وأهم شأنا من صور حربهم للقرآن فهو ما يتعلق بمحاربة موضوعه ، من المحاولات التى بذلت والتى لا تزال تبذل

للتهوين من شأنه أو تكذيب بعض ما جاء به على ضوء التاريخ ، أو ضوء العلم ، والتي كان القرآن اقوى منها جميعا وأكثر ثباتا وصمودا ومطابقة للحقيقة ، ومما يعلي من شأن القرآن وثبات موضوعه وحقائقه أنه جاء الى الحياة البشرية ثم صاحب نضجها العقلي والعلمي والحضاري ، ويمكن أن يعتبر مجيء القرآن تاريخا لبدء هذا النضج والنمو الذى أخذ يتدرج ويزداد حتى بلغ ما بلغه اليوم ، ومع نمو المستوى العلمي والحضاري على مر العصور السابقة منذ نزول القرآن ، وبلوغهما مابلغاه ، ومع محاولة أعداء الاسلام في كل ذلك أن ينالوا من القرآن الا أنه كان أكثر ثباتا وصمودا ومطابقة للحقائق ، وآية ذلك ان أعداء القرآن مع زعمهم أنه من كلام البشر ، والبشر حين نزل القرآن كانوا في عصر وبيئـــة يعتبرهما الناس اليوم بدائية أو قريبا من البدائية ، ومع ذلك ، ومع أن أعداء القرآن بلغوا بالعلم والمعرفة ما بلغوه الا أنهم لم يستطيعوا أن ينقضـــوا مما قرره القرآن من حقائق ومعلومات شيئا ، في حين أنهم استطاعوا أن ينقضوا أكثر ما جادت به عقول العلماء والفلاسفة السابقين في كل العصور ، وما من مفكر سابق الا واثبت تدرج العلم والمعرفة خطأ كثير من أفكاره ، وكثير من الافكار التى كان ينظر اليها في عصرها على أنها حقائق لا تقبل النقض ، أصبحت في عصر آخر خطأ صريحا ، ولا اعتقد ان نظرية واحدة من النظريات القديمة سلمت من بعض الخطأ أو النقص في نظر العلم الحديث ، ولكن القرآن ليس نظـــرية أو فكرة فحسب ، وانما هو كتاب كبير كمـا وكيفا ، ومع ذلك لم يستطع العلم الحديث أن ينقض شيئا مما جاء به ، على أن القرآن فيما جاء به لم يكن ظانا ولا متشككا ، وانما موقنا متثبتا ، بل معجزا متحديا ، وهذا التحدى من شأنه أن يزيد من قوة مهاجمة الاعداء واصرارهم وعنادهم في حربه ، وقد فعلوا ، ولا زالوا يفعلون، ولكنهم لم ينالوا منه شـيئا ، ومن الأمثلة المشهورة في صـمود حقائق القرآن وتحديه أمام العلم الحديث ، هذا المثل الذى يبدو منه ظاهرا أن وضع القرآن حرج أمام العلم الحديث ، حيث تحدى القرآن الناس أن يصل علمهم الى أمور معينة محددة قصر علمها على الله وحده ، ومنها علم ما في الارحام في قوله تعالى « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير » (١) وانما اختير علم ما في الارحام مثالا لصمود القرآن في تحديه ، لأن النواحى الاخرى في مثـل هذه الآية قد يسلم البشر بعجزهم وبعدم الأمل في بلوغ علمهم اياها ، أما ما في الأرحام أهو ذكر أم أنثى ؟ فقد يكون تحدى القرآن في علمه سـهلا في عصور سابقة ، أما في العصر الحديث الذى استطاع العلم فيه أن يرى بالعين المجردة من خلال الأشعة كل ذرة في جسم الانسان حتى داخل أصلب العظام فيه ، فان تحدى القرآن بعلم ما في الرحم يبدو في ظاهره خطرا على تحدى القرآن ، وعلى صموده وثباته ، ومع ذلك فقد عجز العلم الحديث أن يكسر هذا

(١) الآية الأخيرة من سورة لقمان .

التحدى ، وظل حتى اليوم علم ما فى الرحم سرا من أسرار الله ، وخاصية من خصائصه ، ويبقى بعد ذلك العجب من اختيار القرآن لما فى الرحم بالذات موضعا للتحدى ، دون غيره من أعضاء الجسم الداخلية ، مع أنه حين نزل القرآن، وفى عصور كثيرة بعده ، كان يمكن التحدى بعلم أعضاء أو أجزاء كثيرة داخل جسم الانسان ، ولكنه اختار ما فى الرحم للتحدى ليكون اختياره موضع العجب الذى يزول حينما نعلم أنه ليس اختيار البشر ، وانما هو اختيار الله سبحانه العليم بكل كائن ، وبكل ما سيكون .

* *

أقول مع ذلك فلست من المتحمسين للربط بين القرآن وما يستجد من علوم ومعارف فى حياة الناس ، ولكن واقع القرآن نفسه فى بعض مواضعه ، وحاجتنا الى فهمه فهما أعمق من مجرد النظرة السطحية الشكلية يدعونا الى الاستفادة ببعض العلوم والمعارف والبحوث الحديثة ، لا لتأييد القرآن وتدعيمه ، فليس القرآن فى حاجة الى شىء من ذلك ، وانما لفهمه على مستوى أعمق ، وللاستفادة بحقائقه على وجه أكمل وأكثر طمأنينة فى نفوس كثير من الناس . ومن قبيل ذلك أننا نجد المفسرين فى بعض هذه المواضيع يلجأون الى عبارات عامة لا تريح النفس كل الراحة ، لأن النفس تشعر ولو شعورا غامضا بأن وراء هذه الألفاظ من الدلالة ما هو أكبر عمقا ، وأشد غورا مما تفيده هذه العبارات العامة التى فسرها بها المفسرون ، أو يحملون بعض هذه الألفاظ على المبالغة أو الرمز والاشارة ، أو نحوا من ذلك ، ولا يستطيع أحد أن يوجه الى المفسرين لوما أو تقصيرا ، أو حتى قصورا ، فذلك مبلغ علمهم ، ومما لا شك فيه أنهم لم يدخروا جهدا أو اخلاصا فى تفسيرهم ، ولكن المهم أن تبقى هذه المواضع من القرآن فى حاجة الى مزيد من الايضاح والتعمق والتقريب من الفهم المطمئن للنفوس ، وهذه الزاوية هى التى تدعونا الى التماس بعض العلم الحديث للاستعانة به فى تفسير بعض القرآن الكريم ، وليس معنى ذلك أننا حين نلتمس العلم الحديث ونستعين به فى فهم بعض القرآن نكون قد بلغنا من القرآن كل ما يحمل . وظهرنا منه على كل ما يتضمن ، فما أشك فى أن القرآن سيبقى قريبا من العقول صغيرها وكبيرها ، وفوق هذه العقول فى وقت واحد ، بمعنى أن القرآن سيظل فى الجانب العام الذى يكفى لهداية الناس ورسم طريقهم الصالح للدنيا وللآخرة واضحا كل الوضوح ، قريبا كل القرب من كل العقول على اختلاف درجاتها ، ولكنه مع ذلك يبقى فيه جانب تشعر العقول على اختلافها انه أكبر منها وأبعد غورا وأرفع منالا ، وأدنى هذا الجانب الشعور بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر ، وأنه يوحى الى النفوس والقلوب مالا يوحيه كلام البشر ، ولست بهذا أعنى شيئا مما تقول به بعض طوائف المسلمين ، من أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وانما أعنى ما سبقت الاشارة اليه من أن سر الاعجاز فى القرآن لا زال أبعد من متناول الأيدى والبحوث ، واعتقد أنه سيبقى كذلك ، لأن بعده

عن متناول العقول هو نفسه أهم صورة من صور اعجاز القرآن ، واقوى دعامة يقوم عليها الاعجاز .

ومن حيث ان حاجتنا الى زيادة الفهم للقرآن فى بعض مواضعه تدعونا الى التماس بعض العلم الحديث ، اقول ان موضوع هذا البحث وهو سخرية القرآن فى حاجة الى التماس نوع من العلم الحديث وهو علم النفس وما يرتبط به ، وذلك من زاويتين ، زاوية السخرية من حيث احتواء القرآن عليها ، وزاوية المواضع التى طرقتها سخرية القرآن ، فاما احتواء القرآن على السخرية فيدعونا الى التماس علم النفس لسببين ايضا ، أحدهما ما قد يبدو لبعض ذوى الآفاق الضيقة من غرابة نسبة السخرية الى الله سبحانه ، والآخر قصور الفهم الشائع عن سخرية القرآن ، من ان المقصود بها مجرد التهكم باعداء الله ، وعن هذين السببين يقول الزمخشرى خلال تفسيره لقوله تعالى « الله يستهزىء بهم .. » (١) والآية السابقة لها « الاستهزاء السخرية والاستخفاف .. فان قلت : لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى لانه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب والجهل ، الا ترى الى قوله تعالى (قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله ان آكون من الجاهلين)، فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه انزال الهوان بهم ، لأن المستهزىء غرضه الذى يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وادخال الهوان والحقارة عليه ، .. وقد كثر التهكم فى كلام الله تعالى بالكفرة ، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء امرهم ، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون .. » (٢) ثم يقول عقب ذلك أيضا « وفيه أن الله عز وجل هو الذى يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ ، الذى ليس استهزاؤهم اليه باستهزاء ، ولا يؤبه له فى مقابلته ، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل ، وفيه أن الله الذى يتولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين ، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله » ، فالزمخشرى يدرك ولو من باب الاحتمال ان بعض الناس قد يتردد فى نسبة الاستهزاء والسخرية الى الله ، ويرد على ذلك ، ولكن رده كسائر المفسرين لا يعدو فى فهمه لحكمة السخرية فى القرآن انها اهانة لأعداء الايمان ودفاع عن المؤمنين .

وهنا تبرز حاجتنا الى فهم أعمق لسخرية القرآن ، وهذه الحاجة تدعونا الى التماس علم النفس ، والاستعانة به فى هذا الفهم ، وليس فهم المفسرين ، والفهم الشائع لسخرية القرآن خاطئا ، ولكنه قاصر قصورا بينا ، فليس أثر السخرية محدودا ولا محصورا الى هذا الحد ، ولكننا حين نرجع الى ما لاحظه واستنتجه علماء النفس من آثار للسخرية مما سقت واستشهدت ببعض الجوانب منه فى الفصل الأول ، تعلم ان السخرية أوسع مدى من ذلك بكثير ، وانها رغم طابعها

---

(١) من الآية ١٥ سورة البقرة .

(٢) الكشاف ١/٥٠ ، ٥١ .

العدواني فانها تحمل اكثر من وجه ، للهدم وللبناء معا . ففي حين أنها تحطم من نفسية العدو ومعنوياته ، نجدها ترفع من نفسية صاحبها ومعنوياته ، وتشعره بأنه المتفوق ، وأنه الأعلى والأرجح كفة في الميدان ، وفي حين أنها تعمل على تفكيك جبهة العدو وتفتيتها ، نجدها تعمل على رأب جبهة صاحبها وتقويتها ، وفي حين أنها تثير في نفوس العدو الكآبة والضيق ، تثير في نفوس أصحابها شعورا بالراحة ومقاومة الضيق ومجالدة الشعور بالتعاسة أو الضعف أو نحو ذلك ، ومن وجوه السخرية أنها ليست سلاحا حربيا ضد العدو فحسب، وانما هي مع ذلك أحيانا تكون وسيلة فعالة للاصلاح الداخلي في الجماعة ، وهي أيضا من أقوى الاسلحة في مقاومة سيء التقاليد والعادات ، وغير ذلك مما سبق الحديث عنه ، واذن فالقرآن لم يختر أسلوب السخرية لأنه مجرد تهكم بأعدائه ، أو لانه انتقام للمؤمنين من سخرية أعدائهم بهم ، لأنه وحده يحقق اغراضا عديدة متنوعة ، والدليل على ذلك ان القرآن لم يقصر سخريته على أعدائه ، وانما كان منها ما حارب نواحي اجتماعية كثيرة ، ونواحي خلقية أيضا ، كما رأينا في الأحاديث السابقة ، ومن هذا نعلم أن سخرية القرآن أعمق مدلولا من سطحها الذي يبدو للعيان ، وأننا نستطيع أن نفهم كثيرا من عمق هذا المدلول حين ننظر اليها من خلال بحوث علماء النفس والاجتماع وملاحظاتهم عن نفسية الافراد والمجتمعات ، ووسائل علاجها وتقويمها وتغيير رواسبها مما يسمى بالاصلاح الاجتماعي ، وحين ننظر اليها من خلال بحوث علماء النفس عن السخرية والفكاهة عامة ، وأثرها في كثير من نواحي الحياة الفردية والاجتماعية بل انهم يعممون أثر الفكاهة ، بحيث يرونها ماسة لكل ظروف الأفراد ، ولكثير من ظروف المجتمعات، ومن ذلك قولهم « وصفوة القول أن معظم الباحثين مجمعون على القول بأنه وان كان الضحك ظاهرة فسيولوجيـة .. الا أنه في الوقت نفسه وثيق الصلة بكل ما يحيط بالافراد من ظروف اجتماعية .. وهو نفسه قد يكون بمثابة أداة تعيننا على تحقيق ذلك التغير الاجتماعي » (١) وهم يقررون وثوق صلة الفكاهة بنفسية الأفراد والمجتمعات فضلا عن الظروف الاجتماعية ، كما يؤكدون أن السخرية من أهم عوامل اعادة الثقة الى النفس ، ونواحي أخرى كثيرة سبق التعرض لها ، وليس هناك ما يدعو لاعادة حديثها .

وكل هذه الظروف النفسية والاجتماعية التي تحتاج في علاجهـا الى السخرية كانت قائمة بل مستحكمة في أغلب الاحيان سواء في نفوس المسلمين وخاصة حاجتها الى المواساة والتثبيت والترفيه ، أو في نفوس أعداء الإسلام ، وخاصة ناحيتين ، أحداهما الاعتداد بالكثرة والقوة والتعالي بهما على المسلمين أول أمرهم مما يحتاج من جانب الاسـلام الى سلاح يفل من حدة هذا الغرور ، والأخرى سيطرة عادات وتقاليد بما فيها التقاليد الدينية ، وهي أيضا في حاجة

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك دكتور زكريا ابراهيم ٨٣ ، ٨٤ .

ملحة الى أسلحة لتغييرها ، ومن البدهي أن السخرية كانت احد الأسلحة الكثيرة التى عالج بها الاسلام كل هذه النواحي ، ومن حيث ان القرآن كتاب خالد ودعوته مستمرة ، كما أن الظروف التى مر بهـا من حيث تصدى الأعداء له وتحاملهم عليه ، مستمرة أيضا ، فان السخرية فى القرآن سلاح ذاتى مستمر المفعول أيضا ٠

هذا عن الزاوية الأولى وهى السخرية من حيث احتواء القرآن عليها جملة ، وأما الزاوية الثانية من الزاويتين اللتين سبقت الاشارة اليهما ، وهى زاوية سخرية القرآن من حيث المواضع التى تعرضت لها ، فان فيما سبق عرضه خلال التعرض لبيان ما يحمله بعض الآيات من سخرية رأينا كيف ان سخرية القرآن ليست كالسخرية المألوفة فى كلام الناس تجعل أبرز هدفها التحطيم أو النيـل ممن تجه اليه لذات النيـل فى أغلب الأحيـان ، وانما نجدها مهما حطمت أو نالت ممن توجه اليه فانها دائما قائمة على دعامتين ، احداهما الحقيقة المعتمدة على التحليل النفسى العميق ، حتى انها أحيانا تبدو فى الظاهر بطابع السخرية والمبالغة الشديدة ، ولكننا حين ندرسها على ضوء علم النفس نجد أنها حقيقة مجردة من كل مبالغة ، ومن ذلك وصف القرآن لما يعترى المنافقين من الخوف الشديد حين يقعون فى موقف خوف كموقف القتال ، حيث يقول القرآن الكريم فى بعض ما وصفهم به « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ٠٠ » (١) فقد يبدو فى ظاهر الأمـر أن الخوف لا يبلغ بانسان عادة وخاصة اذا كان الوصف لطائفة وليس لفرد ، لا يبلغ هذه الدرجـة ، وأن تصوير القرآن مبالغة يقصد بها التهكم بالمنافقين ، وكذلك فى تعبير القرآن عن عقليـة المشركين وادراكهم فى موقفهم من الدين حيث يسلب من معظمهم الادراك والعقل ويجعلهم مجرد أنعـام يلهاء منقادة بل أضل من الانعام ، فى قوله تعالى « أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (٢) ، فقد يبدو فى ظاهر الأمر أيضا أن هذا الوصف مبالغة شديدة فى الحكم على عقول بعض المشركين وسلوكهم ، من حيث ان تصور فقدانهم العقول والوعى وكونهـم كالأنعام فى سلوكهم الانقيادى فيه شيء من غرابة ، ولكننا حين ننظر الى مثـل هاتين الصورتين على ضوء علم النفس نجد أنهما لا يحملان شيئا من مبالغة ، وانما هما تحليل نفسى واقعى بحت ، فعلماء النفس يستنتجون من بحوثهم وملاحظاتهم عن التعويق ، وهو شعور الفرد باعتراض عقبة قوية أمام أمله واتجاهه مما يثير فيه الشعور بالفشل فى موقفه هذا ، ويلاحظون ان هذا الشعور بقوة التعويق ، فيقولون مثلا « فى كل مواقف التعويق تقريبا تستصحب التجربة الانفعالية درجات مختلفة من الاضطراب

(١) من الآية ١٩ سورة الأحزاب ٠

(٢) الآية ٤٤ سورة الفرقان ٠

الجسمي ، فقد يشعر الشخص بالخوف او العجز او الغضب او الخور واذا حدث التعويق في موقف يشعر الشخص بعجزه فيه ، فيغلب أن يعقبه حزن طويل أو يأس ملح ، ... وقد يبلغ التعويق من القسوة في بعض الظروف كما هي الحال في ميدان القتال أن يعقب تفككا كاملا في الوظائف الجسمية والعقلية » (١)

ولا شك أن المنافقين والمشركين في الآيتين السابقتين كانا في الموقف الذي يسميه علماء النفس التعويق ، فلا غرابة ولا مبالغة حين يصور القرآن أثر هذا التعويق في المنافقين والمشركين ، مصورا التفكك الجسمي في المنافقين ، والتفكك العقلي في المشركين ، وهو ما يؤيده علماء النفس ، وكذلك تشبيه القرآن لهم في الآية الثانية بالأنعام ، فان أبرز ما يميز الانعام هو الاستسلام والانقياد الأبله المجرد عن التفكير ، وقد يبدو تطبيق هذا الوصف على نوع من الناس فيه غرابة في ظاهره ، مما يحمل على المبالغة ، او على تضييق وجه الشبه بينهم وبين الانعام ، بحيث ينحصر في المقارنة بين انقياد الانعام لصاحبها ، وانقياد المشركين لخالقهم ، كما يرى المفسرون مما يسر لهم تفسير تفضيل الانعام عليهم في الآية ، ولكننا حين ننظر الى هذا التشبيه من زاوية سيطرة التقاليد الموروثة عليهم مما نعاه عليهم القرآن كثيرا وجعله محورا في مهاجمتهم من حيث العقيدة ، كقوله تعالى « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » بل يؤيد أن تشبيههم بالأنعام مشار فيه الى انقيادهم الأعمى للتقاليد أن هذه الآية التي تنعي عليهم انسياقهم وراء ما ورثوه من تقاليد الآباء مهما تبين ضلاله ، مقرونة أيضا بتشبيههم بالانعام في قوله تعالى عقب الآية السابقة « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون » (٢) ، وحين ننظر من زاوية بحوث علماء النفس والاجتماع الى تشبيه القرآن لهم بالانعام في انقيادهم للتقاليد ، وانتفاء كل تفكير او وعي عنهم حينئذ نجد ان هذا التشبيه حقيقي مطابق للواقع ، ولا يحمل شيئا من المبالغة ، فهم يقررون ويؤكدون كما سبق ان (المحاكاة قسرية ولاشعورية) ومعنى ذلك ان الفرد يزاول التقاليد بطريقة تلقائية دون حاجة الى التفكير او الشعور ، ويقررون أيضا ان أقوى موضع في التقليد والمحاكاة ما كان متعلقا بالدين والاعتقاد ، ومنه قولهم « الموطن الرئيسي لناحية المحاكاة في طبيعتنا هو ما ندين به من اعتقاد » (٣) وبحوث علماء الاجتماع في سيطرة التقاليد وكونها أقوى من طبيعة الأفراد وعقولهم وارادتهم ، وأقوى من قوة القانون ، كثيرة مستفيضة ، وليست موضع خلاف بينهم ، واذن فحين يصف القرآن المشركين في انقيادهم للتقاليد بانهم كالأنعام ، وانهم حينئذ مسلوبو العقول والوعي ، وان الداعي لهم الى الايمان

---

(١) علم النفس التربوي آرثر جيتس وجماعة ٢٨ ، ٣٨ .

(٢) الآيتان ١٧١ ، ١٧٢ سورة البقرة .

(٣) نفسية المجتمع موريس جينزبرج ص ٥٤ والفقرة السابقة ص ٥٣ .

وترك هذه التقاليد كالذى ينعق بقطيع من الغنم لا يسمع ولا يعقل ، حين يصفهم القرآن بذلك لا يكون مبالغا ، ولا لاجئا الى خيال ، وانما يكون محللا لنفسياتهم وواقعهم حينئذ ، بل يكون بهذا الوصف واضعا لأول نظرية اجتماعية فى سيطرة التقاليد على المجتمعات .

وكذلك نجد القرآن يضع لبعض الناس أوصافا قد تبدو فى ظاهرها تشبيها عاديا أو مجازا ، وقد يبدو التعبير بها أقرب الى التعبير الأدبى منه الى الحقيقة ، كوصف القرآن لقلوب المنافقين بأنها مريضة ، فى مثل قوله تعالى « فى قلوبهم مرض .. » ولكننا حين ننظر الى ما يقرره علماء النفس والاجتماع عن غريزة التدين ولزومها للطبيعة البشرية ، وارجاعهم كل مظاهر حياة الناس وأوجه نشاطها تقريبا الى هذه الغريزة (١) مما يتبين منه ان الوضع الطبعى السليم فى كل فرد أن يكون متدينا أو على الأقل لديه الاستعداد الفطرى للتدين وان الخروج على هذه الفطرة يعتبر شذوذا فى التكوين ، ونقصا فى طبيعة الفرد ، ثم حين ننظر الى التحليل المعقول لسلوك المنافقين نحو الدين عامة ، مما يتبين منه ان المنافق الأصيل فى النفاق أو الكامل النفاق ، مجرد عن هذه الغريزة ، وفاقد لهذه النزعة الفطرية نحو الدين ، وهذا ولاشك يعتبر شذوذا على الفطرة البشرية ، ونقصا فى تكوين الفرد الطبعى ، والنقص فى التكوين حين نريد أن نعبر عنه تعبيرا عاما يكفى لابراز مدلوله دون قصد الى التحليل والبحث الفرعى كهدف القرآن ، لا نجد شيئا أقرب الى أداء هذا المدلول من وصف المرض ، لأن المرض ، أى مرض هو نقص فى التكوين السوى للانسان ، ومن حيث ان الايمان محله القلب ، وقلوب المنافقين فاقدة له ، فان فيها نقصا هو ما سماه القرآن مرضا ، ومن لطف القرآن وكونه دائما هادفا الى جذب الناس الى الهدى والخير لا دفعهم الى اليأس منه ان يصف هذا النقص بالمرض ، لأن الشأن فى المرض أن يرجى معه الشفاء أو يلتمس له العلاج والدواء ، وان لم يكن الأمل فى هذا الشفاء قويا ، فلو كان المرض فى عضو آخر ، أو مكان آخر من الجسم أو النفس لكان أمل الشفاء أقوى وانتظاره أقرب ، ولكن الفساد فى حالة المنافقين يتمثل فى حالة شذوذ فطرى لا ينتظر التغلب عليها الا بتعويضها بقوة ارادة ، ومقاومة قوية عنيفة ، وكذلك أمراض القلوب حتى الأمراض العضوية فيها من أصعب الأمراض وأقلها أملا فى الشفاء .

اما حين يكون المرض فى موضع آخر من الذات غير القلب ، فان القرآن يجعل أمره أيسر ، ولذلك لا يصرح بلفظ المرض ، وانما يسوقه فى تشبيه ، ومن ذلك الأمراض النفسية كحب التعالى والتسلط على الناس ، وحين نذهب

---

(١) انظر المدخل الى علم النفس الجماعى د. شارل بلوندل ٧٥ ــ ٩٦ ، ومدخل الى علم الاجتماع د. عفيفى عبد الفتاح .

اولا الى علم النفس نجده يقرر أن هذا الشعور النفسي نوع من المرض النفسي الحقيقي يتمثل في شعور ولو كان خفيا بالنقص يدفع صاحبه الى طلب التعويض وطالب التعويض بالتعالى وحب التسلط نجد علته من نوع ما يحرص على الظهور به أعنى عكسه ، وعلماء النفس يقررون أن درجة الحرص على المظهر التعويضى تخضع لدرجة الشعور بالنقص ، ومن ذلك قولهم « ان الرجل المحب للسلطة انما هو رجل عليل يميل الى ان يعوض أوجه نقصه هو بالحصول على السيطرة على الآخرين » ويتابعون هذا المعنى فيقولون « ذكر الفريد آدلر ان للناس ميلا غريبا لأن يعوضوا أوجه نقصهم الحقيقية أو المتخيلة بالسعى للحصول على التفوق فى نفس الميدان الذى يظهر فيه نقصهم ، وبينما يكون توافقهم فى بعض الحالات حسنا ، فان مثل هذا السلوك غالبا ما يبرز انواع النقائص التى يتوقعها الفرد من أساسها » ويقولون فى هذا السياق عن درجة التعويض ، وخضوعها لدرجة الشعور بالنقص « « عندما يحس الفرد بالنقص احساسا عميقا فانه يميل لأن يعوض تعويضا زائدا » (١) فالتعالى على الناس وحب التسلط عليهم كأى مظهر تعويضى آخر نوع من المرض النفسي ودرجته تحددها درجة الشعور بالنقص الذى يدفع الى هذا التعويض ، ونجد سخرية القرآن كما سبق تتعرض لكثير من حالات الأمراض النفسية ، ومنها مرض الكبرياء الذى يتمثل فى حب التعالى والظهور بمظهر السيادة والتجبر ، حيث يصور القرآن ساخرا مظهر مثل هذا النوع ، فلا يصفه بلفظ المرض مباشرة ، وانما يشبهه بحالة مرض ، امعانا فى التهكم ، لأن صورة المشبه به حينئذ وقرنها بالمشبه وهو المتكبر تثير التهكم والضحك ، فيشبه القرآن هذا المتكبر المتصلف المزور عن الناس بوجهه الشامخ عليهم بأنفه ، يشبهه بجمل مريض بداء الصعر الذى يصيب الابل فيلوى أعناقها ، ويمشى البعير المصاب به وهو فى هذه الحال من رفع وجهه الى السماء ، واعوجاج عنقه ، فيقول القرآن ناصحا باجتناب هذا المظهر ، وبالتالى اجتناب الشعور الدافع اليه ، على لسان لقمان يوصى ابنه « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور » (٢) وتتركز السخرية كلها ، والتحليل النفسى كله فى لفظ (تصعر) .

ومن أمثلة التحليل النفسى فى سخرية القرآن قوله تعالى « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » (٣) فالشق الأول من الآية يبدو فى ظاهره عاديا يمثل غضب المشركين الشديد على من يتلو عليهم القرآن ، ومحاولتهم البطش به ، وقد يكون كل

---

(١) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة آ . براون ٢٦٣ ـ ٢٦٥ .
(٢) الآية ١٨ سورة لقمان .
(٣) الآية ٧٢ سورة الحج .

ما يلفت النظر في هذا الظاهر هو التساؤل عن سر ثورة غضبهم عند سماع القرآن بالذات ، ومن هذا الظاهر ايضا تتمثل السخرية في تصويرهم وقد استنكرت وجوههم ، وسيطرت عليهم حالة من الهياج لمجرد سماع آيات الله ، ولكننا حين نرجع الى نتائج علم النفس وملاحظاته عن بعض المواقف التى تظهر فيها هذه الحالة التى يصـــورها القرآن ، عندئذ تبدو لنا الآية أكثر وضوحا ، وأكبر دلالة ، فعلماء النفس في بحوثهم عن الاحباط يوضحون لنا سلوك المشركين الذى تصوره الآية ومشاعرهم ، والاحباط يبسطونه بمثل قولهم « يواجه كل فرد مواقف تفشل فيها معرفته وذكاؤه الفطرى وخبرته فى احداث النتائج التى يبغيها وحينما يدفع الفرد تجاه هدف ثم يتعرض شيء ما ليعوق تقـدمه نحوه يقال انه قد لاقى احباطا » (١) ومضمون ذلك ان كل احساس او توقع نتيجة اعتراض عقبة أو قوة أكبر من قدرة الفرد على المضى فى تحقيق آماله يسمى احباطا ، وهذا المعنى يمكن ببساطة ان نتصوره قائما فى نفوس المشركين حينما يسمعون القرآن على وجه الخصوص ، فان الأخبار والروايات متفقة على ان القرآن كان أكبر قوة مؤثرة وجاذبة فى الاسلام ، ومعظم الذين آمنـــوا بالاسلام كان وسيلتهم اليه القرآن ، ودون حاجة الى بسط القول يمكن أن نفهم بجلاء ان كل سامع للقرآن منهم كان يحس بقوة وروح غير عادية ولا مألوفة تنبعث من القرآن ، وهذه الروح قد يحار فيها أو فى مصدرها المشركون ، ولكن اعلان الرسول لهم ان هذا القرآن كلام الله ، يحملهم يخرجون ولو شيئا من هذه الحيرة ، ويراود نفوسهم ولو ظنا أو احتمالا قويا ان محمدا قد يكون صادقا فى دعواه ان هذا كلام الله ، فان هذه القوة وهذه الروح التى يحسونها فيه تؤيد ذلك ، وعندما يراودهم هذا الظن أو الاحتمال القوى فى انه كلام الله ، يصاحب نفوسهم حينئذ كثير من المشاعر التى تقلقهم وتهز كيانهم ، فمادام هذا كلام الله ، فالله اذن فى صف محمد عدوهم ، والله لايغلب ، بل لابد أن ينتصر ، وهو يتوعدهم فى هذا القرآن ، وهكذا مشاعر كثيرة تضعف موقفهم فى الشرك وتضعف أملهم فى النصر على محمد وأصحابه ، وتثير فى نفوسهم الشعور بالفشل ، ويكونون حينئذ فى الموقف الذى يسميه علماء النفس الاحباط ، وحينئذ تبدو عليهم آثار الاحباط ، وأبرز آثار الشعور بالاحباط فيما يقرره علماء النفس الغضب ، وان صاحبه انفعال آخر يناسب قوة العقبة المعترضة أو ضعفها فى نظرة الفرد اليها ، ويناسب قوة مقاومة الفرد أو ضعف مقاومته ومن ذلك قولهم « عندما توجد عوائق فى طريق الاشباع أو التجنب من الصعب التغلب عليها فان طاقة الفرد تزداد فى محاولة التغلب على العائق ويحس الفرد احساسا ذاتيا بالغضب أو عدم السرور ، وعندما يشعر الفرد بأن الموقف تهديد

---

(١) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة أ - براون ٢٧١ .

حقيقى لتكامله فقد تكون المشاعر غضبا ممتزجا بالخوف والقلق ٠٠ » (١) فالغضب اذن فى كلا الحالين أبرز الانفعالات التى تنتج عن الشعور بالاحباط ، ويزيد علماء النفس توضيحا لملازمة الغضب للاحباط ، ثم يفردون بعض حالات هذا الغضب أو آثاره بالذكر ، لكونها اقرب احتمالا من غيرها ، ومن ذلك الرغبة فى العدوان او التهجم ، فيقولون مثلا « والغضب احد علامات الاحباط الواضحة ، وقد كان فرويد أحد الأوائل الذين برهنوا على ان الفرد يعالج الغضب الذى ينبع الخبرات الاحباطية بطرق عديدة مختلفة ، فاولا وربما كان ذلك هو الاكثر حدوثا قد يوجه ضد الموضوع او الشخص الذى علم انه مصدر الاحباط ، وقد تؤدى هذه الى أشكال متعددة من الهجوم المباشر القليل أو الكثير ، فقد يعتدى العامل الغاضب على رئيسه المباشر ، أو يهاجمه فى شكل أكثر تقنعا ، فقد يسىء الى سمعته أو يحض على القيل والقال فى حقه ٠٠ » (٢) ، فالغضب اذن من أبرز علامات الاحباط ، وقوة الغضب تدل على قوة الاحباط والشعور بالفشل ، ومعنى ذلك حين نطبقه على تصوير الآية الكريمة للغضب الشديد الذى يجتاح المشركين حين سماعهم القرآن ان القرآن يملأ نفوسهم شعورا بفشل الشرك ، واحساسا بسلطان الحق وبريق نصره عليهم ، فان غضبهم كان من القوة بحيث تتغير له وجوههم فتبدو منكرة وكانها ليست وجوههم المالوفة ٠ أو يبدو فيها مظهر منكر ينبع من انعكاس الغضب الشديد عليها ، وكما يقول علماء النفس ان الاكثر حدوثا ان يوجه الغضب نحو مصدر الاحباط او الشخص الذى يمثل هذا المصدر ، ومصدر الاحباط لدى المشركين لايستطاع توجيه الغضب اليه ، وانما يستطاع توجيه الغضب الى من يمثله وهو قارىء القرآن ، وما يسوقه علماء النفس من آثار الغضب وانواع توجيهه يلقى ايضا ضوءا على كثير من تصرفات المشركين نحو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما يقوله عماء النفس عن الهجوم المقنع على مصدر الاحباط كالاساءة الى سمعته ونشر الاشـــاعات المسيئة حوله ، يفسر لنا حملة المشركين فى مكة على شخص الرسول ونشرهم اشاعات حوله من الجنون والسحر والشعر والكهانة والكذب ، هم اعرف الناس بانها اشاعات كاذبة ، لأنهم اعرف الناس بفرد نشا فيهم ، وقضى معظم عمره بينهم ، حتى قبل أن يبعث ، فلم يتهم بشىء قط مما رموه به ، ولكنه الأثر الطبعى أو التلقائى للاحباط والشعور بالفشل او توقعه هو الذى دفعهم الى ان يسلكوا نحوه هذا المسلك ٠

على ان هناك جانبا مهما من القرآن الكريم وسخريته ، يتعلق بصلب هدف القرآن ومنهجه ، وهو الدعوة الى الله ، ومحاولة شفاء النفوس والقلوب مما يرين

---

(٢) المصدر السابق ٢٧٤ ٠

(١) علم النفس الاجتماعى فى الصناعة ١ ٠ براون ٢٧٥ ٠

عليها ، كما يصفه الله سبحانه « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (١) وقوله « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، وكون القرآن فيه شفاء أو مشتملا على شفاء ، قد يبدو فى ظاهر الأمر تعبيرا أدبيا جميلا يشبه فيه القرآن بالدواء الذى تعالج به الأمراض الجسدية ، ولكننا حين نرجع الى علم النفس فى بعض نتائجه نجد ان لفظ الشفاء المنسوب الى القرآن حقيقة بحتة ، فعلماء النفس فى حديثهم عن الأساليب الاجتماعية لعلاج الأمراض النفسية ، يلاحظون ان من أهم هذه الأساليب مناقشة المشاكل الخاصة فى جماعة بمعنى ان المريض النفسى الذى يعانى من مشكل معين هو مصدر قلقه النفسى ، يمكن علاجه بعرض مشكلته وطرحها للمناقشة ، ومصدر الجدوى فى ذلك ان هذا المريض كان يشعر بثقل معضله الذى يظن انه أمر خفى أو خاص به ، واذا هو يشعر بأن مشكله أصبح شبه عام ، وان هناك من يعاونونه فيه ، ويشاركونه التفكير فى تسويته ، ومن حديثهم عن جانب من هذا الموضوع قولهم فى سياق الحديث عن (الأساليب الاجتماعية فى العلاج) فيقولون ما مضمونه « ان المرضى النفسيين يمكن علاج مشكلة كل منهم بمناقشتها فى جماعة من الجماعات — ويضربون أمثلة لتجارب كثيرة — ويكون جوهر المشكلة ان المريض النفسى يعانى من مشكلته التى قد تكون مجرد سلوك عدائى أو طبيعة انفعالية قاسية على الغير مثلا ، ولكنه لم يمعن التفكير فى مشكلته أو لم يحس بها ويفاجأ بأنها معروضة للمناقشة وذلك لأن الطبيب اكتشف هذه المشكلة فناقشها مع صاحب المشكلة فى جماعة » (٢) .

وحين نذهب بهذه التجربة النفسية الى كثير جدا من القرآن الكريم ، ومما سبق من أمثلة السخرية فى مواضع عديدة ، نجد ان هذه المواضع علاج حقيقى ، وشفاء حقيقى وليس تجوزا أو تشبيها ، فالقرآن يعرض لكثير من المشاكل والمعانى القائمة فى نفوس بعض الطوائف والأفراد ، والتى يظنونها طى نفوسهم أو جماعتهم ، فاذا القرآن يثيرها على أوسع نطاق ، ويجعلها أمرا معروضـــا للمناقشة والتفكير والحكم ، ومن ذلك ما سبق فى حديثه عما يجول فى نفوس المنافقين ، وبين صفوفهم ، مما كانوا يعتبرونه سرا فى نفوسهم أو بين جماعتهم وكذلك ما تحدث به القرآن عما يجول فى نفوس المشركين نحو النبى صلى الله عليه وسلم أو دينه أو اتباعه ، أو نحو آلهتهم ، وكذلك ما يثيره القرآن من المعانى التى تدور فى نفوس بعض ذوى النفوس المريضة كالمتكبرين أو الحاســدين أو ذوى الشح ، حيث يفاجأ هؤلاء جميعا بأن ما كانوا يعانونه أو يشعرون به فى نفوسهم ، ويعتبرونه سرا أو أمرا خاصا بأشخاصهم أو جماعتهم ، أصبح

---

(١) الآية ٢ سورة البقرة .

(٢) انظر الطب النفسى الاجتماعى مكســويل جونز وآخرون ترجمة صــموئيل مقاريوس ٧٠ – ٧١ .

حديث القرآن واصبح بحديث القرآن موضوعا لحديث الناس ومناقشتهم ، وحينئذ يتحقق ما انتهت اليه بحوث علماء النفس من شفاء أصحاب هذه العلل النفسية أو كثير منهم من عللهم ، وهكذا كان هذا العلاج فى القرآن جانبا من أدويته الكثيرة التى عالج بها فأفلح فى العلاج ٠

وليس هـــذا الحديث عن التحليل النفسى فى القرآن الكريم وسخريته الا نماذج وأمثلة قد تصلح نواة أو توجيها الى بحث أكمل عن هذا الجانب من جوانب القرآن الكريم ٠

سخرية القرآن ووحي الألفاظ

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر »

من المعروف في نقد الأدب أن اختيار الألفاظ من الموازين التي يوزن بها الأدب ، ومن أهم المقاييس التي يتفاوت بها أديب عن آخر ، ويعلو بها أو يسفل بعض الكلام عن بعض آخر ، وذلك ان الأديب الموهوب هو الذى يحسن اختيار كلماته ، بحيث تحمل ما يجول فى نفسه من مشاعر ، وتنقلها الى السامع ، وهذا الاختيار ليس عملا ماديا أو محسوسا ، أو لا يلزم أن يكون كذلك ، بمعنى ان الأديب حين ينشىء الكلام ، لا يعمد في أغلب الأحيان الى المقارنة بين لفظ وآخر ليختار ما يروق لحسه منهما ، وانما تتوارد على ذهنه تلقائيا الألفاظ التى تلائم التعبير عن حسه وشعوره ، فالألفاظ ليست فى درجة واحدة من الايحاء بالأحاسيس والمشاعر ، وان كان بعضها فى درجة واحدة من اداء المعنى العادي الذي تتطلبه لغة التخاطب والاخبار ، ولكن هذا البعض الذى يتفق في اداء المدلول العادي قد يتفاوت تفاوتا غير يسير في اداء المعنى الأدبى ، من حيث ان بعض الألفاظ تحمل من ايحائها بمشاعر يحسها السامع ما لا يحمله مرادف لها فمثلا فى المدلول العادى نجد الفاظا مثل (جاء — أتى — قدم — أقبل — حضر) تؤدى فى المدلول العادى معنى واحدا ، ويمكن ان يوضع أحدها مكان الآخر فلا يتغير المعنى ، وتوصف بأنها مترادفة ، ولكن الاستعمال الأدبى بمعناه الصحيح يختلف فى نظرته الى الترادف ، فالأدب الدقيق لا يكاد يعترف بالترادف لأن لكل لفظ فى موضعه الأدبى مدلولا لا يؤديه مرادفه ، حيث يشعر السامع بان اللفظ الأدبى يوحى اليه فوق المدلول العادى بمشاعر وأحاسيس خاصة ، تكاد تكون هى الانفعالات والمشاعر النفسية لقائل هذا الكلام حين قاله ، ولو تساءلنا عن السر الذى يجعل بعض الألفاظ الأدبية يؤدى من الايحاءات ما لا يؤديه مرادفه المشترك معه فى المدلول العادى ، لوجدنا الاجابة عن هذا التساؤل غير سهلة ولا ميسورة ولا محددة ، فقد يكون لكل ناقد فى

هذا رأيه ، وقد تختلف آراؤهم وقد تتضارب ، ولكنهم لن يختلفوا على مبعث التساؤل ، وهو أن بعض الألفاظ يوحي بمشاعر أو خيالات لا يوحيها مرادفه لو جئنا بهذا المرادف مكانه ، ومثال ذلك أن يقول أديب متغزلا في امرأة (أقبلت تتهادى) ولفظ أقبل من المترادفات السابقة ، ولكننا لو جئنا في هذا التعبير بمرادف آخر مكانه ، كأن نقول (حضرت تتهادى أو أتت تتهادى) فلن يؤدى ما يؤديه لفظ أقبلت ، وقد يكون من تعليل ذلك أن لفظ الاقبال يتضمن فوق المدلول العادى تصويرا أو مدلولا آخر يستفاد من معنى الاقبال الذى يستعمل أحيانا في الرضى أو الرغبة ، وقد يكون ذلك لأن قائل التعبير قد ضمن تعبيره مشاعره الخاصة نحو مدلول التعبير ، وليس بعيدا أن يحمل الكلام روح صاحبه ومشاعره ، وان لم يخل هذا من غرابة مصدرها عدم القدرة على اخضاع المشاعر والأحاسيس وكل ما يتعلق بالنفس والروح للمقاييس العقلية ، ولكن مما لاشك فيه ان الناقد المتذوق يشعر بأن لكل كلام اشعاعا خاصا متميزا أو قريبا من التميز عن غيره من الكلام ، ومن هذا الاشعاع يحس الناقد بمشاعر صاحب الكلام ، وبشيء ما عن شخصيته وأفكاره ، وقد لا يستطيع الناقد في نقده تحديد هذه المشاعر أو تحديد حكم عليها ، ولكن لابد أن يكون لها اعتبار غير هين في نقده ، وليست هذه المشاعر وقفا على الناقد ، وانما هي اشـــعاع مصـــاحب وملازم للكلام ، يدركه السامعون ، وان تفاوتوا في درجة الادراك ، نتيجة لتفاوتهم في الاحســاس والذوق الأدبي .

وقد يكون الايحاء الخاص للفظ لأنه يفيد مدلولا آخر غير مدلوله ، أو لكونه يستعمل في دلالة أخرى أحيانا ، يقرنها السامع في ذهنه بالمدلول العادى ، كما في لفظ (أقبل) الذى يوحي فوق مدلوله العادى ، بدلالة أخرى فيها مضمون الاقبال أو الرضى أو نحو ذلك ، لكون الاقبال يستعمل أحيانا في هذا المعنى كما يقال أقبل فلان على بوجهه ، فلا يراد منه دلالة المجيء والانتقال ، وانما يراد الانصراف الى الشيء والاهتمام به ، وقد يكون ايحاء اللفظ ، لكونه يحمل مدلولا مجسما مصورا كما سيأتي في بعض الأمثلة ، وقد يكون لكونه يحمل مشاعر قائله وأحاسيسه ، وقد يكون لارتباطه بسياق معين ، يجعله يؤدى في هــذا السياق ما لا يؤديه في سياق آخر ، وقد يكون غير ذلك ، ولكن مما لاشك فيه أن من أبرز ما يتفاوت به متكلم عن آخر ، قدرته واستعداده لحسن اختيار الألفاظ ، وحسن نسجها بوضع كل لفظ في مكانه الملائم .

وقد عرف العرب باهتمامهم الشديد بلغتهم ، وبنظم كلامهم ، فأفرغوا فيه كل طاقاتهم ومواهبهم الأدبية والفنية ، حتى صار البيت من الشعر ، أو الجملة الواحدة من الكلام ترسم أحيانا لوحة كأنها مصورة مجسمة ، وكأنها تنطق بأحاسيس ومشاعر كثيرة يحركها السامع فوق المدلول العادي للكلام ، بل أحيانا نجد اللفظ الواحد يستوقف السمع والمشاعر ليلتقي فيها بكثير من المشاعر التي

قد لا يستطيع السامع تحديدها ، أو التعبير عنها ، وان كان يشعر انها تملأ نفسه ووجدانه ، ومن أمثلة ذلك هذه الفاء التي استوقفت علماء البلاغة والنقاد في قول الشاعر العربي :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

فانهم يحسون ان هذه الفاء في قوله (فقد جئنا ..) تحمل معاني أو مشاعر كثيرة ، ويحاولون أن يبرزوا ذلك ، ولكننا نشعر من كلامهم أن ايحاءها في نفوسهم ، وان انفعالهم بها أكبر مما تبديه كلماتهم عنها ، ويعلل بعض الباحثين اهتمام العرب بكلامهم وافراغهم طاقاتهم فيه ، بأن حياتهم بطابعها المعروف لم تسمح لهم بمزاولة الأعمال الفنية المعروفة لدينا من الموسيقى والتصوير والنحت والتمثيل ونحو ذلك مما يفرغ فيه ذوو المواهب الفنية مواهبهم ومشاعرهم فصاغوا هذه المواهب والمشاعر كلاما (١) .

وقد أفاض المؤلفون القدامى في حديثهم عن هذه الظاهرة الغريبة ، سواء منهم من خصص لذلك بحوثا وصاغها في قواعد كعلماء البلاغة ، ومن جعل ذلك في مختارات وطرائف وتعليقات نقدية ككتب الأدب المتداولة من مثل كامل المبرد وأمالي القالي وخزانة البغدادي ، ومن جعل ذلك خلال أحاديث وعلوم مختلفة ، ككتب التفسير والتاريخ الأدبي ، ومع اهتمامهم جميعا بالتراكيب والاسناد ، الا اننا نلحظ اهتماما خاصا منهم بالألفاظ وحسن اختيارها ونسجها ومن أشهر الذين أولوا هذا الجانب اهتمامهم الشـــديد الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني ، ومن المشهور قول الجاحظ في حصره البلاغة في اللفظ والصـــيغة لا المعنى ، حيث يقول ان المعاني مطروحة في الطريق للعربي والأعجمي ، وانما يتفاوتون بحسن الصوغ وجودة السبك ، وكذلك عبد القاهر ، نجده مع تقليله من شأن اللفظ المفرد ، وتركيز حديثه وخاصة عن اعجاز القرآن على الصياغة والنظم بمعنى اسناد الكلمة الى أخرى ، كقوله « الاعجـــاز بنظم الكلام لا بالكلمة المفردة » (٢) الا اننا حين نتأمل تحليله ذلك نلاحظ انه لا يعني تهوين شأن المفردات ، وانما يعني ان الكلمة المفردة مهما تبلغ قيمتها الأدبية فان هـــذه القيمة لابد أن تكون مرتبطة بارتباطها بغيرها من الكلام ، وبحسن وضعها في المكان الملائم من التعبير ، وهذا حق لا مراء فيه ، فان أي كلمة أدبية مهما أثارت انفعال السامع أو الناقد ، فلاشك ان مصدر ذلك ليس الكلمة المفردة لذاتها ، وانما موقعها من الكلام ، بدليل أننا لو أخرجناها من التعبير ، ونظرنا اليها مفردة غير مرتبطة بكلام آخر ، لما وجدنا فيها شيئا مما كانت توحيه الى نفوسنا وهي في السياق ، ولعل ذلك ما يعنيه عبد القاهر بقوله « وكما اننا لو فضضنا خاتما

---

(١) أنظر اعجاز القرآن عبد الكريم الخطيب ٩١/١ ، ٩٢ .
(٢) دلائل الاعجاز ٣٥٠ .

على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فصه أنفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي اذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه الا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام وهذا قاطع فاعرفه » (١) وقد حفلت بحوث القرآن واعجازه بأكبر نصيب من هذا الميدان ، وقد ساهم فيها معظم العلماء القدامى فى مؤلفاتهم (٢) ، ومن المعروف فى أدب العرب أن أبرز ما يثير وجدانهم ، ويستحوذ على مشاعرهم هو الكلام الموجز المركز ، الذى تقل فيه الألفاظ ، ويتسع المعنى ، ويعمق الايحاء ، حتى جعل العلماء من ذلك ما يشبه القاعدة البلاغية فى قولهم (البلاغة الايجاز) ويشير الجاحظ الى قيمة الألفاظ فى حسن اختيارها بحيث يؤدى القليل منها كثير المعانى بقوله « كانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله » مستشهدا على ذلك بالحديث الشريف (انا معشر الأنبياء بكاء » أى قليلو الكلام (٣) .

والذى يعنى هذا الحديث ليس الايجاز لذاته ، وانما نوع مما يعتمد عليه الايجاز وهو المفردات ، وحين نستعرض سخرية القرآن الكريم نلحظ فيها شيئا بارزا ، وهو بروز الألفاظ فى دلالتها كمفردات ، لا من حيث أداء المعنى فمن الواضح أن ذلك ليس موضوع الحديث ، وانما من حيث الايحاء الخاص . فالواضح البارز ان سخريه القرآن تحتوى على ألفاظ حين نتأملها ونحاول تذوقها نجد انها توحى بمعان ومشاعر وأجواء فسيحة فوق دلالتها الأصلية ، وكثيرا ما تتركز سخرية المعنى كله فى لفظ واحد ، كما سبق الاشارة الى ذلك فى طابع سخرية القرآن وايجازها ، وأقصى ما يتصور من مراتب بلاغة الكلام أن يستطيع لفظ واحد بموضعه من الكلام أن يؤدى معنى كاملا ، وأن يرسم صورة متكاملة فى تعبيرها وابرازها للمعنى المقصود .

والألفاظ التى من هذا القبيل فى سخرية القرآن كثيرة ، بل لا تكاد تخلوا سخرية منها ، ومنها قوله تعالى عن الكافرين وعذابهم فى جهنم « هذا نزلهم يوم الدين » (٤) فالنزل فى لغة العرب وعرفهم ما يعد من اكرام للضيف والنازل ، ولو قد كان لفظ الآية هذا عذابهم ، لما كان فيها شىء من سخرية ، ولكان أسلوب حقيقة عادى ، ولكن لفظ (نزلهم) نقل المعنى كله من واد الى واد آخر ، وجعل النفس تشغل بصورتين بينهما تناقض وتقابل ، وفى اقترانهما مفارقة كبيرة ، فالصورة الأولى فى نفس السامع هى جهنم التى يحددها سياق الكلام ، ولا ترتاب فى تمثلها عذابا للكافرين ، واذا هى تفاجأ بأن المعد لهؤلاء

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ١٩٧ .

(٢) أنظر للمثال الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ودلائل الاعجاز للجرجانى والبيان والتبيين للجاحظ .

(٣) أنظر البيان والتبيين ١/١١٤ وبكاء بكسر الباء .

(٤) الآية ٥٦ سورة الواقعة .

الكافرين ليس جهنم التي يتوهمون ذكرها في الكلام ، وانما أعد لهم شيء مختلف عن جهنم كل الاختلاف ، أعد لهم تكريم ونعيم أو حسن ضيافة على الأقل ، وذلك ما يدل عليه لفظ النزل ، وتدخل المقارنة بين الصورتين في نفس السامع في عملية عقلية مهما بلغت من سرعة المرور في الخاطر ، وقد تتضمن هذه العملية العقلية تساؤلا سريعا أو خاطفا ، هل حقا يعد الله للكافرين حسن ضيافة وتكريما ؟ ولكن هذا الخاطر ينكره العقل بداهة ، فترتد النفس الى صورة جهنم ، فهي في الحقيقة المعدة للكافرين ، ثم يتساءل تساؤلا سريعا أو خاطفا ، فما الهدف من الانتقال من صورة جهنم الى صورة الضيافة والتكريم ؟ وهناك تجد النفس الاجابة واضحة ، وهي السخرية من الكافرين ، فتستريح النفس وتستقر على هذه الصورة ، ولكن تبقى فيها المفارقة والطرافة التي أثارها توارد الصورتين المتناقضتين في موضع أو معنى واحد ، وهذا الذي يبقى في النفس هو أيضا السخرية بمن تعنيهم الآية ، ويزيد السخرية وضوحا في النفس ، وتأثيرا فيها ، وابرازا للصورتين المتناقضتين اللتين أثارتا في النفس كل هذه الأحاسيس ، الاشارة المقترنة بالصورتين وهي (هذا) ، فان اتجاه الاشارة الى النزل في الآية (هذا نزلهم) مما يزيد التصوير وضوحا وقربا في النفس ، وكأنه شيء مشاهد أمام العين يشار اليه .

وكذلك نجد في قوله تعالى « وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » (١) ، فلفظ الخزنة يستعمل عادة في الحراس الذين يقومون بالمحافظة والحراسة على شيء معين ، وهذا الاستعمال حين يضاف الى جهنم يرسم في ذهن السامع صورة لجهنم وقد وكل بها حراس ينظمون أمر حفظها ، ومراقبة من يداخلها ، وحراسة أبوابها ، ونحو ذلك مما تتصوره في حفظة وحراس يوكل اليهم حفظ شيء مهم يخشى ضياع شيء منه ، أو امتداد مطامع اليه ، مما يجعل السامع لأول وهلة من سماع لفظ الخزنة ، يتخيل هؤلاء الخزنة قائمين مثلا حول جهنم ، وحارسين على أبوابها ، خشية أن يهرب أحد من داخلها ، أو يتسلل أحد من الخارج فيدخلها ، أو تمتد يد الى شيء مما فيها ، ونحو ذلك ، وهذه الصورة يرسمها في الذهن المدلول المباشر للفظ الخزنة ، ولكن الصورة الحقيقية التي يؤكدها العقل ولا يرتاب فيها أن النار لا يناسبها شيء من ذلك ، فليس فيها شيء يطمع فيه فيحتاج الى حراسة ، وليست مغرية حتى يفكر أحد في الدخول اليها راغبا فتحتاج الى حجاب ، وليس هناك مفر أو مهرب لمن فيها حتى يحتاجون الى سجان يحول بينهم وبين الهروب ، كما يقول الجاحظ عن ذلك ملمحا الى ما يحمله لفظ الخزنة من سخرية بأهل جهنم « والخزنة الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت

---

(١) الآية ٤٩ سورة غافر .

به » (١) ، ولئن كان الشق الأول من كلام الجاحظ واضح التلميح الى ما فى التعبير بلفظ الخزنة من سخرية ، فان الشق الأخير عن الملائكة لا يقلل من هذا التلميح ، فانه يريد أن يقرر الأصل الذى أخذ منه وبنى عليه لفظ الخزنة ، وهو ان أهل جهنم طلبوا ما طلبوا من الملائكة الموجودين حول جهنم وكأنهم خزنة ، ولكن سياق السخرية ، ووضوحها فى الآية لا يجعل ضرورة لهذا التأويل ، بل يكفى أن يقال أن التعبير مراد به السخرية ، وحتى السياق كله يبدو فيه القصد الى التذكير والتوبيخ والسخرية حيث نجد الملائكة يجيبون أهل النار على طلبهم السابق بقولهم كما ينسب اليهم القرآن ويحكى عنهم بقوله « قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » فهم يسخرون من أهل جهنم بقولهم لهم (ادعوا) مع اقتران هذا بما يمحو ذلك وهو (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) ، وكثير من حديث القرآن عن جهنم ووصفه لها يؤيد ان لفظ الخزنة لا يراد به الا مجرد السخرية ، بجعل جهنم كأنها شىء مرغوب فيه أو نحوه مما يحتاج الى حراسة ، كما وصفها القرآن بأنها نزل ، وبأنها مهاد فى قوله تعالى « لهم من جهنم مهاد » وكما عبر عن اصطلاء عذابها الشديد بالذوق الذى يستعمل عادة فى الأشياء المقبولة والمرغوب فيها ، وتوارد الصورتين على الذهن ، صورة جهنم البشعة ، وصورة جهنم التى تحتاج الى حفظة ، والمقارنة بينهما ، كل ذلك موضع للمفارقة والطرافة التى تنبع منهما السخرية (٢) .

ويتحدث القرآن عن الحصون التى تحصن بها بعض أعداء الاسلام ، ليحتموا بها من المسلمين وهم يظنون ان حصونهم مانعتهم من الله وجنوده ، ولكن القرآن يبين لهم أن هذه الحصون لن تحميهم مما أراده الله لهم على أيدى المسلمين وانها أضعف من أن تقف دون نزول العقاب بهم ، ومن العجيب ان القرآن يبدو وكأنه لم يتحدث عن هذه الحصون ، ولم يقف عندها فى حديثه ولو بكلمة . ومع ذلك حين نتأمل لفظا واحدا نجد انه تحدث عنها كثيرا ، وأفهمنا عنها الكثير من خلال هذا اللفظ ، يقول سبحانه فى قصة الأحزاب والذين ناصروهم من اليهود « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا » (٣) ، والآية الأولى فى شأن الأحزاب الذين صرفهم الله فاشلين وكفى المسلمين قتالهم ، والثانية فى شأن بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب وناصروهم على المسلمين ، فلما فشل الأحزاب أو أصبح من المتوقع فشلهم تحصن بنو قريظة فى حصونهم ، متحدين

---

(١) البيان والتبيين ١/١٥٣ .

(٢) انظر أساس البلاغة للزمخشرى فى لفظى (نزلهم) و (خزنة) مادتى خزن ونزل .

(٣) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ سورة الأحزاب .

المسلمين بهذه الحصون المنيعة ، ولكن الله بين لهم أن أي حصون لا تقف أمام قوة الله وجنوده ، وانما تكون حينئذ شيئا واهيا ضعيفا ، وهذا المعنى لا يبسطه القرآن صراحة ، وانما يضمنه لفظ (صياصيهم) فالمعنى الظاهر (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من حصونهم) ولكن القرآن يختار لفظ صياصيهم ليجعله موحيا بمعاني وايحاءات تعتبر لذاتها صورة مستقلة ، ومعنى قائما بنفسه ، وذلك حين ننظر الى اشتقاق هذا اللفظ ، فالصيصية في لغة العرب تستعمل في عدة دلالات ، منها قرن الثور والظبي يقال لكل منهما صيصية ، ومنها الشوك الناتيء حول أرجل الديكة كأنه القرون الصغار يقال لكل منها صيصية ، ومنها شوك النساجين ، ومنها الأصل يقال جذ الله صيصيته اي أصله (١) ، فالعربي صاحب هذه اللغة والدلالات ، لو سمع الآية على انها انزال الله لهم من حصون ، لانحصر ذهنه في الحصون المعروفة ، ولكنه يسمع انزال الله لهم من صياص ، فتتوارد على ذهنه ولو في عجلة كل هذه الاستعمالات التي ترتبط بالصياصي ، واذا هو حينئذ لا يجد ذهنه محصورا في حصون حربية منيعة ذات شكل وصفات معينة ، وانما يجد في ذهنه أرجل ديكة ونتوءا فيها ، وشوكا للنساجين ، وقرونا للحيوانات وغير ذلك مما يضيع معه اي تصور لقوة الحصون ومناعتها ، وهو ما يهدف اليه القرآن ، حيث يؤكد السياق كله التهوين من شأنهم وشأن حصونهم في صراحة ووضوح ، فلفظ (صياصيهم) اذن يؤدي المعنى العادي وهو الحصون ، ولكنه يوحي فوق ذلك ايحاءات أخرى تدور حول تحقير حصونهم التي ظنوها مانعة لهم من الله ، هذه الايحاءات التي تجعل من حصونهم موضعا للسخرية والتفكه ، وسياق الآية يشير الى قصد السخرية من حصونهم ، فقد كان يمكن ان يكون التعبير أمكنكم الله منهم ، او نصركم عليهم ، أو ملككم اياهم ، أو جعلهم في قبضتكم او نحو ذلك ، ولكن الآية كانت (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ..) ومع أن انزالهم لذاته لا يفيد هزيمتهم أو لا يصرح بها ، ولكن السياق لا يهدف الى التركيز في هذا التعبير على هزيمتهم ، وانما يهدف الى السخرية من حصونهم .

وقد يكون من أسباب روعة الايحاء في هذه الألفاظ ، ان القرآن الكريم يختار في المواضع ذات الهدف الخاص ألفاظا تستعمل في عدة معان أو دلالات ، ثم يستعملها في أحد هذه المعاني بغلبة الاستعمال أو بتحديد السياق للمعنى المراد ، ومهما يكن من انحصار مدلول اللفظ حينئذ في معنى واحد ، فان الاستعمالات الأخرى تظل حائمة حول اللفظ ، متداعية بذكره ، ومهما تكن أيضا الاستعمالات الأخرى قريبة من المدلول الذي اختاره القرآن ، أو دائرة حوله مما يعرفه علماء فقه اللغة بدوران المادة حول معنى واحد ، فان هذه الدلالات التي يستعمل فيها اللفظ مهما تقاربت فانها تفتح لذهن السامع

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٧٠/٣ والكشاف للزمخشري ٤٢١/٣ .

آفاقا وسبلا عديدة أو متنوعة ، كما في اللفظ السابق (صياصيهم) ، فاننا نشعر عند سماعه ، بأن القرآن لم يترك لفظ (حصونهم) واختار هذا اللفظ جزافا ، وان اختياره فى أغلب الظن انما كان لتحقير حصونهم فى مقابلة قوة الله وجنوده ، حين تتداعى فى ذهن السامع أشياء ضعيفة يستعمل فيها لفظ الصياصى لا تناسب قوة الحصون ، كشوك الديكة ، وشوك النساجين ·

ومن هذه الألفاظ (أركسهم) في قوله تعالى « فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١) ، فالآية تعاتب المسلمين على اختلافهم فى شأن طائفة من المنافقين كانوا يظهرون أولا أنهم مسلمون ، ثم انتهزوا فرصة فلحقوا بالمشركين وانضموا اليهم ، فالقرآن يقول لهم : لم يكن ينبغي أن تختلفوا في أمر قوم ردهم الله الى وضعهم الحقيقى وهو الكفر ، ولا ينبغى أن تأسوا على فراق الضالين ، واللفظ العادى المنتظر هو (والله ردهم بما كسبوا) ، ولكن القرآن تجاوز لفظ الرد ، واختار مكانه الاركاس ، واستعمالات هذه المادة عند العرب منها (أركسه وركسه قلبه على رأسه ، وشد دابته الى الركاسة وهى الآخية ، وهذا ركس رجس ، وبناء ركس رم بعد الانهدام) (٢) ، فحين يسمع العربى لفظ (أركسهم) يفهم منه معنى (ردهم) ولكن معانى وصورا أخرى تتوارد على ذهنه ويوحيها اليه لفظ الاركاس ، ومنها صورة قلب الشىء على رأسه ، ومنها شد الدابة الى ما تربط اليه ، ومنها الشىء الرجس ، ومنها صورة البناء المتهدم الذى لا يمسكه الا الترميم ، وكل هذه الدلالات وغيرها لا تتوارد لذاتها ، وانما تقترن بالمعنيين باللفظ وهم المنافقون ، فيتصورهم العربى الذى يعرف لغته ، فى كل هذه الصور ، أو فيما يروق له منها على الاقل مناسبا للسياق ، ومناسبة السياق هنا تجعل كل هذه الدلالات مصاحبة للمنافقين ، مهينة لهم ، ساخرة منهم ، لأن السياق ذم للمنافقين واهانة لهم ، ويكفى من ذلك اشارة اللفظ الى تشبيههم بالدواب التى ردت الى مرابطها وقيدت بها ، ومنها حالة الضعف التى يستعمل فيها الركس (٣) ·

وكذلك لفظ (تصعر) فى قوله تعالى (ولا تصعر خدك للناس ··) فالمعنى منصب على النهى عن مشية التعالى والخيلاء التى يبدو فيها المتكبر معرضا عن الناس بوجهه ، والألفاظ العادية فى هذا التعبير مثل أن تقول (لا تعرض بوجهك عن الناس ··) ولكن القرآن ترك مثل ذلك ، واختار لفظ (تصعر) لأنه أيضا يستعمل عند العرب فى عدة دلالات يقرر منها علماء اللغة قولهم

---

(١) الآية ٨٧ سورة النساء ·

(٢) انظر أساس البلاغة للزمخشرى مادة (ركس) ومعانى القرآن للفراء ٢٨١/١ ·

(٣) انظر المنجد فى اللغة والأدب والعلوم مادتى ركس وأركس وانظر أساس البلاغة للزمخشرى مادة ركس ·

(التصعر ميل في الوجه أو في أحد الشقين ، أو داء في البعير يلوى عنقه .. وصعر خده .. أماله عن النظر الى الناس تهاونا من كبر ، وربما يكون من خلقه .. والصيعرية .. سمة في عنق الناقة ..) (١) . فالصعر اذن يستعمل في عدة دلالات ، ويوحي بأكثر من صورة ، ولكنها تدور حول مرض أو نشوز خلقي ، ويغلب أن يكون في الابل ، وهذه الدلالات يوحيها لفظ (تصعر) لأنها استعمالات له ، وكلها يتوارد على ذهن السامع للفظ ، ويقترن في تخيله بالمقصود وهو المتكبر ، ليوحي ذلك بنوع من التشبيه للمتكبر بموضع تلك الدلالات .

ويتحدث عبد القاهر الجرجاني كثيرا عن ايحاء الألفاظ ، خلال حديثه عن الاستعارة . ومن ذلك قوله (وانك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد .. ومن خصائصها .. أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ .. فانك لترى بها الجماد حيا ، والاعجم فصيحا) (٢) ، ومهما يكن من تحليل بلاغي لهذه الألفاظ ، وارجاعها الى تشبيه بنيت عليه الاستعارة ، فالذي يعنينا من ذلك ان الألفاظ المفردة لذاتها وبمراعاة سياقها وموضعها من الكلام توحي أحيانا بمعان واشارات كثيرة فوق دلالتها المقصودة من ظاهر التعبير ، وقد يكون لهذه الايحاءات التي يوحيها اللفظ أكثر من سبب ، ولكنها تشير دائما الى أنها لم تجيء عفوا ، وانما قصدت قصدا ، لتكون كالهالة المحيطة بالمعنى الأساسي للفظ ، فتزيده وقعا في النفس ، ولكونها قريبة من المعنى الأصلي ، ودائرة معه في فلك المادة ، فانها تصبح كالتأكيد والتثبيت للمعنى الأصلي ، بالاضافة الى المعاني الفرعية التي تعبر عنها الايحاءات ، أعني أن هذه المعاني الفرعية مهما صغرت فانها تصبح كفروع في غصن المعنى الأصلي .

وهنا قد يبدو جانب كبير من الفرق بين العربي الاصيل في لغته وغيره في تذوق كل منهما للقرآن وتأثره به ، فالعربي الذي يفهم ويعرف لغته ، كان يسمع اللفظ من القرآن ، فلا يكون مبلغ وعيه أنه فهم اللفظ والمراد به ، وانما يشعر بكل الايحاءات التي يوحيها ، لانه يعرف مادة هذا اللفظ ، واشتقاقات هذه المادة ، واستعمالات هذه الاشتقاقات ، وهو لا يعرف ذلك عن دراسة ، وانما عن ذوق واحساس ، لأنها لغته التي درج عليها ، وتعامل بها ، وهذا من حيث العموم لا ينطبق الا على العرب الخلص في اللغة ، وهم الجيل الذي عاصر نزول القرآن حين كان الواحد منهم يسمع القرآن لأول مرة ، فيملأ عليه كل مشاعره ووجدانه ، ويأخذ نفسه من جميع أقطارها ، حيث يشعر حينئذ بأنه يسمع طرازا

---

(١) القاموس المحيط للفيروزابادي مادة (صعر) .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٦ .

من الكلام لم يألفه ، طراز يوحي اليه بأكثر من احساس ، ومن هذه الأحاسيس ايحاءات الألفاظ ، التي تبدو في السياق وكأنها ذات مدلول واحد ، ولكنها ما أن تقرع سمعه ، حتى يتفجر اللفظ منها عن ايحاءات واشارات عديدة ، وكأن اللفظ حينئذ قنبلة كانت تبدو جرما واحدا محددا ، فاذا هي حين تنفجر تملأ ما حولها ضجيجا وصخبا واثارة وتأثيرا .

على أنه من المعروف أن القرآن ابتكر ألفاظا لم يستعملها العرب في الاصطلاح الذي وضعها القرآن فيه ، رغم معرفتهم لمادة هذا اللفظ ، واشـــتقاقاتها ، واستعمال هذه الاشتقاقات ، والجـدة في هذه الألفاظ مما يزيدها عند العربي وقعا واثارة في نفسه ، ومن هذه الالفاظ اصطلاح النفاق والمنافق ، فهـــذا الاصطلاح بهذا اللفظ لم يعرفه العرب قبل القرآن ، وهم بطبيعة الحال لا يلتوي عليهم فهمه ، ولكن ما يأخذ نفوسهم منه ، ويملؤها انفعالا ناحيتان ، احداهما جدته وابتكاره ، والأخرى الايحاءات التي يوحيها في نفوسهم ، فالمعنى الأصلي في الاصطلاح الذي استعمل القرآن فيه هذا اللفظ ، هو ستر الكفر واظهـــار الاسلام ، ولكن الذوق اللغوي للعربي يجعل مدلولات المادة واشتقاقاتها كلها تتداعى في نفسه ، لتقترن بالنفاق والمنافق ، أو ما يناسبهما من اشـــتقاقات المادة ، وحين نذهب الى استعمالات مادة النفاق عند العرب تجد منها (نفق الشيء نفد وفني وقل ، ونفق الرجل أو الدابة خرجت روحاهما ، والجرح تقشر ، وأنفق افتقر أي ذهب ما عنده أو فني زاده ، والمال صرفه وانفده ، والنفق السريع الانقطاع من كل شيء ، يقال فرس نفق الجري أي قصير الغاية يجري قليلا ثم ينقطع عن جريه ، ونفق اليربوع خرج من نافقائه أي جحره أو دخل فيها ، وتنفق اليربوع خرج من نافقائه أو دخل فيها ، وانتفق الرجل دخل في النفق وكذلك اليربوع ، والنفقة والنفقاء احدى جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها ، والنفق جمع أنفاق سرب في الأرض له مخرج الى مكان معهود » (١) ، فالعربي حين يسمع وصف شخص بالنفاق ، فانه بالاضافة الى المعنى المقصود من هذا الوصف ، تتوارد على نفسه الاستعمالات الأخرى للمادة ، والتي تدور حول المراوغة وضعف الحال ، ويلتصق ذلك كله بالمنافق .

ونجد مثلا لفظ الفسق ، يصف به القرآن بعض اعدائه ، ومنهم المنافقون ، كقوله تعالى « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدي القوم الفاسقين » (٢) ، فالمعنى الرئيسي في وصفهم بالفســوق هو الخروج عن الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه العبد ، وهو الايمان بالله ، ولما كان الفسوق متضمنا معنى الخروج ، فالأصل فيه أن يكون له متعلق يتعدى اليه

---

(١) انظر المنجد في اللغة والأدب والعلوم المطبعة الكاثوليكية بيروت مادة نفق بتصرف .
(٢) الآية ٦ سورة المنافقون .

بمن ، فكان المنتظر أن يقال الفاسقون عن كذا ، ولكن حذف المتعلق بالاضافة الى وضوحه يوحي بترك المجال مفتوحا امام نفس السامع ، ليمكن ان تفهم او تتصور خروجهم عن أكثر من شيء ، فى نطاق ما يتفق مع السياق ، وذلك ايضا بالاضافة الى ايحاء استعمالات المادة ، فمن استعمالات المادة عند العرب (أنفسق الرطب عن قشره خرج ٠٠ والفويسقة ٠٠ الفارة كانها سميت بذلك لخروجها من جحرها على الناس ٠٠) (١) ، فبالاضافة الى جدة الاصطلاح ، والى تجريده عن المتعلق لافساح المجال للاحتمالات ، يوحي اللفظ عن طريق استعمالات المادة بايحاءات أخرى تناسب السياق وتدعمه ، هذا السياق المنصب على ذم المنافقين، ويكفى من ذلك فى تدعيم السياق اقتران وضعهم الديني فى الذهن بخروج مطلق عن الوضع السليم والعقيدة الصحيحة كفسوق الرطب واقتران كيانهم الاجتماعى والخلقى بشيء من المخلوقات المستحقرة كالفارة ٠ ومما يشير الى مراعاة ايحاء لفظ الفسق ، ان القرآن يستعمله فى بعض المواضع غير مراد به طائفة معينة ، او نوعا خاصا من أنواع الكفر ، كما جعل مقابلا للايمان فى قوله تعالى « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون ، اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما ارادوا أن يخرجوا منهـا أعيـدوا فيها وقيـل لهم ذوقوا عـذاب النار الذى كنتم به تكذبون » (٢) ، فالفسق هنـا غير محدد بكفر أو نفاق أو شرك أو غير ذلك ، وانما يراد به كل ما يخالف الايمان ويخرج عنه ، وهذا المعنى يناسب الأصل اللغوى لمادة الفسق ، التى تفيد مطلق الخروج عن شيء ، ومع ذلك تبقى للفظ ايحاءاته فى بعض الاستعمالات الأخرى للمادة كتسـمية الفارة بالفويسقة ، التى تصاحب كل وصف بالفسق فى نفس العربى ، بل وتبقى بعض ايحاءات استعمال المادة فى الخروج أيضا ، فقد يثير اللفظ فى النفس شيئا من احتمال الخروج عن الايمان ، والخروج عن الخلق القويم ، والخروج عن الجماعة الصـالحة ، والخـروج عن كل ما هو خير (٣) ، وفى الآية الأخيرة نجد ثلاث سخريات من الذين وصفوا بالفسق ، احداها تصويرهم وهم يحاولون دائما الهروب والخروج من النـار فيعادون اليها ، وهذا التصوير ليس مرادا به حقيقته ، وانما هو تعبير عن شدة العذاب وتمنيهم اى مخرج منه ، وعن أنهم خالدون فى جهنم لا يجدون عنها محيصا ، والسخرية الثانية أن يقال لهم (ذوقوا) والثالثة تذكيرهم بانهم كانوا فى الدنيا يكذبون بهـذه النار التى يتذوقونها اليوم ٠

ومن وحى الألفاظ فى سخرية القرآن ما يوحيه لفظ (مهاد) من مفارقة

---

(١) انظر المنجد فى اللغة والأدب والعلوم مادة فسق بتصرف ومعانى القرآن للفراء ٢/١٤٧ ٠

(٢) الآيات ١٨ ــ ٢٠ سورة السجدة ٠

(٣) انظر القاموس المحيط للفيروز ابادى مادة (فسق) وفيه ما مضمونه أن القرآن مبتكر لفظ (فاسق) ٠

ساخرة مضحكة من البون الشاسع ، بل التناقض بين واقع الكافرين في جهنم ، وما يفيده ظاهر لفظ المهـاد في قوله تعالى (لهم من جهنم مهاد) فلفظ المهاد يستعمله العرب للفراش أو الأرض المنخفضة التي يسهل المشي عليها ، واشتقاقات المادة كلها تدور حول ذلك ، ومنها (مهد الفراش بسطه ووطاه ، ومهد لنفسه كسب وعمل ، ومهد (بتشديد الهاء) الفراش بسطه ، والأمر سواه وسهله وأصلحه ، وله العذر بسطه وسهله ، ولفلان عذره قبله ، ولنفسه خيرا هياه وقدمه ، وتمهد الفراش بسطه وله الأمر تسهل وتوطا ، والرجل تمكن ، امتهد الشيء انبسط ، والرجل كسب وعمل ، واستمهد فراشا بسطه ، والمهد الموضع يهيا ويوطا للصبي ، والمهاد الفراش والأرض المنخفضة) (١) ، فكل اشتقاقات المادة واستعمالاتها تدور حول اللين واليسر ، وأقرب ما يتبادر الى الذهن منها الفراش اللين الموطا ، وهذا الاستعمال هو المراد في سخرية القرآن ليكون التقابل البعيد بين مدلوله وواقع الكافرين في جهنم مثيرا للسخرية منهم ، حين يتوارد على نفس السامع صورتان شديدتان التباعد والتنافر ، احداهما فراش لين وثير يبعث في النفس الراحة والاستقرار والشعور بالسعادة ، والأخرى نار شديدة التلظي والتوهج ، تملأ النفس ألما وشعورا بالشقاء ، ثم تنسب الصورة الأولى الى الكافرين ، في حين أنهم في الحقيقة في صلب الثانية .

ومن قوة الايجاز والتركيز الشديد في القرآن الكريم ، أننا احيانا نجد الصورة الواحدة ، أو الآية الواحدة ، تحمل أكثر من لفظ من هذه الالفاظ الموحية ، التي تعتبر لذاتها صورة مستقلة تملأ النفس بالمشاعر والانفعالات والتأثر بما توحيه ، ومن ذلك ما تجده في هذه الصورة من قوله تعالى « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق انك أنت العزيز الكريم ، ان هذا ما كنتم به تمترون » (٢) ، ففي الآيات التي تكون هذه الصورة كثير من الألفاظ ذات الايحاء الخاص فوق مدلولها العادي ، ومن ذلك لفظ (خذوه) فانه يوحي فوق الأمر بادخال الكافر جهنم ، ايحاءات أخرى منها تهوين شان الكافر بسلب كل ارادة أو كيان معنوي منه ، ليصبح مجرد شيء ينقل من مكان الى مكان ، ثم كلمة (سواء) بما تبرزه في النفس من تصور لوسط الجحيم او قعره أو تلظيه ، ثم كلمة (صبوا) وما فيها من سخرية بتصوير الصب فوق رأسه من العذاب كما يصب الماء ، والمفارقة في تصور المقابلة بين صب الماء وصب العذاب ، وكلمة (من) التي توحي بالتجـرع البطيء للعذاب ، ثم كلمة (هذا) وما تتضمنه من اشارة لشيء يرونه بأعينهم وتتلظى به أجسامهم ونفوسهم في حين أنهم كانوا يكذبون به قبل ذلك ، بل أننا نكاد لا نجد في الآيات لفظا ليس له ايحاء خاص فوق مدلوله العادي في السياق .

---

(١) انظر المنجد في اللغة والأدب والعلوم مادة (مهد) بتصرف .

(٢) الآيات ٤٧ ـ ٥٠ سورة الدخان .

ولكننا حين نتأمل بعض الألفاظ التي يتركز فيها ايحاء قوى شديد الاشعاع والتأثير ، نختار من ذلك لفظين أحدهما (فاعتلوه) والآخر (ذق) ، فأما الأول فحين ننظر الى مدلوله العادى ، وهو الشد أو الجذب ، نجده أقل تأثيرا في النفس مما يوحيه العتل ، ولو قيل مثلا (خذوه أو شدوه أو اجذبوه) لما كان له من التأثير ما للفظ الذى اختاره القرآن ، وذلك لأن العتل عند العرب يستعمل في صورة معينة من حيث الدرجة في مزاولة الفعل ، وهى الجذب العنيف الغليظ ، ويستعمل من أجل ذلك في الحالات والمناسبات التي تتفق معها هذه الصورة ، ومن ذلك في دلالات هذه المادة قولهم (عتله جذبه وجره عنيفا ، يقال عتله الى السجن أى دفعه بعنف ، والشيء حمله ، وتعتل لم يبرح مكانه ، يقال لا أنعتل معك شبرا أى لا أبرح مكاني ولو شبرا ، والعتلة المدرة الكبيرة تتقلع من الأرض ، والعصا الضخمة من حديد يهدم بها الحائط ، والهراوة الغليظة ، والعتل القـــوى على العتل ..) (١) ومن الدلالة الاصــــلية للمـــادة ومن استعمالاتها نفهم أنها تدور حول الشدة والعنف ، ومن هذا ينبعث ايحاء اللفظ ، بأن الحال ليس مجرد الامر بأخذ هذا الكافر أو شده الى جهنم ، وانما القصد أن يرسم هذا اللفظ بذاته صورة مخيفة مفزعة للطريقة التي يتبض الملائكة بها على مثل هذا الكافر ويدعونه بها الى جهنم ، ولما كان هذا الكافر من الزعماء الذين قضوا حياتهم قابضين على ناصية العزة والكرامة في المجتمع ، كما يفهم من وصفه في الآيات بالعزيز الكريم ، فان هذا التصوير بالنسبة اليه سخرية وتهوين من شأنه .

وأما اللفظ الثاني وهو (ذق) فان سخريته تأتي من استعماله في عكس ما يؤلف استعماله فيه كلفظ المهاد ، فان مصدر المادة وهو الذوق يدل على الحاسة المعروفة ، واستعمالها عادة يكون في الأشياء المرغوب فيها ، أو المستساغة، ومن ذلك قولهم عنها (ذاق الشيء اختبر طعمه ، وأذاقه الشيء جعله يذوقه ، وتذوق الشيء ذاقه شيئا بعد شيء ، وتذاوق القوم الشيء ذاقوه .. واستذاقه خبره وجربه ، والذوق وقوة تدرك بها الطعام ، وكذلك الطبع يقال حسن الذوق للشعر أى مطبوع عليه ، والذواق الطعم ، والذائقة قوة تدرك بها الطعوم . والمذاق طعم الشيء يقال مذاقه طيب وهو من المذاق) (٢) ، فاستعمالات المادة كلها اذن تدور حول الذوق الذى ينصب أصلا على الحس ، ثم أخذ منه الذوق المعنوى ، والانسان عادة يتذوق بلسانه الشيء المرغوب فيه ، ليقدر درجته من جودة الطعم ، أو يختبر الشيء الذى يجهل طعمه ، على أساس أن طعمه مستساغ من حيث المبدأ ، أو محتمل على أبعد الفروض ، ولكن القرآن هنا لم يستعملها في شيء من ذلك ، وانما استعملها في تذوق نار شديدة التوهج والاتقاد ، ومن

---

(١) انظر المنجد في اللغة والأدب والعلوم مادة (عتل) .

(٢) المنجد في اللغة والأدب والعلوم مادة (ذوق) بتصرف .

الواضح حينئذ ان الاستعمال غير مراد به الحقيقة ، فان النار ليس لها طعم ليتذوقه انسان ، وليست محتملة حتى يتصور معها التذوق ، ولكن المراد حينئذ السخرية من هذا الكافر العنيد ، ومع ان السياق كله محمل بالسخرية ، والجملة التالية لهذا اللفظ وهي (انك أنت العزيز الكريم) سخرية في ذاتها، الا أن لفظ (ذق) لذاته يتضمن سخرية مستقلة ، ويوحي بصورة شديدة السخرية ، حين نتمثل من يقوم على رأس هذا الزعيم الكافر وهو يقلب في أشد العذاب قائلا له (ذق) .

ومن التعبيرات التي تحتوي على أكثر من لفظ من الكلمات الموحية قوله تعالى « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا .. » (١) . ويروى أنهـا نزلت في شـأن نفر معينين من زعماء قريش ، منهم أبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل ، والواو في (وجعلنا) للحال ، أى أن حالهم وقت الاستماع كانت هذا الوصف الذى صورته الآية ، وفي الآية لفظان يستوقفان السمع لما يوحيانه من اشعاع ودلالات خاصة فوق مدلول السياق ، هما كلمة (أكنة) وكلمة (وقرا). فاما الأول فهي جمع كنـان وهو الغطاء ، والمعنى جعلنا على قلوبهم أغطية (٢) والقلوب مراد بها العقول حيث يستعملها القرآن كثيرا في هذا المدلول ، فلفظ (أكنة) يوحي في النفس ايحاء فوق المعنى العام له في السياق ، وليس ايحاؤه من جهة استعمالات المادة ، وانما من جهة التصوير ، فقد كان يمكن أن يقال مكانه انهم يسمعون وقلوبهم غير واعية ، أو يسمعون فلا يفقهون ، أو نحو ذلك من المعاني المجردة ، ولكن شيئا من ذلك لا يبلغ من النفس هذا التصوير الذى يجعلنا نتصور قلوبهم وهم يستمعون الى الرسول مغلقة بأغطية محكمة ، تحول بين هذه القلوب وبين أن يتسرب اليها شيء قط من خارج الأغطية ، فلفظ الأكنة يجعل المعنى كله كأنه صورة مجسدة ماثلة أمامنا ، ومن البدهي أن التعبير غير مراد به الحقيقة ، فان العقول لا تغطى بأغطية محسوسة ، وانما المراد التصوير الساخر لعدم فقههم وتدبرهم لما يسمعون .

وأما اللفظ الثاني وهو (وقرا) فمدلوله العام في السياق أن استماعهم الى الرسول لا ينتهي بهم الى نتيجة من تأمل أو تفكير ، فكأنهم كانوا وقت الاستماع صما لا يسمعون ، ولكن ذلك أو نحوه لا يؤدى شيئا مما يوحيه لفظ الوقر . وايحاء هذا اللفظ يأتي من استعمالات المادة ، فالأصل في المادة استعمالها في الدواب بكسر الواو ، ثم استعملها العرب في ثقل السمع بفتح الواو كما هي في الآية ، أما الوقر بكسر الواو فهو الحمل الذى يحمل على الدابة (١) ، ومن

---

(١) من الآية ٢٥ سورة الأنعام .

(٢) انظر تفسيرى الطبرى ٢٠٥/١١ والعمدة في التفسير ٢٠/٥ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ٢٠٦/١ .

استعمالاتها (أوقر البغل أو الحمار ، وأوقرت النخلة ٠٠ واستوقرت الابل شحما اثقلها السمن ، ومن المجاز أوقره الدين ، وباذنه وقر – بفتح الواو – ثقل ، ٠٠ ووقرة فى حافر الدابه هزمه) (٢) ، فالأصل فى المادة اذن استعمالها فى الدواب ، ثم استعيرت مجازا لاستعمالها فى ثقل السمع ، فحين نسمع فى القرآن الكريم لفظ الوقر ، يوحى بالاضافة الى مدلوله فى السياق ، بايحاءات الاستعمال في دلالات المادة ، ويكفى منها اقتران من عنتهم الآية فى نفس السامع بالدواب ، فان هذا الاقتران يعتبر فى النفس معنى قائما بذاته ، ودلالة خاصة تملأ النفس سخرية بهؤلاء المشركين ٠

وهذان اللفظان تجدهما في آية أخرى منطوقين بالسنة المشركين انفسهم ، مع لفظ آخر ، في قوله تعالى « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى أذاننـا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ٠٠ » (٣) ، وكونها منطوقة بلسانهم أكثر دلالة ، وأعمق سخرية ، فان من السفاهة ان يصم انسان سمعه عن أى دعوة ، دون أن يحاول تبيان حقيقتها من الخير أو الشر ، واعترافهم بذلك تسجيل منهم على انفسهم بالسفه ، واللفظ الآخر فى هذه الآية هو (حجاب) ، فقد زادوا فوق الأكنة على عقولهم ، والوقر في آذانهم ، ان اقاموا بينهم وبين الداعى حجابا ، كانهم لا يريدون حتى أن يروا شخصه ، فلم يكتفوا بتعطيل عقولهم وآذانهم ، بل اضافوا اليها ابصارهم ، ولفظ (حجاب) الذى يستعمل فى كل ساتر وحاجز بين شيئين ، يوحى بتصوير ساخر ، تتمثل فيه المشركين وقد اقاموا بينهم وبين داعيهم الى الخير حاجزا منيعا لمجرد خوفهم أن يصل كلامه الى آذانهم وعقولهم ٠

ومن الألفاظ الموحية بالتصوير ، الفاظ الاشارة التى يشار بها للكافرين الى العذاب ، أو النار التى كانوا يكذبون بهـا ، ومن ذلك قوله تعالى فى سياق السخرية من الذين كانوا يكذبون بعذاب الآخرة ، ويصفون القرآن الذى توعدهم به بانه سحر ، ولكنهم يوما ما يجدون انفسهم فى هذا العذاب ، فيقال لهم حينئذ (افسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟) ومع أن هذا التعبير حافل بالسخرية ، وبالالفاظ الموحية ، حتى ان كل لفظ فيه ذو ايحاء خاص فوق المدلول العام له ، الا ان لفظ (هذا) أبرز هذه الالفاظ ايحاء ، حيث يبعث فى النفس موجة من اليقظة ومن المشاعر ، تتمثل في تنبيه النفس الى شىء ماثل أمامها ، لتتأمله وتمعن النظر اليه ، ومعنى ذلك أن هذا اللفظ يرسم صورة مجسمة ليشير اليها ، فان الاشارة فى حقيقتها لا تكون الا الى شىء محسوس ، ومقدرة اللفظ المفرد – مهما عاونه السياق – على أن يحدد معنى مستقلا أو يرسم صورة واضحة المعالم فى النفس ، أقصى ما ينتظر من وحى الألفاظ ٠

---

(١) أساس البلاغة للزمخشرى مادة وقر بتصرف ٠

(٢) من الآية ٥ سورة فصلت ٠

المراجع

١ **القرآن الكريم**

٢ **احياء علوم الدين للامام الغزالى**

٣ **اخلاق النبى وآدابه للحافظ الأصبهانى** م مطابع الهلال الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ ·

٤ **اسرار البلاغة عبد القاهر الجرجانى** تحقيق السيد رشيد رضا م مطبعة الترقى سنة ١٩١٩ ·

٥ **اساس البلاغة للزمخشرى** م اولاد اورفاند القاهرة سنة ١٩٥٣ ·

٦ **اعجاز القرآن** مصطفى صادق الرافعى م المكتبة التجارية الكبرى الطبعة السابعة ·

٧ **اعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى** (حاشية الاتقان للسيوطى) المطبعة الميمنية ·

٨ **اعجاز القرآن عبد الكريم الخطيب** م دار الفكر العربى ·

٩ **البيان والتبيين للجاحظ** تحقيق عبد السلام هارون م لجنة التاليف والنشر والترجمة ·

١٠ **البرهان فى علوم القرآن للامام بدر الدين الزركشى** تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم طبعة أولى م الحلبى وشركاه ·

١١ **الحرب النفسية** صلاح نصر م دار القاهرة للطباعة والنشر ·

١٢ **السلطة فى المجتمع** دكتور عبد العزيز عزت ·

١٣ **الاتقان فى علوم القرآن** جلال الدين السيوطى المطبعة الميمنية نشر الحلبى ·

١٤ **الاسلام فى القرن العشرين** عباس محمود العقاد ·

١٥ **الصيام فى القرآن** محمد الدسوقى م دار المعارف (سلسلة اقرأ) ·

١٦ **الاسلام فى الغرب** جان بول رو تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز م المكتب التجارى للطباعة والنشر بيروت لبنان (طبعة أولى) ·

١٧ **الطب النفسي الاجتماعي** مكسويل جونز وآخرين ترجمـــة د صموئيل مفاريوس م دار المعارف ·
١٨ **الاسلام نظام انساني** دكتور مصطفى الرافعي م دار مكتبة الحياة ـ بيروت لبنـــان ·
١٩ **الانتصاف للامـــام احمد بن المنير الاسكندرى** (حاشيـــة الكشاف للزمخشرى) ·
٢٠ **الامالي لأبي علي القالي** م مطبعة السعادة ·
٢١ **الوجيز في الفلسفة** محمود يعقوبي م مطبعة البعث قسنطينة الجزائر ·
٢٢ **الله** للمرحوم عباس العقاد م دار المعرف ·
٢٣ **العبقرية العسكرية في غزوات الرســول** عقيد محمـــد فرج م مطابع الدار القومية (مختارات الاذاعة والتليفزيون) العدد ٥٧ ·
٢٤ **المدخل الى علم النفس الجماعي** د شارل بلوندل ترجمة د حكمة هاشم م دار المعارف ·
٢٥ **المجتمع** ر·م ماكيفر ، شارلز بيج ترجمة د علي أحمد عيسى م النهضـــة المصرية ·
٢٦ **الكامل للمبرد** م الاستقامة ·
٢٧ **الفلسفة السياسية** محمد مفيد الشوباشي م دار الكشاف سنة ١٩٥٥ ·
٢٨ **القاموس المحيط** للفيروزابادى ·
٢٩ **الأمن العام** (المجلة العربية لعلوم الشرطة) العدد ٤١ أبريل سنة ١٩٦٨ ·
٣٠ **النظام الشيوعي** ماهر نسيم (سلسلة المكتبة الدولية) م دار المعارف ·
٣١ **الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة** عبد الفتـاح الديدى م الدار القوميـــة للطباعة والنشر ·
٣٢ **المنجد في اللغة والأدب والعلوم** الطبعة الثامنة عشرة المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان ·
٣٣ **بين الدين والحيـــاة** عبد المنعم النمـــر (سلسلة مختارات الاذاعة) م الدار القومية للطباعة والنشر ·
٣٤ **تاريخ الأدب العربي** دكتور شوقي ضيف م دار المعارف بمصر ·
٣٥ **تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى** ·

٣٦ **تفسير الكشاف للزمخشري** م المكتبة التجارية الكبرى الطبعة الثانية .
٣٧ **تفسير القاضي البيضاوي** م المطبعة العثمانية .
٣٨ **تفسير الطبرى** (جامع البيان عن تأويل القرآن) تحقيق محمود واحمد محمد شاكر م دار المعارف .
٣٩ **تفسير الحافظ بن كثير** (عمدة التفسير) م دار المعارف ، ومطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٣ هـ .
٤٠ **تفسير الامام الرازى** (مفاتيح الغيب) م المطبعة الخيرية بالجمالية سـنة ١٣٠٧ هـ .
٤١ **تفسير جزء عم للامام محمد عبده** (كتاب الشعب) م دار ومطابع الشعب .
٤٢ **تفسير سيد قطب** (فى ظلال القرآن) الطبعة الثالثة م دار احياء التراث العربى بيروت لبنان .
٤٣ **ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن** للرمانى والخطابى والجرجانى تحقيق محمد خلف الله أحمد ودكتور محمد زغلول سلام م دار المعارف .
٤٤ **جوامع السيرة لابن حزم** تحقيق احسان عباس ودكتور ناصر الأسـد م دار المعارف .
٤٥ **حديث الأربعاء** دكتور طه حسين م مصطفى الحلبى .
٤٦ **خزانة الادب للبغدادى** م مطبعة دار العصور .
٤٧ **دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجانى** تحقيق الامام محمد عبده والتركزى الشنقيطى م مكتبة القاهرة .
٤٨ **ديوان امرىء القيس** تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم م دار المعارف .
٤٩ **ديوان الهذليين للسكرى** م دار الكتب المصرية .
٥٠ **ديوان الحماسة لأبى تمام** (شرح التبريزى) تحقيق محمد سعيد الرافعى .
٥١ **دروس من القرآن الكريم** للامام محمد عبده تقديم طاهر الطناحى م دار الهـلال .
٥٢ **دراسات اسلامية** محمد عبد الرحمن الجديلي م منشورات المكتب التجارى ـ بيروت ـ لبنان .
٣٥ **رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى** تحقيق د . بنت الشاطىء م دار المعارف الطبعة الثالثة .

٥٤ **سيكولوجية الفكاهة والضحك** دكتور زكريا ابراهيم م دار مصر للطباعة .

٥٥ **سيرة النبي لأبي محمد عبد الملك بن هشام** مراجعة محمد محيي الدين م المكتبة التجارية .

٥٦ **صحيفة اخبار اليوم المصرية** بتاريخي ٢٩ يونية ، ١٣ يولية سنة ١٩٦٨ .

٥٧ **على هامش السيرة** دكتور طه حسين .

٥٨ **علم النفس الاجتماعي في الصناعة** أ . براون ترجمة د السيد محمد خيري وآخرين م دار المعارف .

٥٩ **علم النفس التربوي** آرثر جيتس ، ماكونل ، آرثر جيرسيلد ، روبرت س شالمان ترجمة مجموعة باشراف د القوصي م النهضة المصرية .

٦٠ **في الأدب الجاهلي** دكتور طه حسين م دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ .

٦١ **مناهج البحث في علم النفس** ت . ج . اندروز وجماعة ترجمة جماعة باشراف د يوسف مراد م دار المعارف .

٦٢ **مشكاة الأنوار للامام الغزالي** تحقيق دكتور أبو العلا عفيفي م الدار القومية للطباعة والنشر / ٦٤ .

٦٣ **مذاهب التفسير الاسلامي** جولد تسهر ترجمة د عبد الحليم النجـــــار م دار الكتب المصرية .

٦٤ **معاني القرآن لأبي زكريا الفراء** تحقيق احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار دار الكتب المصرية .

٦٥ **معالم التنزيل لأبي محمد البغوي** مطبعة المنار سنة ١٣٤٣ هـ .

٦٦ **من هدى القرآن** ١ ، ٢ (نظرات حديثة في التفسير) محمد عبد الرحمن الجديلي م المكتب التجاري بيروت .

٦٧ **مقدمة ابن خلدون** المطبعة الأميرية .

٦٨ **مجالس ثعلب لأبي العباس ثعلب** تحقيق عبد السلام هارون (سلسلة ذخائر العرب) م دار المعارف .

٦٩ **مدخل الى علم الاجتماع** دكتور عفيفي عبد الفتاح م الفجالة الجـــديدة طبعة ثانية .

٧٠ **نهج البلاغة للشريف الرضي** (من كلام علي بن ابي طالب) شرح الامام محمد عبده م دار مطابع الشعب .

٧١ **نفسية المجتمع** موريس جينز برج ترجمة عبد العزيز عبد الحق مراجعة محمود محمد مكتبة الانجلو المصرية (مشروع الألف كتاب) .

فهرس

تقديم ٣

السخرية ١١

السخرية والقرآن ـ ما السخرية ؟ ـ مصادر السخرية ـ الساخر

دواعي السخرية ٢٧

الأعداء العرب ـ المشركون ـ اليهود ـ النصارى ـ العداوة المزدوجة وامتدادها ـ المنافقون ـ الحرب الفكرية العقدية ـ الأعداء وآثارهم ـ الناحية المعنوية ـ اعداء المسلمين ـ العادات والتقاليد ـ الاصلاح الداخلي .

السخرية والحرب النفسية ٥٩

الحرب الاقتصادية ـ العقيدة ـ التأثير النفسي ـ الاضطهاد ـ السخرية ـ الدعاية

طابع سخرية القرآن ١٠١

التصوير ـ الايجاز ـ التسامي ـ الدعوة الى التفكير

السخرية والبيئة ١٣٩

الأرض وطبيعتها ـ حيوان البيئة ـ حياة البيئة

السخرية الاجتماعية ١٥٨

التمسك باتباع الآباء ـ العادات ـ الصلات الاجتماعية ـ الخلق الاجتماعي ـ التعاطف النفسي ـ التعاطف المعيشي ـ البخل ـ اكتناز المال ـ منع الخير ـ صقل المسلمين

السخرية والقيادات ١٩٦

موقف قادة الكفر من الاسلام ـ السخرية من استغلال المظهر ـ حقيقة القادة ـ حكم الله ـ موقف الأتباع

السخرية واليهـود ٢٣٨

العقيدة ـ الخلق ـ حب الذات ـ البخل ـ الغدر ـ العدوان ـ نواح عامة .

السخرية والمنافقون ٢٨٠

العقيدة ـ المنافقون والسخرية ـ صفات المنافقين ـ استشعار الريبة ـ الكذب ـ الاعتماد على المظهر ـ الجبن الشديد ـ السلوك النفعي

السـخرية والمشركون ٣٢٩

التقاليد ـ الناحية المعنوية

السخرية والهجاء ٣٧٢

الشعبية في سخرية القـرآن ٣٩٨

سخرية القرآن والتحليل النفسي ٤١٦

سـخرية القرآن ووحي الألفاظ ٤٢٩

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٤٩٣٩
ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٦٣١ ١